جرجيس فتح الله

نظرات
في
القومية العربية مدًا وجزرًا
حتى العام ١٩٧٠

تاريخًا وتحليلاً

أضواء
على القضية الآشورية
(منهج آب ١٩٣٣)

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق
ص.ب رقم: ١
www.araspublisher.com

الجزء الاول

مخاض عسير

اسم الكتاب: نظارات في القومية العربية مداً وجزراً حى العام ١٩٧٠ تاريخاً وتحليلاً - أضواء على القضية الآشورية (مذابح آب ١٩٣٣)
الجزء الأول: مخاض عسير
تأليف: جرجيس فتح الله
من منشورات ئاراس رقم: ٢٦٤
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
التنضيد: نسار عبدالله
التصحيح: عبدالرزاق عبدالله - شاخوان كركوكي
الغلاف: آراس أكرم
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الأولى: اربيل - ٢٠٠٤
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٤/٢٠١

المدخل

يؤثر عن ونستون تشرتشل ذلك السياسي العظيم والمؤلف البارع قوله في تأليف كتاب:

«تأليف كتاب هو المغامرة بعينها، أول الأمر يبدو فهو أشبه بمسلاة أو ملهاة ثم ينقلب الى معشوقة ثم يتحول الى سيّد متحكم ليغدو بالأخير طاغية لايرحم».

ومع اني مررت بهذه المراحل كافةً، إلاّ اني جوبهت في آخر الأمر – وعندما بدأ تسجيله بالحاسوب – بغير المتوقع ربما لم أكن أجرأ على التفكير حتى باحتمال وقوعه. وتلك محاولة غباء وعناد جنوني لمن خيل له انه بإمكانه التحكم في نشر الكتاب أو عدم نشره حين هيّأت له الأقدار حظاً في قول ما لايحق له أو املاء شروط غريبة من منطلقه الفكري المضحك وهو ما سأعرض له بالتفصيل في الصفحات التالية ومرت مرحلة كدت أفقد آخر أمل في طبعه.

المراحل التي عرضها تشرتشل في مقولته، مررت بها كافة طوال ما يزيد عن ربع قرن وانا في طور التهيئة. لاسيما عندما قَرّ قراري على جعل الترجمة الكاملة لكتاب [مأساة الآشوريين] للمقدم والمفتش الاداري [رونالد سيمپل ستافورد] جزءً من هذا الكتاب. لأنه سيبقى مرجعاً لايستغنى عنه لتفسير أحداث هامة من تاريخ العراق غطيت أو رمجت عمداً حميةً واستكباراً أو لخدمة سمعة سيئة أو لفضح جناية الخ... لخدمة التاريخ أو لعهد من عهوده، فآضت الحقائق فيها مطموسة او مشوهة او مزورة او مجهولة.

في مبدء الأمر كان القصد من ترجمة كتاب [ستافورد] الذي نوهت به – طبعه منفرداً أسوةً بالتراجم الأخرى التي اصدرتها في أوقات متباعدة. وكان الكتاب الأصل نادراً تقريباً ولا وجود له الا في المكتبات العامة العالمية الكبرى. لكن حسن حظي يشاء ان احظى بنسخة وتلك من غرائب الصدف في مكان غير متوقع، وبعد أن خرجت طبعته الأولى في العام ١٩٣٥ حظيت بها بعد أكثر من ثلاثين عاماً. وكانت الحكومات العراقية المتعاقبة قد منعت

دخوله العراق.

أجل وجدته وانا في السجن بين كتب أخرى وكان في مكتبتي الخاصة. كان بيتي قريباً من السجن وكانت شقيقتي تبعث مع حارس امين لقاء مبلغ بسيط ما أحتاجه من كتب وقراطيس. وقمت بجلبه مع عدة كتب أخرى وجدت طريقها فيما بعد الى المطبعة واعيد طبع بعضها أكثر من مرة. ومن بينها كتاب [كرد وترك وعرب] لمؤلفه [سيِ. جيْ. إدموندز] وكتاب [طريق في كردستان] لمؤلفه [أ. م. هاملتون] وكتاب [مهد البشرية] لمؤلفه [الكانون ويگرام] وغيرها.

وأذكر الآن بوضوح وانا أكتب هذه المقدمة ما كان يخالجني من أحاسيس بالضبط اثناء الترجمة. فقد صارت تهاجمني مناظر ومشاهد وتتوالى على ذهني خواطرٍ محفورة حفراً فتوقفني عن الاسترسال في الترجمة حيناً لأعود كاللاهث العدّاء بعد شوط لالتقط انفاسي وامضي في عملي مجدداً غير شاعر بالهزات العاطفية التي علقت بكيان صبيّ السنوات العشر وأبت مفارقته وهو في خريف العمر بل شتائه. كنت واحداً من النظارة الذين شاهدوا بأعينهم وقرأوا من فصول الكتاب أحداث العام ١٩٣٣ المفجعة التي نعتها الاعلام الغربي بمذابح الآشوريين. ونعتتها الكتب الرسمية العراقية والصحافة المحلية بـ(تأديب الآشوريين).

كنت قد تركت المنزل عصر ذلك اليوم قاصداً دكان خياطة خالي (ي) وموقعه في ركن الشارع المعروف في حينه باسم شارع الأمير غازي، من الناحية المؤدية الى الجسر الحديد. وهذا الشارع هو آنذاك اوسع الشوارع لكنه أقصرها.

شاهدت الجموع تتراكض نحوه وبعضهم يتنادى «الجيش قادم». كان قد تقرر دخول الجيش المنتصر بهيئة مسيرة استعراضيّة وان يستقبل استقبالاً شعبيّاً رسمياً وقد هيئت له اقواس النصر.

ما ان بلغتُ أو كدت – دكان الخال وبيني وبينها امتار قليلة على الرصيف المقابل حتى سمّرني في مكاني سَدّ من الاجسام المتزاحمة على موضع مشرف أسهل للرؤية. كانت الأجسام تتدافع وتتزاحم بالمناكب وخبط الأرجل والاستباق الى الصفوف الامامية وقد فاز بموقع منها كاتب السطور بفضل ضآلة جسمه بدون شك.

وسمعت مع الحشد طبول المسيرة تقرع وانفارها تصدح متدانية مشيرة الى اقتراب الوحدات العسكرية. وأذكر مما اجتذب نظري في حينه اقواس النصر المتعاقبة المنصوبة فوق الشارع ومرور باصرتيّ على مدونات الرقاع واللافتات ترحيباً بعودة الجيش منصوراً وتنديداً بالخونة المارقين.

... في حينه أشكل عليّ تفسير الحكمة في وضع اعداد من البطيخ الاحمر (الرقي) مدلاة بحبال وخيوط من تلك الاقواس وقد غاب في أحشاء كل واحدة نصل خنجر أو سكين. ثم علمت فيما بعد وبنتيجة طول تقصّ انها كانت ترمز الى رؤوس العصاة التي تمّ احتزازها عند سحق التمرد. وكانت حينذاك تنز منها قطرات حمراء ترمز الى دمهم. هاهوذا الجيش يعود ظافراً بعد انجاز واجبه الوطني.

وبقيت زمناً أتساءل عمّن يكون هؤلاء ومن أين جاؤا وما الذي دعا الحكومة الى تجريد الجيش عليهم ومنازلتهم. وتبيّن لي بمدى معرفتي السطحية بخفايا الأمور أنا الفتى الموصلي أن ثم صنفين من هؤلاء: صنف ينتمي اليه الليفي الآشوري الذين استخدمتهم سلطات الانتداب البريطانية وصنف آخر لا علاقة له بهؤلاء.

كنت أشاهد الجنود من الصف الأول يسيرون ثلاثاً ورباعاً أو أكثر بخطوات عسكرية منتظمة تجتذب أنظار المارة قبعاتهم الكبيرة المزدانة بريشة حمراء أو بيضاء، وأرى بعضهم أحياناً في الكنيسة التي أغشاها مستغرقين في صلاتهم بخشوع ووقار أو أجدهم يستبضعون في أسواق (سراي) المدينة غير ملقين بالاً على أحد، ودون أي احتفال بنظرات الفضول أو الكراهة وبسراويلهم النظيفة الأنيقة المكواة.

والصنف الآخر من هؤلاء الآشوريين. وهم جزء من الطبقة الكادحة في المدينة يعمل دؤوباً من الصبح الباكر حتى مغيب الشمس لتأمين لقمة العيش في شتى صناعات المدينة التي لاتتطلب مهارة مخصوصة كالنقل والحمل والتنظيف وكنس الشوارع، يكدون ويكدحون توفيراً وتأميناً لمعقد دراسة لأبنائهم، وهم يسكنون في أحقر البيوت والخانات العثمانية المتقوضة المهجورة بغرفها الشبيهة بالمغاور أحياناً بأجور زهيدة جداً وأحياناً حسبة لوجه الله.

هؤلاء هم نفاية القبائل الآشورية التي جارت عليها كارثة الحرب العظمى الأولى (١٩١٤-١٩١٨) فدفعت بما تبقى منهم الى دولة العراق الجديدة بعد سلسلة من الكوارث والرزايا التي ادّخرها القدر لهم وبعضها من صنعهم وجلها من جور وظلم ألحقه بهم اعداؤهم.

... أخذت قرعات الطبول واصداء الابواق تعلو بالتدريج معلنة دنو القطعات العسكرية. ثم ظهر رأس جوق الموسيقى يتقدمه قائده ملوحاً بصولجانه يهزّه الى اليمين ثم يدفع به الى اليسار ثم يقذف به الى أعلى ويستقبل عودته بحركة رشيقة. وفشلت الموسيقى الصاخبة التي تصدر من الجوق في تغطية الهتافات والتصفيق الصادرين من النظارة على الرصيفين. ثم بدا ضابط بلحية كبيرة مسترسلة فوق صهوة حصان اشهب وصاح صائح من بين الجمهور «يحيا

البطل الغيور الحاج رمضان» ورددت مئات الاصوات الهتاف. وبدا الراكب الذي عين بالبطل سادراً ساهماً ولم يظهر أثراً لانطباع معين وهو يسمع الهتاف باسمه يشق عنان السماء.

عرفت في هذا القائد الزعيم (العميد) الحاج رمضان علي قائد موقع (الديره بون) كان موصلياً ومن ضباط الجيش العثماني العائدين بعد الحرب.

كان الوالد يلم إلماماً جيداً باللغة التي يتكلمها هؤلاء وهي لهجة من اللهجات السريانية وتدعى عندهم بالاسم العام (السورث) ونحن نسمع رطانة منها عند تلاوة الفرائض الدينية في الكنيسة نسمعها وأحياناً نردد مقاطع منها دون ان نفهم شيئاً.

كانت مدرستنا طائفية النجاد تدار بطاقم معلمين مسيحيين وتخضع في مناهجها وطرق ادارتها لوزارة المعارف في بغداد ويتلقى المعلمون رواتبهم من الحكومة. وحصل ذات مرة وانا في الصف الخامس الابتدائي تغيير مفاجيء على الروتين الدراسي فقد وزعت علينا كتب تعليم للغة السريانية وأعلن معلم الدين وهو قسّ بأننا سنتلقى ساعتين في دراستها اسبوعياً، وأذكر ان شعوري الشخصي كان يختلف عن تذمر بقية رفاقي من اضافة مادة جديدة على المنهاج. كان مزيجاً من الشوق والرهبة لدخولي حريم لغةٍ جديدة أخرى غير الانگليزية التي بدأنا بها. والغضب من زيادة مادة دراسية جديدة الى منهاج محتشد بالمعارف والمعلومات التي تبين فيما بعد انه لم تراع فيها العقلية شبه الطفولية لابن الحادية أو الثانية عشرة، ولا القابليات الاستيعابية له. فمع استقلال المدرسة جزئياً عن الادارة الحكومية الاّ ان مدارسنا الطائفية كانت خاضعة تماماً لنظام التعليم الوزاري ابتداء من المناهج وانتهاء بالامتحانات الحكومية العامة.

... لم نتلق من دروس بالسريانية غير درسين وسحبت الكتب منا وأعلن معلمنا ان المادة لم تعد ضمن المنهج. وعلمت بعد سنين ان ذلك كان بسبب ضمّ المدارس الطائفية كافة الى وزارة المعارف (التربية والتعليم) ووضع اليد كاملةً عليها ابتداء من المناهج وانتهاء بالتعيينات. ففي السنة التالية وجدنا (مسلماً) يدرس التاريخ لنا. كان ذلك نوعاً من مفاجأة لكن لا أذكر انها أحدثت برقاً رعّاداً أكثر من تبادل همسات أو تساؤلات بين طلاب أحداث مثلنا ولا تعليقاً سوى على مظهر المعلم وطريقة تدريسه. وجاءت هذه المتغيرات متزامنة مع نهاية عهد الانتداب ودخول العراق عضواً في عصبة الأمم، دولة مستقلة تامة السيادة. وهذه الاجراءات بطبيعة الحال كانت تأتلف وسياسة الوزارة وتندرج في محاولة القضاء على النعرات الطائفية والعرقية والمذهبيّة والدينية وخلق بنية اجتماعية قوامها شعب عراقي لايتقدم شعوره بولاء

لتربة الوطن اي شعورٍ آخر. محاولة لبناء شعب جديد بصورة ما.

... تلك الساعات التي كنت فيها مستمتعاً برؤية الفصائل العسكرية تتعاقب بسير منتظم وخطوات متوازنة مع قرعات الطبول لم اجد في ذهني اي فكرة عن خطر يحدق بي وأنا بين صبيان مثلي استدرجهم الاستعراض كما استدرجني. وهم مثلي يحاولون فهم ما ترمز اليه وتتوجه الهتافات المنطلقة من الحناجر بين آونةٍ وأخرى. ضارباً عرض الحائط كل ما اسمعنيه الوالد من عبارات تحذير ومما يحتمل التعرض له من الأذى.

وفي ذلك اليوم القائظ ايضاً ما كان ابن العاشرة هذا يدري انه وربما في موضع من المدينة قريب جداً ضابط بريطاني بوظيفة مفتش اداري يعيش ساعات فاصلة من حياته حاول خلالها ايقاف المذابح بعد ان اعياه الحَلّ السلمي. لم يكن يخطر ببال هذا الصبيّ انه وفي يوم من الأيام سيكون ناقلاً للرواية المأساوية التي سجلها هذا الموظف البريطاني الى العراقيين بعد أكثر من ثلاثين عاماً رغم ان المحذور من نشره بلغته الاصلية أو ترجمة له بقي قائماً وماثلاً امام كلّ متقدم اليه ليغدو عمله من الكتب النادرة والمراجع الخطيرة التي يبحث عنها الكتاب في رفوف المكتبات الخاصة وخزائن الكتب العامة وكثيراً ما يخطئهم النجاح[1]. وأغلبهم ذوو صبرٍ قصير على مشقة البحث العلمي واللحاق وراء المصادر والمراجع.

بقي هذا الكتاب واحداً من الشهادات غير المطعون في حيادها. شهادة على جريمة دولية ارتكبتها حكومة باسم القومية العربية بحق مواطني قومية أخرى واستخدم لها الجيش العراقي الحديث التأليف بضباطه الذين نشأوا في بيئة تركية ودرسوا في المعاهد العسكرية التركية وخدموا في الوحدات التركية الى جانب تلاميذ لهم من الطبقة العسكرية الجديدة خريجي

(١) في العام ١٩٩٩ أصدر [مركز الموسوعات العالمية] بلندن كتاباً للمؤلف العراقي [عبدالمجيد القيسي] عنوانه [الآثوريون: هوامش على تاريخ العراق السياسيّ الحديث] كان فيه منصفاً وحيادياً. فضلاً عن تمكنه من اللغة العربية وحسن ادائه. لكنه ومع الأسف الشديد لم يحاول الوصول الى كتاب (ستافورد) هذا وهو أهم مرجع لكتابه على الاطلاق. وقد اعتذر عن هذا بصعوبة الحصول عليه وبهذه العبارة التي لا أظننا نقبلها منه قال حفظه الله:

«ويجري مجرى كتاب المستر لونگريك كتاب آخر كتبه بريطاني كان في قلب الاحداث فشاهدها شهادة عيان و شارك فيها بنفسه – هو مستر ستافورد الذي كان وقتذاك المفتش الاداري للواء الموصل فاتاح له موقفه هذا العلم والاطلاع المباشرين وقد منع دخول هذا الكتاب الى العراق منذ أول صدوره عام ١٩٣٦ (بل ١٩٣٥ بالأحرى) ولم نستطع مع الأسف العثور على نسخة منه خارج العراق، لكننا من مطالعة ردود الفعل العراقية عنه نستطيع ان نتبين انه خرج عن الرأي الرسمي في نكران الحوادث أو في تبرئة الجيش منها على الأقل». نقول اننا لانوافق صاحب المقولة على هذا فللكتاب وجود في أغلب مكتبات العالم الغربي العامة. وقد حصلت عليه مؤخراً من شبكة الإنترنت.

المدرسة العسكرية العراقية الذين تلقوا ميراث الكره لهؤلاء الآشوريين منذ ايام الحرب العالمية الأولى. واعتبروهم خونةً عندما آثر هؤلاء جانب الحلفاء.

في تلك الآونة كان يقود هذه القطعات العراقية ضابط غير عربي ارومةً قدر له ان يبني شهرةً واسماً بسبب المذبحة التي بيتها لآثوريين عزّل في قرية سميل. وأن يخرج منها باوسمة وترقيات خيالية واستقبالات مهيبة.

ارتفعت مكانة هذا الضابط بفضل هذه الحركة «التأديبية» وبفضل حركة تأديبية أخرى في الفرات الأوسط لاتقل عن الأولى بشاعةً. هذا الضابط كان يقف وراءه ويشجعه ويحتث خطاه سياسي مغامر وقومي زائف يدعى (رشيد عالي) المنتسب الى الاسرة الگيلانية سعياً وراء رئاسة الحكومة ويدفعه الى إعلانه دكتاتورية عسكرية هي الأولى من نوعها في العالم الناطق بالعربية سياسي مغامر آخر نقم على من حال دونه ودون ما يبتغيه، فضلاً عن بعض المثقفين الاصلاحيين الذين ابى قصر نظرهم وقلة اصطبارهم ويأسهم من الاصلاح بالتدرج الديمقراطي الى الاعتقاد بان ذلك غير ممكن الا بتدخل الجيش وانتدب لذلك القائد بطل مذابح الشمال والجنوب (بكر صدقي) لتحقيق اوّل انقلاب عسكري في الدول الناطقة بالعربية مالبث ان أصبح نموذجاً يحتذيه ضباط عراقيون بعده، الى جانب صيرورته اسلوب تغيير سياسي اعتيادي Modus Operandi في بلدان عدة عربية النجاد: مصر، سورية، الاردن، ليبيا، اليمن.

أولدت سياسة استخدام الجيش في قمع الانتفاضات العشائرية – في نفوس الضباط اعتزازاً وشعورهم باهميتهم وبصعوبة استغناء الساسة والمغامرين السياسيين عنهم. ولذلك وجدنا المصلحة المتبادلة تقضي بالعناية الخاصة بالجيش ورصد معظم ميزانية الدولة لترقيته واستحدثت مدرستان عسكريتان للاركان وللطيران. وفتحت الكلية العسكرية ابوابها لمن استهوته بزة الضباط المقصبة ونياشينها ورتبها ولم يشترط لها التخرج في الصف الثانوي[2].

عندما سقط قائد الانقلاب الأول مضرجاً بدمائه بانقلاب عسكري ثانٍ وعلى بعد مائتي متر تقريباً من المنصة التي وقف عليها في العام ١٩٣٣ عن يمين الأمير غازي مع رئيس الوزراء رشيد عالي يتلقى تحية الاستعراض من قطعات الجيش الظافر، كانت قد مرت سنوات اربع على المذبحة. ولا اذكر اني وقد بلغت سن الادراك ان مصرع هذا العسكري أحدث اي هزّة أو

(٢) نقص صفنا الى النصف في أوائل العام ١٩٣٩ بقبول النصف الثاني في الكلية العسكرية ببغداد.

أثر في نفوس الموصليين ومَرَّ اليوم بصورة اعتيادية كأمسه لا في مدينة الموصل وحدها بل انحاء العراق كافةً ولم يشعر أحدٌ بتغيير طرء على حياة الفرد أو المجتمع خلال فترة حكمه القصيرة(٣).

توالت الانقلابات العسكرية في العراق وتداخلت واحدها بالآخر بسرعة تنامي وعيي السياسي وشوقي الى استقراء الاحداث والتأمل فيها بمقدار صلتها بالماضي لاسيما خلال تلك السنوات التي بدأ اهتمامي يتزايد في متابعة الاحداث التي تمرّ بوطني والبلاد الجارة، ومع الاهتمام هذا كان هناك استعداد تلقائي لعوامل متعددة يصعب هنا حصرها واولها وأعظمها شأناً السنوات الاربع التي قضيتها في دراسة القانون واحتكاكي المتواصل بالصراعات العقائدية والفكرية التي كانت تستولي على العقول وتستحوذ كل انتباه فقد انضويت الى الكلية في ١٩٣٩ اي في بداية الحرب العالمية وانهيت دراستي والحرب تكاد تضع اوزارها وهي لا ابالك فترة ثمينة جداً لمن تطلع نهمه الى دراسة التاريخ بمختلف الكتب التي تقع بيده وانكبابي اليه بشكل يزيد على انصرافي لدراسة كتب القانون وصرفت وقتاً ملياً بدراسة ومتابعة مشاكل الوطن العربي وفي مقدمتها مشكلة غزو الشعب الفلسطيني والتآمر على سلب معظم ارضه وبكل ما كتب حول اندحار الدول العربية عسكرياً في العام ١٩٤٨ الذي أدى الى اضافة علم جديد لدولة جديدة – الى اعلام الدول العضوة في الامم المتحدة فقد وجدت هذه الدولة الحديثة طريقها معبداً الى الامم المتحدة. يقابل ذلك غياب العلم الفلسطيني حتى هذه الساعة وما تبع ذلك من مؤامرات وأعمال لا اخلاقية وحيل مخجلة. فهي كثيراً ما تستخدم ذريعة لقلب الحكومات بحجة التخاذل والخيانة ثم وفي أواخر الخمسينات عندما انطلق نداء الوحدة العربية بين الجمهور الناطق بالعربية، بلغت المزايدات في سوق العروبة حدّها الأعلى وغايتها القصوى وتوجت بالتآمر الدموي والوثوب الى الحكم من فوق ابراج الدبابات والقاء الصواريخ والقنابل من الطائرات صرت اراجع حيث كنت سجيناً وحيث كنت طليقاً كم من أمثالي طحنته رحى الصراع الفكري وقذفت الاحقاد بقاياه في اتون التعصب الديني عندما وجد دعاة القومية العربية في الدين الاسلامي سنداً لترويج دعواهم.

(٣) التغير الوحيد الذي علق بذهني من آثار الانقلاب العسكري هو ان مدير متوسطتنا [الشرقية] قال في اثناء اجتماع الخميس (تحية العلم) ان الحكومة اباحت ارتداء ما يحلو للمرء ارتداؤه من غطاء للرأس. وأذكر ان القبعات والطاقية (البيرية) الفرنسية بدأت تظهر في الأسواق وعلى رؤوس من لايخشى النقد والتعليق. والمسألة هو ان بكر صدقي كان يقلد اتاتورك في تركيا الذي ارغم الاتراك على ترك الطربوش الأحمر.

إن المذبحة التي أقدم عليها الجيش العراقي في (سميل) و(جبل بيخير) كما سيرى القاريء كانت بمثابة تجاوبٍ للشعور القومي الذي ساد جوّ العراق وشجعته بلا حدود تلك الوزارة التي افتخرت بلقب الوزارة القومية وعرفت به. ولا عجب أن كان منفذ تلك المذبحة يحظى بموافقة وبركة تلك الوزارة. إن جوّ الرعب والفزع الذي ران على نفوس مسيحيي البلاد والضجّة العالمية التي خلفتها المذبحة كانت قد ارتكبت مع الأسف الشديد باسم القومية العربية وقد شحنت الأغلبيّة مسبقاً واعدت اعداداً درامياً لاعتبارها عملاً وطنياً يستحق مقترفه الشكر لا العقاب.

لم يكن مثار دهشة والحالة هذه أن تسمو الرتب وتصعد الشهرة بمنفذها ومهندسها الى حَدّ ايمان الطبقة المثقفة به فضلاً عن القوميين بأنّه يستطيع انقاذ البلاد من حكم سيء كريه، ففعل واقدم على اقامة اوّل دكتاتورية عسكرية في العراق. وهي كذلك اول دكتاتورية عسكرية في الدول الناطقة بالعربية، كان ذلك بعد مرور أربع سنوات فقط على قيام مذبحة (سميل – بيخير) وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ فتعاقب الاحداث وتسلسلها اللامنطقي أدّيا الى انقلابات عسكرية متوالية وصلت بالبلاد بعد سبع سنوات الى شفير هاوية بقيام رئيس الحكومة وزمرته من ضباط الجيش بدفع العراق الى المشاركة التي لم تمتد لحسن الحظ زمناً – في الحرب العالمية الثانية. كان رشيد عالي الگيلاني رئيساً للحكومة التي عرفت بالحكومة القومية في العام ١٩٣٣ وهو يتقاسم مسؤولية المذبحة مع قائد المنطقة العسكرية بكر صدقي.

هذا وغيره حفزني من جهةٍ على التفكير الجدّي بكتابة تاريخ لنشوء فكرة القومية متتبعاً مراحلها ومقتفياً آثار صعودها وخفضها. تاريخ عارٍ تماماً عن مستحضرات التجميل الحديثة من مساحيق ومراهم وعمليات تدليك، تلك التي اعتادها المؤرخون عندنا، وكنت وأنا في صدد الاعداد والبحث وكتابة الملاحظات أشعر طوال الوقت بالرابطة بين مشروعي هذا وبين اعدادي كتاب (ستافورد) للنشر بكل التعليقات والملاحق والذيول التي كادت تكون سفراً ضخماً بحدّ ذاتها. لم تكن تبارح ذهني الرابطة العضوية والصلة الوثيقة بين العملين فقد كانت الصدفة وحدها التي قررت الجمع بين الأثرين واخراجهما بكتاب واحد على ان يكون كتاب «مأساة الآشوريين» والتعليقات والوثائق جزءً أو ملحقاً بالكتاب الأصلي الذي تصادف البدء فيه في العام ١٩٦٧ وهو عام انتهائي من ترجمة كتاب ستافورد. وعام نزول اعظم هزيمة بالقوى القومية التي تزعمها جمال عبدالناصر، وأقصد بها حرب الايام الستة وفيها حققت دولة صغيرة بجيش صغير النصر الكامل على سبعة جيوش أو ثمانية لدول عربيّة مشاركة.

من هذه النقطة بدا لي وكأن جامعاً تاريخياً يدعوني الى ضمّ مشروعي القومي كعملٍ رئيس بالترجمة وملحقاتها وعلى هذا الأساس كانت حلقة الصلة. فالمذبحة الآشورية كانت أولى الأحداث الجسام التي مرت بها ركائب القومية العربية في الشرق الأدنى أثيرت النعرة الدموية باسم القومية وتولى تأريث نارها وزيادة وقيدها وآيته البغضاء والحقد زعماء قوميون معظمهم جاؤونا بمثابة رسل ثقافة من بلاد شقيقة فضلاً عن خميرتهم العراقية حصيلة ارحام الوطن.

كل ذلك ارتبط ارتباطاً لا انفصام له بالطبقة العسكرية الجديدة صاحبة الانقلابات وكثيراً ما ادعى الانقلابيون بانهم انما يعملون من أجل رفع شأن القومية العربية المنتهكة الحرمات.

ويشاء منعطف من منعطفات التاريخ الحاد أن تلتقي القومية العربية ودهاقنتها بالحركتين القوميتين الالمانية التي يتزعمها الحزب النازي والايطالية التي يقودها حزب الفاشيست فيفتتن العروبيون أو القادة القوميون بما حققته هاتان الحركتان من تقدم ورفاء اقتصادي وعسكري وما انجزته على صعيد التحدي السياسي لتبدو القومية العربية ودعاتها وكأنهما لقيا تفسيرها الايديولوجي المشوش الغامض الذي يستند على الخطب والانفجارات العاطفية ليس الا. ها هي الآن تجد الإطار الصالح لحصر مفاهيمها بوضوحٍ تام وطرحها للعموم بعيدةً عن الغموض. بل مع تبنيها عقيدة البندقية والخوذة والحذاء العسكري (البسطال: بالعامية). لست اريد المضي في هذا والاسترسال بما سيكون مشروحاً في صلب الكتاب مع كيفية جرّ تلك المفاهيم ايضاً الى صراع دموي بين القوميين انفسهم داخلي وخارجي ثم كيف كان يجرّ مع ذيوله الحمراء اضطهاداً دينياً وعنصرياً مقنعاً أو مكشوفاً للاقليات العنصرية والدينية في داخلية تلك البلاد التي تدعي أحياناً بأصول عربية خالصة ولاتجهل للغة العرب وجوداً تاريخياً.

... اذكر وأنا عائد الى دارنا بعد أن مرّ آخر بغلٍ من سرّية الشغل التي ختمت بها السرّية، اذكر انني سمعت اطلاقات عن أسلحة نارية، كما سمعت من العائدين مثلي تعليقات مهددة متوعدة ودبّ الخوف في أوصالي. وأشعرت وكأن جبيني يحترق بكتابة نارية سطرها إله الانتقام تفضح عنصري وديانتي فغذذت السير وأخذت بطرقٍ فرعية جانبية حتى بلغت المنزل فاذا بالجميع يرتقبون اوبتي وايديهم على قلوبهم كما يقولون. لم تنقطع اصداء العيارات النارية طوال الليل. وفي صباح اليوم الباكر كان موعد حلاقة رأسي عند (الأسطى حسن) فأخذني اليه الوالد وسمعته يقول له: يا أخي أنتم في ذمامنا ولن يحصل لكم أي سوء، اننا

نقطع يد الذي يهم بالاعتداء عليكم. نحن بصدد هؤلاء الغرباء الذين يريدون ان يشاركونا خبزنا ومدار عيشنا ويقتلون أبناءنا...

كان هذا جانباً مما حفظته الذاكرة لتلك الأيام، مَرّ كثيراً في خاطري كلما عرض لي في الحياة شيء يمت اليه. مَرّ في خاطري وأنا أفكر في احتمال ظروف مواتية لنشر الترجمة مع الكتاب الذي قطعت في كتابته شوطاً ومضيت به في طريق اللاعودة عندما صحبت الجميع معي في العام ١٩٦٨ فضلاً عن عدد كبير من دفاتر ملحوظاتي وبعض المراجع عند التحاقي بالثورة الكردية، اثر اطلاق سراحي.

في هذه المرحلة كان كتابي اشبه بمعشوقة لي على حَدّ قول مستر تشرتشل ولم يعد هناك مجال لرجعة الى الوراء أو لفصلٍ بين الكتابين الاثنين لاسيما بعد استعارةٍ في وقتٍ لاحق مجموعة الوثائق المتعلقة بتلك الفترة من اركيفات عصبة الأمم في جنيف وعندما بدأت بشكل منظم «اصطاد» تلك المراجع الأجنبية التي لم تتناولها ايدي المؤرخين العرب أو التي تجاهلوها وفي الكثير منها ما يلقي أضواء ساطعة على ما ظل يبدو بقعاً داكنة تستدق على الرؤية في كتب المؤلفين العرب المتأخرين، سيجدها القاريء بالشكل الذي يختلف عما ارادنا معظمهم ان نفهمه.

ترى هل سينجح كتابي هذا في إقناع القراء بأن كثيراً مما حُملوا حملاً على قراءته يخالف الحقيقة ولايقدم صورة صحيحة على ما حصل بالضبط؟ كيف سأستطيع وبايّ مقدار سيواتيني الحظ لأكسب ثقة قرائي والايمان بصحة مصادري وبان ما اعتادوا أو بالأحرى درّبوا على قراءته يرمي بالأصل الى اعطاء صورة مزيفة؟

... في تلك المسيرة العسكرية كانت القطعات المستعرضة بأمرة (الحاج رمضان علي) وهي من جملة التعزيزات التي أرسلت دعماً للقائد آمر المنطقة الشمالية (بكر صدقي شوقي) وهو الذي استأثر بكل الثناء والمديح. لم تطنب الصحف البغدادية بالوقفة الصامدة لهجوم الآشوريين في الديربون باعتبارها من مآثر الحاج رمضان وانما عزتها لبكر صدقي الذي «لقن الآشوريين المستكبرين الدرس الذي يستحقونه». وبتقدم العمر حاولت عبثاً ان أجد (للحاج رمضان علي) دوراً أو نشاطاً في الحقل القومي أو غيره. فقد سطع نجمه كلمح البصر ثم اختفى عن كل المشاهد الاحتفالية التي عقبت ذلك[٤] وتمرّ السنون سراعاً، فاذا بي واحد من

(٤) كان برتبة رائد في الجيش العثماني وهو موصليّ. التحق بالجيش العراقي ثم احيل الى التقاعد في العام ١٩٣٤. بدأ كرهه للبريطانيين متجلياً في قتله برصاص مسدسه خبير الحدود سليمان نجم بزعم انه جاسوس انگليزي (انظر مأساة الآشوريين).

مئات من طلبة الصف الثالث المتوسط يحمل بندقيةً ويتلقى تدريباً ويجري استعراضاً مماثلاً مع رفاق له. فقد حكم مهووس بما حققته النازية من التربية العسكرية للاحداث الذين وصلوا أو كادوا سنّ البلوغ بسنّ النظام الذي عرف بنظام الفتوة[٥] تشبهاً بذوي القمصان السود الفاشيست وبذوي القمصان الرمادية للشباب النازي.

اعتاد الموصليون قديماً الاشارة الى تاريخ الحوادث الشهيرة التي تمر بها بلدتهم بالأوصاف لا بالسنين. لم تمرّ بضع سنوات حتى نسي العام ١٩٣٣ فصار يشار الى ما حدث بعبارة «دقة الآثوريين» والقاف عادة تلفظ بالكاف المعجمة. فكانت هناك مثلاً دگة (دقة) النسوان عندما ثارت المدينة بسبب صدور قانون تسجيل النفوس في أواخر القرن التاسع عشر ابطلت تسجيل الاناث باعتباره عملاً منافياً لأحكام الشريعة فكانت الوحيدة في مدن الامبراطورية العثمانية التي ابت ادراج اسماء اناثها في قيود النفوس!

وكان ثم مظاهرة مسلحة كادت تؤدي الى معركة دموية. تلك (دگة) أخرى عندما خرج الموصليون بأسلحتهم ليمنعوا ارتفاع بنايات الآباء الدومنيكان بحجة انها تطل على بيوت المسلمين. كان ذلك في العقد السابع من القرن التاسع عشر ووقع عدد من القتلى والجرحى وكان ثم مجالس عسكرية عرفية ومحاكمات.

قلتُ أنجزت ترجمة كتاب (ستافورد) في ١٩٦٨ مع ما تيسر لي من تعليقات عليه. وأعدته الى المنزل وبيني وبين الحياة ما لااجرأ على تقديره أو تحديده من زمن[٦] فكيف

(٥) راجع الحديث عنها في الكتاب والملحق (نص النظام) حكم على الطلاب جميعاً اناثاً وذكوراً لبس الخاكي في المدرسة. وفرض على الصفين الثالث المتوسط والخامس الثانوي تدريباً عسكرياً ساعات معينة في الاسبوع بالبندقية وتحت تدريب وإشراف ضباط صف وضباط عسكريين فضلاً عن مناهجهم الدراسية. وفرض الحرمان من سنة دراسية على المتخلفين وفي الصفوف وضعت صورة سامي شوكت مدير المعارف العام بوصفه صاحب الفكرة الجبارة ومبدعها الى جانب لوحة خط عليها الحديث «النبوي المشكوك في صحته»: «اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم». والزم النظام المذكور المعلمين والمعلمات بارتداء الخاكي ووضع لهم رتباً بحسب درجاتهم ورواتبهم وتتألف من شرائط ذهبية مقصبة على الكتف شبيهة تماماً بشرائط رئيس ضباط الليڤي الآشوري كلاهما مثبت على الكتفين. لادري اذا كان هذا محض مصادفة أو تعمد. ففي ١٩٣٨ كان الليڤي الآثوري كثير الرؤية في الموصل، وأذكر اني رأيت صدفةً مدرس الجغرافية في مدرستنا (يعقوب الاخضر) يمر بثيابه العسكرية ونطاقه وبشرائط ذهبية أربعة على عاتقيه ليتلقى تحية عسكرية من جنود الليڤي وقد حسبوه ضابطاً من ضباطهم وقد ضحكت في حينه عندما تبينت مقدار الخجل والارتباك الذي عرا مدرسي الذي راح يلتفت يمنة ويسرة حائراً ليتأكد بانه المقصود أو ثم أحد آخر غيرهم.

(٦) في العام ١٩٦٣ وبانقلاب شباط أوقفتُ وأصدر المجلس العسكري العرفي الثالث في الموصل بحقيّ حكماً بالموت وفق المواد ٣١ و٨٠ و٢١٤ من قانون العقوبات البغدادي والمادة الحادية عشرة من مرسوم =

بتصور طباعته؟

كنتُ قد دونت صفحات عديدة من الكتاب الأساس. فقمت بمراجعتها وتصنيفها فصولاً أولى وحالت مهام الثورة الكردية التي انيطت بي وبعدي عن المضان والمراجع التقدم كثيراً فيه. وفي العام ١٩٧٥ عندما استقر بنا المقام في ايران تبين لي بدافع العجلة الشديدة اني فقدت أو ربما خلفتُ ورائي كتاب (ستافورد) بأصله الانگليزي الى جانب دفترٍ واحدٍ من أصل دفترين وهي الترجمة الكاملة له وتوهمت بأني أعطيتهما اشخاصاً أثق بهم للقراءة كعادتي لكني كنت مخطئاً. فقد ذهبا الى حيث لا رجعة. ومرت سنوات طوال انتهزت خلالها فرصة وجود السيد أيوب البارزاني في اوروپا فعمل لي نسخة مصورة جديدة من كتاب (ستافورد) وقمت دون تأخير بترجمة الجزء المفقود ثانيةً. ثم وبداية العام ١٩٨٦ سنحت لي الفرصة باقتناء عدد من المراجع الأجنبيّة والعربيّة التي كنت في امسّ الحاجة اليها لاصلاح ما كتبته في دفاتر ملحوظاتي من اضافة فصول أخرى ولم أكن اتصور اني سأنتهي منه بهذه الضخامة والشيء يجرّ الشيء، ولم يعد هناك ايّ شك يساورني في ما سأبلغ به من مسيرة القومية

= الادارة العرفية. بعد مرور ثلاثة أشهر أو نحوها أصدرت محكمة استينافية عليا لتدقيق احكام المجالس العرفية قراراً ببراءتي من كل التهم وأوصت باخلاء سبيلي فوراً والغاء الحكم أساساً وأرسلت أوراقي الى رئيس الجمهورية لاستصدار المرسوم الخاص، الاّ ان رئيس جمهورية ذلك الحين [عبدالسلام محمد عارف] الذي عرف بدمويته وتعصبه الديني. ابت حميته الدينية ان يستخلصني انا المسيحي من أكثر من خمسين حكما بعين القضية وأبقى قرار البراءة في درجه حتى وافاه الأجل ولم يشأ خلفه وشقيقه (عبدالرحمن عارف) ان يطلق سراحي كذلك ربما لعين الأسباب بل لجأت حكومته الى حَلّ وسط فابدلت حكم الموت الى الحبس المؤبد. وبعد مرور عامين أو نحوهما أفرج عني بصدور مرسوم العفو العام الذي اصدرته حكومة انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ لكني واصلت باحساس رجل القانون تعقيب قرار البراءة لأن كلمة (العفو) تبدو بشكل ما تبريراً للحكم والقانونية وهذا ما لايقبله البريء المعتز بنفسه. وفي اوائل ١٩٧٠ سنحت الفرصة فقدمت طلباً لوزارة العدلية بطلب الغاء الحكم من الأساس فلبي طلبي وهذا هو نص القرار:

«استناداً الى احكام الفقرة ٨ من المادة ٤٤ من الدستور المؤقت قرر مجلس قيادة الثورة في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٧٠/٦/٢٠ ما يلي (١) يلغى الحكم الصادر من المجلس العرفي العسكري الثالث في الموصل في القضية المرقمة ٢٣٣-٦٣ بحق المحامي جرجيس فتح الله وفق المواد ٣١، ٨٠، ٢١٤ من قانون العقوبات البغدادي والمادة ١١ من مرسوم الادارة العرفية الملغى. على وزير العدل تنفيذ القرار.

مجلس قيادة الثورة

رئاسة ديوان رئيس الجمهورية:

صورة قرار مجلس قيادة الثورة المرقم ٩٥٨ والمؤرخ في ٢٣-٨-١٩٧٠ المبلغ الينا بكتاب ديوان رئاسة الجمهورية (الدائرة الحقوقية) رقم ٩٢٣١ في ١٤-٨-١٩٧٠. قرر مجلس قيادة الثورة بقراره المرقم ٩٥٨ المتخذ بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٣-٨-١٩٧٠ ما يلي: رفع الحجز عن الأموال المنقولة وغير المنقولة للمدعو جرجيس فتح الله رئيس تحرير جريدة التآخي. فيرجى اتخاذ الاجراءات المقتضية لتنفيذه.

يحيى ياسين رئيس ديوان رئيس الجمهورية

العربيّة المحزنة الملأى بالعثرات المؤلمة والنكبات الجسام. في المنفى كان هناك الكثير والأهم مما يشغل البال ويقتل الوقت وبدا لي بقربي من أمهات المكتبات الأوربيّة في اكمال ما بدأت به من تحليل وسرد وقائع – أمراً جديراً بالعجلة والدأب. فقطعت شوطاً كبيراً في وضع معظم الفصول بقالبها شبه النهائي ودفعها الى الناشر الطيب الذكر الرفيع الخصال داود ابراهيم صاحب دار نشر الشعاع في سودرتاليا من أعمال السويد. وقد سبق له فأصدر لي كتاب (مباحث آشورية: تاريخ ما أهمله التاريخ) وكتاب (فاتحة انتشار المسيحية) باجزائه الاربعة وعندما صارحته بضخامة الكتاب وعجز دار نشره بموارده الخاصة المحدودة عن القيام بطبعه كاملاً. أكدّ لي بروحه المتفائلة انه سيتلقى العون المالي من كثير من الجمعيات الآشورية والمعاهد الثقافية فيها ما أن يعلموا ان الكتاب كان يدور (بالأصل) على محور كتاب المقدم ستافورد [مأساة الآشوريين] وانه سيتضمن ترجمة كاملة مع وثائق هامة حول المأساة لم يتح لها رؤية ضوء النهار. وسيكون الاقبال عليه شديداً. ثم ماذا سنخسر ونحن فقراء! كان المرحوم داود كثير التفاؤل.

ويؤسفني القول ان تفاؤله لم يكن قطّ في محله كما سأبين وشيكاً. في تلك الأثناء وكعادتي في ايداع ما أكتب الى أكبر عدد متيسر من المثقفين الأصدقاء لقراءته قبل الطباعة وتزويدى بآرائهم وارشادهم. أودعت الفصول الأولى منه صديقي وناشري الثاني صاحب (دار الشمس للنشر والطباعة) السيد فرهاد عبدالقادر من بين آخرين وهو مثقف. وكانت النتيجة انه ازينّ لي سحب الكتاب من الناشر الأول وتسليمه له وكان شديد التحمس ليكون له فيه نصيب الى حدّ مشاركة الدّارين، مؤكداً لما لم أكن أحتاج فيه الى تأكيد بان داراً ضيقة الموارد صغيرة كدار (الشعاع) لاتستطيع ان تنهض بالعبء المالي ولا بجزء منه وأنّ الاعتماد على وعود دون تعهد خطي من تلك الجمعيات والمعاهد لا قيمة له.

كنت في ذلك الحين قد انقطعت عن تنقيح وإرسال الفصول الخمسة عشر وعدد كبير من الوثائق الى الناشر السيد داود لانشغالي بتأليف كتابي «مغامرة الكويت: الوجه والخلفية» بجزئيه وكتاب (حول جرائم الحرب ومرتكبيها في العراق والكويت» وقد أخرجتهما دار نشر الشمس وحظيا برواج واهتمام كبير، الاّ ان بعض الطروحات الجريئة التي وردت فيهما لم تنل رضى حكومة الكويت التي ابتاعت من الناشر مئات كثيرة من النسخ فاحتجزتها في وزارة الخارجية ولم يجر توزيعها، كما أن بعض الملحوظات لم يقع موقعاً حسناً عند السلطات في المملكة العربية السعودية فاستطاع جبروتها المالي ان يجعل من الكتابين من النوادر التي لايسهل الحصول عليهما. إلاّ ان دار نشر في مدينة السليمانية بكردستان عمدت الى اصدار

طبعة ثانية من الكتاب الأول، دون حذف أو زيادة وانا بالنيابة عن مقتني الكتاب لايسعني الا ازجاء الشكر لذلك الناشر المجهول الهوية رغم حنقي الشديد على مخالفته ابسط قواعد النشر الخلقية بأخذ اجازة من الكاتب أو الناشر على الأقل.

قلت: اعاقتني هذه الكتب وأخرى غيرها عن الاستمرار في تصحيح وتنقيح الفصول الباقية وارسالها للتدوين زهاء سنتين أو ثلاث ثم عدت اليها متفرغاً ولقيت التشجيع الكامل من الناشر والالحاح المتواصل في عين الوقت من الناشر الثاني السيد فرهاد عبدالقادر لدخوله شريكاً فيه وهو يقرأ تباعاً ما أكتبه منه قبل ان أدفعه (لحاسوب) داود ابراهيم. وتمّ القرار على أن يقسم الكتاب الى أربعة أقسام تصدر في مجلدين أو ثلاثة أولها وهو الجزء الأعظم من الكتاب ويتضمن مما يتضمن متابعة تاريخية سياسية لفكرة القومية العربية عبر تاريخها الحديث وارهاصاتها وآثار زعمائها المنادين بها كنهاية للوحدة العربية الشاملة «من الخليج الى المحيط» أو العكس، وقد ارتأيت انهاء كتابي في تاريخ لايتجاوز العام ١٩٧٠ وعينت الوقوف بوفاة أكبر دعاتها «جمال عبدالناصر» وبفتح صفحة فكرية جديدة لها. وجئت الى تفصيل الآثار السلبيّة والايجابيّة التي خلفتها دعوى القومية في البلاد الناطقة بالعربية وشدّة وطئتها في التعامل مع مسيرات القوميات الأخرى الساكنة تلك البلاد كأقليات عنصرية – دينية. وشرحتُ بكثير من التبسيط مؤثرات الفكر الأوروبي وسياسات الغرب في اتجاهات الفكر القومي العروبي وردود فعلها على الأحداث والانقلابات السياسية المحلية وانكره المؤرخون العرب منها وما اقروا به، ما اغفلوه عمداً وما اعترفوا به واعتمدتُ أسلوباً نشيطاً حافلاً بالاستطرادات المشوقة قاصداً تجريد السرد عن الطبيعة الرتيبة التي تشيع الملالة عند مطالعة الكتب التاريخية. وابتعدت جلّ ما قدرتُ عليه عن التكرار ولم اتحرج قطّ عن ابداء رأيي واستنتاجي، ولم أكتفِ بنقل آراء غيري وترك القاريء يبحث عن رأيي الخاص وعن جدوى رواية هذا الحدث أو الحكاية دون تعليق بين تحبيذ أو انتقاد.

ألحقت بهذا السفر كما ذكرت الترجمة الكاملة لكتاب المقدم ستافورد الذي يعتبر اهم وثيقة كتبت حول فترة العام ١٩٣٣ من تاريخ العراق وفي جزء ثالث منه كتبت نبذاً مسهبة صريحة من سير حياة الساسة والعسكريين والشخصيات التي ساهمت في أحداث تلك الحقبة من عراقيين وعرب في بلاد عربية وكرد وآشوريين وأجانب محاولاً ازاحة الستار عن حقائق خفية دفنت عمداً أو تقصيراً أو على سبيل المحاباة ونيّتي هي وضعهم في المكانة التي يستحقونها من تاريخ بلادهم والمنطقة والتاريخ العام.

وفي جزئه الرابع والأخير حاولت جمع ما وسعني من وثائق عربية وغير عربية تيسرت لي خلال بحثي في اركيفات عصبة الامم في جنيف، وفي دار الوثائق الرسمية البريطانية بلندن والمكتبة الوطنية في باريس وغيرها. الى جانب طائفة يضيق بي المجال عن حصرها من المراجع والمخطوطات. معظمها لم ينشر هذا الى جانب وثائق خاصة أخرى تدور حول المسألة الآشورية عموماً. الأمر الذي جعله يبدو وكأن جانباً كبيراً من الكتاب أوقف على هذا الحدث التاريخي الذي بينّا اثره في مسيرة التاريخ العراقي والعروبي العامين وهو مظهر من الكتاب المتعدد الجوانب ليس إلا وقد بينتُ الاسباب التي حملتني على دمج المجهودين في سفرٍ واحدٍ فلا داعي ثم للتكرار.

سميّت الاشياء باسمائها التي تستأهلها ونعتّها بالنعوت التي تستحقها وبخلت عليها بكلمة رثاء أو اعتذار لاتناسبها كما اعتاد بعض المؤرخين التلطيف من وقع الحدث أو صفة فاعله على سبيل المحاباة أو بطريق المجاملة أو بغية التستر على الناقصة والعيب ورفضت الانتقاص وبذلت الثناء للذي يستحق الثناء والاشادة. وقدمت للقاريء الانقلابات العسكرية في البلاد الناطقة بالعربية، ومؤامراتها الداخلية في الوثوب الى كراسي الحكم والتآمر المتبادل بين الدول الناطقة بالعربية على قلب حكوماتها عاريةً عن الشعارات والمزاعم التي يدعيها القائمون بها وبكل ما حفلت به من عنصر الفكاهة والتندر ولم أقتصد في وصف النهايات المؤسفة التي جرت اليها البلاد وما أحدثت في البنية التحتية من الخراب ومن الدمار في مسير التطور الطبيعي نحو الديمقراطية والاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وأوضحت بصورة خاصة الموقف القومي العروبي من الكارثة الفلسطينية الى اي مدى بلغ الانحطاط الخلقي. والى ايّ مسافةٍ امتد الغباء السياسي بها، ولا أقول الجشع والتهافت على الذهب اليهودي لقاء التنازل عن الأرض، وكشفت حقيقة ما دعي بحروب التحرير والوعد بقذف اليهود واسرائيلهم في البحر عن ضعف تلك الحكومات والدول عسكرياً وايديولوجياً (قوميّاً) بالهزائم المتلاحقة المخجلة وخسران المزيد من الأراضي، وكم كان ذلك برهاناً للعالم أجمع بالتفوق الروحي والعسكري للمنتصر في تلك الحروب.

... سأبعد نفسي والقاريء عن ذكريات صبيّ الحادية عشرة حول المسيرة واستعراض الجيش لأنتقل به الى الفصل الختامي من تهيئة الكتاب وإعداده، وقد صممت ألاّ احرمه من أدق تفاصيلها، وكل مراحلها تؤكد مصداقية عبارة ونستون تشرتشل الأخيرة التي اثبتناها في أول المقدمة.

قلت: بمواصلة تسجيل الفصول تبين لنا أن الكتاب سيكون بالغ الضخامة وأن (دار النشر) التي يملكها المرحوم داود لاتقوى بمواردها المحدودة على وضعه بيد القراء. الاّ انه – وهنا موطن العجب – كان يصر على ان هناك جهات معينة تعهدت بتمويل ذلك ولم أساله عن نوع التعهد وبقي يصر اصراراً عجيباً على الانفراد به رغم عروض صاحب الدار الأخرى السيد عبدالقادر عليه في المساهمة.

إلاّ أن ما وقع بعد ذلك أنساني الانشغال بفكرة تمويل الطباعة فقد بدأت ألحظ في مسودات الفصول الأخيرة التي كانت تردني للتصحيح أخطاءً عجيبة كثيرة جداً خلافاً للعمل المرتب الدقيق الذي عودني عليه وانحدر الخلط في التقديم والتأخير من السيء الى الأسوء حتى لم يعد امكان اثبات التصحيحات وكان يقتضي ان يعاد تنضيد معظم الصفحات مجدداً سألته عن السبب وهالني الأمر فأقرَّ بانه يخطيء كثيراً فعلاً لأنه منهك الاعصاب وعزوت ذلك من جانبي الى متاعب عائلية مزمنة محزنة (سأتحدث عنها مرغماً فيما بعد بسبب العلاقة المباشرة بمصائر الكتاب).

لست من فريق المتشائمين، ولا أعدّ نفسي من ذوي الطبيعة الاستسلامية، لكني بقيت أشك في تأكيدات صاحب دار النشر هذه بصدق الوعود التي قطعت له – كما يدعي – من تلك الجهات التي تعهدت بدعم المشروع مالياً. ولم يشأ تعريفي بالتفاصيل إلا أنه ذكر لي انها هي التي قامت بتمويل كاتبيْ «مباحث آشورية» و«فاتحة انتشار المسيحية» ذي الأجزاء الأربعة وقد نوّه بذكرها في مقدمة الكتابيْن. إلا أن الشك في تأكيده لم يبارحني بسبب ضخامة هذا الكتاب والصعوبات التي تنجم عن طباعته في السويد ومشاكل توزيعه وهي أكبر عقبة بوجه الكتاب العربي الذي يفتقر الى شركات توزيع شأن الكتب الأوروبية.

لم أكترث شخصياً بمردود مادي من ثمار قلمي ولم أحاول الكتابة بقصد التكسب مطلقاً وكنت عادة أكتفي من الناشر بعدد من النسخ يتراوح بين الخمسين والسبعين، وفي أحيان قليلة جداً يتكرم عليّ بمكافأة رمزية في حال رواج استثنائي للكتاب المطبوع دون أن أطلبها أنا نفسي.

وبقيت في شك كبير من مقدرة صاحبي المادية، ومن صدق وهود مموليه كما ادّعى. ثم حانت الفرصة للتأكد من ذلك بتلبيتي دعوة الصديق الشهم والأديب الكاتب (يونان هرمز) لزيارة الولايات المتحدة واتصلت بالناشر ولم أدرِ أن الداء كان قد استفحل فيه وبأنه لايملك إرادة على ما يقول أو يعد به، وقد تواعدنا على اللقاء قبل الرحيل إلا اني لم ألقه ولم يكن في

وضع يحاسب فيه على قول أو فعل. وفي الولايات المتحدة سعيت للقاء الجهات التي كان رحمه الله يقول عليها، وتمكنت بمسعى صديقنا (يونان) من ضرب موعد لشخصية آشورية كان يشغل سابقاً مقعداً في مجلس شيوخ إحدى الولايات الأمريكية. بعد أن أُعلم هذا الرجل الكريم بوجودي وبعد أن ضرب لي موعد لقاء، جعلني أنتظر ساعات لتلقي نداء تلفونياً يعلمني فيه بالزمن والمكان، إلا أنه نكل وكان في أغلب ظني يتحاشى اللقاء.

ولقت أناساً آخرين وبحثت معهم مشروعي، هؤلاء بلغ بهم جدّهم وسعيهم أن أصبحوا من الأغنياء الكبار، لم يقطعوا صلتهم بوطنهم لكن بطريقة عجيبة هو تكريس يوم واحد من الأسبوع يلتقون فيه في مجلس شرب ويتحدثون عن أضمن وسيلة للتغيير السياسي في الوطن، ويفترقون وقد مضى من الليل معظمه ثملين كل الى منزله.

بعض هذه المؤسسات كانت تملأ الدنيا صراخاً وزعيقاً وتقيم مراسم وتلطم الصدر كلما جاء ذكرى مذبحة ١٩٣٣ وتقيم الحفلات في المناسبات القومية والوطنية حيث تلقى الخطب الناريّة وتسمع الهتافات الحماسية تشق عنان القاعة الكبيرة.

عدت اجرّر اذيال الفشل وحاولت الاتصال بصاحبي المريض لأنبئه بفشل مساعيّ في الولايات المتحدة وبان من كان يؤمل معاونتهم لايرجى منهم خيرٌ ثمّ لانبئه بوجود عرضين سخيين من دار نشر في السويد وأخرى في انكلترا. فلم يكن ذلك ممكناً وقالت زوجته أن كل زيارة أو اتصال معه محظور قطعاً.

وهكذا لم يعد لي من سبيل غير الاستنجاد بالسيد [نينوس سوريشو] وهو شقيق زوجته وابن عمه، لكنه مقطوع الصلة به لايكلمه ولايغشى بيته بسبب مأساة عائلية قديمة العهد نكبت بها الاسرة وهي في العراق وأدت الى قطيعة تامة. سرّ دفين وقفت عليه مصادفة وأنا في كردستان ولم أحاول معرفته عندما كنت في السويد، كان الطرفان يحاولان تغطيته بأسباب تافهة وتعاليل سطحية فجاريتهما في المحاولة.

حاولت عن طريق (نينوس) ان اتوصل الى تعليقاتٍ وهوامشَ على كتاب (ستافورد) فاتني استنساخها، فضلاً عن ثلاث مترجمات مخطوطة استعارها السيد (داود) للمطالعة.

كنت أتصور اني سألقى من (نينوس) هذا كل تعاون على تزويدي بالهوامش واستعادة الأمانة. لكنه وكما يبدو ما أن علم باني سأرحل الى كردستان واترك السويد نهائياً وباني سأعمل على طبع الكتاب في محل اقامتي الجديد – حتى انقلب وصار يضع شتى العراقيل في سبيل مقابلة شقيقته لاستعادة الأمانة والتعليقات. وأصبح فجأة هو المتحكم الفعلي بتركة

المريض ابن عمه الراقد في المستشفى يلفظ انفاسه الأخيرة. كان السيد (نينوس) في مبدأ الأمر شيوعياً يحمل بطاقة الحزب الشيوعي العراقي – لا أعرف تفاصيل نجاحه في ترك البلاد العراقية واللجوء الى الاتحاد السوفياتي، حيث بقي طوال ممارسة الحزب الشيوعي السوفيتي حكم البلاد والى أن بدأ التصدع ظاهراً فانتقل الى السويد وقبل لاجئاً وانقلب فجأة من ماركسيّ الى وطني آشوري متعصب الى قوميته الى الحدّ الذي اعتبر معه طبع كتابي هذا في مطابع وبدور نشر غير آشورية اهانة لا تعدلها اهانة وان الكتاب مادام يتحدث باسهاب على الآشوريين فيجب أن يطبع في مطبعة للآشوريين بمالهم. قلت له موافق جداً فابحث لي عنه المطبعة والممول. وسألته لماذا لاتساعدني فلم يأت بإجابة سليمة. قال معقباً أن سيقاوم بنفسه اي محاولة لطبعه لاسيما في كردستان وبالأخص في أربيل وراح يخلق العقبات أمام استعادتي الهوامش والتعليقات ويحبس عنيّ الامانة (المخطوطات) التي أودعتها المرحوم داود، متوهماً بقصر نظر منه ان ذلك سيحول دون طبع الكتاب.

كنت أعتقد بأن للسيد (نينوس سوريشو) من بُعد النظر والرأفة والشعور بمصلحة ورثة المتوفى ليسهل أمر طبع الكتاب بتزويدنا بالتسجيل (الديسك) الذي سجل عليه أكثر من نصف الكتاب الأمر الذي كان سيوفر عناء اعادة التسجيل ويكون بوسعنا في هذه الحالة تعويض ورثة المتوفى عن جهده أمّا مالياً أو بسهم من النسخ إلاّ انه وهذا موطن العجب، بدأ يتوهم أو صورت له مخيلته أن العقبات التي كان يخترعها بمرور الزمن ستحول دون طبعه وأننا عاجلاً أم آجلاً سنرضخ له وتسبب هذا في ضياع مجهود (داود) تماماً!

الأمر الذي كان يحيرني ان هذا الرجل الذي كان يفاخر اقرانه بانه يملك أفضل مكتبة عربية في بلاد الغربة وانه لايأتي من سفرة الى بلد عربي إلاّ ومعه حمل من آخر ما انتجته قرائح الكتاب العرب. كانت شروطه التي يمليها احياناً تثير الضحك. ففي آخر (مساومة) شارك فيها عدد كبير من الوسطاء بعث مع شقيق له يسكن (كركوك) شروط تزويدنا بالهوامش (دون ذكر للامانة والمخطوطات) منها عدم ذكر عبارة (طبع في اربيل) بل يكتب (طبع في العراق!).

كان السيد نينوس يحقد حقداً دفيناً على الكرد وكردستان لا أعرف له سبباً وكان دائم العتب والنقد لي في السويد لأنني كما زعم أكرس جل مجهوداتي القلمية واجند فكري في خدمة القضية الكردية. وليس بين الكرد وبيني ما بينه وبيني!

كانت محاولتي الأخيرة مع هذا الانسان بتكليف صديقنا السيد كريستوف يلدا ترخان

(ريبوار) عضو مجلس الاعلام المركزي للحزب الديمقراطي الكردستاني. فقد أخذ على عاتقه الأمر واتصل بشقيق له في كركوك وجاء به اليّ حاملاً تلك الشروط التعجيزية المحيرة الحمقاء بعينها ليبدو فيها السيد نينوس وكأنه مؤلف الكتاب وصاحب الكلمة الأخيرة فيه، ووارث دار نشر (زهريرا). وكأني أنا الممول وأنا صاحب دار النشر التي ستقوم بطبع الكتاب وأنا المتحكم في الشروط.

وطفح الكيل. فقررتُ قطع كلّ صلة به واعادة تسجيل الكتاب بالحاسوب دون تعليقات مع تنبيه القراء الى النقصان وسببه والى حكايتي مع هذا الرجل الغريب الأطوار. ثم جاء الفرج!

تبين ان كتاب ستافورد موجودٌ ومسجل بالانترنت (ربما كان صاحبنا نينوس لايدري بهذا التطور الجوهري). اسرع الأخ (ريبوار) الذي تبنى القضية بعمل نسخة لي تحمل تعليقات المؤلف وهوامشه فأعدت ترجمتها واستعنت بذاكرتي ودفاتر ملحوظاتي على استذكار تعليقاتي الخاصة واتممت في ثلاثة ايام النقصان الذي يشكو منه الكتاب – بعد أن اقتضاني ثلاث سنوات في مفاوضات عقيمة لا طائل تحتها معه الا فليتحفظ بالمخطوطات الثلاثة (وهي امانة في عنق ورثة الميت) لتدرج في تابوته بعد طول العمر فلعله يجد من يطبعها له في العالم الآخر اما أنا فقد فقدت أملي في استعادتها ولم يبق من العمر الاّ الوشل.

أرجو من قارئى العزيز ان لايشبع هذا المخلوق بلعنة وشتيمة أو عبارة جارحة لتسببه في تأخير العمل في الكتاب طوال ثلاث سنين، بل ويدعو له بالعقل السليم والسداد في الرّاي.

... مما عالجته في كتابي هذا هو جلب الانتباه بصورة خاصة للدور الحاسم الذي يمارسه الفرد، بوحي من خياله وطموحه وتصوراته للمستقبل الأفضل وكلمته النهائية في صنع التاريخ وتصوير الاحداث الدراميّة الكبرى فيه. مبتعداً جلّ ما أمكنني عن تلك النظريات القياسية والعقائدية حول النزاع الطبقي ونظرية فائض القيمة وكل ما له علاقة بما أطلق عليه عنوان «التفسير المادي للتاريخ» ففي معظم الأحداث والوقائع التاريخية التي احتوتها دفتا هذا الكتاب الكبير لاتجد غير أمثلة لنزغات الرجال وكيف تحرف (ولا تسير وفق قاعدة) مسار التاريخ الى نهاية أو طريق غير متوقع بالمرّة. انني مثلاً أفكر وانا أدوّن هذا. ذلك التعهد الذي قدمته بريطانيا وفرنسا وروسيا للحكومة العثمانية عشية اندلاع الحرب العظمى الأولى – بالابقاء على الامبراطورية العثمانية دون مساس بها في حالة بقائها على الحياد. وكيف ان ثلاثة أشخاص أو أربعة فقط، بل شخص واحد هو (أنور باشا) كان مسؤولاً عن زجّ بلاده فيها وكيف أن العراق وسورية ومصر وغيرها من البلاد العربية التي استقلت كانت بفضل

اصرار هذا العسكري على دخول الحرب وكيف ان هذا الشخص قتل برصاصة واحدة طائشة في بلدٍ ناءٍ ولايعرف له فيه قبر!

فأي تفسير للتاريخ يمكنك تعليل كل هذه الاحداث التاريخية بنحو منطقي أو على قاعدة موضوعة مجدداً؟

اليك مثلاً آخر قد يكون مثلاً مزدوجاً للفارق الزمني بين حالتيه جاء في كتاب (الفخري لابن الطقطقي)[٧] والنتائج المماثلة التي نجمت عنها:

«أمر الخليفة المتوكل (٣٤٩م) أهل الذمّة (اليهود والنصارى وغيرهم) ان يلبسوا لباساً يختلف عن المسلمين ويركبوا سروجاً مختلفة عن سروجهم وأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري احكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين وأمر بهدم معابدهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وبتسوية قبورهم مع الأرض وبغير ذلك مما يذلهم وكتب بذلك الى العمال في البلاد».

ليس هذا من الاسلام والمسلمين في شيء. وانما هوى خالط شخصاً ذا سلطان مطلق عرف بادمانه الشراب ونادراً ما رؤي صاحياً. وربما كان مصدر أمر هذا مجلس شراب داعر كذلك الذي كان فيه قتله.

قارن بين أمر المتوكل هذا وما جرى مثله في سورية ولبنان بعد ألف سنة، يقول الكاتب ميخائيل مشاقة في «مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان[٨]» (حوالي ١٨٤٩–١٨٧٠).

«كان المسيحي عرضة للاهانة والذل اينما مرّ وحلّ. وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى ألف الذل كما الف مذلة اذلاله فكان النصراني حيثما مَرّ وتوجه ينعت بالكافر ويشتم صليبه ويحتقر وتقلب عمامته ويصفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة. وكان اذا مرّ في حيّ المسلمين لحقه الصبيان في الأزقة قائلين له:

نصراني كلب عَواني رقوْ لَه بالصرامي
قالـــــت امه مينـــه ضربة تقلع عينـه

(٧) محمد بن علي ابن الطقطقي (١٢٦١–١٣٠٩) مؤرخ موصلي صاحب كتاب (الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية).
(٨) ط. القاهرة ١٩٠٨ (بعد اعلان المشروطية) الص ٢٦–٢٧.

وكان المسلم اذا مرّ بمسيحي يقول له: «أشمل» يريد بذلك أن يسير الى يساره فيفعل صاغراً وكان كثيراً ما يسخره أصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم أو يستعملون اهانته لإذهاب ضجرهم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم «تعال يامعلم»، فيذهب اليه فيصفعه ويكلفه ان يذهب بحاجته أو يلبسه حذاءه أو يشتغل عنه شغلاً ما. واذا ما كان مازحاً يهمس في اذنه شتماً أو إهانة أو يأخذ عمته ويصفعه على أمّ رأسه ويرمي العمة الى جاره وهذا الى الذي يليه وهلم جراً. وكان قانون الحكومة اذذاك ان يكره المسيحي على حمل كيس على كتفه يسمونه كيس الحاجة ليس له ان يخرج من بيته دونه. والمقصود من هذا الكيس أن يضع به الأغراض وحوائج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله من بقول وخضار وغيرها. وفي الشام كان محرماً عليهم لبس العمامة البيضاء وانتعال الحذاء الأحمر او ركوب الخيل[٩]. فاي قاسم مشترك أعظم يجمع يا ترى ما بين أوامر المتوكل وما جرت عليه عادة الاكثرية المسلمة لا في سورية ولبنان وحدها بل في سائر امصار الامبراطورية.

إنّ ما قرأته في مقتبل حياتي وما سمعته عن أمثال هذه الممارسات ايدّ لي انها كلها من صنع افراد، وليس من صنع حالات تاريخية مسبّبة عامة لامتياز بخصوصية، كما انها ليست من صنع الشرائع السماوية أو الدينية. وقد قادني هذا الى دراسة عميقة للفقه الاسلامي بكل مذاهبه وقبل أن أغدو تلميذاً في كلية القانون فما وجدت شيئاً يأمر أو يرشد أو يوصي سِرّاً أو علناً باتخاذ مثل هذا السلوك ازاء أهل الذمّة. وعلى القاريء بعد هذا ان يحكم وانا هنا اوجه انتباهه الى الفصول التي تطرقت فيها الى فلسفة الدين الاسلامي ومدى ارتباطه بالممارسة الدينية الصرفة وبالقومية العربية من جهة أخرى.

أعود الى مسألة تعاملي مع المراجع العربية. لاسيّما كتب المذكرات الشخصية والسير الذاتية. تعاملت معها بتحفظ كبير بسبب التناقض بينها وانانية كتابها وحرصهم في إلقاء الذنب على غيرهم أياً كان واظهار أنفسهم بثياب وأجنحة الملائكة الأطهار. وفي معرض الحكاية السياسية والتاريخية رفضت قبول الرواية المنفردة إلاّ اذا دعمتها وجهة نظر أخرى واحدة أو أكثر. ففي التاريخ العربي مع الأسف الشديد عُرِضَ العديدُ من الوقائع عرضاً

(٩) للمفكر القومي المعروف الدكتور ساطع الحصري رأي وتعليل خاص لهذه الظاهرة (راجع، محاضرات في نشوء القومية، بيروت ١٩٧٦ ص ١٧٧ «الوضع الطائفي في العهد العثماني كان قد اتخذ طابعاً معيناً يستمد جذوره من الفقه الاسلامي الذي يعتبر المسلم أرفع درجة في السلم الاجتماعي من الذمي. ان الحكومة العثمانية كانت تعامل رعاياها المسلمين معاملة خاصة تختلف عن معاملة غير المسلمين. فهي تعتبر الأولين كأهل دولة وتعتبر غيرهم كأنهم غرباء عنها.

مرسحياً مؤنقاً بالتعابير البليغة الطنانة التي لاتفتقر اليها هذه اللغة النفيسة لتنزل منزلة المسلمات وليقرأ الجيل الحديث في المدارس والمجالس وفي غرف المطالعة ما يملأوه منها حماسة وفخراً كاذباً ويمجد في خلالها أشخاصاً لا مجال لذكرهم في التاريخ بغير الازدراء والإدانة للشرور التي اقترفوها والمصائب التي انزلوها بشعوبهم وابناء جلدتهم. لم تأخذني بهؤلاء لومة ولم أقتصد في فضح اعمالهم من سِيرهم نفسها ولم أحاول التهوين من أعمالهم وتصرفاتهم الدنيئة التي تفوح منها رائحة الأنانية والأثرة.

اني نظرت بعيني المرتاب المتعقل المتأني الى المراجع الكبرى المعتبرة، لاسيما تلك التي باتت منذ وصولها الى ايدي القراء محل الثقة العمياء والنصّ الذي لايأتيه ريب ففضحت كذبها بما أمكنني واوردت ضدّها حين ينتابني الشك في الضدّ ونقيضه لأترك الترجيح والتفضيل للقاريء. على اني لاأنفي قط وجود مراجع عربيّة يمكن الاطمئنان اليها الى حَدّ كبير وهي المراجع غير التجارية أو التي لاتخدم فريقاً من الناس أو حزباً أو عقيدة أو حكومة أو رجال دولة وسياسة، وسيرى القاريء أن هذا الصنف من المراجع العربيّة قليل الانتشار وقد اقتضاني البحث عن بعضها المتاعب والنصب وعرق الجبين. وبمقابل ذلك أهملت الافادة أو حتى الاستئناس بآراء الكثير من الكتاب المشاهير لعين الاسباب التي نوهت بها قبل قليل وإن تأيدت الرواية الواحدة من اثنين منهم على الأقل. وعلى سبيل المثال لا الحصر أورد هذه المقايسة التاريخية تاركاً للقاريء الحكم على الغرض التي خدمت من ايرادها ومنها سيدرك القاريء عذري في تحفظاتي وارتيابي في كتب المؤرخين المحدثين العرب أو مذكراتهم.

المؤرخ الشهير [جورج انطونيوس] طبع كتابه «يقظة العرب» الذي الفه أصلاً بالانكليزية أكثر من طبعتين. وطبعت ترجمته العربيّة المتقنة ست مرّات وبدا قبلة الباحثين وكتاب التاريخ حتى الساعة ومانفكت رواياته للوقائع موضع شهاداتٍ وبيّنات ثابتة[١٠].

الى جانب (يقظة العرب) وبعين المستوى تقريباً هناك المرجع الشهير للمؤرخ (امين سعيد) عنوانه (الثورة العربية الكبرى) كلاهما يثبتان عين الرواية حول موقف الأمير (ثم الملك) فيصل ابن الحسين عندما قرأ اسماء الأشخاص الذين شنقهم (احمد جمال باشا) الملقب بالسفاح (لاأدري هل كانا يستقيان من عين المصدر أم كان أحدهما كَلاً على الآخر) قالا:

(١٠) الطبعة السادسة من الترجمة ١٩٨٠ بيروت. دار العلم للملايين. الص ٢٨٤–٢٨٥. يقول الكاتب جورج انطونيوس انه اعتمد على اقوال الملك فيصل (ص ٢٣٧– الحاشية) «يرجع الفضل في حصولي على قسم كبير من حقائق هذا الفصل الى المغفور له الملك فيصل وأنا أسجل هنا فضله...».

«فخيّم الوجوم على الحاضرين وقرأ بعضهم الفاتحة. غير أن فيصلاً قفز واقفاً كمن اصابه مسّ مفاجيء فيه فانتزع الكوفية من على رأسه ورمى بها على الأرض وداسها بعنف وصاح: طاب الموت يا عرب».

وفي (الثورة العربية الكبرى) بعد أن يورد المؤرخ هذه الرواية تراه يسرع ليذيلها برواية غريبة أخرى. يقول:

«وأسرع فيصل الى دمشق وقابل جمال پاشا، فحدثه هذا بالاسباب التي حملته على الأمر بشنق المتهمين وبين له وجه الخيانة باتصالهم بدولة أجنبية دولتهم في حرب معها: يقول جمال پاشا (في مذكراته) تحمس الأمير فيصل ونهض ورفع يده قائلاً: قسماً بحرمة الأجداد لو علمت ان جريمة الجناة بهذه البشاعة لما أحجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت أن تمزق أوصالهم ليطول عذابهم الا لعنة الله عليهم»!

لكن للعلامة الكبير محمد كرد علي في كتابه المذكرات (ط. دمشق ١٩٥٠) رواية أخرى حول موقف فيصل من الحكم على شهداء عالية ودمشق وتنفيذ الحكم فيهم (ج٣) وهي طويلة تتضمن قيام كرد علي شخصياً بالتشفع لهم عند احمد جمال پاشا وكيف انتهره، ثم عروجه على موقف فيصل الذي كان كما يؤكد موجوداً في دمشق عند القاء القبض عليهم «وكان كل همه أن يخرج من المدينة ويتجه الى مكة متستراً تحت جنح الليل لئلا يطاله الاعتقال ويحال الى المجلس العرفي العسكري كالآخرين».

امثال هذه المفارقات التي لا سبيل الى اهمالها أو اغفال تمحيصها والتأمل فيها للحكم على الشخصية الواحدة في مجرى التاريخ – جعلتني شديد الحذر في ايراد الوقائع، وان اضطرني السياق الى ذلك فلن اتردد في اثبات رأيي مع ايراد المتناقض حين أجد ضرورة لمساعدة القاريء علي تبني الرّأي الأقرب الى العقل والمنطق بعد استقراء الظروف كافة. لذلك لن اعجب قط ان خرج القاريء بعد قراءة كتابي بكثير من الآراء والنتائج المخالفة لتلك التي اعتاد استخلاصها من كتب أخرى، وربما قذفني بلعنةٍ أو شتيمة. وقد تهيأتُ لهذا الموقف منذ ان بدأتُ بتدوين الفصول الأولى من الكتاب.

في كثير من الاحيان قد يكون من الظلم الصارخ اساءة اصدار حكم على الروايات والوقائع المسرودة ونعتها بالتضليل العمدي من جانب رواتها، أو تشويه الحقائق فيها عن طريق نفي المسؤولية بنقل الذنب الى الآخرين. هناك كثير من الوقائع والاحداث المنقولة شفاهياً والمدونة

فيما بعد لايمكن أن يعزى اليها التشويه أو التزوير المتعمّد في الأحداث. وقائع يختلف اثنان أو ثلاثة أو أكثر من شهود عيانها ولانستطيع أن نعزو الى أحدٍ منهم تزويراً أو تصنيعاً في الرواية. احدهم ينظر اليها من زاوية وآخر من زاوية مختلفة فتتفاوت الرواية تبعاً للذوق أو درجة الانتباه الى تفاصيل الواقعة. إن كانت محاضر الاجتماعات السياسية المدونة لاثبات النتيجة النهائية (وقد وقع بيدي جانب منها) فلا خلاف إلاّ اني اعتمدت على الاقوال وصدق الرواية أو ضعفها أو قوتها بالأحرى لأجد نفسي أحياناً اشبه بأولئك المحدثين العظام وهم في رحلاتهم المنهكة الشاقة وراء الحديث النبوي الصحيح واستخلاصه من الاحاديث الضعيفة والزائفة والمنحولة.

واما عن المراجع الاجنبية واللاعربية وهي بأكثر من لغة أوروپيّة، وفيها الفارسيّة التي المّ بها بشكل يعينني في بغيتي. فقد ملكت منها الكثير واستعرت منها الكثير وأثبتُ عناوينها واسماء مؤلفيها حيثما شعرت بان ذكرها لازم واقتصرت على جانب يسير منها. كانت هناك ايضاً اللغة الآرامية المتمثلة في اللهجات الدارجة منها – الكلدانية والسريانية والآثورية التي يطلق عليها العامة اسم (السورث) وهي اللغة التي لاأعرف منها غير معاني بضع كلمات وجمل قصيرة ولاأعرف قراءتها فاستعنت باصدقاء لي في نقل بعض النصوص التي لم أجد لها ترجمة بالانگليزية.

ويفترق سبيلي وسبيل كتاب التاريخ المحدثين في مناقشة الرواية بعمق ومن دون اعتبارات معينة: فكتاب التاريخ العربي في عصرنا هذا مازال معظمهم يتهيبون الجهر بمواقفهم وآرائهم وانا اقصد الحياديين منهم أو مدّعي الحياد لا فرق. اني أراهم مع الأسف يكادون ينهجون عين نهج أوائل المؤرخين العرب والمسلمين فكتبهم وآثارهم الحديثة لاسيما تلك الرسائل الجامعية الباهتة الرتيبة التي سرعان ما تغدو كتباً تتداولها الأيدي فهي تكاد تخلو من آرائهم الخاصة، من نقد أو تقويم للاحداث والوقائع ولرجالها اصحاب الادوار فيها. انهم ينقلون عن هذا المرجع أو ذاك دون تعليق، أو يثبتون حدثاً كما رأوه أو سمعوا عنه ويبقون قارئهم في حيرة ولايمدون اليه يداً يأخذونه بها الى الطريق الواضح القادر على البلوغ به الى استنتاج معين ومع هذا فكتبهم مكتظة بالمعلومات.

قد أبدو في عرضي هذا شديداً قاسياً على صنف الكتاب الذي قصدتهم ربما كنتُ كذلك. إلاّ اني واؤكد هذا بكل اخلاص وتجرد – لا أقصد قط المفاضلة والمباراة واثبات التفوق على من سبقني في المواضيع التي تطرقت اليها. ولأستعجل فأقول عن عملي هذا أن فيه ثغرات

كبيرة وكثيرة وفيه امور قد تحمل محمل التحامل والإغراض وهي ليست كذلك. فيه ايضاً هفوات جسام بعض مواضيع فيه تقتضي شرحاً وتبسيطاً أكثر مما أوقفته عليها. ولا استبعد أن تحصى عليّ فيه سقطات كنت أشعر بها أحياناً اثناء المراجعة وكأنها السفود المحمى وهو يغيب في صدري ولا حيلة لي في رده عنيّ. إلاّ اني ترفعت عن الاختراع والتزوير وكفاني الله شرّ الكذب وخزيه فتوقفت عندما اعوزتني الاداة أو الوسيلة لسدّ ثغرة أو تبديد غموض لا حيلة لي فيه وتسكت عنه المضان والمراجع الميسورة لي.

أريد أن اؤكد للقاريء وقد بلغت ختام المدخل أن هذا الطاغوت أو السيد المتحكم بحسب قول ونستون تشرتشل لم ينجح في سوقي رغم أنفي الى السبيل المخالفة التي اعتدتها خلال حياتي الكتابيّة. فأنا ما كتبت لأخدم جهة، ولا لأروّج لفكرة. ولا لقاء ثمن مدفوع أو وعدٍ بثمن. وهذه آرائي حيثما وجدتُ في كتابي هذا وأنا وحدي المسؤول عنها.

الفصل الأول

نشوء الفكرة القومية بمفهوم عراقي . البنية العربية الاجتماعية . اختلافها بين بقعة وأخرى . محاولات التعتيم والتغطية حول الأشخاص والوقائع . قلب الحقائق . مثالان . أحداث آب ارتكبت باسم القومية العربية . وأحداث مايس ارتكبت باسم القومية العربية . ضرورة متابعة التاريخ العام وأهمية دور التاريخ السياسي على ضوء التاريخ الاجتماعي وعلى أساس افتراض انقلاب معكوس لأحداث مرّت ولا أمل في عود مثيل لها . خطر الانحياز بالتاريخ الاجتماعي الى النظريات وعمليات الإحصاء . واجب المؤرخ الحقيقي الاستعانة بالتاريخ السياسي بقدر ما يقي من الوقوع في خطر الحكاية . التحول من "الوطنية" الى "القومية" في الأناشيد المدرسية . العداء والصراع القومي بين الحكومات العربية ، وحرب المفاهيم . القومية العربية تلفم وجه الموصل بعد إعراض عربي وولاء للترك . الطابم الديني للموصل بوصفها عاصمة لولاية تركية . أقوال سياسيين ورجال حكم ومؤلفين حول الطابم الاجتماعي للمدينة . تفوّق اللغة العربية . حلول القومية محل الوطنية على أساس اللغة والدين . التعريب بدل التتريك . معجزة الحرب العظمى الأولى . مجهودات رجال الحكم الجدد في محاولات التعريب . تجارب خاصة

فكرة القومية العربية، ومراحل تطورها الى مذاهب ومناهج وفلسفة، وحكاية ما أنجزته وحققته للأمم والشعوب الناطقة بالعربية من نجاح أو ما لقيته من فشل في ميادين التطبيق والحياة، ومقدار تأثيرها على تقدم الحضارة أو عرقلته فيها، ما أغنت به القيم الروحية والمادية وما ألحقته من ضرر أو أصابها من خسار لنفسها أو لغيرها من الشعوب المجاورة، أو ما ظفرت به من كسب بمبادرات مفكريها وقادتها وزعمائها، هي بالأصل التاريخ العام الحقيقي الذي يزود التاريخين السياسي والاجتماعي بمادتيهما. التاريخ الاجتماعي السياسي الذي هو قبلتي لايستوفي حظه من البحث في نظري – من الاحاطة بتناول البنية الاجتماعية العربية بالدرس والتدقيق في خلفياتها فحسب بل يقتضي له التصدي للعلاقات التاريخية بين العرب

وبين الأمم الجارة على حقب مخصوصة من التاريخ لاسيما بعد أن فتحت تلك الأقوام والشعوب صدرها للعرب بفضل الرسالة المحمدية ولتباشر بهم مسيرتهم وتتيح لهم فرصة وضع بصماتهم الخالدة في صفحات الحضارة البشرية، ثم لينحسر مدّهم، ويخمل ذكرهم وليقعوا بالأخير في اسار أقوام بربرية غازية وطغيان حكام أجانب. إن ما يسجله التاريخ لإرهاصات الحياة أفراداً وأقواماً سيبقى أبداً خالداً بمحاسنه وقبائحه إنه لمن الخطورة الكبرى محاولة إلباس القبيح رداء الجمال وتحري الأعذار لما لمن لايستقيم له عذر.

مع هذا يحاول بعض المؤرخين عادةً العبث بوقائع التاريخ أو إخفاء حقائقه ليخدموا به غرضاً أو هدفاً أو لينتصروا بهذا التزوير لشخصية مجرمة، بنفي أو تبرير دور غير مشرّف لهذه الشخصية أو تلك. ولما كان التاريخ من صنع البشر، ليس كلهم بل أفراد متسلطون وبالفرص التي تتيحها لهم ظروف مواتية. وبما أن عدداً من دعاة القومية العربية وقادتها، وبعض مفكريها الممهدين للون فيها – نجحوا في الوصول الى السلطة وحاولوا عن طريق ممارستها تطبيق مفاهيمهم فيها، فهؤلاء هم مسؤولون مباشرة عن كل النكبات التي حلت بالوطن القومي العربي الكبير وطرقه النضالية بل وما أحرزته من تقدم اجتماعي وتكنولوجي. وسيكون الحديث عن هؤلاء جزءً هاماً من هذا الكتاب.

دوّنت هذا الكتاب بفصول واستدراكات وملاحق في أوقات متباعدة ولما تراكمت هذه الفصول وأعدت مراجعتها وقراءتها بإمعان خيّل لي أن الوقت قد أزف لأجعل منها وحدة. وكما أوردت في (المدخل) فقد وجدت علاقة سببية وثيقة بين تقلب وتطور الفكر القومي العروبي وتباين طرقه النضالية وكيفية تجاوبه مع التطلعات الكُردية والآشورية (المسيحية) في العراق خصوصاً وانعكاس بعض المفاهيم القومية من خارج قطرنا على مفاهيمها المحلية وتأثيرها على التعامل مع القوميتيْن الرئيستين هاتين فيه. لاسيما عندما ينشأ نوع من الخلاف لينقلب بالنتيجة الى صراع تسفك فيه الدماء، أو عندما يخيّل للقوميين أنهم في موقف يستطيعون فيه إملاء شروطهم على حكومة أو دولة تفوقهم قوة أو جبروتاً بمراحل فتذهب ريحهم ولا تسمع عنهم خبراً لبرهة من الزمن فقط. أجل لبرهة من الزمن ليعودوا بعدها مسلحين بنظريات وأهداف أخرى وبنشاط متجدد.

كانت أبداً هناك دماء تسفك وأرواح تهلك لا بين المتحاربين وحدهم، بل على الأغلب الغالب دماء أولئك المتفرجين الجالسين على الرصيف وبينهما الاقليات الدينية والعنصرية التي أبت إلا أن تقيم على دينها عند الفتح الإسلامي لاسيما في ما يدعى بالوطن العربي الكبير

فشاركته سرّاءه وضرّاءه إختياراً أو جبراً. وتحملت في أحيان كثيرة جور حكامه ومعظمهم أجانب وليسوا عرباً[١].

أحيانا تغدو هذه الأقليات القومية أثناء العراك العربي على السلطة في بلاد لهم – من جملة الضحايا وتصبّ عليهم ألوان الاضطهاد. وفي الكتاب تجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل.

ولتلميذ التاريخ الاجتماعي أن يقف أمام حدث معيّن ليطلق هذه الأسئلة ومثيلاتها: كيف؟ أين؟ متى؟ لماذا؟ ما الغاية؟ والإجابة عن هذه الأسئلة تتعلق بأي منحى من نواحي التاريخ يسلكه المؤرخ. على أن هناك سؤالاً سادساً غير هذه الأسئلة يتعين على تلميذ التاريخ الاجتماعي الإجابة عنه ايضاً وهو الذي يبدو وكأنه مفترق طريق لايبعده كثيراً عن التاريخ السياسي أو الديني أو الاقتصادي أو تاريخ العلوم. إن إغفال الجواب عن هذا السؤال في أي عمل فكري يمت الى تلك التواريخ بصلة يجعل من عمله مجرد سرد مملّ سطحي للوقائع كالقصص الرتيبة التي نضعها بيد الأطفال والناشئة أو كالكتب المدرسية المقررة. والسؤال السادس الذي أقصده هو مقدار العلاقة التي تربط التاريخ السياسي بالتاريخ الاجتماعي فكلاهما يتتبع مثلاً حياة ونشاط شخصية معينة من خلال عمل ذي طابع عام. إلا أن التاريخ السياسي يبعد نفسه عندما يحصر قياسه للشخصية بما أتت من أفعال وأصدرت من أوامر، ولايقيس الأعمال بالشخصية ودراستها دراسة شاملة تنفذ الى الأعماق لتقدم تفسيراً واضحاً لما أتته الشخصية. إلا أنه مع هذا لايحبس نفسه في نطاق وصف هذا العمل بل ينفذ الى غوره في محاولة فهمه. إنه يتعامل مع جماعات وأفراد ولايتعامل مع مطلقات وجداول إحصاء أو مع طبقات اجتماعية أو مجموعات قومية مخصوصة دون محاولة عزلها عن المجموعات الأخرى. ذلك ما يجعل التاريخ الاجتماعي جذاباً وأكثر طرافة وأحفل بالفوائد المتحصلة من التجارب خلافاً لتلك الدراسات التكنية المثقلة بالاحصاءات التي تحاول اليوم أن تحل محله.

إن تفضيل التاريخ الاجتماعي المتمشي مع عصر المكائن والذرة يواجه في بعض الأحيان

(١) ربما كان في إيراد مثلي هذا بعض استعجال، وموقعه الصحيح في مناسبة أخرى. إن سلب الانسان قوميته أشد من سلبه حريته. ففي إحصاء النفوس العام في السنة ١٩٧٧ في العراق فرض على المسيحيين (ولندرجهم تحت الاسم العام الكلداشوريين) أن يختاروا لأنفسهم بين القوميتين العربية والكردية واذا أصر أحدهم على جنسيته وكتابة "آشوري" شطبت الكلمة ووضع محلها واحدة من الكلمتين عربي أو كردي. وفي مناطق بغداد والجنوب كان المسيحي يخيّر بين العربي أو الكردي. وفي الشمال (كردستان) كان يفرض عليه أن يكتب (عربي) ولايقبل منه كتابة (كردي) وإلا ناله أذى كبير.

خطر الانحياز الى النظريات والمطلقات[٢] فيؤدي بمجتمع أو مجتمعات عديدة الى كوارث.

في مسرى كتابنا هذا سنحاول جاهدين اجتناب خطر اللجوء الى النظريات وهذا السلوك يضطرنا في معظم الأوقات الى مناشدة التاريخ السياسي بالتدخل لأن ذلك يقينا من خطر الوقوع في مصائد الرواية. التاريخ السياسي يضع نفسيات اللاعبين على مرسحه في مركز تحقيق ويضمن الاطار الذي ترفعه له بنية هذا المرسح (الدولة أو الحكومة) فضلاً عن العلاقات بين المجموعات السياسية فهو خلافاً للتاريخ الاجتماعي قادر على التصدي بتفصيل ودقة للحروب والقتال والخلافات والجرائم السياسية الكبرى والعدوان وهي من أكثر التجارب البشرية شيوعاً في كل عصر لاسيما عصرنا هذا. وكان لمسيرة القومية العربية من هذا النصيب الوفير.

وفي متابعتنا لتلك المسيرة سنتحرى الحقائق كما وقعت، ونجتنب الوقوع في مزالق الجري وراء المطلقات والاستقراءات الاحصائية، فبهذه تبدو خطورتها وتبرز أخطاؤها عند استخلاص الأحكام منها. ليس هناك وسيلة للنظر الى التاريخ تبقى على إحساس مستمر بمرور الزمن وعوامل التغير إلا بتعاون التاريخ السياسي والاجتماعي. إن التاريخ الاقتصادي مثلاً قد يستطيع أن يمسك بأعنّته التغيير والمتابعة الى حدّ ما. إلاّ أن حركته الزمانية كثيرة البطء بحيث تفقد المرء أو تكاد إحساسه بالتغيير.

حينما نتحدث في الفصول القادمة عن مسيرة القومية العربية أو العقيدة القومية من الضروري التنبيه بأننا سنحصر الموضوع بتاريخها قطعاً، فمدارستها ومتابعتها ستتعدى حتماً حدودها وستكون هناك وقفات ودراسات لمجتمعات أخرى فإرهاصات القومية العربية ونشاطها تعدى إطار العالم الناطق بالعربية وخلف آثاره على مسيرات الشعوب الأخرى المجاورة، وسيكون للعراق النصيب الأوفر من دراستي هذه بطبيعة الحال بسبب التأثير الكبير الذي مارسته الفكرة القومية على تاريخ البلاد وتاريخ المنطقة بأسرها بل على مناحي حياة

(٢) يبدو فقر النظريات وفسادها أحياناً عند التطبيق بمقارنتها بتصرفات الفرد أو الجماعة في مسائل الحياة المركزية وعلى سبيل المثال نقدم للقارىء تلك العربة، عربة الماركسية البليدة التي تجر متثاقلة عبر التاريخ نحو النور والحياة الكريمة. كان ركاب هذه العربة المشرفون التعبير التجريدي الذي أطلق عليه مصطلح "پروليتاريا". على أن (كارل ماركس) لم يغرق على پروليتارياه هؤلاء كثيراً من العطف البرجوازي كأشخاص وكعمال حقيقيين بل كان هو وزميله (أنگلز) يشيران اليهما بأولئك "الحمير الأغبياء" في رسائلهما المتبادلة. هؤلاء أثبتوا أنهم ليسوا حميراً أغبياء في پولندا (١٩٨٠) عندما استطاع عامل خامل الذكر يدعى (ليخ فاينزا) أن يبرهن بأن العمال الحقيقيين أكثر عقلاً وأعرف بمصالحهم من نبيّي الاشتراكية هذين – التايم ١٥ أيلول ١٩٨٠ لانس مورو Lance Morrow

الفرد العراقي وتكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي. ومن خلال دراستي هذه سأحاول متابعة الانحراف عن المباديء الديمقراطية التي أرسيت عليها الدولة الجديدة بتعرية أفكار وأعمال للحكام وتصحيح ما جرى من محاولات التزوير والاختلاق والافتئات على الوقائع وتحطيم الخرافة وتمزيق براقع الجلال والمهابة عن الوجوه الشائهة وإظهار الزيف الدقيق الحبك في أحيان كثيرة والكشف عما اتخذ من أساليب وطرق لستر الفضائح.

سأتابع مسيرة القومية العربية من موطنها الأول لبنان ولن أترك صقعاً يدعي بالعروبة ويتخذ العربية له لساناً إلا كشفت عن مدى تأثير الفكرة في تاريخه الخاص وفي بلاد (شقيقة) أخرى.

ليس هناك تجربة أروع من تجارب المؤرخ، ولا مسؤوليةَ أعظمُ من مسؤوليته في الانتصاف للموتى من ضحايا الفكرة الجامدة الاعتدائية القتالة التي تسيّر بعض طلاب السلطة. في هذا القسم من التاريخ لايستطيع من يلجه الادعاء بأنه سيقف على الحياد بين الضحية والجاني. ومن يدعي هذا هو كاذب على نفسه وعلى قرّائه. المؤرخ الحقيقي ليس حكماً في مباراة لعبة كرة القدم ولا هو مذيع تلفزيوني يدير مناقشة خبراء في مسألة يلقي خلالها أسئلة استطلاع واستدراج فحسب وهو بهذا يفترق عن مدوّن الوقائع التاريخية وهو الاخباري الذي يسجل الأحداث سرداً زمنياً فحسب من غير محاولة إبداء الرأي في ما يسجل.

هذه فقرة من المقدمة التي صدّرت بها كتابي «مغامرة الكويت: الوجه والخلفية[٣]».

ترتفع أصوات عديدة منادية بالحاجة الى كتابة جديدة لتاريخ بلادنا العراقية يوضع فيه حدّ للأكاذيب التي مابرحت تدق بلا هوادة على عقول أجيال متعاقبة من المواطنين. الإساءة الى تاريخ العراق لم تكن قاصرة على الكتاب العراقيين فقد أقدم عليها كثير من الكتاب الأجانب.

خرج العراق دولة بعد مخاض في مؤتمر ڤرساي وعصبة الأمم دام خمس عشرة سنة وبفضل الحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨ إن كان للحرب فضل، وقبل ذلك لم يكن له وجود سياسي أو جغرافي ولا إطار ديموغرافي يستوعبه. وكان نتيجة خلق هذه الدولة الجديدة أن حشرت داخل حدودها المرسومة قوميات وطوائف مذهبية ودينية لا جامع تراثي أو ثقافي أو لغوي يؤلف بينها، وتم ذلك دونما استطلاع لرغباتها. والدولة التي كانت لها الكلمة الحاسمة في صياغة هذا الكيان السياسي لم تجد ضرورة للإستطلاع ولم يكن يدور في مخيّلتها ما سيؤدي هذا

(٣) ط. ستوكهولم ١٩٩١ ج١. الص ٥-٦ [دار آزاد للنشر].

الدمج من المتاعب والمآسي إذ كانت واثقة من حساباتها متفائلة أكثر من اللازم فراعت فيه ما يستقيم ومصالحها فحسب.

ووقع بعد ذلك ما كان لابد منه، فقد قدّر لهذه الدولة المستحدثة بعد بضع سنوات فقط أن تعصف بها دوامة الانقلابات القومية أو اللاقومية المسلحة والعسكرية وقد أحصيت منها ثمانية عشر، وواجهت ايضاً ما زاد عن خمس عشرة انتفاضة مسلحة قمعت بالقوة المجردة وبوحشية. وكان هناك فوق هذا ما يثبته الكتاب والمؤرخون عن تلك الانقلابات والانتفاضات من آراء متباينة متناقضة تنعكس لا في كتب التاريخ والإجتماع بل في الكتب المقررة منهجياً في المدارس وهي كتب دائمة التغيير بتغير نظام حكم أو بمجرد تغيير حكومي أحياناً. وكثيراً ما وجد طالب المدرسة كتاباً يسحب من يده وهو في وسط سنته الدراسية ليوضع بدله كتاب آخر تناقض محتوياته محتويات الكتاب الأول وتسفّه رأيه في تلك المسألة أو هذه.

من جهة أخرى أرادت جمهرة من الكتاب والمؤرخين المتأخرين العراقيين احتذاء بكتاب ومؤرخين في البلاد الناطقة بالعربية تصوير تاريخ الدولة العراقية كساحة صراع للعقائد السياسية فحسب، ولاسيما بين العقائد والنظريات الاجتماعية وبين مفاهيم القومية العربية. وهذا بالطبع يتفق واتجاه الحكومات العراقية التي كانت تريد أن تبني عراقاً موحداً مصبوباً في قالب وطني، وكانت كلمة "الوطني" هي التي تدور على الألسن بدلاً من "القومي" في ذلك الزمن الذي كان عدد من العقلاء والساسة البعيدي النظر يحاولون بناء شعب متجانس من هذا الخليط العجيب الذي شاء الاستعمار البريطاني حشره ضمن حدود معلومة.

في هذا الزمن الذي أتحدث عنه أصدرت مطابع بغداد الحكومية كتيباً منهجياً معمماً لجميع المدارس الابتدائية عنوانه "الأناشيد الوطنية" أُلزم الطلاب بشرائه وحفظ مقطوعاته وتلقي ألحانها عن فم معلم النشيد ومن دون مصاحبة الموسيقى. وكما ذكرت كان الحرص على تلقين هذه الأناشيد وترديدها في المناسبات جزءً من الخطة السياسية الجديدة التي ترمي الى التحول التدريجي عن "الوطنية" الى "القومية". والتأكيد بأن العراق الجديد هو جزء من البلاد العربية التي جزأتها دول أوروبا المنتصرة - في معاهدات ووضعت بعضها كالعراق تحت الانتداب. كانت تلك الأناشيد من نظم ووضع الأديب والملحن السوري المعروف (فخري البارودي)[٤]،

(٤) تعرفت بمؤلف هذه الأناشيد بمحض صدفة. فقد قدم الموصل وقام خلال ذلك بزيارة صديق له في المعاهد العسكرية العثمانية الدكتور (داود الچلبي) وكنت موجوداً خلال الزيارة، وكان ذلك في أوائل الخمسينيات. وأذكر انه نوه بكتاب ألفه حول الموسيقى النظرية وكنت مهتماً بهذا.

وأذكر أنه استعار لها أوزاناً تتفق والألحان التي استعار معظمها من أغانٍ وأناشيد تركية شائعة.

كنا ننشدها جماعياً في المناسبات والإستعراضات مازال عالقاً بذهني مقاطع منها وهذه نماذج:

بالقـــــنا والقُضُـــــبِ شيد مجدُ العـــــــــربِ
رايـــــة العرب اخفقي في الافـــــــق الأزرق...

وهذه:

انـــا جـــندي أبـــــيّ وطـــنـــــــي عربـــي
بـــبلادي أتبـــــاهـــى ليتـني مـــــت فداهـــا
بدمي احـــــمي حماهـا من جمـــــيع الـــنوب

وهذه:

بلاد العـــرب أوطانـــي مـــن الشـــام لبغـــدان
ومن نجـــد الـى يمـــن الـــى مصـــــر فـ(تطوان)[٥]

وأمثالها كثير.

هذه الأبيات وألحانها[٦] كانت بشكل غريب تتمتم بها شفتاي متزاحمة في فمي وأنا أجتاز

(٥) (بغدان) هو العاصمة العراقية وواحد من أسمائها المعروفة تاريخياً، و(تطوان) مدينة معروفة في أقصى شمال أفريقيا.

(٦) لم يول اهتمام بالتاريخ الاجتماعي لكردستان العراقية وانصبّت جهود الكتّاب الكرد الى تدوين التاريخ السياسي والتاريخ الأركيولوجي. ولذلك قد يتعذر علينا تقديم فكرة للقاريء عن حياة الفرد الكردي اليومية في تلك الفترة وبالخصوص مظاهر اليقظة القومية التي تتجلى بأفضل وأدق صورها في اتجاهات المدارس التعليمية. ومصادرنا في هذا الباب قليلة جداً بقدر ما هي سماعية، فقد علمنا مثلاً أن تلاميذ الابتدائيات في مدينة السليمانية (ثلاث على ما أظن) كانوا يلقنون أناشيد بالكردية تفوح منها رائحة المشاعر القومية بنظم وتلحين محليين وبدون ممانعة الحكام البريطانيين في حين لم تحظ مناطق أخرى كأربيل ومنطقة بهدينان بصورة عامة بمثل هذا الامتياز. لم تكن أجهزة الإدارة ولا الأنظمة التعليمية تخضع للإدارة المركزية في بغداد، وبحسب بعض من استجوبتهم من المسنين الذين كانوا تلاميذ ابتدائية في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات أكد لي أكثر من مصدر على قيد الحياة تندرج أعمارهم في هذا الباب أن شعراء الكرد وهواة الموسيقى كانوا إذذاك يحاولون محاولات صادقة في تلقين أولئك الناشئة الصغار ما تجود به قرائحهم من الأناشيد الوطنية. وكدّ أحدهم ممن يقاربني سناً ذاكرته ليقدم لي مثالاً علق بذهنه الحداثة لا يعرف من نظمه ولا من لحنه:

راچلەکین و وریا بووین راپەڕین و هۆشیار بووین بەرگی جەهالەتمان درا
[نهضنا، استيقضنا وانتفضنا وانتبهنا ومزقنا عنا ثوب الجهالة]

موقفاً صعباً يجري فيه امتحانٌ لمقدار ما تحويه من صدق ومقدار ما يؤمن به أهلها. أردد بعضها مثلاً وأنا عائد أجرّ ذيول الخيبة من سفارة دولة عربية رفضت منحي سمة دخول أو من دائرة سفر عراقية وأنا أحمل جوازاً جديداً طبع في رأس أول صحيفة منه اسم دولة أو دولتيْن عربيتين غير مسموح لي بدخولهما وأترنم بهذه المقطوعات ايضاً على أثر خروجي من نقطة تفتيش حدودي أو مطار عربي بعد فحص دقيق لأمتعتي ونظرات لاتخلو من دهشة وربما من ريبة تثيرها عراقيتي في موظف "عقائدي" والتطير والشك بسبب مهنتي التي يفصح عنها جواز سفري "محام وصحافي" ولن أنسى أن أتابع بشيء من الأسف والتهكم تلك الثقة التي يوليها حراس الحدود وضباط التفتيش العرب بأمانة المسافرين الأجانب فلايوجهون أسئلة فضولية اليهم ولايفحصون أمتعتهم مثلما يفعلون بإخوانهم في الوطن العربي الكبير.

لا أرى سبيلاً لي الا اتخاذ مدينة "الموصل" نقطة شروع. هذه هي مدينتي التي ولدت وقضيت معظم حياتي فيها انها تقع في أقصى ركن من حدود الوطن العربي الكبير الشمالية الشرقية تحديداً. انّ ما مر بها وبسكانها من أحداث قد تقوم مثالاً لفشل المجهودات التي بذلتها سلطات الانتداب لبناء شعب عراقي موحّد وبمحاولة القضاء على النعرات الطائفية والدينية والعرقية. رغم ان الدعة والاطمئنان النسبي الذي عاشته هذه المدينة بعد دخول القوات البريطانية كانا يعانيان هزّات اجتماعية او سياسية الطابع. لم تكن مثل هذه الحياة مألوفة في ايام الحكم العثماني لاسيما في ساعات احتضاره الأخيرة. إلاّ أن الطبقة الواعية منها كانت في تلك الفترة بين أغلبية تدعو الى الابقاء بإصرار على الوضع الراهن اي الحكم العثماني وبين أقلية لايؤبه بها ولا خطر منها لم تغزها "اليقظة القومية" إن صح التعبير إلا عندما بدأ النزاع الدولي على الولاية التي كانت الموصل عاصمة لها في ١٩٢٤-١٩٢٥.

جاء في مذكرات (سليمان فيضي) تحت عنوان «الموصل عام ١٩١٣»:

وصلت الموصل و... اتخذت لسكناي فيها داراً فتوارد عليّ القوم يهنئونني بسلامة الوصول وفي الايام القلائل الأولى التي قضيتها في دراسة الوضع في هذه المدينة توصلت الى معرفة الحقائق التالية: إن المؤمنين بالقضية العربية قلائل جداً وان المشتغلين فيها أقل وان النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل تقف حائلاً بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصبغة الاسلامية والخلافة المقدسة وان سطوة الحكومة الاتحادية فيها أقوى من غيرها من مدن العراق وان مدير البوليس فيها (خالد بگ) اتحادي متطرف ملأ طريقي بالاشواك واحاطني

بالجواسيس من كل جانب و... ذهب الى محمد پاشا الصابونچي وابان له خطري على الدين والخلافة...[٧]».

ومع هذا فالموصليون بعربهم ومستعربيهم، بكردهم وآشورييهم بيهودهم ومسلميهم ومسيحييهم ماكانوا يلاقون اي عقبة في التفاهم والتعامل اليومي. اذ ان العربية بقيت اللغة العامة المشتركة Lingua Franca ولم تستطع اللغة التركية لغة الفاتح الحلول محلها بأي درجة.

كان يثير في نفسي العجب أن أتبين السرعة التي استطاع اللاجئون الأرمن تعلم العربية وكان يميزهم بين سكان المدينة لكنةٌ خاصة بهم لاتجدها عند غيرهم من السكان الموصليين غير المسلمين أو غير العرب.

وقد استقبلت الموصل عشرات القوافل الأرمنية التي كتبت لها النجاة من رحلتها الشاقة الطويلة اثناء الحرب. وعاملهم اهلها معاملة انسانية ولم يعترض المسلمون العرب سبيل الطوائف المسيحية العديدة في المدينة عندما خفوا لمساعدة اخوانهم في الدين حتى انهم استجابوا لرؤسائهم الروحانيين الذين حثوهم على الزواج بالفتيات اللاتي فقدن اباءهن وذويهن وعدمن المعيل.

واستطاعت المدنية الخروج من سنة القحط والمجاعة[٨] اللتين اجتاحتا جنوب الامبراطورية

(٧) مذكرات سليمان فيضي. الص ١٤٢–١٤٤. الطبعة الثالثة – لندن: كان قد أرسل مندوباً عن جمعية الحرية والائتلاف في البصرة. للنظر في امكانية تأسيس فرع سري لها في الموصل. وهو يعود ليؤكد في موضع آخر (ص ١٤٣) ضعف الشعور القومي في المدينة «سبق ان قلت ان عدد المؤمنين بالفكرة العربية لايتجاوز عدد اصابع اليدين» ثم يستدرك ليقول انه نجح في كسب حوالي اربعين (عددهم بالاسماء) الا انه ينقل فقرة من [مقدرات العراق السياسية] لمؤلفه [محمد طاهر مصيب العمري] ج ٣ ص٤٥. ط بغداد ١٩٢٥. وهذه هي «نستطيع القول ان اول جمعية عربية تأسست في الموصل هي الجمعية السرية التي سعى بتأسيسها الاستاذ سليمان فيضي الموصلي الذي كان قد جاء الموصل سنة ١٩١٣ آتياً من البصرة. بيد أن الجمعية قد تضاءلت عقب تشكيلها بدون ان تأتي باي عمل».

(٨) أطلق الموصليون عليها اسم (سنة الليراث الثلاث) وهي السنة التي بلغت فيها المجاعة اوجها والناس يتساقطون موتى جوعاً في الشوارع. فبات سعر «الوزنة» الواحدة من القمح وهي ملء تنكة نفط وقد تبلغ زنتها ٢٠ كيلو [على سبيل المقارنة كان متوسط مرتب موظف الحكومة البسيط لايزيد عن ليرة ذهبية واحدة شهرياً] وفي الطبعة الخامسة عشرة من الانسكلوبيديا البريطانية (فصل الحرب العظمى) اشارة الى ارتفاع اسعار المواد الغذائية الخيالي في الامبراطورية العثمانية الى حد ١٦٧٥٪. بلغ الجوع حداً لم يبق كلب أو هرة في المدينة فلجيء الى لحم البشر والجيف وفي العام ١٩١٥ نفذ حكم الموت شنقاً في ساحة (باب الطوب) برجل وزوجته. كانت الزوج تغري الصبية والاطفال الجياع المشردين بالحلوى أو الطعام وتقتادهم الى منزلها حيث يقوم الزوج بذبحهم وطبخ لحومهم وبيعها لمرتادي مطعمه ويدفنان =

العثمانية اثناء الحرب. كما انها لم تحقد على تلك الحكومة التي انتزعت اولادها وشبابها الغض في ليلة ليلاء[٩] واستاقتهم الى جبهة القفقاس التي ابتلتهم ثلوجها ومجاهلها الجبلية ولم يعد منهم الا ما لم يتجاوز العشرة والعشرين قدموا وحداناً لا جماعات يحملون ذكريات الأهوال التي عانوها. وبعضهم لم يوفق الى العودة الا بعد مرور عدة سنين على نهاية الحرب.

وولاء هذه المدينة للترك – وافتقاد اهلها الشعور القومي كان يبدو ابداً بطابعه الديني ولا دخل للولاء القومي هنا ودونك كاتب بريطاني كانت المدينة مقراً لبعثة تبشيرية دينية رئسها حيناً من الزمن قال:

«إن الدين هنا ذو طابع جهادي حماسيّ... والواقع هو أن هذه المدينة هي من أشدّ المدن في الامبراطورية تعصباً وبالتأكيد البقعة الوحيدة التي رأيت الرجال في شوارعها يبكون [السلطان عبدالحميد] ويندبونه بحرقة قلب، وفيما كانت البهجة قد عمت ارجاء الامبراطورية بسقوط الطاغية، اقيمت في الموصل مناحات وتعاز تتحدى الحكومة وسمعت خلالها هذه العبارة الاليمة: اليوم هوى ركن من اركان الاسلام[١٠]».

وعلى أغلب الظن أن المدينة لم تكن الى جانب ضمها وضم الولاية المعروفة باسمها الى الدولة الجديدة العراق وانما كانت تريد ابقاءها للاتراك. يقول السيد ادموندز الذي عين ضابط ارتباط بلجنة التحقيق التي ارسلتها عصبة الأمم لتقديم دراسة وتقرير حول عائدية ولاية الموصل:

«... ان منزلة الدولة التي حكمت هذه البلاد قروناً عديدة مازالت سامية في القلوب، زادها النجاح المذهل الذي حققه (مصطفى كمال) وكانت الدعاية التركية

= البقايا والعظام في سرداب منزله. [اذكر اني قرأت في سنوات الصبا وقائع هذه المأساة مفصلة في تقرير ضاف لأحد الموصليين نشرته مجلة الدنيا المصورة التي تصدر عن دار الهلال في العام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ مع صور للمشنوقين].

(٩) في أوائل ١٩١٦ أصدر وزير الحربية انور پاشا قراراً بإلغاء البدل العسكري وسوق كل من بلغ سن الخدمة القانونية. بكيفية ما علم الموصليون بان المجندين سيساقون الى الجبهة ليلتها فهرع ذووهم الى الثكنة لتوديعهم وداعاً أخيراً (في العادة ان المساق الى الجبهة لايعود) راح كل ثاكل يبحث عن أخ له او ابن أوصديق عزيز أو قريب وكانت ليلة سوداء لاينيرها قمر وصعب التمييز ولم يسمح بالنداء والترجيع فاستعان القادمون الوالهون باعواد الثقاب لتمييز الوجوه والتعرف على احبائهم. واشتهرت الوحدات التي سيقت ليلتذاك باسم (طابور ابو شخاطة) [والشخاطة هو الاسم الدارج في الموصل لعلبة الثقاب].

(١٠) يحسن بالقاريء قراءة الفصل الرابع «اعباء نينوى اليوم: الموصل» من ترجمتي لكتاب المؤلف: مهد البشرية الحياة في شرق كردستان (الص ٦١–٧٤) الطبعة الثالثة. دار نشر ئاراس – أربيل ٢٠٠٠.

تعد بقرب العودة وتتوعد بالعقاب الصارم كلّ الخونة. ولم يعترها وهنٌ ولا وقف حتى جعلت الأهالي في وضع الأمل الدائم الحيوي وفي حالة الفزع والقلق بحسب الامزجة. وكان ثم عدد كبير اشبه بالقطارات المشحونة بالمتفجرات لاتحتاج لغير شرارة واحدة لتفجر اللغم وتصعد بنثيره الى طبقات الجوّ العليا وتجرف اعضاء اللجنة والمذكرات والادارة المحلية وكل شيء وفي هذا يكمن أفضل فرصة للمراقب التركي. ولقد علمنا بمخطط تم بتوزيع آلاف الاعلام التركية في الولاية لنشرها على نوافذ منازل الموصل وغيرها من البلدات والمدن التي ستزورها اللجنة... وتبين لنا أن اختيار (ناظم بگ) دليل على أن الترك بنوا كل آمالهم على الدعاية والدسائس لا على المنطق العلمي وانّ إصرار الحكومة التركية على الاستفتاء العام هو مما ينحو منحى الدعاية اذ ليس ما يؤثر في هدم كيان السلطة أمام اعين السكان مثل مجيء مجموعة لاتدين بطاعة لأحد وتعتبر نفسها فوق القومية لتسألهم هل هم مرتاحون من حكامهم الحاليين الذين ربما ضايقوهم في جباية الضرائب او انزلوا عقوبةً باخوانهم أو اقربائهم لحادث قتل أو جريمة قطع طريق أو لمجرد رغبتهم في استبدال أولئك الحكام بغيرهم وتتضاعف المصيبة عندما تكون الاغلبية الساحقة من هؤلاء السكان جهلة اميين يأكلون وينامون بسلاحهم الذي لايفارقهم في الحالتين مع قلة اكتراث بحياة البشر... وقبيل موعد وصول اللجنة صدرت تعليمات من بغداد بتأليف ما سمي بلجان الدفاع الوطني في كل انحاء البلاد لاثارة المشاعر الوطنية واحياء الحفلات الدينية وارسال البرقيات للبرهان على عزم المواطن الثابت في الدفاع عن اوطانه المقدسة حتى النفس الأخير[١١] وفي الموصل بالذات حيث تصاعد الاستنكار والسخط الى أقصى درجاتهما بمجرد إلقاء الغبار حول (عربية الموصل) طبقت التعليمات بحماسة. وأرسل من بغداد

(١١) جاء في «مذكرات العقيد والاس لاين في العراق ١٩١٦–١٩٤٤ الموسوم [كرد وعرب وبريطانيون: لندن ص١٤٨ .(Kurds, Arabs and Britons The Memoirs of Wallace Lyon in Iraq 1918-1944) «لاحظنا –في أربيل– وصول عدد من ضباط الجيش العراقي الى المدينة بثياب مدنية فاستدعيتهم الى مكتبي (وكان لاين ضابط اربيل السياسي) واستجوبتهم عن سبب وجودهم في أربيل فاعترفوا بكل فخر واعتزاز بأنهم مرسلون من قبل البلاط لإثارة الدهماء ضد الترك. وهم يقترحون كأول خطوة يخطونها وعند اول فرصة ان يملأوا وجوه الترك هؤلاء بصاقاً. وكان هذا خلافاً لوجهة نظري تماماً وماوجدت فيه اية فائدة فقد يلحق مثل هذه السلوك ضرراً بالغاً فطلبنا منهم العودة الى بغداد ففعلوا لأننا قابضون على ناصية الحال. وأطلقت آهة ارتياح عندما أبلغني چارلس ليتلديل (مدير الشرطة) بأنه تخلص منهم.»

شخصيات موصلية بارزة للمساهمة في الحملة. إلا ان المندوبين اعضاء لجنة التحقيق لم يكونوا أغبياء حينما باشروا عملهم فلم يلبثوا قليلاً حتى اكتشفوا ان (لجان الدفاع الوطني) وكتل الوطنيين العراقيين تضم اعداداً كبيرة من المشاغبين والوصوليين والانتهازيين الكثيري الحركة والصخب وهو نوع متوفر دائماً في الشرق الأوسط يؤجج نفوسهم كرههم الاوروبيين بصورة عامة ويزيد في وقيده التعصب الديني. في احيان كثيرة تسأل هذه العناصر المتحمسة سرّاً للجانب التركي الذي يفضلونه فيكون جوابهم انهم جاؤا في الحقيقة لا ليدافعوا عن حق العراق بضجتهم المفتعلة، لأنهم بالاساس يريدون تركيا! ولقد شاهد اثنان من المندوبين مبارزة شخصية بالسكاكين بين شاب وطني متحمس من بغداد يدعى (ابراهيم كمال) وبين آخر من وجهاء الموصل العرب (اصبح ابراهيم هذا وزيراً ممتازاً لوزارة المالية ولو امتد به العمر لبلغ حتماً رئاسة حكومة)[١٢]».

بقي الجو في الموصل متوتراً. وكان الوفد التركي واثقاً كل الوثوق من انصاره في الموصل وعمدوا الى التحرك في الشارع. ويذكر (ڤيرسين) (رئيس اللجنة) مثالاً ونموذجاً لاستجلاب عطف الموصليين الى تركيا:

«بعد ظهر ذلك اليوم خرج الكونت تيليكي (أحد المندوبين) مع بعض المعاونين للتجوال في انحاء المدينة فانطلقت على الفور تظاهرات مؤيدة للأتراك فتدخلت الشرطة وعمدت الى تفريق المتظاهرين بالضرب وكانت أولى المتاعب التي أفضت الى نزاع خطر بيننا وبين الشرطة والسلطات الانگليزية».

يدون عن الواقعة المحافظ المعين حديثاً للواء الموصل (عبدالعزيز القصاب) ملقيا اللوم على عاتق الاتراك في المظاهرات التي خرجت. يقول:

«غادرت الدائرة ماشياً... (كانون الثاني ٢٧–١٩٢٥) فعند وصولي الى ركن الثكنة العسكرية شاهدت جماعة من الاهلين يربو عددهم عن الخمسين وبينهم جواد پاشا في بزته الرسمية ومعه عضو اللجنة الكونت تيليكي وهم ينادون بالتركية (تحيا تركيا، يحيا قائدنا الكبير) «فاستغربت الوضع...» (المذكرات).

إلا ان القصاب كان مزوداً من جهته بتعليمات تقضي بتشجيع العناصر الوطنية الأخرى

(١٢) كرد وترك وعرب من ترجمتنا [الفصلان الاخيران: لجنة الموصل] الطبعة الثانية ئاراس – أربيل ١٩٩٩. وتراجع الص ٤٠٣–٤٠٦ من عين الفصول المثبتة في كتابنا «يقظة الكرد» دار ئاراس. اربيل ٢٠٠٢.

التي تحرص على ضم الولاية الى العراق. وقد علمتُ انه استجار بما كان يعرف آنذاك بحزب الاستقلال وجمعية الدفاع، والحزب الوطني وهي احزاب ومؤسسات لاتحظى باي شعبية وانما كانت قاصرة على لفيف من الوجهاء والاسر البارزة في الموصل ولكنه اهتم بطلاب المدارس والدعاة الذين ارسلتهم بغداد وقد عرفنا غير (ابراهيم كمال) الموصلي وقد ورد ذكره – الأريب والشاعر والصحافي الساخر (نوري ثابت) المعروف باسم جريدته الشهيرة حبزبوز، وهو من اقرباء القصاب ويغلب على ظني ان قريبه هو الذي استدعاه فنظم ولحن مقطوعات لطلاب الثانويات الذين كانوا في حينه نشطين بجمعيتهم في اخراج المسيرات والمظاهرات المعاكسة[١٣] واشتهرت بين القصائد والاناشيد قصيدة لشاب ناشيء اسمه اسماعيل فرج بالمناسبة (ادركته وهو مدرس للعربية في ثانوية الموصل المركزية (١٩٣٨-١٩٣٩) ولم يكن يدرس صفنا ولكن دماثة فيه واستعداداً مخلصاً للارشاد والمساعدة قربني اليه فكنت اعرض منظوماتي عليه فيعمل قلمه فيها ويشير الى أخطائها. وهذا مطلعها:

لست يا موصل إلاّ دار عزّ وكرامة
أنتِ فردوس العراقِ حبذا فيك الاقامة

كانت كما يغلب على ظني تحفل بالعواطف الوطنية والقومية العربيّة. إلاّ أن النتائج التي حصلت عليها اللجنة، وعندما تم استطلاع آراء المبرزين ووجهاء القوم فيها تبين ان المسيحيين وسوادهم واليهود وسوادهم كانوا الى جانب أكراد الولاية بخصوص رفع نير الاتراك عنهم، وقبول حكم الانكليز ولم يكونوا بطبيعة الحال على معرفة بأن القول الفصل في ذلك لم يعد لا لهم ولا للانكليز وانما لغالبية سكان الولاية الاكراد وبضمنها عاصمة الولاية بطبيعة الحال.

لم يكن مردود النتائج التي تلقتها اللجنة الدولية حول انتمائية الموصل وأهلها لأحد الطرفين مشجعاً للانكليز وزبونهم العراقيين فقد تبين ان الغالبية منحازة الى الترك وهم سراة القوم ووجهاؤهم وطبقة الموظفين ومن يسير في ركابهم ويعيش بفضل وجودهم وكثير من اصحاب المهن الثابتة والحرفيين باستثناء المسيحيين واليهود. ولم تستطلع اراء كرد المدينة الساكنين فيها سكنى قرار وقدم بعضهم في سكناها الى اللجنة إلاّ بوصفهم عرباً، على أن القول الفصل الذي انتهى بالنتيجة الحاسمة كان في كردستان عموماً وفي السليمانية خصوصاً

(١٣) عرفت باسم جمعية النهضة وكان يرأسها علي حيدر سليمان وهو كردي النجاد تولى عدة وزارات وسفارات خلال العهدين كنا نجتمع كثيراً في بيروت فيتحدث لي عن رغبته الشديدة في تدوين مذكراته فاشجعه وأعرض نفسي له مرحباً. إلاّ انه توفي ولم يفعل [ذكر من اعضاء جمعيته يونس السبعاوي الذي خلفه في رئاسة الجمعية وعبدالله بكر الذي استوز عدة مرات. وعارف توفيق].

الأمر الذي دفع (ادموندز) ضابط الارتباط في اللجنة وهو ممن لايحتفظ بودّ كبير للكرد وطموحهم وهم لايعدونه من أصدقائهم – الى ان ينتزع هذا القول من فمه مصحوباً بتنهيدة ارتياح:

«إن زيارة اللجنة (للسليمانية) أعطت زخماً شديداً للشعور القومي الكردي الذي جرف في طريقة عدداً كبيراً من المستائين إذ كان أكثرنا تفاؤلاً يتوقع وقوفهم الى جانب تركيا. فاذا بهذا الشعور يدفعهم الى المعسكر المعادي للترك. ان الاستجوابات الطويلة كادت كلها وعلى حدّ سواء تكون ذات اتجاه قومي غلاب لكنها لم تتخذ طابع الانفصال بصورة عامة... ان كرد السليمانية وجهوا ما يمكن ان يوصف بالضربة القاضية في المعركة الدائرة في سبيل المحافظة على كيان العراق وهم على إدراك تام بما فعلوه.

أترى ستفتح الحكومة العراقية عينها بهذه المناسبة وتتبنى سياسة كريمة بعيدة النظر ازاء الكرد؟

«ان تقرير لجنة العصبة جاء مؤيداً لأماني الكرد. فبعد ان أنقذوا العراق في لحظة من أخطر اللحظات مرت به باتخاذهم قرار تصديق المعاهدة الانكلو – عراقية في ليلة ١٠ حزيران ١٩٢٤ التاريخية. عادوا لينقذوا العراق من تجزئة قتالة بوقفتهم الخالدة في السليمانية اليوم. ان قادة الرأي العام الكردي يحق لهم ان يختالوا على الملأ ويفخروا بأنفسهم ويمنّوا على دولة ابوا أن يكونوا لها مواطنين اذلة».

لكن كيف عاملهم القوميون العرب حكام العراق فيما بعد؟[١٤]

★★★

منذ نعومة اظفاري وانتقالي من مدرسة مسيحية الى مدرسة كل طلابها مسلمون لم أشعر بأي حرج من التآخي والعشرة مع اقران وزملاء مسلمين في صفي الدراسي وغير الصفوف. وكان والشيء بالشيء يذكر نصف اساتذتنا إن لم نقل معظمهم احياناً مسيحيين، ولم يكن هناك فرق في التعامل من الاثنين، كانت روح العدالة والانصاف تسود الدراسة بأسمى معانيها. وقد اقتبلت كما أقتبل غيري من تلاميذ عهد شبابي الأول دون بحث جدّي عن

(١٤) كرد وترك وعرب (س. ج ادموندز) الترجمة العربية من قلمنا. الص ٣٨٦ – الطبعة الثانية. ئاراس – اربيل.

هويتي القومية وفضلت كما قلت – التآخي مع رفاقي المسلمين على التآخي مع رفاقي المسيحيين وعشقت اللغة العربية وصرت أكتب دروسي في الانشاء كتابة صحافي متمرس إلاّ من أخطاء لايجيز معظم اساتذة اللغة اعتبارها خطأ يحاسب عليه. وفي خلال سنتين دراسيتين في مدينة الناصرية عشت في محيط دراسي مسلم صرف. فاشتقت اليه وظل يدركني حنين اليه لايقاوم طوال حياتي وان لم استصف لي منه صديقاً كما كان الأمر في الموصل. الا ان مسألة الخليط السكاني في هذه المدينة التي ولدت فيها كان يسلمني الى كثير من التفكير عندما بدأت القضية العربية – وعروبة العراق تحتل جزءً من تفكيري بولوجي أبواب الحياة العامة وممارستي مهنة المحاماة والصحافة. كان الجميع يعرف العربية ويتفاهم بها واضطر سكان القرى المجاورة مسيحيتها وتركمانيتها ويزيديتها التخاطب بها والتعامل واتقان التعبير بها عما يريدون. نادراً ما كنت تسمع اللسان الكردي في السوق ولاتجد السريانية مكاناً لها هناك – غير التخاطب بها أحياناً بين جماعة من قومية واحدة أو في البيوت. وفقد كلُ مسيحي عاشت أسرته في الموصل زمناً طويلاً اي صلة له باللغة الكلداشورية (وهي لهجة آرامية) فلا تسمعها الاّ وهي ترتل في الكنائس وفي الصلوات التي نرددها ونحن صغار ولانعرف معناها.

وجدت نفسي في كثير من الاحيان وانا جالس في شرفة مكتبي المطلة على أهم شوارع المدينة، اتفحص سحنات الذاهب والآيب، فضلاً عن تكوينهما البدني على ضوء ما كنت اوعاه من مطالعة جدية في علم الاجناس البشرية (الانثروبولوجي) ممتزجاً بما اختزنته ذاكرتي من تاريخ المدينة وهو كثير. فأرى بين المارة ذوي العيون الزرق والبشرة البيضاء والشعر الأشقر الى جانب العيون الدعج أو المنحرفة اللوزية التي تذكرك بعنصر المغول في أقصى شرق آسيا. والى جانب الشعر الذهبي هناك الأسود الفاحم والشعر الأحمر، هناك الشعر المسترسل والشعر الأجعد والبشرة الحنطية والزيتونية الى جانب السمراء والحمراء المطرزة بالكلف الى ما يقارب سواد الأفريقي، ويمر بك خلال دقيقة أو أقلها صاحب الانف الطويل المستقيم أو الافطس أو الاقنى وذو الوجنات البارزة والجبهة العريضة يتبعه ضامر الوجنتين ضيق الجبهة بشفاه غليظة نافرة أو رقيقة صغيرة. كل عنصر وكل قومية تتمثل في هذا الخليط العجيب الذي هو بحق جنة لعالم في الاجناس البشرية. لاشك انه لن يخفي عجبه من هذه الهيئات الجسدية رغم وحدة اللباس والتقاليد واللغة على الخصوص. كيف نبتت جذور القومية العربية في هذا الخليط البشري غير المتجانس خلقاً وربما مزاجاً. وكيف وجد أصحابها لأنفسهم ارضية للتعايش بسلام بعضهم مع بعض؟

ما أظن بقعة من الأرض كالموصل وارباضها داستها اقدام مثل هذا العدد العظيم من الفاتحين يسكنون فيها ردحاً من الزمن ليبذروا بذرتهم في ارحام اهاليها قبل ان يرغموا على تركها. وليس المقام هنا مقام تفصيل في هذا الأمر. وأنا اخترتها مثلاً لا لكونها مسقط رأسي وانا أعرف الناس بأمرها ففي رسالتي هذه لاتجدني اميز تمييزاً انانياً بخير أو بشر بين هذه المدينة العربية (أو مدينة العروبة كما يحلو لبعضهم تسميتها) وفي أوقات مخصوصة وبين سائر المدن الأخرى في البلاد الناطقة بالعربية من حيث السعة والمكانة والأهمية. بل لان الاقدار واطماع البشر الدنيا اختارتها لأول امتحان قومي عربي. خرج بشكل ثأري انتقامي ليودي الى مذبحة كبرى. مذبحة الآثوريين.

اقام الآثوريون الغابرون هذه المدينة بمثابة قلعة في ضواحي عاصمتهم نينوى الغربية ثم ذهبوا الى غير رجعة. ولم يمر الفاتحون المتعاقبون بعدها وأغلبيتهم مكثت ردحاً من الزمن وأسكنت قومها سكنى قرار. مكث فيها الماديون (٦١٣ق.م) وسمحوا للآراميين القادمين من سورية بدوام الاضعان اليها. وخلفهم جاء الاخمينيون الفرس ولم تكن اللغة الفهلوية القديمة بمفرداتها القليلة قادرة على هزم الآرامية (السريواشورية الكلدانية) ثم طردهم اليونانيون خلفاء الاسكندر المقدوني وبقيت ثلاث قرون تحت حكمهم وقد جاؤا بكثير من أسرهم وذويهم ليسكنوا تلك الانحاء كما يحدثنا التاريخ عن وجود عشرات الالوف من أهل السبي اليهودي منذ عهد سرجون وسنحاريب الآشوريين (القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد). وقعت بيد البيزنطيين ثلاث عقود من السنين كانت أسرٌ كثيرة من مختلف الأجناس تقصد المدينة للاحتماء بجدرانها المنيعة عندما يجتاح فاتح قراها والضواحي التي تحيط بها ويعمل فيها قتلاً ونهباً وناراً. قبل أن ينتزعها العرب وتنزح اليها أو تهجر بعض قبائلهم – ولم يعرف سكانها فاتحين ارحم من هؤلاء اصحاب الدين الجديد طوال حياة مدينتهم هذه وقبل الاحتلال البريطاني. فخروج يد العرب المسلمين عنها بعد قرنين من الزمن ووثوب حكام تركمان ومغول وأكراد، ثم محاولة فارسية لفتحها في القرن السادس عشر، دفع الاتراك العثمانيين الى فتحها كاول ثغر من ثغور العراق الكبرى وبقوا فيها ما يزيد عن ثلاثة قرون.

لم يكن اسلام الاتراك العثمانيين ذا طابع جهادي كاسلام العرب والى هذا يعود سرّ بقاء الجالية المسيحية بعددها الكبير في الموصل خاصة والعراق عامة تعيش بأمن ودعة. فهم لم يحاولوا كأخوانهم وبني قومهم التركمان واقربائهم المغول قبلهم تمصير المدينة وتشجيع قومهم على النزوح اليها الا انهم أغنوا أنسالها برجال حربهم وبالحاشية والاتباع الذين كانوا يرافقون ولاتهم وحملاتهم من شركس و جيورجيين وسلاف وچچن وبلغار ويونانيين وداغستانيين وكان

هؤلاء قوام الجيش العثماني الذي عرف بالانكشارية[١٥] فضلاً عن افارقة وعرب من اليمن وحضرموت استخدموا بمثابة عبيد وارقاء في اعمال منزلية.

طردت اللغة العربية كل لغة سبقتها الى تلك الانحاء وقطعت طريق النمو والانتشار على لغات كل الاسياد الذين حكموها بعدهم ولم تقو اللغة التركية التي حكم اصحابها المدينة ثلاثة قرون متواصلة على منافستها بل وقعت ضحية لها، وأخذت عنها أحرف الكتابة وأصبحت آلاف من الكلمات والمصطلحات والتعابير العربية جزءً لايتجزء من لغتهم في التخاطب والكتابة. حتى ليخيل اليك وانت ممسك بكتاب تركي، تتساءل أأنت تقرأ في كتاب عربي طرزه كاتبه بمصطلحات تركية جهلاً منه أو مجاملة؟

ويهتف متضايقاً حانقاً أكثر من واحدٍ من جهابذة اللغات واللهجات السريانية – الآرامية مقراً: «العربية قتلت لغتي»! وسأل كاتب هذه السطور واحداً من أشهر كتاب الفارسية وعلمائها:

«ما الذي لايحملكم على التخلص من الكلمات العربية الرائجة في معجمكم وكتابات كتابكم؟ كما فعل كمال اتاتورك؟

اجابني ضاحكاً:

«سنقضي اذن على اللغة الفارسية فجمالها ورصانتها انما كانتا بسبب اقتحام العربية ارضها. وصاحبك اتاتورك حاول كثيراً الا انه فشل فهناك مئات من الكلمات العربية يستخدمها التركي. ولاتسله من اين اتت وهو مستعد لجدالك بأنها جاءت مع اسلافه من قلب آسيا».

سمت هذه اللغة وارتفعت لا بحماية فاتح أو بطاغية فرضها على مجتمع ما بالتهديد بالعقاب فهي من جهة لغة القرآن وهو كتاب الوحي الذي انزل على نبي من انبياء الله ولم يختص بشعبٍ أو بأمةٍ معينة. وهي تمتاز من جهة أخرى بميزة حرمتها اللغات الحديثة وهي قابلية الاشتقاق أعني ان جذر الكلمة فيها يمكن تغيير مفهومه بزيادة احرف معينة بحيث تبدو الكلمة المزيدة وكانها لا علاقة لها باختها. تلك هي المرونة العظيمة التي جعلتها مصدراً لجميع اللغات التي احتكت بها. ولم يقتصر تأثيرها على هذه اللغات الشرقية التي ذكرتها بل

(١٥) تصحيف من تعبير يني چري: اي الجند الجديد. اهلكهم السلطان محمود الثاني (١٨٠٨–١٨٣٩) في ١٨٢١.

تعدّاها الى لغات اوروبية حية. ولايتسع المقام هنا لتحليل تلك الرابطة العظيمة والحبّ لتلك اللغة عندما يلتقي اثنان من مخاطبيها في بلد اجنبي ويكتشفان قبل كل شيء وقبل ان يعرف واحدهم عن بلاد الآخر ودينه ان هناك رابطة بينهما اعمق من القومية وأقوى من الدين.

وتنكشف قدرة هذه اللغة بميزاتها وعملية الاشتقاق الدؤوبة فيها بقابلية الترجمة الدقيقة اليها من لغاتٍ أخرى صعبة. وهي بذلك كالدين الاسلامي الذي (ولاستبق القول عنه) يكشف أحياناً عن مرونة عظيمة، وبنوع خاص عن استعداد أكثر في مماشاة روح العصر والتفاهم والحلول الوسط مع اتجاهات الانظمة أكثر مما نجده عند اليهودية المتزمتة أو عند البروتستانت أو عند الكاثوليك المسيحيين الى حدٍ ما. فقد سمح علماء الدين المصريون مثلاً بتحديد النسل. على أنهم كانوا أحياناً يقفون موقفاً صلباً معانداً لتلك الحكومات التي تتردد في مواجهتهم مواجهة علنية. أو باتوا هم اصحاب الرجعة والتشدد المتعصب بحكم كونهم خدّاماً للسلطة كالذي يحدث اليوم في ايران وفي السعودية[١٦].

على ان مسألة العلاقة بين الديانة والقومية سنعود اليها بتفصيل أكثر ولنقف هنا عند هذا الحدّ.

هناك شواهد على الطروء القومي هنا. وبأنه جاء متأخراً عن بغداد والبصرة، ومتأخراً جداً عن دمشق وبيروت. شواهد تاريخية ومحلية عملية حملت كثيراً من الكتاب على إطلاق كلمة المدينة «المحافظة» عليها. وكذلك بهدف تفسير التحول الفجائي لمسلميها عن الولاء التركي الى «الوطنية الأقليمية» التي اتسعت لتشمل القومية بمعناها المجرد الواسع. فبتحريض من الوطنيين العرب الذي اصبحوا «محافظين» جدداً (وبينهم محافظون اتراك قدماء كثيرون) وهم من بقايا الجمعيات العربية السرية التي كان لها نشاط ضيق متفاوت في ايام الحكم العثماني الأخيرة وبعد ان أعلن دولياً ضم ولاية الموصل الى العراق الجديد، وجدنا المدينة بتأثير من رجال الدين ترفض قبول «فيصل» ملكاً، واعتلى الخطباء والأئمة المنابر مقبحين قرار نصبه. ولذلك هدف الملك الجديد في أول زيارة له الى المدينة خطب ودّ العلماء وكسبهم الى جانبه وحملهم على العدول عن مقاطعة البيعة له والاقبال على عملية الاستفتاء. بلغ به

(١٦) شدّد عبدالناصر في أوائل الستينات من حملته على الشيوعية والشيوعيين عموماً وخصّ بها شيوعيي مصر. وأذكر اني بالمناسبة اطلعت على الفتوى الشهيرة التي أصدرها شيخ الازهر (او ربما مفتي الديار المصرية) في العام ١٩٦٣ التي تحرم زواج كل من كان شيوعياً من الطرفين وتعتبر الزواج باطلاً غير واقع قانوناً (في حدود ذلك الوقت نشرت الصحف ووسائل الاعلام الغربية البيان الذي اصدره پاپا روما، بعدم تأثر الرابطة الزوجية بالعقيدة السياسية التي يعتنقها أحد الزوجين، لا دينياً ولا قانونياً).

التهافت على الحكم انه قصد – كما قيل لي – دار كبير هؤلاء بزيارة خاصة وكان هذا السيد يجد نفسه أحق بها منه[١٧].

الخلاصة: لايحضرني ذكرٌ لمدينة من مدن العالم دخلها فاتحون بهذه الكثرة واستقروا فيها ردحاً من الزمن ولم يتركوها الا بعد ان خلفوا لهم فيها أثر. ويتجلى ذلك بكثرة المصطلحات الآرامية والفارسية والتركية والجيورجية والكردية التي تحفل بها لغة الموصلي الدارجة. رغم فصاحة اللهجة ودقة النطق بالحروف التي لاتجدها حتى عند العرب الاقحاح من قلب الجزيرة.

والاعجب من هذه المدينة التي كانت منطلقاً لأول مجزرة جماعية ترتكب باسم القومية العربية وبحجة تأديب شرذمة من اللاجئين اجترأوا عليها. انها بقيت حتى العام ١٩٢٥ عاصمة لولاية عثمانية تتألف الغالبية الساحقة من سكانها من كرد ومسيحيين كلدان وسريان وآشوريين بقراهم وبليداتهم التي تكتنفها من كل جانب تقريباً، خلا فتحة في الدائرة تقع جنوب غربها وهي المنطقة شبه الصحراوية التي اعتاد العرب البدو قبل حوالي ثلاثة قرون انتجاعها للرعي وشنّ الغارات وقطع الطرق. وقد بدأ هؤلاء الاعراب عملية استقرار بطيئة جداً في حدود منتصف القرن التاسع عشر في قرى ومستوطنات. وامتدت بهم الهجرة شمالاً وشرقاً واختلطوا بالسكان الاصائل حيناً. كما نفذوا الى العمق وأوجدوا لهم قرى ومستوطنات بين القرى المسيحية والكردية شمال المدينة وجنوبها. وعبرت قبائل لهم الضفة اليسرى من نهر

(١٧) وربما كان يطمع بالأقل منها جاء ذكر «العبيدي» في مراسلاتي مع الدكتور (مجيد خدوري) المؤرخ العراقي الشهير نزيل الولايات المتحدة وعميد كلية الدراسات الدولية في جامعة هوبكنز. جاء في رسالته المؤرخة في ٢٠ من آب ١٩٩٧ هذا: «كان الحاج حبيب أفندي في الاستانة قبل الحرب العالمية الأولى يؤيد جمعية الاتحاد والترقي التركية بينما كان الضباط العرب في الاستانة يدعون الى استقلال البلاد العربية. كان فيصل (ملك العراق فيما بعد) عضواً في البرلمان العثماني ممثلاً للبلاد العربية ويسعى مع العرب لاستقلالهم. اما العبيدي فكان يؤيد الاتراك ضدّ الجمعيات العربية التي تؤيد الحركة العربية. لذلك حين اعتلى فيصل عرش العراق وتألفت الحكومة العراقية عاد حبيب أفندي الى الموصل وكان يؤمل ان يعينه الملك عضواً في مجلس الاعيان ورغم ما سعى للحصول عليها يؤيده بعض اخوانه في الموصل. رفض فيصل ذلك ولم يحصل مفتي الموصل على العضوية بل حصل عليها بطريرك الكلدان. وقد زار جناب مفتي الموصل بغداد أكثر من مرة وحاول مقابلة الملك فيصل. والذي اعلمه بنفسي اني رأيته مرة في الديوان الملكي حين كنت في زيارة هناك وقد سألتُ رئيس الديوان هل حصل المفتي على مقابلة الملك والذي علمته في ذلك الحين ان المقابلة لم تتم.» وأقول موضحاً ومكملاً: «ان العبيدي هو الذي خلع على نفسه لقب المفتي لم يسندها اليه أحد» نقول: ان الذي فات على الدكتور خدوري هو موقف (حبيب أفندي) من تنفيذ الاحكام بوطنيي سورية الذين شنقهم (احمد جمال پاشا) في دمشق وعالية. فقد كان حينذاك اماماً (أو مفتياً أو مرجعاً دينياً) للجيش الرابع التركي وهو كذلك بقيادة جمال پاشا المذكور. فقد أعطى فتوى كما قيل بجواز تنفيذ حكم الموت بهم بوصفهم اعداء للخليفة وبان غايتهم تقويض صرح الخلافة بتعاونهم مع الأجانب الكفار. كان العبيدي شاعراً جيد النظم. وقد توفي منسياً [وسيكون لنا عودة وشيكة الى هذا الشخص].

دجلة وبنوا لهم قرى فيها بين قرى التركمان والشبك والصارلية. على انه لايمكن ان نعد هذا بمثابة هجرة جماعية عربية ثانية كتلك التي تمت (الى داخل المدينة لا خارجها) في عهد الخليفة الثاني (عمر ابن الخطاب) فتلك كانت الهجرة العربية الكبرى الأولى والأخيرة اليها وقد تمت في عصر الفتوح الاسلامية الأولى.

في أثناء عملية المخاض القومي. كانت ثمّة عملية ترمي الى صياغة شعب عراقي موحد ذي هوية واضحة، من شتى الاقوام الذي يتألف منها المجتمع العراقي ولم يكن يتضمّن اساساً شعور اعتزازٍ معين بهوية أخرى غير الهوية العراقية، إلا أن «الحادث الآشوري» وما لحقه من تأديب دموي لهؤلاء الدخلاء، حوّل بشكل ظاهر لاتغفله عين الفاحص العمل لبناء مشاعر وطنية الى عمل قومي عربي استفز مشاعر الكرد الذين بدأ اهتمامهم بالوطن العراقي يتهافت وأحدث ردّ الفعل المتوقع فيهم عندما بدء مصطلح القومية العربية يزحف بالتدريج ليحتل مكان «الوطنية» و«الوطن العراقي الواحد» مزاحمة اسيء توقيتها عرقلت الى حد كبير عملية صياغة اجتماعية، في انضاج شعب عراقي وانقاذ قومياته المختلفة وطوائفه الدينية المتعددة من أيدي المتشددين والانتهازيين والطفيليين. وكذلك من ردة الفعل العنيفة والمخاوف الوهمية منها والحقيقية لتلك القوميات والطوائف. ومن بين كلّ هذه لاح شبح «التعريب» ليحل محل التتريك الذي حاوله «الجون ترك» في شعوب الامبراطورية العثمانية قبل ان تلفظ انفاسها الأخيرة ببضع سنوات حاول القوميون الاتراك بكل ما أمكن تجنيده من الحماسة والحميّة الدينية انجاح مشروعهم القومي الكوزموپوليتي. وكانت الحرب العظمى الأولى هي التي أنقذت تلك الشعوب المهددة بالتتريك – كانت المعجزة التي أنقذت تلك الشعوب ووضعتها على خط الحرية. كان تصميم (الجون ترك)[١٨] في حزب الاتحاد والترقي على

(١٨) ان «الجون ترك = تركيا الفتاة» هم الجناح التركي المتشدد من الاتحاديين (حزب الاتحاد والترقي) انتزعوا الحكم في ١٩٠٩. وعرف ثلاثي (طلعت – انور – جمال) بطغاة الحكم العثماني. ورفع انور من رتبة رائد الى رتبة مشير (فيلدمارشال) خلال الحرب العامة. وكان من سوء حظ الأرمن ان القى هذا الضابط عليهم تبعة فشله في عملية تقويض صرح الامبراطورية الروسية اذ مني بهزيمة ساحقة. فألقى وهو في سورة من الغضب تبعة الهزيمة على التعاون الأرمني مع الروس واستخدامهم رتلاً خامساً لهم وأمر بالتهجير المقترن بمذابح الأرمن الساكنين شمال شرق تركيا في العام ١٩١٥ واجلائهم اجلاءاً عاماً خارج الاناضول وترحيلهم قسراً الى المناطق الجنوبية من الامبراطورية وتم التنفيذ بالتنسيق مع (طلعت) وزير الداخلية. الفت الكتب الكثيرة وصنفت تقارير رسمية وغير رسمية بشتى اللغات حول هذه المأساة العظمى بكل ما رافقها من قتول وجرائم اغتصاب وسلب وفظائع. فقد دفعت عشرات الالوف من هذه الجموع البائسة بارتال لا نهاية لها نحو الجنوب عبر الجبال والصحارى تحت الثلوج والمطر والشمس المحرقة دون غذاء او كساء أو مأوى، بأقل التقدير هجر نصف مليون ولم يصل منهم ذكر بالغ واحد. في=

دخول تلك الحرب السبب في فشل اول مشروع قومي مبني على التغلب العنصري القسري اللاليبرالي.

أكان ما حدث في بقعة قريبة من الموصل أمراً عرضياً مفاجئاً لا أسباب ولا ممهدات تاريخية له؟ ان الحديث طويل متشعب عن مزاج الموصليين المتقلب بخليطهم القومي العجيب، وبردود فعلهم ازاء الأحداث العنيفة؟ فكما مَرّ يوم الاحتفال الرسمي بعودة الجيش منتصراً[١٩] كذلك مَرّ اليوم الذي صرع فيه بطل العام ١٩٣٣ الذي أمر بالتصفية الآشورية – صرع برصاص عريف من جنود لوائه في موضع لايبعد بأكثر من ٣٠٠ ياردة عن المنصة التي استعرض فوقها وحدات الجيش بعد أربع سنوات بالضبط وفي عين اليوم الذي أمر فيه بالمجزرة. وهو من أعجب عجائب موافقات التاريخ واندرها. ان التاريخ العام بمجلداته الضخام لايحتوي على مثل هذه الصدف العجيبة. مَرّ اليوم هادئاً ولم يشعر أحد بموت أول دكتاتور في البلاد العربية. مَرّ كالايام الأخرى لا كما مَرّ يوم دخول الجيش الظافر المدينة في صيف ١٩٣٣.

كان ثم شعور بوجود طرحين متناقضين في المجتمع العراقي اثناء محاولات كادت تبدو غير جديّة لضيق نطاقها – لصياغة شعب عراقي موحد ذي هويةٍ جلية من الاقوام التي يحتضنها القطر، اي الوطن. والعمل الوطني، والوطنية باختصار[٢٠] في عين الوقت لم يجد دعاة القومية العربية فيه تناقضاً في الدعوة الى الوطنية والقومية معاً. ولا حرجاً في تبني كليهما.

لم تكن اثارة الحماسة بندب الشعور القومي العربي ناجحاً ولا مفيداً في بلاد كالعراق فيه ٢٢ بالمائة من السكان غير عرب ولايمتون الى أصول عربية، فضلاً عن ٧ بالمائة أو أكثر لا صلة لهم بالعروبة غير اللسان. مع ذلك وبفضل رجال الدولة ومعاهدها ورسل الثقافة الذين جيء بهم من البلاد الناطقة بالعربية لسدّ شواغر التدريس. بدت في احيان كثيرة وكأنها البديل الحتمي للوطنية، والحائل دون غرسٍ ثابت صحي لمفهوم الوطنية العراقية[٢١] ونحن ابناء ذلك الجيل لم نكن نملك وقتئذ ذلك الادراك لنتفهم خطورة استبدال «الوطن العربي

= حين مات في الطريق أو اختطف أو فقد أكثر من ثلاثة ارباعهم. دمرت ارمينية التركية تدميراً كاملاً وخلت تماماً من سكانها.

(١٩) راجع الفصل من الكتاب الثاني (مأساة الآشوريين).

(٢٠) المعنى القاموسي لكلمة وطن – هو المنزل أو المسكن أو البيت. قال ابن الرومي الذي هددته الحاجة الى عرض منزله للبيع فأبى

ولي وطنٌ آليتُ الاّ أبيعه وألاّ أرى غيري له الدهر مالكا

(٢١) ليس هناك فرق محسوس بين كلمتي: Nationalism و Patriotism إلا اننا سنختار الأولى كلما اردنا بها كلمة (قومية) وسنقصد بالثانية مصطلح وطنية.

الكبير» بـ«الوطن العراقي».

كان في أحداث ١٩٣٣ بداية لعهد الصخب والضجيج القوميّ الذي أججته الوزارة الگيلانية. أول وزارة تشرف نفسها بلقب الوزارة القومية. شجعت الصحف لكتابة المقالات النارية واحتثت الدهماء على الخروج بمظاهرات التأييد وتبارى نوابها القوميون بالقاء الخطب الحماسية، وبدأ النشيد الذي ضربنا به المثل:

بلاد العرب اوطاني من الشام لبغدان

ومن نجد الى يمنٍ الى مصر فتطوان

نشيد الفتيان العراقيين المفضل في المدارس كبراها وصغراها.

مزاحمة غير مشروعة في بلد حديث بين بلاد العالم يتألف من عدة قوميات عرقلت الى درجة كبيرة عملية اخراج شعب عراقي ناضج موحدٍ وإنقاذ قومياته وطوائفه المتعددة من أيدي المتعصبين والمتنطعين ومن ردود الفعل العنيفة بعامل فوضى اجتماعية مؤقتة ينفلت خلالها حبل الامن والنظام وتقف السلطة منها على جانب احياناً أو تتفاعل معها أحياناً، بل من مخاوف وهمية أكانت أم حقيقية تلك التي تنتاب الاقليات العنصرية والقومية عندما يلوح شبح (التعريب) بوجهه الكالح المخيف، تعويضاً كما يبدو وتقليداً لعملية (التتريك) التي باشرها الانقلابيون العثمانيون ايام امبراطورتهم الاخيرة مغطاة بقناع العثمنة، فجاءت الحرب العظمى في ١٩١٤ لتدفن هذا المشروع بموت الامبراطورية وتصفية أملاكها وهو ما اتينا الى ذكره.

كان (التعريب) عند رجال السلطة العراقيين البديل لعملية التتريك فمعظم هؤلاء كانوا من موظفي الدولة البائدة ومن ضباط جيشها الكثير. وكلهم تقريباً رغم عروبتهم كانوا اعضاء في جمعية الاتحاد والترقي ان لم يكن بعقيدة وقناعة فبالتظاهر والتستر والتقية إن لزم الأمر. مما يدعو الى الأسف والرثاء ان محاولات التعريب رغم اخفاقها المتوالي كانت دائماً على حساب اضعاف الشعور بالمواطنة (الوطنية) وقد كان الفشل دائماً حليف كل مشروع قومي كوزموپوليتي (وهو موضوع كتابنا الأصلي) فمن خلال اختياري الموصل واهاليها لتكون مختبراً لاجراء تجارب مرة على مقدار ما تقوى الديماگوگية السياسية والغوغاء العنصرية على إحداثه في النفوس، بقيت تبدو بمرور الزمن فهي قومية عربية تارة ويسارية اشتراكية تارة، واشتراكية قومية آناً. وديمقراطية صامدة آناً آخر وتلك حال سائر المدن في البلاد الناطقة بالعربية عند تعرضها للهزات والزلازل الاجتماعية الطارئة. أو عندما يفرضها عليها نظام

حكم مخصوص.

سأضرب من ذاتي مثلاً فقد عاصرت معارك القومية العربية وارهاصاتها يوماً بيوم وساعة بساعة لا في مدينة واحدة بل على صعيد الوطن العربي الكبير. وقد توفر لدي انطباعٌ عام بمرور الزمن ان مجتمعي البشري لم يكن في اي وقت من الاوقات متنافراً متباغضاً. وان تلك النفرة التي كنا نشاهدها في أوقات مخصوصة لاتلبث ان تعود الى مناصرة فلا أحد عدو احد، لم اجد فرصاً اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية حبستها قومية أو طائفة معينة على قومية أو طائفة أو جنس. او امتيازاً احتكر وحبس عن الآخرين. سكنت الموصل آلاف الأسر الكردية وحكمها العرب والكرد كما حكمها اجانب قادمون من آسيا الكبرى والصغرى واتيح للجميع السعي والعمل بحرية قدر ما يسمح الحاكم المستبد وما تجيزه طباع الفرد من سوء خلق او رفعة. ولدت فيها كما ولد فيها اجداد لي وآباء. مارست فيها صناعة القانون ونشرت مؤلفاتي وتراجمي وامسكت بزمام اكثر من صحيفتين. وكان مكتبي ملتقى كل ادبائها ورجال القلم فيها وشعرائها ومؤرخيها المعروفين منهم والناشئين، وعقدت صداقات حميمة معهم وكان لي أصدقاء اعزاء معظمهم ان لم أقل كلهم من المسلمين تجلى فيهم الخلق الرفيع والأدب الجم قدموا بلا استثناء برهاناً على وفائهم ايام المحنة ولم ينسوني قط. كان لي منهم الكثير في حين كان عندي خصوم واعداء متربصون يتحينون فرصتهم للايقاع بي. وجدني فريق من الأهالي عنصراً يجب القضاء عليه لأنه خطر على كل ما يؤمنون به ويحرصون عليه. ووجد هؤلاء الأخيرون فرصتهم للاساءة ووضع حياتي في كفّ القدر عند طغيان المدّ القومي ونشوب حرب العقائد والنزعات السياسية ليعم بلدان الشرق الأوسط[٢٢] الناطقة بالعربية. فأطلقت احط الغرائز البشرية من عقالها وحلت الروابط الأسرية وفككتها والبست الحزازات الشخصية رداء المصلحة العامة. وصار الأخ يفتك بأخيه والابن يشي بأبيه. وفي هذه الفوضى الفكرية العارمة الهائجة كنت هدفاً كبيراً. اتهمني بعضهم بالتغيير والانتقال من موقفٍ الى موقف، دون ان يشعروا بانهم هم الذين تغيروا وكلما عدت بين فترة وأخرى لأفحص ذاتي وسلوكي

(٢٢) يسأل الكثيرون عن مصدر تسمية الشرق الاوسط وموجدها. وكذلك أختها «الشرق الأدنى» وفي هذين أقول: اخترع مصطلح (الشرق الاوسط Middle East العقيد البحري والمؤرخ الاميريكي الفريد ثاير ماهان Alfred Thayer Mahan في ١٩٠٢ بإطلاقه الاسم على المنطقة التي تقع بين جزيرة العرب والهند. وفي العام ١٩١٦ استخدمها (سر مارك سايكس) في خطبه الكثيرة التي كان يلقيها في مصر وايران وانكلترا الى جانب مصطلح جديد من اختراعه هو الشرق الادنى Near East الذي دخل المعاجم ايضاً كسلفه. وعني به الدول الناطقة بالعربية ومصر عدا شمال افريقيا وايران وتركيا. (يراجع في هذا الباب «برنارد لويس» في كتابه الشرق الاوسط والغرب The Middle East and the West. ط نيويورك ١٩٦٦).

الخلقي، كانت همومي تتزايد قدر زيادة في دهشتي وحيرتي.

في مجال ممارستي القانون دافعت عن حقوق وجهاء المدينة وصعاليكها، رأسماليها وكادحيها، شريفاتها وغوانيها. وفي ميدان الصحافة والقلم سلكت طبق ما سلكته أمام القضاء ودفعت الضريبة التي كتب على كل معارضٍ للسلطة ان يدفعها، أعني ملفاً خاصاً في دوائر الأمن منتفخ بتقارير الشرطة السرية ووضع اسمي في قائمة المشبوهين وقد استخدم خصومي هذا الملف ابشع استغلال. عندما بدأ الاتهام باعتناق الآراء اللاقومية أو القومية العدوة وهي أخطر من رصاصة توجه الى الرأس. ولما ملكتُ ناصية البيان العربي الرائع شعرت بان من اللياقة والحكمة بله الوفاء ان أترك البحث عن هويتي القومية حتى بدأتُ وانا في عزّ الشباب وشرخه بل في قمة نشاطي الفكري اطرد من خاطري بجد وتصميم ذلك البحث وراحت تتطاير من تحت قلمي عبارات قد لا تأتلف مع أعمق مشاعري التي كنت كما قلت احرص على دفنها كلما اصعدها الأذى والظلم الى فوقٍ، كقولي دون حرج مثلاً «نحن ابناء العربية» ولا أقول «انتم العرب» لكني بقيت يلازمني شعور واضح بان القوميين العرب إنما يجنون على انفسهم وعلى القومية العربية – على طموحها وعلى فلسفتها وآدابها عند محاولة التعريب. الذي اصطلح عليه مؤخراً «بالانصهار» وهي محاولة عقيمة بالاصل.

تراكمت تجاربي بتقدم العمر ولمعظمه الطعم الحريف اللاذع، وحملتني بالأخير الى البحث عن الهوية دون الاخلال بالرابطة الاجتماعية للمحيط الذي اعيش فيه وصرت خلال ذلك ابحث عن السرّ والسبب الذي يدعو الاكثرية في الوطن الواحد الى اطلاق اسم الاقلية على مجموعة من المواطنين. وكم كان أكثر تأثيراً في استخدام هذه الكلمة أهو الدين ام العنصر. واين هي هذه الأكثرية؟ لماذا يُخرج من هذا التقسيم بغضاء ونفرة واحتراباً وقتولاً؟ ما الذي يحدو بالمفكرين والاجتماعيين الى فكرة ترويج العنصر وتغليبه بهدف تصنيف المجتمع لا على الأسس الاقتصادية والحضارية، بل على قاعدة اي قوم سكنوا هذه البقعة من الأرض قبل ان يسكنها القوم الآخرون؟ ومن هم سكان البلاد الاصليون وفق هذا التصنيف؟ ومن هم «الدخلاء»؟ وأي فضل او امتياز يمنح للأول ويحبس عن الثاني بسبب من هذا.

وبشكل ما او بآخر كانت هذه الافكار والتساؤلات تزاحمني، وهي تزداد رحابة وقوة بتقدم العمر ومرور الاحداث لتخرج بي عن النطاق المديني المحدود الى الوطن العراقي، ولتنداح لتشمل سائر البلاد الناطقة بالعربية ولتتحول الوانها الى الأحمر القاني بفضل المؤامرات والمؤامرات المعاكسة والحروب والاشتباكات المحلية باسم العروبة والقومية العربية وبروح الغيرة

عليها أو انقاذها من اعدائها. في مجمل الصورة التي تلوح لي كانت مجازر آب ١٩٣٣ في العراق تبدو متداخلة ضمن اطار الصورة وجزءً لايتجزء من المنظر العمومي.

في العراق هناك كان الكرد أولاً ثم الآشوريون ثم اليزيدية الكرد، ثم الشيعة «العرب» في الجنوب. وينتقل المنظر الى سورية ومصر وليبيا والسودان وتونس والجزائر واليمن. وانا لا أجد غير الخطوط الحمراء المعهودة الموهومة في أكثر الاحيان تؤلف الحاجز الفاصل الوحيد وما عداه كان ثم جدول من الدماء يجري ليتصل بجدول آخر ارتفعت على ضفتيهما لافتات فوق اقطاب اعمدة كتبت عليها جمل وعبارات قصيرة لا تخلو اية واحدة منها من كلمة وطنية، قومية، عربية، يعربيّة اسلامية من خلال تتبعي هذا المجرى العام من صدوره الى وروده سأحاول ان أجد سبيلي الى ضالتي.

ملحق

عنوان المقال : ماذا نال العمال من الشيوعية ؟

وهذه ترجمة الفقرة الأولى التي وضعنا تحت سطورها خطوطاً:

في حين تتجه العربة الموسعة بالماركسية مفرقعة مجلجلة وبدون ريث خلال التاريخ نحو النور. فان حملها الشريف الذي كان ذلك المحمل المكثف التجريدي هو الذي يطلق عليه كلمة «البروليتاريا» على ان ماركس لم يخصّ البروليتاريا بتلك المشاعر البرجوزاية المرهفة العاطفية ولم يؤثرها باطراء شخصياً أو كأفراد. فقد كان ماركس وانگلز في رسائلهما المتبادلة الخاصة يشيران الى البروليتاريا بأولئك الحمير الأغبياء.

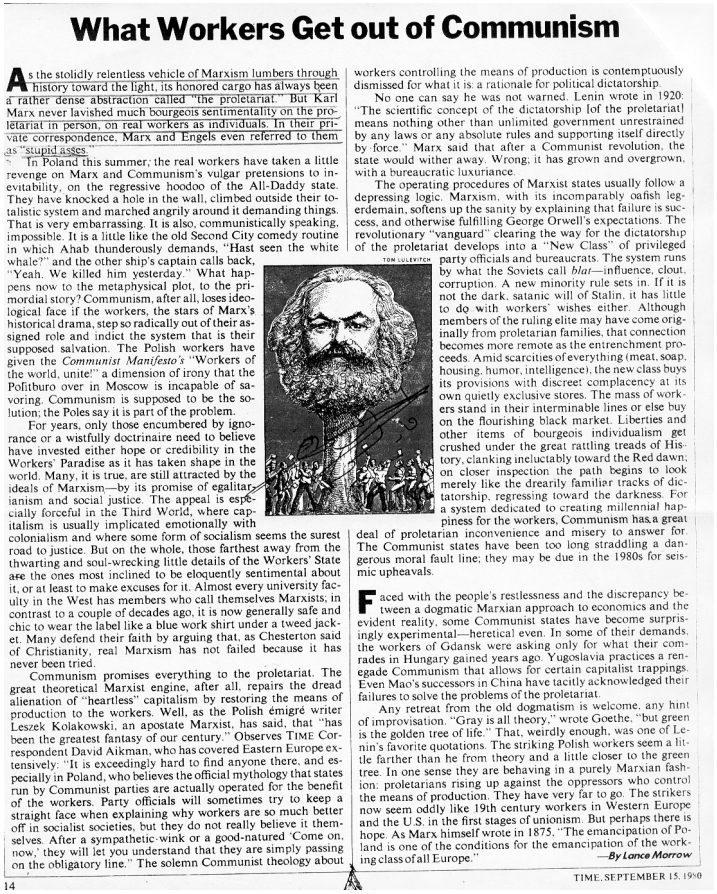

What Workers Get out of Communism

As the stolidly relentless vehicle of Marxism lumbers through history toward the light, its honored cargo has always been a rather dense abstraction called "the proletariat." But Karl Marx never lavished much bourgeois sentimentality on the proletariat in person, on real workers as individuals. In their private correspondence, Marx and Engels even referred to them as "stupid asses."

In Poland this summer, the real workers have taken a little revenge on Marx and Communism's vulgar pretensions to inevitability, on the regressive hoodoo of the All-Daddy state. They have knocked a hole in the wall, climbed outside their totalistic system and marched angrily around it demanding things. That is very embarrassing. It is also, communistically speaking, impossible. It is a little like the old Second City comedy routine in which Ahab thunderously demands, "Hast seen the white whale?" and the other ship's captain calls back, "Yeah. We killed him yesterday." What happens now to the metaphysical plot, to the primordial story? Communism, after all, loses ideological face if the workers, the stars of Marx's historical drama, step so radically out of their assigned role and indict the system that is their supposed salvation. The Polish workers have given the *Communist Manifesto's* "Workers of the world, unite!" a dimension of irony that the Politburo over in Moscow is incapable of savoring. Communism is supposed to be the solution; the Poles say it is part of the problem.

TOM LULEVITCH

For years, only those encumbered by ignorance or a wistfully doctrinaire need to believe have invested either hope or credibility in the Workers' Paradise as it has taken shape in the world. Many, it is true, are still attracted by the ideals of Marxism—by its promise of egalitarianism and social justice. The appeal is especially forceful in the Third World, where capitalism is usually implicated emotionally with colonialism and where some form of socialism seems the surest road to justice. But on the whole, those farthest away from the thwarting and soul-wrecking little details of the Workers' State are the ones most inclined to be eloquently sentimental about it, or at least to make excuses for it. Almost every university faculty in the West has members who call themselves Marxists; in contrast to a couple of decades ago, it is now generally safe and chic to wear the label like a blue work shirt under a tweed jacket. Many defend their faith by arguing that, as Chesterton said of Christianity, real Marxism has not failed because it has never been tried.

Communism promises everything to the proletariat. The great theoretical Marxist engine, after all, repairs the dread alienation of "heartless" capitalism by restoring the means of production to the workers. Well, as the Polish émigré writer Leszek Kolakowski, an apostate Marxist, has said, that "has been the greatest fantasy of our century." Observes TIME Correspondent David Aikman, who has covered Eastern Europe extensively: "It is exceedingly hard to find anyone there, and especially in Poland, who believes the official mythology that states run by Communist parties are actually operated for the benefit of the workers. Party officials will sometimes try to keep a straight face when explaining why workers are so much better off in socialist societies, but they do not really believe it themselves. After a sympathetic wink or a good-natured 'Come on, now,' they will let you understand that they are simply passing on the obligatory line." The solemn Communist theology about workers controlling the means of production is contemptuously dismissed for what it is: a rationale for political dictatorship.

No one can say he was not warned. Lenin wrote in 1920: "The scientific concept of the dictatorship [of the proletariat] means nothing other than unlimited government unrestrained by any laws or any absolute rules and supporting itself directly by force." Marx said that after a Communist revolution, the state would wither away. Wrong; it has grown and overgrown, with a bureaucratic luxuriance.

The operating procedures of Marxist states usually follow a depressing logic. Marxism, with its incomparably oafish legerdemain, softens up the sanity by explaining that failure is success, and otherwise fulfilling George Orwell's expectations. The revolutionary "vanguard" clearing the way for the dictatorship of the proletariat develops into a "New Class" of privileged party officials and bureaucrats. The system runs by what the Soviets call *blat*—influence, clout, corruption. A new minority rule sets in. If it is not the dark, satanic will of Stalin, it has little to do with workers' wishes either. Although members of the ruling elite may have come originally from proletarian families, that connection becomes more remote as the entrenchment proceeds. Amid scarcities of everything (meat, soap, housing, humor, intelligence), the new class buys its provisions with discreet complacency at its own quietly exclusive stores. The mass of workers stand in their interminable lines or else buy on the flourishing black market. Liberties and other items of bourgeois individualism get crushed under the great rattling treads of History, clanking ineluctably toward the Red dawn; on closer inspection the path begins to look merely like the drearily familiar tracks of dictatorship, regressing toward the darkness. For a system dedicated to creating millennial happiness for the workers, Communism has a great deal of proletarian inconvenience and misery to answer for. The Communist states have been too long straddling a dangerous moral fault line; they may be due in the 1980s for seismic upheavals.

Faced with the people's restlessness and the discrepancy between a dogmatic Marxian approach to economics and the evident reality, some Communist states have become surprisingly experimental—heretical even. In some of their demands, the workers of Gdansk were asking only for what their comrades in Hungary gained years ago. Yugoslavia practices a renegade Communism that allows for certain capitalist trappings. Even Mao's successors in China have tacitly acknowledged their failures to solve the problems of the proletariat.

Any retreat from the old dogmatism is welcome, any hint of improvisation. "Gray is all theory," wrote Goethe, "but green is the golden tree of life." That, weirdly enough, was one of Lenin's favorite quotations. The striking Polish workers seem a little farther than he from theory and a little closer to the green tree. In one sense they are behaving in a purely Marxian fashion: proletarians rising up against the oppressors who control the means of production. They have very far to go. The strikers now seem oddly like 19th century workers in Western Europe and the U.S. in the first stages of unionism. But perhaps there is hope. As Marx himself wrote in 1875, "The emancipation of Poland is one of the conditions for the emancipation of the working class of all Europe."

—By Lance Morrow

الفصل الثاني

(تابع) في سبيل البحث عن الانسان العربي . اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها . القاسم المشترك الاعظم الفروق الحضارية والثقافية . التكوين الجسدي . عوامل الفتوم والتكاثر . الشعوب لاتنقرض كلياً بل تخلف آثاراً . آثار الاقوام والشعوب في الوطن العربي الكبير . سيادة اللغة العربية . من هو العربي . الدين الاسلامي دين منظم . الدين الاسلامي والقومية . الاصل في كلمات (عربي ، أعرابي ، عرب ، عربان) . تعميم اللغة العربية في الدوائر (لغة الحكام) الحروف والقراءة والكتابة العربية والتأثير الحيري (نسبة الى مدينة الحيرة) ولغات العراق القديمة . مسم تاريخي حضاري للامبراطورية العربية – الاسلامية . الاختلاط العنصري في اسپانيا . سيادة اللسان العربي الى جانب شريعة الاسلام وصمودهما . القرآن . ميزته عن سائر الكتب المقدسة الأخرى . نظراته : موقفه من القومية . الاندفاع العربي – الاسلامي . الانحسار . ثورة بني العباس . النفوذ الفارسي والتركي . الشعوبية . فكرة القومية في العصر الحديث منشؤها وعراقيلها . الحركة الوهابية . الثورة الصناعية في اوروپا . الحركة القومية العربية يتزعمها المسيحيون . الطباعة ونشر الكتب والصحف . اسماء لمعت في عصر النهضة العربية .

هؤلاء الذين ورثوا اللغة العربية لساناً ضمن الرقعة العظيمة التي أطلق عليها القوميون العرب اسم «الوطن العربي» أو «العالم العربي» فضلاً عن أجزاء أخرى خارجه صغيرة المساحة، يصيبون المرء بحيرة حين يحاول المرء ايجاد قاسم مشترك (باستثناء اللغة والدين) يجمعهم. فمدى الاختلاف في اسلوب العيش والسلوك الخلقي والحضاري في هذا «الوطن» أو «العالم» العربي هو أوسع بكثير مما نجده في «عالم» الغرب في «عالم» امريكا الشمالية مثلاً. والسبب هو ان التغييرات والهزّات العنيفة التي كانت تنقل العالم من حالٍ الى حال افتقرت دوماً الى الموازنة والانسجام بين صقع وآخر. وأحياناً بين مدينة وأخرى. فالتباين مثلاً بين عامل النفط في العربية السعودية وبين الفلاح المصري الذي ظلّ يتبع أساليب الزراعة البدائية، والفرق بين ساكن المدينة البيروتي خريج كلية التجارة في جامعة هارڤرد الأمريكية

وبين ضابط الطيار العراقي الذي تلقى علومه الأولى في العراق وتدريبه الفني في موسكو، بله الفرق بين الدبلوماسي التونسي الذي يحمل شهادة القانون من جامعة السوربون هو أظهر وأكثر وضوحاً من التباين بين المزارع الاميريكي في تكساس وبين صاحب الملايين النيويوركي أو بين جبلي سكتلندي وبين كاهن انگلكاني من (ويلز) بل هو أكثر بكثير مما نجده بين ايطالي من ميلان وبين صاحب مطعم في پالمرو.

وأجلب الى الاهتمام من هذه الفروق والاختلافات هي في أساليب العيش: المتنوعات الفسلجية المتعلقة بالتكوين الجسدي لهؤلاء الناطقين بالعربية. لو انت قمت برحلة تأخذك من مراكش الى بعقوبة ثم اشفعتها برحلة ثانية تأخذك من حلب حتى الدوحة فستجد دون شك كل نوع من السحنات والاوصاف الجسدية والفسلجية المتباينة لتعجز أمهر علماء الانثروپولوجي عن التصنيف وعمل جداول مقاسات متكامل أو قريب من الدقة.

أجل، فأي فحص انثروپولوجي للأصول العرقيّة في عالم عرب اليوم وذلك التباين الهائل العجيب في المظاهر الفسلجية يعود – وهذا موطن الغرابة الى (الجمل)[1] بالأحرى الى ذلك القائد الكبير الذي أدى الى تسهيل خروج العرب من جزيرتهم القاحلة المصحرة، برسالتهم الالهية وسيفهم البتار ونجاحاتهم العسكرية السريعة المذهلة قبل حوالي اربعة عشر قرناً وفتح امامهم فرصاً لاتحد للتماس والاختلاط بمجموعات قومية اثنوغرافية عديدة. واعطى قانون تعدد الزوجات واقتناء المحظيات خارج الاطار الزوجي ثماره فوراً. كان يؤتى بإماء وعبيد من شتى ارجاء العالم المعروف. ودعك من الشعوب التي دانت للعرب بالطاعة. فكن يملأن

(١) [راجع الملحق الأول لهذا الفصل] ليس بالامكان اغفال (الجمل) في تاريخ العرب مطلقاً فبفضله استطاعوا المشاركة في أحداث الشرق الأوسط قبل الرسالة المحمدية بقرون عدة وان يحتكوا بدولها ويقيموا صلات تجارية معها وكانت عملية تدجين هذا الحيوان الثمين بطيئة جداً حصلت بين ٣٠٠٠ و١٠٠٠ ق.م وبه تمكن العرب من قطع الصحارى المترامية في الجزيرة والوصول الى حضارات الهلال الخصيب وشرق ايران من الجنوب وشمال افريقيا في وقتٍ متأخر. الجمل العربي يضرب به المثل بقابلية السير اياماً عديدة قاطعاً مسافات شاسعة من غير حاجةٍ الى ماء فله قابلية استيعاب مائة ليتر منه في غضون عشر دقائق واحتفاظه به في جوفه. وهو يتقدم على سائر الحيوان بذاكرته العجيبة في معرفة الآبار والواحات والاستدلال اليها وبالمقارنة مع الحيوانات الأخرى فهو لايفقد الاّ اليسير من الماء بعاملي التبخر أو التعرق من المسام الجلدية أو من التبول. واخفافه وشعره القصير والنسبة العالية من سطح الجلد الى مساحة الجسم تساعده على تحمل القيظ الشديد. وبوسعه ان يقتات على الاشواك والعشب اللذين لاتستطيع الحيوانات الأخرى هضمهما وهو كذلك يختزن الشحم في سنامه احتياطاً عندما لايجد ما يقتات به. وفي المدونات العتيقة الاسرائيلية والآشورية والبابلية والأخمينية تجد هذه الحقائق ماثلة عندما تراها تضع الإبل في رأس قائمة الغنائم التي يستولى عليها من العرب الغزاة قبل المعادن الثمينة وقبل الأسرى.

للاغنياء وميسوري الحال فضلاً عن رجال الحكومة حرياً واسعاً يعج بالبنين والبنات. ويفرض نوعاً من الشرعية والامتياز لكل من رزقت بولد من المالك (يدعوها الشّرع: بام ولد).

إن سرداً عابراً لأسماء تلك الشعوب التي انصهرت أو امتصت وهضمت في الامبراطورية بعد الفتح العربي الاسلامي، وعملية الدخول في الدين الجديد بشكل كان أحياناً يخرج عن نطاقه الفردي أو الأسري الى النطاق الشعبي الجماهيري ، يعرض للمرء منظراً شاملاً أخاذا لغرابة ذلك المزيج الكثيف الذي خلق مزيداً من عمليات الاذابة والانصهار يزري بما حصل في امريكا عندما تقاطرت عليها جموع المهاجرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع هذا... فليس هناك شعب من شعوب العالم القديم استؤصلت شأفته واندثر تماماً بعامل الآفات الطبيعية أو القتول أو المذابح الجماعية التي تعقب الحروب، وآية ذلك الفشل الذي كان من نصيب الطغمة التي حاولت ذلك في لهب الحرب العظمى الثانية. والفراعنة المصريون والآشوريون والسومريون والكنعانيون وبنو عماليق والبابليون والحثيون والآراميون والفينيقيون والماديون والعلاميون والاخمينيون والكلدانيون والاوراريتون والصغديون والخزر... وعدّد ما شئت من اسماء الاقوام الغابرة التي ظهرت على مرسح التاريخ القديم فانها لم تباد كلياً بل اتخذت في أغلب الاحيان وفي ظروف قاهرة زمانية هويات أخرى، وانتمت وتسترت خلف تلك الهويات لأسباب ودواع شتى. ومن المدهش حقاً ان نرى شعوباً أخرى حافظت على هويتها رغم الكوارث التي حلت بها بفضل مزايا معينة وظروف خاصة. مما يدعو الى التأمل مثلاً ان تجد بين كل تلك الأمم والشعوب التي أدخلها الاسلام تحت حماه بقي الترك والتركمان والفرس والبربر واليهود والكرد والأرمن والكلدآشوريون (احفاد الآراميين) يحافظون على هوياتهم القومية الى يومنا هذا. بينما فقدت الشعوب الأخرى هوياتها وتمّ تمثيلها من خلال حكم الدول الاسلامية العربية وغير العربية. حتى البربر في شمال أفريقيا مازال يشار اليهم باسمهم هذا أو باسم (مغاربة) وشأنهم شأن الكرد ايضاً الذين خضعوا كالبربر الى الحكام العرب. وكما نرى فان تعريف البربر بانفسهم بزعم كونهم عرباً لم يحصل الا في السنوات القلائل الأخيرة من الجيل أو الجيلين الماضيين وقابلتها في عين الوقت ردّة فعل قومية بربرية كاسحة تدعو الى نبذ هذه الدعوة والتمسك بالهوية البربرية وتقاليدها ومن ضمنها اللغة، ويستنكر الكرد مزاعم بعض القوميين العرب في محاولة ردّ أصولهم الى قبائل عربية ويسخرون منها. وتلك السلالة البيضاء والقمحية المنحدرة من الفينيقيين الاوائل امتزاجاً بالهلينيين المهاجرين من جزر بحر ايجه واليونان والقادمين من جزيرتي كريت وقبرص في البحر المتوسط، فهي مازالت تقطن في الجزء العربي من الهلال الخصيب ويتميزون عن سكان الجزيرة العربية الام بعيونهم الدعج

وبشرتهم القمحية أو الزيتونية الفاقعة وهي بين سيماء وقسمات لايمكن أن تخطئها العين المجردة بالمقارنة. على انهم اليوم يفخرون بارومتهم العربية ولايرضون باقل من اطلاق صفة العربي على انفسهم[٢].

(٢) نقول: اختلف الاركيولوجيون وعلماء اللغة في ردّ لفظة (العرب) الى أصل او ايجاد تفسير تاريخي – جغرافي لها. ويرى (برناد لويس) في كتابه «العرب في التاريخ» انها مشتقة من أصل سامي قديم بمعنى الغرب. ذلك لأن سكان بلاد الرافدين سموهم بهذا الاسم لأنهم كانوا يرتادون غرب بلادهم (الضفة الغربية من نهر الفرات وهي بادية الشام والعراق) فهم في منحوتاتهم يشاركون الاقوام الغربية السامية الأخرى بلفظة (عمورو) التي وردت في النصوص الآشورية والبابلية. كما وردت لفظة (عربيي) للأرض التي يسكنونها سكنى قرار في تلك الصحراء. وهذا ما اتفقت عليه ايضاً دائرة المعارف البريطانية (انظر مادة Semitic Languages) اما الكتاب العرب كالاصمعي (في حدود ٧٤٠–٨٢٨م) فانه يراها مشتقة من «يعرب ابن قحطان اول من سجع بالعربية ونطق بافصحها وابلغها واجزلها» ويؤيده في هذا ابن منظور في معجمه «واختلف الناس في العرب لم سموا عرباً فقال بعضهم اول من انطق الله لسانه بلغة العرب يعرب ابن قحطان وهو أبو اليمن كلهم وهم العرب العاربة...» ومن هؤلاء السيوطي (١٤٤٥–١٥٠٥) صاحب (المزهر في فلسفة اللغة) وياقوت الحموي (١١٧٩–١٢٢٩م) صاحب معجم البلدان. لكن علماء العصر يرون انها مشتقة من الكلمة العبرانية (أرابا) وتعني الأرض السمراء التي يغطيها العشب. ومنهم من يرى انها مشتقة من الكلمة العبرية (إرب) التي تعني الحرية وعدم الخضوع لنظام والتمرد. وقال فريق آخر انها ذات صلة باللفظة العبرية (عابار) بمعنى الحركة والتنقل. ورأى آخرون أنها مشتقة من اللفظة العبرية (عرابة) وهو الجفاف ومشارف الصحراء او الحرة. ومنها تسمية وادي (عربات أو عربة) أو الوادي العربي الممتد من البحر الميت حتى خليج العقبة. ويتفق (الازهري ٨٩٥–٩٨٠م) وهو من أئمة اللغة وصاحب معجم «العين». في كتابه «التهذيب في اللغة» مع هؤلاء العلماء المتأخرين بقوله «انما سمّوا عرباً نسبة الى بلدهم العربات». ونعود الى صاحب «اللسان» ابن منظور (١٢٣٢–١٣١١) لنجده ينقل عن اسحق ابن الفرج «ان قريش اقامت بعربة فتنخت (تسمت) بها وانتشر سائر العرب في جزيرتها فنسبوا كلهم الى عربة»، ولو نحن تتبعنا تاريخ ظهورها وما هو مدلولها في اللغات الأخرى وجدنا اقدم نص وردت فيه هو النص الآشوري الذي يعود تاريخه الى ٨٥٣ ق.م فقد أشار الملك الآشوري شلمناصر الثالث ٨٥٨–٨٢٤ ق.م في منحوتة الى ملك صغير أو رئيس عشيرة حقق نصراً عليه باسم (جنديبو العربيي). ويذكر فرانشسكو كابريللي وآخرون ان (جنديبو العربيي) هذا هو الذي عقد حلفاً مع (بير ايدري) الملك الدمشقي وثمانية ملوك آخرين بينهم ملكا حماه واسرائيل (آحاب) وانه ساهم في معركة كركر (أو قرقر) والموقع هو قرية قريبة من حماه تقع على ضفة نهر العاصي والمنحوتة تصف جنديبو بانه وحنوده «ركاب ابل» وان آحاب الملك الاسرائيلي شارك بالفين من العجلات الحربية (لم يرد في التوراة خبر مشاركة آحاب في معركة كهذه).

بعد ذلك بقرنٍ واحدٍ او نحوه راح اسم العرب يتردد بكثرة في الحوليات الآشورية والبابلية. وقد اختلف قراء النصوص في التهجئة فقريء الاسم بـ أريبي، وعريبي، وأربي (عربي)، وعريبو، وعربايا وورد في نصّ بابلي من القرن السابع ق.م عبارة (ماتو أربي) اي أرض العرب. وذكرت مدونات الملك الآشوري تغلات بيلاصر الثالث (٧٤٤–٧٢٧ ق.م) اسمي «زبيبي» و«شمسي» الملكتين العربيتين. ووصف العرب كثيراً في سياق حملات ملوك آشور غرباً وجنوباً فسنحاريب (٧٠٥–٦٨١ ق.م) ذكر في مسلته انه =

وفي وادي النيل الذي يحتل ضفاف نهره ذلك الجمُّ الغفير من فلاحي مصر المسلمين والاقباط، وهم اعرق شعب مقيمٍ حيّ على وجه البسيطة يبدون تماماً بسحناتهم وتكوينهم الجسدي نسخة مطابقة لتلك النقوش الحجرية التي تزين معابد المصريين القدماء بشعورهم القصيرة الجعدة وبشرتهم النحاسية وعظام وجناتهم البارزة تماماً. مثلما بدا آشوريو اليوم اشباهاً بالصور الحجرية الناتئة التي تزين أميالاً بطولها من جدران المتحف البريطاني والمتحف العراقي. ولك ايضاً أن تتحدث عن سكان شمال السودان فقد تغلب لون بشرة العرق الزنجي على الجالية العربية التي رحلت في موجات متعاقبة من جزيرة العرب انتجاعاً للمرعى وسَدّاً للرمق. وهم الآن اشدّ تمسكاً بالقومية العربية من الفلسطينيين أنفسهم.

هذه الأقوام نبذت لغاتها الأصلية ومنها القبطية والآرامية التي كانت لغة عالمية قبل أن تحتل العربية مكانها. وكان من العبث ان تطالها أو تجرأ على طولها اللغات السريانية والكردية والتركية والفارسية رغم سيادة أهل هذه اللسن سياسياً في أوقات متباعدة. بقيت

= أستولى على الف بعير من المملكة العربية «تلخونو في الصحراء» وانه حمل على الملك «العريبي حزائيل» واضطره الى الفرار مع تلخونو. وذكر ابنه اسرحدون (٦٨٠–٦٦٩ ق.م) انه استولى على حصن آدوم العربي وان حزائيل الملك العربي جاء الى نينوى لإعلان خضوعه ومعه هدايا ثمينة بينها عدد من الابل. ونوه سرگون الثاني (٧٢٢–٧٠٥ ق.م) بـ«شمسي ملكة العرب» وبـ«ابتعمر ملكة السبئيين». ووردت الكلمة في التوراة مراراً. وفي حدود العام ٥٣٠ ق.م ظهرت لفظة عربايا لأول مرة في النصوص الفارسية بمعنى البادية التي تمتد بين العراق وسورية وبضمنها صحراء سيناء ووردت في نصّ لداريوش الاول الاخميني (٥٢٢–٤٨٦ ق.م) بمعنى البدو. وتردد ذكر العرب عند الكتاب اليونان مع ذكر بلادهم قبل هوميروس فاشاروا الى بلاد العرب الصخرية ويقصدون مملكة Arabia Petrix, Arabia Patraea الانباط. وسموها «السعيدة» وقصدوا أرض اليمن الخضراء Arabia Felix ثم سموها Arabia Deserta وهي بادية الشام أولاً ثم وسعوها لتشمل جزيرة العرب كلها (التسميات تعود للقرن الاول قبل الميلاد). على ان هيرودوتس (حوالي ٤٨٤–٤٢٥ ق.م) اشار الى ارض العرب بالاسم كثيراً وكذلك فصل في شؤون سكانها «العرب». اما العرب انفسهم فالظاهر انهم لم يخرجوا على العالم بهذا الاسم تعريفاً بهم. فلم يرد ذكره قط في المصادر العربية القديمة ولا في حصيلة تنقيبات الجزيرة الاركيولوجية. فمثلاً جاء ذكر العرب (القرن الاول ق.م) في المصادر السبئية بمعنى البدو تفريقاً لهم عن أهل المدن الذين عرفوا باسماء مدنهم أو نسبوا الى قبائلهم. بمعنى سكان البادية توفيقاً للنقش في شاهد (التماره) المدون بالآرامية النبطية في حدود ٣٣٠ ق.م ولايعرف على وجه الدقة متى استخدمت لفظة (عرب) للدلالة على شعب أو دليل على انه اتخذ لمعنى قومي يتعلق بالجنس العربي. والقرآن هو اول مصدر للفظة يعبر تعبيراً واضحاً عن العنصر العربي الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على شيوع الاسم في رقعة واسعة من الجزيرة العربية قبل نزول القرآن بوقت يتعذر تحديده. اذ ليس من المعقول ان ينوه كتاب منزل بقوم من الاقوام وبهذا المعنى الا اذ كان ثم على سابق معرفة [وردت كلمة أعراب في القرآن عشر مرات وكلمة عربي احد عشر مرّة].

على ان (ماكس موللر) يشك في صحة ورود كلمة عرب للدلالة على قومية عربية في الشعر الجاهلي وفي الاخبار المدونة عن عصر الجاهلية في العهود الاسلامية فالشعر المنسوب للشعراء الجاهليين يخلو من حقيقة اتخاذ كلمة عرب للتعبير عن المعنى القومي للعنصر العربي.

اللغة العربية سيدة الجميع واللسان الذي تسمعه في كل مكان أو بقعة من الشرقين الأدنى والأوسط[٣].

لم يسلم العرب من الغزو الدولي العنصري وأظهر ما فيه العنصر الأفريقي والهندي وانا لاأتحدث عن غزوات اليونان العديدة منذ الفتح المقدوني ولا بقاء الفرنج أكثر من قرنين من الزمن في غرب الهلال الخصيب أو باصطناع الدولة العباسية الفرس ثم الديلم ثم التركمان ولا بغزوات المغول والتركمان من الشرق ولم تكن غزوات عابرة كما يظن بعضهم فقد جاؤا باثقالهم فضلاً عن حكامهم الذين تسلطوا على مقدرات الجزء الشمالي من الجزيرة العربية وأقبلت قبائلهم زرافات لتتملك أقطاعاً وتستقر وتمتزج بالسكان.

انها لعملية امتزاج طبيعي تاريخي لم تسلم منها اية أمة على ظهر هذا الكوكب، ان كانت في اوروبا أو آسيا أو أفريقية. وتكاد لاتجد شعباً يستطيع ان يدعي بنقاوة عنصرية حتى أو

(٣) اللغة (اللهجة) السائدة من العربية هي لهجة أو لغة (قريش) وها هنا نجد التأثير البابلي – الآشوري (لغات ما بين النهرين) على تطور العربية القريشية – على حَدّ اختبارات واجتهادات علماء اللغات (الفيلولوجيين). فقد أخذ العرب في قرون متأخرة (في صدر الاسلام على الأغلب) علامات الإعراب [الرفع والنصب والجرّ] ورتبوا لها اشارات وهي لاتوجد في سائر اللغات السامية لا قديمها ولا حديثها غير آثار لها من لغتي بطرا وتدمر (انظر دائرة المعارف البريطانية: مادة Semitic Languages) كذلك التنوين فهو (ين) و(نون) و(آن) وهو باللغتين الآشورية والبابلية (ميم) وكذلك علامة الجمع (ون) مثلما هي في الآشورية وهي (ين) بالسريانية و(يم) بالعبرانية. يضاف الى هذا صيغ الافعال العربية فانها اقرب الى الآشورية – البابلية منها الى اية لغة سامية أخرى ومما يجلب الفيلولوجيون الانتباه اليه ان معظم هذه الخصائص تشترك فيه العربية مع الآشورية ولاتشترك معهما السريانية أو الكلدانية ولكنهم يقولون ان الاخيرتين فقدتا هذه الخصائص بتوالي الأجيال الحضرية في حين حافظ عليها أهل البادية العرب. لأن اللغة بمقتضى ناموس الارتقاء والتغيير أحفظ لنفسها في البادية مما في المدن. بل هي تتغير بالانتقال من البداوة الى الحضارة لابتوالي القرون والاجيال عليها [راجع: جي. أ. دوسو J.A. Dussuad «العرب في سورية قبل الاسلام Les Arabes en Syria Avant Islam» پاريس ط ١٩٠٧. ص١٠٨] وبسبب من هذا التعليل تشعبت لغة الآراميين البدو الى الآرامية المتأخرة أو السبئية والحميرية ولغات عرب الحجاز والنبطية والتدمرية ولغة صدر الاسلام (لغة قريش) وابتعدت عن الآشورية – البابلية. وعين الاركيولوجيون فضلاً عن تلك الصلة. عدة اسماء عند العرب آشورية التركيب كقولك [سامو آبي = أبي سام] و[شمشو ايلونا = الشمس الهنا] وكثير غيرها [راجع: كنگ: مصر وآسيا الغربية على ضوء المكتشفات الأخيرة Egypt and Western Asia in the Light of Recent Discoveries، ص١٩٤٠] ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الجيوش الآشورية لم تكن غريبة عن بلاد العرب. فقد ذكرت (ثمود) من جملة البلاد التي غزاها سرجون الآشوري (٧٢٢–٧٠٥ ق.م) في حملته على الحجاز ويؤخذ من سياق وصفه لها المنقور على الحجر انها كانت بجوار مكة. وهي البلاد التي كان اليونانيون يسمونها ثموديني Thamudeni [يراجع: كلي Clay. ضوء على شهادة من بابل Light on the Testament From Babel ص٣٣٨. ط لندن ١٩١٧].

بتغليب العنصر الذي يدعيه لنفسه.

فمن هو العربي ياترى؟

في هذا اليوم عندما تكون على موعد للقاء (عربي) لم تسبق رؤيته سيكون من المحال أن تحكم مقدماً كيف سيبدو لك. أطويل أم قصير؟ أأشقر أو أملط؟ أأزرق العينين أو أسودهما؟ اهو ذو ملامح سامية أو حامية أو زنجية؟ أأسمر أم أبيض؟ أهو أجعد الشعر أم مسترسله؟

هناك أكثر من مائة وخمسين مليون عربي توزعوا على أكثر من عشرين دولة أعضاء في مؤسسة تدعى «جامعة الدول العربية» وهي تشغل مساحة من الكرة الأرضية مقدارها خمسة ملايين ميل مربع، وتزيد عن مساحة الولايات المتحدة بأكثر من مليوني ميل.

وبات اسم «العرب» لايقع من الفم الا ويسمع له دوّي. امة صارت موضع اهتمام وحفاوة سدسي سكان الكرة الأرضية المسلمين وكلمة «الله» التي وردت في القرآن الكريم ٥٣٦٢ مرة وهم يرددونها في دعائهم وصلواتهم صباح مساء مهما اختلفت لغاتهم والسنتهم – تضفي عربيتها على امة العرب رونقاً وجلالاً ومجداً يسلم به الف مليون مسلم اينما كانوا لأن اللفظة خرجت أوّل ما خرجت من فم نبيهم في قلب جزيرة العرب.

كان الاسلام ديناً منظماً منذ ولادته واضحاً في احكامه بأوامره ونواهيه فهو لايجد أي صعوبة في ولوج القرون الحضارية ابتداء من القرن التاسع فصاعداً.

والقوة والنفوذ اللذان يمارسهما الدين المنظم في عصرنا هما قوة هامة قد نجدها تختلف عند دين آخر بين بقعة وأخرى فالمسيحية مثلاً في ايطاليا تختلف عن مسيحية المانيا الغربية وبين امريكا الجنوبية وبورما وبين كونغو برازافيل وهنغاريا. إلا ان قوة الإسلام ونفوذه في العصر الحديث هو سواء في جزيرة العرب واندونيسيا وفي مصر وايران وفي ماليزيا وسورية بوصفه قوة روحية موحدة بفضل طبيعته ووجهه التاريخي.

يقول ولفريد كانتويل سمث[٤]:

«كان الاسلام من فجره أكثر من دين في المفهوم العقائدي والاصول السلوكي. وهو جوهرياً نظام سياسي واجتماعي شامل فيه أمور الدنيا ليست بأقل اهمية من شؤون الحياة الأخرى. وفي مسرى تاريخه استطاع ان يخلق مدنيّة كاملة خاصة.

ان الاسلام والماركسية كانا اعظم مجهودين رئيسيين عالميين واسعي الرحاب

(٤) Wilfred Cantuell Smith الاسلام في التاريخ الحديث ط. برنستون ١٩٥٧. ص٩٤.

يهدفان كل من جانبه الى تطبيق مباديء فكرية اجتماعية. فالاسلام يرغب ويعمل لتحقيق (ملكوت) الله على الأرض في هذه الدنيا وفي ايام حياتنا[٥] وليس في وقت ما من المستقبل في آخر الزمان. فتنظيم حياة الشعب أو الأمة (بالتعبير الاسلامي الاصح) بمقتضى احكام الشريعة والتأكيد على سيادة الجماعة الاسلامية للمؤمنين هي أهم لهداية العالم بأسره بدلاً من هداية فردٍ واحد. الاسلام لايؤمن بقول السيد المسيح: مملكتي ليست على الأرض... ولايصرّ على مقولة: ليس بقوتي وليس بسلطاني بل بسلطان روحي. بالعكس فشرعية الحرب وتبريرها بوصفها حرباً مقدسة مفروضة ليست من المظاهر النادرة المتفردة في الاسلام. ومهما يكن من امر فان الموافقة الدينية على قيام السلطة السياسية بهذا الشكل بقيت القاعدة المقبولة في عصرنا هذا القرن العشرين عند الاسلام وحده».

ويسأل سمث «في معرض حديثه سؤالاً يمت الى موضوعنا بأكثر من وشيجة: هل تتناقض القوميّة أو تضعف القوى التقليدية المأثورة للوعي الاسلامي؟

للوهلة الأولى يبدو أنها تفعل ذلك بقدر كبير. الهدف القومي بناء دولة أو وحدة عند الدول العربية، أو السلافية. بناء دولة على أسس علمانية دنيوية بلغة مشتركة وارضٍ خالصة وتقاليد واحدة وانشاء رابطة جديدة من الولاء حيث تكون العوامل التي توحد الناطقين بلغة الضاد مثلاً (من مسلمين ومسيحيين في بغداد) أقوى من تلك الروابط التي تربط بغداد (باسلام اباد) أو (طهران) أو (داكّا) التي تتكلم بلغة أخرى غير العربية.

الحركات القومية اليونانية والبلغارية والكردية والتركية بالذات فضلاً عن العربية قامت كلها في الامبراطورية العثمانية ذات القوميات المتعددة بغضّ النظر عن انتماءاتها الدينية وفي قبرص وجدنا العرب في مصر وسورية يساندون في العام ١٩٦٤ مسيحييها اليونانيين لا أتراكها المسلمين. ومصر وزعماؤهما وحكامها مسلمون متمسكون بشعائر دينهم وتعاليمه بقيت قريبة في سياستها الخارجية من الشرق الملحد ثم مع الغرب شبه الملحد لا مع پاكستان التي لم تكن فحسب البلد الذي يعيش فيه ثاني أكبر مجتمع اسلامي في العالم، بل تعرف نفسها بانها جمهورية اسلامية.

الاسلام الكوسموپوليتي خلافاً للعروبة الكوسموپوليتية – قد لفظ آخر انفاسه وذهب الى غير رجعة. ولو ان حرباً عالمية جديدة نشبت فمن الصعوبة بمكان التصور بان الجيوش العربية

(٥) هنا يفترق طريق الشيعة عن السنية بانتظارهم امام الزمان.

ستنازل بعضها بعضاً. لكن من السهولة بمكان ان تحارب دول مختلفة بعضها بعضاً في معسكرين متعاديين حيث يكون الاسلام فيها دين الدولة الرسمي أو دين الأغلبية.

مع هذا كلّه لن يتوقف الاسلام عن كونه قوّةً سياسية في عصرنا هذا.

ان اليقظة العربية في القرن العشرين كادت تكون مصحوبة دوماً إما بعضيدٍ أو بمنافسٍ اسلامي. ان انتصار القومية في البلاد العربية كان ينجم عنه عادة بروز العنصر المسلم السنيّ وتسنمه مركز القيادة والزعامة. ولم يلاحظ هناك تمييز وتفرقة بين الأقليات في الشعور الجماهيري. ولا فرق عظيم بين التفاني في سبيل الوطن الأم وبين التفاني في سبيل الأمة الاسلامية. واذا اردنا الحقيقة فان اي ابتعاد على الجو المحلي المحدود انما تقبله دوائر واسعة في العالم الاسلامي بوصفه هوية اسلامية بالدرجة الأولى فتأخذ فوراً بنبش التعاليل الفقهية له وايراد الآيات القرآنية لتبرير الاخذ به[٦].

دخل الاسلام كثير من الشعوب غير العربية. هؤلاء في احيان كثيرة استبقوا العرب انفسهم في العصبية للعرب وتصدوا للشعوبيين المنادين بالمساواة بحكم تعاليم القرآن. الاّ أن لفظة

(٦) پ. ج. فاتكيوتس: «في عمل قائمة بكل وثائق الهوية التي يرغب نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة اصدارها لسائر مواطنيها يجعل برنامج النظام للقومية والعروبة أقل واقعية. اذا كان المواطن المصري يسهم في (المصرية) وفي (العروبة) وفي (الآسيوية) وفي (الافريقية) فالمرء لايسعه إلاّ ان يتساءل: أليس من الأفضل ان يرسي القرار على ما يأتي تلقائياً وبشكل طبيعي ان يكون مصرياً؟ هكذا كان دائماً وان كان يتكلم العربية لما يقرب من ثلاثة عشر قرناً فانه لم يكن قطّ على ادراك بشيء يدعى [امة عربية] بالمفهوم العصري للاصطلاح بقدر ما كان يدرك شيئاً يدعى [امة الاسلامية] والى درجة غامضة بـ(مجتمع اسلامي) والاسلام من دون عروبة كان امراً ممكناً ولا غرابة فيه. لكن ايمكن ان يكون ثم عروبة بدون اسلام؟ الحلّ بله الجواب على هذا سياسياً ليس بالعمل السهل. الاسلام اليوم ليس بُنية قياسية normative framework للجماعة وللفرد كما كانت قبل قرن من الزمن. فالعقائد الجديدة والافكار المحدثة أضعفت الايمان عند الكثيرين الى حَدّ عدم الاهتمام به بل الانحدار به الى الزندقة والتشدد والشطط والغلو كما وخلقت روابط عظيمة القوة والجبروت. على ان الروابط الاجتماعية (الجماعة الاسلامية) بقيت قوية متسلطة حتى عند أولئك الذين نبذوه في سرهم كعقيدة ولم يهتموا به كممارسة، وفي العالم العربي نجده يمتزج بالقومية ويحدث اثره فيها كما أحدثت اثرها فيه. هذه النزعة القومية بصبغتها الاسلامية وجدناها أكثر ثقة بالنفس وأكثر عدوانية في الدول المستقلة مما هي في الدول الخاضعة تحت حكم الاجنبي. وهي أكثر في الستينيات والسبعينيات مما كانت في ١٩٢٠، وأكثر في العشرينيات مما كانت في مفتتح القرن العشرين. ان الفترة الليبرالية في التفكير العربي وفي السياسة العربيّة للعشرينيات قد انتهت. والقومية الآن هي رأس القيم التي تغتذي بالتقاليد الاسلامية والفكر الاسلامي. ان المظاهر الدينية الاسلامية الصرفة ربما تكون قد ضعفت الا ان المظاهر السياسية والاجتماعية اكتسبت الآن قوة دافعة جديدة. [الجيش المصري في السياسة P. J. Vatickiotis: The Egyptian Army in Politics ط. بلومنگن ١٩٦١. ص٢١٠.]

(العربي) بحدّ ذاتها تنطوي على غموض. قد يمكن ان تعني البدوي أو اي شخصٍ انحدر من نجاد قبائلي عربي كُلاً أو جزءً. أو هي تعني الناطق بالعربية أو شخصاً يعيش تحت حكم العرب.

وعندما تستخدم اللفظة لمجموعة أو لمجتمع عربي فعلينا ان نتحقق من كونها مستعدة لحمل السلاح للجهاد في سبيل الاسلام. أو انها حملت السلاح فعلاً وكيف كانت تستوفي أجورها ومن كان يمدّها بمعدات الحرب ويجري عليها الاقوات. في ايام الامويين كان المقاتل العربي المطوع من صحراء جزيرة العرب قد انسحب ليفسح المجال تدريجاً لجنود شبه نظاميين يتقاضون مرتبات لاسيما الخراسانيون والايرانيون (كان المجندون من القبائل العربية المسيحية كافخاذ من بكر ابن وائل وتغلب يأنفون من تقاضي رواتب ويرضون كاخوانهم المسلمين المجاهدين بالعطاء والغنائم) ثم انضمت وحدات الفرسان الترك الى جند الاسلام وكانت اجورهم تدفع بالاقطاعات الأرضية واضطروا الى تعلم اللغة العربية لانها كانت تضمن لهم الرقي[٧].

واللغة العربية هي فرع من العائلة السامية الجنوبيّة. واقربها الى اللغتين العبرانية والآرامية وكلاهما من المجموعة الساميّة الشمالية الغربية. وقد كانت لغةً متكاملة دقيقة التعبير عند نزول سور القرآن على نبيه العربي – تزهو على غيرها من اللغات السامية الشمالية الغربية بخصائص نادرة حققت لها التقدم واحتلال موقع لايجرء أحدٌ على مزاحمتها فيه، فقضت على اللغتين الساميتين الشائعتين في ذلك الحين: العبرية والآرامية. في وقت حياة السيد المسيح نقرأ في الاناجيل مثلاً أن لغة السوق ولغة التخاطب في المجتمع اليهودي آنذاك كان اللسان الآرامي وان اللغة العبرانية كانت قد هربت الى الكنيس الاسرائيلي وضاقت حلقة العارف بها الى الكهنة المختصين باداء الفروض. وانتشرت الآرامية بين العامة والخاصة وتحدث بها المسيح ونقل الانجيل اثنتين من عبارتين قالهما في مناسبتين مخصوصتين وبقيتا على حالهما في سائر التراجم التي عملت لها الكتاب المقدس[٨].

(٧) وعد أشرس بن عبدالله السلامي وكان أميراً لخراسان وما وراء النهر في (٧٢٩–٧٣٩م) باعفاء كلّ من يشهر اسلامه من الجزية وضرائب أخرى فأقبل كثيرون ودخلوا حظيرة الاسلام فشكا الدهاقين والفرس الى الأمير قائلين «ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً! (يريدون بكلمة عرب المسلمين الفرس) الطبري ج٨ ص١٩٦.

(٨) اللغويون اليهود يرددون ربما بلهجة لاتخلو من حنق «ان لغة العرب بقيت لغة متماسكة مستقرة أكثر من أية لغة سامية أخرى. وبذلك ساعدت كثيراً في تحسين وفهم كثير من التعابير والمصطلحات في العبرانية القديمة لاسيما في عبرانية التوراة».

على اننا لانريد ان نضيع وقتاً أكثر في المآتي والأصول حول اللغة إلا من اهم سمة فيها وهي الكتابة بها، اي أحرفها التي اصطلح على شكلها وطريقة لفظها وتدوينها بأفضل ما يمكن المحافظة عليه. لانريد ان نطيل:

يقول الدكتور جواد علي وهو خبير باقعة[٩] حول مملكة تدمر: ان القائد العام الذي نصبه اذينة ملكها يدعى (زبدة) أو صفته ولقبه الرسمي راب حيلا ربّا وزباي رب حيلا وتدمور وهي بالنبطية الغربية من الخط العربي (القريشي) اما مصدره الحيرة والكوفة: يقول البلاذري (ت ٨٩٢) في كتابة فتوح البلدان:

كان بشر ابن عبدالملك الكندى صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين. فتعلم الخط العربي من أهلها وعن طريقه تعلم سفيان ابن اميّة ابن عبد شمسٍ وابو قيس ابن عبدمناف بن زهرة – الكتابة.

وذكر ياقوت ان الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة قريةٍ من قراها اسمها (النقيرة). والخط الحيري هو أساس الخط العربي وهو اقدم اشكاله والخط الحيري اشتق من الخط الآرامي.

وينقل البلاذري ايضاً عن عباس بن هاشم محمد الكلبي (من أشهر الرواة وأصدقهم رواية عند الاقدمين): ان ثلاثة نفرٍ من طيء اجتمعوا بـ(بقة) بالحيرة وهم: مرار ابن مرة واسلم ابن سدرة وعامر ابن جدرة. فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية[١٠].

(٩) المرجع السالف ج٣. ص١٠٢.

(١٠) هناك روايات عديدة مشابهة نجمع أطرافها بهذه الجولة المختصرة:
كان يسكن الحيرة بعد ان مصرها [عمر بن عدي] ثلاث طوائف: عرب الضاحية، والعُبادية، والاحلاف. فأما عرب الضاحية فهم اصحاب المظال وبيوت الشعر والاجانب الذين لم يسكنوا بيوت المدر وهم بحسب (الطبري) التنوخيون الأوائل الذين هاجروا من اليمن وكانوا ينزلون بين الحيرة والانبار. واما العبّاد وهم الذين كانوا قد سكنوا الحيرة وابتنوا بها قال عنهم ابن العبري فهم من نصارى العرب ومن قبائل شتى اجتمعوا وابتنوا قصوراً لهم في ضواحي الحيرة وتسموا بالعباد لأنه لايضاف إلا الى الخالق واما العبيد فيضاف الى المخلوق والخالق وهذا رأي (ياقوت) ايضاً. اما الاحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة وليسوا من أي من السابقين. الى جانب هؤلاء كان يقيم جماعة من النبط العراقيين بقايا العراق القدامى من الكلدانيين والبابليين والآراميين (حسب قول غنيمة: نصارى العراق)... واشتهر العباديون بمعرفتهم القراءة والكتابة. قال امية ابن ابي الصلت وهو من شعراء الجاهلية يفخر بقومه:

قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعاً والقط والقلم

القط هو هندمة الكاغد أو الجلد الذي يكتب عليه وهو ايضاً (ابن منظور) كتاب التسجيل أو دفتره. يقول =

انتشرت اللغة العربية مع انتشار الاسلام واتساع رقعته. بل حتى قبلته بعض الشعوب. كانت ثم مستعمرات تتكلم العربية قبل الفتح الاسلامي في سورية الداخلية وغرب العراق الجنوبي والوسطي كان معظم السكان يتكلمون العربية ايام غزوة الجيوش الاسلامية بقدر ما يتعلق الأمر بلغة الخطاب الاّ انها وجدت امامها سداً بايران حيث استمر استخدام الفارسية ولم تجد عقبة لها كلغة كتابة في عالم الاسلام. حمل الدين اللغة معه وقرأ القرآنَ بالعربية المهتدون الجدد من غير العرب وقاموا بدور واسع النطاق لا نظير له ولا شبيه به في تفصيل نظام الفكر والشرع المنبثق عنه. امّا غير المهتدين فقد استمروا في استخدام لغتهم في اغراضهم الادبية ومراسمهم الدينية ولم يُضيّق عليهم قط من هذه الجهة. وآية ذلك ان الكنائس الشرقية بقيت حتى اليوم تستخدم لغاتهم الطقسيّة كالسريانية والقبطية والكلدانية الآشورية. اما الآرامية والعبرانية فقد بقيت لغة عبادة اليهود ومدارسة تعاليمهم الدينية واتخذت الكتب الزرادشتية (المجوسية) بشكلها الفهلوي الأخير وهو لغة من الفارسية شاع قبل الفتح العربي وبقي بمجيء الاسلام. وبقيت الكردية لغة المخاطبة منحصرة في الجبال الاّ بعض العلماء الزهاد والكتاب الذين سكنوا المدن وأغنوا اللغة والتاريخ العربي بمؤلفاتهم. إلاّ ان الأغلبية بقيت غير مكترثة وزحف الدين الى تلك المعاقل الجبلية ببطء كبير وبحروب دامية ومقاومة عنيفة. كان الكرد مسيحيوهم وزرادشتيوهم متمسكين جداً بعقيدتيهما. وعندما تسللت العربية الى كردستان في قرون متأخرة اضطر المؤلفون والعلماء الاكراد الى اتخاذ الابجدية العربية لكتابة لغتهم.

بعد فترة برسوخ قدم اللغة العربية وقيام علمائها وادبائها وشعرائها بفتح مكنونات هذه اللغة النفيسة الرائعة بتأليف اول أكاديمية علمية لنقل تراث الحضارة العالمية الى تلك اللغة في بغداد وفي المؤسسة التي عرفت بـ(بيت الحكمة) التي قيل ان الخليفة المأمون راعيها كان ينفق عليها وعلى موظفيها خراج بلاد فارس كله. وعندها بدأ يُلاحظ تغييرٌ في كنائس الشرق

= ابن هشام صاحب السيرة تعليقاً: وكانت الكتابة في هذه البلاد التي ساروا اليها. فقد قيل لقريش ممن تعلمتم القط والكتابة، قالوا تعلمناه من أهل الحيرة، وتعلمته الحيرة من الانبار. يذكر المؤرخ البرت حوراني في كتابه (تاريخ الأمة العربية (A History of the Arab People (1991): «اقدم كتابة باللسان العربي بالخط الآرامي يمكن ارجاعها الى القرن الرابع للميلاد (ص١٢).
ويذكر ابن خلدون (المقدمة الفصل الثامن والعشرون): كان الخط الحيري من الحيرة لقنه اهلُ الطائف وقريش فيما ذكر، ويقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان ابن أميّة ويقال حربٌ ابن امية واخذها من أسلم ابن سدره وهو قول مقبول وأقرب من قول من ذهب الى انهم تعلموها من (اياد) أهل العراق وهو قول بعيد لأن (اياداً) وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا إذذاك على شأنهم من البداوة...»

المسيحية. فقد لوحظ دخول العربية في الادبيات الطقسية واضحاً ونظمت أو ترجمت اعداد من التراتيل بها.

اليهود في اسپانيا بدأوا يستخدمون العربية لدراسة الفسلفة والعلوم والشعر ولم تلق صدوداً أو ممانعة من حكام الاسپان الصغار كل في دويلته في الشمال. لكن الفارسية بقيت سَداً امام انتشار العربية نحو الشرق في القرن التاسع عندما بدأت لغة الفرس تستظهر عليها بحصانٍ اسلامي ان صح التعبير وبوصفها لغة ادبٍ ونشر لكن العربية استمرت في ايران باعتبار اللغة الأساس لدراسة الشريعة والدين، ويلاحظ في كتابات هذه الفترة ان كلمات من امثال «العرب» و«العربي» و«العربية» صارت تتلبس بمعاني أوسع مما أُثِر عنها. ليطغى على معاني الالفاظ السابقة فيقصد بها أولئك الذين جاءت اصولهم من جزيرة العرب. بالأخص اولئك الذين كانوا يستطيعون أن ينتسبوا لقبائل بدوية ذات تقاليد عسكرية. أو لعلها استخدمت كذلك بارتباطها بكل من اتخذ العربية وسيلة مخاطبة: بدءً من مراكش واسپانيا وانتهاء بحدود فارس الشرقية. وربما تنداح الرقعة أكثر من هذا لتشمل أولئك الذين باتت العربية واسطة للتعبير عن ثقافة ادبيّة عالية ومباحث روحية وفلسفية معمقة.

منذ بداية القرن التاسع بدأ انتشار الآثار الكتابية بنطاق واسع بفضل استخدام (الكاغُد). كان نبات البردي والپارشمنت (الجلد الرقيق المدبوغ) هو الوسيلة الوحيدة للكتابة. إلاّ ان صناعة الورق تطورت في أوائل القرن التاسع ومصدره الصين. اذ ابتدأت خراسان في صناعته ومنه انتشر في سائر الاقطار.

وفي نهاية القرن العاشر تمخض التاريخ البشري العام بما يصحّ ان نطلق عليه «العالم الاسلامي» بثقافة وتراث ديني مشترك يمكن التعبير عنها بالروابط الانسانية العاطفية والاقتصادية والتبادل التجاري والمشاركة الدينية في احتفالات خاصة كموسم الحج والفروض. إلاّ ان هذا العالم في أوقات مختلفة لم يعد ذلك العالم الموحد سياسياً. فقد كان له في آن واحد ثلاثة رؤوس كلّ منهم يدعي بانه خليفة المسلمين، واحدهم في بغداد وثانيهم في القاهرة وثالثهم في قرطبة[١١] يضاف اليهم آخرون هم رؤساء دول قوية مستقلة لايدينون بطاعة لاي

(١١) الباحث الكبير والفقية المصري الشيخ علي عبدالرازق: «الخلافة ليست أصلاً من أصول الاسلام وليس في القرآن أو السنه النبوية ما يشير الى الإمامة والخلافة... إن حكومة ابي بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة لادينية. ولولا ان نرتكب شططاً في القول لعرضنا على القاريء سلسلة الخلافة الى وقتنا هذا ليرى على كلّ حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة وليتبين ان ذلك الذي يسمى عرشاً لايرتفع الا على رؤوس البشر. ولايستقر الا فوق اعناقهم. وان ذلك الذي يسمى تاجاً لا حياة له إلا بما يأخذ =

من هؤلاء. لم يكن هذا موضع غرابة؛ فان ابقاء هذا العدد الكبير من البلدان والامصار بتقاليدها المختلفة وتراثها الخاصّ وبمختلف الجنسيات والمصالح وحصرها في اطار امبراطورية واحدة ولهذه الفترة الطويلة هو بحدّ ذاته انجاز عجيب حقاً ما كان يمكن ان يتحقق من دون رابطة العقيدة وقوتها التي خلقت مجموعة متماسكة لكن بشكل لايمنعها عن الاحتراب والفتك احداها بالأخرى. إلاّ انها مع هذا خلقت حلف مصالح بين المجموعات الحاكمة التي تسيطر عليها وبين قطاع واسع من المجتمعات التي تحكمها.

لكن، لا الدين ولا القوة العسكرية ولا اتحاد المصالح الاقتصادية كان قادراً على صيانة هذه الوحدة والابقاء عليها الى ما شاء الله في اطار امبراطورية تمتد من أواسط آسيا حتى ساحل الاطلسي. ومنذ القرن العاشر فصاعداً اصبح التاريخ السياسي لأي بلاد حيث الحكم وغالبية المحكومين اسلاميون – سلسلة من تاريخ اقاليم ودول متعددة.

★★★

لنضرب باسپانيا مثلاً

دخل حظيرة الاسلام كثير من الأسر المسيحية، وترك أكثرها من بعض من بقي على دينه اسماءه المسيحية واتخذ لنفسه اسماء عربية مع نسبة عائلية أو قبائلية كـ«بنو فلان» أو «بني كذا» وحصل تزاوج كثير بين المسلمين والنصارى كزواج عبدالعزيز نجل موسى ابن نصير القائد العربي وعدد كبير من قادة الجيش الغازي بنساء من الأسرة الملكية أسرة الملك المغلوب [ڤتزا او ويتيزا] وهو (غيطشة) في كتب التاريخ العربية آخر ملوك الفيزغوط الاسبان وبات كلّ امهات الجيل الثاني مسلمات أكن ام مسيحيات اسپانيات العرق في جميع انحاء البلاد المفتوحة. امّا مسلمو الجيل التالي فقد فضلوا ان تكون امهات اولادهن من تانك الاماء الشقراوات اللاتي يبتعن من شمالي اسپانيا على ان يكن من بنات جلدتهن عرباً او بربراً.

استعرض الپرفسور (ريبرا) وهو ثقة في الاستشراق العربي ونحن ننقل عنه[١٢]، استعرض

= من حياة البشر ولا قوة إلاّ بما يغتال من قوتهم، ولا عظمة ولا كرامة الا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم».
حوكم الشيخ عبدالرازق امام هيئة من كبار علماء الأزهر التي ينتمي لها فقضت باخراجه من زمرتها باعتبار اقواله تهدد نظام العقيدة الاسلامية بكاملها وحرمانه من منصبه فعاش بقية حياته في عزلة. الا ان افكاره كان لها الصدى العميق وقد تأثر بها (سعد زغلول) في نضاله. وكان (العقاد) الذي دافع عن الدستور والحياة الدستورية واحداً من كثرة من حملة دعوته.
(١٢) Julian Rebera خوليان ريبيرا: من كتابه ابحاث ومقالات ج١ Disertaciones Yopuscule الص ١٧=

الأستاذ سجلات النخاسة القرطبي لفترات زمنية متعددة فتوصل الى ان ابتياع الرقيق لم يكن كما يبدو بالعملية البسيطة اذ كان يجب ان تبرم الصفقة عند الكاتب العدل. وان يؤخذ بكل اعتبارات معينة منصوص عليها كبيان الغرض من شراء الجارية ومَلَكاتها ومواهبها واسلوب معاملتها.

ونعمت النساء هناك بحرية ورعاية في فترة حكم امويي اسپانيا تفوقان بكثير ما كان يتمتع به اخواتهن ومعاصراتهن في خلال حكم عباسيي بغداد. ويظهر كذلك انه كان مناسباً جداً لتانك اللاتي قدر لهنّ ان يكن امهات لاولاد اسرة عربية أو مستعربة عريقة – بيضاوات البشرة زرقاوات العيون شقراوات (يفضل العربُ والبربرُ ان يكنَّ من غاليسيا (جليقيه) شمال اسپانيا) أو جنوب فرنسا الغربي والنتيجة؟ راح الدم العربي يتناقص في عروق السكان باطراد. وفي غضون سبعة قرون من تعاقب الاجيال البشرية وإن ظلّت الانسال تتمسك وتتكنى باسماء اسلافها الذكور العربية التي اتخذتها بعد الفتح. فكلما زاد عدد الاسماء العربية اللاصقة بكنية الرجل كلما قلت فيه نسبة الدم العربي أو البربري. ومن الخطأ الفادح القول ان كل مسلمي اسپانيا هم عرب وان كلّ النصارى هم غوطيون او رومانيون. وان كل هؤلاء الأخيرين لجأوا الى الشمال هرباً من الفتح الاسلامي ومن الخطأ الفادح القول ان (حرب العودة) التي ظلت مستعرة طوال ثمانية قرون انما كانت حرباً بين الغوط اللاتين في الشمال وبين عرب الاندلس في الجنوب. هذا هو الذي جرى على تلقينه كتاب العرب المتأخرون ذوي النزعة القومية مع الأسف الشديد وهو خطأ.

أفاض الكاتب (آر. دبليو بوليت)[١٣] في تقديراته حول عدد المسلمين في أوائل ضحى الاسلام وأقصد عصر الامويين في كتابه (التحول الى الاسلام في فترة العصور الوسطى) قال:

«في نهاية عصر بني اميّة كان هناك أقل من عشرةٍ بالمائة من مجموع السكان

= ٢٥. طبع مدريد ١٩٢٨. (الفقرة منقولة من ترجمتنا لتراث الاسلام الطبعة الخامسة. أربيل الص ٢٢–٢٣) نقول كان الكاتب استاذاً للعربية في سرقط وتوفي في ١٩٣٤.

(١٣) R.W. Bulliet: A New Vision to Islam in the Medieval Period كمبرج ١٩٧٩. ص٨٨: «كان طارق ابن زياد قائد اول حملة ناجحة في اسپانيا ولكنه لم يكن عربياً بل من بلاد البربر يمت بالولاء لعامل الامويين موسى ابن نصير. كذلك كان القسم الرئيس من رجاله الغزاة. وتؤيد الارقام التي نجدها في المآثر الاوروبية والى حدّ ما في الحوليات العربية ان العرب في حملته لم يكونوا يزيدون عن الثلاثمائة امّا البربر فيعدون أكثر من سبعة آلاف. والقوات التي نزلت في السنة التالية كانت ايضاً خليطاً عجيباً قلتهم عرب الجزيرة والكثرة من البربر والسوريين والاقباط» آه.

في ايران والعراق وسورية ومصر وتونس واسپانيا من المسلمين. وان كانت النسبة في جزيرة العرب أكثر من ذلك بكثير. وأغلبية المهتدين قد يكونون امّا من طبقة العامة أو الدنيا في السلم الاقتصادي كالجنود المغلوبين في الحروب أو موظفي الحكومة الساسانية التي استخدمهم الحكام الجدد...

«لم يكن هناك ممارسة لترغيب أو ترهيب أو أي ضغط. والباب مفتوح. ما عليك الا ان تنطق بالشهادتين فتكون من العباد الذين اصطفاهم ربك. الاّ ان الصورة في نهاية القرن العاشر الميلادي تغيرت. وتحول قسمٌ كبير من السكان الى الاسلام في الريف وفي الحضر. من اسباب هذا التحول قد يكون خروج الاسلام عن طابع الغموض البدائي. ليغدو بالجدال المنطقي والاجتهاد ودخول الفلسفة الهلينية – واضح المعالم معرفا خير تعريف. وأصبح الخط بين المسلم وغير المسلم بيناً بما فيه الكفاية. وبات المسلمون يعيشون الآن ضمن نظام دقيق محكم من الطقوس والمراسيم والفروض، وبدت الشريعة الاسلامية تختلف اختلافاً بيناً عن شرائع غير المسلمين. وتحددت الاحوال المدنية والشخصية لليهودية والزرادشتية تحديداً أكثر وبمنظار أدق. وبدت في بعض اوجهها فهي ادنى من الاسلام درجة. انهم اعتبروا من «أهل الكتاب» و«أهل الذمة» فلم يمارس عليهم اي ضغط لحملهم على اعتناق الاسلام. لكنهم عانوا مضايقات التفرقة ودفعوا والمسيحيين ضرائب مخصوصة بسبب الدين وفرض عليهم (الاصح كان من المفترض) ان لايلبسوا ثياباً ذات الوان مخصوصة ولم يكن لهم الزواج بامرأة مسلمة في حين كان العكس جائزاً. وشهادتهم لاتقبل ضد مسلم في مقام قضاء. بيوتهم واماكن عبادتهم يجب ان لاتكون فخمة ملفتة للانظار. وبصورة عامة يمنعون من مزاولة وظائف عمومية ذات سلطة. أو ان يملأوا مراكز حساسة الا بعد اشهار اسلامهم صدقاً أو تقيةً (مع ان كثيراً منهم كانوا امناء سِرّ او مدراء مال أو محافظي خزانة لحكام مسلمين). آه.»

ترى بايّ شكل من الجدية والصرامة كانت هذه القيود تطبق؟ انها كانت تتأثر بمزاج الحكام المستبدين وتعود للاوضاع المحليّة. إلاّ انها كانت قيوداً في أفضل الاحوال – والخلاص منها عادة شيء موقت بمجيء حاكم لامبال أو سكير أو مبتذل لايعاقب من يفعل فعله. الاّ انها كانت في أفضل احوالها قيوداً مرسومة تجعل المسيحيين وغير المسلمين في وضع القلق الدائم

وتحفزهم احياناً على اعتناق الاسلام[١٤].

عملية التحول التام الى الإسلام لم تكمل قط. إلا أن اللغة في ذلك العصر نجحت في شق طريقها. وكان على الاسلام ان ينتظر قروناً ليلحق بها أولاً ثم لينقضّ عليها فيضمها تحت جناحيه.

عندما أشرقت شمس القرن الخامس عشر كان لدينا في العالم الاسلامي (وفيه العالم العربي) دول عظيمة اربعة: دولة العلويين في مصر، والعثمانيون والصفويون والمغول وبينها كانت تعيش دويلات ذات ملامح قوميّة فارسية تركمانية عربية كردية بربرية بل وافريقية ايضاً.

إلاّ ان هذا التغيير السياسي لم يقض على الوحدة الثقافية في العالم الاسلامي بل زاده عمقاً في الوقت الذي بدأ عدد المسلمين يتصاعد وتنقل الاسلام خلال ذلك معبراً عن نفسه بانظمة واتجاهات فكرية. إلاّ انه وبمرور الزمن بدأت هذه الوحدة باطارها الثقافي الواسع تتفكك. ففي الجزء الشرقي من ايران وما وراءه وشماله لم يوقظ مجيء الاسلام اليه الاحساس بامجاد الماضي وبالماضي نفسه بالدرجة التي ايقظها في الجزء الغربي من الامبراطورية.

اطفأت اللغة العربية بالتدريج سراج اللغات المحلية. وواصلت في جنوب ايران وغيرها من أهل الاقاليم الشرقية كما قلنا. الاّ انهم رفضوا اللغة رغم اسناد الوظائف العامة لهم في الدولة العباسيّة ومشاركتهم مشاركة رئيسة فعّالة في خلق الحضارة الاسلامية والثقافة العربية الى جانب علماء كلدة وآشور البائدتين.

ان الاحساس بالفرق اضافة الى نظرات العداء للشيعة المشبعة بالاحتقار وجدت متنفساً لها في حركة الشعوبيين والشعوبية وبقيت الفهلوية حيةً عند الزرادشتيين وفي دوائر الحكومة وظهر في القرن العاشر الأدب الفارسي باللغة الفارسية الا ان الفارسية استعارت الابجدية العربية وصارت تكتب بها الى يومنا هذا مع آلاف الكلمات والتعابير العربيّة.

(١٤) امتنع الجراجمة على الدولة الاموية وهم مسيحيون يسكنون جبل اللكام من سلسلة جبال أمانوس شمال سورية واعتصموا بعاصمتهم (جرجومه). روى البلاذري وغيره كثيرون ان الوليد ابن عبدالملك (٧٠٥-٧١٥م) سير وراءهم وقد امتنعوا عليه، اخاه (مسلمة) فلم ينل منهم. الا انه اصطلح معهم على شروط عند دخول عاصمتهم على ان ينزلوا في بلاد الشام حيث شاؤوا وان لايكرهوا باي شكل على ترك النصرانية أو ممارسة طقوس دينهم بحرية وان لاتفرض عليهم الجزية.
وشبيه بهذا التعاون العملي ما فعله مؤسس دولة بني أميّة (معاوية) بعقد صفقته الشهيرة مع أهالي صور وطرابلس المسيحيين فقد رفع عنهم الجزية. ورفع قيد التزيي بما يميزهم عن المسلمين. وفتح ابواب الوظائف العامة لهم لقاء تعهدهم ببناء خمسمائة سفينة حربية لقتال الروم.

إن اهتمام هذا الكتاب سيكون منحصراً في الجزء الغربي من العالم الاسلامي (الشرقين الأوسط والأدنى) حيث اللغة العربية والثقافة العربية هما سيدتا الميدان في الثقافة العالية وعلى الالسن والتعامل البشري في الحياة اليومية باختلاف اللهجات المحلية.

وانه لمن الخطأ الكبير التفكير في ان كل اقليم من هذه الاقاليم يعيش عالمه الخاص منقطعاً عَمّا يجاوره. فالبلاد الناطقة بالعربية مازالت تشدّها اواصر الدين والجوار القويّة مع الفرس والترك بكل ذكريات الماضي. وأنه من السذاجة والغفلة بمكان التفكير ان الاقاليم والبلاد التي يسودها اللسان العربي هي بلاد واحدة ومن الاوفق التفكير فيها بوصفها مجموعة من الاقاليم يختلف بعضها عن بعض في الحجوم والموقع الجغرافي وطبيعة الأرض والمناخ ويسكنها أناس ورثوا تقاليد اجتماعية وتراثاً ثقافياً وحضارياً متمايزاً بعضها عن بعضٍ وهي مازالت باقية في مجرى الحياة اليومية كاسلوب لايحاد عنه. وربما كان الخلاف كبيراً في اساليب التفكير والمشاعر النفسية بعد ان طرأ على الوعي الديني الحماسي لما قبل الاسلام فتور فبدا وكأنه انطفأ تقريباً، وابتني فوقه تقاليد ومقومات ومفاهيم الدين الجديد العالمي الاتجاه الذي تمكن بسرعة مذهلة من أن يخرج قبل أكثر من أربعة عشر قرناً تلاحماً جذرياً ورابطة عصرية الملامح بين سكان الجزيرة العربية لم تشهد مثلها في السابق وان يخرج منها «امة تدعو للخير» وان يثبت لها لغة عصرية اتسعت بسهولة للتعبير عن كل الخلجات النفسية والمبتدعات الطارئة. لغةٌ بقيت زهاء اربعة قرون وربما تزيد، الاداةَ الوحيدةَ الناقلة للفكر وللمدنية دون نزاع واحتلت بذلك الكثير خلال هذه الفترة مكان الصدر بين اللغتين اللاتينية واليونانية. والاسلام نفسه لم يكن كالأديان التي سبقته فقد نهض على قائمتيه بفضل انسان واحد هو محمد ابن عبدالله وانفرد بين مؤسسي الاديان الأخرى والانبياء الغابرين بهذا، ولم يكن الدين الذي دعا اليه يحتاج مثلهم الى تقنين والى عدة رسل تابعين ولقد سبق ان تكاملت تلك الأديان وكان ثم ملايين آمنت بها واعتنقتها. لكل من البشر حتى عبدة الاوثان دينه ومعتقده ولكل من المسيحيين واليهود والبوذيين والزرادشتيين كتاب وحيه المقدس وممارساته الطقسية. الا ان القرآن الموحى به تفوق عليها بوضعه قانون المساواة لا بين العرب وحدهم بل بينهم والآخرين الا انه فضلهم بنزول القرآن فيهم أولاً وبلغتهم ثانياً. وُصف كتاب الوحي هذا بانه نسيج وحده لم يسبقه كتاب مثله ولن يأتي احد بمثله في الزمن الآتي ولا يلحق به شبيه أو قرين انما هو معجزة المعجزات لايجرأ عليه ناقد ولاينتاب أحداً ريب فيه، ومن يشك في اي كلمة منه من المسلمين يخرج عن دينه ويعد من الكافرين. ففيه ما يدل صراحة على ان محمداً الموحى به اليه هو خاتم الانبياء حاملي الرسالة الالهية.

النظرة المبدئية للاسلام من القومية والقوميات ومن اصحاب ديانات التوحيد كان فيه من الوضوح الكفاية ادعى انه مجدد لتلك الديانات بسبب ما شابها من اوضار الجاهلية والمظاهر الوثنية واتهم دعاتها بالتحريف والتزييف والانحراف بعقيدتهم الاصلية الى سبل الضلال. ومع تسامحه في مساكنتهم والتعايش معهم في سلام واعطائهم لوناً من الشرعية والحرية الاجتماعية الاّ انه لم يقرّ بالمساواة التامة لهم مع المسلمين. فهم بحكم القرآن مواطنون من الدرجة الثانية عملاً وواقعاً لا نظرياً. يعاملون ببعض التعالي والأنفة وتفرض عليهم جزية خاصة ولايسمح لهم بالمشاركة في الجهاد ولا في ادارة شؤون الدولة ولاتسند اليهم مناصب عالية فيها. لكن للضرورات احكامها وقد كسرت هذه الحواجز والقيود أكثر من مرّة في العهود التالية كما قدمنا.

شق عرب الجزيرة طريقهم الى الأمام – في صدر التاريخ البشري وفي فترة زمنية موآتية نادرة المثال[١٥]. الطبقة العليا من المجتمع المصري كانت تشعر بضيق ومحدودية في افق الكنيسة البيزنطية الى جانب يد القسطنطينية الثقيلة المرهقة. وعموم السكان من الفلاحين

(١٥) المبالغة في عدد الجيوش المتحاربة كانت من الأمور الاعتيادية عند سائر المؤرخين شرقاً وغرباً أو اوروبيين. في الواقع كانت جيوش العرب كغيرها في ذلك الزمان صغيرة لاتزيد عن الفين في معظم الأحوال وربما بلغت ثلاثة آلاف والانتصارات التي سجلها المؤرخون المسلمون والعرب كانت محدودة وقد تمّ أغلب الفتوح صلحاً – لكن آثار الفتوح كانت عظيمة. عدد قليل بسلاح خفيف وتمرين قليل وبادراك تام بانهم يخوضون معركة تختلف تماماً عن المعارك القبلية والغارات بهدف الغنيمة أو على تخوم الامبراطوريتين بدافع الجوع والكسب. فالآن هناك مقاصد روحية ومعنويات عالية تشيع في نفوس المؤمنين بالدين الجديد وهناك قادة معينون من مركز السلطة ومرجع لاينقض امره، يتمّ اختيارهم لمواقع معاركهم وميادينها بدقة وعناية مكنتهم من الاستيلاء على اقاليم شاسعة. عامل السرعة والمباغتة امنته لهم خيولهم الا ان ابلهم منحتهم قابلية التحرك والحركة في الصحراء فكل الانتصارات التي حازوها كانت الصحراء ميدانها أو ما هو في حدودها وبشكل يضمن الانسحاب السريع أمام الجيوش العدوة عندما ترجح كفة الخصم والتاكتيك المألوف هو ان تستدرج قوات العدو الى وادٍ وان تستخدم طبيعة الأرض لايقاعها في الفخ فهي بالتالي لا أكثر من غارة قبائلية موسعة لما كان يجري في الجزيرة. كان تكتيكاً لا عهد به لخصومهم من قبل بسلاحهم الثقيل وبتشكيلات المعركة الكلاسي الذي اعتادوه.
واحدة من المعارك الفاصلة التي ادخلت سورية في حكم الإسلام تلك المعركة التي جرت على ضفة نهر اليرموك في ٦٣٦م تحقق فيها النصر لخالد ابن الوليد بفضل عاصفة رملية ساعدته على اخفاء رجاله عن اعين الروم، وساعدت عاصفة رملية أخرى في ٦٣٧م على انتصار القادسية وبفضلها امتلكوا العراق الا ان العواصف الرملية لم تكن دائماً مهيأة لمساعدة العرب المسلمين في حروبهم الكثيرة فهناك الحماسة الدينية الهائلة للنخبة من الصحابيين وبقايا الانصار وابنائهم وذريتهم وهناك الاستباق الى الجنة كما يصوره لنا المؤرخون. الا ان القسم الاكبر كان يتألف من القبائل المسيحية العربية التي تقطن بادية الشام الى جانب اخوان لهم جاؤا من قلب الجزيرة. والواقع هو ان الفتوح العربية سهلت عملية هجرة سامية أخرى أو أخيرة من الجزيرة تقارن بتلك التي جاءت بالاكديين والآراميين.

بالكاد نضوا عنهم آثار العبادات الوثنية الفرعونية وهم اليوم كما كان أجدادهم بالأمس مضطهدون في ظلّ الديانة الجديدة مستغلون كالعبيد رغم حداثة عهدهم بالديانة الجديدة التي تبشر بسلام لم ينالوه من حكامهم وهم في عين الوقت موزعو الفكر في حيرة من عواقب الاحتراب المذهبي العنيف بين احبار الكنيسة. وأسوء من هذه الحال كان الوضع الذي يسود ايران ومستعمراتها في وادي الرافدين حيث كانت المزدكية – وهي وجه من الزرداشتية الديانة الرسمية. وكان ثم نزاعٌ دموي محتدم بين طبقة الكهنة (الموبدان) وبين العرش كفيل باسقاط الملوك والملكات بسهولة قيام الخريف باسقاط اوراق الشجر.

وحيث فلاحو أرض السواد (وهي بلاد الرافدين الجنوبية) ومزارعوها عموماً لاسيما المسيحيون منهم الذين يتكلمون الآرامية والسريانية ينؤون تحت اعباء ضرائب الساسانيين الملاكين وطبقة العظماء والنبلاء الذين لايتركون لهم من الغلة ما يكفي لسدّ الرمق. ما ان شدّت العقيدة الجديدة هؤلاء البدو المتحضرين حديثاً بوحدةٍ الهدف حتى انطلقوا لتغيير ميزان القوى التي تمتلك تحريكها اكبر امبراطوريتين معروفتين في تلك الحقبة من الزمن وفي غضون سنوات قليلة وبآلاف قليلة من المجاهدين الممتلئين حماسة واندفاعاً لاقتبال الموت بوعدٍ في حياة أخرى كلها نعمة وسعادة. وبساقةٍ لهذه الجماعات المقاتلة الصغيرة طمعاً في الغنيمة والاسلاب، وبأمل السكان بحكام أفضل من حكامهم بل بتعاون من الاهلين والحكام أنفسهم احياناً، تمكنت هذه «الفئة القليلة» ان تتغلب على فئات كبيرة، أحياناً بحروبٍ وأحياناً كثيرة بدون مقاومة بل باستسلام وصلح. بهذا تمكن العرب المسلمون من تثبيت أقدامهم في الهلال الخصيب (العراق وسورية ولبنان وفلسطين) وفي مصر العليا والدنيا وفي ساحل افريقيا الشمالي حتى اسپانيا غرباً وبلغوا ضفاف السند ودخلت بلاد فارس حوزتهم كما أخضعت بلاد التركمان وراء النهر. وكل ذلك ثمّ خلال ثمانين عاماً فقط.

عندما أوقفت قبائل الغال سكان فرنسا تقدمهم في معركة (تور) أخذ الجزر يميل الى ساحلهم ونشأ نوع من الاستقرار في الغرب. وفي الشرق انتفض الفرس ليقيموا دولهم بحسب نظمهم السياسية من دون الحضور العربي. ونشأ ايضاً نوع من الاستقرار ضمن حدود المنطقة التي يسودها اللسان العربي. ثم عندما صار الاسلام دين الافغان والتركمان والكرد والترك والفرس والتتر والصغد وهنود السند وغيرهم من الأقوام تقلبت الحظوظ بالسيادة العربية الاسلامية في آسيا حتى كان الاستقرار النهائي في غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالتوسع العثماني في الاقاليم التي تنطق بالعربية وقد بقي حتى انحلال امبراطوريتهم.

مع هذا كله فان نظرة ثاقبة دقيقة لمجرى التاريخ العربي تكشف لنا عن حقيقة حاول المؤرخون العرب وبعض المؤرخين المتسرعين السطحيين إغفالها أو استغفال الناس بكتمها عنهم. فما يدلنا التاريخ عليه هو ان العرب كقوم (او امة – أو قومية) بقوا في انتصاراتهم واوج مجدهم – باستثناء احشاء جزيرة العرب وقلبها وبعض سواحلها – اقول بقوا اقلية اينما حَلوّا أو نفذت جيوشهم وادارتهم أو باستقرارهم السلمي بالهجرة أو النزوح الى بلاد الغير بقوا ضعفاء مستهدفين دائماً. ولم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بسيادة مطلقة على الاصقاع التي فتحوها و(مصروها) لو لم يستندوا الى معونة فعالة إيجابية، أو غير فعالة رضائية لقطاع كبير ممن دخل حظيرة الاسلام وباتوا تحت حكمهم. خير مثال نأتي به هنا الفرسُ الذين ما مَرّ عليهم قرنان من الزمن حتى استقلوا بأنفسهم، وبسطوا في حين من الزمن سيطرتهم على قلب الخلافة. وحكموا من حاضرتها بغداد. نزعوا عنهم رداء اللغة العربية بعد ان اغترفوا من كنوزها وتعابيرها الرائعة ما ضمن لهم احياء لغتهم الفقيرة لكنهم بقوا متمسكين بدينهم الجديد ثم تحزبوا بمرور الزمن لنسخة منه اغنوها بفلسفتهم الخاصة. وانا لاأملك هناك من الاستشهاد بالشاعر الفارسي الشهير (مهيار الديلمي)[١٦] انظره كيف يفخر وبأي شيء يفخر:

قوميَ استولوا على الدهر فتىً ... ومشوا فوق رؤوس الحِقَبِ
عمموا بالشمس هَامَاتِهَمُ ... وبنوا أبياتَهم بالشُهبِ
وابي كسرى علا ايوانُه ... أين في الناس ابٌ مثلُ أبي
قد قبستُ المجد عن خير أبٍ ... وقبستُ الدين عن خير نبي
فضممتُ المجد من اطرافه ... سؤددَ الفرسِ ودين العرب

هذه الابيات الشعرية ولها دلالتها تجمل الفكر السياسي السائد في القرن العاشر عند الفرس وربما عند غيرهم.

في بلاد مابين النهرين وسورية حتى فلسطين كانت هناك بنية قومية متراكبة وهي على طبقات. بالفلاحين والمزارعين وابناء الريف الذين يتحدثون بالآرامية ومختلف لهجاتها وبالبدو العرب على حدودها الشرقية والجنوبية الصحراوية وشبه الصحراوية هؤلاء ينطقون بلجهات آرامية كذلك رغم بُنيتهم وتكوينهم الانثروبولوجي المختلف عن بقايا الشعوب القديمة التي

(١٦) شاعر فارسي (٩٧٩–١٠٣٧م) عاش في بغداد وولد في الديلم وهو الجزء الجبلي من اقليم گيلان في ايران. كان أحد تلامذة الشاعر الشريف الرضي لم ينظم بغير العربية.

عاشت في عصور قديمة هناك. وكان محتوماً ان يحصل امتزاج وتزاوج بين الأقلية العربية وبين الاكثرية من السكان الاصليين بسرعة وبسهولة من حيث ان هؤلاء الفلاحين وأهل الريف تعودوا خلال قرون التعامل مع دويلتي أو محميتي آل (غسان) في سورية وآل (لخم) في الحيرة اللتين كانتا تحت حكم امراء عرب تحميان حدود الامبراطوريتين من غزوات القبائل الصحراوية وتحولان دون ضغوطهما المتبادلة المزعجة.

لم يطل الزمن بالسكان الاصائل بعد الفتح العربي وبعد انتقال مركز الحكم العربي الى دمشق عاصمة الآراميين العريقة فتعربوا دون تحفظ وهجروا لسانهم الى حَدّ كبير بعد ان صارت اللغة العربية لغة رسمية تكتب بها الصكوك وتدون فيها العقود والرسائل الرسمية من الخلفاء، فضلاً عن تفوقها الفيلولوجي وغناها بالتعابير وغدوا انداداً للقادمين العرب. كانت دولة امية العربية الخالصة قد اضطرت الى استخدامهم في جيوشها رغم تحريم القرآن مشاركة غير المسلم في الجهاد الاسلامي فخاضوا غمار الحرب الجهادية واسهموا في فتح وادي الرافدين وفارس ومصر وشمال افريقيا ولم يكن لقوات المسلمين عنهم غنىً اذ كان بينهم خبراء في فنون الحرب واستخدام اسلحة لم يجربها العرب وكانوا على وقوف بآلات الحصار وبناء السفن الحربية والملاحة ولا غنى عنه لبناء الاسطول. ولم يكن والحالة هذه يعانون ضغوطاً جراء بقائهم على دينهم في الواقع. الاّ ان الجزية المفروضة على أهل الذمّة (في القرآن: أهل الكتاب) كانت تزعجهم كثيراً وتذكرهم احياناً بالاعباء التي أثقلهم بها سادتهم السابقون والسبيل الوحيدة للخلاص منها هو الدخول الحقيقي في المجتمع الاسلامي الجديد. إلاّ ان الدخول الجماعي اي باعداد كبيرة دفعةً واحدة كان يحرم الخزينة (بيت المال) من أهم موارده وقد فترت الحماسة لهداية الناس بمرور الزمن. لذلك صدرت أوامر من الخلفاء الى عمالهم بألاّ يشجعوا الاهلين على نبذ دينهم. وذكر المؤرخون ان الخليفة الاموي (عمر ابن عبدالعزيز ٦٨١– ٧٢٠م) أنب عامله في مصر ونصحه بأن لايمضي في خطته بقبول اسلام المسيحيين وان يرفضوا ذلك لئلا ينضب مورد كبير لبيت المال وختم رسالته بهذه العبارة «إنّ الله ارسل نبيّه هادياً لا جابياً».

وعندما اعتزم هذا الخليفة. فرض الجزية على قبيلة (تغلب) المسيحية المرهوبة الجانب التي ساندت المسلمين في قتال الجيوش الساسانية وفتح العراق. رفضوا دفعها كما رفضوا الدخول في الاسلام (كانوا معفوين عن الجزية منذ ايام عمر ابن الخطاب). وتركوا اراضي سورية الى العراق بسبب من ذلك.

في الغرب كانت هناك غلبة واضحة للعرب. والعكس هو ما حصل في بلاد فارس وكردستان[١٧] وافغانستان وبلاد التتار والصغد وغيرها. اذ مالبثت الجاليات العربية القليلة العدد التي اوصلها الفتح الى هناك فاستقرت وفقدت هويتها القومية بالتزاوج والانسال من زيجات متعددة والتسري بالمواطنات. وقد جرى ذلك بشكل طبيعي فانصهرت القلة الحاكمة بايولوجياً ولغوياً.

وشابه ذلك ما حصل في مصر. لم يتم استعرابهم ولم تتقدم عملية انصهار المصريين خطوة واحدة. الوحدات العسكرية الصغيرة نسبياً التي ازالت حكم البيزنطيين آثرت ان تصبح لا أكثر من حامية تعيش بمعزل عن سائر طبقات الشعب. الاّ ان المصريين للاسباب التي ذكرناها اسلموا واتخذوا العربية لساناً فهي اسهل من لغتهم الدارجة بكثير وهي لغة الحكام الجدد. الاّ ان هويتهم البايولوجية سلمت كما سلمت مجتمعاتهم من عملية التزاوج. وكان على البدو الاقحاح القادمين من الجزيرة رأساً ان ينتظروا حوالي اربعة قرون ليقدموا الى أرض الكنانة مع جمالهم وخيمهم ليؤلفوا جالية تضخمت بمرور الزمن واستقلت ببقاع على ضفاف النيل اشبه

(١٧) تاريخ الكرد الواقعي المؤكد يبدأ من الفتوح الاسلامية. فقد نقل المؤرخون العرب ومنهم المسعودي المتوفى في ٩٤٣م روايات عن وقائع لهم قبل الاسلام وروى عن نزاع بينهم وبين آل غسان. إلاّ ان اول تماس بين الكرد والمسلمين حصل بعد احتلال تكريت وخانقين (حلوان) شمال بغداد في العام ٦٣٧. وهناك مصادر تشير الى ان الكرد ساندوا الهرمزان حاكم الاهواز الايراني في محاولة صدّ الاندفاع الاسلامي. وكان على الخليفة (عمر ابن الخطاب) أن يرسل الحملة تلو الحملة ضد كرد الأهواز ولم تخضع الاقاليم الكردية الشمالية كشهرزور وما يليها الا بعد قتال دموي. ولم يكن بالمستغرب أن لايخفضوا جناح الذل أو يستكينوا للاحتلال فما يتمّ إخضاعهم حتى يثوروا ويترتب تجريد حملة جديدة لاخضاعهم. ربما كانت شريحة كبيرة من المجتمع الكردي زرادشتية أو مسيحية. على أن بعض الباحثين يشير الى انهم كانوا وثنيين يعبدون الاشجار ويضحون لصنم نحاس. على انهم قبلوا الاسلام تدريجياً وان وجب في بعض الاحيان ارغامهم. وكانت هناك ردّة. فمثلاً جحد الكرد بمجموعهم في (بروذ) القريبة من البصرة دينهم الاسلامي وكانوا قد أجبروا على اعتناقه في وقت متأخر. وفي الواقع انه يصعب الحكم على درجة نفوذ الدين الى اعماق النفوس الكردية وكم كان تأثيره فيهم ويزعم (حنا بطاطو) ان هناك ثلاث طوائف اسلامية في العراق: (١) السنية (٢) الشيعة عند العرب (٣) الصوفية عند الكرد. على انهم مع هذا يستطيعون الادعاء بانتسابهم الى اعظم مدافع عن الاسلام بشخص صلاح الدين ابن ايوب الذي نجح في توحيد ممالك مصر والعراق وسورية وفلسطين. والقوميون المتحمسون الكرد يوجهون انتقاداً لصلاح الدين هذا لأنه انشغل في الدفاع عن الدين بدل انشغاله في تكوين امبراطورية كردية أو كيان سياسي راسخ. ومن مفارقات الدهر ان هذا العاهل الكبير رغم قوته وهويته القومية فشل في اخضاع كردستان فقد وقف نفوذه وسلطانه عند سفوح جبال زاگروس. كان الكرد طوع يمينه كما ان الترك في خدمته دوماً الاّ انهم فعلوا ذلك دون حماسة حتى ان بعض رؤساء القبائل منهم انكر على الاسرة الايوبية حق الزعامة [راجع: ستيڤن. س. بلتيير في «الكرد عنصر قلقٍ في الخليج Stephen C. Pelletiere: The Kurds: An Unsta-ble Element in the Gulf [لم ادون تاريخ طبع الكتاب أو محله أو الصفحة في دفتر ملحوظاتي].

بمستعمرات وحافظت على تقاليد معينة ربطتها بالماضي وهؤلاء هم الصعايدة المصريون[١٨]. وهم يختلفون تماماً عن سكان مصر الاصائل. ولايمكن مشاهدة هؤلاء الاّ في البوادي او حوافّ الصحارى وواحاتها. اما النخبة الحضرية فقد أثقلتها دماء جاليات كثيرة منذ عصور سحيقة دائمة لا انقطاع لها من شعوب البحر الابيض المتوسط كسواحل اليونان وتركيا وايطاليا وسكان الجرز الكبرى. وفيما تجد الصفات الجسمية للمصري الصميم الساكن على ضفاف النيل من دخوله مصر الى مصبه يختلف تماماً عن الصعيدي تجد الاختلاف عينه بين سكان المدن والفلاحين التي تؤلف الاغلبية الساحقة. والرابطة هي الدين واللغة. وبخلافهما فهم قبط (أقباط).

وفي شمال افريقيا كان التغلب العرقي واضحاً وبقي كذلك حتى يومنا هذا كما اسلفنا ولم يعمد البدو العرب بعد الحدث الذي فصلنا في أمره الى تكرار التجربة. لكن الاسلام واللغة حكمت روابط هذه الاقطار بالعرب في الجزيرة وغيرها. إلاّ ان العرب لم يبقوا في قلب التاريخ

(١٨) في مصر بنى الفاتح الاول عمرو ابن العاص مدينة أو معسكر (الفسطاط) في العام ٦٤٣م بالقرب من حصن بابليون البيزنطي وهدمت في القرن الثالث عشر ونقلت انقاضها لبناء مدينة القاهرة الحالية. وقد انتعشت في عهد صلاح الدين واتسعت ارجاؤها فترةً وجيزة ثم هجرت ثم أعاد المماليك لها شأنها. وفي تونس بنى الفاتح العربي (عقبة ابن نافع) في العام ٦٧٠م مدينة القيروان التي اتخذها الملوك الاغالبة عاصمة ومن بعدهم الفاطميون قبل غزوهم مصر واحتلالها. وبنى (ادريس ابن عبدالله العلوي) مدينة (فاس) العتيقة في مراكش بعد نزوحه من الحجاز فاراً في معركة (فخ) ٧٨٦م قبيل وفاته وتأسيسه مملكة الادارسة في ٧٩٣م بمعونة البربر.
وتشير المصادر التونسية والفرنسية بصراحة الى ظروف معينة ادت الى دخول جماعي عربي قبلي لم يسبقه مثيل ادى الى امتزاج كبير للدم العربي مع دماء سكان شمالي افريقيا. وتفصيل ذلك كما يرويه المؤرخون التونسيون ان سنوات مترادفة من القحط والمجاعة وشحة المرعى الجأت قبائل (بني هَوَازن وسُلَيم) العربيتين الى النزوح عن مواطن سكناها بين مكة والمدينة والاضعان شمالاً بعيرهما وابلهما وكل ما يملكون كان ذلك في وقت ما بين ١١٨٣ و١١٨٥ حتى بلغوا جنوب الاردن وقدروا بعشرين الفاً انتشروا بخيمهم حتى خليج العقبة وقت ما كان صلاح الدين يستعد لمعركة (القدس) ويعبيء المقاتلين لخوض المعركة. واعلمه رجاله بقدوم هذه الجموع من قلب الصحراء وتبين له على غير ما توقع بان هؤلاء لم يقدموا للمشاركة في (الجهاد). فكان ردّ فعله شديداً اذ خيرهم بين العودة من حيث اتوا أو الاستمرار في السير غرباً والنفوذ الى مجاهل شبه جزيرة سيناء وانذرهم باستخدام القوة لحملهم على الرحيل. ففضلوا استيناف مسيرتهم ولم يمكثوا في سيناء بل عبروا الى مصر وانتشر قسم منهم في وادي النيل حين واصلت البقية مسيرتها غرباً بحذاء الساحل واستقر بعضهم في ليبيا وآخرون في تونس والجزائر بل وصل بعضهم (فاس) وبهذه الوسيلة عرفت افريقيا البعير العربي كما يؤكد مصدرنا وليس قبلها – بكميات تسمح له بالتكاثر والاستيطان. واختلط هؤلاء بالسكان وتزاوجوا ويقدر المعنيون بعلم الاجناس نسبة الدم العربي الذي يجري في عروق سكان افريقيا الشمالية بواحد من عشرة أو بواحد من العشرين كحدّ أعلى نتيجة ذلك.

طويلاً وفقدوا المقدرة على صناعته فتسلمته منهم شعوب أخرى وضاعت امبراطورية منهم شادها أسلافهم. وتحول مركز الخلافة من دمشق الى بغداد وقد فصلنا في ذلك.

ثورة بني العباس كانت صحوة موقوتة لم تدم طويلاً وان كان بعض المؤرخين ينظرون اليها بأنها نقطة تحول عظيمة في تأريخ الاسلام بسبب النهضة العلمية الهائلة. في حين يجدها مؤرخون كثيرون بدايةً لانهيار السلطة العربية على يد الفرس والاتراك. وهذا ليس بصحيح. وببعض المبالغة في حجم هذين التأثيرين قد نسلّم به كنصف الصحيح في اسوء الاحوال. كان العباسيون فخورين بعروبتهم وانتمائهم الى قريش. وكان من بين مناصريهم عرب من شيعة الإمام علي وهم يؤلفون الارستقراطية العربية اضافة الى الفرس واهل السنة وفريق من الشيعة. هؤلاء كلهم اتحدوا ليؤلفوا حكومة مبتناة على قواعد الاسلام ومبادئه.

وكمثل كثير من الثورات عبر التاريخ عززت ثورة أو قيام بني العباس على الأمويين مفاهيم ومعايير معينة كانت قد أخرجت اشطاءها في ايام الحكم السابق مثل: تحول مركز السلطة الى العراق، ظهور النفوذ الفارسي واحتلاله مركز النفوذ العربي البيزنطي، ضعف الرغبة في فتح البلاد المسيحية الاوروبية وارخاء اليد على البلاد المسيحية المجاورة في تركيا وفي القفقاس وبلاد الأرمن، الاهتمام العظيم بالتقدم العلمي والفني، اطلاق الحرية للجدال الديني. وبخلاف السلّم الاداري الذي اراده الفرس لأنفسهم ليتوقلوا به الى المراكز العليا في الامبراطورية العربية كان ثم سلّم آخر أقل بروزاً وهو الحركة الادبيّة السياسية التي عرفت «بالشعوبية» اصبحت هذه اللفظة الشيطان الرجيم الذي يلوح للقوميين العرب اينما استداروا والغول الذي يخيفهم ابداً ويعني مما يعني القضاء على تراثهم. لم يكونوا في اي وقت مصيبين كلّ الاصابة في عداء (الشعوبية) ولاسيما المعتدلة منها. وعلينا ان نقر لهم ببعض الحق فقد كانت نوايا بعض دعاة المساواة المدنية بين العرب المسلمين وبين بقية الشعوب غير العربية التي اقتبلت الاسلام ترمي الى انتزاع السلطة كاملة من يد العرب أو مشاركتهم فيها على قدم المساواة ومن دون اهتمام بالمظاهر[١٩].

(١٩) الفرس ولاسيما الطبقة البوروقراطية منهم استخدموا معرفتهم بالأدب والدين للبرهنة على مساواتهم بالعرب او ربما تفوقهم عليهم مدفوعين بحقد الماضي على استرقاقهم والقضاء على امبراطوريتهم. ظاهر الشعوبية لا غبار عليه. وللمصطلح مفهومه التاريخي المتفق عليه شاع في أواخر العصر الأموي وتبلور المقصود به في العصر العباسي. دعوة قاومها العرب وطاردوا دعاتها زمناً لتغدو كلمتا شعوبي أو شعوبية تهمةً وسبُّة في حين استقطب حولها ونادى بها ودافع عنها دعاة من الشعوب المسلمة التي جوبهت باستعلاء العرب الفاتحين كما يزعمون وباصرارهم على ان يكونوا السادة المقدمين اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً. الفكرة اساساً تستند الى ايات مخصوصة من القرآن وتدعو باسمه ووفقاً لاوامره ونواهيه =

والواقع هو ان الأسرة الحاكمة العباسية، وكل الأسر العربية التي استقرت في العاصمة كانت قد (تفرست) عن طريق النساء فكثير من الخلفاء كانوا قد انسلوا من المحضيات أو الزوجات بحيث ان ابتداء الامتزاج الجيني العباسي genitic mix منذ القرن التاسع فصاعداً كان فارسياً أكثر منه عربياً[٢٠].

ان انفتاح باب النقاش الفلسفي واللاهوتي في ايام المأمون ادى به الى اعتناق مباديء اسلامية عرفت مجموعها بعقيدة الاعتزال وعرف اصحابها بالمعتزلة. ذلك هو الشكل الأول من اللاهوت الاسلامي المنظم الذي بدأ بمثابة محاولة لدحض عقائد الزندقة والشعوبية الفارسية. إلاّ انها واجهت عملية صياغة عقلانية للاسلام مؤكدة على الارادة الحرة وعلى القضاء والقدر الالهيين. وفي عهد المأمون والخليفتين اللذين تلياه كان كلّ رجل دولة أو موظف ذي شأن أو قاضٍ يمتحن بسؤاله هل يعتقد ان الله قد خلق كل شيء وبضمن ذلك القرآن؟ والجواب بالايجاب كان يعني انه (معتزلي) وكان هذا خلاف المبدأ الشائع بان القرآن ازلي وانه كان قبل ان يوحى به الى الرسول العربي.

ويمكننا القول مبدئياً بان مجرد فكرة الوجود العربي في الأقطار التي كانت تؤلف جزءً من الامبراطورية العثمانية – بمثابة مجموعة عرقية خالصة بقيت فكرة هاجعة ساكنة قروناً عدة بالمفاهيم المتعارف عليها اليوم طبعاً لا بالمفاهيم الانثروبولوجية. وقد لاح لها بريق خاطف في فترة الحكم الأموي لكنه خبا بسرعة بتغلب الحكم العباسي وبسلطان الفرس على مقدرات دولتهم ثم خضوعهم هم انفسهم لحكم طبقة عسكرية اخرجت سلسلة من الحكام الترك والتركمان والتتر. وبقي المجتمع الناطق بالعربية في كل من آسيا وافريقيا يتألف من طبقة الفلاحين والعمال الزراعيين الذين تستغلهم الطبقة العسكرية الحاكمة ابشع استغلال وتنزل بهم اشدّ المظالم وتستنزف طاقاتهم الى آخر رمقٍ فيهم، ولاتتردد في ان تزج بهم في معترك الخلافات والنزاعات المذهبية والطائفية والدينية ليكونوا وقوداً وهذا هو الميدان الوحيد الذي كانت تلك الجماهير المسحوقة الخاملة تُشعِر العالم بوجودها. اما العرب البدو الذين تركوا الجزيرة وحالة الترحل وتمصّروا فقد انصهروا واختلطوا بسكان المدن حتى تعذر تمييزهم عن البقية في حين عادت البقية لتنغلق على نفسها في رمال الصحراء وكثبانها بعيدة جداً عن

= الى المساواة السياسية والاجتماعية. وبتمادي الزمن واحتدام المعركة بين العرب المتطرفين والغلاة الشعوبيين آل الأمر الى التعصب الاعمى كل لعقيدته ومفاهيمه.

(٢٠) ام الخليفة هارون الرشيد فارسية وام ابنه المأمون فارسية وزوج المأمون فارسية حتى الأمين نفسه فجدته فارسية.

المدّ الذي راح يطغى ويعمل نحتاً في المجتمعات الحضرية الاسلامية بالبلاد الناطقة بالعربية.

بعد سيطرة الترك في القرن السادس عشر على البلاد الناطقة بالعربية ذات الأغلبية المسلمة، استقرت الحياة السياسية في الشرق الأوسط وتواصلت بمنوال رتيب زهاء ثلاثة قرون تخللتها هزّات محلية وحروب صغيرة لم تؤثر كثيراً في مسار الحياة العام. في غضون هذه الفترة قطعت البلاد الناطقة بالعربية أو كادت معظم اتصالها باوروبا عن سبيل سواحل البحر الابيض المتوسط وفي عين الوقت انتزع المحيط الأطلسي التفوق التجاري منه مجرداً العرب والمسلمين من ارباح الوساطة التجارية بين الهند والغرب وهي تجارة كادت القبائل العربية في الجزيرة تحتكرها منذ قرون عديدة قبل الميلاد. ادى ذلك مما أدى الى تراجع الاسلام وانحسار مدّه. كان هذا الجزء من العالم الذي خضع للاتراك غالباً على المذهب السني وقد اهتم السيد الجديد الذي يدين بعين المذهب بتقويته ودعمه وصيانته بدعوى انهم حماته حتى انهم اضفوا على سلاطينهم لقب «الخلفاء» وكل ما حصل خلال هذه القرون الثلاثة من ارهاصات أو انفجارات مذهبية لم يكن ذا بال خلا حركة دينية ذات طابع قومي لمصلح خرج من قلب جزيرة العرب يدعى «محمد ابن عبدالوهاب» في متنصف القرن الثامن عشر.

الاّ ان سكان هذه الاقاليم بقوا يرسفون في سلاسل سجنهم الفكري ولم يتخلصوا من جمودهم السياسي حتى بدأ نوع من التململ المؤذن بنهضة اسلامية جديدة بعيد حملة ناپوليون پوناپرت على مصر في ١٧٩٨ ثم لحقت سورية بمصر بعد حوالي نصف قرن لتسبق الأولى بعد فترة وتغدو في المقدمة ومن هناك سطعت انوار الانبعاث القومي العربي الحديث. فنهضة مصر لم تكن ذات محتوى قومي عربي اطلاقاً والدور الهام الذي قامت به اللغة العربية وآدابها في هذا الباب متأت من كونها لسان السواد الاعظم.

كانت سورية[٢١] في فجر القرن التاسع عشر غارقةً في مجاهل القرون الوسطى المظلمة خلا كوى ضيقة فتحتها لها الارساليات الدينية للاقلية المسيحية فيها. هذا الظلام الفكري انزاح بعض الشيء بفترة السنوات العشر من الحرية النسبية والتسامح الديني واليقظة الفكرية التي جاءت مع الاحتلال المصري لكنه عاد بعد العام ١٨٤٨ ينشر ظلّه القاتم على المجتمع وعلى عقول السكان.

كانت مصر محمد علي پاشا الالباني (١٨٠٥-١٨٤٨) أولى البلاد الناطقة بالضاد حققت صلة ثقافية باوروپا الغربية. فما أقدم عليه الاتراك لم يقتصر على الزهد في احداث اي تماسٍ

(٢١) نقصد بسورية هنا: سورية ولبنان وفلسطين واسرائيل والاردن.

ثقافي أو فكري مع الغرب بل فرضوا ذلك ايضاً على رعاياهم في الشرق الأوسط والأدنى وشمال افريقيا اي كل البلاد التي تسودها لغة القرآن. فحرموا انفسهم وحرموا رعاياهم فرصة الانفتاح الحضاري في أحرج وقت، حين كانت اوروپا كلها تتمخض بمرحلة ثورة في التقدم العلمي. تلك المرحلة المجيدة التي أضاءت القرن الثامن عشر وامتد ضوءها ليلد في القرن التالي الثورة العظمى التي عرفها التاريخ بالثورة الصناعية. ورفض الاتراك ان يلحقوا بالركب أو ان ينضموا الى قافلة التقدم التي تتجه اليها الشعوب الاوروپية بعناد واصرار. والتكنولوجيا الوحيدة التي سمحوا لها باختراق ستارهم هو محاولة صادقة لاقتباس الفنون العسكرية الحديثة وبناء الجيش ولم يكن في هذا فائدة لاملاكهم العربية ولا لأهلها.

وفي هذا الظرف نشأت جرثومة للقومية العربية. نوع من احساس غامض بالواقع المزري مرتبط برؤى تاريخ مجيد وعصور ذهبية، يختلف عن الجرثومة التي نشأت على أساس ديني في قلب جزيرة العرب بزعامة آل سعود وآل عبدالوهاب، فهذه كانت من آثار عملية اصلاح ديني صرفٍ اقتضت اعلان ثورة على حكم الخليفة الفاجر الزنديق ترمي الى تنقية الدين الاسلامي مما لحق به من اوضار وتلك كانت نابعة عن حاجة ومحاكاة. كان هناك التأثير الاوروپي بروح الصحوة القومية التي اجتاحت الاقوام الاوروپية الخاضعة للسلطان العثماني. والتدخل السياسي - الانساني الذي أطلق العنان للارساليات الكاثوليكية والبعثات التبشيرية في هذه المرحلة. لم تكن الهداية الى الدين المسيحي هدفاً لتلك الارساليات ولم يكن القصد ترغيب المسلم باعتناق الدين المسيحي[٢٢] كما أدعى كثيرٌ من الكتاب والباحثين المحليين ومازالوا. بل كان القصد منها انسانياً صرفاً يرمي الى وضع التعاليم الروحية التي نشأوا عليها واوقفوا لها حياتهم موضع تطبيق عملي بانكار ذات عند بعضهم عجيب قد يرقى الى مرتبة التجرد الجنوني. ربما كان بعضهم مرتبطاً بعلاقة مع حكومته لتزويدها بمعلومات قد تعينها على توجيه سياستها في الشرق. إلاّ ان معلومات كهذه لايمكن ان ترقى الى مرتبة الجاسوسية فالتجسس عملية معقدة تنطوي على خطورة وردود فعل سياسية عنيفة. على ان اهتمام هذه البعثات الدينية كان قاصراً على المنافسة الى قلوب الطوائف المسيحية عامة وبكل ما يرافقه من إثارة الخصام وبذار الشقاق. أثناء الاحتراب على كسب الافراد أو الجماعات الى هذا المذهب الذي تمثله تلك البعثه أو ذاك.

في أفضل الأحوال لم ترتفع نسبة الأقلية المسيحية في البلاد الناطقة بالعربية التي يحتويها

(٢٢) يعتبر المسلم الجاحد مرتداً. وحكمهُ القتل.

الهلال الخصيب الى أكثر من عشرة بالمائة وهم ينتمون في العراق وسورية الى أكثر من عشر طوائف دينية. مازالوا كما كانوا قبلاً مواطنين من الدرجة الثانية ببعض الحقوق المتوارثة والمتقررة منذ العهود الاسلامية الأولى وهي تخضع للمدّ والجزر وتزيد وتنقص بمشيئة الحكام كما فصلنا في السابق. مع هذا كله فان الاسلام كان يتهيب ويحترم المجتمعات الدينية ولايتعرض لتقاليدها ومراسيمها واماكن عباداتها بسوء أو أذى إلاّ اذا اعترضت طريق الشعائر الاسلامية بشكل عدواني صريح.

وكان من الطبيعي ان يحصل التماس بين الجاليات الاوروبية والتجار الاجانب وممثلي القنصليات وموظفيها[٢٣] بإخوانهم المسيحيين المحليين وكان محتوماً ان يقتبس هؤلاء الأخيرون كثيراً من العادات والمفاهيم الجديدة وان يطلعوا بوساطتهم على المستحدثات العصرية في عالمي الفن والفكر والسياسة. لاسيما عن الحركات القومية والبعث القومي الاوروبي الذي انتشر في سماء اوروبا. فكانت هناك عملية توحيد المانيا وايطاليا وكان ثم ثورات پولندية وطنية قومية وحروب تحرير للشعوب السلافية على اساس قومي في أواسط اوروبا. ضدّ الامبراطورية النمساوية والقيصرية الروسية. وثورات اليونان والبلغار وشعوب البلقان على امبراطورية آل عثمان.

وما حصل اثر ثورات وانتفاضات في جبل لبنان (١٨٦٠) وغيره أنّ المجتمعات المسيحية التي باتت منذ قيام حكم ذاتي في لبنان تجدّ سعياً في البحث عن جسر الى الأغلبية المسلمة – وقعت عليه في فكرة الانتماء القومي. خصوصاً من الانتمائية اللغوية التي برز فيها العلماء والادباء المسيحيون بتفوق على اقرانهم المسلمين وكادوا يحتكرون وسائل الاعلام الحديثة من صحف ودور طباعة. وعلينا ان لاننسى قط فضل البعثات التبشيرية هنا فان الانماط السائدة للغة العرب في ايامنا هذه انما طورتها ووصلت الى مستواها الحالي بهندسة الارساليات الدينية حروف الطباعة المستخدمة اليوم. واستوردت المطابع[٢٤] التي جددت

(٢٣) اسس التجار البنادقة مستعمرات وجاليات في المدن السورية وموانئها ومنها تلك التي وجدت في حلب ودمشق. مالبث هؤلاء ان وجد لهم منافسون من الفرنسيين ثم من الانكليز. وجد لهؤلاء الثلاثة ايضاً مستعمرات ثابتة في الاسكندرونة وطرابلس وصيدا وبيروت وعكا والرملة. وفي العام ١٧٤٠ عقد الباب العالي مع فرنسا معاهدة جعلت سائر المسيحيين الذين يحجون الى بيت المقدس تحت حماية العلم الفرنسي.

(٢٤) اول مطبعة بحروف عربية ظهرت في الشرة كانت في حلب وتم جلبها بجهود البطريرك اثناسيوس (الذي كان يتردد بين الارثذكسية والكثلكة!) وتم طبع الكثير من الكتب العربية فيها. ومنها الانجيل في العام ١٧٠٨. ثم جاءت البعثة التبشيرية البروتستانتية الى بيروت بمطبعة وحروف عربية في العام ١٨٣٤. =

اساليب الطباعة وقضت على الطباعة الحجرية. وشنت حملة نشر واسعة النطاق للفكر المعاصر بطباعة مختلف الكتب العلمية والأدبية والتراجم من اللغات الاوروپية. بهذا فتح باب الغرب الاوروپي على مصراعيه لصب ثمرات حضارته في قوالب عربية مستنبطة.

شقت هذه المطبوعات طريقها بنجاح رغم نظرات الشك والخوف والانزعاج التي سببتها في عالم متزمت منغلق على نفسه وقوبلت من طبقات علماء الدين بمختلف مذاهبهم بصدود واضح وافتى بعضهم ببطلانها وبأنها مجافية لتعاليم الدين القويم.

فكان محتوماً ان تنمو جذور القومية العربية باصولها الحديثة في عرصات قريبة جداً من مراكز الاشعاع الفكري الآتي من الغرب وان تختار لمروجيها ودعاتها المثقفين المسيحيين الجدد الذين كانوا يعملون للخلاص من العزلة الاجتماعية ومن حالة المواطنة ذات الدرجة الثانية، بمدّ يدهم للطبقة المثقفة المسلمة الجديدة التي أقبلت بجراءة على ارسال ابنائها لتلقي العلم في المعاهد والكليات التي أسستها البعثات التبشيرية دون تحرج.

ان جرثومة القوميّة العربية بمفهومها الحديث انما وجدت في المجتمعات الكاثوليكية والارثذكسية في[٢٥] سورية عندما أشرف القرن التاسع عشر على نهايته. والافكار القوميّة

= ولحقت بها ارسالية الآباء الجزويت في العام ١٨٥٣. وقد ارتبطت كل واحدة منهما بكليته الخاصة. ففي العام ١٨٦٦ أسس الواعظون والاطباء الامريكان الكلية السورية البروتستانتية التي اتخذت لها فيما بعد اسم جامعة بيروت الامريكية. وأسرع الفرنسيون يحتذون حذوهم بانشاء جامعة القديس يوسف في العام ١٨٧٤، كلاهما كان معهداً قائداً لحركة الاحياء العلمي في الشرق الادنى ومصنعاً لتخريج الوطنيين المثقفين الذين زخر بهم النصف الثاني من القرن التاسع عشر [راجع في هذا الباب: (الدكتور فيليب حتي: سورية موجز تاريخي. لندن ١٩٥٩ ص٢٣٠ وما بعدها Philip K. Hitti: .Syria a Short History]

(٢٥) النظرية السياسية العثمانية كانت تعتبر سكان البلاد المفتوحة ولاسيما البلاد غير المسلمة، اشبه بقطيع اغنام يجب أن تستغل وتعمل لفائدة الفاتح. مقابل ان يسمح لهم بان يعيشوا حياتهم الخاصة مادامو لايثيرون للحكام مشاكل. وهؤلاء بما ان معظمهم فلاحون ومزارعون وتجار وصناع، فلا حظّ لهم في مناصب الدولة عسكرية أكانت أم مدينة. هذا القطيع يحتاج الى كلاب حراسة، يؤمن بصورة رئيسة من أسرى الحرب أو العبيد المبتاعين أو من اولاد المسيحيين الذين يجبون من ذويهم كما تجبى الضرائب ويدربون وينشأون على دين الاسلام.
هؤلاء المحكومون يصنفون حسب دينهم لا حسب قومياتهم. فمنذ زمن لايعرف مبدؤه كانت المجتمعات السكنية في الشرق الأدنى تصنف لا على اساس القوميّة أو البلد الذي ينتمون اليه بل على اساس العقيدة ولا دخل للحدود السياسية أو الاثنية هنا. وفي ذهن الناس جميعاً ان القومية والدين هما واحدٌ اندمجا بشكل لا فكاك لاحد من الآخر. وكل مجموعة دينية عند العثمانيين يطلق عليها اسم (ملّة) وأكبر ملتين فيها هي الاسلام والارثذكس. وهناك (ملل) أخرى اصغر وأقل من هاتين شأناً كملة الأرمن والدروز واليهود والكلدان والآشوريين وغيرها ولكل ملة من هذه رئيس روحاني يمارس نوعاً من السلطة ذا أهمية ليست بالقليلة.

بدأت تجد سبيلها الى اذهان نخبة من ذوي الثقافة الفرنسية ثم الانكليزية. ان الأماني المسيحية آنذاك تلك التي اقترنت باستنهاض الروح القومية العربية، كانت تدعو الحكومات التركية للقيام بتجديد محدود لمصلحتهم كالسماح باستخدام اللغة العربية في المرافعات القضائية، وكأن يكون لهم صوت في ادارات القرى والمدن اي شكلاً في غاية البساطة من الحكم الذاتي (اتونومي) المحلي، الذي لايتطلب من الحكومة أكثر من تنازل قليل عن بعض صلاحياتها والمصادقة على منح امتيازات معينة. نجم عن هذه المطالب نشاط محدود ضم نخبة من المثقفين المسيحيين مع قلة من المسلمين المتحمسين لهم.

وفي هذه المرحلة لم يكن لتلك الفئة هدف سياسي واضح أو برنامج. لذلك بقي مفهوم القوميّة اصلاحياً محدوداً مناسباً لأهداف مسيحيي لبنان وسورية ولم يطمح الى توسعة ليشمل مسيحيي الولايات الناطقة بالعربية في الشرق وشمال افريقيا، لم يكن في ايّ من الولايات الثلاث التي تكون منها عراق اليوم، ما يشعر المرء بوجود اية حركة عربية مناوئة للحكم العثماني أو مطالبة بنوع من المشاركة السياسية فيه كما حصل في لبنان ومصر مثلاً.

ما دخل الشرق الأدنى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى كانت الدعوة الى اليقظة العربية من مركزها المسيحي قد انداحت الى المحيط الاسلامي المتزمت وغزت عقول الطبقة المستنيرة بشكل سريع حماسي مالبث ان اخذ عنصر المبادرة من المسيحيين أنفسهم[٢٦].

يصعب جداً تحديد الفترة التي تم فيها انسحاب تدريجي بله انكماش جزئي للمسيحيين عن ميدان النشاط الوطني والقومي، وتسلم الاكثرية المثقفة المسلمة لواء الجهاد في ميدانهما

(٢٦) في رأس قائمة الوطنيين (القوميين) العرب المسيحيين يخطر بالبال الشيخ ابراهيم اليازجي اللغوي والاديب والشاعر الكبير صاحب القصيدة الشهيرة التي ذاع صيتها ورددتها آلافٌ مؤلفةٌ من الشفاه في ارجاء الوطن العربي. بمطلعها.

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الرُّكبُ

القاها في اجتماع سري لاعضاء الجمعية السورية العلمية في ١٨٦٨. وهي جمعية اسسها كل من بطرس البستاني وناصيف اليازجي من رواد النهضة العربية في العالم العربي في العام ١٨٥٧ وكانت خلفاً لجمعية الاداب والعلوم وهي اول جمعية في العالم العربي. وذكر الدكتور نبيه امين فارس في مقدمته للترجمة العربية لكتاب يقظة العرب (الطبعة السادسة ١٩٨٠ الص ١٣-١٤) ابياتاً من قصيدة لابراهيم اليازجي انشدها بتلك المناسبة ايضاً

سلام ايها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وان جحدت مآثرنا اللئام

الرحب وفي اعتقادنا ان لواقع ربط مفهوم القومية بالدين في الشرق اثره في ذلك[٢٧].

وانعكس الدور ولاندري متى - فاصبح المسلمون الوطنيون الآن يحثون المسيحيين على اللحاق بالركب متى حصل ذلك؟

يجمل بنا ان ندرج هنا نداء السيد عبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٢)[٢٨] للمسيحيين: يشير فيها الى فضل السبق المسيحي على النهضة:

«يا قوم واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين. ادعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد وما جناه الاباء والاجداد. فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين، واجلكم من ان لاتهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون. فهذه امم أوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائف الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي. والارتباط السياسي دون الاداري. فما بالنا نحن لانفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعاجم: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفحصاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، الا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن فلنحيا طلقاء اعزاء[٢٩]».

(٢٧) راجع د. عبدالعزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية [دار العلم للملايين. بيروت ١٩٦٠]: «وتوحد العرب بالحركة الاسلامية واصبحوا [امّة واحدة] ومع ان تعبير الأمّة هنا ينطوي على مدلول ديني ولكن الواقع انها تشمل العرب وحدهم. ولذا نقول ان الامة في تلك الفترة كانت عربية. وكان ان هيأ الاسلام لهذه الأمة العربية رسالة انسانية خرجت بها الى العالم واعطاهم اساساً شاملاً للحركة ولبناء مجتمع جديد وحضارة جديدة» [ص١٤].

(٢٨) صحافي وأديب سوري. من ابناء حلب انشأ فيها جريدة الشهباء في ١٨٧٧ وعرف بتحرره الفكري ودعوته الى الاصلاح. طارده الاتراك فهاجر الى مصر واشتهر بكتابه «ام القرى (مكة) وطبائع الاستبداد».

(٢٩) الفقرة مقتبسة من كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وقد نقلناها من مقدمة الدكتور نبيه فارس لترجمة كتاب يقظة العرب من تأليف جورج انطونيوس: (ص١٧) [الكتاب كما جاء في الحاشية مطبوع في القاهرة بحدود ١٩٠٠].

لا أرى هذا الفصل يختم بأفضل من ذكر طائفة من رجال النهضة العربية المسيحيين والمسلمين والدروز الذين لمعت اسماؤهم خلال تلك الفترة وابدأ بالمسيحيين. هناك الاديبان اللغويان سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) وعبدالله البستاني (١٨٥٤-١٩٣٠) وسليم تقلا (١٨٤٩-١٨٩٢) وشقيقه بشارة تقلا (١٨٥٢-١٩٠١) مؤسسا جريدة الاهرام القاهرية والوطنيان الشهيدان فيليب الخازن (١٨٦٥-١٩١٦) وفريد الخازن (١٨٦٩-١٩١٦) اللذان اعدمهما احمد جمال السفاح. والمؤرخ الكبير جرجي زيدان =

من المؤسف ان الدعوة مسيحيتها واسلاميتها لم تجد لها ميداناً رحباً بين سواد الشعب الناطق بالعربية. لاسيما في كل من مصر والعراق، ففي كليهما كان هناك تيار اسلامي شديد. يحث على التمسك بعرى الخلافة والوحدة الاسلامية إلاّ ان منتوج الادباء الاحرار القلمي من سورية كان يجد طريقه الى هذين القطرين. بل باتت القاهرة الملاذ الآمن للوطنيين المطاردين الذين تلاحقهم شرطة السلطان عبدالحميد الثاني. منهم من هاجر ومنهم من صمد الى الأخير ومنهم من انسحب مؤثراً السلامة. الى جانب باقة فواحة من أولئك الذين ضحوا بارواحهم في سبيل ما دعوا اليه وبشروا به.

= (١٨٦١–١٩١٤) وخليل الخوري (١٨٣٦–١٩٠٧) وسليم الخوري شقيقه (١٨٤٣–١٨٧٥) مؤسسا اول صحيفة في بيروت. والاب لويس شيخو اليسوعي (١٨٥٩–١٩٢٧) وزميله الأب لويس معلوف (١٨٧٦–١٩٤٦) واليهما ينسب القدر الكبير في الاسهام باحياء التراث الادبي العربي القديم. وغيرهم كثيرون.

وصعد الى المشنقة في العام ١٩١٦ من المسلمين والمسيحيين والدروز ما يزيد عن اثنين واربعين شهيداً اذكر منهم الصحافي عبدالغني العريسي (١٨٩١–١٩١٦) وسعد فاضل عقل (١٨٨٦) والامير عارف الشهابي وعبدالكريم الخليل ومحمد محمصاني، والشيخ احمد طبارة (١٨٧١) ورفيق رزق سلوم وتوفيق بساط وعمر احمد وعلي الارمنازي ونورالدين القاضي وعبدالوهاب الانكليزي وعبدالحميد الزهراوي وسامي العظم وجلال تجاري ومحمود العجم وامين لطفي الحافظ ونايف تللو وشكري العسلي ورشدي الشمعة وشفيق المؤيد وغيرهم.

ملحق

من جريدة Arab Times [٢٨-٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٦]

العرب يجدون بطلهم الاعظم : الجمل

القاهرة في ٢٧ من تشرين الثاني / عن وكالة الانباء الفرنسية

وجد العرب بطلهم الذي يمثلهم في القصص الكارتونية Comic Strips ولم يكن غير (الجمل النبيل) ذي السنام الواحد على حد قول خالقه المصري السيد عمادالدين عبدالسلام (٢٥ عاماً نهار الاربعاء الماضي) قال: اني لم اتوقع نيل الجائزة الأولى. وكان بين ٢٠٠ متسابق من تسع دول عربية شاركوا في مباراة جرت أوائل هذه السنة.

نظم المباراة جمعية لاتسعى الى الكسب المالي يرأسها الأمير [طلال ابن عبدالعزيز] اخ الملك السعودي (فهد) وهدفها العثور على البطل الاعظم (سوبر هيرو) الذي يمكن للناشئة العرب الاستنجاد به للمحافظة على هويتهم العربية ولحمايتهم من التأثير الغربي على حدّ قول الأمير.

ويقول خالق البطل وهو خريج قسم الكارتون في كلية الفنون - جامعة القاهرة ومستخدم خلال السنتين الاخيرتين في «مؤسسة كارتون القاهرة»: "لأول مرة خلقت شخصية كريمة نبيلة". واضاف قائلاً ان اعماله السابقة تضمنت خلق «غول أثيم» و«جنّي شرير» وستكونان الشخصيتين الرئيستين في فلم مخصوص للاطفال عن (السندباد) يعرضه تلفزيون مصر ايام صيام شهر رمضان المبارك في كانون الثاني ١٩٩٧. وقال انه اختار «الجمل الظريف» ذا السنام الواحد بعينيه البراقتين ومنخريه العريضين لدخول المسابقة التي أعلن عنها [المجلس العربي للشباب والتقدم] لأنه الرمز الرئيس المركزي للبيئة العربية، والجمل كذلك يرمز الى الصبر والجلد والذكاء والرقة والطيبة على حد قول خالقه الذي خرج بالفي دولار جائزة لاختراعه هذا.

Arabs find their superhero: camel

CAIRO, Nov 27, (AFP): The Arabs have found their comic strip hero and it is none other than the one-humped "Good Camel," his Egyptian creator said here on Wednesday.

"I did not expect to win first prize," said 25-year-old Imad Eddin Abdel Salam, who was among 200 people from nine Arab countries to take part in a competition launched earlier this year.

The competition organised by a non-profit organisation run by a brother of Saudii King Fahd — Talal ibn Abdel Aziz — was aimed at finding a superhero who Arab children can identify with to "preserve Arab identity and to protect them from Western influence."

A graduate of the cartoons department of the fine arts faculty at Cairo University, Abdel Salam has been working for the past two years for the Egyptian firm "Cairo Cartoons."

"This is the first time that I create a non-evil character," Abdel Salam said, adding that his most important previous works were a "bad genie" and a "wicked giant."

They will both be the central characters of a Sindbad children's film to be broadcast on Egyptian television during the holy fasting month of Ramadan in January.

He said he chose the "Camel Zarif" (the good camel) — a one-humped animal with overgrown nostrils and twinkling eyes — as his entry to the competition launched by the Arab Council for Youth and Development because he is the key symbol of the Arab environment.

"The camel also symbolises patience, intelligence, kindness, goodness and resistance," said Abdel Salam, who won 7,000 pounds (2,000 dollars) for his comic strip hero.

الفصل الثالث

الاسلام والقومية العربية . الاسلام دين عالمي تبشيري . خطأ من يعتبره مسؤولاً عن عيوب معينة . تعاليمه أصلاً تتجه نحو الخير . أصوله : القرآن والحديث . الأعمال بالنيات حديث نبوي ونظيره في الإنجيل . واقعية محمد . الخيارات والتحديات . قدرة الاسلام على إمتصاص الأزمات . مجلس الشورى واختيار الرئيس . التفسير الاشتراكي للإسلام بعيد عن الواقع . الاسلام يهدم رابطة الدم ويُحل محلها رابطة العقيدة . التفسير الإسلامي للقانون والشريعة . العودة الى القانون الطبيعي . الإباحة هي القاعدة الأساسية في الشرع . قيام حاكم يتولى أمور الناس واجب ديني . الخليفة نائب الله أكثر من كونه خلفاً لمحمد . مأتى لقب «أمير المؤمنين» . التغيير بعد الخلفاء الأربعة الأولين . البيعة تعاقد لا عملية انتخاب . مصطلح «الإمام» مرادف لـ«رئيس الدولة» وهو منصب مستحدث . الشيعة ، نواميسهم وآمالهم . ابتعاد الإسلام عن أصوله والخروج عن مفاهيمه ستراً للاستبداد . «الغزالي» ونظرية الضرورة والإباحة . إنحلال البنية الغربية . آثار خطيب المسجد في دعم الحاكم . أهمية المسجد في الحياة العامة . الانتصار للإسلام غريزة في المسلم وإن كان علمانياً . التمسك بالمظاهر والدفاع عنها في وجه كل رافض . التراكم التاريخي حصيلته الطابع النفسي الاجتماعي وأثره في الإنحراف الخلقي . إباحة بعض الأفعال التي تعدّ من قبيل الجرائم العادية والخلقية . الإسلام الأول هو السبب في ظهور دعوى القومية العربية

الإسلام هو واحد من أديان عالمية ثلاثة. وأولها البوذية وثانيها المسيحية أو النصرانية[1] كما عرفت في القرآن وعند المؤرخين والكتاب العرب الأوائل. وهو ليس دين شعب معين بالذات كاليهودية أو البراهمية، على أن العرب المسلمين يفخرون ومن حقهم هذا ، بأن صاحب

(١) نسبة الى مدينة (الناصرة) وهي المدينة التي قضى فيها المسيح فترة صباه منذ سنته الثالثة وردحاً من مقتبل شبابه يعمل نجاراً في دكان يوسف زوج أمه. ويبدو من الأناجيل أن المسيح نفسه قد قبل تلقيبه بهذا اللقب. وفي العالم الإسلامي والبلاد الناطقة بالعربية لم ينبذ هذا وإنما قل استعماله في الازمان المتأخرة.

الرسالة هو عربي وأن أحكام الإسلام وشرائعه وكتابه المقدس نزلت وحياً بلغتهم كما أكد القرآن ذلك، وأيّد في موضع آخر منه وجوب نزوله بلغة العرب لا بغيرها[2].

وإذا أخذنا الاناجيل الأربعة مع ملحقها من الرسائل من دون الشروح المنسية ومن دون نقاش، فقد لا يبدو ان المسيح قصد ابتداع دين جديد. وإنه في حياته القصيرة لم يبث رسالته لليهود وحدهم من المبدء حتى الختام.

ومع هذا فالديانتان تتحدان في مسيرتهما التاريخية وواقعهما العلمي، أي أنهما لم تقصدا بتبشيرهما قوماً بالذات أو طائفة أو عنصراً، وكلاهما استُهدفا من الخصوم ورُميا بكل نقيصة وهوجما أعنف هجوم. على إن ما نال الإسلام من المسيحية في العصور الوسيطة بل حتى في العصور الحديثة من تشويه لا لمبادئه وحدها بل من سيرة صاحب رسالته لا بيد كتاب المسيحية وباحثيها وحدهم بل من جمهرة كبيرة من الكتاب والمؤرخين قدر كبير لاتحيط به مجلدات. وأحكامهم كلها كادت تكون مبنية على جهل نسبي أو مطبق بالأصول والتعاليم الإسلامية، ولا يسعنا إلا ان نذكّر أولئك الذين يحكمون على أديان غيرهم طبقاً لمقاييس ذاتية بالعبارة الرائعة التي قالها عالم اللاهوت الشهير (لوازي) في العام ١٩٠٦[3]:

"يمكننا القول عن جميع الأديان بأنها ذات قيمة مطلقة بالنسبة الى إدراك ووعي معتنقي كل ديانة، وذات قيمة نسبية عند الفيلسوف الناقد."

وبتقدير عمل الإسلام والأثر الذي خلفه في أتباعه، كثيراً ما تتناسب هذه الحقيقة وكثيرا ما اخطأ بعضهم فيما يتعلق بأحكامهم عليه. هؤلاء الكتاب اعتبروا الدين الإسلامي مسؤولاً عن عيوب خلقية وكذلك مسؤولاً عن ركود عقلي متأتّ من درجة الإستعداد القومي، ونسوا بان الإسلام انتشر بين شعوب وقوميات مختلفة وأدى الى التخفيف من همجيتها وتأخرها العقلي بدلاً من زيادتهما كما ظنوا وزعموا.

(٢) من سورة (فصلت) ويسميها الشيعة سورة (السجدة): (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصّلت آياته ءَأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ والذين لايؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً أولئك يُنادَون من مكان بعيد). والأعجمي كل من هو وما هو غير عربي. وتفسير الآية: لو أننا جعلناه غير عربي لقال الذين لم يؤمنوا به من العرب: هلاّ فُصّلت آياته وأجزاؤه فانفصلت وبان بعضها من بعض بالعربية اذ كيف يستقيم ان يُرسل كتاب أعجمي لمرسل اليه عربي فهو منافاة وأصلاً غير منطقي يجلّ عنه الله تعالى.

(٣) Alfred Firman Loisy ١٨٥٧–١٩٤٠: من الفلاسفة الفرنسيين المتخصصين في علم الأديان. وواحد من العلماء الفيلولوجيين الكبار. يعتبر أباً لحركة التجديد في الفكر الديني التي سادت القرن العشرين. وقد صدر عليه الحرمان البابوي في ١٩٠٨ بسبب تعاليمه وكتبه.

والإسلام والحالة هذه، شأنه شأن سائر الأديان في ذلك، ليس شيئاً مجرداً ليمكن عزله عن المظاهر والمقدمات والنتائج التي يبدو من خلالها وتبدو من خلاله وهي تختلف بطبيعة الحال – باختلاف الأدوار التي مر بها متطوراً تاريخياً، وبامتداد وتقلص أفقه الجغرافي، وبالطابع القومي لأتباعه والمؤمنين به.

من جملة المحاولات الغربية الطريفة للتدليل على افتقار في الإسلام للقيم الاخلاقية أو قلة اهتمامه بها، الاستناد الى حجج مستمدة من اللغة التي نزلت بها أحكامه. فقالوا ان الإسلام يخلو من مزية الإحساس الخلقي التي تسمى في اللغات الاوروبية Conscience وهي الكلمة التي تعوضنا عنها نحن كتّاب العربية موجزا بـ(الضمير). وحاولوا تقوية زعمهم هذا بأن اللغة العربية نفسها وسائر اللغات السامية تخلو من كلمة خاصة للتعبير الدقيق عما تعبر عنه هذه الكلمة اللاتينية الأصل.

وبغض النظر عن وجود كلمات اخرى تسد هذا المسد في العربية فإن هذا النقص على إفتراض وجوده في اللغة لايفترض عين النقص في القلب أو في الاحساس الباطني.

ولو كان الأمر كذلك لوجب علينا الحكم بأن شعراء (الڤيدا)[٤] كانوا يجهلون معنى (العرفان بالجميل) لخلو هذه الملحمة الشعرية العظيمة من كلمة تدل على (الشكر) كما انتقد الجاحظ[٥] وسخر من أولئك الذين لاحظوا خلو اللغة اليونانية من كلمة (الجود) فاتخذوا منها دليلاً على بخل الروم واليونان. وانتقد بأسلوبه الفكه أولئك الذين اتخذوا خلو اللغة الفارسية من كلمة (نصيحة) دليلاً على غش غريزي في القوم.

إن شئنا ان نعدّل في حكمنا على الإسلام، فعلينا الموافقة على واقع وهو أن في تعاليمه قوة فاعلة تتجه اصلاً الى الخير وإن الحياة البشرية طبقاً لتلك التعاليم الكامنة في تلك القوة يمكن أن تبني بسهولة ويسر حياة بشرية سليمة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية والسلوكية.

ومجمل هذه التعاليم كما نجدها واضحة في القرآن وأحاديث الرسول العربي تطلب رحمة ومحبة لجميع أبناء البشر مخلوقات الله وتدعو الى الأمانة في علاقات هذا الخلق بعضهم مع

(٤) Vedas أي المعرفة بالسنسكريتية. معظم الكتب القديمة الهندية يعتقد أنها وحي إلهي وهي أساس الديانة الهندوسية، هناك أربعة كتب تنضوي فيها (تسامهيتا) وهي ريك وياجور وساما وأثرفا، وقد يعود تاريخ أقدمها الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

(٥) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٧٧٥–٨٦٨ ميلادية): من أئمة الادب العربي، ثاقب البصيرة متزن العقل دقيق التعليل كتبه مدرسة للعلم والأدب. وصلنا معظم مؤلفاته ومن اهمها كتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والمحاسن والأضداد وغيرها.

بعض والإخلاص في الواجب والعمل وقمع الغرائز العدوانية أو الدنيا كالأثرة والانانية. وكل ذلك لا يشذُّ عما تطلبته الأديان السابقة من فضائل. وقد أُثرِ بها الإسلام جمعاً، كما أثبت محمد بأنه آخر سلسلة الأنبياء وباعثي الإديان.

والإسلام كشريعة، يُخضع المؤمنين به الى اعمال وطقوس شعائرية، ليس فحسب بموجب التعاليم والتقاليد التي استند اليها في اثناء مراحل نموه وتطوره، بل لأن معينها الأول وهو القرآن يعتبر "الأعمال بالنيات" ويعدّ النية معياراً للقيمة الدينية ويرى أنه إن لم تقترن دقة الإحترام وتطبيق الشريعة بأعمال رحمة وخير وعدل فإنها قليلة القيمة أو لا قيمة لها إطلاقاً فـ"ليس البرَّ ان تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون".

ويروي الصحابي الكبير (ابو ذر الغفاري)[٦] أن الرسول أوصاه قائلاً: (صلاة في مسجدي هذا تعدل ألف صلاة في غيره من المساجد الا المسجد الحرام. وصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة الف صلاة في غيره، وأفضل من هذا كله صلاة يصليها الرجل في بيته حيث لا يراه الا الله عز وجل، يرجو بها وجه الله).

انك لا تجد فرقاً بين هذا الحديث وما ورد في إنجيل متى عن لسان المسيح (... ومتى صليت فلا تكن كالمرائين. انهم يحبون ان يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس... أما أنت فمتى صليت فادخل الى مخدعك وأغلق بابك وصل لأبيك الذي هو في الخفاء، فأبوك الذي هو في الخفاء يجزيك في العلن).

مع هذا فقد ارتُكبت جنايات كبيرة بحق هذين الدينين، إرتكبها أولئك الذين نصّبوا أنفسهم دون ان ينصّبهم احد قوّامين عليهما، ومن تلك الجنايات تلك القيود والتخريجات والتآويل والطقوس المعقدة التي كبلوهما بها والألوان الصارخة التي أسبلت على وجه بساطتهما قناعاً

(٦) جندب ابن جناده (توفي في ٦٥٢ ميلادية أي ٣٢ هجرية) يوصف بأنه من أقرب الصحابيين الى الرسول العربي، عرف بتقواه واحتقاره متاع الدنيا وبثورته العارمة على الحكام المسلمين وانتقادهم علناً في جمع من الناس. روى كثيراً من أحاديث الرسول. وقضى ردحاً من حياته في الشام. كان يلوذ به البائسون والمعدمون والفقراء ليصغوا الى أحاديثه وكلها بذمّ الأغنياء والمتجبرين. هاجم معاوية وهو حاكم الشام لإسرافه وظاهر أبهته وتصرفه الحر بمال المسلمين. فقبض عليه وأعاده مخفوراً الى المدينة، وهناك ضاق به الخليفة عثمان ذرعاً فنفاه الى (الربدة) وهي قرية تبعد عن المدينة زهاء سبعين ميلاً وتوفي هناك.

كثيفاً شق على سليمي النية والعباد والصالحين النفوذ منه الى الحقيقة[٧].

الإسلام بوجهه العالمي شارك مشاركة فعالة في وضع بصمات خالدة على التقدم الحضاري،

(٧) تحفل صحف الغرب بأنباء عن رجال دين مسيحيين حكم عليهم بالسجن لجرائم احتيال ونصب وتصرف جنائي بالأموال المودعة إليهم بحكم مركزهم الديني، وباتهام عدد كبير منهم بجرائم أخلاقية تتراوح بين ممارسة أعمال جنسية شاذة بتلاميذ وصغار أوكل امر تربيتهم إليهم، وبين الزنا واغتصاب القصر. ولاتطال يد القضاء عدداً كبيراً من أمثال هؤلاء في العالم الناطق بالعربية الذين دأبوا تحت ستار الدفاع عن الإسلام على تبرير بل الاجازة بل الأمر بالإقدام على جنايات حرّمها القرآن وفرض عليها عقاباً، حتى ليبدو الله من خلال تخريجاتهم وحججهم وتبريرهم وكأنه بحاجة الى معونة مخلوقاته للدفاع عما أنزل به من فرائض وأحكام، وإنه أعجز سبحانه عن إنزال العقاب بمن يريد سوءا بعباده وسننه!

ليس هناك ضرر أفدح من الضرر الذي يلحقه بسمعة الدين من التطبيق الخاطيء والوعظ الشاذ لأولئك الذين نصبوا انفسهم للدفاع عنه. ويحضرني في هذا المقام حادث عظيم الدلالة لا أراني قادراً على اغفال روايته هنا: ربطتني ايام إقامتي في ايران صلة صداقة حميمة بضابط سابق في الجيش الايراني برتبة رائد يدعى (سيد محمود) هو من طبقة السادة ينحدر من اسرة غنية تقية، إستقال من الخدمة قبل الثورة الاسلامية مشمئزاً من الوضع العام السائد آنذاك. وعرف بعطفه الكبير على المطاردين الإسلاميين المعارضين، بل كان احياناً يجعل مزرعته مخبأً لأقطاب لهم. في ذات ليلة اقتحم رجال الحرس الثوري بيته خطأ وهو غائب وهم في سبيل البحث عن فار فوجدوا بمحض الصدفة سيف الخدمة وناظوراً عسكرياً وبندقيتي صيد فحملوها تاركين مذكرة تأمره بالحضور في (قم) والمثول أمام محكمتها الثورية. حمل صديقي وثائق ملكيته وإجازة البندقيتين المجردتين وفق الاصول. ورحل الى (قم) معتقداً ان الموضوع مجرد خطأ، ومثل أمام حجة الإسلام (عندليب) رئيس المحكمة، لكنه لم يعد إلا بعد ثمانية أيام وجدته بعد عودته كئيباً واجماً لايرد على اسئلتي، فانتحت بي زوجه لتخبرني بأنه كان مسجوناً خلال هذه المدة وأن حجة الإسلام (عندليب) أصدر بحقه حكماً بالسجن المعلّق (مع وقف التنفيذ) لمدة سنتين مع مصادرة المبرزات. وقد علمت ان هذا القاضي اجتاحته سورة غضب من موقف المتهم فأسرع بزجه في السجن قبل المحاكمة. رحل (سيد محمود) الى (قم) مؤمناً بالإسلام وعدالته. وعاد كافراً به يملأوه غضب كلما ذكر بإيمانه وتقاه الماضي. وحاولت مع اصدقاء له بكل ما حضرنا من منطق إقناعه بأن الدين الإسلامي ليس (عندليب) ولا من نصبه قاضياً. فيزداد عصبية ويرد ثائراً (كلا كلا بل هذا هو الإسلام الحقيقي وانا الذي كنت غافلاً عن هذا طوال خمسين سنة).

وبقي يتابع قضية الحكم والمصادرة بدأب أربع سنوات كاملة بالمراجعات وعاونته في كتابة المذكرات القانونية المرفوعة الى كل جهة رسمية وغير رسمية واستندت باصدقاء لي من علماء الدين، وكنا نستشهد في مجهوداتنا هذه بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء والأئمة، بل بنصوص من كتاب الإمام الخميني (توضيح المسائل). بالأخير أُعيدت اليه الأشياء المصادرة وأُلغي حكم السجن، لكن لا بطريق قانونية بل بوسائل يعرفها الإيرانيون. الا ان سيد محمود فارق دينه فراقاً ابدياً وقد تركته وهو كذلك.

وأفدح من هذا كله جناية العصر الكبرى على الإسلام التي ارتكبها كاتب خامل الشأن بالمشاركة مع فقيه عظيم القدر واقصد بأولهما الكاتب الهندي المسلم سلمان رشدي صاحب (القصائد الشيطانية) مصدر الضجة الكبرى. أخطأته الشهرة والثروة في ثلاثة كتب تافهة لم تنل أي رواج ولم تحظ باهتمام أي ناقد ذي شأن. فوجد أسهل سبيل اليهما هو التعريض بالمقدسات الإسلامية وقيام الدولة الثيوقراطية في إيران وبما يرتكبه بعض المهووسين من جرائم وإرهاب باسم الإسلام. صيغ التعريض التافه السخيف في قالب رمزي وظهر بكل القصور الفكري ووضوح الفكرة، وهو النقص الذي يشكو منه الكاتب والسبب =

رغم كل الإساءات التي وجهت اليه والى بانيه الذي تعرضت سيرته الى التشويه في مجرى عملية النقد العامة.

بالنسبة الى المسلمين كان محمد وسيبقى دوماً مثالاً للفضائل الإسلامية، كالتواضع والصبر على المكاره والفكاهة والرقة والسخاء والوقار وأصالة الرأي والحكمة. والغربيون الذين خاضوا حروباً ومعارك مع المسلمين حيناً وفاوضوهم حيناً وحالفوهم حيناً، كتبوا ما كتبوه عنه

= في خمول ذكره وفشله السابق. فبدأ التعريض محشوراً حشراً في السياق ومتقصداً فعلياً بقناع الرمزية الذي يلجأ اليه الفاشلون، وبحيث ماكان متوقعاً ان تثار الضجة العالمية الكبرى التي كان يصبو اليها المؤلف لولا ان قيض لها شريك كان السبب الأول والأخير في انتشار الكتاب وشهرة المؤلف وغناه. عندما أصدر حكمه الغيابي من دون محاكمة ومن دون معرفة شخصية بمضامين الكتاب بإعدام المؤلف وإباحة دمه للمسلمين، فقفز به الى مصاف كبار أحرار الفكر المضطهدين في عقيدتهم وما بعد (رشدي) عن أصحاب العقيدة. فضلاً عن وضعه في مصاف ذوي الثروة والغنى من المؤلفين. وبعد أن ابلغ هذا (الحكم) مبيعات قصائد شيطانية حدود المليون ونصف المليون نسخة وتهافت دور النشر الأجنبية على ترجمته بدافع فضول القراء وحب الاستطلاع، وأنا الذي صبرت على أشق الكتب وأكثرها ملالة. ما استطعت الصبر على هذيان المؤلف وقذفت بكتابه هذا مشمئزا وقد بقي منه صفحات قلائل. فكيف بأولئك القراء العاديين؟

وكان على أولئك الذين انبروا للدفاع عن رشدي باسم حرية الفكر ان يدركوا غلطتهم الكبرى بعد ان خذلهم صاحبهم هذا بإعلان توبته وندمه وعودته الى حظيرة الإسلام بعد تحقيق غرضه طبعاً. وان ينبذه اولئك الذين ثاروا على ذلك (الحكم) الذي دفعته العاطفة أكثر مما دفعه العقل والمنطق وتعاليم الإسلام الحقيقية، وأولئك الذين عقدوا له الندوات و دعوه الى حفلات التكريم اما كان عليهم أن يدركوا بأن صاحبهم هذا لايشتري حرية الفكر بدانق، وإنه إنما يضحك على الجميع ويستغل الجميع بما في ذلك حكم الموت الصادر عليه. وماذا عن الملايين التي أنفقتها دولة ينتسب إليها بالتجنس لحمايته من القاتل المزعوم؟ اليست هي أيضا من كسب الصيت والشهرة وترويج الكتاب؟

ما من شك في إن الضرر الذي أحدثه ذلك الفقيه الذي أفتى بقتل المؤلف هو في نظري أعظم بما لا يقاس بسمعة الإسلام واسم الإسلام من الكتاب نفسه. لا ادري في الواقع مدى إطلاع ذلك الفقيه على تاريخ تطور الفكر الإسلامي والعقيدة السمحاء وهي تُفحص وتُمتحن اشد امتحان وأعنفه على علمائها وفقهائها وأدبائها ومفكريها، إستهدفتها طعون هائلة بلغت حد التشكيك بالنبوة وبالكتاب والعقيدة أصلاً قبل احد عشر قرناً وما بعده. من بين هؤلاء سأذكر الشاعر الكبير أبا العلاء المعري ٩٧٥–١٠٥٧ ميلادية الذي جاءنا كل ما قاله من شعر ونثر في إنكار الاديان والرسل. والراوندي الفيلسوف ٨٧٠–٩١٠ ميلادية الذي طعن بصحة القرآن وبالنبوة في كتابه (الدامغ) بما لم يحلم سلمان رشدي بقوله. والكندي الملقب بفيلسوف العرب الأكبر ٧٩٦–٨٧٣ ميلادية، وقد نقل لنا المؤرخون أقوالهم ونصوصاً من كتبهم لاسيما الطبيب الشهير عند العرب باسم: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي صاحب المكتشفات والمصنفات الطبية الرائعة اشهر أطباء عصره على الاطلاق ٨٦٤–٩٣٢ ميلادية لم يتحرج قط في إثبات نظريته الواقعية التي تضمنت نكران الأديان، كغيره ممن سبقه ولحقه وهم كثيرون لم يجسر حاكم على قتلهم او الأمر بتقييد حرياتهم، ولم يحاول فقهاء عصرهم الافتاء بإعدامهم الحياة بل جالسوهم وناظروهم وبادلوهم الآراء. وقد ماتوا حتف أنوفهم، فكيف بالإسلام الآن وله من الأتباع والمؤمنين (٩٠٠) مليون وهم في زيادة لا نقصان بوجود سلمان رشدي أو بدونه.

واشتطوا وعتوا حتى خرجوا بكتاباتهم عن حدود المعقول والبديهي. وصفه أحد كتاب القرون الوسيطة بأنه أسقف انحرف نتيجة طموحه وفشله في الوصول الى كرسي البابوية! وقال آخر عنه أنه تاجر انقلب الى قاطع طريق. وزعم ثالث بانه مكابر دعيٌّ أصدر أمراً للجبل ان يأتي اليه! وآخر قال انه مريض بداء الصرع وخامس قال إنه مأفون وملتاث العقل.

ليس في كل هذا ذرة واحدة من الحقيقة، وهو تخريف وجهل واضطغان. لكن علينا الإقرار هنا بأن المسيحي واليهودي المؤمنين بدينهما لايقرّان بنبوة (محمد) أو بأنه كان يعمل بمشيئة الله وينقل ما يوصيه به عن طريق الملاك جبرائيل.

ان حياة أي انسان عالمي الشهرة، تغدو بمثابة عدسة أو مرآة ينظر الناس الى أنفسهم والى العالم من خلالها أفراداً أو جماعات، والمؤرخ أو الكاتب يركز عادة على وقائع معينة فيها ويحذف أو يطمس معالم أخرى منها. والقاريء يمسك بنقاط معينة مما يطالع وتقوم مخيلته بتضخيمها وتجسيمها أو تقليصها لتوافق صورة سبق له تكوينها عن تلك الشخصية.

فكيف أحكم على الرسول العربي؟

من كل ما قرأت وتأملت وهو غير قليل، أراه بمرآتي بشراً سوياً رفيقاً حانياً صادقاً مع نفسه ومع الآخرين شديد الايمان والثقة برسالته، اكثر واقعية ودنيوية ممن صحبه وتبعه. كان يضيق بهجاء الشعراء ويطرب لمدحهم. ويؤمن من اعماق نفسه بالله وبنفسه وبأنه مبعوث من لدنه وبأنه آخر الأنبياء، وقد وجد من مقتضى رسالته أن ينذر العرب وغير العرب بيوم الحساب، وقد عزم عزماً لا رجعة فيه ان يجعل من قبائل الجزيرة العربية المتناحرة الممزقة (أمة) ومن المسلمين في دائرة أوسع مجتمعاً يستطيع فيه المؤمنون بأفضل ما يمكن إتباع تعاليم الكتاب وتهيئة أنفسهم للموقف الرهيب في يوم الحساب. والتهيئة تتم بالأعمال والنوايا في هذه الحياة.

لا جدال في أن محمداً كان تاكتيكياً بارعاً وسياسياً باقعة أهّلاه بجدارة ليكون حَكَماً ومصدراً للقانون وقائداً عسكرياً. وفي الواقع كان المسملون يرجعون اليه في كل شيء، ولم يقم قبله ولا بعده من أفلح في توحيد العرب. وعندما قبل هو برسالة النبوة وقف أمام خيارات حادة وتحديات هائلة تفوق طاقة البشر السوي. ألجأته مما ألجأته الى أن يعاف مسقط رأسه ورخاء العيش وتركهما الى مستقبل مجهول. وما بلغه من سلطان ورفعة وقوة والشهرة التي حظي بها اسمه لم تكن واضحة إلا بعد وفاته. فقد ترك وراءه فراغاً عظيماً في المجتمع العربي (الأمة التي خلقها). اذ لما كان هو المرجع الوحيد، فقد خلقت وفاته ازمة لهذا الشعب

الجديد. ومع أن خلفاء له اكتشفوا قادة وحكاماً جدداً ووقفوا صامدين امام التحديات والانشقاقات القبلية وتغلبوا عليها ووجهوا تلكم القبائل المتمردة الى الفتح واحتلال أراض وكسب شعوب جديدة للإسلام ونجحوا اعظم نجاح في إذلال الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، الا أن هذا الفوز الكبير جلب معه الخلاف وأدى فيما بعد الى ذلك النزاع الدنيوي – المذهبي الذي لم يلحم صدعه حتى هذه الساعة. لكن مقدرة الإسلام على امتصاص الازمات الأولى أكد بقاءه وضمن بناء حضارته، التي قدر لها في فترة طويلة أن تكون مصدر إلهام العالم المسكون بكل تراثه الباقي.

وبإجماع من أهل السنة لم يسم محمد خلفاً له وتمسك الشيعة بالقول أنه سمى علياً صهره وابن عمه، والمسألة هنا شائكة ومعقدة، اذ يقول بعضهم أن ذلك كان إغفالاً منه متعمداً أو غير متعمد، وانا مع الآخرين الذين يرون خلاف ذلك. لأن شيوخ العرب ورؤساء قبائلهم لايسمون عادةً من سيحل محلهم ويتركون الأمر لرأي عقلاء القبيلة وكبارها، ثم كيف يمكن تخصيص المهام التي يمكنه إيداعها الى خلفه بوصفه رسول الله، كان يعتبر نفسه خاتماً للانبياء وكذلك أنزله المؤمنون برسالته، إذن فليس في إمكان أحد أن يتسلم الوحي الإلهي.

ثم إن (الأمة) نفسها لم تطلب لنفسها نبياً بعده، لذلك لم تكن هناك حاجة تدعو الى نظير ثان بعد أن كفاها من ذاته، وإنما كانت في حاجة الى نوع من الزعامة قد يرقى الى مرتبة شيخ مشايخ قبائل متحالفة متحدة.

قبل أن يموت الخليفة الثاني أقام مجلس شورى لاختيار من يعقبه. وقد استخدم الكتّاب العرب هذه الصيغة من الإنتخاب (الشورى) للبرهنة بان الإسلام الأول كان يعرف الديمقراطية ويمارس واحداً من مظاهرها الحديثة. والواقع هو أن تلك اللجنة الصغيرة إنما كانت مؤلفة من ستة مكيين من صحابة الرسول وكلهم تجار أو ذوو يسر ومن قريش، وربما كان سبب المنافسة الشخصية والعقاب الهائل الذي فرضه (عمر) على الأقلية[٨] أن اضطروا الى الإتفاق على اختيار أضعفهم وربما أقلهم كفاءة حسماً للخلاف، وربما لأنه أكثرهم غنى بدليل أنه كان من ذلك البيت الذي خاصم (محمداً) وناوءه من الأول الى الأخير.

(٨) قال لصهيب الرومي وهو من الصحابة صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط (الستة) بيتاً وقم على رؤوسهم، فان إجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ (إضرب) رأسه بالسيف. وإن إتفق أربعة وأبى إثنان، فاضرب رؤوسهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكّموا عبدالله ابن عمر (وهو ابن له)، فإن لم يرضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس (الطبري. وإبن الآثير وغيرهما) وجه الغرابة هنا أن يطاع أمر أصدره الحاكم، وبعد وفاته يتضمن القتل!

حاول كتاب الماركسية وعلماؤها دراسة الإسلام وتعليل ظهوره على ضوء المادية الديالكتية أو ما سموه بالإشتراكية العلمية، لاحظت أعينهم الحادة كل شيء فيه وبحثت في زواياه وخفاياه، لكنها أغفلت أهم عنصر فيه وسبب وجوده الوحيد وهو شخصية (محمد). ولإغفالهم ذلك ذهبوا في التعاليل مذاهب شتى متناقضة رغم اهتدائهم بنظرية واحدة. فاختلفوا فيما بينهم حول الأصول المبدئية والجذور الإجتماعية للإسلام الأول. فقال بعضهم إنها حركة بدو رحل إستهدفت المدينة وطبقة التجار والنبلاء، وهي بالأصل تحرك من أجل حيازة الأرض.

وزعم آخرون منهم بأن القاعدة الاجتماعية التي بنيت عليها الرسالة المحمدية هي المزارعون الفقراء من أهل المدينة، وإن البدو الذين انضموا الى الحركة وصاروا فيما بعد قوتها الضاربة العسكرية التي حسمت المواقف. في حين رأى فريق ثالث منهم أن الإسلام الأول كان حركة تجار صغار ومن الطبقة الوسطى قامت ضد نبلاء مكة التجار، فهي ثورة ذات وجه برجوازي. وذهب آخرون مذهب فردريك انگلز أحد مفكري الإشتراكية الثلاثة الكبار فقد ذهب في كتابه (Zar Gschict des Urchristentums) بأن مختلف المجموعات الاجتماعية عند العرب اتحدت تحت لواء الإسلام، وهو من جهة دين لسكان المدينة الذين احترفوا التجارة والصناعات اليدوية، وهو من جهة أخرى دين للبدو الرحل. والإسلام اصلاً (حركة) تعكس مصالح وتطلعات القبائل البدوية التي تعاني من ازمات اقتصادية دورية وهي قوام القوة العسكرية للاسلام، في حين كان سكان المدن وهم أول من آمن (بمحمد) قادة تلك الحركة.

وأما بخصوص العقيدة Dogma، فالديالكتيون يرون ان فرائض الإسلام وسلوكه الأخلاقي وشرائعه قامت فيما يبدو على مباديء مسيحية – يهودية استُعيرت لبنية اجتماعية أكثر بدائية، قوامها العادات والتقاليد القبلية الآيلة الى الزوال. وإن الآيديولوجية الإسلامية هي اكثر بساطة من آيديولوجية الديانتين السابقتين وأوضح للجماهير لاسيما بدو آسيا وهم الفلاحون والمزارعون. فتعاليمها وأوامرها ونواهيها لم يشُبْها تعقيدٌ، وتطبيقها هو من السهولة بمكان[٩].

والمقام لايتسع هنا لبيان الخطأ في هذه التفاسير والتعاليل قدر ما تهمنا آثارها الضارة على الحركة القومية العربية فيما بعد وبعمل القوميين الاشتراكيين. ان التقيد بالنظرية ومحاولة تطبيقها على كل ظاهرة سياسية أو حركة اجتماعية عقائدية والتخوف من الخروج عليها أوقع الماركسيين في مآزق تحليلية غير واقعية بالمرة. ومثلهم في هذا مثل الحصان الذي

(٩) على سبيل المثال: سيرجي توكاريف Sergie Tokarev، تاريخ (موسكو ١٩٨٦) وغيرهم.

يحاول جاهدا إدخال العربة الكبيرة التي يجرها في باب سهل عليه هو دخوله. غفل الماركسيون عن واقع الإسلام الذي اجتمع فيه ما لم يجتمع في سابقيه، فقد إهتم بامور الدنيا والدين معاً فهو دين وسياسة، ومن هذا السبيل جاءت محاولة القوميين العرب لاسيما قومية عبدالناصر تطبيق بعض النظم الاشتراكية الحديثة والتمسك بالتعاليم الإسلامية في آن واحد.

أغفل الماركسيون العنصر الفاعل الحقيقي في الدين الإسلامي وهو شخصية (محمد) وقوى (محمد) الروحية التي يترجمها المسلمون بالوحي الآلهي. كيف بنى (محمد) من تلك القبائل المشتتة المتناحرة شعباً وأمة بتلك المبادرة الفذة التي نعزوها عادة الى رجال التاريخ العظام بناة حضارات الأمم. كانت المسألة عند غير الماركسيين واضحة: الصرح الاجتماعي العربي كان مقاماً على أساس رابطة الدم، القبيلة تدعي انحدارها من رب اسرة واحدة تسكن رقعة أرض معينة يرتبط أفرادها فيما بينهم بدين وتقاليد وعادات واحدة الا أن رابطة الدم كانت أوثق الروابط طراً أحقيقية أو موهومة، فالمجتمع العربي القديم – الجاهلية – أسوة بالمجتمعات البدوية كانت وحدته الإجتماعية الجماعة لا الفرد، والفرد لايعتد بشخصيته بل بالقبيلة التي ينتسب اليها.

تناول (محمد) هذا البناء الاجتماعي فهدمه من أصوله وجذوره وأقام بدلاً عنه صرحاً اجتماعياً جديداً على قاعدة تتفق وأعمق غرائزه، عمل باهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة، فقد هدم محمد شكل القبيلة ومحا منها الطابع الفردي Gents وكنس معه الحلف والموالاة وأحلّ محل ذلك رابطة العقيدة: (من يدخل حمى الإسلام فعليه ان ينسى روابطه كلها، ومنها القربى والولاء القبلي ويتبرأ منهم «اذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَّبعوا، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب»).

ذلكم هو النظام الجديد الذي خلقه محمد ودعا إليه، ومنه بدأت قيمة الفرد تتضح وبرزت كينونته البشرية خارج نطاق القبيلة. اذ صار يستمد حقوقه وواجباته من عقيدته ويستقيها من شرائعها لا من روابطه العرفية القبلية.

هذه (الجماعة) الجديدة صاحبة العقيدة الجديدة، فضّلت على غيرها باعتبارها الجماعة الممتازة. أو الشعب المقدس الذي عهد بمهمة بث الخير والصلاح ومحاربة الشر والباطل. فهو رسول الله الى الشعوب الأخرى مثلما كان (محمد) رسول الله الى العرب. عقيدة (محمد) جعلت من العرب شعباً أو قومية بالمصطلح الحديث. وهذه القومية لم تبن على رابطة الدم أو وحدة التراب أو اللغة بل على أساس العقيدة (اخوة في الدين شركاء في الفيء حلفاء على

العدو). فالتعاون السياسي والاجتماعي واجب قانوني وفرض ديني في الوقت نفسه.

عرّفنا القانون بأنه مجموعة من قواعد سائدة أقرّها شعب من الشعوب إمّا رأساً وإما عن طريق ممثلين له. ولسلطان القانون سمة من الإدارة والادراك، والاخلاق والعادات. ولا يسمى القانون قانوناً إلا اذا وافق الحاكم والمحكوم على احترامه وإلا كان شيئاً تافهاً لا يعتد به.

الا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك. فان أقر بأن (الله) هو رأس المجتمع الإسلامي وسائسه الأعلى، فالقانون الموضوع لا شيء أمام إرادته، والقاعدة القانونية هي القاعدة التي يطبقها المشترع الأعظم على شعبه المختار، والخضوع لهذا القانون هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن يخرج عليه لايأثم أمام النظام الاجتماعي القائم، بل يأثم أيضاً أمام دينه، اذ (لا حق ثم لما ليس لله فيه نصيب).

النظام القضائي والدين، القانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الارادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية انما هي مسألة تحكيم عقلي بحد ذاتها. فما هي طبيعة هذا القانون؟ ما هي وظيفته؟ (كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) لتكون شريعة للحرية وقانوناً للرحمة التي شمل بها الله الجنس البشري وللتخفيف من صرامة الكتب المقدسة الأخرى. إنه عودة الى القانون الطبيعي الذي ابتعد به اليهود والنصارى عن غرضه الحقيقي. الشريعة الجديدة ألغت القيود الصارمة والمحرمات التي فرضتها شريعة موسى على اليهود وألغت صرامة الرهبانية المسيحية وأعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية والنزول الى مستواها، مستجيبة الى جميع حاجات الإنسان العملية في الحياة (يسّروا ولا تعسّروا) و(ما جعل عليكم في الدين من حرج) و(من حرم زينة الله والطيبات من الرزق) و(ليس للإنسان إلا ما سعى) و(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وغيرها وغيرها من التعاليم. وعلى كل حال فـ(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)، لذلك وصف الكاتب والفيلسوف الفرنسي (رينان)[١٠] الإسلام بانه (دين الإنسان) ولم يكن في ذلك مبالغاً، فجوهر الشريعة الإسلامية يتسم بطابع واضح في فسح المجال الأرحب لمزاولة الأعمال البشرية. وليس ثم مندوحة من اتفاقنا مع فقهاء المسلمين بأن القاعدة الاساسية في القانون هي الإباحة، الا أن الإباحة لايمكن ان تكون مطلقة. ففي الإنسان

(١٠) Ernest Renan ١٨٢٣–١٨٩٢: كاتب وعالم آثاري كبير أول من بدء التنقيب في سورية، كتابه (La Vie de Jesus) حياة يسوع اول محاولة علمية واقعية لدراسة سيرة المسيح، اثارت عليه ثائرة الكنيسة الكاثوليكية وحرم كتابه.

جوانب سلبية خلقت مع طبيعته كالطمع والجشع والميل الى السطو على مال الآخرين والشح، واستطابة الكسل والخمول والتواكل والأنانية، ومن الواجب كبح هذه الغرائز.

المشترعون الرومان عرّفوا قوة القانون بقولهم (عناصر القانون هي الأمر والنهي والسماح والعقاب Legis virtus est: imperare, vetare, permittere, punire). الا ان الشريعة الإسلامية أضافت الى المباديء الأربعة مبدئين قانونيين آخرين وهما (المستحسن والمكروه)، فإن أسقطنا من التعريف الروماني المبدء الأخير، أي العقاب وأضفنا بدله المبدئين الإسلاميين تم لنا أوجه خمسة للقانون السائد وبشكله التام الحالي. والمعين الذي تمتار منه الشريعة الإسلامية هو القرآن وأحاديث الرسول اصلاً، ثم تكفّل الفقه وهو علم القانون الذي يمت الى علم العقائد (اللاهوت) أو علم الكلام بصلة وثيقة. بإضافة معنيين آخرين بعد إدراك الحاجة الى استنباط أحكام تفصيلية من العموميات التي وردت في الأولين، وهما ما دُعي بالإجتهاد والقياس. وقد عرّف المذهبُ الحنفي علمَ الفقه هكذا: (معرفة الناس ما لها وما عليها، بغية وصولها الى السبيل القويمة في الحياة الدنيا وإعدادها للآخرة).

والقانون أي الشرع، كلمة جوفاء لا تعني شيئاً إن لم يشرف على تطبيقه مشرف ويحميه حام. فالأسباب التي اقتضت وضع حد لتصرفات البشر ونشاطهم هي التي اقتضت أن يقوم عليهم حاكم يسوسهم ويتولى أمورهم ويحكم بينهم بالقسط. لذلك أكمل الله شرعته بالإمام أو الخليفة وفرض طاعته على الأمة. والله هو الذي (يؤتي الملك من يشاء) لأن الانسان بغير إرادة الله لايستطيع ان يتحكم في مصائر إخوانه أو يفرض سلطانه عليهم. وكل وجه من أوجه السيطرة على الناس، لا اثر لها ولا قيمة إن لم يدعمها الله ويحللها بوصفه مصدر السلطة ومانحها للناس بمقادير متفاوتة ولبعض دون بعض متوخياً مصلحة الآخرين المحكومين. إذن فقيام الإمام أو الخليفة أو الرئيس أو الحاكم هو واجب ديني، وهو لا يكون الا لشخص واحد لايشرك فيها غيره لأن:

١- وحدة الشريعة تستلزم وحدانية السلطة التي تشرف وتنفذ تلك الشريعة.

٢- لايتحقق النظام في المجتمع إلا إذا سلمت مقاليد الحكم لشخص واحد لا أكثر، بدليل قوله (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا).

لكن من هو هذا الرئيس أو الخليفة الصالح أو الامام؟

تلك هي الصعوبة التي كانت السبب الأساس لتمزيق الوحدة الإسلامية، بل وحدة الناطقين بالعربية من باب أولى.

بالأول يبدو أن مبدء سمو قريش على أسر العرب كان مسلّماً به منذ القديم، وقد تدرج الأمر ليغدو قاعدة ثابتة. اما الحكمة التي استدعت حصر الإمامة بقريش، فهو المبدء الذي يوجب أن يكون الخليفة عربياً قبل كل شيء.

كان (محمد) يجمع بين صفة رسول الله والرئيس السياسي والقائد والقاضي الأعلى وصاحب القرارات الحاسمة في السلم والحرب. وعندما توفي خلف فراغاً حاول (ابو بكر) حميه إملاءه ولقُب بـ(خليفة رسول الله). وسواء في الأمر أستخدم هذا العنوان بالأصل أو أنه اتخذ لتفسير مقام الخليفة؟ فالمفهوم حينذاك إنه كان نائب الله أكثر من كونه خلفاً لمحمد. فالخليفة هو أيضاً أمير المؤمنين، أي أمير الذين دخلوا حظيرة الإسلام من غير العرب. وهؤلاء الذين خلفوا (محمد) مارسوا كل السلطات التي مارسها هو وحصروها بأنفسهم كما فعل هو.

على ان الفتوح العربية والإسلامية المذهلة وخلال هذه الفترة القصيرة الفريدة في تاريخ البشرية، اعطى اللقب ثقلاً خاصاً. لم يكن هناك دولة ما في مكة أو المدينة بالمعنى الذي يُفهم من الحكم القائم في القسطنطينية أو في قطيسفون. فالخليفة كان أشبه بشيخ من الشيوخ، وهو الذي يتقدم المسلمين في الصلاة أي يكون إماماً لهم، وقد اصبح ذلك تقليداً عندما مرض (محمد) وأوصى (ابا بكر) بأن ينوب عنه بإمامة الصلاة (قيل ان ذلك هو الذي سهل اختياره خليفة) وكذلك قيل إن (ابا بكر) أبى قبول لقب (خليفة الله) وقنع بلقب (خليفة رسول الله). ثم درج لقب (أمير المؤمنين) منذ زمن عمر ابن الخطاب محدداً بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا الذي هو في الحقيقة ليس عاهلاً، أي ملكاً، ولا رئيس حكومة كما يدل عليه المصطلح الروماني Locum Tenes بل هو مجرد أمير ينطبق عليه المصطلح الروماني Primus inter Pares أي الأول بين الأقران. واسم الإمام الذي يطابق بمدلوله لفظة Antistes أي قائد الصلاة قد بقي الى الأخير عنواناً لأعظم وأسمى صفة في العاهل الإسلامي وإن انقلبت الأمور بعد الخلفاء الأربعة الأوائل الذين قبلوا أئمة بالبيعة أو بانتخاب الأقران. وليكن واضحاً إن البيعة هي ليست كالإنتخابات التي تجري في الدول الديمقراطية، فوظيفة هذا العاهل الدينية هي أصل كل وظائفه الأخرى، واذا ذكر الكتاب لفظة (الإمام) غير مشروحة أو موضحة فهم يقصدون رئيس الدولة مطلقاً. يريدون بها الإشارة الى مصدر جميع السلطات التي تصرف بها أمور البلاد. على إن هذا لايضفي على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت مثلما إدعى بهذه السمة حكام في تاريخ العالم. انها ليست سلطة بابوية مثلاً، فحكومة المسلمين لم تكن في أي زمن من الازمان حكومة دينية Hierarchy ولم يحصل فيها تعاقب رسولي، والإمام في عز سلطانه الدنيوي ليس (رباً). إنه منصب استحدثته الشريعة الإسلامية للخير

العام. وهو وكالة منوطة بشخص وجب عليه ان يضع نصب عينيه مصلحة المجموع وأنه يقدم عنها حساباً. هذا تماماً ما عناه (القاضي أبو يوسف) حينما كتب في مقدمة كتابه (الخراج) مخاطباً الخليفة هارون الرشيد العباسي:

"وإني أوصيك بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله... وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاّك الله أمره وعليك ما ضيّعت منه. فلا تنس القيام بأمر من ولاّك أمره، فلست تنسى."(١١)

الانتخابات في عرف القانون هي عملية يمنح بها الشعب السلطة لفرد ما إختياراً. فهو تعاقد وهو ما فهم عن طريقة إختيار الخلفاء الأربعة الأوَل. لكن ظهرت طريقة أخرى لنصب الخليفة واطردت لتصبح عادة وهو أن يُسمي الخليفة من يعقبه أي أنه ينصبه ولياً للعهد. وقد اعتذر الأمويون وأنصارهم بقولهم إن تعييناً كهذا يساوي التعاقد في الجوهر. فإن قُبل أصبح عقداً، والمراسيم التى يتم بها العقد تُعرف بـ(البيعة) وهى كلمة كانت تستخدم في الجاهلية للدلالة على إبرام صفقة، وهي رمز لمصافحة الكفين التى كانت دليلاً على الرضى والقبول منذ عهد ابي بكر. قال أهل السنّة ان هذا المبدء طُبق بنجاح كبير في عصر الإسلام الذهبي، فيما خالفهم فقهاء الشيعة ليُوقّتوا بدء الانحلال بخلافة أبي بكر وبحرمان الخليفة الرابع من حقه الشرعي. وراح فقهاء الطرفين ينوهون بعدها بتدهور وانحلال مطرد لابتعاد الإسلام عن أصوله وخروجه عن مبادئه الاساسية، بعد أن حلت الانظمة الملكية محل الخلافة وهو ما دعي بحكم السيف الذي لا شأن للشريعة الإسلامية به. في الواقع ما عاد الفقهاء المسلمون يتصورون وجوداً فعلياً للخلافة، اذ صارت حكماً فردياً مطلقاً زمن الأمويين وملكية مطلقة في حكم العباسيين على النمط الفارسي سلاحه الظاهري ستر الاستبداد والظلم وفساد الإدارة العام الذي قاد الإمبراطورية الضخمة، وبناتها العرب الى الإنهيار والزوال والخمول. إذ ما اهلّ القرن الثالث للهجرة (مائتان من السنين فقط) حتى وجد العرب أنفسهم يخضعون لحكام أجانب وصارت فتوحاتهم إقطاعاً للسلاطين الغرباء والمغامرين العسكريين Soldiers of Fortrne بل آضت بلادهم ومسقط رأسهم تحت حكم هؤلاء. وتقلص نفوذ الخليفة العربي الذي غلب عليه الدم الأجنبي بعد هارون الرشيد ليكون رئيساً فخرياً ورمزاً باهتاً. فالقادة

(١١) القاضي أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم الأنصاري (٧٣١–٧٩٨ ميلادية) مواطن من الكوفة كان صاحباً للامام أبي حنيفة وعنه أخذ الفقه، وقد تولى القضاء الأعلى في بغداد أثناء حكم ثلاثة من الخلفاء وآخرهم الرشيد. وهو أول من دُعي بقاضي القضاة وميّز العلماء بلباس خاص. وصلنا من آثاره كتاب (الخراج) وهو أهم مرجع اقتصادي – إداري لتلك الفترة.

العسكريون الذين برزوا فوق أنقاض الإمبراطورية فرضوا انفسهم فرضاً وكانوا السلطة الفعلية. ولم يسع الفقهاء إلا أن يقنعوا أنفسهم بما قدر للخليفة من مصير، على أنهم حاولوا التخفيف من شدة وقع هذا الإنقلاب رغم صعوبة الأمر وشذوذه. وأجرت مدرستهم تعديلات متتابعة على أحكامها وتعاليلها مسايرة للأحوال والواقع وراحت تبث وتروج لفكرتها القائلة بأن الحكومات القائمة وإن لم تستوف الشروط التي اقتضتها الشريعة أو تسير وفقاً لها، ومع أنها تستمد ديمومتها من الاستبداد والقمع والطغيان إلا أنه يجب احترامها والخضوع لأوامرها لأنها اليد والوسيلة التي تقي المجتمع الإسلامي الفوضى وتحد من إستبداد الفرد.

وأدركت مدارس الفقهاء على اختلافها أن النظام القديم الذي تبناه العرب المسلمون بعد وفاة النبي لم يعد يتفق ومتطلبات العصور التالية لاسيما تلك التي يعيشون فيها وسلّم كثير منهم طوعاً أو كرهاً بأن (الإمام) قد لايكون ذلك الرجل الطاهر الذيل الذي تشترطه احكام الشريعة، كما أنه قد يتعذر تحقق شروط النسب القريشي[١٢] وانه ليس صفة جوهرية في الخليفة، وآل بهم الأمر ليجيزوا قيام أكثر من إمام واحد. وقد بسط الغزالي هذه المسألة بصراحته المعهودة، فقال في هذا الصدد:

"ما أبحناه لم نُبحه مختارين، والضرورات تبيح المحظورات، ليس للمرء ان يورد نفسه موارد التهلكة بامتناعه عن ميتة وخمر فحفظ المهجة أهم في الشرع من ترك الميتة والخمر. إن سألنا من يقول بذهاب الخلافة أيهما أفضل؟ الفوضى والجمود في حياة الأمة بغياب السلطة الشرعية أم الخضوع للسلطان؟ لا بدّ لنا من إختيار ثاني الأمرين. وفي الحديث: من رأى من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإن فارق الجماعة شبراً كانت ميتته جاهلية."[١٣]

في فترة تمتد لأكثر من أحد عشر قرناً لعب التاريخ بالناطقين بالعربية وبالعرب لعبات دنيئة سافلة، فقد صدمتهم الإنقسامات ومزقتهم النزاعات الداخلية وزلزلت كياناتهم الغارات

(١٢) المستصفي، ج١، ص٦٣.

(١٣) احياء علوم الدين، ج٢، ص٨٠ و٩٢ وغيرها. جاء في (شرح مقاصد الطالبين في علم اصول عقائد الدين) للتفتازاني (ت ١٣٨٩م): وقد ذكر في كتبنا الفقهية أنه لا بد للأمة من إمام يحيي الدين ويقيم السنّة وينتصف للمظلومين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها. ويشترط أن يكون مكلفاً مسلماً عدلاً حراً ذكراً مجتهداً شجاعاً، ذا رأي وكفاية، سميعاً بصيراً ناطقاً قريشياً، فإن لم يوجد في قريش من يستجمع الصفات المعتبرة وُلِّيَ كناني، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسماعيل فإن لم يوجد فرجل من العجم (ج٢ ص ٢٧١).

الخارجية وأذلهم الخضوع الى سادة أجانب أذاقوهم الويل من النوائب وغرزوا فيهم آمالاً عراضاً مبالغاً فيها كاذبة، وأشاعوا فيهم المخاوف والإرهاب النفسي، الا أنهم كانوا في أحلك ساعات تاريخهم يعللون النفس بذكريات الماضي والمجد السالف عندما كان أجدادهم يحكمون معظم نصف الكرة الارضية الشرقي، وعندما كان العنصر الأصفر الصيني والأعراق الأوروبية النوردية ترتعد فرقاً منهم وتخطب ودهم، وعندما كانت لغتهم الوعاء الكبير الذي صبت فيه كل ما أنجزته البشرية في العالم والفكر والأدب[١٤]. في هذه الفترة المنحصرة بين ٦٨٥-٩٤٥ ميلادية، وهي الفترة التي بلغ العرب فيها من السيادة السياسية والفكرية أقصاها، ووقفوا وحدهم بلا منازع على رأس سلم المدنية والحضارة، كانت الأسرتان الحاكمتان خلالها من قبيلة قريش وهي القبيلة التي نبغ منها نبيهم. وقتما بدأ شيء شبيه بالوحدة والتماسك كانت الإرهاصات السياسية الفارسية والرومية والسريانية بتقاليدها المؤثلة الحضارية عاملة غير هاجعة. كما بقيت القوة النسبية للشعوب الأخرى التي لم تقبل الإسلام دينياً تجاهد أيضاً من جانبها حينما بدأ الضعف والإنحلال يعتور التسلط العربي.

ظاهرة الإنحلال الإجتماعي التي وطأت لتغلب (جنود الحظ الاجانب) ونزعهم الحكم من العرب ظهرت بالدول في تلك المدن الإسلامية الجديدة، أو تلك التي مصّرها الإسلام خلال فتوحاتهم وسكنتها أغلبية مسلمة:

في العادة، كان في المدينة المنورة شارع عام رئيس يقوم فيه المسجد الملاصق لمنزل الحاكم أو العامل. والمسجد محل عبادة ومركز سياسي في عين الوقت، يؤمه الناس لصلاة الجماعة يوم الجمعة ليستمعوا الى الخطبة التي يبسط فيها الخطيب سياسة الدولة، والى بيانات الحكومة وأوامرها وتسهم أمزجة الجماعة بدور هام من ردود الفعل قد يكون سلبياً يترجمه العنف والثورة، إن لم يقم احد بمهمة الخطيب المرشد. والخطيب يبدأ عادة بالثناء والذكر الحميد للحاكم وهذا يعني الإعتراف بسلطته وقانونية حكمه، كما إن تجاوز الخطيب عن هذا الإستهلال أو تجاهله يفيد عدم الإعتراف به وبسلطته ويعتبر ضربة موجهة للحاكم وثورة على حكمه. والمسجد فضلاً عن ذلك الملتقى الروحي للمدينة المسلمة فيه يجتمع المثقفون وذوو العلم والفضلاء والشخصيات البارزة للتدريس أو المدارسة أو تبادل الرأي.

ومن شأن المدينة المسلمة أو ذات الاغلبية المسلمة ان تقسم احياؤها على أساس قبائلي،

(١٤) من أحاط بالشعر العربي قديمه وحديثه، سيكون مرغماً على الإقرار بأن ما عالجه هذا النوع من الأدب من العواطف والأحاسيس، وما عبّر عنه بدقة وروعة من خلجات في العقل والقلب، كان ذا صفة شمولية وقد نجح أيما نجاح في التعبير عن أصغر وأدق خلجة ببيان رائع وصدق.

فيكون لكل حي مسجده وحمامه وسوقه ثم يفرد أحياء للأجانب من فرس وترك ولذوي الديانات الأخرى[١٥].

في بغداد، وفي الكوفة وأنطاكية والقيروان، كما في غيرها من المدن لا يفكر شيعي قط بالصلاة في مسجد لأهل السنة والعكس أيضا وارد. وتحفل كتب التاريخ العربي والإسلامي بأخبار تظاهرات يقوم بها حي من الأحياء تنتهي بأعمال عنف، أو تستبطن مذبحة دينية إذا اخذت مأخذ تحد واستفزاز، وهو وضع متوتر دائم تشيع فيه هستيريا فيها يميل الناس الى العزلة والحياة المغلقة. وفي مثل هذا الجو المشحون يتعذر أن تسود المدينة حياة اجتماعية بالشكل الذي نعرفه اليوم، كما كان يصعب جداً أن يتعرف المسلمون فيه بعضهم الى آراء بعض في اية مسألة ذات اهمية. وقد حفرت هذه الحالة برزخاً عميقاً واسعاً بين التظاهرات والاحتجاجات العامة والانفجارات الجماهيرية، وبين العقيدة والرأي الخاص. وليس من المستغرب أبدا أن ترى معظم الشباب المسلمين الذين لم يعرفوا الصلاة ولم يؤموا مسجداً في حياتهم، ولم يحفلوا بتطبيق فريضة من فرائض الإسلام، فإذا بهم في لحظة ينقلبون متعصبين له ومن أنصاره المستعدين للذود والدفاع عنه في وجه خصومه الى حد الهوس والتضحية. إنه لا شك من تأثير الدور الذي يقوم به الدين في إثارة الاحاسيس القومية عند كثير من المسلمين، فمن حيث أن الإسلام كان أعظم وأشرف ما قدمه العرب لأمم العالم في الماضي، لا غرابة في أن يشعر كثير من النشء اليوم بأن من الخطر النأي عنه. فضلاً عن شعور بخجل وحزن إذا ما بدوا وكأنهم قد تخلوا عنه. ومن هنا جاء استحقاقه من الثناء وارتقاؤه الى الشعور السياسي من قبل أولئك الذين لايحفلون بتعاليمه ولايطبقونها في حياتهم الخاصة، ولا عجب والحالة هذه أن تطغى الإزدواجية في التصرفات الفردية ويحل محل السلوك المنطقي التمسك بالمظاهر واعتبارها في أحيان كثيرة حجر الزواية في تعامل أو مناقشة أو تبادل رأي، وأن يكون لها دورها العظيم في بناء الحياة الاجتماعية. فالمجاملة والحفاوة هما الأسلوب السائد بغض النظر عما يختفي تحتهما. ويعرو الغربيين دهشةٌ وبغتةٌ أن يروا مناقشة سياسية حبيّة هادئة بين عربيين، تسوء فجأة لتنقلب الى ملاحاة صاخبة تنضح تعصباً وتحفل بهجر القول والتهديدات وربما تنتهي بأكثر من الشتائم. فبعد عرض واقعي موزون لموقف ما إذا بذلك المثقف المهذب الجذاب القادم من البلاد الناطقة بالعربية، يبدو فجأة وقد لبس قناعاً مختلفاً عندما يضرب على وتر سياسي أو ديني حساس فيه.

(١٥) الى يومنا هذا يوجد في مدينة (تلمسان) الجزائرية انفصال يكاد يكون تاماً بين السكان الأصليين وبين أولئك الذين انحدروا من صلب الإنكشارية الترك.

الطابع النفسي الإجتماعي الذي نجده في البلاد الناطقة بالعربية متأتّ من هذه التراكمات التاريخية، السرقة لاتعبتر جريمة إذا أقدمت عليها بفطنة وذكاء معقود بالنجاح. والفساد إن لم يصحبه عملية إيذاء بدني قد يعتبر من الفنون الجميلة، والشيء نفسه ينطبق على الكذب الذي يعتبر في أوروبا وأمريكا عامة من اهول المنكرات هنا يعتبر مجرد وسيلة أو جزءً من اساليب العيش. فقد رئيس جمهورية هام في الولايات المتحدة منصبه بسبب كذبة أقدم عليها. ولو طبقنا عين هذا القياس عندنا فلن يبقى لدينا في وقت قصير قائد سياسي واحد أياً كان شكله. والفساد والرشوة هو حالة من حالات الضعف البشري لا سبيل لمقاومتها. فالقصد من الرشوة هو ضمان وصول البضاعة أو إنجاز العمل المطلوب وعندما لايتحقق وصول البضاعة أو إنجاز العمل بحسب المأمول من الرشوة وتعلو الاصوات منذرة بالفساد وتندب الفضيلة وتذرف الدموع عليها. لكن متى تعلو هذه الاصوات المنذرة؟ إنها ترتفع عندما يتعدى الفساد والرشوة كل حد متصور، أو عندما لا يؤتي الفساد ثمرته المرجوة، إنك ترضى مثلا بدفع ٥٪ من قيمة إنشاء مدرسة، لكنك تحصل على المدرسة بالأخير. ولكنك لاتسكت عندما تدفع ٣٠٪ منها رشوةً ولا تحصل على المدرسة كما تريدها، والشخص النادم هو ذلك الذي يعترف بسوء عمله، والندامة هو جزء من الترويض ومحاولة للإستقامة. يتعذر ان تجد مسؤولاً في البلاد الناطقة بالعربية يعترف بالخطأ والندامة. خذ الديانة المسيحية التي وضعت قانوناً للندم. عليك أولاً أن ترتكب الإثم ثم تذهب الى الكاهن لتعترف به ولتحصل على حلّ منه بعد عقاب معنوي (صلاة أو تصدّق). ثم ترتكب الاثم عينه ثانية، حلقة في سلسلة من الرذيلة طاهرة شريفة، لأن الندامة لاتعني بأنك لن تأثم ثانية ولو كان الأمر كذلك فسوف يصاب النظام الكنسي في الاعتراف بالإفلاس. والتصدق في الإسم على مخالف الشريعة يدخل في هذا المدخل أيضاً.

انه من آثار التعصب العقائدي والديني إن شئت الدقة، الذي فرضته أجيال إثر اجيال عاشت في إطار ذلك النمط من الحياة الاجتماعية الذي أشرنا إليه. إنه مظهر لذلك التوتر الذي يطفح باستمرار فوق وجه حياة البلاد الناطقة بالعربية – العصرية، توتر التناقض بين الواقع والمثل وتوتر من أثر الجهد المبذول للتوفيق بين العقيدة الدينية والعقيدة السياسية. فعندما تطغى الوقائع لتعلو المواقف المثالية المنشودة تخرج تلك الإنفجارات العاطفية بهياج وضجة ويعتدى على قانون الأخلاق بجرأة وصلافة.

وهذا يفسر ايضاً موقف الناطقين بالعربية من المدنية الغربية، إنهم يريدون كل شيء فيها من تكنولوجيا الى علم الى ثياب الى كماليات الى مستوى معيشة، وهم في عين الوقت

يشعرون برغبة ملحة في رفضها والإبتعاد عنها إثباتاً للشخصية التراثية المستمدة رأساً من العقيدة الدينية بكل جوانبها النشطة وبكل ما فيه هو من تحفز، ولهذا رأينا مثلاً أن مصير الأقليات الدينية في العالم الناطق بالعربية ذي الاغلبية المسلمة يتوقف بالأخير على مقدار ومدى تبني حركة اليقظة والانبعاث العربيين السلم – العلمانية، ليساعد تلك الأقليات على العيش بسلام وانسجام مع الأغلبية.

وضع كهذا الذي فصّلنا فيه كان مقدراً له ان يطبع العلاقات بين الأغلبية المسلمة الناطقة بالعربية وبين الأقليات الدينية – العرقية غير العربية ضمن البلاد تلك بطابع بعيد عن الإنسجام الفكري والتوافق المصيري، وتدفع تلك الاقليات بدورها الى البحث بشدة وإلحاح عن هويتها القومية هي وكذلك إتخاذها مواقف معينة وقائية.

الإسلام الأول كان سبب ظهور القومية العربية وهو مؤسسها الروحي. وفي أيامنا هذه وبعد سلوك تلك القومية المسلك الشوفيني كما سنرى – صار يُنظر الى غير المسلم المدعي بعروبته نظرة تساؤل حاد مفعم بالشك، سيما بعد أن تحققت الحرية والاستقلال للبلاد الناطقة بالعربية وتخلصت نهائياً من حكم الاجنبي. فراحت تبحث جادة عما يذكرها بالتراث التليد وليس فيه إلا ما يذكّر بالرسالة المحمدية.

الفصل الرابع

(تابع) الإسلام والقومية العربية .حركة مذهبية مسلحة (الخوارج) . التشيع مظهر لظلامة وسخط . إثبات شرط الوراثة في إمامة المسلمين محصورة في نسل الإمام علي . انتقال دعوة الشيعة الى فارس . حركة متشددة في المغرب مع إكراه على إعتناق الإسلام . ردة الفعل بمحاكم التفتيش الإسپانية . الأكثرية المسيحية تغدو أقلية . الانصهار في المجتمع العربي – الإسلامي . من يدعي بالأصول العربية بسبب اعتناقه الإسلام . إصرار بعض الشعوب المسلمة على الاحتفاظ بقوميتها . انتشار الآراء السياسية التقدمية الحديثة وأثره في الإسلام . الأقليات العنصرية المسلمة تتبنى خطوطاً علمانية سياسية . إستخدام القوة بدل اللسان في عمليات الإقناع . المنافرة والتشتت في الأهداف القومية . ممارسات قومية شاذة وإرهاب فكري . عَود الى الشعوبية . طبقة الموالي في عهد الأمويين . التمييز العنصري رغم رسالة المساواة الإسلامية . خشية العباسيين من الفرس وإشغالهم أعلى المناصب دون العرب ثم التشكيك في إخلاصهم . القيادات المدنية والعسكرية تناط بالموالي . نهاية الشعوبية . محاولة استخدامها الآن لإبعاد عقائد سياسية منافسة للقوميين عن الساحة . القوميون يقرنون الشعوبية بالشيوعية ، المشابهة اللفظية (الجناس) بين الكلمتين

يعزو بعض الكتاب القوميين العرب ومفكريهم ما حلّ بالعرب من كوارث ونكبات وما جعلهم ينسحبون الى خلفية التاريخ ويعيشون على هامشه الى حدثين كبيرين بدت تباشيرهما والإسلام في مراحله الأولى. اذ لم يمض على وفاة النبي أكثر من ثلاثين عاماً حتى كان ثم حركة مذهبية مسلحة قدّر لها أن تشق العالم العربي ومن ثم الإسلامي شقّاً لا صدع له هي حركة الخوارج، تكاملت هذه الحركة بمدرستين مذهبيتين سياسيتين نعرفهما اليوم بمدرستي الشيعة والسنة. وقد تزامنت هذه الحركة الدينية مع الأولى بالحدث التاريخي الثاني، الذي كان مقدراً له أن يزيد في اختلاط الدم العربي بالدم الأجنبي وأن تنشد الأقوام الأخرى، التي دخلت في الدين واصبحت جزءً من الإمبراطورية العربية هويتها وتراثها القومي بحركة المساواة التي

سعى المسلمون غير العرب اليها مع العرب. وهي حركة علمانية – سياسية عرفتها كتب التاريخ الإسلامي بـ(الشعوبية) وقد تقدمتها ومهدت لها ما عُرف أيضاً في تاريخ الإسلام بـ(الموالاة).

ليس من أغراض هذا الكتاب التدخل في تفاصيل وظروف وأسباب هذا الإنشقاق الديني العظيم، وهي موفورة ومتناول اليد في مضانّ كثيرة، ولكن سأركّز الآن على مقدار تأثيرها وتأثير الحدث الآخر في فكرة القومية العربية. وهو الجانب العالمي من الدين الإسلامي – أي باعتبار الإسلام انما جاء للبشرية جمعاء لا لقوم معينين بالذات.

التشيع أو الشيعية هي مظهر إستياء وظلامة يتطور كما تطور في الماضي بتطور البنى الاجتماعية والعلاقات بين الحاكم والمحكوم. لاسيما بعد أن حقق الإسلام الثورة الاجتماعية الكبرى بإحلال رابطة العقيدة بدلاً من رابطة الدم وروابط أخرى معها، فجاء معها بمبدء المساواة. ومع أن مظهر الكفاح أو الخلاف المستحكم بدأ بالنزاع على الخلافة بين علي ابن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان. فسيبقى التشيع متسماً بهذا التقليد من الكفاح ضد السلطة السنيّة. أو كما ينعتونها بصورة أعم النضال ضد السلطات غير الشرعية أو غير العادلة مهما اتخذت من الأنماط والأزياء وعلى أي حجج ارتكزت وبأي شكل بررت به وجودها. إلاّ أن الشيعة وقعت في مسار تاريخها، وعندما اتيحت الفرصة لها بتسلم السلطة الفعلية، في عين الخطأ الذي عزته الى السلطات التي حاربتها وناوأتها. فقد نزع حكامها أيضاً الى الإستبداد والى الثيوقراطية بأضيق مفاهيمها عندما أصروا على إثبات شرط الوراثة في إمامة المسلمين لنسل الإمام علي الذي رفعوا درجته أكثر بكثير مما رفعه اليها السنة، فقالوا إن النبي لقّنه علوماً كان يخفيها عن سائر صحابته لأنهم ليسوا أهلاً لها، وإن نسله العلوي توارث هذه العلوم. وكما اختار النبي (علياً) وعينه صراحة خلفاً له فيما بُعث من أجله لهداية الأمم وحكمها وتدبير أمورها فهو كذلك (وصي) أي أنه انتُخب برغبة من النبي وإقراره. لذلك فليس لأحد غير (علي) حق في لقب أمير المؤمنين، هو والنسل الشرعي منه، بوصفهم أئمة ورثوا منصبه في رئاسة الدولة وولاية أمور المسلمين قاطبة وكذلك حملة تركته من العلوم والصفات الروحية التي إمتاز بها: وبمختصر القول: هي السلالة المباشرة للإمام من زوجه (فاطمة) بنت النبي. وقالوا إن هذا التدبير سبق وأن قضت به مشيئة الله وكتبه وأنه استنّه لكل العصور، وأن النبي إنما أقره كتقليد إلهي لمنصب الحاكم والولاية، وقد وفق التفسير الشيعي لآي القرآن ببلوغه الغاية القصوى من التأويل في العثور على مواضع منها تؤيد هذا النظام.

ما من شك في أن الشيعة منبتها عرب العراق، وإن الجأت الظروف السياسية والأحداث التاريخية ان يتبنى الفرس والمغاربة الدعوة في وقت متأخر. هناك رأي للمستشرق والباحث الكبير (السر توماس آرنولد) أنقله نصاً:

"عامل سياسي لم يكن ظاهراً في حينه ولم يبد تأثيره العظيم في سير الأحداث التاريخية، هو زواج الحسين ابن علي بـ(شهربانو) إحدى بنات (يزدگرد الثالث) آخر ملوك الفرس الساسانيين. وقد رأى الفرس وبشكل عاطفي غامض في أولاد الحسين ورثة ملوكهم الأقدمين. إن هذا الشعور القومي يفسر لنا تعلق الفرس بالإمام علي من جهة وظهور المذهب الشيعي مذهباً جهادياً عسكرياً في بلادهم[١]."

وسواء أصح هذا التعليل أم لم يصح أو كان واحداً من العوامل، ففي رأيي أن النزاعات الفكرية الدينية السابقة التي خلفتها الزرادشتية والمزدكية والمعاملة الحسنة الفضلى النسبية أحياناً التي عامل العربُ الفرسَ بها، فضلاً عن العامل الجغرافي هو الذي سهّل انتقال دعوة الشيعة ضد الأمويين من العراق العربي الى العراق العجمي ثم الى أبعد من خراسان، وهي أرض بعيدة جداً عن عاصمتهم دمشق، أرض جبلية وعرة لاتطالها جيوشهم. والواقع هو أن الدعوة الى التشيّع كان منبتها البصرة وقد أطلقها عبدالله إبن سبأ اليمني الموطن وقت خلافة عثمان[٢] اذن فمنبتها العرب في أرض سكنها العرب.

أيدت الشيعة حكومات إسلامية كما أيدت السنية حكومات أخرى. ومن الحكومات الأولى الدولة البويهية في العراق وما حوله (٩٣٢-١٠٥٥م) والفاطمية (٩٠٩-١١٧١م) في مصر وشمال افريقيا وسورية. ولم يقتصر النزاع بين الحكومات والدول السنيّة والشيعيّة على المناظرة والجدل الكلامي بل تعداه الى القتال وسفك كثير من الدماء، وكان واحداً من أسباب

(١) يصعب قبول هذا التعليل. فالمعروف بأن رعايا الساسانيين من فرس وغيرهم لم يكنوا احتراما أو وداً لحكامهم وملوكهم بدليل ترحيبهم بالفاتحين الذين لم يخوضوا أكثر من ثلاث معارك جدية على أرض العراق العربي، في حين فتح سائر إيران صلحاً او باشتباكات صغيرة لاترقى الى مرتبة المعارك. ومن المفيد ان نذكر واقع كون إيران حتى بداية القرن السادس عشر ذات اغلبية سنية، وبمجيء الصفويين الذين جعلوا المذهب الشيعي مذهب الدولة الرسمي تحول السكان تدريجياً الى المذهب الشيعي.

(٢) قيل أنه يهودي أسلم وتنقل في الجزيرة واتصل بأبي ذر الغفاري. طردته السلطة من البصرة فرحل الى الكوفة ليبثّ روح الإستياء من (عثمان) ومن قريش. ولجأ الى عقد الاجتماعات السرية في منازل الأتباع يدعو فيها للإمام علي. ويعزى اليه مذهب الرجعة (رجعة محمد) كما وضع مبدء الوصاية بمعنى أن (علياً) هو وصي وخاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء. وهو أول من أثبت الحق الإلهي (لعلي) بالإمامة بمعنى أن حكمه انما هو مستمد من إرادة الله.

القتول الجماعية أثناء هجوم التتر[٣]، كذلك سفكت دماء كثيرة في أثناء الجهاد الذي أطلقته دعوة عبيدالله الفاطمي الإسماعيلي عند فتح مصر وشمال افريقيا، والمقام يضيق بتعداد تلك الحروب المذهبية ولايمكن قط نسيان آخرها وأطولها وأخلفها بالنوائب والكوارث عند قيام الدولة العثمانية والحروب السجال التي خاضتها مع الصفويين ومن عقبهم.

الجهود والأموال والأنفس التي أضاعها الإحتراب بين أهل السنّة والشيعة منذ عهد الإمام علي وبتعاقب خلفائه وحملة رسالته، وقد جاء شرحه في كتاب (مقاتل الطالبين) لأبي الفرج الأصبهاني صاحب (الأغاني) وما أورده المؤرخون من بعده، كانت تكفي بسهولة مثلاً لرد الغارات والعدوان الخارجي من المغول والتركمان الفرنجة على البلاد الناطقة بالعربية.

وبصورة عامة بقي التسامح والإغضاء يسود علاقة الطائفتين المسلمتين بالأقلية الدينية، وربما كانت الحرب الشاملة التي شنّها عمر ابن الخطاب هي الوحيدة العديمة المثال لاحقاً، فقد أمر بإزالة معابدهم (بيوت النار) من وجه الأرض وإتلاف كتبهم المقدسة حيثما وجدت، وأكره بعضهم على اعتناق الإسلام بدعوى شركهم.

كان هذا التسامح والملاينة مع غير المسلمين ملفتاً للنظر أحياناً في سائر العصور الأولى، سيما حينما يأخذ احد المذهبين بخناق الآخر في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي. والواقع هو ان قليلاً جداً من المسلمين المتعصبين الضيقي التفكير صعد روح التعصب الإعتدائي الذي عزاه العالم المسيحي برمته الى الإسلام خطأ وافتئاتاً على الحقيقة. ولنا في هذا مثَل من أولئك الذين عرفهم التاريخ بـ(دولة الموحدين ١١٣٠ -١٢٣٥م)[٤] أتباع حركة متشددة إسلامية نشرت الإرهاب باقسى مظاهره في افريقيا الشمالية وإسبانيا اذ أعملت السيف في رقاب المسيحيين واليهود على حد سواء لإكراههم على اعتناق الإسلام.

وبدا التمييز المهين والمضايقة بشكل أخف كثيراً وعلى نطاق محدود عند بعض الخلفاء العباسيين كإرغامهم على إرتداء أزياء معينة تدل على انتمائهم الديني[٥] لذلك كان اعتناق

(٣) (الخميسي) مثلاً: (كان مجيء هوليگو (هولاكو) فيما يقال: بدعوة من ابن العلقمي الرافضي (أي المتشيع) اذ كان يعتقد ان (هوليگو) سيقتل المستعصم ويعود الى حال سبيله وعندئذ يتمكن الوزير من نقل الخلافة الى العلويين.

(٤) أسس دولة الموحدين (المهدي ابن تومرت) على آيديولوجية شيعية حاربت دولة المرابطين في المغرب وقضت عليها واحتلت عاصمتهم مراكش في ١١٤٦ ميلادية، وامتد حكمها الى الاندلس (جنوب اسبانيا) وقام منها سلاطين.

(٥) كان مفروضاً عليهم أن يشدوا زناراً في أوساطهم فوق الثياب. وأن يقتصروا على ألوان معينة من الأكسية (أزرق للمسيحيين، وأصفر لليهود، ورمادي للزرادشتيين) هذا فضلاً عن قيود أخر في مسلك =

بعضهم الإسلام وسيلة للخلاص من هذه الأعباء وكذلك من دفع الجزية، ويظهر أن الإقبال كان كبيراً بحيث رد على كثير منهم النطق بالشهادة ولم يشجعوا على دخول المجتمع الإسلامي لأنه يحرم بيت المال من مورد كبير.

كانت حياة هؤلاء صعبة جداً، لاسيما في سورية والعراق ومصر التي بقيت غالبية سكانها على دين آبائهم حتى العهود الأولى من الخلافة العباسية. وكثيراً ما كانت الإهتداءات جماعية بسبب موجة اضطهاد يثيرها عالم متعصب أو حاكم مستبد أرعن يحيا حياة مزدوجة[٦].

وكثيراً ما كان اعتناق الدين الجديد الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الروح لا عن رغبة وقناعة، هؤلاء المهتدون نسلوا وتعاقبت أجيالهم فتنوسي الظرف الذي تم به إسلام أسلافهم. وتتحدث كتب التاريخ عرضاً احياناً عن بعض الحكام بوضعهم تحت رقابة شديدة وعن تدمير كنائسهم ومعابدهم أو تحويلها الى مساجد، وكثيراً ما حكموا لهفوة أو لما يبان من زيغ في عقيدتهم الجديدة. وقد يعاملون معاملة المرتدين فيُقتلوا وتصادر زوجاتهم وأموالهم ويسترق أولادهم.

= الحياة اليومية والممارسة العقائدية. فيمنع بناء أي جديد من أماكن العبادة أو حتى تجديدها في حالة سقوطها ويمنع كذلك عرض الصليب أو التوارة في الأماكن العامة التي يؤمها المسلمون (كان يسمح للمسيحيين في أحيان بالإحتفال بالطواف بالصليب خارج أحياء المدينة مرة واحدة في السنة) ولايسمح لأي من أهل الكتاب بامتطاء الخيل. وان لا يتقدموا المسلمين في أي اجتماع وأن يقفوا أمام أي مسلم باحترام ويبادؤوه السلام. وحرم عليهم الاحتفاظ بسلاح في بيوتهم ناهيك عن حمله. وان لايرتفع بناء الذمي او أماكن عبادتهم على بيوت المسلمين (كانت هناك ثورة حقيقية في الموصل عندما ارتفعت جدران كنيسة الآباء الدومنيكان على بيوت المسلمين المجاورة وقت بنائها في حدود ١٨٧٨م، مما ألجأ السلطة الى انتداب الجيش لإخماد الفتنة ووضع البناء تحت الحراسة الدائمة خلال تشييده) ويمنع الذمي من دخول المساجد، في حين يتمتع المسلم بحرية دخول معابد الذميين في أي وقت شاء كذلك وفرض عليهم استضافة المسلم ثلاثة أيام مجاناً في حالة النفير. هناك محرمات بحكم القانون والشرع. فمثلاً يحرم زواج الذمي من المسلمة وقد يفقد حياته بسبب ذلك. في حين يقبل زواج المسلم من الذمية شريطة ان يكون نسلهما مسلماً. ويحرم على المسيحي او اليهودي الشهادة في مجلس قضاء شرعي بقضية تتعلق بخصوم مسلمين. كما يحرم عليهم اقتناء عبد مسلم وأن لايقتني نسخة من القرآن. وبمقابل ذلك فإن الإسلام في سائر حقبه لم يحرم على الأقليات الدينية ما حلله شرعها وما حرمه القرآن كشرب الخمر واكل لحم الخنزير او المهن المتعلقة بالربا مثلاً.

(٦) من (تجارب الأمم) لإبن مسكويه: وفيها (أي سنة ٣٢١ للهجرة) أمر القاهر (الخليفة العباسي ٩٣٢-٩٣٤م) بتحريم القيان والخمر وسائر الأنبذة وقبض على كل من عرف بالغناء من الجواري والمخانيث والجواري المغنيات. فنفى معظمهم الى البصرة وبعضهم الى الكوفة. وكان (القاهر) مع ذلك مولعاً بشرب الخمر يكاد لايصحو من السكر، ويسمع الغناء ويختار من الجواري القيان من يريد ويتحدث المؤرخون عن مجالس شراب لأكثر من عشرين خليفة بينهم هارون الرشيد في عين الوقت الذي يتحدثون عن تقاهم وتمسكهم باحكام القرآن.

إن محاكم التفتيش الرهيبة التي أقيمت في إسبانيا بعد خروج المسلمين من إسبانيا لم تكن إلا ردة فعل لما فعله (الموحدون) بالمسيحيين قبلها.

ان إسلام الأقليات والقوميات التي دخلت في حكم العرب المسلمين كان بالأول، وفي الغالب لفظياً لم يتأت عن قناعة بفساد دينها الأصلي، ولا بعامل الأفضلية الروحية والمضاهاة الفكرية. إنه بطبيعة الحال وبنصوص أحكام الشرع أزال تلك الأعباء التي فرضت عليهم وفي مقدمتها الجزية وضريبة الأرض[٧]، الا انه لم يرتفع بهم الى المنزلة الاجتماعية والادبية في المجتمع الذي يحكمه السادة القادمون من الجزيرة العربية، وتبقى الكنية والأسماء عالقة في جو التعامل والمخاطبة للتذكير بالأصل الكُردي أو الآرامي أو الفارسي أو التركماني أو الرومي، لتحول دون تلك المساواة الاجتماعية التي أرادها المهتدي الجديد لنفسه ولأبنائه.

بطبيعة الحال كانت هناك استثناءات هامة حتى عند المسلمين المتشددين، كالفاطميين الشيعة في مصر الذين حكموا مصر وسورية وفلسطين وجزءً من شمال افريقيا ٩٦٩-١١٧١م. وكالأيوبيين السنة الذين حكموا هذه البلاد فضلاً عن نصف الجزيرة العربية الغربي (١١٧١-١٢٨٤م) فقد كانوا أكثر الحكام المسلمين تسامحاً. والواقع هو أن مواقف المسلمين إزاء غير المسلمين كانت متباينة بين فترة زمنية وفترة أخرى، وبين عهد وعهد بل بين مدينة ومدينة. ومن المنطق القول بأن التعصب الإسلامي كان باعثه بدرجة كبيرة واقع تخوف القلة الحاكمة ذات الدين المخالف من الأغلبية المحكومة غير المسلمة في ميدان المنافسة الاقتصادية. وعندما انقلبت النسبة وصارت الأقلية الدينية المسلمة أكثرية انتفى سبب الخوف وتحول الموضوع الى معاملة عامة، الى سياسة حكومية أو الى سلوك فردي خاص.

ومن الجدير أن نلاحظ أن معظم حركات العصبية والتعصب للإسلام العدواني على غير المسلمين كان مصدره غير عربي، أو أن الآمرين به غير عرب، وبالمقابل نحن لا نتعدى الحقيقة إذا ذكرنا مثلاً بأن اليهود لاقوا أهوالاً من المسيحيين في القرون الوسطى، بل حتى في مفتتح القرون الحديثة في أوروبا. وإن المسيحيين كانوا أيضاً يَلغون بعضهم بدماء بعض كما يفعل المسلمون دائماً[٨] كما إن أقلياتهم الطائفية كانت تقع تحت طائلة اضطهاد أكثريتهم في كل

(٧) اعتبرت الأراضي التي استولى عليها المسلمون ملكاً لبيت المال أو للدولة بالأحرى وترتب على الشاغلين المزارعين دفع ضريبة عنها تقوم مقام الإجارة.

(٨) بل الى يومنا هذا، وقد قرأت مؤخراً تقريراً صحفي الصبغة استوقفتني منه فقرة نسبت الى مقال كتبه المؤرخ الاسرائيلي المعروف (ناثان ناحوم) في جريدة (حداشتوت: ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٣) وهذه هي: عندما حاولت المنظمات الفلسطينية السيطرة على بلاد الأردن في العام ١٩٧٠، قام العرب البدو خلال =

العصور والفرق هو: إن الكاثوليكية في القرون الوسيطة كانت تنكر حق الأديان والمذاهب الأخرى في الوجود، إلا أن الإسلام لم يكن كذلك في أي وقت، وعلى هذا الأساس يمكن القول وبكل اطمئنان أن الجماعات غير المسلمة في البلاد الناطقة بالعربية رغم انقلابها الى أقلية في المجتمع ذاك كانت أكثر عدداً وأشد اقتداراً وأماناً وحرية بما لايُقاس من الأقلية البائسة القليلة العدد غير المسيحية في أوروبا القرون الوسيطة.

وتعقيباً على ما نوهنا به سابقاً وبشكل عابر، مرت عهود على البلاد الناطقة بالعربية وفي نهاية القرون الوسيطة على وجه التقريب - بحيث لم يعد لتلك الأغلبية العددية المسلمة في البلاد الناطقة بالعربية أي مكانة في سلم النفوذ الاجتماعي رغم إنتماء الطبقة الحاكمة الى الدين الإسلامي. فهذه الأسر والطبقات الحاكمة التي سيطرت على العالم الإسلامي ومنه البلاد الناطقة بالعربية، وكلها من العسكريين الأجانب الغرباء، كانت تنظر الى سكان البلاد جميعاً وبدون تمييز أو استثناء نظرتها الى قطعان من الحيوانات والماشية خلقت لنفعها واستغلال طاقاتها دونما رحمة. في حين وجدنا المجموعات العربية الصغيرة والقليلة التي هاجرت واستقرت نهائياً في البلاد الأخرى المسلمة، قد انصهرت تماماً وتمثلت في السكان الأصليين[٩].

رأى عدد من كتاب الغرب أن الدخول في الإسلام صار في فترة ما سبيلاً للإنتماء الى العروبة، أو الإستعراب. صحيح أن اعتناق الإسلام عزز هوية العرب القومية كما يدعون دين

= أسبوع بقتل عدد من الفلسطينيين العرب يزيد على عدد ما قتل من الفلسطينيين خلال خمسة وسبعين عاماً من المواجهة المسلحة مع اليهود» لا أدري مبلغ هذا القول من صدق.

(٩) لجأ كثير من (آل البيت) الى مختلف البلاد الإسلامية هرباً أو تخلصاً من ملاحقة الامويين والعباسيين، وتواجدت انسالهم في أقصى ما امتد اليه العالم الإسلامي. واليوم يعد هؤلاء المنتمون الى نسل الإمام علي صدقاً او كذباً بعشرات الآلاف من (السادة) تجدهم بين الكُرد والفرس والتركمان والأوزبك والسودان والهند وباكستان وما شئت. لم تبق قطرة دم واحدة عربية في عروقهم لتعاقب التزاوج المحلي والإنسال، وفقد شعوره القومي تماماً وقد بوغت الشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي (٩١٥-٩٦٥م) وخامره إحساس بالوحدة والإنقطاع عن محيطه عندما بلغ (شعب بوان) وهو في طريقه الى ممدوحه، فذكر ذلك في مطلع قصيدته:

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنه لو سار فيها (سليمان) لسار بترجمان

و(شِعب بُوان) هو واد عميق بين جبلين اشتهر بجنانه وشجره وينابيعه، يقع في موضع ما من سلسلة بشتكو الجنوبية لايذكر عنه (ياقوت) ما ينير السبيل الى موقعه التقريبي. و(سليمان) هو سليمان الحكيم الذي وصف بأنه يفهم جميع الالسنة. وهو ما نوه به القرآن.

العرب المتميز، وهو بالتالي جزء من التراث العربي. كثيراً ما يشعر المسيحي المدعي بالأصل العربي أنه مقبول تماماً. وبأنه إنما ينظر نظرة المسلم العربي في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي الى المسيحي الذي أسلم ان إسلامه كان بدافع الحاجة ومن أجل الخلاص من حالة التمييز العنصري والمواطنة ذات الدرجة الثانية. وهي النظرة التي كان المسلمون العرب ينظرونها الى المسيحي واليهودي المدعي بالأصول العربية منذ عهد الفتوح فصاعداً. وبخلاف ذلك وجد المثقفون من القوميين العرب اليوم في الإنتماء المسيحي الى العروبة دعماً ومدعاةً للإعتزاز. ومهما يكن من أمر، فغير العربي أو المشكوك في عربيته عندهم لايعتبر عربياً باعتناقه الإسلام، ويثير إدعاء المسيحي بالعروبة عند معظم المسيحيين في بعض البلاد الناطقة بالعربية اليوم بعض دهشة ولايُقبل الا بتحفظ، فإن اتى في ظرفٍ معين اثار شكوكاً وتساؤلات. وقد يعد أحياناً انتهازية واقتناصاً للفرص تماماً كما يثير استبدال أحدهم المسيحية أو اليهودية بالإسلام[١٠].

ولا عجب فأولاء إنما يرددن أصداء الماضي ويذكرون بصمود أسلافهم أمام ضغط الأغلبية الإسلامية. فبقوا متشبثين بعقيدتهم الى الأخير ليورثوا إرادتهم هذه لأنسالهم التالية. وهؤلاء هم المنحدرون بايولوجياً من شعوب خضعت للفاتح العربي ومنها بقايا الأرمن والآشوريين والآراميين والقبط والفلسطينيين والفينقيين، وكذلك احتفظ معظمهم بلغاته الخاصة الى جانب العربية، في حين قصر استخدام بعضهم في الطقوس والمراسيم الدينية.

ولم ينجح الإسلام في تعريب الشعوب المسلمة التي حافظت على هويتها القومية بإصرار وعناد كالكُرد والتركمان والفرس وغيرهم ممن ضمته الإمبراطورية رغم اعتناقهم الإسلام واستخدامهم اللغة العربية بمثابة لغة رسمية كوزموبوليتية في جهات عديدة منها، وربما كان للعامل الجغرافي أثره الكبير في عدم ضياع هويتها القومية كطبيعة الأرض وصعوبة الإمتزاج الاجتماعي. وأهم ما يلفت النظر هنا إن الأسلام عند هذه الأقوام اتخذ مظاهر وصفات وصيغاً محلية ذات ممارسات معينة قد لا يجدها المسلمون الملتزمون من الإسلام في شيء.

(١٠) كان لي زميل في مهنة المحاماة كاثوليكي المذهب يردد زعمه بأنه انحدر من آل غسان، القبيلة العربية في عهد الجاهلية. لم يلبث إبان تصاعد المد القومي أيام (الكيلاني) أن أضاف لقب (الغساني) الى آخر اسمه مدعياً انه من نسل آل غسان. ولم يطل به الأمر، فقد تخلى عنه بعد أن سمع بعض التعليق واللغط. وقد استغرب منه مشاركته في تأسيس حزب الاستقلال ١٩٤٦، وهو حزب قومي صرف يضم أقطاباً بارزين ساهموا في حركة مايس ١٩٤١ الموالية للمحور. في حين غدا أمراً طبيعياً واقع مشاركة عدد كبير من المسيحيين واليهود في تأسيس الأحزاب الاربعة الباقية عند إجازتها في ذلك العام، وهي أحزاب غير قومية ديمقراطية المنحى.

ولما تبلورت الأفكار القومية في البلاد الناطقة بالعربية، في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، وجد دعاتها ومفكروها في الإسلام وتراثه ركيزة واداة لترويج دعوتهم وراحوا ينبشون أمجاد الإسلام العربية الماضية ويتغنون بها، بل لم يتعفف بعضهم عن كساء ما وجب أن يوارى ويستر من ذلك التاريخ بحلل الخيلاء والزهو، وانجرّت جماعات كبيرة منهم بهذه الحماسة الى إنشاء نوع من الحلف مع القوى الإسلامية النامية. كان ذلك في مرحلة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الشرق الأوسط. المرحلة التي تميزت بانتشار الأفكار الديمقراطية والتقدمية والإشتراكية وتسرب آخر المكتشفات العلمية والطبيعية الى الأدبيات العربية، كالنظرية النسبية ونظرية داروين في أصل الانواع ونظرية الذرة... الخ. وكلها قوبلت بإنكار أولي عند الفقهاء المسلمين وعلماء الدين اذا كان الإعتماد القومي على تراث الإسلام مفيداً وحافزاً وسبباً لقوة الحركة القومية بين المسلمين الأغلبية في البلاد الناطقة بالعربية. فقد كان له ردة فعل معاكسة عند الأقليات العنصرية والدينية. ولم يطل الأمر بتلك الأقليات. فإذا بنا نجد الكُرد في العراق خصوصاً وفي سورية حيث يؤلفون أقلية هامة، ينزعون الى تأليف تنظيمات سياسية واجتماعية ونواد قومية الطابع. ونحا الآشوريون (السريان) نحوهم فأنشاؤا تنظيماتهم السرية في موطنهم الأم واحزابهم السياسية في المهجر. واستقطب الصراع الفكري القومي بعملية تباعد وانفصال للناطقين بالعربية مسلمين وغير مسلمين بتأسيس ما عُرف بالحزب القومي السوري في كل من سورية ولبنان وفلسطين، والى حد ضيق في العراق، وهو حزب سياسي ينكر الأساس القومي العربي ويبني تصوراته المستقبلية على وحدة الهلال الخصيب الجغرافية والعرقية.

ولخشية اليهود في العراق من اتهامهم بالصهيونية وهي تهمة قاتلة في حينه، وبسبب كونهم أقلية هامة جداً في المجتمع العراقي، أقبل مثقفوهم وشبابهم المتعلم وما أكثرهم على ولوج باب السياسة عن طريق الإنتماء الى الأحزاب الوطنية اللاقومية بشوق ورغبة وبرزوا فيها مثلما فعل أقرانهم المسيحيون الذين لم يتسرب الإحساس القومي الى نفوسهم إلاّ بشكل غامض قائم على الأساس الديني.

ادرك بعض دعاة القومية العربية الواعين خطورة الإرتكاز على التراث الديني الإسلامي في هذه المرحلة وحاولوا تقويم الوضع بشعارات وطنية صرفة، الا أنهم اخطاؤا السبيل من جهة بابتعادهم عن المفاهيم الديمقراطية، وجرفتهم من جهة أخرى موجة التعصب وبصورة خاصة اعتمادهم بدل الجدل المنطقي على الاسلحة القديمة التي وجهها الإسلام العربي لمحاربة مفاهيم كان لابد أن تظهر على الساحة بسبب المنافسة السياسية وتطفو فوق سطح المجتمع الإسلامي

الذي خلق منه العرب إمبراطوريتهم. فزاد في التباعد وأثمر التباعد نفرة وشكوكاً حادة مالبثت ان أطلقت مارد الإرهاب باستخدام اليد بدل اللسان وسيلة للإخضاع لا الإقناع، وكما شق النزاع العنصري – الآيديولوجي العالم الإسلامي الى قسمين، تهددت اليوم المجتمعات الناطقة بالعربية بالانفصال الروحي والاجتماعي وبالمنافرة في الأهداف. وزاد في الأمر سوءً ان الحركات القومية بدأت تميل الى عقد محالفات مع القوى الإسلامية النامية في الشرق الأوسط، بمحاولة الوقوف جبهة موحدة ضد ما سمّته بالأفكار الغربية المستوردة أو الوافدة، إن لم تكن جبهة فهي على الاقل حالة المهادنة والسكوت عن ممارسات للإسلاميين لايقرّها الإسلام الصحيح، ولينحدروا بها وبهم الى ما عرف اليوم بالحركات الأصولية.

حقاً، كان انتشار الإسلام بفضل ذلك الكتاب الذي نزل بلغة العرب على نبي عربي لا شائبة في عروبته[١١]، وإن الفضل في نشره كان للعرب، وإن العرب هم أول من اهتدى اليه. لكن الإسلام ليس بالجوهر ديناً قومياً قاصراً على شعب أو أمة دون غيرها كاليهودية مثلاً، فله جانبه الأكبر العالمي (الكوزموبوليتي) المتحرر من التعصب القومي أعني الجانب الانساني.

وقد بدأ الدفاع عن هذا الوجه العالمي ضد التنطع العربي، حركة نشأت في أواخر الحكم الأموي ونشطت في القرن التاسع الميلادي واستغرق نشاطها معظم القرن العاشر، ثم زالت معالمها بعد ان انتفت منها الحاجة وطمستها التطورات السياسية والتاريخية اللاحقة، ومنها زوال حكم العرب على العالم الإسلامي في القرون التالية، الا أن قوميي القرن العشرين العرب أخرجوها من بطون كتب التاريخ ونفضوا عنها غبار القرون ليصفعوا بها أوجه خصومهم السياسيين ومعارضيهم بسماجة وسذاجة. كانت (الشعوبية) وهو الإسم الذي عُرفت به حركة ذات طابع علمي وأدبي صرف ما لبثت أن تحولت الى حركة سياسية غير منظمة، نشأت في العراق وإيران واشتد ساعدها في القطر الأخير وبين الإيرانيين بالدرجة الأولى. وقد وطأت لها عملية اجتماعية عُرفت في تاريخ الإسلام (بالموالاة).

★★★

(١١) بل راح الأمر ببعض المسلمين من غير العرب الى حد إنكار عروبة الرسول أصلاً وحجتهم في هذا هي أن المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة النبوية من العرب وغير العرب يجمعون على أن قبيلة (قريش) التي نبغ منها (محمد) إنحدرت من نسل اسماعيل (شموئيل في التوارة) وهو الإبن الطبيعي لابراهيم الخليل ابي الانبياء من (هاجر) الأمة القبطية لسارة زوجته، وأن ابراهيم نفسه هو من نسل الكلدانيين في العراق، وقد هاجر من (أور الكلدانيين) الواقعة جنوب العراق الى فلسطين.

إيران كغيرها من بلدان الشرق الأوسط كانت منذ القديم عرضة لعملية التغيير الديني عدة مرات، منذ أول قيام مجتمعاتها الحضرية والتكوين السياسي الذي فرضته. ومن الناحية العرقية وبغض النظر عن التغلغل العربي، فإن فتوح العرب لم ينجم عنها كما يبدو أي إضطراب أو خلل في التوزيع البايولوجي للشعوب الإيرانية مطلقاً وبكل ما في هذه العبارة من معنى، لاسيما في (فارس). فقد حرص سكانه على هويتهم القومية والتحصن من التغلغل الأجنبي، كذلك تمسك الكُرد والديالمة والگيلانيون والتركمان والأفغان والبلوجيون... الخ من خلال هذا الانتشار (الجغرااثني) المعقد الذي ضمته الإمبراطورية الساسانية جاء التدخل العربي، والعرب كما مر بيانه لم يعمدوا قط الى إنشاء مستعمرات خالصة لهم في فارس إلا في الوسط الغربي والجنوب الغربي. وربما كان المانع مناخياً لأن الجمل العربي لم يكن بوسعه تحمل الشتاء الفارسي ولا ثلجه وجليده، ولم يكن معتاداً النفوذ في المرتفعات العالية الصخرية. لذلك توقفت هجراتهم أمام سفوح جبال كُردستان وزاگروس وپشتكوه.

من المهم معرفة هذا، هل إن قبول هؤلاء القوم دين الإسلام وهو دين وشريعة اجتماعية في الوقت نفسه، قد نجم عنه تغيير هام في حياتهم؟ إنهم رحبوا بمبدء تعدد الزوجات الذي لم يكن غريباً عنهم بل وأكثر من ذلك فإن الفقه الحنفي المتطور الذي عم أصقاعاً واسعة من إيران حلل ما اصطلح القوم على ممارسته سابقاً لاسيما في ميدان التعامل التجاري. وعلينا ان نذكر القاريء بما أثبتناه سابقاً، إن انتشار الإسلام في هذه البلاد وفي البلاد الناطقة بالعربية اليوم كان محدوداً ضيق النطاق خلال القرون الثلاثة الأولى الهجرية ولم يصبح الإسلام أغلبية إلاّ في القرن الرابع وفي فترة حكم الملوك والسلاطين المحليين من غير العرب.

قلنا في أوائل انتشار الإسلام كان غير العرب يشعرون شعوراً حاداً بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية رغم صراحة القرآن بالمساواة وبالأخوة في الدين، فكيف الى هذه المساواة من سبيل؟

نوهت في فصل سابق بالطبقة الجديدة التي خلقها الفتح الإسلامي وهي طبقة (الموالي)، إن لهذا المصطلح العربي (ومفرده مولى) عين المدلول والأثر القانوني الذي يعبر عنهما المصطلح الروماني Client ولعين الشخصية القانونية التي يملكها صاحب الصفة.

في أيام الجاهلية كان المولى شخصاً عربياً أنكرته قبيلته وقطعته عنها لسبب من الأسباب فوضع نفسه في حماية قبيلة أخرى أو شيخ من شيوخها. ما أن اكتشف السكان المحليون هذا حتى أسرعوا للافادة منه بوضع انفسهم في حماية قبيلة أو شخصية عربية بارزة أو متوسطة

من جماعات الفاتح محافظة منهم على وضعهم الاجتماعي. فمن مزايا (الموالاة) التي يصح وصفها (بالتبني الاجتماعي) أن تلتزم القبيلة أو الجماعة أو الشخصية البارزة التي قبلت هؤلاء الأفراد موالي بحمايتهم ودرء الإعتداء عنهم والتدخل طرفاً في فض خصوماتهم. وقد شملت هذه الصفة أسرى الحرب الذين أُطلقوا لكنهم بقوا متعلقين بآسريهم(١٢). ولايتقاضى السيد من المولى اجراً أو يلتزم المولى لمن إلتصق به غير الولاء والانتصار له عند الحاجة.

في القرنين اللذين نوهنا بهما تواجد الموالي من مختلف الجنسيات والطبقات الاجتماعية في كل البلدان والاقاليم التي دخلت حكم العرب، إلا أن اغلبيتهم الساحقة ومراكز نفوذهم وثقلهم الاجتماعي استقطبت في أقاليم الشرق لاسيما إيران. والسبب في هذا التركيز يعزى الى ان البلاد التي كانت في السابق جزءً من الإمبراطورية البيزنطية استطاع كثير من أكابر القوم وأسرها البارزة الهروب الى القسطنطينية ومن هناك عملوا على افتداء اسرى الحرب من مواطنيهم، في حين وقعت كردستان وإيران وسائر أملاك الساسانيين شرقاً تحت حكم العراق وسقطت دولتهم سقوطاً كاملاً واصبحت الأسر البارزة والمتنفذة كلها تحت حكم العرب إذ لم يكن لهم مجال للهروب والإحتماء بدولة أخرى. أضف الى هذا ان الجزء من تاريخ العرب والإسلام الذي احتكره العراق بسرعة وبواقع كونه في السابق جزءً من الإمبراطورية الساسانية وفيه عاصمتهم الشتوية (قطيسفون – المدائن) كان لقرون عديدة قد تزيد على الثمانية اعتباراً من فتح بابل على يد كورش، مجالاً للتغلغل والاستقرار الإيراني مما كسب للموالي الإيرانيين الساكنين فيه أهمية توازي السكان العراقيين الأصلاء. أضف الى هذا مساحة إيران الكبيرة وكثرة السكان أدّيا الى تزايد عددهم في العراق. ويمكننا القول أيضاً بأن إقبال الإيرانيين على طلب الحماية أي (الموالاة) يعود الى طبيعة الروابط الاجتماعية والعقائدية التي درجوا عليها في دينهم المزدكي السابق الذي هو صيغة متطورة للزرادشتية – فقد انتابها وهن شديد بالإنشقاقات المذهبية والتناحر في حين نجحت المجتمعات المسيحية واليهودية الى حد ما في وقف تحول أبنائها الى الدين الجديد. مع هذا فقد تحول عدد كبير من الآراميين العراقيين (النبط في كتب التاريخ العربي) الى الاسلام وأصبحوا موالي. فمن شروط الموالاة التحول الى الإسلام، وهذه تعني الخطوة الأولى المبدئية لعملية الاندماج في المجتمع الإسلامي، بقيام الموالي بمهمة الحلقة التي تتوسط سلسلة مجتمعيْن وثقافتيْن وتقديمها لهما تقديماً جيداً وإن كان القصد منه قيام الموالي هؤلاء بقيادة السادة الجدد من العرب الى مجتمعاتهم

(١٢) كان (أبو لؤلؤة الفارسي) الذي قتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مولى للقائد العربي (المغيرة ابن شعبة) ومن أسارى حربه في العراق.

وحضارتهم وتقاليدهم، أي قيام الموالي بدور الوسيط والمترجم بين مواطنيهم وبين الفاتحين. فإلى أي درجة نجحت الموالاة في الوصول الى هذا الهدف؟

لم يجد العرب في انفسهم أي رغبة في ان ينزلوا أنفسهم الى عين مستوى الآراميين والنبط والإيرانيين في العراق الذين ضبطت اراضيهم رغم إسلامهم، ولم يكونوا راغبين برفعهم الى مستواهم أيضاً. وبقي الفاتحون يعتبرونهم أبناء لأسرى حرب أُطلق سراحهم أو أقنان أرض أو مجرد فلاحين ومزارعين وهي مهنة حقيرة عند العربي. في الواقع أن معظم هؤلاء كما قلنا كانوا من أنسال الأسرى الذين أُسروا أو أعتقوا أو من سكان المدن التي سلمت صلحاً للفاتحين دون مقاومة فوالوا العرب سعياً وراء الحماية مختارين. لكنهم ظلوا في نظر العرب اجانب بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمون اليها. يعاملونهم بترفع واحتقار ويجندونهم للحرب راجلين ولا يشركونهم في الغنائم، ومن تعاملهم ما يعيد الى الذهن قوانين التمييز العنصري التي كان يمارسها الجنوب الأمريكي مع السود. هناك دلائل وأنباء نقلها المؤرخون تفوق الحصر عن تلك المعاملة: لايسيرون في الطريق التي يسير فيها الموالي. ولا يجالسونهم ولا يؤمون الأمكنة التي يغشونها. لايسمح لهم بركوب الخيل، لهم مساجدهم الخاصة وللعرب مساجدهم واماكنهم العامة التي يحرم ولوجها على المولى أو غشيانها. والتزاوج بينهم وبين العرب يعتبر جريمة اجتماعية، كان الحكام الأمويون بصورة عامة ينظرون اليهم بشك عظيم وتقزز. وقد هال معاوية ابن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول عددهم الكبير في العراق كما يقول صاحب (العقد الفريد) وأدرك ببعد نظر منه خطرهم الداهم، فراح يفكر جدياً بقتل عدد كبير منهم ونفي البقية. ثم استقر رأيه بالأخير على تهجير بعضهم وإسكانهم سواحل سورية وأنطاكية متفرقين، ثم أدرك إن التجربة مقضي عليها بالفشل فعدل في آخر الأمر.

بدأ ظهور الموالي قوة سياسية يعتد بها ويخشى خطرها بتحول مركز الخلافة بمشيئة الإمام علي الخليفة الرابع من المدينة الى الكوفة وهي المدينة الإسلامية الجديدة التي بنيت بالقرب من (الحيرة) المدينة المسيحية الارامية. وفي عهده بقي أكثر من نصف سكانها من غير العرب وهم الموالي ومعظمهم من ذوي الحرف اليدوية المتواضعة والأعمال العضلية البسيطة والزراعية. أفسح لهم العرب في مدنهم ليقوموا عنهم بأعمال وخدمات لم يكن يراها الفاتحون لائقة بهم، بل كانت مدعاة للخجل إذ كانوا يعدون أنفسهم رجال حرب فحسب لا يليق بهم مزاولة أي مهنة أو صناعة لأنها تحط من قدرهم. إحتقروا الموالي ان لم يكن لشيء فلمهارتهم وكفاءتهم وحذقهم مما جعل وجودهم مفيداً غير مُستغنى عنه.

كان الإمام علي على الضد من سلفه عثمان شديد الحدب والرعاية للموالي يعاملهم بالحسنى ويقدر فيهم النبوغ الى الحد الذي أخذ أبناء قومه ذلك عليه وصاروا يلومونه ويشكون منه. وقد فاق غضبهم كل حد عندما أقر لهم بالمساواة مع العرب في كل وجه، إلاّ أن ذلك لم يطُل.

عندما تم الانشقاق الداخلي الذي فصل الشيعة عن باقي المجتمع الإسلامي، ما وجد الموالي انفسهم إلا وهم الى جانب العرب اليمانيين أنصار (علي) فتم دخولهم في الصراع السياسي الداخلي العنيف بين العرب. انه السبيل الوحيدة لإظهار نفرتهم وكرههم للنظام السياسي الأموي. فالتشيّع كان أفضل أرضية منظمة ضد بني امية.

في أعماق إجلال لشيعة للامام علي وفي جوهر المفهوم بأن قيادة المجتمع هي وظيفة إلهية فائقة العادة يستقر – كما نوه به بعض المفكرين غير المسلمين – وبشكل غامض ذلك الإعتقاد الإيراني القديم بأن (أورا) وتعني (فري ايزدي) أي القوى الإلهية يجب ان تكون الإمتياز الأصلي لممارسة السلطة. وهذا التخريج لايعني مطلقاً وبأي حال من الأحوال الاستنتاج بأن عقيدة الشيعة في الولاية الإلهية مستمدة من المفاهيم الدينية الإيرانية الا ان جاذبية هذه الإعتقادات التي تفرد بها الإيرانيون كانت وبمقياس واسع نتيجة التساوق مع المفاهيم القديمة ورجع صداها. إن اهتمامنا لايمكن ان يغفل ظهور أنواع متطرفة من غلاة التشيع كالكيسانية والخشبية والخطابية والراوندية التي لقيت اعظم مساندة وحظيت بأكثر الانصار بين الموالي العراقيين من فرس ونبط وآراميين.

وبخلاف هذا يمكن القول بان (الخوارج) الذين يمكن تشبيههم بالبيورتان (المطهرين) الانكليز[١٣] كانوا يميلون الى التطرف الديمقراطي القريب من الفوضوية. إن كان لديهم هدف معين ما فربما سار في إتجاه خلق مجتمع إسلامي لايمكن لأي فرد فيه الزيغ عن تعاليم القرآن واحكامه حتى الخليفة نفسه، وعندهم أن ارتكاب أي إثم كبير يعني قطع مرتكبه عن الجماعة ومعاملته معاملة الكافر.

عندما نازع الخوارج حكم بني امية في مسألة انتخاب الخليفة وجدوا الموالي العراقيين

(١٣) Puritans طائفة متزمتة من البروتستانت الإنكليز تدعو الى نوع بسيط من العبادة والتمسك الحرفي الشديد بتعاليم الكتاب المقدس، وتدعو الى حياة شخصية وعائلية طاهرة وإلغاء طبقة الكهنوت والى الديمقراطية في العبادة، إضطهدتهم الكنيسة الانكليكانية وشنت عليهم حرباً في اوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر اضطر قسم كبير منهم بعد ثورة البيورتان المسلحة الى ترك انكلترا الى العالم الجديد والاستقرار فيما يعرف الآن بـ(نيوانكلند).

والإيرانيين يقفون الى جانبهم، بسبب مفاهيم المساواة والعدالة التي كان يدعو اليها الخوارج إن لم يكن بسبب حقدهم على الامويين. وتوالى انضمام الموالي الى كل حركة مسلحة مناوئة للحكم الاموي يقاتلون الى جانب العرب[١٤] الخصوم ضد العرب الخصوم. وتواصل دور

(١٤) البغدادي: (الفرق بين الفرق) رغم انقسام الخوارج الى فرق عدة (أنظر باب الخوارج في: الملل والنحل للشهرستاني) فقد اتحدت كلمتهم في وجوب مقاومة الخليفة الجائر. ومن هنا مال الموالي الى الإنضواء تحت قيادتهم. فقد كانوا يرزحون تحت وطأة الخوارج في المدن كما في الريف. فمثلاً ورغم احترامهم للإمام علي ما وجدوا انفسهم إلا وهم في صف الخوارج، وقد ضاقوا ذرعاً بالخراج الثقيل المفروض عليهم. وكان (أبو مريم) من بني سعد تميم قد هدد في (٦٥٨م) الكوفة بجيش معظمه من الموالي. وفي فترة الفراغ الذي خلفته وفاة يزيد إبن معاوية في (٦٨٣ م = ٦٤هـ) وجدنا إقليمي الاحواز وفارس مرسحاً لثورة الخوارج التي إمتدت حتى مشارف الري (بالقرب من طهران)، وقد وضح إتفاق اهداف الموالي مع دعاة الخوارج عند قيام (عبيد الله ابن الماحوز) أحد قادة الازارقة وهم شعبة من الخوارج – بمشاركة عدد كبير من الموالى في بلاد الرافدين وايران. وساندوا ايضاً الشاعر التميمي قطري ابن الفجاءة (٦٩٧م = ٧٨هـ) الذي انتخبه الأزارقة خليفة لهم بعد (نافع ابن الأزرق) وقد تمكن من السيطرة على بلاد فارس وكرمان فترة من الزمن. على أن النزاع بين الموالي وبين العرب لم يتعد قط دائرة الخوارج في إيران ففي حين وضعوا المولى (عبد ربه) نظيراً لقطري ابن الفجاءة وتسببوا بذلك الإنشقاق الذي عمل على هلاك الازارقة أكثر مما عمله سيف القائد الأموي (يزيد ابن المهلب). يذكر (أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص٢٩٣، القاهرة) أن الموالي كانوا مع الشيعة وانه «انتخب المختار لابن الأشقر: عشرين الف رجل وكان جلهم من أبناء الفرس الذين كانوا بالكوفة ويسمون الحمراء. آه» وهم موالي الكوفة ويذكر الطبري في (تاريخ الأمم والملوك) أن العدد الهائل من الموالي الذي التحق به جعل حركته تبدو وكأنها موجهة ضد عرب العراق. وذكر على سبيل المثال أنه لم يكن يسمع في معسكره كلمة عربية واحدة. وبفضلهم تمكن (المختار) من ان يتخذ الكوفة عاصمة له مقدار سنة واحدة وستة أشهر يحكم منها على أرض السواد والموصل والجزيرة وكُردستان وخراسان ويستوفي منها الخراج. وقد بلغت ثقته بهم حداً أن اوكل حماية شخصه لحرس خاص من موالي الحمراء. وارتفع شأنهم بمساواتهم الفعلية مع بقية المقاتلين العرب. فبعد ان كانت المخصرة السلاح الوحيد المسموح لهم بحمله عند تجريدهم للحروب الخارجية، وهي العصا الغليظة، وبعد ان منع محاربوهم من ركوب الخيل ولايدخلون المعركة الا راجلين أركبهم (المختار) الخيل وسلحهم بسلاح العرب. ولم يمنع عنهم نصيبهم من الغنائم، كما جرى عليه الحكام السابقون بل وعدهم بأن تكون لهم أملاك كبار العرب. وزاد (ابراهيم ابن الأشتر) في تكريمهم وهو قائد (المختار) العسكري، فقال بهم مادحاً إنهم من أولاد فرسان مرازبة فارس وعدهم أشد على اهل الشام في القتال من أي طائفة مما أثار غضب العرب الشيعة الكوفيين فراحوا ينسلون من صفوف المختار تدريجياً لينضموا الى جيش (مصعب ابن الزبير) شقيق (عبدالله) الذي بويع بالخلافة في مكة. وبدت المعركة التالية وكأنها معركة الموالي ضد العرب لا ضد الأمويين. ولما كتب النصر لمصعب وقتل المختار واستولى على الكوفة أطلق العرب لينالوا ثأرهم من الموالي واوقع بهم مقتلة عظيمة واسترقّ نساءهم واولادهم، وقيل انه قتل منهم اكثر من سبعة آلاف حتى لقب (بالجزار).

وخشي الحجاج بن يوسف الثقفي منهم (أي الموالي) فجنّدهم في جيش قريبه عبدالرحمن ابن محمد ابن الأشعث وارسلهم الى أفغانستان لفتح كابول والسند. وهناك عصي ابن الاشعث وثار على قريبه وعاد الى العراق ليلحق به المزيد من الموالي والخوارج والشيعة. وعندما تمكن الحجاج من إطفاء الثورة أوقع بهم مقتلة عظيمة وصلت تفاصيلها الى الخليفة عبدالملك فثار ضميره لها وأرسل خطاب توبيخ شديد للحجاج =

الموالي في كل الثورات التي قامت ضد الأمويين حتى ظهور الدعوة العلوية، فساهموا فيها بعين الإندفاع والتلقائية ورجحوا كفة الدعوة العباسية وأمنوا لها النصر.

هناك دلائل لاتحصى على ما لقيه الموالي من العرب في زمن الأمويين يعادل من أوجه كثيرة معاملتهم للرقيق. لم يكن الأمويون في جباية الخراج والإذلال والمعاملة السيئة يفرقون بين المولى المسلم وبين الذمي غير المسلم.

طوال حكم بني امية ورغم تخفيف قيود كثيرة لم ينس لا الموالي الجدد ولا الأبناء وأحفاد الموالي الأقدمين واقع إنتمائهم العرقي. وظل الحكام يتجاهلون مبدء المساواة الإسلامي الذي قررته احكام القرآن عملاً. إلا أن هؤلاء المسلمين الجدد راحوا يفرضون أنفسهم فرضاً اندماجياً مع العرب القادمين من الجزيرة بمؤهلات خاصة أنماها عامل الإضطهاد والتمييز العنصري الاجتماعي واقتربت منهم كثرة من الأنسال التي أنجبها العرب من زوجات ومحظيات أجنبيات. وبدوا في العقود الأخيرة من الحكم الأموي طبقة اجتماعية في المدن والأرياف لها خطرها لا في ميداني الاقتصاد والصناعة وحدهما بل في ميادين أخرى حسب العرب لفترة من الزمن أنها وقف عليهم. فقد ولج الموالي بجرأة وتفرغ باب الشعر والأدب العربيين، ونفذوا الى أغوار العلوم العقلية في فترة قصيرة جداً من الزمن ليخلفوا أثرهم الباقي في الحضارة

= (أنظره في المسعودي).

ولم تبق ثورات الموالي على بني أمية قاصرة على إيران والعراق فالمؤرخون المسلمون يحدثوننا عن ثورات لهم بالاتحاد مع أبناء جلدتهم غير المسلمين في مراكز الحكم الأموي نفسه أي سورية ولبنان. من اهم تلك الإنتفاضات تلك التي وقعت ايام حكم الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٤٦–٧٠٥م). بدأت بثورة اهل الجرجومة (الجراجمة) في العام ٦٨٨م. وهي مدينة في جبل (اللكام) المشرف على مدينة أنطاكية نقطة اتصال جبال طوروس بجبال لبنان وقد تقدم ذكرها. واستناداً الى ما ذكره إبن الأثير في (الكامل) فالقائمون بالثورة من الجراجمة استطاعوا أن يجتذبوا الى قضيتهم النبط والآراميين من اهالي الشام ولحق بهم أبّاق من عبيد المسلمين الذين هربوا من اسيادهم. كما يذكر ان هؤلاء الجراجمة كانوا في أول الفتح العربي للشام قد صالحوا القائد حبيب بن مسلمة الفهري على ان يكونوا اعواناً للمسلمين اذا حضروا معهم حرباً وقد دخل من كان معهم في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط ومن اهل القرى ومن معهم في هذا الصلح، فسموا بالروديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم (ج٤. ص٣٠٤ بيروت ١٩٦٥). لم ينوه احد من مؤرخي العرب باسم قائد الثورة لكن يذكرون انهم خرجوا بمجموعهم الى لبنان وانضم الى قائد الثورة كثير من الأشياع فيها وتحصن بها وامتنع عن عبدالملك الذي ارسل من يغريه بالمال، وبالأخير تمكن من اخماد الثورة بجيش من الموالي! وقتل قائدها. وليس هناك من شك في أن الباعث على الثورة هو نقض العهد الذي تمت المصالحة عليه بسبب حاجة بني أمية الى المال وتعميمهم جباية الجزية والخراج حتى لمن أسلم تسديداً لنفقات الحروب الأهلية في العراق وفارس وهي حروب طاحنة استغرقت معظم حكم هذا الخليفة الطويل. ومما يجب ذكره هنا أن بني امية استعانوا بالمسيحيين الشاميين العرب وغير العرب في فتح العراق وفارس ومصر.

الإسلامية عامة وحياة البلاد الناطقة بالعربية بصورة خاصة، وعالجوا أبواب الفنون وأقحموا أنفسهم في الحياة العامة وشاركوا في الخصومات والتحزبات والجدال الفقهي والديني وبرز منهم من من فرض احترامه وهيبته فرضاً على المجتمع ورجال الحكم.

إن مشاركتهم في بناء الدولة العباسية تمثلت بشكلها الصارخ في واقع التكوين العرقي للجيش الذي حقق انتصار العباسيين وتقويض حكم بني أمية. فقائد الحركة هو من الموالي المختلف في أصله الكُردي أو الفارسي. والمغلوب (مروان ابن محمد ابن الحكم) كان نصف كردي وجيشه كان يتألف فضلاً عن العرب من الآراميين السوريين واللبنانيين الموالي، في حين كان جيش العباسيين خليطاً عنصرياً كبيراً من فرس وديالمة وجرجانيين وكُرد وخراسانيين.

وفضّل الخلفاء العباسيون تزويد اداراتهم ودواوينهم وجيوشهم بالفرس بالدرجة الأولى، وتحاشوا استخدام العرب في المناصب الحساسة بشكل واسع وأبعدوهم قدر المستطاع لأسباب تتعلق بسلامة حكمهم. فأنصار البيت الأموي والبيت العلوي الذي انتشرت الدعوة العباسية تحت لوائه وباسمه كانا مثل سيف (ديموقليس) مسلطاً فوق رؤوسهم، لاسيما في فترة حكم الخلفاء الستة الأوائل. الا أن الدعوة الى المساواة بين العرب والموالي والمسلمين الآخرين كافة كانت قد عمت بشكل ارغم الحكام العباسيين على القبول الظاهري بها والاستسلام لها، الأمر الذي فسح في مجال صعود الموالي وتسنمهم أعلى المراتب القيادية العسكرية والمدنية بسهولة وبحكم اللياقة والجدارة والاستحقاق. وأدى بالمقابل الى تمتعهم بنفوذ كبير زاد في اضطغان العرب ونقمتهم عليهم وانقلب هذا ليبدو في مناقشة جادة جدلية أطلق عليها الكتاب العرب اسم (الشعوبية) تحقيراً وإزدراء.

كانت في مبدئها حركة أدبية صرفة تعاورها الكتّاب والأدباء الفرس، دعت الى تطوير لغتهم (الفهلوية الحديثة) وتعميم استعمالها في بلادهم بدلاً عن العربية وبدت عند أمثالهم من الموالي الفرس المتضلعين في العلوم العربية النقلية والعقلية واللغوية وعند طبقة جديدة من فقهائهم وفي مقدمتهم طبقة المعتزلة في حدود القرن الثاني والثالث الهجريين، أكثر إلحاحاً في ضرورة تحقيق المساواة لا بين اللغتين بل بمعناها الواسع الشامل لمختلف الانتماءات القومية والعرقية في عالم الإمبراطورية العباسية. في المبدأ اطلقوا على انفسهم اسم (أهل التسوية) وبالمقابل وجد العرب عموماً في هذا المطلب جرأة وقحة ثم أثار فيهم مخاوف على صعيد الحاضر والمستقبل. فانبرى كبارهم يقاومون النزعة الجديدة عن طريق المناظرة والجدل الحادين، ووصفوا هؤلاء المنادين بالمساواة المدنية والاجتماعية بالشعوبيين وحركتهم بـ(الشعوبية) وهي

لفظة لاتتضمن بحد ذاتها تعريضاً بنقيصة أو تنم عن شعور سيء دفين. ولعلها أقرب شبهاً بكلمة cosmopolitan الشائعة في أيامنا هذه. الا أنها باتت بعد احتدام المعركة عند العرب سُبة وتهمة يُرمى بها من يعتنقها ويروج لها لاسيما عندما خرجت دعوى المساواة عن حدودها المعقولة والتجأ الجانبان الى التنابز بالألقاب والى المفاضلة القومية والعرقية وقد نوهنا بذلك في الفصل الثاني.

كانت في واقع الأمر الاداة والمرقاة الرائعة لأحفاد الموالي الفرس وغيرهم المتطلعين الى الجاه والرفعة. استخدموها بالأخير بكثير من الحنكة والدهاء لاسيما طبقتهم البيوروقراطية بتفوقهم الذهني وطول باعهم ووقوفهم على الأدب العربي وتمكنهم من اللغة، للبرهنة أولاً على مساواتهم بالعرب مهتدين بالفكرة العامة وهي الدعوة باسم القرآن وأحاديث الرسول الى المساواة في الفرص السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين كافة من العرب وغير العرب (الأعاجم). وعندما إحتدمت المعركة وراح كل فريق يبرهن على تفوقه العنصري ويفخر بما أنجز أسلافه، خرجت الحركة عن حجمها الطبيعي وإطارها الذهني وظهر متطرفون وغلاة من الجانبين. فرأى الفرس أنهم أبناء واحفاد أولئك الذين بنوا إمبراطورية عظيمة هيمنت على الشرق الأوسط والأدنى قروناً دون منازع وزرعت في أرجائها ثقافة ومدنية باقية مازال العرب المتقحّمون يمتارون منها ويستندون إليها في حكمهم وحياتهم اليومية، حصل هذا في وقت كان هؤلاء الأعراب يطاردون الجمال في الصحراء. وأسرع العرب برد الحجة فاتهموا الشعوبيين والشعوبية بالكفر والإلحاد[١٥] وبأنها تهاجم الإسلام وبنيته الروحية، مستشهدين بأقوال غلاة الشعوبيين في تمجيد ديانتهم الغابرة وشعرائهم في الحنين إليها. وردّ الشعوبيون من جانبهم بأن آي الوحي التي نزلت على محمد لم تجد كلمة طيبة واحدة تقولها بحق العرب وانما نوهت بأمة اسلامية واحدة لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى. وإن (محمدا) لم يُبعث

(١٥) يورد المسعودي رواية خيالية صنّفها في الظاهر نديم للخليفة العباسي (ابو العباس السفاح) بغية إمتاعه، بطلتها جارية شاعرة خبيرة بأنساب العرب عالمة بما يعزى الى قبائلهم من مثالب ومناقب. لقيت شخصاً راح يدعي لها بانتسابه تباعاً الى اثنين وأربعين قبيلة عربية فكانت ترد عليه كل ادعاء بالتمثل ببيت شعر فيه عيب معين يعزى لتلك القبيلة. ولما أعياه أمرها أخيراً إدعى أنه من الموالي فتمثلت له بقولها:

ألا من اراد الفحش واللؤم والخنا فعند الموالي الجيد والطرفان

فادعى بانه خوزي (أي من أهل خوزستان) فقالت:

لا بارك الله ربي فيكم أبدا يا معشر الخوز إن الخوز في النار

أخيراً إدعى بأنه من أولاد حام (يقصد الأفارقة) فقالت:

فلا تنكحن أولاد حام فإنهم مشاويه خلق الله حاشا بن اكوع

(مروج الذهب، ج٣، مؤسسة دار الهجرة، الص ٢٧٩–٢٨٠، ط إيران ١٩٨٨)

للعرب وحدهم بل بعث للبشر قاطبة. وجاء التهديد الفعلي من خراسان مركز الدعوة العباسية والتشيّع حيث فقدت دمشق السيطرة عليها وحيث ساهم أهلها في تقويض صروح الدولة الأموية، وأسرع الخليفة العباسي الثاني (المنصور) بالقضاء على من قوّض حكم بني أمية واستئصال شأفتهم ومطاردة أشياع البيت العلوي والفتك بمناصريهم وجلّهم من الموالي. وبلغ الخوف بالعباسيين أعظمه عندما راح الفرس يكونون دويلات لأنفسهم ذات حكم ذاتي. كذلك القائد العسكري (طاهر ابن الحسين) الذي اسس الدولة الطاهرية (٨٢٠-٨٧٣م)، ويعقوب الصفار مؤسس الدولة الصفارية (٨٨١-٨٦٥م). وكان هناك شعوبيون عرب انتصروا لغير العرب وساندوهم في قضية المساواة مثلما وجد من الفرس والأجانب من انتصر للعرب.

أفاد (أهل التسوية) أو الشعوبيون من الحرية الواسعة ومن النفوذ الكبير الذي وقع بأيدي إبناء جلدتهم من الموالي وغير الموالي لنشر معتقداتهم والإشادة بماضي قومهم وتراثه. لكن ما أن اهل فجر القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوبية أثراً بعد عين وانتهى الصراع الفكري تلقائياً لاسيما بعد ان اصبح العرب أقل تميزاً عن السكان المحليين بتسارع هؤلاء الى قبول الإسلام وهي عملية احتث خطاها الحكم البويهي. وكذلك باستيلاء السلاطين والحكام الأجانب على السلطة.

ليس في إمكاننا قط دراسة الحركة الشعوبية على أسس من التطور الديني - السياسي. أي: العرب ضد العرب، لكن يمكن أن توصف بأنها حركة مسلمين ضد مسلمين. وهي كذلك تختلف بالجوهر عن النزاع المذهبي الذي شقّ العالم الإسلامي الى شيعة وسنية. وكان في حينه متمثلاً في الصراع بين انصار العلويين واتباع العباسيين: الشيعي قد يكون شعوبياً وقد لايكون. والأمر بالسنيّ سواء بسواء كذلك. وتتضح هذه الحقيقة إذا ما عرفنا مثلاً بأن الأغلبية الساحقة من سكان إيران والعراق آنذاك كانوا على المذهب الحنفي وهو أكبر مذاهب السنة وأوسعها انتشاراً.

على أنه يجب التنويه بأن أعنف معارضة لغلاة الشعوبيين ولأولئك القائلين بالتفوق القومي الإيراني على العرب إنما جاءت من الإيرانيين أنفسهم لاسيما من تلك الأسماء التي لمعت في سماء الأدب والعلم واللغة والفقه أمثال الزمخشري أبي القاسم محمود (ت ١١٤٤م) الذي اوسع العرب لوماً وتأنيباً في مقدمة كتابه (سر الأدب في مجاري كلام العرب)، والثعالبي ابو منصور عبدالملك (٩٦١ -١٠٣٨م) من أعلام فقهاء اللغة[١٦] والأديب والشاعر ورجل

(١٦) من مقدمة كتابه (فقه اللغة وسر العربية): "من احب النبي أحب العرب ومن أحب العرب أحبّ اللغة =

الدولة الصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني صاحب المقامات. ومنهم أيضاً أبو جعفر محمد إبن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة مصنف التفسير الشهير (التبيان) ومؤسس مدرسة النجف العلمية الشهيرة الباقية حتى هذا اليوم (٩٩٥-١٠٦٧م). ومن المتوسطين غير المغالين ذكرنا في وضع سابق الشاعر (مهيار الديلمي) واستدللنا بأبيات له.

الى جانب هؤلاء نجد الغلاة الذين دفعهم التعصب القومي غير العربي الى حالة الاستفزاز، ويقرن بأول قيام الشعوبية اسم الشاعر (إسماعيل ابن ياسر) وابنه (إبراهيم) قدم أولهما دمشق في زمن الخليفة هشام بن عبدالملك (حكم ٧٢٤-٧٤م) من إيران وذاعت قصائده التي مجّد فيها بالماضي الإيراني واشاد بملوكهم. وبلغت به الجرأة حداً ان راح يعظمهم أمام الخليفة نفسه الذي حمى غضبه فأمر بإلقائه في بركة ماء وهو أول المشاهير الذين لقبوا بالشعوبيين. وعبدالله ابن المقفع (ت٧٥٩م) صاحب كتاب (كليلة ودمنة) و(الأدب الكبير) و(الأدب الصغير) قتله أبو جعفر المنصور. ومنهم أيضاً (بشار ابن برد) مولى آل عقيل زعيم حركة التجديد في الشعر العربي بلا منازع (٧٠٤-٧٨٤م) لم يكفه الاشادة بماضي الفرس والفخر بانتمائه الى بيت الملوك بل راح يمجد بالدين المجوسي كقوله من قصيدة مطولة:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[١٧]

★★★

= العربية، التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن احب العربية غنّى بها وثابر عليها وصرف همه إليها. ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان واتاه حسن سريرة فيه إعتقد أن محمدا (ص) خير الرسل والإسلام خير الملل والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهمها هو من الديانة".

(١٧) إجترأ هذا الشاعر على أعلى مقام ديني فشتم الخليفة (المهدي) وقذفه بأحطّ التهم الأخلاقية التي لايصبر عنها اليوم او يتجاوز أي حاكم كبير في بلد يحكمه القانون وتشيع فيه المباديء الديمقراطية كقوله فيه:

خليفة يزني بعماته يلعب بالدبوق والصولجان
ابدلنا الله به غيره ودسّ (موسى) في حر (الخيزران)

(الدبوق والصولجان هي لعبة الكرة شبيهة بـ(الهوكي) وهي لعبة الصبيان في ذلك العصر يترفع عنها البالغون و(موسى) هو الخليفة الهادي ابن المهدي ووليّ عهده وأخو هارون الرشيد من محظيته ثم زوجته الفارسية (الخيزران)، والحر هو الفرج.

كذلك يعرّض بأفن المهدي وعبثه وانصرافه عن شؤون الدولة بما يتضمن تحريضاً على الثورة:

بني امية هبّوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

(ويعقوب ابن داود ابن طهمان هو من أبناء الموالي وزير المهدي المتحكم المطلق في شؤون الإمبراطورية، غضب عليه المهدي فسجنه في جب سنيناً عدة ثم أطلقه الرشيد وقد كف بصره). كعادة مؤرخي العرب =

غابت (الشعوبية) و(الشعوبيون) من سماء التاريخ الإسلامي ما زاد على عشرة قرون. كما بدت في كتب التاريخ حدثاً هامشياً من الأحداث الجانبية التي تتخلل الوقائع الكبرى، ولا تأخذ منها حيزاً كبيراً، وفي الغالب ينوه بهما عرضاً في حكايات وطرائف متفرقة. الا أنها لم تغب عن ملاحظة المستشرقين والباحثين الأجانب فخصوا هذه الظاهرة بجانب من اهتمامهم دون ايلائها أهمية خاصة[١٨] هؤلاء الكتاب المتأخرون ما اظنهم كانوا يقدرون باي حال، ولا دار في خلدهم أنه سيأتي يوم على الأقطار الناطقة بالعربية ينبش فيه هذا المصطلح البغيض من قبره وتماط عنه أكفانه لتستخدمه الحركة القومية الناصرية في مطلع النصف الثاني من قرننا سلاحاً تهاجم به خصوماً عقائديين معينين وكل من وصفتهم بأعداء القومية العربية، أي قومية عبدالناصر فيما بعد، ولتأخذه عنه الحركات القومية الأخرى فيما بعد.

وجهت الدعاية الناصرية تهمة الشعوبية أولاً للوطنيين المصريين الذين تحدثوا عن مصر الفرعونية لا مصر العربية يحاولون إحياء شعار مصر للمصريين الذي شهرته الحركات الوطنية بوجه المحتل البريطاني وهؤلاء هم الإشتراكيون الفابيون والإشتراكيون اليساريون والشيوعيون ثم عندما أنزلت الناصريةُ الى سوق المضاربة السياسية اسهمَ (الوحدة العربية) ووقف الشيوعيون في البلاد الناطقة بالعربية ضد مفهومها الناصري وأنكروها وتحدوا صاحبها.

بلغت المعركة الاعلامية أوجها عندما تردّت العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية (قاسم) في العراق. وذلك عندما كان على (عبدالناصر) ان يواجه في عقر داره وفي سورية المقاومة العقائدية لأولئك الذين ذكرناهم. وكان الدين الإسلامي قطب الرحى في مطاحن القوميين العرب والركيزة التي تنطلق منها تهم الإلحاد والكفر على الآخرين. القوميون العرب مسلمون والآخرون كفار زاغوا عن الدين بتبنيهم عقيدة مخالفة للإسلام. وفي أثناء احتدام المعركة قفزت كلمة (الشعوبية) ولاءمت الموقف كل الملاءمة.

= والاسلام في سرد الاحداث والوقائع من دون تعليق وتعليل أو الإدلاء برأي خاص – غمض علينا سر سكوت المهدي عن بشار مدة طويلة لينالاه فيما بعد ويقتله بحد شرعي (تهمة الزندقة والإلحاد).

(١٨) مما وقفنا عليه بحث قصير للاستاذ كِب R.A.H. Gibb بعنوان أثر الشعوبية الاجتماعي The social Significance of The Shuubyya نشرهِ في مجلة دراسات شرقية Oriental Studies كوبنهاكن Janni Pedersen Dicta الص١٠٥-١١٤ في ١٩٥٣. وكذلك مادة (الشعوبية) في دائرة المعارف الاسلامية Die Encyclopedia of Islam ومقال آخر بعنوان (الشعوبية) للمستشرق الكبير اكناس كولدتسيهر بعنوان Shuubyya: Mohammadinoche Teile- Halle 1898 ضمن كتاب في جزئين عن الإسلام وقد حرصنا على ان نقتبس من كل هذه البحوث شيئاً في بحثنا هذا.

لم يكن بإمكان عبدالناصر مهاجمة الشيوعيين والإشتراكيين بصراحة الاسم الا بوضع علاقاته الحميمة مع الإتحاد السوفياتي موضع خطر اكيد فوجدت وسائل اعلامه ضالتها في الجناس والتقارب اللفظي العجيب والصدفي بين كلمتي الشعوبية والشيوعية فضلاً عن التقارب الفكري من ناحية كون الشعوبية تدعو الى المساواة الطبقية والاجتماعية بين الشعوب التي اقتبلت الإسلام، والإشتراكية والشيوعية التي كان من مبادئها إزالة الفوارق الطبقية وشجب التمييز العنصري.

بهذا الشكل أقحمت دعوة القومية العربية الدين الإسلامي في معركة سياسية صرفة. استبطنت في الواقع معركة على الزعامة الكبرى زعامة الوطن العربي وشدّت نفسها برباط تعذر عليها الخلاص منه عندما طغت موجة الأصوليين المسلمين في العالم الناطق بالعربية وأرغمت القوميين على الإنسحاب الى الخلفية كما سيأتي تفصيله. الا أن الناصرية وحزب البعث والقوميين الإشتراكيين اضطروا في حينه على إقامة جبهة مع الحركة الإسلامية الناهضة بقيادة الإخوان المسلمين وحزب التحرر الإسلامي ضد الآخرين وكان امراً عجيباً ونقيضاً لايستقيم مع منطق. فالمجموعات الإسلامية التي ذكرناها لا تؤمن بالقومية أو بقيام نظام سياسي على أسس قومية وتتطلع الى الجامعة الإسلامية الكبرى وهي أهداف تتفق والمفهوم الشيعي.

المذهب الشيعي هو مذهب غالبية قومية لاتمت الى البلاد الناطقة بالعربية بصلة، وكل مجموعهم في هذه البلاد لايساوي ثلث الـ٩٥٪ من الشيعة الإيرانيين. وفضلاً عن هذا فإن الشيعة العرب في البلاد الناطقة بالعربية لايفكرون بمستقبلهم السياسي على أساس قومي. إن العالم الشيعي يؤمن بالجانب الكوزموپوليتي من الإسلام ويلحق بهم بطبيعة الحال الكُرد والترك وغيرهم وهم يهتدون بذلك بسورة البقرة من القرآن (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وماكان من المشركين، قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون.)

وقد أبان صاحب (الميزان في تفسير القرآن) السيد محمد حسين الطباطبائي ذلك بوضاحة وصراحة حين قال:

"ان من طبيعة هذه الحياة الأرضية الدنيوية التغيير والتحول في عين الجري والاستمرار كنفس الطبيعة التي هي كالمادة لها، ويوجب ذلك أن تتغير الرسوم

والآداب والشعائر القومية بين طوائف الملك وشعباتها. وربما يوجب ذلك تغييراً وانحرافاً في المراسم الدينية وربما يوجب دخول ما ليس من الدين في الدين أو خروج ما هو منه. وربما حلت الأغراض والغايات الدنيوية محل الأغراض الدينية الأصلية وهي (بلية الدين)، وعندئذ يصطبغ الدين بصبغة القومية فيدعو الى هدف دون هدفه الأصلي ويؤدب الناس غير أدبه الحقيقي فلا يلبث حتى يعود المفكر وهو ما ليس من الدين – معروفاً يتعصب له الناس لموافقة هوساتهم وشهواتهم."(١٩)

وقد زاد نأي الشيعة الناطقين بالعربية عن أفكار القوميين بعوامل أخرى، منها اتهامهم بعروبتهم. فكثيرا ما سمعنا من القوميين وقد غلب على تكتلاتهم الطابع السني ما يطعن بعروبة الشيعة وكثيراً ما وجدنا الشيعة مقابل ذلك يضطرون في أحيان كثيرة الى الدفاع عن عروبتهم بتحدي القوميين وبمحاولة البرهنة بأن العروبة الاصلية إن وجدت فهي في معشر الشيعة. ويستغل بعض الحكام الصلة المذهبية التي تجمع بين قومية وأخرى للإيقاع بخصوم وأعداء مثلما فعل القوميون البعثيون في العراق خلال السنوات العشرين ١٩٧٠–١٩٩٠ من خلال محاولة تجريد العرب والكُرد الشيعة من هويتهم العراقية بزعم أصولهم الإيرانية.

وأحدث التسمك القومي العربي بأهداب الإسلام وجعله وسيلة للترويج لأهداف أصحابه ردة فعل مماثلة عند الأقليات القومية والدينية في البلاد الناطقة بالعربية – كما كانت من أسباب حثها هي الأخرى على التجمع الطائفي والقومي، وأن تتحصن وراء تقاليدها ورموزها ولاسيما عندما يجتمع في الحركة القومية التعصب العرقي والديني ليأخذ شكلاً استفزازياً لا ضرورة له البتة، كأن يكون دليلاً على تمسكهم بقوميتهم وكإصرار بعض الحكومات القومية على إثبات ذلك في قانونها الأساسي ودساتيرها بوضع مادة منفصلة تشير صراحة الى أن (الإسلام هو الدين الرسمي) وهي عبارة جوفاء بحد ذاتها خالية من كل مضمون أو أثر عملي لاتزيد من رفعة الحكم ولا من قوة النظام، ولاتضيف الى الإسلام والمسلمين ما ينقص أولهما وما يفتقر اليه ثانيهما. فالدين هو رسمي للمؤمن به. وفي اليوم الذي نعيش وقد أشرفنا على نهاية القرن. وشهدنا عصراً من الإنفتاح العالمي على الديمقراطية وعودة النظرية الإشتراكية

(١٩) آخر عهدنا بإستخدام مصطلح الشعوبية والشعوبيين ضد من كان يتهم بالشيوعية ما نشرته جريدة تنطق بلسان حزب البعث العراقي المنشق عن النظام العراقي بقيادة قطرية مقرها في دمشق، عندما هاجمت تكتلاً ديمقراطيا يساري النهج بمقال صدّرته بهذا العنوان المثير: (أيها الشعوبيون، هذه زمرتكم وتاريخكم الأسود، فلا غرابة في حقدكم على ثورة ٨ شباط) وكان ذلك في العام ١٩٨٥.

الماركسية الى نقطة البدء بعد الاخطاء النظرية الفظيعة التي وقع فيها مروجوها والجنايات الرهيبة التي إرتكبها مطبقوها بحق البشرية؛ وبعد تنبه الأمم والشعوب الى أهمية التراث والتقاليد والمصالح المشتركة في بناء الكيان الوطني. إننا ما رأينا الدين ولا الإنتماء المذهبي عاملاً فاعلاً أو جوهرياً من عوامل اليقظة القومية بل رأينا رباط المصالح الإقتصادية واسلوب الحياة والتراث التاريخي والأدبي أقوى من ذلك العامل، أمنفردة أُخذت أم مجتمعة. العامل الديني أو الطائفي أو المذهبي في أغلب الاحيان قد يكون جزءً من العامل التراثي أو الحضاري ان شئت الدقة. ويكون كذلك اسلوب دفاع عن الهوية لأنه جزء منها عند الأمة المستضعفة والمهددة، كما يفعل الكُرد المسلمون اليوم والمسيحيون غير العرب. الكُرد لأنهم غالبية مستضعفة في بلاد يؤلفون فيها أقلية قومية متغلبة، والمسيحيون لأنهم أقلية دينية وقومية لجأت للاحتفاظ بهويتها الى درع الدين وحمايته.

قرأت قبل سنين عدة مقالاً في مجلة (المجلة الجغرافية الوطنية National Geographic Magazine) الأمريكية الشهيرة – حول الأرمن وأرمينيا اليوم، ولفت نظري فيه فقرة جاء فيها إن الكاهن عندما يختتم مراسيم عماد الطفل ينطق بهذا: (الآن اصبحت أرمنياً) والآشوريون أنفسهم بقيت مشاعرهم القومية وهم تحت حكم قوميات جائرة مرتبطة ارتباطاً محكماً بكنيستهم كنيسة الشرق، حتى الدرس القاسي الذي نالته يقظتهم القومية بسبب تلك الرابطة. فراحت حركاتهم السياسية تنأى تدريجياً عن رجال الدين الذين تزعموها سابقاً لتغدو علمانية سياسية صرفة.

وها هي ذي القومية العربية تمتحن إمتحانها الأكبر بظهور حركات المتشددين الإسلاميين أو الاصوليين الانتحاريين كما يطلق الاعلام العالمي عليهم في سائر البلاد الناطقة بالعربية. وتلك واحدة من نتائج الإخفاق الفكري في استخدام العقيدة الدينية استخداماً صحيحاً يتفق وروح العصر، لا أن تُدخل كمقوم أصيل من مقومات القومية نظرياً كان هذا الدخول أم عملياً. ذلك مأزق زجّت حركات القوميين العرب أنفسها فيه من غير تبصر فعاد عليها بأفدح الضرر وكان سبباً في تمزقها وتشرذمها وغموض رسالتها.

الفصل الخامس

اللغة العربية الركازة الرئيسة . عامل اعلان قومية . وعامل يقظة في البلاد الناطقة بالعربية فكرياً وسياسياً . اصول العربية . كانت لغة متكاملة عند نزول القرآن . لغة مضر (لغة قريش) خواص الشعر العربي الفريدة . ايقاعه الغنائي وموازينه . ما يدين الغرب لها . استعمال الصفر واختراع الارقام العددية واستخدام الاوروبيين لهما دون ارقامهم اللاتينية الامر الذي ادى الى ثورة في العلوم . مرونتها وقابلية اشتقاقها الفذة . اللغة العربية تغدو لغة عالمية . الروابط الثقافية في عصر محمد علي الكبير . الانفتاح العلمي والثقافي عن طريق مصر وساحل البحر المتوسط الى الغرب . الارساليات وبعثات التبشير قيامها بادوار تثقيفية هامة منذ اواسط القرن السابع عشر . عملية اليقظة بآثار الحروب المصرية وثورة جبل لبنان ١٨٦٠ . وظهور المصلحين الاجتماعيين من الأدباء والشعراء . التعامل البعثي مع الاقليات . البروز القومي الحماسي للأقلية المسيحية في الساحة القومية . نماذج للعطاءات . استقراءات ابن خلدون وآراؤه في اللغة العربية والمتكلمين بها . رأي الدكتور ساطع الحصري .

إن تاريخاً مشتركاً للعرب مستمداً من مختلف الأقاليم الجغرافية ومستنداً الى استمرارية حضارية بين هذه الأقاليم يجب ألا يُفهم على أساس قوة الهوية الغلابة أو الكاملة للغتهم وطرز حياتهم ونظام عقيدتهم وعلى ضوء تجاربهم التاريخية وممارساتهم الاجتماعية شأنهم في ذلك كشعب بنى إمبراطورية واسعة الأرجاء وحكمها ردحاً من الزمن، ربما قد تقرن بمشاركتها في مظاهر خاصة وملامح معينة اهتبلها القوميون العرب ليجدوها غلابةً بارزة تثبت هوية مشتركة. ولهذا نجدهم في أحيان كثيرة وفي بعض الأحوال في مواقف حاسمة مطلقة يبرزون عامل اللغة المشتركة الواحدة على سائر العوامل الأخرى ومنها العقيدة، رغم تباعد لهجات اللغة العربية وتباين ممارساتها المحلية في العالم الناطق بالعربية.

ولا أريد أن أستبق الرأي الذي سيكوّنه القاريء برأي شخص يحدد له إطار تفكيره ويعوق حرية استنتاجه في أيهما كان أبرز وأقوى العوامل الذاتية لصياغة الهوية. وما أريد قوله هنا

فحسب، إن لدعاة القومية العربية مبرراً قل أم كثر في إعطاء اللغة أهميتها بوصفها عاملاً ذاتياً لابتعاث الشعور بالقومية أو اليقظة القومية وتغليبها على ما ذكرناه في صدر هذا الفصل. وها نحن قد أخرجنا التعامل العنصري (العرقي) تقريباً من مجال الإثبات في الفصول السابقة.

وحكايتي في هذا الفصل سأبسطها حول عامل اللغة، بوصفه عامل ابتعاث قومي دون تحديد لقوته وأثره.

العربية كما يقول علماء اللغات هي عضو في المجموعة السامية[١] الجنوبية وهي اقرب أخت من المجموعة الى اللغتين العبرية والآرامية، وكلتاهما تنتميان الى المجموعة السامية الغربية الشمالية.

ما من شك في أن العربية كانت لغة دقيقة التعبير كلاماً وكتابة عند نزول الوحي القرآني، وفي أنها كانت تزهو وتدلّ على غيرها من اللغات السامية الشمالية بخصائص حققت لها التقدم ثم السيادة عليها جميعاً لتحتل موقعاً لم تزاحمها فيه واحدة منها، لاسيما انتصارها الأبدي على اللغتين الأختين المتداولتين في ذلك الحين، أي العبرية والآرامية. ففي العصر الذي شهد رسالة المسيح كانت اللغة الأولى قد اختفت تقريباً من الشارع والبيت واحتمت بأسوار بيوت العبادة ومدارس الدين مفسحة للآرامية بلهجاتها المحلية التي كانت لغة التخاطب عند اليهود أنفسهم. ومالبثت هذه الأخيرة بعد الفتح الإسلامي أن انسحبت بالتدريج أمام السيادة العربية السياسية واللغوية – لتعيش في حمى الكنائس ولتبقى لغة ثانية لمسيحيي الهلال الخصيب، بعضهم لا كلهم حتى يومنا هذا[٢].

يقول علماء اليهود ولغويوهم بلهجة لاتخلو من حنق وحسد أحياناً إن لغة العرب ما تفوقت

(١) السامية والساميّ (نسبة الى سام المذكور في التوراة) هي تسمية حديثة للغات والشعوب ابتدعها في العام ١٨٧١ العالم النمساوي (أ. شيلوتسير) للتفريق بين اللغات والشعوب الحامية (نسبة الى حام في التوراة) واللغات الشرق أوسطية فدرج استخدام المصطلحين بالشكل والنطاق الذي نألفه اليوم.

(٢) ظهرت السريانية واستظهرت في مجال نمو وتطور اللغة الآرامية الأم. ومنها اليوم لهجات متباينة فيما بينها تبايناً طفيفاً في النبرة والنطق وتوزيع الحروف الصوتية، وهي اللغة الطقسية الكنائسية – الى جانب العربية عموماً – للطوائف المسيحية الشرقية (الارثوذكس، اليعاقبة، السريان الكاثوليك، الكلدان، الموارنة، كنيسة الشرق الآشورية التي لاتستخدم اللغة العربية إطلاقاً). وهي لغة محلية أصلية عند غالبية مسيحيي العراق وانحاء من شرق سورية وعند مسيحيي ايران وتركيا. كانت السريانية التي خرجت من رحم الآرامية (كما خرجت اللغة الإيطالية من رحم اللاتينية) لغة الدبلوماسية والتجارة والعلم والفن في القرون السابقة للميلاد، وأثّرت تاثيراً كبيراً في تطور الثقافة العالمية – ومن ضمن ذلك تاثيرها الكبير في اللغة العربية كما سنرى.

وسادت إلاّ لأنها بقيت مستقرة متماسكة مقننة أكثر من أي لغة رسمية أخرى. ويقرون بأنها وبسبب من ذلك ساعدت كثيراً في نحت وفهم وتحسين كثير من التعابير والمصطلحات في العبرانية القديمة لاسيما عبرانية التوراة.

وقد وجد في جزيرة العرب أكثر من لغتين متداولتين على الألسن، يتخاطب باللغتين الغالبتين من ينخرط تحت وصف (عرب) و(عربي) وهما بقول المؤرخين العرب لغتا حِميَر ومُضر. أولاهما انتشرت على السن سكان سواحل الجزيرة الجنوبية وما يليها من أرض بعمق متفاوت، وثانيتهما اللغة التي سادت بقية انحاء الجزيرة، وهي لغة قريش التي نزلت بها آي القرآن. وقد زاد ياقوت تفصيلاً في هذا الباب، فقال:

"لم يسمح لأحد من سكان جزيرة العرب أن يُقال له عربي إلاّ لرجل أنطقه الله بلسانهم. فإنهم وأولادهم أهل ذلك اللسان دون سائر العرب، ألا ترى أن بني اسرائيل قد عمروا الحجاز فلم ينسبوا عرباً لأنهم لم ينطقوا فيها بلسان لم يكن مثلهم وبالخط. وفي البحرين المسند، وفي عمان منهم بمنزلة بني إسرائيل لم ينطقوا فيها بلسان لم يكن قبلهم وكانت بها عاد وثمود وجرهم والعماليق وطسم وجديس وبنو عبدالدار ومن أشد تقارب في النسب وموافقة في القرابة، وأشد تباعد في اللغات بنو إسماعيل وبنو إسرائيل أبوهم واحد وهؤلاء عرب، وهؤلاء عبر لأنهم لم ينطقوا بلغة العرب."

ويحصر الألسنة العربية الستة بأسمائها: وهي العربية، الزبور، الزقزقة، الحويل، الرشق، المبين، ويفصّل في هذا ويقول:

"والمسند كلام حمير، والزبور كلام بعض أهل اليمن وحضرموت، والرشق كلام عدن والجند، والحويل كلام مهرة، والزقزقة كلام الأشعرين، والمبين كلام معد ابن عدنان وهو الغالب عند العرب."(٣)

ولايسعنا وليس هناك من حجة نستند اليها أقوى من القرآن، إلاّ الإقرار بأن ما نقل الينا باعتباره من الشعر الجاهلي وهو تراث اللغة الوحيد تقريباً للفترة التي سبقت الرسالة المحمدية لم يكن كله منحولاً كما ذهب اليه بعض الباحثين المتأخرين ومنهم طه حسين. والعجب يزول

(٣) تبين من النقوش اليمانية التي يعود تاريخها الى القرن الثامن قبل الميلاد، إن اللغة العربية الجنوبية كانت أول لغة تنفصل عن المجموعة الجنوبية وتتميز فيها اللهجات السبئية والقتبانية والحضرموتية وأسماؤها مأخوذة من دول كانت تستخدمها.

في تفضيل نزول الرسالة بلغة مضر دون غيرها. إذ يظهر انها كانت اللهجة السائدة التي يفهمها سكان جزيرة العرب إطلاقاً. وأقف هنا خشية الإسترسال والإنتقال الى بحث لغوي تاريخي صرف بتتبع مراحل تطور اللغة وهو ما يخرج بي عن موضوع البحث، أعني المدى التي صلحت العربية له في إثبات الهوية القومية، والخدمات التي أسدتها للحركة القومية العربية الحديثة وكم أسهمت في دفع الريح الى شراع سفينة النهضة واليقظة القومية.

ما من شك في أن اللغة هي عنصر هام حيوي في تركيب الثقافة، ولخصوصيات اللغة وميزاتها دور كبير في التقدم الحضاري للشعوب المختلفة ألسنتها. فالعربية هي كغيرها من اللغات وسيلة لنقل الافكار بين أبناء الأمة الواحدة، كما هي وسيلة لنقل واستيراد الحضارات بين الأمم ولا يتم ذلك بالسماع فقط بل بالكتاب. وكغيرها كانت العربية سماعية عندما بدا للعلماء والآركيولوجيين بأن المحاولة الأولى لكتابة الكلام العربي كانت مرتبطة باستخدام حروف الهجاء الجنوبية(٤)، التي انتشرت نقوشها الحجرية على طول طريق التجارة التاريخي الذي يبدء باليمن وينتهي بدمشق ماراً عبر الحجاز وفلسطين وسورية. فقد كشف الآثاريون نقوشاً لحروف صماء لا أصوات فيها يعود تاريخها الى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وهي الكتابة العربية القديمة. وقد بدء استخدام حروف الهجاء الآرامية لها من قبل عرب الأنباط وتدمر في القرنين الثالث والرابع للميلاد ومنها اشتقت هيئة الكتابة التي غدت أساساً للخط العربي المتطور بفضل معاهد (الحيرة) الدراسية في دياراتها وكنائسها فقد كاد يكون شبه إجماع على أن هذه المدينة هي مصدر الحروف الأبجدية العربية أو على الأقل أهم مصدر لها.

واذا صدقنا ما كتبه العرب حول هذه المدينة(٥) في القرون الثلاثة التي سبقت الفتح العربي فإنها كانت مدينة نصرانية أهلها من أتباع كنيسة الشرق السريانية – النسطورية ويسميهم مؤرخو العرب بالعبّاد، أي بعبّاد عيسى ويختلفون في أصولهم العرقية. ويذكر بعضهم أنها كانت محل سكنى طوائف ثلاث: عرب الضاحية والأحلاف والعبّاد. أما عرب الضاحية فهم اصحاب المظال وبيوت الشعر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر وهم التنوخيون الأوائل الذين هاجروا من اليمن على قول (الطبري) وكانوا قد نزلوا بين الحيرة والأنبار.

والعبّاد وهم أول من سكن الحيرة وابتنوا بها على قول (إبن العبري) قوم من نصارى العرب

(٤) يذكر بهذه المناسبة نقش (نمارة) في جنوب دمشق، ويعود تاريخه الى العام ٣٢٨ الميلادي، قُرئت فيه مآثر (إمرؤ القيس اللخمي... ملك جميع العرب).

(٥) أطلالها تقع بين النجف والكوفة. وقد جرت فيها تنقيبات آركيولوجية حديثة.

ينتمون الى قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن غيرهم وبنوا بيوتاً (قصوراً على حد قوله) وإنهم سموا بالعبّاد تفريقاً عن العبيد، فالأول لا يُضاف إلاّ الى الخالق والثاني يُضاف الى المخلوق والخالق. أما الأحلاف فهم الذين لحقوا أهل الحيرة وليسوا من السابقين.

الى جانب هذه الطوائف الثلاثة كان يقيم فيها أيضاً جالية من (النبط) العراقيين وهم بقايا سكان العراق الأقدمين من الكلدانيين والآشوريين والآراميين والبابليين وكذلك جماعة من اليهود والفرس وهم سادة البلاد وقتذاك إذ كان الأكاسرة يبعثون بموظفيهم وممثليهم الى هناك ليشاركوا في الحكم زمن قيام ملوك الحيرة من آل نصر اللخميين. والعباديون الذين اشتهروا بمعرفة القراءة والكتابة هم الذين علّموا العرب كتابة لغتهم التي استقرت لها بحروفها وكيفية نطقها، كما ذكر لنا مؤرخو العرب.

وللبلاذري[٦] حكاية عن تعلم العرب الكتابة من نصارى الحيرة، وهو مؤرخ حجة لم يتوجه اليه أحد من المؤرخين العرب بنقد أو مخالفة. قال ما خلاصته:

"إن بشر بن عبدالملك الكندي صاحب دومة الجندل[٧] يأتي الحيرة فيقيم فيها لحين. فتعلم الخط العربي من أهلها وعنه تعلم الكتابة سفيان ابن امية ابن عبدشمس وأبو قيس بن عبدمناف بن زهرة."

وذكر(ياقوت) أن الصبيان في (النعتيرة) وهي ضاحية من ضواحي الحيرة كانوا يتعلمون الكتابة والقراءة في كنيسة هناك، وإن القائد خالد ابن الوليد وجدهم عند مسيرته الى الحيرة منطلقاً من عين التمر، ومنهم (حمران) مولى الخليفة عثمان ابن عفان.

ويُتفق بشبه إجماع على أن الخط الحيري هو أساس الخط العربي واقدم شكل له وهو بدوره مشتق من الخط الآرامي. ويوضح (البلاذري) نقلاً عن عباس ابن هشام بن محمد ابن الكلبي (ت٨١٩) قوله إنه كان يغشى كنائس الحيرة يستخرج من مدوناتها وسجلاتها أخبار العرب وأنساب قبائلهم التي نزلت غرب العراق الجنوبي[٨]. ويمضي في حكايته نقلاً عن ابن الكلبي ايضاً مفصلاً فيقول إن ثلاثة نفر من طيء اجتمعوا بـ(كبقة) وهي من ضواحي الحيرة (مرار ابن

(٦) أحمد ابن يحيى (ت ٨٩٢م) مؤرخ عربي بغدادي صاحب كتابي (فتوح البلدان) و(أنساب الأشراف). وكلاهما من المصادر المعتدة التي لم يوجه اليها مطعن في صحة الرواية.

(٧) في بادية الشام. متوسطة بين العراق والاردن على ارجح القول. (وعن ياقوت هي حصن بين المدينة ودمشق).

(٨) وأظهرهم بنو تنوخ الذين تنصروا وأقاموا جنوب سورية. أما أولئك الذين نزحوا الى جنوب لبنان فقد اعتنقوا الديانة الدروزية في تاريخ لاحق ولذا يرجعون أنسابهم الى ملوك لهم من آل نصر بالحيرة.

مرة وأسلم ابن سدرة وعامر ابن جدرة) فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية.

ومن المعروف أيضاً أن الخط العربي الشهير بالخط الكوفي[٩] إنما هو تطور يسير من الخط الحيري عرفه العرب في الحجاز عن طريق الحيرة قبل ظهور الإسلام بزمن قليل. وليعلم أيضاً أن الخط الحيري هو من آثار الخط السرياني السطرنجيلي.

كل هذا يؤكد شدة الإرتباط اللغوي بين أقوام وشعوب الجزيرة العربية وبين تلك التي سكنت الهلال الخصيب منذ أقدم الازمنة. وقد بقي الغرب لايدرك أواصر القربى التي تربط بين العرب وبين الآشوريين والبابليين والفينقيين والآراميين والكلدانيين والنبط والكنعانيين حتى قيام (راولنسن)[١٠] وغيره من العلماء بفك رموز الخط المسماري وقراءة نصوصها، فدرست العربية والسريانية والعبرية والآرامية والأمهرية والآشورية – البابلية دراسة مقارنة – وأذهلتهم النتائج، إذ وجدوا صلة حقيقية جوهرية فيما بينها لاتستطيع أن تفخر بمثلها وفيما بينها اللغات الأوروبية الحديثة[١١] الى حد ما.

كانت اللغة السبب الأكبر في الإستنتاج بأن أسلاف شعوب الشرق الأدنى هذه، من الآشوريين والكلدان والبابليين والعرب والفينقيين[١٢] والعبرانيين (اليهود) والاحباش والكنعانيين والعموريين وغيرهم، كانوا في زمن سحيق ما قبل التاريخ أمة واحدة من وطن واحد قبل انشعابهم الى أقوام وأمم.

ومن المفيد أن نذكر هنا بأنه كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يستخدمونها في الحياة اليومية، إلاّ أنهم استخدموا السريانية في مكاتباتهم شأنهم شأن النبط والتدمريين الذين تكلموا نوعاً من العربية وكتبوا السريانية، واليهود الذين تكلموا الآرامية وقرأوا

(٩) يستخدم الخط الكوفي في أيامنا بنطاق محدد لأغراض الزينة والنقش الحجري وأحياناً عناوين للكتب.

(١٠) العقيد سر هنري كرزويك راولنسن ١٨١٠–١٨٩٥م من أفذاذ مؤسسي علم الآشوريات. استطاع في اثناء إقامته بكرمانشاه ان ينقل كتابات (نقش بيستون) ببصمها على ورق مقوى وهي كتابة بالخط المسماري للغة الفارسية والبابلية، فوفق الى حل الرموز الاخيرة بمقارنتها بالفارسية القديمة. فكان كشفاً عالمياً خطيراً فتح باب دراسة حضارة الشرق الأدنى وتاريخه على مصراعيه.

(١١) ها نحن أولاء نجد جذر الأفعال في كل هذه اللغات يتألف من ثلاثة أحرف وأحياناً حرفين. وللزمان عندها صيغتان هما الماضي والمضارع. وتتشابه بينها تصاريف الأفعال، كما تتشابه أصول المفردات ومنها الضمائر والأسماء وأحرف العلة، ولاسيما الأسماء الدالة على القرابة الدموية (أب، أخ، اخت، ابن، أم) والأعداد، ويتشابه بعض أسماء اعضاء الجسم تشابها كاد يكون مطابقة تامة.

(١٢) استقر الباحثون على الرأي القائل بأن أصل الفينقيين من ساحل الخليج الغربي.

أسفارهم بالعبرية. وفي جنوب غرب الفرات قام المسيحيون بدور المعلمين للعرب الوثنيين في سائر أنحاء الجزيرة العربية[١٣].

وكما أن لفظ (العرب) بمعناه الواسع يشمل سكان الجزيرة على الاطلاق، وبمعناه الخاص يقصد به عرب الشمال الذين لم يكن لهم شأن في الأمور الدولية قبل الإسلام، فكذلك كانت اللغة العربية تدل بمعناها الواسع على لغة سبأ (حمير) ولغة الحجاز الشمالية. إلاّ أن الأخيرة عندما ثبتت لغة للإسلام والمسلمين، فأبادت لغات الجنوب – اصبحت هي اللغة العربية الفصحى بلا نزاع.

★★★

قل ما نجد بين الأمم أمة كالعرب في غرامها بالكلام الرشيق المؤنق في مجالس الخطابة والحفلات، الى جانب شغف بجمال اللغة مكتوبة أو مسموعة. وقد بدأت آدابها بالشعر الموزون المقفى. وبقي الشعر العربي منذ أول قصيدة وصلتنا حتى العقود الأخيرة من القرن الماضي يتقدم في الشهرة والإهتمام الاعمال الادبية الأخرى النثرية. ويلمع اسم الشاعر العربي بقصيدتين أو ثلاث بشكل لايحظى به الأديب بكتابين أو ثلاثة. ويأتي ذلك من الخصائص اللغوية وسهولة الحفظ في الذاكرة، فلموازين الشعر العربي إيقاع غنائي ولحني واضح المعالم يؤكد العلاقة الوثيقة بين الموسيقى وبين هذا النوع من الأدب، وهو ما انفردت به العربية عن سائر اللغات[١٤] كما يقول المستشرقون.

لدينا شاهد على مبلغ سمو مكانة الشاعر من فقرة نقلها السيوطي في كتابه (المزهر) في فلسفة اللغة[١٥] عن إبن رشيق:

"كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصفت

(١٣) يتحدث الجغرافي الكبير ابن رسته في (الاعلاق النفيسة) ومثله إبن قتيبة في (المعارف) عن ذلك بقولهما، إن قريشاً إنما اخذت الكتابة من الحيرة مثلما اخذت الزندقة (كلمة زنديق هي تصحيف من الكلمة الفارسية زنديك أي عابد النار).

(١٤) عن Keilinschritliche Bibliothek, II, pp 243: كشفت كتابة لآشور بانيبال (القرن السابع ق.م) عن أن الأسرى والعمال العرب الذين كانوا يكدحون لسادتهم الآشوريين فيمضون ساعات العمل في غناء (أليلي) و(شرو) على ايقاع موسيقي (ننكوتي) فيطرب لها السامعون الآشوريون ويطلبون المزيد منها. وقد أقام الأستاذ ستيفن لانكدون S. Langdon العالم الآثاري الثقة في الاشوريات ان كلمة (شرو) بمعنى المرتل عند الآشوريين قد يقفى اثرها في كلمة (شاعر) عند العرب والغناء الآشوري هو (شيرو) و(شعر) العربية معناها معرفة الأشعار. و(أليلي) يمكن ربطها بكلمة (موال) العربية.

(١٥) ابو علي الحسن القيرواني (٩٩٥–١٠٦٤م) العمدة في صناعة الشعر ونقده.

الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزامر كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرجال والولدان. لأنه حماية لأعراضهم وذب عما أصابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكراهم."

وانك لترى الشاعر والخطيب اللسن الآن يقوم في الحفل منشداً أو متكلماً فيثير ويستفز ويرتفع بالنفوس الى أعلى درجة من الانفعال والحماسة، رغم أن كثيراً من السامعين البسطاء الذين لم يحصلوا على قدر كاف من العلم باللغة وفنونها – لايفهمون بعض ما يسمعونه أو معظمه فيصفقون ويهتفون بمناسبة أو غير مناسبة تشجيعاً، ويستعيدون وتأخذهم في ذلك النشوة التي تشيعها في نفوسهم فخامة اللفظ والنطق بالمخارج الواضحة التي يزيد في وقعها حروف هجاء مخصوصة، ايقاعية يندر أن تجدها في لغة أخرى.

يقول الجاحظ قالت العرب: «إن الكلمة وقعت على ثلاث، عقل الافرنج وأيدي أهل الصين ولسان العرب»[١٦]، والقصد هنا الفصاحة التي ألمعنا اليها – أي المقدرة على الكلام والإجادة. وبسبب هذا الاعتزاز العظيم بلغ علم الفيلولوجيا عند العرب أعلى درجة من الكمال لم تبلغ شأوه أي لغة أخرى لأي قوم.

ثم نزل القرآن بلسان مضر فجمع ما في اللغة من بيان رائع وما في العقلية العربية من الذكاء والخيال والخلج النفسي، ولذا كان إعجاز القرآن اقوى حجة يتمسك بها المسلمون في دفاعهم عن صحة الدين والكتاب، ولا ريب في أن انتصار الإسلام كان يعني انتصاراً للغة العرب لايضاهيه انتصار مماثل آخر في تاريخ تطور اللغات على مدى علمنا. وفي ذهننا من اللغات القديمة: اليونانية واللاتينية، واللغة اليونانية القديمة (الكلاسيّة) وقد كاد معظم آثار فلاسفتها يضيع لولا العربية التي قامت على إحيائه وقدمته للفكر الحديث.

ولقد اشرت سابقاً الى الخصائص التي تمتاز بها هذه اللغة إشارة عابرة والآثار التي خلفتها في اللغات الحية ولاسيما اللغات الآرية بعد إنتقالها من لغة سماع الى لغة كتابة وبعد نزول القرآن. ولي هنا أن أفصّل قليلاً:

بتمادي الزمن تقاربت لهجات القبائل وتقدمت الجميع لهجة القبيلة التي نبع منها الرسول العربي وهي قريش بلا نزاع. القريشيون كانوا تجاراً محترفين يتعاملون مع الخارج. تعاملوا مع اليونان ثم الرومان وبعدهم تعاملوا مع الفرس والبيزنطيين. والتجارة تفترض استخدام أسلوب المراسلة وكتابة الصكوك وتنظيم القوائم، كل ذلك كان سبباً من أسباب تطور الكتابة العربية

(١٦) (الرسائل).

ولا أدلّ على ذلك من أثر تاريخي طريف يذكرنا بذلك العهد الذي كان التجار القريشيون يكتبون رسائلهم العربية بالخط السرياني المنفصل. وقد بقي هذا الأسلوب حياً حتى يومنا هذا في بعض الكتب الطقسية المسيحية، وهو ما يعرف بـ(الگرشوني) أي كتابة العربية بأحرف الهجاء السريانية. فكلمة (گرشوني) التي لاتجد لها أصلاً بالسريانية إنما هي تصحيف لكلمة قريشي (كريشي).

التطور الذي حصل للعربية كان سريعاً ومدهشاً، فمن خصوصياتها التي لم تشاركها لغة أخرى قبلها - ثم اقتبستها منها اللغات الأخرى فيما بعد - هو أسلوب مزج الحروف وربطها بعضها ببعض (وقد أخذته اللغات الأوروبية عن العربية في القرن العاشر عن طريق الأندلس) وكذلك التفنن في الكتابة وتزيين الأحرف وتجويد الخط والبلوغ فيه مرتبة فن قائم بذاته. فالموسوعات العربية وكتب السيرة الكبيرة التي وصلتنا انفردت عن نظائرها في موسوعات البلاد الأخرى بذكر الخطاطين البارزين في أعداد مشاهير أهل العلم والأدب والفن.

واللغة العربية يعود لها الفضل العالمي الباقي وهو تعليم المدنية الحديثة استعمال (الصفر 0) في الحساب وإختراع الارقام العددية[١٧]، التي يستخدمها معظم الدول الآن عدا العرب والدول الناطقة بالعربية! وهي غير الأبجدية الكلاسيّة العربية. فاستغنى الغرب عن الأرقم اللاتينية، وحقق بهاتين الاستعارتين تقدمه العظيم في مختلف فروع الرياضيات وسائر العلوم. بل وأكثر من هذا، فأثرها في اللغات الحية الحديثة باق لا تقوى اية محاولة على إزالته - بدليل استعارتها وبإسراف أحياناً ثروة تلك اللغة الوصفية ومفرداتها الرائعة وحصيلة

(١٧) معظم الدول العربية يستخدم الأرقام الهندية في الواقع. وقد بدأت في خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، العودة الى استخدام الأرقام العربية الاصلية (الارقام التي نعرفها اليوم بالأوروبية). في المبدأ وجد العرب أن الأقباط في مصر يستعملون نظام الترقيم بأبجدية لغتهم بينما يستعمل السوريون (الآراميون) الأبجدية اليونانية للغرض نفسه، فقلدوهم ووضعوا لكل حرف من الالفباء العربية (أبجد هوز...الخ) رقماً خاصاً به وهو الجدول المعروف بالأبجدي الذي استخدمه الشعراء والناظمون لنظم تواريخ المناسبات شعراً، أما الأرقام العربية - الدولية الحالية، فقد عُرفت بالارقام الغبارية التي انتقلت الى الغرب من الاندلس وعُرفت هناك بالأرقام العربية، وحلت تدريجاً محل الأرقام اللاتينية التي اقتصرت على الزخرفة، والأرقام العربية المستحدثة والمستخدمة في أوروبا وسائر أنحاء العالم بنيت أساساً على تلاقي الفواصل التي تحدث الزوايا مثلاً (1.2.3.8.5: ١، ٢، ٣، ٨، ٥) على التوالي. واتخذ العرب الصفر الهندي على شكل نقطة (٠) في حين كان عند الهند على شكل دائرة (٥) فلم يأخذوا بها خشية حصول التباس بينها وبين رقم (٥) الا أن الدائرة التي ترمز الى الصفر دخلت الاندلس في القرن الثامن واستخدمت بمثابة الصفر. فانتشر استعماله بهيئته الحالية (٠). ولقد شرحت ذلك شرحاً وافياً في كتابي (تراث الإسلام) والصادر في ١٩٥٣ وتجده في الصفحة ٥٩٣-٥٩٤ من الطبعة الرابعة له (دار الطليعة - بيروت).

اكتشافات علمائها في العلوم كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء[١٨].

فضل هذه اللغة على التقدم الحضاري البشري أكثر بكثير مما يمكن إجماله في بحث طاريء كبحثنا هذا، وما أردت الخوض فيه إلاّ لأبرر بعض تبرير تقديم القوميين للغة كعامل من عوامل إثبات القومية ولتعليل شدة إعتزاز الناطقين بها وفخرهم.

لا غرابة في إعتزاز أي شعب بلسانه مهما صغر حجمه وشأنه ولكل لغة ما تمتاز به، ميزة قد تفتقد في غيرها، إلاّ أن هناك أموراً معينة انفردت بها لغة العرب وامتازت لتحقق لها ولأهلها انتصار البقاء والمقدرة على استيعاب ما استحدثه التقدم البشري في القرنين التاسع عشر والعشرين، رغم الوهن العظيم الذي انتابها وانتاب الناطقين بها خلال تلك القرون التي عرفناها بالقرون المظلمة.

اني أقصد بهذا مرونتها وظاهرة الاشتقاق العجيبة فيها، فمن مصادرها الخالصة كان من ايسر الأمور ابتداع ونحت تعابير جديدة، واستخلاص مصطلحات في غاية الدقة وفقاً لمتطلبات العلوم والفنون القديمة والمستحدثة.

يقول البيروني[١٩]:

"الى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم وحلت في الافئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها."

(١٨) لايعرف علماء اللغات واصولها عن اية لغة أخرى سبقت العربية في تصنيف معجم (قاموس) لها كما يوصف بالمعنى الحديث. فمعجم (الخليل) المسمى (بالعين) ألفه صاحبه في منتصف القرن الثامن الميلادي على الأرجح، إن لم يكن قبله بسنوات. ويكاد نصف المعجم الأسباني والفارسي الحديث يتألف من كلمات عربية. فهناك اكثر من ألفي كلمة عربية أو ذات اصل عربي في المعجم الاسباني الحديث إنتقل كثير منها الى اللغات الأوروبية الحديثة (الفرنسية، الانكليزية، الالمانية...). وتركيا الكمالية التي حاول مجددوها باندفاع حماسي من تعصبهم القومي للغتهم (تنقية) معجم لغتهم من الكلمات العربية (الدخيلة) كما وصفوها فما أفلحوا قط، فهناك كثير من الأوصاف والمفردات العربية لا تجد لها مشابهاً في لغتهم الاصلية. كذلك كان تأثيرها في اللغة الأوردية (الشائعة في باكستان وهم كذلك يكتبون بالخط العربي كالفرس والأفغان)، وتدين اللغة العبرية الحديثة الى العربية بقواعد الصرف والنحو. فقد نشط علماؤها منذ القرن العاشر على إحياء لغتهم، التي كادت تندثر، باستعارتهم قواعد التصريف والنحو العربيين، وحققوا بذلك تجديد لغتهم العبرية التي هي لغة دولة اسرائيل الرسمية.

(١٩) (الآثار الباقية من القرون الخالية) ٩٧٣-١٠٤٨م. ولد الريحان محمد في بيرون من اعمال خوارزم، وهو عالم كبير ألف في الرياضيات والفلك والطب والتاريخ وعلوم الهند واليونان. ولكتابه هذا ترجمات إنكليزية دقيقة وترجمة فرنسية، إبتكر في علم الفيزياء طريقة لتحديد الوزن النوعي لثمانية عشر معدناً وحجراً كريماً تحديداً دقيقا قبل إكتشاف الطريقة الحديثة بعدة قرون.

وأرى البيروني هنا يكتب وفي ذهنه تلك المرحلة التاريخية الرائعة التي سجلها للغة العربية العالم الكبير (حنين ابن اسحق العبادي الحيري) وتلامذته. فإليه يعود الفضل في نقل اللغة العربية من لغة شعر وأدب الى لغة علم وسعت كل ما خلفه علماء السريان واليونان والفرس من علوم. حقق (حنين)[٢٠] هذا الانتصار العظيم بفضل مرونة اللغة الاشتقاقية وجرأته على انتقاء التراجم القديمة وأسلوب المقارنة ورفض الترجمة الحرفية، وبذلك ابتدع اسلوباً في الكتابة العربية سار عليه تلاميذه من بعده. وقد اثارت تراجمه اعجاب أهل العلم والثقافة في ذلك الحين من امثال محمد ابن موسى ابن شاكر، وثابت ابن مرة الصابئي ويوحنا بن ماسويه وجبرائيل ابن بختشوع إمام اطباء زمانه.

ما الذي نقصده بالإشتقاق، ذلك السر العظيم الذي إنفردت به العربية عن سائر لغات العالم المتداولة اليوم؟

نبدء فنقول أن أهم ما يميز اللغات السامية، هو فعلها المجرد عن أحرف الزيادة، وهو فعل لايزيد عدد حروفه عن الثلاثة إلاّ ما شذّ وهو قليل نادر لا يستحق ذكراً. وهذا ما أدى الى بعد اللغة العربية المطلق عن الكلمات المركبة تركيباً مزجياً للدلالة على أفكار أكثر تعقيداً، فما كان من أعجب العجائب أن تستوعب لغة كهذه كل العلوم والفنون التي خلفتها الأقوام الأخرى بدءً من الهند والصين وانتهاءً باليونان وايطاليا، دون أن يجد الكتاب والمترجمون صعوبة أو يتكلفوا جهداً في نقلها؟ السر هو مقدرتها الفائقة في التعبير عن العلاقات وشؤون الحياة بإيجاز يفوق مقدرة اللغات الآرية بمراحل، وهذا بشهادة من المستشرقين وعلماء اللغة الثقاة.

فخاطرة أو جذر (عمل) مثلاً يأتي منها الفعل عمل، وعامل وتعامل واعتمل واستعمل وتعمّل مع مصادرها وأسمائها، وتلحق بها إسم: العمل والعميل والعمالة واعمال وعمولة

(٢٠) هو تصغير لاسم (حنا) أو (حنانيا) ٨٠٩–٨٧٣م: من نصارى الحيرة رئيس اطباء بغداد والامبراطورية أيام الخليفة المتوكل، من "رسالته" المطبوعة مؤخراً علمنا بأنه ترجم الى العربية جميع آثار (گالينُس) الطبية التي استوعبت (٣٩) كتاباً، ونقّح تراجم لكل آثار هيبوقريطس (أبقراط) وترجم كتاب المترادفات لأورِيباسيوس، والكتب السبعة لبولس الاجنيطس. وكتاب (المادة الطبية) لديسقوريدس (٦٠م) وكثيراً من آثار ارسطو. وترجم التوراة من اليونانية، الى جانب مخطوطات عربية محفوظة في مكتبات عواصم عديدة كإسطنبول ولندن وپاريس ومدريد. أما مؤلفاته فهي كثيرة يزيد عددها عما ترجمه، وكتابه (عشر مقالات في العين) الذي نشره المستشرق الألماني الدكتور ماكس مايرهوف في الثلاثينيات فيُعد بشهادته وشهادة الباحثين اقدم كتاب مدرسي منتظم عرفه البشر في أمراض العين. والمخطوطات التي خلفها (حنين) هي مزيج من عبقرية هذا الطبيب والعالم ومقدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم، فهو أسلوب سهل المتناول خال من التعقيد اذا ما قورن بأصله اليوناني مع دقة في التعبير وخلو من الركاكة والحشو.

وعملية وعملي وما الى ذلك من الاشتقاقات ذوات المعاني المتباعدة التي تفقد أصلها في المعنى وتحتفظ بالأحرف الاصلية للجذر[٢١].

ليس القصد من هذه الإلمامة بميزات لغة العرب إبراز محاسنها وأفضليتها على اللغات الأخرى، بل كان الهدف مناقشة المدى الذي يبلغ بها القوميون العرب ليقدمها بعض القوميين ولاسيما دعاة الوحدة العربية منهم على جميع عوامل اثبات الهوية القومية الأخرى، وليرفعها بعضهم الى مرتبة العامل الأوحد والأول والاخير في اثبات الهوية العربية.

اللغة العربية هي لغة عالمية قبل أن تغدو الفرنسية ثم الانگليزية (لغة التفاهم الدولية Lingua Franca) والمنزلة التي تبوأتها لم تحلم بتبوئها اليونانية والسريانية واللاتينية في أوج عز هذه اللغات الثلاث كلاً بدوره. فقد بقيت تحتل هذه المكانة زهاء خمسة قرون وعندما عادت في أيامنا هذه لتتبوأ مكانها بين اللغات الرسمية في المحافل الدولية، بدت مستعدة أتم استعداد لذلك لسعة حجم الساحة التي يحتلها الناطقون بها والمستفيدون منها فوق ظهر البسيطة باعتبارها لغة الدين والعقيدة[٢٢] التي يدين بها قرابة تسعمائة مليون إنسان.

(٢١) باتخاذنا الانگليزية للمقارنة: فلفظة (عمل) تقابلها لفظتا work, act: وإليك الآن ترجمة الألفاظ العربية التي وردت في المتن لتجد كم هي بعيدة عن الأصل: عمل Work, Act عامل to treat تعامل to do treat-ments و to deal إعتمل to irritate و to rankle إستعمل to use العامل labourer وworker وfactor وagnet والعميل custmer وagent والعُملة: currency والعملة: هرذهيثرف m evil doing وأعمال: bussiness وعمولة: commission وعملية operation وعملي practical ومعمل factory أو workshop. وليلاحظ أن معظم الإشتقاقات الواردة هنا حديثة استنبطها الكتاب العرب دون ان يتكلفوا أي جهد أو يحتاجوا الى نقل الكلمة الاجنبية الحديثة لها كما هي أو لاتعرف لبعضها معان في القواميس العربية القديمة كالمعاني والمدلولات التي تستخدم لها وترى أيضاً إن التغيير العظيم يتم بإضافة حرف أو حرفين أو ثلاثة من حروف الهجاء الى الكلمة من أحرف مخصوصة عشرة (س.د.ل.ت.م.و.ن.ي.هـ.أ) صماء مع استخدام علامات الصوت القصيرة (الفتحة أو الكسرة أو الضمة وتضعيفها) لتجد عند كل تغيير على الجذور الألف التي تتألف منها اللغة – كلمة جديدة ذات معنى جديد وكل ذلك يتسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه شكلاً ليخلف في الأذن إيقاعاً طبيعياً لاتخطئه. عندما ينطق الانگليز أو الفرنسيون أو الاسبان بفكرة مجردة، فإنهم لايفكرون قط بالمعنى الأصلي للكلمة التي نطقوا بها. خذ مثلا كلمة adgecent فهي تبدو منقطعة الصلة بكلمة (Jaçere) اللاتينية وتلفظ (ياجيري). فالإنگليز لايملكون هذه اللفظة ولا لفظة ad في حين أن أصل الكلمة العربية كما رأيت من الأمثلة السابقة لايبقى مبهماً على الإطلاق عند تجريد الكلمة الجديدة من أحرف الزيادة فالأصل باق.

(٢٢) نصت المادة ١٦ من القانون الاساسي (الدستور) الصادر في ١٩٨٠ لجمهورية ايران الاسلامية على هذا: بما ان لغة القرآن والعلوم والمعارف الاسلامية هي اللغة العربية، وبما ان الآداب الفارسية ممتزجة بها امتزاجاً كاملاً، لذا وجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية في جميع الصفوف والفروع الدراسية.

والواقع هو أن لغة العرب كانت عند طلوع فجر اليقظة القومية في البلاد الناطقة بالعربية، الوسيلة الفعالة لنقل وشحذ العواطف والآمال في التحرر والنهضة بفعل شعرائها وكتابها وخطبائها وصحفييها الذين أحسنوا استخدامها وإخراجها حية فاعلة من أقبية القرون المظلمة وسراديبها. في اللغات الأخرى تعد المحسنات البديعية والبيانية وترديد الجمل الرنانة المفخمة في المعنى الواحد لغواً لا قيمة له ومضيعة للوقت، لكن ذلك يعتبر بلاغة غريزية عند الناطق بالعربية. وقد رأينا أن الايمان بسمو اللغة العربية المطلق هو من الدين عند المسلمين كافة، فما بالك بالعرب الأصلاء أو بمدعي العروبة؟ وعلى أساس من هذا فإن امتلاك ناصية البيان في الدوائر المثقفة هو السمة التي تميز الرجل المهذب. ويعاب على الكاتب الأديب والصحافي خطأ ارتكبه في قواعد الصرف والنحو وإنك لتجد في الاسواق أكثر من كتاب عمل خصيصاً لتنبيه هؤلاء الى الاخطاء الشائعة عندهم وضرورة اجتنابها. مع هذا كله فمن نافلة القول بأن لغة جزيرة العرب الفصيحة لانجدها إلاّ عند ادباء وشعراء ما قبل الإسلام وما بعده بقليل، وقد أورد مؤرخو العرب الأوائل وكتابهم حكايات تشوبها السخرية والفكاهة عن خلفاء وزعماء عرب عجزوا عن تفهيم غرضهم لعرب أقحاح قادمين من الجزيرة[٢٣].

ولم تكن اللهجات العامية وهي كما ذكرنا[٢٤] لهجات متباعدة عاملاً مثبطاً للمحاولات الناجحة المستميتة التي تبذل اليوم، كما كانت من قبل لإتقان اللغة وتعابيرها[٢٥] لاسيما

(٢٣) ومنها حكاية ذلك الخليفة الأموي مع قادم من الجزيرة: سأله عن ابنة له: فقال زوجتها، فسأله الخليفة (ومن ختنَك؟ (بفتح النون). فأجابه بأنه لايتذكر الذي ختنه لأنه كان صغيرا فقال الخليفة لا أسألك عن هذا وانما سألتك عمن يكون زوج ابنتك قال الأعرابي اعز الله امير المؤمنين هلا قلت من ختنُك؟ (بضم النون).

(٢٤) على سبيل الفضول والمماحكة سألت مرة (أحد الكتاب البلغاء الايرانيين لماذا لايعمدون الى التخلص من الالفاظ العربية الدخيلة كما فعل الاتراك الكماليون؟
فهتف مستنكراً كمن يحكم على الفارسية بالموت. أترى مع كل المجهود المستميت الذي حاوله مصطفى كمال استطاعوا الخلاص من المفردات العربية؟ نظرة عابرة واحدة الى قواميسهم تثبت لك استحالة ذلك).

(٢٥) منها تلك المحاولات التي تبذل في بلاد المغرب والجزائر وتونس لفك الطوق اللغوي الفرنسي عن الألسن. مثال قريب جداً ما نشرته جريدة (الحياة) في العدد ١١٥٠٩ الموافق ليوم ٢٢ من آب ١٩٩٤ وهذا نصه:
«دعا الملك الحسن الثاني الى تدريس اللهجات المحلية في مراحل التعليم الأولى وأكد في خطاب وجهه الى الشعب... أن درس اللهجات المحلية ويقصد بها اللغة التي يستخدمها سكان المغرب (البربر) مثل اللغات الأمازيغية والريفية والسوسية نسبة الى مناطق التوزيع الجغرافي للبلاد، يساعد في المحافظة على مقومات المغرب وخصوصياته. وتذهب مصادر مهتمة الى إضفاء بعد سياسي على القرار.
وقد برزت دعوات الى التعاطي مع اللهجات المحلية من خلال درسها في الكليات والجامعات ضمن خطة للمحافظة على مقومات التنوع العرقي في البلاد وخصوصياته. ويستطيع أي مراقب أن يرصد الآن وجود مجلات وصحف عدة مكتوبة بالأمازيغية. يتشكل البرابرة من قبائل عدة لاتستخدم لغة موحدة، لكنها =

الحرص على البيان القرآني المشرق وعدم الإخلال بمبادئه، فقد كان أول كتاب عربي نثري موحد النص ما فيه ريب.

كان العرب كما ذكرنا نسبة ضئيلة جداً بالقياس الى البلاد التي خضعت لحكمهم، ومع أن المبادرة والثقة بالنفس وبالكتاب المنزل وحكم التغلب فرض اللغة رسمياً، إلاّ أن العامل الأعظم لانتشارها وتطورها السريع يرجع في نظرنا الى مقدرتها الذاتية وميزاتها تلك التي اشرنا اليها، فقد حقق لها في فترة قصيرة جداً نصراً على كل اللغات السائدة. ولم تتمكن هذه من الصمود أمام العربية في مجال المقارنة برصيد الكلمات وتعدد الصفات على الحالة الواحدة، ويتضح ذلك من سعة وغزارة أي قاموس عربي.

لم يكن اعتزاز القوم بلغتهم والحالة هذه مجرد حمية قومية، فقد شاركهم هذا الحرص والاعتزاز جمهرة من اللغويين وعلماء النحو الأجانب تفوق أمثالهم من العرب. هؤلاء أتقنوا اللغة وبرعوا فيها فكتبوا وخلفوا آثاراً جليلة ضخمة، فقدموا للعرب خدمة لايمحوها كرور الأيام.

والتغلب الأجنبي على البلاد الناطقة بالعربية لم يقو على إضعاف سيادة العربية بل كان عاملاً غير مباشر على تقويتها وانتشارها. فخلافاً لإستعارة ألفبائها والهجوم الكاسح على تعابيرها ومصطلحاتها، بقيت عند معظمهم لغة المراسلة الرسمية بين الزعماء والملوك المحليين (ملوك الطوائف) وكذلك بينهم وبين حكومات الآخرين في أوروبا. لكنها لم تجعلهم عرباً. مع ذلك كله، فقد كانت هناك أبداً حوافز سيكولوجية عميقة تدعو العربي المتعلم الواعي سياسياً الى الفخر بلغته الأم، رغم ما جرّها اليه القوميون العرب وجنوا عليها بأدبياتهم ومنطقهم ونقلهم إليها الضحل من الأفكار. اليقظة القومية الداعية الى التحرر والسيادة الوطنية، أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده، لقد برهنت في هذه المرحلة بالذات على مقدرة فذة لا في استيعاب الادب الأوروبي الكلاسي منه والحديث، بل لإقتبال آخر حصيلة الافكار الغربية في علوم السياسة والاجتماع والإقتصاد وغيرها من العلوم التجريدية.

النشاط اللغوي تزامن مع بوادر اليقظة القومية وفعالية التحرر الفكري والسياسي، وفي

= تتداول بلهجات محلية، كالريفية في الشمال والأمازيغية في جبال أطلس وسط البلاد والسوسية في الجنوب إضافة الى اللهجة (الحسانية) التي يتحدث بها سكان المحافظات الصحراوية وهي تختلف عن اللهجات الأخرى».
يبلغ عدد نفوس البربر المنتشرين على طول الشمال الأفريقي أكثر من ١٨ مليون نسمة ابتداءً من مصر حتى مراكش.

سورية تم المخاض وكان التنسيق العظيم بين الظاهرتين، فها هنا يرى تعاون اليد الأجنبية مع رواد الحركة التحررية. فهؤلاء الرواد وغالبيّتهم الغالبة من المسيحيين المتحمسين أوجدوا أولى الصحف والمجلات العربية، ونظموا طلائع الجمعيات الثقافية وأسسوا أحدث المدارس وطبعوا أفضل الكتب وأحدثها وأحيوا التراث الأدبي والعلمي العربي التليد. ولأنتقل هنا، وهو ما لا سبيل لي الى اغفاله وفي الاعادة إفادة، لأقدم عرضاً تاريخياً موجزاً لهذه المعجزة.

وجد فجر القرن التاسع عشر سورية كجاراتها غارقة في ظلام القرون المظلمة، هذه العتمة مع إنها انزاحت في فترة أمدها عشر سنين من الانفتاح والتسامح والنور الذي أتاحه لها الاحتلال المصري والمنتهي بالعام ١٨٤١م، فقد عاد مرة أخرى ليخيم بظله الأسحم.

كانت مصر في عهد محمد علي الكبير أولى البلاد الناطقة بالعربية التي حققت روابط ثقافية مع أوروبا الغربية. ولم يكن عمل الترك العثمانيين قاصراً على قطعٍ مقصود لأنفسهم ورعاياهم عن أي تماس ثقافي وفكري مع الغرب، فأدى ذلك الى حرمان البلاد الناطقة بالعربية من فرصة ثمينة في وقت حرج، عندما كانت أوروبا تمر خفافاً بمرحلة التنوّر التي سادت القرن الثامن عشر، ثم عندما أصبحت لتخوض غمار الثورة الصناعية. وأصر الترك العثمانيون على أن لاينضموا الى قافلة التقدم الأوروبية ومنعوا إنضمام الآخرين اليها.

ان التكنولوجيا المتقدمة الوحيدة التي سمح الأتراك لها باختراق ستارهم الحديدي هي التكنولوجيا العسكرية، وليس في هذا فائدة للعرب ولا للبلاد الناطقة بالعربية.

إذن كانت سورية[٢٦] في مفتتح القرن التاسع عشر تعيش حياة القرون الوسيطة في كل جانب منها: (المجتمع، الأسرة، التعليم) وهذا الأخير كاد كله يكون احتكاراً لرجال الدين، ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم من المحافظين المتزمتين، والمهن والحرف كانت عائلية يتوارثها الابن عن الأب. والزراعة بدائية والعلم بالمفهوم الحديث لا وجود له اطلاقاً. والطب يعتمد على الحلاقين وآثار إبن سينا والأنطاكي الطبية[٢٧].

إلاّ أن هذه الصورة تغيرت بشكل روائي سريع. ونقطة التحول ربما أمكن تحديدها بالعقد الأول من متنصّف القرن التاسع عشر، عقب الحرب الأهلية في لبنان التي امتدت نيرانها لتلفح وجه دمشق، فإذاك هرع الأوروبيون، بعضهم مشبع بروح الإنسانية وبعضهم لتثبيت مصالح

(٢٦) المقصود بسورية هنا الجزء الشمالي الغربي من بلاد الشرق الأدنى وهي سورية ولبنان وفلسطين وإسرائيل والأردن.

(٢٧) هو داود الانطاكي (ت ١٥٩٩) صاحب كتاب التذكرة الطبية الذي الفه في القاهرة وهو مجموعة من الوصفات الطبية القديمة البلدية.

تجارية، لمساعدة المنكوبين في المنطقة. وقد قصد ببعض من هذه المساعدة معالجة سريعة للوضع، إلاّ أن بعضها كان ذا قيمة لاتُقدر وقد آتت ثمارها حقاً.

التدخل العسكري الفرنسي في لبنان تمخض بمنح لون من الحكم الذاتي للجبل يقوم على رأس إداراته متصرف (محافظ) مسيحي، وبرعاية الدول الأوروبية والولايات المتحدة صارت هذه البقعة البؤرة الرئيسة لتسرب النفوذ الثقافي وانعكاسه على المناطق المجاورة، وتزامن هذا مع حدث دولي آخر ذي طابع مختلف، واقصد به افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩م للنقل العالمي، وقد كان هذا بدوره عاملاً في انهاء العزلة البدنية والفكرية وراح يمسح تدريجياً عن وجه البلاد الناطقة بالعربية أوضار الجمود والتحجر ليعيد بعض دورها التقليدي كحلقة وصل للقارات الثلاث.

وفي لبنان الجديد هذا الذي اقتبل أول تنظيم سياسي رفع بنتيجته الى حد ما يد العثمانيين الثقيلة، كان بوسع الوكالات التبشيرية والجمعيات الثقافية أن تنشط في جو من الحرية لا مثيل له في أي بقعة أخرى من الإمبراطورية العثمانية.

ولم تكن تلكم الولايات والجمعيات وأخصها الكاثوليكية منها - بحاجة الى دعوة، فبعضها كان موجوداً منذ عهد حكم الأمير (فخرالدين المعني ١٥٧٢-١٦٣٥م). فرهبانية (الكبوشيين) مثلاً كان لديها مراكزها قبل القرن التاسع عشر في أنطاكية ودمشق وبيروت وحلب وغيرها. وكانوا قد فتحوا أول مدرسة لتعليم الصبيان في دمشق العام ١٧٧٥م. وهي أقدم وأول مدرسة حديثة لا في هذه المدينة وحدها بل ربما في سائر العالم الناطق بالعربية. ثم عقبتها مدارس مماثلة في سائر المدن السورية، بل إمتدت الى عدد من القرى اللبنانية. وبقيت بإشراف المسيحيين وإداراتهم. ولم يبطء البروتستانت في اللحاق بالركب، فقد قدمت إرسالية (كايزر سفرت) الالمانية بعد حرب ١٨٦٠م الأهلية مباشرة وانشأت مركزاً لتعليم وتدريب أيتام الحرب في مدينة صيدا. وبعدها نقلته الى بيروت ملحقة به معهداً للتمريض وآخر للتعليم العالي وفي السنة عينها اقتحمت الميدان بعثة تبشيرية بريطانية فأُسست مدارس للصبيان والصبايا في كل من دمشق وبيروت وبعلبك ومدن أخرى، منها الكلية الشهيرة لتدريب البنات وتعليمهن.

وجاء الأمريكيون بأساتذتهم ومربيهم واموالهم وتوجوا جهودهم الثقافية بتأسيس (كلية سورية البروتستانتية) في العام ١٨٦٦م، ذلك المركز الثقافي العظيم الذي يعرف اليوم باسم (جامعة بيروت الاميريكية) الذي تخرج فيه كثير من مشاهير دعاة القومية العربية. فما كان

من الفرنسيين إلاّ وأقدموا في العام ١٨٧٤م على إنشاء جامعة مماثلة تعرف اليوم بـ(جامعة القديس يوسف) وكلاهما اقدم جامعتين علمانيتين عصريتين في البلاد الناطقة بالعربية والشرق الأوسط. وقد تزودت منهما خلال نصف قرن من الزمن بمعظم أطبائه وصيادلته وأدبائه وعلمائه، فضلاً عن عدد كبير من رجال الفكر والسياسة برز منهم قادة قوميون ووطنيون ولمعت أسماء بعضهم في عالم الفكر والعلم والأدب. من خلال هذين المعهدين العلميين العالميين ولجت سورية باباً الى فترة جديدة من التقدم بهؤلاء الخريجين المتحمسين الطَلَعة، وقد نوهنا بذلك في سياق الفصل الأول.

هؤلاء الخريجون أسسوا أولى الصحف واصدروا أولى المجلات العربية ونظموا أولى الجمعيات الثقافية وفتحوا احدث المدارس وطبعوا افضل الكتب ونشروا ابدع ما خلفه الفكر العربي من تراث علمي وادبي وقدموا لقراء العربية بترجماتهم خير ما أبدعه الفكر الغربي من العلوم والأدب والفنون.

وأقدم الاميريكيون وهم في سبيل تطبيق مناهجهم التعليمية على تأسيس أول واكمل مطبعة عربية في ١٨٣٤م، وبعدها بتسع عشرة سنة أسس (الجزويت) وفي بيروت أيضاً مطبعتهم الشهيرة المعروفة اليوم بالمطبعة الكاثوليكية مع مسبك واجهزة كاملة لسبك تلك الحروف العربية الجميلة التي هندستها ورسمتها يد العلامة والأديب الكبير (الشيخ ابراهيم اليازجي).

وقد اصبحت أنموذجاً وأساساً لسبك جميع الأحرف التي تستخدمها المطابع العربية العصرية، وكل المطابع التي تستخدم الالفباء العربية من إيران حتى ماليزيا. إن المرء ليقف حائراً ذاهلاً وهو يتأمل قائمة الكتب التي أصدرتها تلك المطبعة خلال قرن ونصف قرن. كانت مصدراً لايُثمن للفكر العربي الحديث، فقد أحيت جانباً هاماً من التراث الأدبي والعلمي العربي الغابر، الى جانب حشد ضخم من الكتب الأدبية والعلمية المترجمة عن مختلف اللغات الأوروبية، فضلاً عن كتبها الدراسية القيمة التي تتأثر بخطى احدث المكتشفات العلمية وتقدم آخر ما توصل اليه الفكر البشري من التقدم الحضاري.

ومن هاتين الكليتين نبغ أدباء وشعراء وكتّاب كبار وبفضل الحركة العلمية التي احدثتها المدارس، وجد علماء اللغة سوقاً رائجة لجهودهم فأغنوا اللغة العربية التي أصابها صدأ بطول العمر ومحدودية الفكر فعمدوا الى صقلها وحقنوها بمصل الحياة الجديدة فإنطلقت جامحة صائلة لتغدو واسطة لنقل أعمق الأحاسيس وأدق الأبحاث العلمية.

ان الزخم الذي احدثه نقل الافكار العصرية في العلم والسياسة والأدب هتك أستار التقاليد القديمة وعبث بها أيما عبث، بل زلزل أركان المعتقدات القديمة والمؤسسات ذات الحرمة، كذلك خلق توتراً وأزمات وتخلخلاً في كيان النظام الاجتماعي.

كانت فعلاً فترة انتقال بطلها المغوار لغة العرب وككل فترة انتقال تمر بحالة شدة وضغط عظيمين: الروابط القديمة يشيع فيها الإنحلال، الولاءات التقليدية تتحول، موازين القيم السائدة تتبدل، وفوق كل هذه الأشلاء تبرز معضلة التوفيق بين القديم والجديد.

كان المجتمع من قبل يتألف من طبقتين: الطبقة الأولى وتضم الملاك والأرستقراطيين والأغنياء ورجال الدين، والطبقة الثانية تشمل الفلاحين وأهل الريف والصناع والكادحين والفقراء، وبين هاتين الطبقتين ما لايُعتد به من تجمعات. أما الآن فقد برزت الى الوجود طبقة وسطانية جديدة تضم الأطباء والمعلمين والمحامين والكتاب والصحفيين والمهنيين الى جانب أصناف كثيرة من أعمال لم يكن لها وجود من قبل. برزت فجأة، ومابرحت حتى راحت تمارس نفوذاً خطير الشأن في الحياة العامة. بهذا الشكل بدء الخلل في النظام الاجتماعي السائد فتصدعت الولاءات وأصيب البناء العائلي بضربة قاصمة، في المدن على الأقل طالبت النسوة بشيء من الحرية ونالت قسطاً محدداً مما طالبت به، وخرجت الزيجة عن مبدء تنظيمها من قبل الأباء، وإقتضى التغيير الاجتماعي إستقلال الأسرة الجديدة بمنزل خاص. وما حصل كان متوقعاً: شيئاً شبيهاً بما حصل في الغرب. فالأغنياء ازدادوا ثراءً والفقراء ازدادوا فقراً. وفي العام ١٨٦٣م شُقّ طريق ممهد بأموال فرنسية بين دمشق وبيروت[٢٨]. وفي ١٨٩٤ سار القطار بين هاتين المدينتين وحوران ثم امتد الخط حتى تركيا والعراق والحجاز، ولأول مرة في تاريخ العالم الناطق بالعربية اصبحت القرى والمدن في متناول اليد. وحصل التقارب وتوثقت عراه وتسربت اليها الكتب والمجلات والصحف التي كانت تخرج من مطابع بيروت ودمشق ثم القاهرة ومعها تسربت الأفكار والرؤى الحديثة.

كانت اللغة مستعدة تمام الإستعداد للنهوض بهذه المهمة التاريخية العظيمة بيسرها ومرونتها وبمقدرتها الإستيعابية على اقتبال الأفكار الغربية وعلومها وكل نتاج عصر النهضة الأوروبية بجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لتكون بالأخير اداة فعالة وعاملاً جليل الشأن من عوامل اليقظة القومية والتحرر السياسي.

***

(٢٨) في أوائل القرن التاسع عشر كان عدد نفوس بيروت (٤٠٠٠) نسمة فبلغوا في نهايته (١٢٠٠٠٠) وكان عدد نفوس دمشق (١٠٠٠٠) فبلغوا (١٧٠٠٠٠) لعين المدة.

لغة العرب لغة عالمية. قبل أن تغدو الفرنسية ثم الإنكليزية كذلك بقرون عديدة وقد تبوّأت مركزها هذا لأسباب كثيرة، منها ذاتية ومنها موضوعية. وكان ثمة سبب آخر طاب لي أن لا أنوّه به قبلاً ليأتي في موقعه المناسب وهو ها هنا، وأقصد به الخدمات الجليلة التي قدمها غير العرب لهذا اللسان. تلك الخدمات التي أمّنت لها تطورها الطبيعي ووضعتها في إطارها التكني الحالي، وأول من فطن الى ذلك المؤرخ الكبير والمفكر العربي (إبن خلدون)، قال:

"من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم. لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، إلاّ في القليل النادر، وان كان منهم العربي في نسبته[٢٩] فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته."

ويسترسل (إبن خلدون) ليقرر واقعاً آخر:

فأول من كتب في علم النحو والإعراب أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة من (علي) رضي الله عنه، لأنه تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة... الى أن إنتهت الى الخليل ابن احمد الفراهيدي أيام الرشيد، وكان الناس أحوج لها لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذّب الصناعة وكمّل أبوابها وأخذها عنه سيبويه[٣٠] فكمّل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده.

ثم وضع (ابو علي الفارسي)[٣١] وابو القاسم الزجّاج[٣٢] كتباً مختصرة للمتكلمين يحذون فيها حذو الإمام سيبويه. فها هنا خمسة من أئمة اللغة وأركانها إثنان منهم عرب وثلاثة عجم."

كان غير العرب – وعلى أهل العروبة أن يقرّوا – مساهمين مساهمة حاسمة خالدة في علم النحو والمعاجم، وقد أصاب (إبن خلدون) كبد الحقيقة. وها نحن هنا وقد مرت عشرة قرون

(٢٩) يعرف العرب كل من ليس عربياً بـ(أعجمي) وقوله عربي في نسبته إنما يقصد الأجانب الذين انتسبوا الى العرب بالموالاة أو استعربوا.

(٣٠) هو أبو بشر عثمان (ت ٧٩٦م) من الموالي، وكتابه في النحو (الكتاب) كان مرجعاً لسائر النحويين واللغويين الذين عقبوه.

(٣١) الحسن بن احمد بن عبدالغفار ابن ابان الفارسي (ت ٩٧٣م) يذكر له ابن خلكان (وفيات الأعيان) خلافاً لكتاب التذكرة الشهير – أحد عشر مؤلفاً في اللغة.

(٣٢) ابو إسحق إبراهيم السري (٨٤١–٩٢٣م) من علماء النحو الكبار يعدد له ابن خلكان عشرة كتب في اللغة والنحو.

على هؤلاء الأئمة. نرى بعين (إبن خلدون) وبكل العجب الذي استولى عليه قيام طبقة مماثلة في القرن التاسع عشر كادت تكون كلها من غير العرب. حمل أفرادها على العواتق والمناكب والكواهل ثقل بعث النهضة اللغوية. وبعثوا دماً جديداً في عروقها وأهّلوها لاقتبال كل نتاج الفكر الحديث بيسر وسهولة ما بعده يسر وسهولة، وأقصد بهذه الطبقة مسيحيي جبل لبنان.

فوق ذلك كله هؤلاء الرواد العظام جعلوا اللسان العربي أداة فاعلة وعاملاً جوهرياً من عوامل اليقظة القومية العربية وتحررها السياسي والفكري من قيود الفترة المظلمة في كل البلاد الناطقة بالعربية. وقدموا مما قدموا فن الصحافة وأحدثوا ثورة في علم المعاجم وفتحوا ابواباً في الشعر العربي ونثره لم تعرفها هذه اللغة من قبل، الشعر السياسي والشعر الذي يعبّر عن الخلجات النفسية الذاتية بوحدة لم يعرفها هذا الفن الأدبي من قبل.

معظم هؤلاء النوابغ كانوا افراداً من أسر علمية، يتعذر علينا ذكرهم بغير كنيتهم وانتمائهم العائلي ورابطة القرابة التي جمعتهم. كآل اليازجي ومنهم الشيخ ناصيف وابنه العبقري ابراهيم وشقيقته وردة[٣٣] وآل البستاني: بطرس وسليم وسليمان وعبدالله ووديع وبطرس الثاني[٣٤] وآل الشرتوني[٣٥] ورشيد الخوري وسعيد الخوري ومحبوب الخوري[٣٦] وآل

(٣٣) الشيخ ناصيف (١٨٠٠–١٨٧١م) الأديب والشاعر واللغوي، صاحب كتاب (طوق الحمامة) في النحو و(مجمع البحرين) جرى فيه على أسلوب مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري، وهي أولى محاولة لإحياء فن القصة اللغوية. ابنه الشيخ ابراهيم (١٨٤٧–١٩٠٦) الكاتب والشاعر وامام اللغة في عصره، ورأس طليعة النهضة الادبية، صنع بيده احرف السبك العربية الشائعة اليوم وأسس مجلة (الضياء). من آثاره اللغوية (نجعة الرائد وشرعة الوارد والمترادف والمتوارد) ويقع في مجلدين، و(الأغلاط الشائعة) التي أحصى فيها الاخطاء اللغوية التي يقع فيها كتاب عصره. ووردة (١٨٣٨–١٩٢٤) شقيقته وهي واحدة من رائدات الأدب العربي النسائي في نهضته الحديثة، صاحبة ديوان (حديقة الورد)، وهو أول ديوان شعر تصدره شاعرة في البلاد الناطقة بالعربية.

(٣٤) تقف أسرة البستاني في مقدمة الرعيل الأول الذي فتح باب الفكر الحديث وحمل بعض أفرادها راية التحرر السياسي والقومية وروّجوا لنزعة الإستقلال وأولهم بطرس (١٨١٩–١٨٨٣م) من اعظم أركان النهضة. انشأ المدرسة الوطنية في بيروت ١٨٦٣م وكان أول من نادى بتعلم المرأة وهو من رواد الصحافة الأوائل. اسس أربع صحف شهيرة هي (نفير سورية، الجنان، الجنة، الجنينة). عالم موسوعي ولغوي صاحب دائرة المعارف (الانسكلوپيديا) التي أكمل منها ستة مجلدات ضخمة. وهو أول من وضع قاموساً عربياً على الاسلوب الحديث وأسماه (محيط المحيط). وسليم (١٨٤٧–١٨٨٤) ابنه صاحب التآليف الكثيرة في التاريخ الحديث والاجتماع والقصة فضلاً عن امتهانه الصحافة العربية. وسليمان (١٨٥٦–١٩٢٥) الأديب والشاعر والناقد الكبير، أبو النقد الأدبي الحديث. مترجم ملحمة (إلياذة) للشاعر هوميروس شعراً بأكثر من عشرة الآف بيت. وعبدالله (١٨٨٨–١٩٣٠) أول ناقل لرباعيات الخيام شعراً وأحد الرواد الأوائل في حركة الإستقلال القومي توج حياته الأدبية بنقل ملحمة (المهابهارتا) الهندية الشهيرة. وبطرس (١٨٩٨–١٩٦٩) الصحافي صاحب جريدة (البيان) واحد من أساتذة الأدب العربي الكبار مؤلف غزير =

الخوري، وآل الشدياق[٣٧] وآل الخازن[٣٨]. ومن غير الأسر العلمية واللغوية هناك نوابغ احدثوا أثرهم الخالد في مسار تقدم الفكر العربي ولسانه، ويتصدر قائمتهم الطويلة الصحافي والقصصي والعالم الكبير جرجي زيدان ومدرسته (دار الهلال) ومثلاً مدرسة يعقوب صروف صاحب (المقتطف)[٣٩].

= المادة في الأدب العربي (ادباء العرب، معارك العرب، الشعراء الفرسان) وغيرها من المؤلفات.

(٣٥) من آل الشرتوني سعيد ١٨٤٩–١٩١٢ من أئمة اللغة في عصره مؤلف معجم (أقرب الموارد)، ورشيد شقيقه (١٨٦٤–١٩٠٦) الأديب واللغوي الذي بقيت كتب النحو والصرف التي ألفها مرجعاً للمؤلفين والمتدارسين طوال نصف قرن. وأخيراً محبوب (١٨٧٧–١٩٣١) أحد شعراء المهجر المجددين في الشعر العربي.

(٣٦) بعض من حمل لقب (خوري) قد لاينتسب الى بعض بصلة القرابة. فلقب (الخوري) لقب شائع جداً في لبنان وهو موروث عن أجدادهم الكهنة الموارنيين عندما كانوا يتزوجون. يُذكر منهم خليل (١٩٠٧ –١٨٣٦) مؤسس المطبعة السورية في دمشق في العقد الثامن من القرن ١٩، وصاحب جريدة (حديقة الأخبار) وهي أول الجرائد العربية الاهلية تصدر في دمشق. كتب في الأدب العربي ونظم الشعر. ومنهم رشيد سليم الخوري (١٨٨٧–١٩٦٨) الشاعر المهجري الذي يعتبر أبا الشعر الغنائي العربي، وقد عرف بلقبه (الشاعر القروي). ومنهم سليم جبرائيل (١٨٤٣–١٨٧٥) صاحب معجم (آثار الأدهار) وشكري (١٨٧٢–١٩٣٧) الأديب والصحفي من أعلام ادباء المهجر. وقد قدمنا بعضهم وغيرهم في الفصل السالف.

(٣٧) احمد فارس يوسف ١٨٠٤–١٨٨٨ من رواد الصحافة العربية الأوائل وائمة اللغة، صاحب جريدة (الجوائب) ومؤلف (الجاسوس على القاموس) وكتاب (الساق على الساق). ويذكر أيضاً من الأسرة طنوس يوسف اخوه (١٧٩٠–١٨٦١) المؤرخ واللغوي.

(٣٨) أسرة عريقة أنجبت خلال اكثرمن اربعة قرون أساتذة ومعلمين وأدباء ورجال ادارة وأحبار كنيسة كبار ويعنينا منهم هنا الشيخ فيليب (١٨٦٥–١٩١٦) صاحب جريدة (الأرز) وأخوه الشيخ فريد (١٨٦٩–١٩١٦) اللذين سلبهما جمال باشا حياتهما مع قافلة شهداء عالية. عرفا بكتاب (لمحة تاريخية في استقلال لبنان) ونشطا في حركة التحرر الوطنية وترجما من الفرنسية كتباً في السياسة والاجتماع. ويوسف (١٨٧٣–١٩٤٤) الصحافي صاحب جريدة (الأخبار) ١٨٩٦ ومجلة (الخزانة) ١٩٠٠ ، وجريدة (بريد الأحد) ١٩٠٢ في مصر، وفي لبنان اصدر جريدة (الأرز) في ١٩٢٢ ثم (البلاد) في ١٩٣٣.

(٣٩) ١٨٦١–١٩١٤: من النازحين اللبنانيين الى مصر. مؤسس دار الهلال ومجلاته العديدة. مؤرخ باحث في تاريخ الأدب العربي. هو أول من عالج فن القصة التاريخية الطويلة (Novel) بسلسلته القصصية الشهيرة التي أتى في رواياتها الخمس عشر على أهم احداث تاريخ العرب والاسلام على غرار قصص الكساندر دوماس الأب (١٨٠٤–١٨٧٠) وميشيل زيفاكو. وضع اساس القصة العربية ذات الحبكة الفنية. كان لدار الهلال التي انشأها الفضل في تخريج ونبوغ جمهرة من كتاب العربية وادبائها المصريين الذين وضعوا بصماتهم الخالدة في سجلها المشرف. كان جرجي زيدان ركناً هاماً من أركان النهضة الفكرية في البلاد الناطقة بالعربية. وقد بقيت (داره) حتى يومنا هذا تتبنى صحفاً ومجلات وتصدر كتباً شهرية أو دورية على مدى علمي. ولا يفوتني هنا أن اذكر زميلتها مجلة (المقتطف) لصاحبها الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢–١٩٢٧) وفارس نمر المجلة العلمية الوحيدة في العالم العربي التي انشأها في ١٨٧٦ بلبنان ونقلاها في ١٨٨٥ الى القاهرة، وبقيت تنقل الى العالم الناطق بالعربية آخر ما توصل اليه العلم في الغرب بجميع فروعه ستة وسبعين عاماً. وأغنى صروف اللغة بترجماته الرياضية والفلسفية، كما قدم صديقه =

معظم هؤلاء وكثير ممن أسدى يداً لنهضة اللغة العربية، لاسيما أولئك الذين اشتغلوا في الصحافة وشاركوا في الاحداث السياسية وحركات التحرر القومي، تركوا لبنان الى مصر والعالم الجديد لينتجوا ويؤلفوا في جو من الحرية لايتسامح به الحكم العثماني.

فـ(ابراهيم اليازجي) مثلاً ثقل عليه جو لبنان واضطر بسبب ملاحقة السلطات العثمانية الى سكنى مصر، حيث بات بؤرة استقطب حولها المتنورون العرب ودعاة الفكر القومي والتحرري من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين ومصريين. وكغيره من أساطين اللغة وكتابها وأئمتها لم يقف لحظة ليشك في عروبته وهو الناطق بها منذ أن تحرك لسانه في فمه. وغلب عليه مثلما غلب على غيره الشعور بالمأساة الكبرى التي يعيشها الناطقون بالعربية في ذلك الزمن، ليكتب وينظم في مجالها حاثاً ومستنهضاً وهو القائل:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم؟ ... وانتمُ بين راحات القنا سَلَب
كم تطاعون ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون فلايبدو لكم غضب؟
بالله (يا قومنا) هبوا كشأنكم ... فكم تناديكم الأشعار والخُطَب

الشيخ ابراهيم كما ترى لا يعرف له قوماً غير العرب.

والتفّ حول (جرجي زيدان) ودار نشره جمهرة من الكتاب والادباء الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد في عالم الأدب والفن، ليجعلوا هم والرواد الأوائل لغة العرب أداة جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ضد الإستعمار العثماني والإستقلال القومي بغض النظر عن نسبة الدم العربي الذي يجري في عروقهم، أو تفكير في نجادهم وأصولهم العرقية.

لا يحضرني لغة أخرى كاللغة العربية – كان لها الدور الجوهري على الوعي القومي والحركات القومية التحررية لشعوب أخرى، فلم تكن اللغة الفرنسية قط عاملاً من عوامل الوعي القومي الفرنسي الذي عقب ثورة العام ١٧٨٩، وكذلك لم يكن للغة الانكليزية علاقة روحية بثورة الاستقلال الامريكي. بالنسبة لعصر التحرر الذي مرت به البلاد الناطقة بالعربية،

= الدكتور شبلي شميل١٨٦٠–١٩١٧ الطبيب اللبناني الشهير بترجماته الرياضية والفلسفية كما قدم صديقه وكثير غيرهم. وقد حاولت جهدي ان أعثر على نظائر لهؤلاء الذين ذكرتهم في العالم الإسلامي الناطق بالعربية فما وجدت. واقول هذا بكل أسف – من يرقى الى مقام من ذكرتهم ولايمكن أن يبلغ منهم مستوى التأثير الذي أحدثوه في النهوض باللغة والفكر العربيين. وكل ما وجدته من مشاهير محليين صحافيين كأحمد الحلبي (١٨٧٤–١٩٢٤) صاحب جريدة (لسان الشرق) وشهيد عالية احمد طبارة (١٨٧١–١٩١٦) صاحب جريدة (الإتحاد العثماني) وزميله عبدالغني العريس (١٨٩١–١٩١٦) صاحب جريدة (فتى العرب).

كان لماضيها التاريخي قوة هائلة تبدو اليوم من طموح القوميين الناطقين بها الى المحافظة على التفاهم المتبادل ومحاولة الخروج من دائرة اللهجات المحلية، زاد في عمله الادراك القومي صقلاً وبريقاً. واذا كان الهدف هو الوحدة الفكرية وتلك أول مرحلة من مراحل التحرر والاستقلال، فاللغة وحدها لايمكن أن تكفي لإثبات الهوية القومية، وان كانت الحماسة وقلة الفطنة تدفع بعض القوميين العرب أو المستعمرين الى جعلها حجر الزاوية في إثبات الهوية العرقية، والخطأ الاكبر هنا هو تفسير الفخر والاعتزاز الذي يكنّه العربي والمستعرب بتاريخهما الماضي الذي كان يمكن أن تنقطع صلتهما به لو رفضا لغة الأدب الكلاسي. لقد بقيت لغة القرون الوسطى رغم المستنقع الذي هوت فيه غنية مرنة تتقبل كما تقبلت في العصر الأسبق الفاظاً وتعابير جديدة لتبدو في مطلع القرن التاسع عشر مستعدة لتلبية متطلبات القرن العشرين، وبقي القاسم المشترك الأعظم الفصيح منها لغة القرآن. لاينكر أن الوجود العملي de facto للغة العرب في شمال افريقيا والشرق الأدنى قد برر الى حد كبير استخدام تعبير (الأمة العربية)، وارتقى بهذه الأمصار الى اتحادها تحت هذا العنوان، رغم غموضه التكنولوجي ورغم فروق لاتحصى بين جماهير هذه (الأمة) طبقياً وسياسياً وجغرافياً واقتصادياً بل واهدافاً وطموحاً.

في حكم الإسلام فقدت الشعوب العظيمة العريقة المستقرة في الشرق الأدنى هويتها تقريباً، ووجد الأبناء المنحدرون بايولوجياً منها انهم يتخلون عن لغاتهم الأم (أو يحتفظون بها في الخفاء) وليغدو معظمهم مسلمين ينطقون باللغة العربية ويتحمسون لها. إلاّ أن الشعوب التي سكنت عقدة جبال الشرق الأدنى الشمالية واعتنق بعضها الإسلام مع من اعتنقه، بقيت تحافظ بعناد على لغاتها الاصلية كلغات تفاهم محلية أو لغة مجتمع كامل أو لغة دين.

في قاع الانقلاب أو الثورة التي حصلت في القرن التاسع الميلادي وحولت الشرق الأدنى الى مجتمع تجاري (مجتمع سوق) وصناعي بيروقراطي، ووقت أن كان الغرب مدفوناً في قاع المجتمع الفلاحي الذي يحكمه نبلاء وفرسان وامراء إقطاع، كانت اللغة العربية حلقة الوصل التي لايستغني عنها هذا المجتمع الهائل باتساعه السكاني والأرضي. فقد اصبحت منذ بدء القرن العاشر حتى نهاية القرن الثالث عشر لغة الأساس لا للعرب والمستعمرين وحدهم بل كذلك لتلكم العناصر العرقية والقومية الباقية، وبضمنهم البربر في شمال افريقيا والأقباط المصريون والفينيقيون اللبنانيون، حتى اليهود الذين استخدموها لكل شيء إلاّ في صلواتهم الدينية. ومفهوم (شعب عربي) أو (أمة عربية) إن تسامحنا به على أساس اللغة المشتركة، فإنه لم يظهر الى الوجود إلاّ في اثناء الحرب العالمية الأولى وعند قيام (الشريف حسين بن

علي) على الحكم العثماني بما وصف فيما بعد بالثورة العربية الكبرى، وقبل ذلك لم يكن هناك دولة واحدة مستقلة تستخدم اللغة العربية كلغة رسمية. ومع أن هناك اثنتين وعشرين دولة مستقلة حالياً تعتبر اللغة العربية لغة رسمية لها، فإن قول (إبن خلدون) في هذه الرقعة المترامية من سطح الكرة الأرضية ما زال يصدق ويرن صداه فيها، وبينه وبينها ستة قرون:

"وهي (أي لغة العرب) مع انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر... ولكنها مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الاندلس معها وكل منهم متواصل بلغته الى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه... وأما انها ابعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل فلأن البعد عن ذلك اللسان انما هو مخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي أبعد، أما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم... فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد، وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك، فخالطوهم وتداولت بينهم لغتهم في الاكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم حولا زرايات وإطارا ومراضع، ففسدت لغاتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف مضر وتخالف أيضاً بعضهم كما نذكره وكأنه لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم".

فالعربية اليوم شاء القوميون أم أبوا هي كاللغة الانكليزية أو الفرنسية أو الاسبانية أو الألمانية، فالايقوسي أو الايرلندي لايصير انكليزياً لأنه يتكلم الانكليزية، كذلك الهندي والامريكي وعلى هذا قس الإنكا والأزتيك وغيرهم من سكان امريكا الجنوبية، فهم لا يصبحون اسپاناً بمجرد استخدامهم الإسپانية والسنغالي والكونغوي لايغدو فرنسياً رغم كل فصاحة لسانه الفرنسي ولو سكن فرنسا عمره.

وللتفاهم لم يكن ثمة بد والحالة هذه، من اللجوء الى العربية الفصحى أو ما هو قريب منها وهي لغة الكتب والكتابة ولا أقول لغة الخطابة، فأنت اليوم لا تجد ذلك الخطيب على السليقة الذي يخلو كلامه من اللحن والخطأ. إلاّ في الجوامع والمساجد وبعض الكنائس غالباً، أما أن تحاول العثور على صنو لـ(واصل ابن عطاء)[٤٠] فدونك ودون ذلك خرط القتاد.

(٤٠) ابو حذيفة، ويلقب بالغزال (٦٩٩–٧٤٨). إمام المعتزلة واعظم مفكريها من اهل المدينة عاش في =

وبعكس ذلك فالإنكليزي والفرنسي والاسباني يستخدم لغة الكتابة والكتب في كلامه الإعتيادي فلا يلحن ولا يخطيء. والعربية الفصحى نفسها فأنت لاتقدر على استخدامها بنجاح تام إلاّ مع من اصاب قدراً جيداً من التعلم، وقد يغلق امكرها على رجل الشارع الامي في أي بلد من البلاد الناطقة بالعربية، مثلما تغلق عليه لهجة عربية غريبة عن مواطنه. ولا اريد اشغال القاريء بالامثلة والواقع هو هذا.

وبعدما ذكرت واطلت في بيان الأسانيد على عالمية اللغة العربية، اجد الوقت قد ازف لأضع القاريء أمام آراء بعض دعاة القومية العربية، ولا أقول القوميون العرب هؤلاء الذين ارتكزوا في اثبات الهوية العربية على اللغة، ليحكم بنفسه على مدى صحة هذا الحكم القاطع أو علة غلوه أو بعده عن الواقع. فهذا هو المفكر القومي الاستاذ (ساطع الحصري) يقول:

"ان كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية هو عربي ومهما كان أصله ونسبه، وسواء أكان مسلماً أو مسيحياً وسواء أكان سنياً ام جعفرياً ام درزياً وسواء أكان كاثوليكياً أو بروتستانتياً فهو من أبناء العروبة."[٤١]

★★★

الى اين سيؤدي تعريف للقومية العربية كهذا الذي وضعه الاستاذ الحصري، تعريف قاطع جازم كأنه زرد محكم النسج لاتنفذ منه قطرة ماء أو تخترقه ابرة أو يخترقه ضياء. كم من دعاة القومية العربية ومفكريها يتفق في تعريفه هذا؟

هناك مئات الالوف من الكُرد والمسيحيين (آشوريين، كلداناً، سريانا، اقباطاً، مارونيين) والبربر لاترى غالبيتهم وجهاً أو مبرراً لمحاولة ربطهم بالعروبة والقومية العربية لأنهم لايعرفون غير العربية لساناً – إما بتعريف أو بقوة قانون أو بأمر حكومي أو بمقالات وأبحاث علمية[٤٢].

= البصرة كان يلثغ لثغاً قبيحاً بحرف الراء فيتجنب في خطبه واحاديثه كل كلمة فيها هذا الحرف، فلا تشعر بغيابها، وهو دليل على سعة هذه اللغة. وفي هذا يقول الشاعر:

ويجعل (البر) (قمحا) في تصرفه وخالف (الراء) حتى احتال للشعر
ولم يطق (مطرا) والقول يعجله فعاذ (بالغيث) اشفاقاً من المطر

(٤١) الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، ص١٥٧. لا ارى لي مندوحة من الاشارة هنا الى ثلاثة اخطاء لغوية مكررة في هذه الفقرة الصغيرة: فقوله (سواء أكان) هو تعبير ينكره عليه اللغويون. والصحيح هو أن يقال: (وسواء في الأمر أكان...) أو أن يؤتى بالفعل مع حرف السؤال منفرداً دون ان يُسبق بكلمة (سواء).

(٤٢) من ذلك ما جرى في احصاء النفوس العام لسكان العراق في العام ١٩٧٧. فقد فُرض على الآشوريين =

في القرن التاسع عشر كاد يحتكر التجديد اللغوي في العالم العربي عناصر لم تدّع بالعروبة أو بالقومية العربية في سورية ولبنان، والقول يصدق على الإنتلجنسيا المصرية من ادباء وشعراء، فهم إما مسلمون أولاً ومصريون ثانياً وأما مصريون أولاً وأخيراً.

بهذا الشكل بدت اللغة عند العاطفيين المتحمسين قومياً، فهي صلة الوصل الوثيقة وحبل الوتين الذي يشد كل السكان الذين ينطقون بها الى القومية العربية، وبالماضي العربي وبالإسلام قد يبدو لهم كافياً أن يقوم أصل إثنوغرافي مشترك، يغرس شعوراً بالهوية الواحدة عند مختلف المجتمعات الناطقة بالعربية. فالإسلام باللغة العربية وهو غرسة عربية بحتة، بدا عنده للنظريين القوميين العرب سهلاً قولهم بأن هذين العاملين المترابطين، أنشأ في كل مجتمع مسّه واقتبله، عقدةً من المشاعر الواحدة والقيم المشابهة، إرتفعت فوق الفروق المعتادة التي أملتها العوامل الجغرافية والمناخية والاجتماعية والعرقية التقاليدية والماضي الأبعد من الإسلام وغيرها وغيرها.

انك لاتجد بل لم يوجد أدب حجازي أو عراقي أو سوري أو مصري، فأي شيء ما يكتب أو ينظم بالعربية يمكن أن يدعيه كل الناطقين بالعربية أينما كانوا. وبتصاعد أهمية اللغة في تبني العواطف والنزعات والمشاعر المتصلة بالقومية، كان التفاعل بين القومية والإسلام يتضمن كتحصيل حاصل إعطاء القرآن دوراً خاصاً في حقبة كادت النصرانية تكتسح العالم وتغدو سيدة الميدان دون سيادة فيه للغة معينة. صحيح أن العلمانية وجدت سبيلاً لها للنفوذ الى المجتمع الإسلامي الذي ارخى قبضته التي تشد على خناق الخيال الديني. إلاّ أن الإسلام مع هذا كان وسيبقى الأساس في وحدة ما للعالم الإسلامي، مثلما سيبقى سنداً لايمكن الاستغناء عنه يخفر العامل اللغوي الذي يتمسك به النظريون القوميون العرب للإهتداء الى الهوية وتشخيصها، مهما حاولوا اخفاءه أو التجاوز عنه، وهي نقطة ضعف في دعوتهم تقض مضجع التقدميين منهم.

ما من شك هناك في أن نفوذ القرآن المطلق هو الذي حمى اللغة العربية وصانها وبالخصوص

= والمسيحيين عامة ان يختاروا بين القوميتين العربية والكردية. وإن اصر احدهم على إثبات قوميته شطب المسجل الرسمي ذلك واعتاض عنه بتسجيل واحدة من القوميتين (الرسميتين). ففي مناطق بغداد والجنوب كان الآشوري يخير بين القومية العربية او الكردية. وفي الشمال كان يفرض عليه ان يكتب (عربي). وهذا ما حصل في الإحصاءات اللاحقة. والعجيب في الأمر ان الحكومة، وهي حكومة حزب قومي عربي كانت قبلها بخمس سنوات (في نيسان ١٩٧٢) قد اصدرت قانوناً بـ(منح الحقوق الثقافية للمواطنين الناطقين باللغة السريانية من الآشوريين والكلدان والسريان) معترفة لهم بقومية وتراث قومي بمثل هذه الصراحة!

من خطر قيام لهجة مخاطبة عامة بديلة عن العربية الفصحى، تماماً مثلما قضت لغة القرآن (لغة مضر) على اللغات العربية الأخرى. واذا كان تأثير القرآن على الأدب والكتابة قليلاً بسبب من اسلوبه الفريد الذي لايمكن احتذاؤه، فقد بقي نموذجاً ومرجعاً لكل ما يكتب بالعربية والسند الذي يدعم اللغة الكلاسية[٤٣]. وكان تأثيره شبه السياسي عميقاً جداً في انشاء رابطة كلامية موحدة داخل منطقة هائلة الجرم. ولولا رابطة هذا الكتاب المقدس وعربيته الفصحى لحفلت هذه المنطقة برطانات لغات غير مفهومة. أو بالأقل لبعدت شقة الفروق بين لهجات العربية السائدة اليوم الى درجة أكثر بكثير مما نجدها اليوم. كان هذا الكتاب المقدس الوسيلة الفعالة للمحافظة على الوحدة اللغوية، والقوميون العرب لا يستطيعون اليوم أن يتخلصوا مما يجره على دعوتهم. وتبعاً لذلك أن الذي حصل في القرون الوسيطة، هو أن العربية الكلاسية خدمت كأساس متفاوت التأثير والاتجاهات الأدبية والسياسية، حتى آلت الى تطورها لتغدو لغة الادب الحديث ولغة الصحافة، وهما اعظم وسيطين للصلة الجماعية الفكرية.

ومع أن القرآن كان أرفع وأسمى من التداول والاستعمال اليومي يخفيه دخان كثيف من الاحترام والقدسية عن الاهتمام الاعتيادي، فقد بقي أساساً للثقافة والتعليم في البلاد الناطقة بالعربية ابتداءً من المدرسة المحافظة وانتهاء بالمدارس اليسارية التقدمية، وإنك لتجد دراسة النصوص القرآنية تحتل موضعاً دائماً في مناهجها التعليمية.

واستتبع ذلك أن يكون هذا الكتاب واحداً من الرموز التي يتمسك بها متناقلو الاسطورة القومية السائدة في يومنا هذا. وهي أن بروز اللغة العربية كلغة عالمية عالية المقام في القرون السحيقة الماضية هو نوع من المعجزة بحد ذاتها ولذاتها، اذن فكل شخص تلقّى علومه بالعربية هو وارث شرعي لذلك التراث الضخم المتراكم من فترات رائعة للجهد اللغوي الخلاق الذي غطى هذه المنطقة المترامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

ويعزز هذا التراث قدر كبير جداً لم تملكه لغة أخرى من منتوج الأدب والفن والتاريخ الرفيع مازالت المطابع منشغلة به، أقبل عليه أدباء وصحافيون ومثقفون ونهلوا من معينه وأقاموا بواسطته النهضة الأدبية الحالية ومنحهم الوسيلة والإدراك والاسلوب لنقل مشاعر الوحدة

(٤٣) اجد بعض الكتاب العرب يعمدون الى إثبات كلمتي (رومانتيك وكلاسيك Classic، Romantic) الأجنبيتين بإضافة ياء النسبة العربية هكذا (رومانتيكي وكلاسيكي) بينما اداة الاضافة الانكليزية (ic) والفرنسية (que) وغيرها تقابل اداة النسبة العربية. فبقولنا كلاسيكي انما نجعل الكلمة تحمل اداتي نسبة، والصحيح في نظري ان نقول كلاسي بدلاً من كلاسيكي.

الثقافية. ويجد دعاة القومية العربية والإنتلجنسيا العربية من السهل عليهم أن يقفزوا فوق القرون العشرة، التي بدأ بها انسحاب البدو العرب الى صحرائهم، تاركين لغتهم لمجتمع كوزموبوليتي مصممين رغم انسحابهم التراث الفريد لأجدادهم العرب الأقحاح.

في أحيان كثيرة لم يكن هذا مفيداً للدعوة القومية. ففي الجو الخيالي الحافل برؤى الأمجاد التليد والماضي ينزلق كثير منهم ليتخذ منه قدوة وأحياناً نقطة شروع، وفي أكثر الأحيان بمثابة مشعل ينير لهم سبيلهم الى الوعي القومي والتكتل القومي.

وتلك هي مخاطر تعرضت لها الدعوة القومية العربية، فأوغلت فيها وأوقعت أهلها في مآزق وأحياناً ادت بهم الى مآس، بل وأورثتهم هموماً ابعدتهم كثيراً عن تلك الروح القومية الليبرالية التي عطرت أواخر القرن الثامن عشر والقرن الذي تلاه، وقربتهم من نوع آخر من الإتجاه القومي السيء العقبى. قومية العنف والتعصب والتنكر للقوميات الأخرى ومحاولة صهرها وابتلاعها.

★★★

كانت اللغة مستعدة تمام الاستعداد للنهوض بهذه المهمة التاريخية العظيمة مهمة التقارب القومي وزرع بذور التحالف بسبب المصالح المشتركة كانت عاملاً فاعلاً بيسرها ومرونتها وبمقدرتها الاستيعابية على اقتبال الأفكار الغربية وعلومها وكل نتاج عصر النهضة الأوروبية بجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتكون بالأخير أداة فعالة وعاملاً جليل الشأن من عوامل اليقظة القومية والتحرر السياسي.

الفصل السادس

المصطلحات القومية . وصولها الى المجتمع العراقي في ١٩٢٠ . نموها الى جانب الاتجاه الوطني . حوربت القومية من جانب اليسار والاشتراكية . اتهامها بالرجعية . ملاحقة القوميين . الولاء للدولة العلمانية . حداثة فكرة الدولة القومية . الپيوريتان ، الرواقيون ، المصلحون الدينيون . كالڤن ، جون ملتون ، توماس جفرسن ، توم پين ، جان جاك روسو ، كارليل . تعريف الليبرالية . أبو الوحدة الإيطالية (يوسيپي ماتزيني) حياته ، كفاحه القومي الديمقراطي الانساني . استعراض اتجاهات المفكرين الإنگليز والروس والألمان : جورج إليوت ، أنتوني ترولوف ، چارلس ديكنز ، شوبنهاور ، نيتشه ، فيخته ، ريشارد ڤاكنر ، كروپوتكين ، فيورباخ پليخانوف وغيرهم . الدولية الثانية ١٨٩٦ . الاشتراكية تتبنى مبدأ حق تقرير المصير كما ورد في الدستورين الأمريكي والفرنسي الثوريين . الحكومات الاشتراكية المستحدثة تجاهلته وازدرت به . الماركسية والقومية . الماركسية تنكر قيام دولة على أساس قومي باعتبارها مخالفة للنظرية التي تهدف أساساً الى بناء دولة العمال . التذبذب أخيراً بين دولة للعمال ودولة قومية (بين الشيوعية والقومية) . دول مستقلة في آسيا وأفريقيا بعد الحرب العظمى . عصبة الأمم ثم الأمم المتحدة . الأعضاء من الدول الناطقة بالعربية . الحرب العظمى الأولى وفرض الانتداب على بعضها . نهاية الانتداب . طبيعة الانسان العربي بمنظار غربي .

بدءً من العام ١٩٢٠ وهو عام تأسيس الدولة العراقية راحت تعابير الامة العربية، العرب، الوحدة العربية، العروبة، الجامعة العربية، القومية العربية تتسلّك الى الأفواه وآثار الكتّاب والصحافة وشعر الشعراء ببعض حياء وخفر في أرجاء العالم الناطق بالعربية وبمقادير متفاوتة دون ان تحاول منافسة نعت آخر رائج ذي شأن خطير يكاد يحتل المشهد برمته، واقصد به لفظ (وطنية ووطني ووطن)[١].

(١) كما تقدم ذكره، الوطن في اللغة هو المنزل، وقد استعلمت مجازاً. والقومية من المقام أو محل الإقامة. =

كان قبل ذلك في سورية ولبنان قبل العراق. مثلما كان في مصر بدءً من أواخر القرن التاسع عشر. وببدء الظهور القومي زحف تعبيرا (الوطن العربي) و(الوطن العربي الكبير).

وكلمة القومية ونسبتها (قومي) ذات معنى مستحدث في لغة القاموس السياسي العربي وهي تقابل لفظتي Nationalist, Nationalism في اللغات الأوروپية باختلاف تصويرها كتابةً عند كلّ. في الوقت عينه فكلمة وطنية ووطني Patriotism, Patriot بأشكالها كافة عند تلك اللغات، تعني الغيرة على الوطن والتمسك به، ويلاحظ أن الفرق في العربية بالمدلول أظهر.

في أيام حكم (قاسم) اتخذت كلمة قومي صفةً كريهة وتهمةً يرمي اليسار بها معارضي الحكم ودعاة الوحدة العربية وبعض الرجعيين، ووضعت مقابل (وطني) ليُنعت بها من يراد إبعاد الشبهة عنه ولتعني بلغة السياسة في ذلك الحين ان الشخص لا غبار على خطه السياسي عموماً، واستخدمت لفظة (ديمقراطي) الى جانب (وطني) أو بديلاً، عندما ترتفع أهمية المنعوت بالإشارة الى أنه عضو في الحزب الشيوعي او مؤيد أو نصير.

وعلى هذا الأساس انقسمت أحياء برمتها في معظم المدن والبلدات والقرى الكبيرة، فما استظهر فيها من هذه الفئة أو تلك سميت بالمنطقة أو المحلة القومية أو الوطنية تبعاً. وقعت اشتباكات دموية احياناً بين تلك الأحياء أدت الى سقوط آحاد قتلى من الجانبين. وزُجّ كثير من (القوميين) في المعتقلات والسجون وعذبوا لاسيما اثر فشل محاولة العقيد الشواف الانقلابية[٢]. ثم دارت الدورة على (الوطنيين) وكانت العاصفة الدموية الهوجاء والطامة الكبرى في أيام شباط ١٩٦٣، باستظهار القوميين وإزالة حكم قاسم لتغدو لفظة (وطني) معادلة لكلمة (ديمقراطي وقاسمي) وهي أكثر من شبهة وتهمة بل جناية قُتل بسببها مئات

= والقوم هم الجماعة من الرجال بأي عدد متصور، وكذلك قوم الرجل هم أقرباؤه الذين يجمعهم معه جد واحد أو انتساب واحد، وهكذا وردت في القرآن: (قوم نوح، قوم عيسى، قوم ابراهيم) الخ. ووردت بنَفَس أكثر عمومية: (القوم الظالمون...) (القوم الكافرون) (... القوم الصالحون).

(٢) أذكر بعدها (صيد السحرة Witch hunt) كما يقال: يجري على قدم وساق ضد القوميين وأنا مار في شارع، وكان ثمّ شاب يافع يحمل عدداً من الإيقونات الصغيرة عليها صورة لعبدالكريم قاسم، يعرض بضاعته هذه على المارة منادياً (عبالكريم قاسم بعشرة أفلس، عبدالكريم قاسم بعشرة أفلس). واتفق أن اعترض ماراً آخر مقدماً له واحدة من إيقوناته، ويظهر أن هذا المستطرق كان سريع البديهية حاضر النكتة، اذ ابتدر البائع الجوّال وهو يربت على كتفه (أي نعم عزيزي هالقدر يسوي!). وإذذاك صاح البائع: هذا قومي خائن! مستنتجاً طبعاً بأن إهانة (قاسم) المقصودة لاتصدر عن غير قومي. واجتمع الناس عليها وفي الموصل الناس يكادون يعرفون بعضهم بعضاً. فهذا يشهد على انه وطني والآخر يريد أن تأخذ العدالة مجراها، وحسم الموقف شيوعي بارز صديق للمشبوه.

وعذب واعتُقل وسُجن أكثر من مائة الف بكثير[٣].

إنها حالة عقلية يشعر فيها الفرد وبسببها بأن كل شيء في وجوده يعود الفضل فيه الى ولائه علمانياً للدولة التي يحمل جنسيتها. والمقصود بالدولة القومية الدولة الحديثة التي تتألف من شعب يختلف عن شعب دولة أخرى. والقومية Nationalism هي في الواقع حركة حديثة. ففي مراحل التاريخ الغابرة كان الفرد مرتبطاً بأرضه حيث وجد ابوه واجداده وأسرته وقبيلته واستقروا، أي مسقط رأسه، ولذلك كان من جهة أخرى مرتبطاً بتراث أسلافه وتقاليدهم وبالسلطة القائمة الفعلية.

لاندري كم من القرون مرت على هذه (الحالة العقلية) لكن ومما اجتمع لدينا من تاريخ علاقات البشر وبنتيجة فحص دقيق له، وجدنا أن قيام الديانات التوحيدية الثلاث كل بدوره لم يؤثر كثيراً في هذه الحالة العقلية بصورة عامة. لكن ما أشرف القرن الثامن عشر الميلادي على نهايته حتى بدت القومية شعوراً معترفاً به وبقابليته على صياغة الحياة العامة والخاصة، وبأنها واحد من أعظم العوامل في تقرير وقائع التاريخ الحديث، إن لم يكن اعظمها طراً. وبسبب حيويتها الدينامية ولطبيعتها الشمولية كثيراً ما ظُن بأن الفكرة القومية قديمة وليست حديثة، وإنها صاحبة (رسالة خالدة) فعلاً. ما أشرف العقد السابع من القرن الثامن عشر على ختامه حتى راح المؤرخون والمفكرون يقرّون في ما يكتبون بأن هذا الشعور الإنتمائي هو الأصل في بناء حياة الإنسان.

هناك اتفاق كاد يكون عاماً عند الباحثين وعلماء التاريخ الاجتماعي بأن أول تجلّ عملي لهذا الشعور كان في الثورة الأمريكية وبعدها في الثورة الفرنسية. بعد هذا سرى الشعور القومي الجديد متوغلاً في مجتمعات أمريكا اللاتينية، ثم انثنت ريحه لتلفح وجوه شعوب أواسط أوروبا في اوائل القرن التاسع عشر، وانداحت في حدود نهاية نصفه الى شرق وجنوب شرقها. وما جاء القرن العشرون حتى أخرجت نبتاتُها شطئَها في أرض آسيا القديمة وافريقيا.

القرن التاسع عشر هو عصر القومية في أوروبا بلا جدال، والقرن العشرون شهد قيام الحركات القومية في كل من آسيا وافريقيا وتابع نضالها. وعلى ضوء السياسة العالمية لا يمكن فهم الفكرة القومية إلاّ بالتعرف على الدولة أو المملكة والشعب كواحد، وبعبارة أخرى

(٣) المجموعة الاحصائية السنوية الرسمية التي صدرت عن دائرة الاحصاء المركزية للعام ١٩٦٤ تثبت عدد المعتقلين المشبوهين او المتهمين بالوطنية والديمقراطية باكثر من مائة وعشرين الفاً للعام ١٩٦٣. [انظر كتيبنا: إسقاط الحكم لايكون بهذا. الطبعة الثالثة، ١٩٩١ ستوكهولم].

تحديد مدى إقامة الدولة على مبدء الإنتماء العرقي المفرد. وفي أول انتشار النزعة القومية رأى دعاتها عموماً وجوب احتواء الدولة على كل فرد ينتمي الى صبغتها القومية، وهو أمر غير مسبوق في التاريخ قبلاً. ففي الماضي لم تكن البلاد الخاضعة لحكومة أو سلطة واحدة لتُعرف بقومية أو عنصر بشري معين. ولم يكن المحكومون أو الرعايا يمحضون ولاءهم على أساس دولة قومية، بل كانوا يخضعون لأنماط مختلفة أخرى من النظم السياسية لاتمت بأية صلة لطابع قومي.

كان ثمّ أشكال شتى من الحكومات والدول: إمبراطوريات متعددة الأقوام. دولة المدينة City State والإقطاع والإمارة، المملكة التي تقوم على رأسها أسرة، الدولة التي تحكمها مجموعة دينية، أو طائفة... الخ.

والواقع هو أن الدولة القومية ما كان لها وجود قبل هذا في تاريخ البشر، وفي تلك الدول التي سبقت عصر القومية لم يكن الفلاسفة وعلماء الاجتماع، ولا اقول الناس العاديون، ينظرون اليها كمثل أعلى أو مطمح، فقد تقدمتها مطامح أخرى. فمثلاً في ٣١٣م، عندما أصبحت المسيحية ديناً حراً معترفاً به رسمياً في أكبر وأعظم إمبراطورية، بدا آنذاك وخلال أربعة عشر قرناً تالية وكأن هناك مطمحاً خيالياً أعلى في قيام دولة عالمية جامعة، تنكر أي ولاء لغيرها أو لأي وحدة سياسية لاتنتمي اليها. والى حد ما كان هذا مطمح الإسلام وهو في أوج قوته. وفي القرن السابع عشر وُجد عدد من الكتاب يلهجون بإقامة ما دعوه (الجمهورية المسيحية Repoblic Christiana) كذلك كان مطمح الإسلام.

ليكن معلوماً أيضاً أن الولاء السياسي قبل عصر القوميات لم يتقرر على الأصل العرقي، ولذلك لم يكن التقدم الحضاري يُنظر اليه بوصفه حصيلة قومية، أو تراثاً مختصاً بشعب أو أمة معينة دون سواها. ففي القرون الوسيطة كان الولاء مبنياً على أسس دينية أو ناشئاً عنها. فقد كانت هناك حضارة واحدة لكل القوميات في الدين الواحد. هناك حضارة مسيحية، وهناك حضارة إسلامية، في الأولى كانت تتولاها لغة واحدة هي اليونانية ثم اللاتينية، وفي الثانية كانت هناك أيضاً لغة واحدة هي الآرامية ثم العربية. وهي لغات أقوام آخرين غير اليونان أو الرومان والآراميين والعرب. والقاسم المشترك الذي اجتمع لهذين المحفلين البشريين هو حضارة كلّ، أي ما نقلته تلكم اللغات من عوامل التقدم. فاللغة هي وسيلة لنقل الافكار لا مصدراً لها أو منبعاً.

في عصر الرينسانس Renaissanse، وهو العصر الذي تقدم العصر الحديث مبتدئاً بالقرن

الثامن ومنتهياً على وجه التقريب بختام القرن الرابع عشر، كانت المدنية اليونانية والرومانية وآثارهما الفكرية قبلة الغرب وهي عُملةٌ سعرها ثابت عند الاوروبيين في كل وقت. وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه حلّت المدنية الفرنسية محل هاتين وناسبت الإنتلجنسيا والمتعلمين من كل الجنسيات والقوميات، وفيه تحددت وتقررت بظهور القومية ووضع مبدء جديد لم يكن معروفاً من قبل، وهو أن الفرد لايمكن أن ينمي مداركه ويبني ثقافته إلاّ بلغته لا بلغة أخرى أو تراث آخر أو زمان غير ذلك الزمان. والأمر سواء أكانت هذه اللغة قديمة أو ناقلة تراثاً أدبياً لقوم آخرين بلغوا درجة كبيرة من الرقي.

وهكذا صارت قومية الثقافة واساليب الحياة العامة تماشي خطوةً خطوةً قوميات الدول والولاءات السياسية إذ بدء الأدباء كتّاباً وشعراء مع جمهرة من الفلاسفة والمفكرين والباحثين يبرزون القومية الثقافية ليدخلوا دماء جديدة كل الى لغته الخاصة. فيرتقون بلغة الادب والعلم الى أعلى المستويات وينفذون الى أغوار الماضي القومي ما طاب لهم. وبهذا وذاك أقاموا الأسس للإدعاء السياسي بالدولة القومية. هؤلاء الدعاة للدولة الجديدة لم يظهروا فجأة ليملأوا صفحة في التاريخ البشري. فقد كان ثم دلائل على وجود مشاعر قومية مستوفزة عند مجتمعات مخصوصة في ظروف زمانية ومكانية معينة، لاسيما في ظروف الأزمات والشدة، أو وقت أن يضطر مجتمع متجانس الى خوض صراع مع مجتمع آخر. وشجع تعاظم الشعور القومي وصعوده الى مرتبة الاهمية السياسية الكبيرة عوامل عدة معقدة، منها قيام دول مركزية كبيرة المساحة كثيفة السكان يسوسها حكام وملوك ذوو صلاحيات مطلقة نجحوا في تحطيم الولاء الإقطاعي القديم.

ومن تلك العوامل الطارئة، علمانية الحياة والتعليم وخروجه على رقابة السلطة الدينية واحتكارها، ومنها ارتقاء عملية الإنتاج الزراعي والإقتصادي وانتقاله من الفردية الى الجماعية. كل هذا وغيره شد من أواصر العلاقات الحيوية وارتقى باللغات المحلية الدارجة وأضعف الروابط مع الكنيسة وأعمل هدماً بالإنتماءات الطائفية.

ومن العوامل أيضاً اتساع نطاق التبادل التجاري الذي كان يتطلب لنفسه بطبيعة الحال مجالاً رحباً، أي وحدات إقليمية واسعة تفسح لدينامية الطبقات الوسطى النامية ولمشاريعها ذات الطابع الراسمالي وتؤمن لها الحركة والحرية الضروريتين. هذه الوحدات الإقليمية الكبيرة، أو الدول الموحدة الكبيرة مساحة وسكانا التي طلع عليها فجر القرن الثامن عشر، بمركزيتها السياسية والإقتصادية – وجدناها مطعمةً بروح وثابة، بنوع من الحماسة واليقظة العاطفية

شبيهة بعاطفية وحماسة الحركات الدينية في الماضي. وفي اجوائها بدء الكتاب الاجتماعيون والفلاسفة يذيعون آراء جديدة ويطرحون نظريات حول حقوق الإنسان وسيادة الشعب. فرأينا الشعب أو الامة بتأثيرها – يحل بالتدريج محل الملك أو الحاكم بمثابة بؤرة ومركز للوطن الواحد. ولم يعد الملك يُنظر إليه بأنه الدولة او الشعب. وأضحت الدولة دولة شعب، دولة قوم، دولة الوطن الأم فسميت الدولة باسم الشعب وعرفت مدنية قوم أو شعب بمدنية قومية.

تطور كهذا خالف في مسراه المفهوم الذي ساد الفكر السياسي عشرين قرناً خلت، فعلى ضوء الشرائع الدينية وغير الدينية كان (الإنسان) يمثل الكون والعالم[٤]، كما كان ينظر الى نوع من الوحدة البشرية نظرة طوبائية، نظرة رغبة طاغية وهدف سام تطمح النفوس إليهما. وانقلبت الآية اذ صارت الفكرة القومية تؤكد الخصوصيات الفردية ومحدوديتها، والاختلافات فيها، وتشدد على الشخصية القومية، وأخذت هذه الإتجاهات سبيلها الى الوضوح تدريجاً باستقطاب النزعة القومية وتمركزها.

في مبدء الأمر لم يكن وجه القومية السلبي أو بالأحرى طابعها الأقل جاذبية بدرجة كافية من الوضوح. كانت مقاييس مدنية الغرب التي سادت القرن الثامن عشر والقرن الذي سبقه لاتخرج عن النظر الى الإنسان بوصفه كائناً عالمياً، ويتأتى من هذا الإيمان المطلق بالعقل وبأنه واحد ومتشابه في كل زمان ومكان، وإن بوسع هذا العقل البشري إدراك البديهيات والأوليات. وبلغ التأثير المسيحي والرواقي[٥] درجة من قوة التأثير بحيث حالت معه بين تطور الفكر القومي وبين النزعة القومية ونفوذها في المجتمع، بذلك اعتبرت النزعة القومية عند أول نشأتها واحدة من المعتقدات الكوزموپولتية، ووضعت في عين المستوى بكل ما صاحب ذلك من إطلاق العنان لحب البشرية جمعاء دون تفريق وهذا ما ظهر في غرب أوروپا وشمال أمريكا.

ذكرت فيما سبق شيئاً حول وجود مشاعر قومية قبل القرن الثامن عشر فاشية في

(٤) تخرج هذه الافكار بين آن وآخر في آثار الكتّاب وقصائد الشعراء حتى يومنا هذا، ويحضرني في هذا المقام بيت للشاعر السوري (عمر ابو ريشة) قوله مخاطباً الإنسان:

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(٥) الرواقية (Stoicism) فلسفة تنسب الى (زينو Zeno) من (اكتيوم) وجاء اسمها من (رواق Stoa) في أثينا حيث كان يعلم في حدود ٣٠٠ ق.م وهو يرى ان الإنسان يجب ان يلتزم الإستقامة في حياته وان يتمسك بالفضيلة بوصفها خلقا جيدا لا نظير له وان ينسجم مع الطبيعة. والفاضل من الناس يجب ان يكون عدم مبالاته باللذة مساويا لعدم اكتراثه بالالم والنكبات. وهو بهذا يرتفع فوق كل تصاريف القدر ويصل الى مقام التحرر الروحاني والانسجام مع العقل الالهي المسيطر على الطبيعة كافة.

مجتمعات بشرية. وقد رأى مَن تقدمني في التطرق الى هذا الموضوع أن أول مظهر لها بالمفهوم الحديث تمثل في ثورة البيوريتان[٦] في إنكلترا. في حينه كان الإنكليز طليعة الروح العلمية وبلادهم قائدة رائدة في عالم التجارة والفكر والزخم السياسي. وبنتيجة ذلك شاعت في اعطاف افراد هذا الشعب ثقة عظيمة بالعصر الحديث حتى باتوا يشعرون وكأنهم يتحملون وحدهم حكم التاريخ ورسالتهم. كما تملكهم إحساس غلاب بأنهم موشكون على ولوج مرحلة انتقالية عظيمة تتولى زمام حركة إصلاح حقيقي، وإنهم على ابواب حرية من نمط لا عهد لهم بها من قبل. هذا ما كانت تفصح عنه كتابات مفكريهم وادبائهم وشعرائهم بنهاية من الوضوح. في هذا الشعور (الثوري) الجديد كانت الإنسانية المتفائلة تتفاعل مع المباديء الخلقية الكالڤينية[٧] التي ارتكزت على التعاليم التوراتية والتفاعل الذي صاغ القومية الجديدة، فما تعكس لنا آثار اهل الفكر والقلم في تلك الحقبة يقودنا الى الإستنتاج ان الإنكليز بدأوا ينظرون انفسهم كما ينظر شعب إسرائيل توراتياً الى نفسه أي (شعب الله المختار).

رسالة علمانية إلهية لا عهد للبشرية والتاريخ بمثلها من قبل ليست قاصرة على القوم الذين يسكنون إنكلترا، بل هي موجهة لسائر الأقوام، عبّر عنها الشاعر (جون ملتن)[٨] في رؤياه الشهيرة.

(٦) ونسميهم (المطهرين) وهم فرقة پروتستانتية إصلاحية تهدف الى إحلال أبسط نمط للعبادة وتتمسك بتعاليم الكتب المقدسة وحياة خاصة وعائلية طاهرة وإلغاء الكهنوت. كان معظم أتباعها من (الكالڤنيين) واستخدم الاسم الذي عرفوا به في العام ١٥٦٠م لإطلاقه على اولئك الذين سخطوا على التسوية الاليزابثية لكنيسة انكلترا وعلى إثر مؤتمر (هامبتن كورت) انفصلوا عن الكنيسة، فشن عليهم رئيس الاساقفة حرباً عنيفة ادت ببعضهم الى الهجرة الى أمريكا. هذه الحرب الاهلية الانكليزية تسمى ايضاً بـ(حرب البيوريتان) ادت الى ظهور طائفة المعمدانيين المسيحية الحالية، واستقر النازحون منهم في (نيو إنكلند) بأمريكا وعرفوا بشدة إهتمامهم بالثقافة والتعليم وديمقراطيتهما.

(٧) نسبة الى المصلح الديني (جون كالڤن J. Calvin) (١٥٠٩–١٥٦٤) وهو لاهوتي فرنسي فرّ الى سويسرا وراح يبث تعاليمه التي صارت أساساً للطائفة البروبستارية (المعمدانية) اليوم. وموجز تعاليمه هو التشديد على ان الله وليس الإنسان هو المركز الأسمى، وإن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للعقيدة. ويؤكد على خلاص النفس وينكر الإرادة الحرة بعد سقوط آدم في جنة عدن.

(٨) جون ملتون (Milton, John) ١٥٠٨ –١٦٧٤ من أشهر شعراء الإنكليز مؤلف ملحمة (الفرودس المفقود) ١٦٦٧م، أتى فيها الى وصف ثورة (لوسيڤر) ضد الله، وسقوط آدم وحواء. أملاها وهو مكفوف البصر، لتكون واحدة من أروع تراث الأدب الانكليزي. ولدى هذا الشاعر آثار أخرى سبقت الملحمة، تنطق بنزعته البيوريتانية في أثناء الحرب الأهلية، وقد كتب عدداً من الرسائل الفلسفية، بعضها في الدفاع عن حرية الصحافة.

رأى هذا الشاعر العبقري الضرير فكرة التحرر تنتشر من انكلترا الشهيرة منذ عصور لايُعلم مبدؤها وباعتبارها تربة لنمو الحرية أصلح من أية تربة أخرى، لتعم كل ركن في الأرض. فيقول:

"يخيل لي والجموع الحاشدة تكتنفني من كل جانب
بأني أنظر الى أقوام الأرض وهي تستعيد
تلك الحرية التي افتقدتها زمناً طويلاً
وان شعب الجزيرة ينشر نعم الحرية في المدن والممالك والشعوب."

وعلى أساس من هذا بدت فكرة القومية الإنكليزية أقرب الى نسج الدين وسداه ولحمته من الفكرة القومية، التي جاءت في أعقابها فاكتسحتها وأزاحتها عندما أحرزت العلمانية في الحياة المتطورة تقدماً دنيوياً وابتعدت عن المصادر الروحية وموحياتها.

عندما إنبثقت فكرة القومية العربية – ولا بد لي من توجيه انتباه القاريء الى هذا – بقيت رغم انتقالاتها المتطورة تعتمد على القيم الروحية الاسلامية البحتة ولم تقطع حبالها بالدين والعقيدة الروحية المستوحاة من الإسلام ولم يبتعد دعاتها بها كثيراً عنه كما ابتعد المفهوم عند الغرب. أي ان دعاة القومية العرب بقوا مثلما بقي نظراؤهم في أوروبا القرن الثامن عشر يشاركون الدعاة الأول حماستهم وشوقهم الى التحرر مختلطاً بالدين، إلاّ أنهم اختلفوا في تشديد هؤلاء الأخيرين على الطابع الإنساني (الكوزموپوليتي) واهتمامهم بأحوال الفرد وحقوقه وبالتأكيد على أن المجتمع البشري هو أسمى وأرفع من كل القوميات وسنعود الى هذا بالتفصيل.

واختطت القومية الإنكليزية بهذا – سنة للدعوات القومية الأخرى بقيامها على أكتاف الطبقة الوسطى (المستجدة على العالم) ذات الطموح الإقتصادي والتجاري ووجدت في فلسفة (جون لوك)[٩] السياسية تعبيرها الفصيح وقانونها. كان تأثيرها صاعقاً في قيام القومية الأمريكية والفرنسية في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. وربما كانت القومية الأولى افضل نموذج لقومية ذلك القرن. فالمستوطنون الإنكليز الذين اضطروا الى النزوح بعد الثورة البيورتانية والاضطهاد الذي شن عليهم يعتنقون التفسير العقلاني الذي قدمه لمفهوم فكرة

(٩) جون لوك JOHN LOCKE (١٦٣٢–١٧٠٤م) من أوائل الفلاسفة التجريبيين، أثرت كتاباته السياسية في تقدم الفكر الأوروپي الحديث نحو نظرية الدولة وتكوينها، ومثّل كتابه (الحكومة المدنية) ١٦٩٠م، التعبير الكلاسي لنظرية العقد الاجتماعي التي بسطها (روسو) فيما بعد بشكلها الواضح.

التحرر الإنكليزية وآراء الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين المعاصرين من امثال (ڤولتير وروسو وديديرو) وغيرهم.

لم يطل الزمن بالمستوطنين الجدد إلاّ ليجدوا انفسهم (قومية) تناضل من أجل التحرر وضمان حقوق الفرد ضد السلطة. مهتدين خلال ذلك النضال بالفكر السياسي الذي ساد القارة الجديدة ولاسيما بالشكل الذي بسطته كتابات مواطنيهم توماس جفرسن[١٠] وتوماس پين[١١].

كانت القومية الأمريكية منذ ولادتها قومية (ليبرالية) إنسانية تنظر الى أمريكا بوصفها طليعة المجتمع البشري في مسيرته نحو التحرر والمساواة والسعادة الشاملة.

وبهذا وجدت الفكرة القومية للقرن الثامن عشر تعبيرها ثم نجاحها السياسي الذي توج بوثيقة إعلان الإستقلال وميلاد الشعب الأمريكي أو القومية الأمريكية، هذه الولادة التي ضربت الوتر الحساس من آلة الثورة الفرنسية بعد سنوات معدودات.

ومهّد (روسو)[١٢] التربة الفرنسية لنبتة القومية الفرنسية بتأكيده مبدء السيادة الشعبية والتعاون الجماعي من أجل خلق الإرادة القومية (الشعبية) وباعتباره الرجل العادي أو البسيط المصدر الحقيقي للمدنية.

وقومية الثورة الفرنسية هي في الواقع أكثر من هذا، إذ كانت التعبير الظافر للإيمان العقلاني بالإنسانية الجامعة والتطور التقدمي الليبرالي، فبشعارها الثلاثي الشهير(حرية، مساواة، إخاء) وبإعلانها لائحة (حقوق الإنسان والمواطن) لم تبق قاصرة على الفرنسيين، بل

(١٠) توماس جفرسن Thomas Jefferson ١٧٤٣–١٨٢٦: أحد موقعي وثيقة الإستقلال الأمريكي، والرئيس الثالث للولايات المتحدة، وأبو الدستور الأمريكي وشريك (جورج واشنطن) في إعلان الإستقلال. مؤسس الحزب الجمهوري الحالي وهو الذي إشترى ولاية (لويزيانا) من فرنسا.

(١١) ت. پين. T. Paine ١٧٣٧–١٨٠٩: ولد في انگلترا وعاش في أمريكا. من ابرز شخصيات الثورة الأمريكية ١٧٧٦م. حفز كتّاشه الموسوم (البديهيات common sense) المقاطعات الأمريكية وحرّضها على إعلان الإستقلال ورسالته الشهيرة حول القومية بعنوان (الأزمة) كانت أول إيحاء بتأسيس جيش عقائدي. وفي إنگلترا أصدر كتابه (حقوق الانسان) دفاعاً عن الثورة الفرنسية وكان عضواً في جمعيتها العمومية إبانها.

(١٢) جان جاك روسو Jean Jacques Rousseou (١٧١٢–١٧٧٨): كاتب وفيلسوف سويسري الأصل فرنسي التبعة. نظري سياسي يدين بأول شهرة له بمقال شرح فيه كيف أن العلوم والفنون تفسد السلوك البشري. وكتابه (العقد الاجتماعي) كان له التأثير الكبير في قيام الثورة الفرنسية وسلوكها النظري. بسط فيه أنه عندما أقدم البشر على عقد اجتماعي فيما بينهم للعيش مجتمعين فإنهم اودعوا السيادة بيد سلطة، إلا ان السيادة النهائية كانت للشعب وهو الذي يستطيع سحب الوديعة عند الضرورة.

بدت مبادؤها شاملةً القوميات الأخرى أي البشر جميعاً، أي حرية الفرد، أي المساواة، أي الإخاء لجميع الشعوب والأمم. حجارة ثلاثة مثل الأثفيّة ركِب فوقها كل حركة قومية ليبرالية ديمقراطية تالية.

وعلى ضوء ما اوحته هذه الثورة، طورت نواميس وأنشئت تقاليد جديدة وممارسات مستحدثة لتحل محل المناسبات والنواميس القديمة وأغلبها ديني الطابع: من مواكب وتظاهرات وأعلام وشعارات واجتماعات سياسية وموسيقى وشعر وادب ذوات شكل جديد، وايام عطل قومية ووطنية مستمدة من التاريخ والأحداث الشهيرة، وخطابات قومية تسمع فيها اسم الشعب الفرنسي وفرنسا. انقلاب كبير في كل مظهر من مظاهر الحياة، وكالثورة الأمريكية خلقت جيشاً دفاعياً جديداً قوامه متطوعون من مواطنين غير محترفين ولا مدربين، إلاّ أنهم ممتلئون حماسة واندفاعاً غير معهودين في الجيوش المطوعة المحترفة المدربة تدريباً عالياً التي تدخل المعارك بدون دافع من شعور قومي وتتقاضى عن ذلك أعطيات ورواتب.

اكدت قومية الفرنسيين القوية خيار الفرد في اتخاذ القرار السياسي، وفتحت باباً لقيام طرز جديد من الدول والشعوب ذوات كيان يختلف عن الكيان العام السائد في الماضي، لتتبوء موضعاً في الأسرة الدولية عن طريق حق تقرير المصير. وبات الإنتخاب والإستفتاء أداتين بهما يعبّر القوم عن إرادتهم.

ومن خلال كل هذا لاح في النهضتين القوميتين اللتين رسمهما العالم الجديد وفرنسا، ما يعتبر مساراً معاكساً عند شعبين امتازا بحضارة عريقة. وفي أثناء مرورهما بمرحلة اليقظة القومية وشروعهما في عملية الوحدة القومية. وقد قدّر لهذا الإتجاه المعاكس الرجعي الشديد الخطورة ان يتعدى أثره، فلايقتصر على شعوب أوروپية معينة، بل امتد تأثيره الى أمم واقوام أخرى ومنها البلاد الناطقة بالعربية. فقد غلب على نهضتها القومية هذا الإتجاه الخطر واصطبغت الفكرة القومية عندها، وهي جنين، بطابع يختلف عن الطابع الإنساني التقدمي وعن فكرة المساواة والإخاء العالميين بين الشعوب وسيأتي تفصيل ذلك.

***

نشرت جيوش (نابليون) الروح القومية لا في أوروپا وحدها، بل في الشرق الأدنى عبر البحر الابيض المتوسط، كما نفخت روح الثورة على الإستعمار الإسپاني والپرتغالي في أمريكا اللاتينية وجزر الأطلنطي. إلا أن الفتوح الناپوليونية والإنكسارات العسكرية التي

منيت بها الدول المتصدية له كان لها أثر غير حميد. ففي ألمانيا المقسمة الى دول ودويلات ومدن مستقلة رفض أدباؤها ومفكروها وفلاسفتها الدعاة الى النهضة والذين قادوا مسار فكرة الدولة القومية – أقول: رفضوا كل المباديء التي قامت عليها الثورتان الفرنسية والأمريكية، وازورّوا عن جوانبها الإنسانية والتحررية ذات الطابع القومي بدافع النفرة والاحتجاج على يد المحتل الثقيلة. وخاب ظن بعض الفنانين والأدباء الإنسانيين ممن كان يعتبر بوناپرت رسول الثورة وحامل مبادئها، من أمثال الملحن الكبير بيتهوفن والشاعر والمؤرخ شيللر والاديب الكبير گوته.

القومية الألمانية أكدت منذ خروجها من الرحم مظهراً غريزياً تليداً مضاداً للعقلانية والأفكار الجديدة التي شاعت في المفهوم القومي. وكردّ فعل للتسلط العسكري الناپوليوني تغلبت قوة التقاليد وآثار التراث التاريخي على المحاولات التقدمية العقلانية. مع تقصير عن استيعاب مفهوم للقومية أكثر جدوى ودقة، بل ركزت على الفروق التاريخية والتراث العنصري بين الشعوب واحتقرت الآمال والتطلعات المشتركة التي تشد الأمم والشعوب كافة بعضها الى بعض. فكانت نظرتهم الى الثورة الفرنسية أو الليبرالية القومية[١٣] والمساواة – لاتعدو اعتبارها فترة قصيرة من ضلال وشذوذ وزيغ يقف بمواجهتها سدّ من الأسس الخالدة للنظام الاجتماعي الذي لايلبث ان يتغلب عليها.

واتضح مبلغ خطأ التفسير الألماني للتطورات السياسية التي حصلت في القرن التاسع عشر وأحداثه الجسام، بدءً بانحسار ظل الغزو الناپوليوني. فقد عادت القومية الليبرالية لتحتل الميدان وتؤكد نفسها في بقاع عديدة من أوروپا، بل انداحت رقعة نفوذها الى قوميات عديدة ونفذت تعاليمها الى أغوار النفوس نفوذاً مطّرداً، وتبنتها الطبقة المتوسطة التي أبرزها القرن التاسع الى الوجود قوةً مهيمنة في المجتمع، كما اعتنقتها البروليتاريا الجديدة. وتمخضت بثورات العام ١٨٤٨م، ذلك العام الذي لقب (بعام ربيع الشعوب). حتى بدت للمفكرين والفلاسفة والقوميين التقدميين الليبراليين وكأنها تعمل لتحقيق آمال الشعوب في الإخاء والحرية والمساواة، في طليعة هؤلاء يقف (يوسپّي ماتزيني) عَلَماً مفرداً، ذلك المجاهد الذي أوقف حياته كلها على العمل لإيقاظ الشعور القومي الإيطالي ووحدته بالاساليب الديمقراطية فحسب، وليس بالعنف والثورة الدموية. هو في الواقع أبو الوحدة القومية الإيطالية وباعثها،

(١٣) بات مصطلح (Liberalism) يعني تلك الفلسفة السياسية التي تقوم على الإيمان بالتقدم والإستقلال الذاتي للفرد، أي حريته في إتخاذ القرار. وهو يؤول بالاخير الى حماية الحريات السياسية والدينية من إعتداء المركزية والتحكم؟

وواحد من رسل القومية وابنائها البررة في كل زمان ومكان، بتعاليمه واسلوبه النضالي الإنساني البعيد عن العنف. ومع أن آماله العاجلة منيت بالخيبة، الاّ ان فترة السنوات الاثنتين والعشرين المنتهية بالعام ١٨٧١م حققت آماله.

(ماتزيني) هو نبي القومية الليبرالية الديمقراطية. وهو المثال الذي يجب ان يحتذيه كل داعية قومي، ولا أراني في هذه المناسبة قادراً على إغفال الحديث في أطراف من سيرته وتعاليمه. شهد المؤرخ الإنكليزي توماس كارليل[١٤] «بدقته الاصيلة وإنسانيته ونبل عقله وبقوله عن» هذا الذي انكره قومه ووضعوه في الخلفية حيناً من الزمن.

وقال عنه (باخونين)[١٥] «انه اسلم معظم روؤس أوروپا المتوجة الى ليال مسهدة.»

نفي وهو ابن السادسة والعشرين. وفي فرنسا أسس جمعية (إيطاليا الفتاة) وفيها وفي سويسرا وإنكلترا طور مفهومه لإيطاليا متحدة قومياً، ديمقراطية نهجاً. في العام ١٨٤٩م أُختير رئيساً لجمهورية روما القصيرة العمر، التي قضت عليها جيوش ناپليون الثالث. وفي إنكلترا ساعدت شخصيته المغناطيسية واستقامته وتواضعه الجم ومواظبته، في التأثير على إيقاظ الشعور القومي الثوري وجمع الشمل الإيطالي رغم البعد الكبير. وعند الڤكتوريين[١٦] صار مثابة سحرية للتقديس بسبب إنسانيته وصراحته وتفانيه. كانت مقابلة واحدة لأنتوني ترولوف[١٧] كافية لتقنعه بأنه يواجه "رجلاً خارقاً لا كالرجال" ونعته بيجهوت[١٨] بالرجل المعجزة وفي النهاية من الكمال والحكمة والإعتدال. ورأت فيه جورج

(١٤) توماس كارليل (Thomas Carlyle) ١٧٨٠–١٨٨١: مؤرخ أسكتلندي الأصل وفيلسوف عُرف عالمياً بكتابه عن الثورة الفرنسية. كان يعتقد بأن التقدم هو من عمل الأبطال الافراد. وسخر من المساواة المطلقة. مازالت كتبه تقرأ وتقتنى.

(١٥) باخونين، ميخائيل الكسييڤچ (Bakhunin) ١٨١٤–١٨٧٦: ثوري روسي مؤسس المذهب السياسي المعروف بالفوضوية (Anarchism). كان مشاركاً في انتفاضتي پاريس ١٨٤٨ ودرسدن ١٨٤٩. نُفي الى سيبيريا من حيث هرب الى إنكلترا وشارك في الدولية الأولى وفيه كانت خصومته الحادة مع ماركس الذي نجح في طرده وأتباعه من المؤتمر.

(١٦) او العصر الڤكتوري نسبة الى الملكة ڤكتوريا التي حكمت انكلترا بين ١٨٣٨ و١٩٠٩. وقد تميز عهدها بقيم خلقية وسلوكية عالية، وبلغت بريطانيا خلالها أعلى درجة من النفوذ الدولي بوصفها أكبر امبراطورية في العالم.

(١٧) أنتوني ترولوف (Antony Trollofe) ١٨٢١–١٨٨٢: اشتهر برواياته التي يدور محورها على الطبقة الوسطى، مشاكلها، أسلوب عيشها، سلوكها الاجتماعي والسياسي. ومن أشهر رواياته (رئيس الوزراء).

(١٨) ولتر بيجهوت (Walter Bagehot) ١٨٢١–١٨٧٧: من علماء الاجتماع الانكليز وناقد أدبي خطير الشأن، رئيس تحرير مجلة (الإيكونومست) المعروفة، من أهم كتبه (الدستور الإنكليزي).

إليوت[١٩] "البطل الحقيقي الذي لايستغنى عن معرفته". وكان القصصيان الشهيران ثاكري[٢٠] وديكنز[٢١] يجمعان التبرعات لجمعية (إيطاليا الفتاة) ولمختلف ندواته ونشاطه السياسي ومعاونة اللاجئين، كما اجتذبت شخصيته رئيس الوزراء الإنكليزي (دزرائيلي) وهو اديب أيضاً، فعمل منه شخصية في رواية له. وقالت عنه صديقة حميمة "لم أر مثله بشراً متفانياً جعل من ذاته قطعاً نثاراً من اللحم للإنسانية."

في ١٨٤٩م وعندما رفض البابا بيوس التاسع العودة الى روما، أقدمت الجمعية الوطنية المنتخبة ديمقراطياً على إنتخاب ماتزيني رئيساً لمجلس السيادة الثلاثي فأعلن الجمهورية، لكنه رفض رفضاً قاطعاً اقتراحاً بتوليه سلطة الدكتاتور ذي الصلاحيات المطلقة. وكسف بسحره العظيم شمس العسكري گاريبالدي، أحد أركان الوحدة الايطالية. وبقي وهو رئيس الجمهورية يعيش عيشة الكفاف في غرفة واحدة مستأجرة ويتناول طعامه في مطعم حقير. وصمد أمام جيش لويس ناپليون الذي أحدق بروما وأخضعها، إلاّ انه ضرب مثلاً أعلى للطراز الذي يجب ان يكون عليه الداعية والمناضل القومي المكافح في سبيل تحرير بلاده واستقلالها. وهو مثل لم يُحتذ قط ولاتجد نظيراً له بين كل دعاة القومية اللاحقين في كل زمان ومكان.

راقب هذا المفكر القومي بعين ملؤها الأسى كيف اتخذت مسيرة التحرر القومي مساراً لاديمقراطياً ليذوق هو نفسه طعم التحكم التوتاليتاري الذي مارسته حكومة الوحدة، عندما اقتحم البوليس غرفته وصادر كل مغلفات ذكرياته، رسائله، خاطراته، كتاباته، فضلاً عن رموز نضاله. وانساق الفكر القومي الايطالي مع الفكر القومي الألماني، مزدهياً بتحقيق الوحدة وحقق تفوقاً وقتياً لكنه إنتهى بعد أقل من نصف قرن الى عين المصير الالماني، بقيام فاشية موسوليني.

وهكذا فلفترة معينة بدا الفكر القومي في أوروپا وكأنه ينحو منحى مركزياً الى التفوق

(١٩) جورج اليوت (Eliot George) ١٨١٩–١٨٨٠: وهو الإسم المستعار للروائية الانكليزية (ماري آن إيڤانز). رواياتها أشاعت روحاً جديدة في الفكر الثقافي باعتمادها على الحبكة الفنية والسلوك الخلقي العالي، كان تأثيرها بيناً على من لحق بها من القصصيين.

(٢٠) وليم ثاكري (William Thackery) ١٨٦٣– ١٩١١: مفكر وروائي وكاتب ورسام وصحافي بارز، مؤلف القصة التي اشتهرت عالمياً (Vanity Faire) وتتضمن سخرية رقيقة بالطبقة الوسطى الجديدة.

(٢١) چارلس ديكنز (Chareles Dickens) ١٨١٢–١٨٧٠: أحد أعظم القصصين الإنكليز. تُرجمت قصصه الطويلة والقصيرة الى معظم اللغات الحية، نحا فيها منحى جديداً في فن القصة. حارب فيها الشر الخلقي والفساد والجريمة. وكان تأثيره عظيماً على الروائيين الروس (القرن ١٩) وبصورة خاصة دستويڤسكي.

العنصري. ورنّت في الاجواء أصداء المجد المؤثل العريق للشعب الجرماني وإمبراطورية الرومان القديمة. وكثيراً ما لقي تعبيره في إستعراض القوة العسكرية واستخدامها في حروب عدوانية مخطط لها، أو في مغامرات استعمارية خارج أوروپا، وكان طلاق بائن لا رجعة فيه بين هذا المنحى القومي الشاذ وبين الفكر القومي الأمريكي، الذي نمت أغراسه واثمرت برعاية من المفهوم الرومانتي لشعب حر متماسك مرصوص البيان ليخلق "بعناية الله ورعايته" كما جاء في ديباجة صك الإستقلال، [إتحاداً جديداً متقناً متحرراً للأبد من الأمراض الاوروپية ومواطن الضعف فيها].

التفسير الالماني للقومية نجده في آراء شوبنهاور[٢٢] ونيتشه[٢٣] وفيخته[٢٤] من الفلاسفة والسياسيين، وكذلك تفوح رائحة قوية له من أعمال (ڤاگنر) الموسيقية الرائعة[٢٥] هذا الإتجاه المعاكس لمحتوى ودروس الثوريين الأمريكية والفرنسية ونهج ماتزيني وأضرابه لم يبق دون تحد. فقد اتخذ من جهة سبيل التطرف اليساري وآل الى الفكر الفوضوي الذي تزعمه (باخونين وكربوتكين)[٢٦] الروسيين. واتخذ التحدي من جهة أخرى سبيل إشتراكية الصراع الطبقي والنظرية المادية في تفسير التاريخ، التي تقدم بها (فيورباخ)[٢٧] وطورها ماركس

(٢٢) آرثر شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) ١٧٨٨–١٨٦٠: فيلسوف ألماني واضع مبدأ الإرادة والتشاؤمية المنظمة في كتابه (العالم، كإرادة وفكرة، ١٨١٩). وهو يرى أن الإرادة هي نهاية الحقيقة. إلاّ أنه دافع عن سلبية الإرادة في اجتناب الألم والمعاناة ونشدان السلوى في الفلسفة والفن. كان لآرائه تأثير عميق على نيتشه والوجودية الحديثة.

(٢٣) فردريك نيتشه (Friederich Nietzche) ١٨٤٤–١٩٠٠: فيلسوف ألماني من ناقدي المسيحية. وفي كتابه الشهير المنقول الى العربية (هكذا تكلم زرادشت) تقدم بمفهوم للإنسان الكامل الفائق البطل ذي الروح العظيمة الذي يرتفع عن عبودية الأخلاقية المسيحية. قوته الدافعة هي العاطفة الأسمى لقوة الارادة التي توجهه نحو الابداع وتميّزه عن سائر المخلوقات المنحطة. استخدم القوميون الألمان (النازيون) تفسيره هذا (للسوپرمان) تبريراً للمفاهيم الخاصة في تفوق الجنس الآري عنصرياً على غيره من الأجناس.

(٢٤) يوهان گوتلبيل فيخته (Johonn Gotlbil Fichte) ١٧٦٢–١٨١٤: أول شارح للمثالية الاخلاقية ومفهومه للقومية وللشعب كتجلّ لنظام إلهي. تعصبه العنصري بعث نشاطاً في الشعور القومي الألماني وابتعث روح الوحدة القومية.

(٢٥) ريشارد ڤاگنر (Rechard Wagner) ١٨١٣–١٨٨٣: ملحن أوپرا كبير أتى في عدد من أوپراته الى تمجيد وإحياء الأساطير الجرمانية ووقائع ابطالها.

(٢٦) (Kropotkin) پيتر الكسيڤچ ١٨٤٢–١٩٢١: أمير من نبلاء الروس، نظري من زعماء الفوضوية تخلى عن الحياة الارستقراطية في ١٨٧١ ومارس النشاط الثوري. وبكل سعة مداركه وثقافته الهائلة عدُّ شخصيةً علميةً عالمية. سُجن في ١٨٧٤، وهرب الى اوروپا وسُجن في فرنسا وعاش في إنكلترا. كان متفرغاً للكتابة والقاء المحاضرات وكتابه (التعاون المتبادل بين الحيوانات) نال إهتماماً عالمياً. عاد الى روسيا بعد ثورة اكتوبر إلاّ أنه شجبها وهاجمها.

(٢٧) (Feurbach) لودڤيگ أندرياس ١٨٠٤–١٨٧٢: فيلسوف مادي كان عظيم التأثير على ماركس، رفض =

وكلاهما ألماني، فعرفت بالمادية الديالكتيـة الداعيـة الى الأممية الشيـوعيـة، بمساهمة من (بليخانوف)[٢٨] وهو روسي. وقد أدى هذا التحدي باصحاب هذين السبيلين بالأخير الى إنكار القوميـة كركن من أركان التقدم الحضاري، رفضاً محدوداً عند الاشتراكيين الماديين (الفريق الثاني) ورفضاً مطلقاً عند الفوضويين الثوريين.

المحدودية التي نظّرها الاشتراكيون الماديون تبدو في مؤتمر الأممية المنعقد في ١٨٩٦ متفقة في الجوهر مع وجهة النظر القوميـة الليبرالية الإنسانيـة ومبادئها التي وضعتها الثورتان الكبريان. فقد تبنت شعار حق تقرير المصير (نظرياً) وسبقت به مبادىء الرئيس وودرو ويلسن. إلاّ ان الدول الشيوعية التي انبثقت في ما بعد، لاسيما الدول المتعددة القوميات أو ذات الاقليات الإثنية الكبيرة، لم تحفل بهذا المبدء عند التطبيق وعاشت حكوماتها مزدرية به، وتنوعت مواقف الاتحاد السوفياتي منه. فكان آناً يُتخذ ركيزة للسياسة الخارجية في مساندة الدول النامية أو المستعمرات في افريقيا وآسيا أثناء نضالها في سبيل الإستقلال والتحرر من سلطان الاجنبي، وآناً يغفله تماماً في التعامل مع جمهوريته القومية عندما يخطر بباله ان يفعل ذلك. فهو بين الإغفال والإهتمام، حتى داخل الحركة الشيوعية العالمية. وفي رأيي ان تراث ماركس وأنگلز القلمي والفكري المتناقض هو الذي خلق كل الإرتباك أو الجانب الأقل منه على أقل تقدير.

يصرح البيان الشيوعي (بان الرأسمالية قد سحبت من تحت قدمي الصناعة، الأرض القومية التي تقف عليها. وأن النظرية القومية وضيق الأفق القومي لا مكان لهما، وهما مستحيلان وزائلان بشكل مطرد، فليس للعمال وطن).

زرع هذا الجذب والشد المتوتر بين المفهومين الإشتراكيين للقومية والأممية، وفي أوقات معينة بدا وكأن كلاً منهما يطرد الآخر من الحلبة، فالأمر يبدو معقداً وغير منطقي عند إختيار القومية بين الإنفصال وتأسيس كيان قومي، وبين الدفاع عن الحدود السياسية القائمة، لاسيما

= مثالية هيگل في كتب له من امثال (جوهر المسيحية) وفيه حلل مفهوم الله عند المسيحيين بقوله إنه تحقيق وهمي لحاجات الإنسان السيكولوجية.

(٢٨) (Plekhanov) جورجي فالنتينوفتش بليخانوف ١٨٥٦–١٩١٨: مؤسس الحركة الماركسية وقائدها الفكري في روسيا لعدة سنين. مؤسس منظمة العمل التحررية وصاحب كتاب (التفسير المادي للتاريخ). شدد على ضرورة مرور روسيا بمرحلة البرجوازية القومية مثل الإشتراكية. وفي ١٨٩٨ إنضم حزبه الى الحلقات الماركسية الأخرى لتأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، الذي انشعب في ١٩٠٣ الى بلشفيك والى الفشنيك بزعامته. وحاول الحيلولة دون إستيلاء البلشفيك على السلطة في ١٩١٧ فأخفق.

بالنسبة للأقليات المضطهدة قومياً. في الماضي عندما كان يقوم الشيوعيون بالجدال حول المسألة القومية بغية الخروج من المأزق، كانوا يميزون بين حالتين نظريتين مختلفتين؛ بين علاقة الإقتصاد بالسياسة وبين قضية الطبيعة الطبقية للدولة، وكل نتيجة يتوصلون اليها لاتخرجهم من المأزق. وفي هذا الصدد يحضرني قول للشيوعية البارزة (روزا لوكسمبورگ) وهي پولندية، في مناسبة تبريرها الإحتلال الروسي لبلادها قالت:

"بما ان پولندا تابعة إقتصادياً لروسيا، فليس بالإمكان ان تستقل سياسيا!!"

في المسألة القومية ركّز ماركس دراسته على التاريخ الإيرلندي بتفصيل، فافترض بالنتيجة وانسجاماً مع نظرية القومية في القرن التاسع عشر بأن تحرر إيرلندا سيتحقق عن طريق الحركة الشارتية[٢٩] في إنگلترا، ونعت الحركة بالثورة. إذن فلا ضرورة هناك تدعو الى الإنفصال، إلاّ ان الحركة الشارتية مالبثت ان تراجعت وخمل ذكرها في متنصف القرن، وبمقابل ذلك اشتد ساعد النزعة القومية الليبرالية لتكون الآيديولوجية السياسية المهيمنة على الحركة العمالية البريطانية الى جانب بث ثورات العام ١٨٤٨ روحاً جديدة في اركان الحركات القومية، لاسيما تلك الحركات المرتكزة على الريف. هذا ما ادى بـ(ماركس) الى ان يدور على نفسه دورة كاملة، اذ راح فجأة يؤيد المطالب القومية الإيرلندية دون تحفظ.

والخلاصة توصل ماركس في أخريات آثاره الى تخريج توافقي فقال: إن فكرة خلق الدول القومية في غالبية الأحوال هي مجرد مرحلة حتمية لابد أن تمر بها الشعوب كافة وهي تغذّ السبيل لإنتقالها من مرحلة الإقطاع الى الرأسمالية.

والمحصلة؟ هي ان ماركس ظل يربط بين القوميـة وبين التطور السياسي. ولحقه في هذا لينين، إلاّ ان هذا النبي الاشتراكي الثاني واجه وضعاً معقداً أملته عليه تمخضات العقدين الأول والثاني من القرن العشرين.

في العام ١٩١١–١٩١٢ كان ستالين يتسكع في مقاهي (زوريخ) محل سكن لينين لا عمل له، فأشار عليه لينين بأن يدرس المسألة القومية ودله على المراجع، وكان يراجع معه ما

(٢٩) (Chartism) محاولة أو حركة متطرفة عمالية كبرى فاشلة للعمال البريطانيين الذين حرموا حق التصويت للحصول على مزيد من المساواة الاجتماعية والاقتصادية، كما كانت واحدة من أعظم أولى الحركات السياسية للطبقة العاملة البريطانية. ولقبت الحركة بالشارتية نسبة الى اللائحة (Chart) الشعبية التي نظمها في ١٨٣٨ قائد عمالي من جمعية عمال لندن يدعى (وليام لوفيت)، وتتضمن المطالبة بحق الإنتخاب العام الحر والتمثيل المتساوي لجميع المناطق وإلغاء شروط الملكية الخاصة لطلاب الوظائف وتخصيص رواتب پرلمانية وقيام پرلمان سنوي والإقتراع السري.

يكتبه ويتناوله بالحذف والتنقيح ليخرج الكتاب حاملاً آراء لينين[٣٠]. هذا الكتاب الذي اوصى به لينين وحث الشيوعيين على مطالعته والاهتداء به طُبع فيما بعد بعنوان (الماركسية والمسألة القومية)[٣١] وبقي في العهد الستاليني إنجيلاً تهتدي به الأحزاب الشيوعية كافة خلال أكثر من نصف قرن.

يعرّف كتاب ستالين الأمة بهذا:

"هي رابطة مستقلة متطورة تاريخياً في اللغة والأرض والحياة الإقتصادية والتركيب النفسي. وتتمثل في ثقافة مشتركة. وينبغي التأكيد على أن اياً من هذه الضوابط لايكفي بمفرده لحصر الصفات المكونة للأمة، إلاّ ان غياب أي ركن منها يلغي وجود الأمة الغاءً تاماً."

رغم المظهر الشمولي لهذا التعريف، فإنه يتعرض لمطعنين أساسيين، أولهما: إن تحديداً كهذا مرتكزاً على الروابط الثقافية والإقتصادية والنفسية، أو اية رابطة رابعة أو خامسة أو مما يعد من مكونات قومية الأمة، إنما يجرد الماركسية من سلاحها ويضعها في مأزق ازاء الحركات القومية الليبرالية (البرجوازية) عند وضع المعادلة فوق أرضية القومية نفسها.

وثانيهما: وهو المطعن الأهم الحاسم، إن هذا التعريف لا يمكن إلاّ ان يؤدي الى اتخاذ موقف غامض معيب بالنسبة الى التحرر القومي، لأن خلق ضوابط ومعايير نظرية يجري عبرها وبوساطتها قياس شرعية الحركات القومية، إنما يؤدي في معظم الحالات الى شق فجوة يتسلل منها الإلتزام المبدئي العام بحق تقرير المصير، وهو حق لا يمكن ان يخضع قط لمثل هذا التعريف، إن يراد له أن يكون ذا معنى.

لا يمكن ابداً لأي حركة قومية ذات قاعدة جماهيرية واسعة بين قومها ان تقف موقف تساوم أو توافق مع الإشتراكيين الماركسيين، الذين يُخضعون حقها في الوجود والتحرر السياسي الى هذا اللعب بالتعريفات النظرية. لأن الحركة القومية الليبرالية الهادفة الى التحرر ستصر والحالة هذه على حقها في تحديد مبررات قيامها ووجودها من ذاتها.

ومن هنا يتضح ان المأزق الماركسي لايكمن في الشرعية النظرية لحركة قومية ذات طابع

(٣٠) هذا على الأقل ما روته كروبسكايا زوج لينين في مذكراتها المطبوعة، وما أكده تروتسكي وغيرهم ممن كان في معية لينين آنذاك.

(٣١) عنوان الكتاب الذي ظهر بالألمانية اولاً وطبع بڤيينا في ١٩١٣: الماركسية والمسألة القومية Der Marxism und die Nationale Frage

سياسي ولا فيما إذا كانت تلك الحركة ستحبس نفسها ضمن نطاق نضالها الثقافي والتراثي، بل في وجود الحركة بالذات. وقد اصرّ لينين على هذا النهج، إلاّ انه اراد استخدام الحركة القومية سلماً في عملية سرقة. فتراه يقرر بأن للمسألة القومية مهمة من أكثر المهمات خطورة والحاحاً وهي "جر الطبقة العاملة بعيداً عن قياداتها البرجوازية"، ذلك لأن أمضى سلاح في يد القوميين الليبراليين "البرجوازيين" هو أن البروليتاريا "الطبقة العاملة" تنكر بالأساس حق تقرير المصير القومي، لاسيما عند الحركة العمالية الناشئة في" الأمم الظالمة". وإنكارها هذا يستند الى الوحدة الطبقية لذا تراه يقول:

"إن عُمّال الأمم التي كانت في عداد الأمم الظالمة وتحتمي بظل النظام الرأسمالي يجب ان يحرصوا حرصاً لا مزيد عليه بعدم جرح المشاعر القومية للأمم المظلومة. والواجب يقضي عليهم أن لايقصروا جهودهم على إحلال المساواة الحقيقية فيما بينهم، بل أن يتعداه الى تطوير لغة وآداب الشغيلة في الأمم المظلومة سابقاً، ليزيلوا كل آثار سوء الظن، وعوامل الفرقة الموروثة عن الرأسمالية..."

ونجده يقول في موضع آخر:

"نحن نطالب بحرية تقرير المصير، أي الإستقلال، أي حرية الإنفصال للأمم المظلومة. لا لأننا نحلم بتجزئة بلاد ما أو بإقامة دويلات، بالعكس نحن نريد دولاً أكبر حجماً، نريد مزيجاً من الوحدة بل حتى الإندماج بين الأمم على أساس ديمقراطي أممي حقيقي، وهو ما لايمكن تصوره بدون حرية تقرير المصير."

وهذا كله يترجم بعبارة قصيرة هي تحصيل حاصل: إن المساواة الحقيقية وإزالة كل آثار سوء الظن وأسباب الفرقة والعدوان لايمكن ان تتحقق إلاّ بعد اخضاع حق الأمم المظلومة في تقرير المصير أو غيره، لشروط مستمدة من النظرية الماركسية!

رأيُ الفوضوية في الحركات القومية وفي القومية يعبّر عنه الامير كروبوتكين، فقد حدد مفهومه لها بمقال نشره في العام ١٨٨٥ بعنوان (فنلندا تلك القومية الصاعدة) – فيه أيّد حقوق القوميات في الإستقلال وحق تقرير المصير وإعتبرهما مبدأين من المباديء الأساسية للإشتراكية الثورية الأممية الحقيقية. وقبل برأي الفيلسوف والكاتب الاجتماعي الفرنسي (آرنست رينان) القائل بأن الأمة تولد من التراث المشترك للتقاليد والآمال والحسرات والتطلعات والتصورات. وانتهى الى القول:

"بأن العالم الطبيعي يضيف الى هذه السمات الجوهرية في الأمة، التمايز

الضروري عند الأمم والكينونات الاجتماعية الأخرى، كما إنه يضيف العامل الجغرافي الى تلك المكونات ويراه نوعاً من اتحاد يقوم بين شعب وأرض يسكنها على سبيل الاستقرار، فيتلقى منها شخصيته القومية ويطبعها هو من جانبه بطابعه الخاص، ليصنع من البشر والأرض كياناً واحداً غير قابل التجزئة."

★★★

هذه التعاريف والتحديدات النظرية وقد ازدحم بها النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعكس ردّ الفعل الذي أحدثه الإتجاه المعاكس الليبرالي الذي اتخذه المسار القومي في ألمانيا وايطاليا، إضافة الى ظهور المباديء الإشتراكية ودعوتها الأممية ولوحدة الطبقة العاملة.

إن النزعة المتحررة للقومية التي تمخضت بوحدة ألمانيا وإيطاليا ورومانيا لم تكن كما شاءها (ماتزيني) وأشياعه – تلقائية بعيدة عن العنف، إنسانية الإتجاه. فالأولى قامت بدسائس سياسية وعلى إثر سلسلة من الحروب. والأخيرتان قامتا بعون فعّال من الإمبراطور الفرنسي ناپليون الثالث. على أن القومية الليبرالية التي هبّت ريحها عبر الأطلنطي في الستينات شهدت انتصارات في نمو الشعور القومي، لاسيما في كل من إسپانيا وروسيا. ففي هذه الأخيرة ألغيت عبودية الفلاح[٣٢] واسترقاقه، وتمت بذلك ولادة الشعب الروسي الحقيقية. كما شهدت الأولى تقدما ليبرالياً عظيماً في التأكيد على الإرادة الشعبية ضد حكم آل البوربون المطلق، ولم يقدّر لليبرالية القومية حظ من النجاح في ألمانيا بسبب سياسة المستشار الالماني (أوتو فون بسمارك) واليونكرز والعسكرية البروسية في توحيد الشعب الألماني على أسس محافظة رجعية إستبدادية، وبكل ما خلفته من آثارها المدمرة لا في المانيا وحدها، بل في العالم أجمع.

قيام الألمان بعد انتصارهم على فرنسا في العام ١٨٧٠ بضم مقاطعتي الإلزاس واللورين خلافاً لرغبة سكانهما وإرادتهما الحرة، كان ضد الفكرة القومية المبتنية على حق تقرير المصير وإرادة الإنسان الحرة. اذ أصر المنتصر على أن السكان الألمان لأسباب عرقية وموضوعية رفضها أولئك وتمسكوا بانتمائهم الى القومية التي اختاروها.

إمتدت اليقظة القومية في أثناء ذلك الى الدول ذات القوميات والهويات العرقية المتعددة

(٣٢) الى العام ١٨٦٢، كان ٧٠–٧٥٪ من الروس أرقّاء ينتقلون بيعاً وشراءً مع الأرض التي يملكها الإقطاعيون. والسلطة التي يملكها المالك على أقنانه ما كانت تختلف عن سلطة مزارعي الجنوب الأمريكان على أرقّائهم الزنوج. فهي سلطة مطلقة تتناول حياة الرقيق المهدورة التي لايحميها قانون.

كإمبراطوريتي هابسبرگ وآل عثمان، وكلتا الدولتين كانت تقوم على أسس الولاء السابق. فأعملت فيهما هدماً وتمزيقاً وأخرجت دولاً جديدة قائمة على أسس قومية.

وفي روسيا القيصرية نجم عن تغلغل الفكرة القومية إثر تحرير أغلبية الشعب الروسي من أغلال العبودية – مدرستان فكريتان متناقضتان: المدرسة الغربية كانت تريد قياماً لروسيا على المنحى الغربي متبعةً تيار القوى التقدمية الليبرالية. في حين أكدت المدرسة الثانية الطابع المميز للشخصية الروسية ولروسيا Russianism وعلى رسالتها المستقبلية التي تختلف في نظرهم عن رسالة الغرب. متأثرة ولاشك بالمنحى القومي الألماني، لاسيما بالمفكرين الرومانتيين الألمان بدون شك. هؤلاء (عباد العرش) بنوا دعوتهم على الماضي الروسي الديني الأوتوقراطي ومنهم خرج دعاة العنصرية السلافية الذين وجدوا في روسيا منقذهم الوحيد الأكبر والمستقبلي من غرب قوّضت صرحه الليبرالية وتراث الثورتين الأمريكية والفرنسية. أدى هذا الى انحسار المد الليبرالي الذي شاع في روسيا خلال العقود الأربعة التي عقبت هزيمة ناپليون في العام ١٨١٣ ومن آثاره تحرير الرقّ الروسي.

وكردّ فعل عنيف لهذا الإتجاه القومي الأوتوقراطي وقصور التربة الروسية عن إنبات مفكرين اجتماعيين قوميين لهم تطلعات (ماتزيني) وإنسانيته. وتأرجح الأدب والفكر الروسي العظيم بين الرومانتية والواقعية عند أدبائه وقصصييه الخالدين. وجد التطرف الاشتراكي والفوضوية الثورية تربة خصبة في قعر الطبقة الوسطى النامية والأجيال التالية المنحدرة من الأرقاء المحررين، الذين كانوا أكبر مصدر للطبقة العاملة (البروليتاريا) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. لذلك كان الاتجاه نحو الاشتراكية الثورية الماركسية في روسيا أظهر منه في أي بلاد غربية أخرى. حتى توهم كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع الى العقود الاخيرة من قرننا هذا، وقبيل هزيمة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشرقية، بأن ثورة اكتوبر البلشفية في العام ١٩١٧ قضت على فكرة التفوق القومي الروسي وادعائه بزعامة القوميات السلافية، عندما تسلم هؤلاء بزعامة لينين السلطة من القياصرة الروس. فالبولشفيك بدورهم وبعد ان استتب الأمر لهم ادّعوا زعامة الحركة الشيوعية العالمية، كما ادعى القياصرة زعامة الشعوب السلافية. وقدّر لهذه الدعوة أن تغدو أداةً للسياسات القومية الروسية في آخر الأمر، لاسيما في اسلوب تعاملها القاسي مع القوميات الأخرى التي كوّنت إمبراطوريتهم الموروثة. ولم يبدُ ذلك جلياً في أول الأمر بسبب التغطية الرسمية العمدية وأيضاً للانتصار الذي أحرزته القومية في اواسط أوروپا وشرقها إثر الحرب العالمية ١٩١٤–١٩١٨. فمن أنقاض امبراطوريتي هابسبرگ وآل عثمان ورومانوف

ظهرت دول قومية جديدة: النمسا، المجر، چيكوسلوڤاكيا، پولندا، يوغسلافيا، فنلندا، استونيا، ليتوانيا، لاتڤيا، ومع أن بعضها عانى بدوره مشاكل النزاع القومي الداخلي والخارجي مع الجيران على الأرض والسكان.

وبدأت تتسرب الأنباء عن تهجير جماعي واستمرار الإضطهاد العنصري للتتار ولليهود تتخلله المذابح Pogroms يقابل ذلك تشجيع وانتصار للحركات القومية والإستقلالية في أنحاء العالم كافة، لاسيما تلك الحركات الرامية الى التخلص من نفوذ الغرب الليبرالي، وتلك التي بدا فيها اتجاهات غير ليبرالية.

سياسة مزدوجة. لكنها بالنسبة للروس أنفسهم كانت قومية الطابع. وقد رأينا في غضون الحرب العالمية الثانية كيف كان ستالين يستنهض الهمم بإثارة الشعور القومي في الروس مذكّراً إياهم بالوطن الأم والتراث الروسي والتاريخ الروسي، بل حتى بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، التي عانت خلال ربع قرن من حكم البولشفيك ما لم تعانه اية طائفة دينية مسيحية في العصر الحديث.

وبقيت القومية مشكلة مستعصية لحكام الكرملين بعد الحرب العامة الثانية أيضا. كانت من اصعب العقبات التي قامت بوجه الهيمنة السياسية والتوسع الإقليمي في شرق أوروپا وآسيا، وأيضاً في تلك الدول التي سلمت من صفقة إقتسام النفوذ بين السوڤيات وبين الغرب في مؤتمرات يالطا وطهران وبوتسدام. هذه السياسة تنكرت تماماً لمبدء حق تقرير المصير، فكان هناك ڤيتنامان وكوريتيان وألمانيتان. وبسبب من هذا التناقض ظهرت نزعة قومية عند تلك الدول الاشتراكية المعروفة بدول الكتلة الشرقية، مالبثت أن إتخذت لها إصطلاحاً غريباً عن المفهوم الأممي للاشتراكية والماركسية، وهو (الشيوعية القومية). وكان بداية ذلك في العام ١٩٤٨. فجأة ومن غير توقع انطلقت حمم نارية من موسكو تتهم فيها الزعيم الشيوعي اليوغسلافي (جوزيف بروز تيتو) بالقومي المرتد الخارج على المباديء الماركسية، صديق الغرب. واعقب ذلك قطيعة ثم تلت حركات ثورية ذات طابع قومي في البلدان الإشتراكية تلك. وما إن تبددت لعلعة المدافع وهزيم سرفات الدبابات وكفّت المشانق وساحات الإعدام عن استقبال ضحاياها، حتى بدأ الساسة المؤرخون يفلسفون ما حدث. فقالوا إن نمطاً جديداً من الشيوعية ولد في اعقاب الشقاق والتمزق في الكتلة السوڤيتية، وأطلقوا عليه اصطلاح الشيوعية الأوروبية.

مبدء الشيوعية القومية فُسِّر على هذا الأساس:

"لكل قومية أو شعب وسائله الخاصة للوصول الى الأهداف الشيوعية النهائية. وهذه الوسائل يجب ان تمليها عليه أوضاعه القومية الخصوصية. لا بالوسائل أو المنوال أو الشكل الذي تتخذه قومية أخرى."

إرتبط هذا التفسير بتأكيد الشيوعيين الغربيين ضمن الكتلة – إستقلالهم عن عامة الاتحاد السوڤيتي. ووقف الكرملين موقفاً صارماً ازاء هذا التحول القومي المفاجيء. لا لأنه يناقض المباديء الماركسية، بل لسببين سياسيين خالصين. أولهما؛ الرغبة الروسية التقليدية القديمة جداً في وجود منطقة موالية صديقة على طول حدود روسيا الجغرافية مع أوروپا الغربية حماية لنفسها من العدوان. وثانيهما؛ الجهود السوڤيتية المستميتة للتغلب على التحدي الصيني للزعامة السوڤيتية المهيمنة على العالم الشيوعي.

والسبب في ظهور الشيوعية القومية هو سياسي في الجوهر أيضاً. كان (تيتو) أول من عرض الشيوعية القومية بمواجهة السياسة السوڤيتية، عند محاولته اتباع سياسة مستقلة. فطُرد حزبه الشيوعي من الكومنفورم[٣٣]. وبعد هذا تتابعت حركة التطهير الشبيهة بحركة التطهير الستالينية في روسيا ١٩٣٤-١٩٣٩ لتعم شرق أوروپا مستهدفة إزالة ما دُعي بـ(التيتوية) من صفوف الأحزاب الشيوعية.

أجل، كانت القومية عاملاً قوياً مؤثراً في تلك الحركات الثورية، التي قامت في پولندا في العام ١٩٥١ وادت الى إحتلال عسكري سوڤيتي فعلي. وتكرر ذلك في العام ١٩٥٦. وإنداحت الثورة لتغزو دولاً اشتراكية أخرى، ولم تُقمع تلك الانتفاضات إلاّ باستخدام القوة العسكرية الباطشة، والتصفيات الدموية، إلاّ انها خلّفت آثارها الملموسة في كل من رومانيا وهنگاريا وچيكوسلوڤاكيا ودول البلطيق[٣٤].

★★★

(٣٣) إصطلاح مختصر لما عُرف بـ(مكتب الاعلام الشيوعي) أو منظمة الإعلام الشيوعية، أحلّه ستالين محل الكومنترن في العام ١٩٤٧ تبديداً لشكوك الغرب من نوايا الإتحاد السوڤيتي، قصُرت عضويته الكاملة على الأحزاب الشيوعية في الإتحاد السوڤيتي ودول الكتلة الإشتراكية في أوروپا فضلاً عن الحزبين الشيوعيين الفرنسي والإيطالي. وقد حلّه خروشوف في العام ١٩٥٦. والكومنترن أو الدولية الثالثة اوجدها لينين في العام ١٩١٩ لتكون رأس رمح الثورة العالمية ثم ألغاها.

(٣٤) على إثر طرد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي من (الكومنفورم)، أمر ستالين بعمليات تطهير بين صفوف الحزب الشيوعي البولندي في ١٩٤٩ لمن سماهم بالقوميين البولنديين، وسُجن (كومولكا) السكرتير الأول للحزب، بعد تجريده من مناصبه. ولايُعرف عدد من أُعدم. إلاّ أن إنتفاضة ١٩٥٥-١٩٥٦ أطلقت سراح مائة الف سجين سياسي پولندي، وعاد (كومولكا) ليتسلم زمام الأمور. وفي هنگاريا قاد حركة =

الأثر الطفيف الذي خلّفه الإحتلال الناپليوني القصير لمصر أولد شعوراً غامضاً بالقومية المصرية إستغله محمد علي الكبير استغلالاً إستقلالياً، والنهضة الفكرية والادبية التي بثّها أدباء سورية وعلماؤها عن طريق إحياء التراث اللغوي بقيت زمناً طويلاً يقظة فكرية إصلاحية بحتة لاترمي الى التحرر القومي والإستقلالية. وخلاصة القول لم تتعرف البلدان الآسيوية والافريقية ولا شعوبها الى الفكرة القومية ذات الطابع التحرري الليبرالي النازع الى الإستقلال الشبيهة بتلك التي سادت الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولم تبد بالملامح تلك إلاّ قبيل الحرب العالمية الأولى وفي اثنائها.

العوامل والأسباب التي دعت الى اليقظة القومية في هذا الجزء من العالم كانت تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك التي سادت أوروپا، وتلك التي ادت الى نشوء القوميات والدول القومية في الأمريكتين.

في الغرب وجدنا أرضية الشعور القومي البكر توطأ وتُمهد بفلاسفة ومفكرين وبنزول

= الشيوعية القومية (ايمري ناجي)، الذي كان خلفاً لـ(راكوزي) في زعامة الحزب. وفي ١٩٥٥ عمل (خروشوف) على التخلص منه كترضية لـ(تيتو) وكمحاولة لإعادة يوغسلافيا الى المنظومة الإشتراكية كان (راكوزي) قد أهان (تيتو) شخصياً. وفي ٢٣ من تشرين الاول ١٩٥٦ خرج طلاب جامعات ومدارس بودابست في تظاهرة عظيمة انضم اليها الجمهور، وانتهت بتقديم مذكرة وتصدت لها الشرطة بإطلاق النار. فانقلبت التظاهرة الى ثورة وانضم الجيش الى الحركة وطردت الوحدات السوفيتية التي دخلت المدينة. وسرعان ما انبثقت مجالس محلية خارج العاصمة وعاد الفلاحون الى احتلال حقولهم المؤممة، وذابت بيروقراطية الدولة وانهار النظام الشيوعي بأكمله في يوم واحد، وفُتحت أبواب السجون وأُطلق سراح (١٥) ألف سجين سياسي. ونودي بـ(إيمري ناجي) رئيساً للحكومة. وانطلقت النداءات والشعارات القومية والوطنية من كل جانب. الّف (ناجي) حكومته من ائتلاف لأحزاب المالكين الصغار، والديمقراطيين الإشتراكيين والأحزاب القومية الفلاحية، التي خرجت الى الوجود فجأة، وكأنها على ميعاد. وفي الأول من تشرين الثاني أعلن (ناجي) انسحابه من (حلف وارشو). وكان هذا أكثر مما يتحمله السوفييت. فأُمرت الدبابات السوفيتية باقتحام بودابست. وجرت معارك شوارع دموية وهرب (ناجي) لاجئاً الى السفارة اليوغسلافية، وقُبض على العقيد (ماليتير) القائد العام الجديد للجيش الهنگاري وأُعدم. واستمر القتال رغم إعلان (يانوس كادار)، وهو شيوعي قومي تأليف حكومة جديدة، تم القبض على (إيمري ناجي) أثناء محاولة تهريبه ونقله الى رومانيا، ثم أعدم. وكان من نتيجة هذه الإنتفاضة لجوء ما يزيد عن مائة وخمسين الف هنگاري الى البلاد الاوروپية. وفي چيكوسلوڤاكيا حاول (الكسندر دوبتشك) الذي انتخب سكرتيراً أول للحزب الشيوعي هناك في ٥ كانون الثاني ١٩٦٨ خلفاً لـ(نوفوتني) تمرير إصلاحات اقتصادية وإعطاء حرية للصحافة تحت شعار «إعطاء وجه إنساني للإشتراكية» وساندته الصحافة وجماهير الطلبة. ودعا الى مؤتمر استثنائي للحزب للمصادقة على جملة الإصلاحات، التي عدتها موسكو رجعية قومية واتجاهاً غربياً. وفشلت محاولات الإقناع التي مارسها (دوبتشيك) مع الزعماء السوفييت. وفي ليلة ٢٠-٢١ من آب ١٩٦٨ غزت قوات (حلف وارشو) چيكوسلوڤاكيا واحتلتها. وبعد مفاوضات عقيمة طرد (دوبتشيك) وآل به الدهر الى تعيينه حارساً للغابات في سلوڤاكيا!

زعماء وقادة ميدانيين (مجاهدين)، في حين وجدنا حملة لواء التحرر القومي في هذا الجزء من العالم وخلال الفترة التي حددتها يجمعون بين الصفتين. أضف الى هذا كله - وبسبب من ذلك أيضاً، ان البلدان الآسيوية الأفريقية بقيت مع شعوبها تجهل الى حد كبير فلسفة القومية الليبرالية التحررية الحقيقية تلك التي سادت أوروپا فاضطربت المفاهيم واتخذ النضال القومي في بعضها مسارات شبيهة بمسار المدرسة الألمانية.

الحركات القومية هنا دفعت بقادة وزعماء مزدوجي المهمة، من أمثال سعد زغلول القاضي في مصر، والجنرال مصطفى كمال في تركيا، والشيخ القبائلي عبدالعزيز آل سعود في الجزيرة العربية، والمحامي غاندي في الهند والدكتور (سن يات سن) في الصين، وربما كان الأخيران اقرب من غيرهم الى تفهم القومية من جانبها التحرري الليبرالي والإنساني.

في العام ١٩٢٣ وبعد ان تحقق طرد آخر جندي يوناني - نجح مصطفى كمال الذي خُص بلقب (ابو الترك: أتاتورك) تشريفاً في إحلال جمهورية علمانية عصرية الطابع محل النظام الأوتوقراطي الوسيطي[٣٥] للسلطنة والخلافة العثمانية - الإسلامية، زعم انها تقوم على مفاهيم قومية ليبرالية، إلاّ ان الجوهر بدا اوتوقراطياً متعصباً يقوم بالأساس على مفاهيم المدرسة الألمانية للقومية. فقد اقيم الصرح القومي على أساس قوميات متعددة (كردية، أرمنية، آشورية، عربية، يونانية) أي تتريكها، أي صبغها بالقومية التركية، بدليل قمع النظام القومي الجديد إنتفاضات قومية للكرد بوحشية غير مسبوقة، وضم منطقة تسكنها غالبية من الناطقين بالعربية سكنى قرار الى حدودها. وباتباع سياسة تنقية دينية بالنسبة للمسيحيين، سياسة ارغمت ألوفاً من الأرمن والآشوريين والسريان على ترك البلاد[٣٦].

في مصر حمل سعد زغلول وزملاؤه على عواتقهم دعوة القومية المصرية المستقلة (مصر للمصريين)، وحققت هذه الدعوة تآلفاً واتحاداً قومياً مصرياً غير مسبوق منذ الفتح العربي بين الأقباط والمسلمين، وانسحبت النعرة الدينية الى الخلف المظلم ولم يعد لها اثر إلاّ في نداءات المتظاهرين (١٩١٩) بعناق (الهلال والصليب). ووجدت مصر نفسها في العام ١٩٢٢ وهي على عتبة واحتها من الاستقلال القومي.

وربما وجد في السياسة البريطانية خلال هذه الفترة بعد نظر وشيء غير يسير من الحصافة

(٣٥) نسبة الى القرون الوسطى.

(٣٦) في العام ١٩٢٦ أجرت الحكومة التركية أغرب عمل تبادل قومي: فقد شحنت عشرات الألوف من الأتراك الأقحاح المسيحيين الى اليونان مقابل يونانيين مسلمين، معتبرة الدين دليل اثبات للقومية!

في توفيقها بين أطماع الإمبريالية الانكلوفرنسية وبين التطلعات القومية في البلاد الناطقة بالعربية. وربما وجدنا لوناً من مرونة والحذق السياسيين في إيجاد نقاط لقاء مع القوى القومية الجديدة ومصالحها. وقد تبدت هذه الروح في تعاملها مع الثورة القومية الفكرية التي اطلقها (غاندي) في أربعمائة مليون إنسان. إذ فسحت الإمبريالية البريطانية المجال للمؤتمر القومي الهندي، الذي يعود انشاؤه الى العام ١٨٨٥ بتثبيت ونشر الوعي القومي على الأسس الليبرالية المستمدة من الأسلوب والنظام البريطاني، ليغدو أكثر تطرفاً واقوى ساعداً في العام ١٩١٨، وهو العام الذي اقترن بانتقال النضال الهندي الى مرحلة العمل على الإستقلال.

إلاّ أن القومية اليابانية التي تأثرت بخطى المدرسة الألمانية وملكها إله يُعبد مالبثت بعد انتصارها العسكري على روسيا في حرب ١٩٠٤-١٩٠٥ أن استخدمت تقدمها السريع الهائل في التكنولوجيا الصناعية لتضعه في خدمة أهدافها التحكمية العدوانية التي شلّت كل تحرك محلي نحو الليبرالية. فباندفاعها التوسعي كادت تقضي على ما حققه الوعي القومي الليبرالي، الذي اتبعته جهود الدكتور (سن يات سن)[٣٧] في الصين، وكان من نتيجته ولادة الجمهورية الصينية وقيام الحزب الوطني الذي عرف باسم حزب الكومنتانگ.

الجمهورية الصينية التي قامت على حركة البعث القومي، هددها التسلط القومي الياباني من جهة والشيوعية الصينية المدعومة بالإتحاد السوفيتي من جهة أخرى، كما نخر في عظامها حكم (شن كاي چيك) المطلق. وعندما آلت السلطة فيها للشيوعيين أسرع حكامها الجدد هؤلاء ينأون بها عن الشيوعية التي إرتفعت عن (القومية الأممية super national communism) تماماً مثلما حاولت فئة من الدول الشيوعية فعله في أوروبا.

بدأ الجانبان يتراشقان بتهم ظاهرها آيديولوجي، وباطنها قومية صينية تأبى الخضوع للشيوعية الأممية. من مظاهر تلك النزعة القومية رفع (ماوتسي تونگ) الى مقام الشرف الذي انفرد به (لينين) حتى ذلك الوقت. وكذلك تناقص نفوذ الصين عند الدول الأفروآسيوية

(٣٧) ولد في ١٨٦٦ وتوفي في ١٩٢٥: درس الطب في هونگ كونگ ثم في كانتون مسقط رأسه. تكامل وعيه السياسي في وقت مبكر، فألف في ١٨٩٤ ما عرف بـ(جمعية بعث الصين) وهي الأصل في مجموعات ثورية ألف فيما بينها ورئسها. بعد الفشل الذي مني به في انتفاضة كانتون ١٨٩٥ هرب من البلاد، وقضى في الولايات المتحدة ست عشرة سنة يعمل للحصول على دعم مادي وسياسي لحركته السرية. وعاد الى الصين في مطلع الثورة التي عصفت بالحكم الملكي وأزالت حكم اسرة (فنگ) وانتخب رئيساً للحكومة المؤقتة. إلاّ أنه استقال مختاراً بعد اشهر قلائل احتجاجاً على الجو المحافظ الذي خلقه زملاؤه. ولم تتسن له السيطرة التامة الا في ١٩٢٣، فعاد رئيساً للبلاد واعلن نفسه قائداً عاماً. وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحكم حكّم اسس الحزب الوطني الصيني، الذي كان قد الفه في العام ١٩١٤.

الحديثة الولادة بسبب من نزعتها هذه، التي تُرجمت عند تلك القوميات بالتسلط القومي.

★★★

ويطيب لي قبل التطرق الى تقويم الوعي القومي في البلاد الناطقة بالعربية خلال الفترة عينها ان أستعرض للقاريء تطور النزعة القومية وتقدمها في هاتين القارتين بشكل مختصر.

تاريخ عصبة الأمم التي تأسست بعيد الحرب العالمية الأولى يعكس ذلك كما يعكسها تاريخ الأمم التي تأسست عقب الحرب العالمية الثانية.

إن (معاهدة ڤرساي) هيأت في العام ١٩١٩ لقيام عصبة الأمم، تلك الحرب ازالت الإمبراطوريات الثلاث الألمانية والعثمانية وإمبراطورية هابسبرگ. ووزعت المعاهدة المستعمرات الألمانية في افريقيا على شكل انتدابات لكل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا. كما قسمت مستعمراتها في المحيط الهادي بين كل من اليابان واستراليا ونيوزيلاند بعناوين وأنماط سياسية مختلفة وبقدر ما كانت تلك المستعمرات تطمح اليه في تحقيق التحرر القومي والإستقلال. وكانت العصبة تضم وقت حلها في العام ١٩٤٦ اثنتي عشرة دولة أفروآسيوية[٣٨]. ومن الدول المنتدبة التي انشئت على اشلاء الإمبراطورية العثمانية ووضعت تحت وصايتها لم يتحقق غير استقلال ثلاث دول أثناء وجودها وهي العراق وسورية ولبنان.

وفي العام ١٩٤٥ عند الإعلان عن قيام الأمم المتحدة كان فيها اثنتا عشرة دولة افروآسيوية مؤسسة من اصل (٥١) دولة.

ما مر على الأمم المتحدة نحو من ربع قرن حتى اضافت الى جمعيتها ستاً وستين دولة، منها خمس وخمسون دولة افروآسيوية. ففي حين لم تكن نسبة عدد الدول الاعضاء من هاتين القارتين في العصبة تزيد عن ثلث عدد الاعضاء الكلي، وجدنا دولها في الأمم المتحدة تمثل نصف عدد الاعضاء الكلي بعيد الحرب العظمى الثانية. اما الآن فهي تزيد عن النصف بكثير. بعد الحرب العالمية الثانية حققت الهند وپاكستان وسريلانكا وبورما والملايو والفلپين إستقلالها سلماً، وكذلك كان الأمر في افريقيا في استقلال غانا وغيرها. اما الدول الأخرى، فقد كان عليها ان تخوض غمار قتال مرير في سبيل تحررها ضد الفرنسيين في تونس والجزائر وڤيتنام ولاووس وكمبوديا وإندنوسيا... الخ.

(٣٨) عند تأسيس العصبة كان هناك خمسة أعضاء مؤسسين من آسيا هم الهند والصين واليابان وتايلاند وإيران وعضوان من افريقيا هما ليبيريا واتحاد جنوب افريقيا. وفي اثناء حياتها انضمت اليها ثلاث دول آسيوية هي العراق وافغانستان وتركيا.

من خلال حركات التحرر القومي في كل من هاتين القارتين حاولت الشيوعية بشكليها الصيني والسوفيتي تجنيد أنصار لها في صفوف تلك الحركات الإستقلالية بإسداء المعونة في نضالها ضد الدول الرأسمالية الغربية، ثم بعد إستقلالها بغية اجتذابها عن طريق تقديم المساعدات المالية والفنية... والعسكرية.

ان سياسة الأمم المتحدة المعقدة، والمترددة أحياناً بين الجرأة والتخاذل، تقدم للباحث الاجتماعي والمؤرخ السياسي صورة طريفة لمشاكل القومية الحديثة. إنه لمن العبث الخارج عن الصدد محاولة تقديم سجل كامل أو نماذج لتلك المشاكل، وربما عدنا بذاكرة القاريء الى بعض الامثلة: كنضال المستعمرة الهولندية في آسيا الذي تمخض بولادة الشعب الإندونيسي، ومواصلة وتوسط الأمم المتحدة في النزاعات حول إيريان (غينيا الغربية الجديدة) الذي دام حتى الستينات، وتدخل الأمم المتحدة المتكرر في النزاعات الشرق اوسطية منذ قيام اسرائيل ١٩٤٨، وازمة السويس ١٩٥٦، ومعركة تحرير الكويت ١٩٩١، والنزاع العربي الإسرائيلي الذي لم ينته حتى كتابة هذه الأسطر. وفي افريقيا يمكنك ان تعدد ما تشاء من هذا القبيل، فالمشاكل القومية ومشاكل الحكم هناك تبدو وكأن لا نهاية لها.

***

اين نضع القومية العربية في هذه الصورة العامة؟

ما هي تلك العوامل التي ادت الى تبلور فكرة القومية لتكون لا هدفاً للتقدم الاجتماعي والحضاري وحدها، بل لتؤول الى العمل على تحقيق هدف وحدة عربية يجمعها كيان سياسي كبير واحد يضم كل الدول الناطقة بالعربية دون استثناء وإن كان بعضها لايفقه من العربية إلا بضع جمل فلا بأس.

بل من هو هذا العربي وكيف تحدد صفاته؟

وكما بينت في صدر هذا الفصل، يندر أن تسلم التعاريف التي يضعها المفكرون الاجتماعيون والباحثون في السياسة والتاريخ، من مطعن أو اعتراض. فإن توقع قارئي تعريفاً مني لمن يحق له الإدعاء بالعروبة أو يسمي نفسه عربياً فإني سأخيب ظنه، وكل ما أتصور وأنا تائه غريق في لجة التعاريف والتحديدات، هو أن شعوراً غلاباً تحدده عوامل عديدة تختلف عند فرد وآخر قد يكون ظرفياً أو عرضة للتبدل أو الديمومة بيئية كانت أم حياتية أم اجتماعية أم لغوية أم اقتصادية أم سياسية أم مصلحة شخصية، أو... أو... عوامل لاتدخل

تحت حصر. في رأيي أن الهوية العربية كغيرها من الهويات القومية، تشبه النطق بالشهادة عند المسلمين. فمن ينطق بعبارة لا الله إلاّ الله ومحمد رسول الله ونبيه عن قناعة أو إخلاص أو بمؤثرات خارجية، عد مسلماً ولا جدال في إسلامه.

وهذا العربي؟ ما هي صفاته؟ كيف تراه الأقوام الأخرى غير العربية؟ هناك وصف عرضه الأستاذ (جول كارمايكل) في كتابه «العرب اليوم»[٣٩] لا يخلو من مطاعن إلاّ انه يتضمن قدراً كبيراً من الحقيقة:

"الميل الى التطرف في كل شيء، فمن الإيثار الى حد التضحية بالنفس الى الأثرة الى حد الأنانية المفرطة. ومن الحب العذري الى التهتك، من الصداقة النادرة الى الحقد الأعمى، من المثالية الى الشغف بالماديات، من الديمقراطية الحقيقية الى عبادة الشخصية المطلقة، ومن نهاية الإعتداد بالنفس والإعتماد عليها الى سرعة اليأس والقنوط والإستسلام عند أول عقبة تعترض سبيله."

بعبارة موجزة إن في هذه الأمة التي تعرف بالأمة العربية قوى كامنة عظيمة تدفعها تارة الى انبل الأعمال وأشرفها وطوراً الى أدناها وأتفهها. وبسبب من ذلك ترى هؤلاء القوم العظام الاذكياء والعقلاء بدون ريب، يعيشون بعواطفهم القومية ويتمسكون بها مهما باعدت بينهم وبين التقدم الحضاري، أكثر مما يعيشون بعقولهم وثقافتهم التي حصلوا عليها، ويصرفون حياتهم وأعمالهم اليومية بقوة المصالح الشخصية التي لاتترك سبيلاً لبلوغها إلاّ سلكته.

وتاريخ العرب كقومية رغم قصره، يشهد بأنهم ذوو ألمعية ومقدرة على مباشرة أي عمل وأنهم ذوو نظر بعيد تفسده سرعة الانفعال والتأثر، اذ يفقدون قوة التوازن والرؤية فجأة ودون سابق إنذار، ينتابهم خمول وجمود عندما تداهم احدهم مصيبة ويعيش فيها زمناً، وإن تحقق له أمل صبا اليه أخذته سورة من الغبطة يكاد معها يفقد رشده. وهذا ينطبق بصورة عامة على الفرد والمجموع والكبير والصغير والعالم والجاهل إلاّ فيما ندر.

من المتوارث في خلقهم عن الأجداد خصلة إخفاء العيب أو الهفوة أو السقطة استحياء أو استكباراً أو خجلاً، فيتجنبون التصريح بها ويعملون على اخفائها في أعماق الذاكرة. ويكرهون التذكير بها لانفسهم أو لغيرهم، وهو أمر يؤدي بحسب رأي علماء النفس الى عقدة

(٣٩) استاذ زائر في جامعة (روترگر) الامريكية وباحث أقدم في جامعة نيويورك Joel Carmichael: Arabs Today.

معينة.

الشخص العربي يُستفز بسرعة وتنتابه سورة غضب حتى من أقرب الأقربين اليه لأقل تعريض به أو ما يعده من قبيل الإهانة أو الإنتقاص، ويصفح وينسى بعين السرعة بالمديح والكلمة الطيبة.

وكل ذلك يجد تفسيراً في غرائب تصرفات الحكام الذين تسلطوا على مقادير أهل البلاد الناطقة بالعربية فيما بينهم ومع رعاياهم منذ أول دخولهم التاريخ حتى يومنا هذا.

وفي العربي قابلية للصبر وقوة احتمال غريبة يقف أمامها الغربي حائراً[٤٠] بالقدر الذي يقف ذاهلاً امام رقة غريبة وهشاشة عود تكاد تنقصف عند أول هبة ريح. وينطوي تحت هذه الرقة عواصف من الكرم والمروءة والبذل تخرج عن جميع الموازين الطبيعية.

وبعامل التعايش والبيئة والظروف التاريخية تختلف الأقليات القومية غير العربية هنا بما هو شبيه بها، وربما استطعنا إسناد كثير من هذه الحالات النفسية الى غير أهل العروبة. وربما كانت هذه المشابهة سبباً عند بعض القوميين العرب الى إدراج بعض هذه الأقليات التي اختلطت اختلاطاً وثيقاً بمجتمع الأغلبية الى عدّهم عرباً. وعلى أية حال، فإن مدلول (شعب) عربي أو وطن عربي أو امة عربية لم يظهر الى الوجود إلاّ في مثار نقع الحرب العالمية الأولى. وقبلها كانت لفظة "عرب" فحسب. وتداولت الألسن هذه العبارات إثر انتقاض شريف مكة على الحكم العثماني ورفعه راية الثورة، التي اشتهرت عند بعضهم فيما بعد بالثورة العربية الكبرى. في حين تجاهل أثر تلك الثورة بل ووجودها عرب آخرون. وقبل هذه الثورة لم يكن هناك دولة مستقلة واحدة تستخدم اللغة العربية لغة رسمية.

ربما كان ثم مصطح العروبة Pan- Arabism يمثل امنية الدولة القومية، وهو شعار كان غامضاً لوقت ما يشير الى حركة وحدة عربية تضم أولئك الذين ثبتت أصولهم الإثنوغرافية، على انها مع هذا أولدت أعظم قدر من النشاط والحرارة، لا في تحقيق الوحدة، لكن في التحرر من قيود الإستعمار والنفوذ الأجنبي.

(٤٠) بهذه المناسبة يحضرني حديث للطبيب الجراح العسكري (كيري ايڤانز) الذي رافق الحملة البريطانية في بلاد الرافدين. ومارس خلال بقائه طبه بين الاهلين، عزت له گيرترود بل في رسالتها المؤرخة في ٢٥ من كانون الثاني ١٩١٨ قالت ان هذا الطبيب بعد مئات من العمليات الجراحية أجراها للاهالي استخلص "أن مستوى الحيوية والتحمل هنا، هما أعلى بما لايقاس من ذلك في أوروبا، فالناس هنا يخرجون من عمليات جراحية لايجرُء طبيب في بلادنا عليها، ان جهازهم العصبي أشد واكثر احتمالاً وصموداً وإحكاماً بكثير، انهم لا يتأثرون باطنياً بالصدمات."

والتحرك نحو الوحدة العربية بين الدول المستقلة التي استخدمت اللغة العربية لغة رسمية إنما بدأ قبيل الحرب العالمية الثانية بعقدين من السنين على الأكثر. ولم يكن تأثير الدعوة محسوساً قبل محاولة (الناصرية) تطبيقها عملياً. مع هذه المحاولات وفي خلالها وعلى إثر فشلها – ليس في إمكاننا القول من حيث المبدء أنها لقيت تقدماً ما في أي وقت من الاوقات، أو انها مدّت خلال المحاولات جذوراً عميقة.

وبخصوص هدف "العروبة" السياسي النهائي والأفق الذي امتد اليه نضالياً، علينا الإقرار هنا بحقيقة تاريخية. وهي أن كل ثورة أو صِدام أو حرب نشأ في أية بقعة من العالم الناطق بالعربية خلال قرننا هذا، إنما كان بهدف إستقلال وتحرر كل بلد لذاته. سواء في الأمر أكانت هذه البقاع اجزاء وأقاليم املتها الطبيعة، أم هي من عمل الأجنبي المحتل وتخطيطه.

كان ثمّ اصداء بعيدة تسمع أحياناً حول "وحدة عربية" من خطب وبيانات وكتب ومحافل في مناسبات عامة متباعدة فحسب. والتعبير الرسمي الوحيد الذي فتح الباب للتحرك نحو "العروبة" أو الوحدة العربية كان اختراعاً اجنبياً. فقد صدر من بريطانيا اقتراح وزير خارجيتها (السر انطوني ايدن)[٤١] اثناء الحرب بتأسيس جامعة للدول العربية تطبيقاً لسياسة حكومته العامة التي كانت ترمي في حينه الى محاربة الآراء النازية المتفشية في البلاد الناطقة بالعربية وكوسيلة من الوسائل لمحاربة دول المحور. فالصرخة لـ(إيدن) والجامعة صداها.

ورجوعي الى ظهور الحركة القومية العربية بهدف الوحدة الشاملة ومحاولتي وضعها في إطار تطلعاتها، إنما يرمي الى استكشاف منبتها ونسجها التاريخي. وأول ما أراه هو أن الافتراض المبتسر بردّها الى عشرات الملايين التي يجمعها اللسان العربي إنما ينطوي على تناقض واضح بين الفكرة والواقع. فكما جاء ذكره، إن الفتوح العظيمة التي حققها العرب المسلمون قبل ثلاثة عشر قرناً إن كانت زرعت اللغة وأثبتتها حقاً، فقد فشلت فشلاً كاملاً في خلق قومية بسبب قصر اهتمامها على نشر العقيدة الدينية. إن حركة قومية تستند الى اللغة ويحتضنها الإسلام في القرون الوسيطة كانت مستحيلة مثلما هي اليوم. كانت القومية العربية عند العرب الفاتحين لاتعني أكثر من الترفع والتعالي على الأقوام التي خضعت لهم

(٤١) سر انتوني إيدن (Anthony Eden) ١٨٩٧–١٩٧٧: دبلوماسي بريطاني ووزير خارجية بريطانيا في معظم سني الحرب العالمية، مثير ازمة السويس ١٩٥٦ عندما كان رئيسا للحكومة. وبخصوص تأسيس الجامعة العربية، فقد بدأت المداولات حوله قبل نهاية الحرب بسنة واحدة وبعض سنة. وتم تأسيسها رسميا في ٢٢ من اذار ١٩٤٥، أي قبل نهاية الحرب بحوالي الشهرين. واعضاؤها المؤسسون هم (مصر، اليمن، المملكة العربية السعودية، سورية، لبنان، العراق، الاردن) وهي اليوم تضم ٢٢ عضواً.

والإدّلال عليهم بالقوة والسلطة وأصل الدين. وهكذا كان أقدم شعور بالقومية العربية في فترة من فترات الحكم الاموي (٦٦١-٧٥٠م) حين بلغ الشعور بالتفوق غايته القصوى. وليس لنا إلاّ ان نصدق بقول صاحب (العقد الفريد) وحكايته الطريفة في هذا الباب. ونتخذها دليلاً على ما أثبتناه، قال ابن عبد ربه[٤٢]:

"كانت العرب في أيام هذه الدولة - أي الاموية - يترفعون على سائر الأمم من الموالي وأهل الذمة ويعدّون أنفسهم فوقهم جبلّة وخلقة وفضلاً. وكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى أنه خلق للسيادة وذاك خلق للخدمة. وتخاصم عربي ومولى بين يدي (عبدالله بن عامر) صاحب العراق، فقال المولى مخاطباً خصمه: لا كثّر الله فينا مثلك.

فقال العربي: بل كثّر الله فينا مثلك.

فقيل له: ايدعو عليك وتدعو له؟

قال نعم: "يكسحون طرقنا (يعبدونها) ويخرزون خفافنا (أي يخيطون نعالنا) ويحيكون ثيابنا."

هؤلاء العرب الأقحاح وهم البدو المنتمون الى القبائل الكبرى، تراجعوا الى صحرائهم وآض المجتمع السكاني الناطق بالعربية يحكمه حكم شبه عسكري ومتسلطون أجانب. والافتراض التعميمي بأن هؤلاء السكان ولنسمّهم عرباً - لم يقعوا في إسار الحكم الاجنبي إلاّ عندما أتم العثمانيون الإستيلاء على بلادهم وحكموها أربعة قرون (١٥١٧-١٩١٧) هو افتراض مضلل الى حد كبير. فالمجتمعات التي انطلقت تطالب بوحدتها القطرية وتدافع عنها بحافز ذاتي وشعور إقليمي في القرن العشرين كانت تخضع لحكام أجانب قبل الفتح العثماني ولفترات طويلة وبالأخص أولئك السلاطين الكُرد والترك والتتر والمغول والمماليك الذين حكموا ما يتألف منه اليوم مصر والعراق وسورية والحجاز وساحل الخليج بين ١١٨٠ و١٥١٧. المماليك في مصر كانوا في فترة من الزمن قوة مهابة الجانب تحتل مكانة عالمية وهذا واحد من الأسباب التي ابقت مصر متفوقة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً على الأقاليم الأخرى. فقد كان بوسعهم مثلاً تجنيب مصر الإحتلال المغولي الذي عانى منه العراق وسورية في

(٤٢) أحمد بن محمد (٨٦٠-٩٤٠م) من أدباء الأندلس وشعرائهم. اشتهر كتابه (العقد الفريد) وهو دائرة معارف أدبية وشعرية وتاريخية تمت طباعته عدة مرات بستة اجزاء. وعبدالله ابن عامر هو على ما أرجّح احد رجال الحكم في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك. وينتسب الى ربيعة.

انتصارهم بعد عامين من سقوط بغداد - على جحافل المغول في معركة (عين جالوت) العام ١٢٦٠م.

حتى بداية القرن التاسع عشر، وهو مبدء تمكن الدول الاوروبية من إرخاء قبضة العثمانيين عن شرقي البحر الأبيض المتوسط، كان كل البلاد الناطقة بالعربية تحت سيطرة عصابات من العبيد الحَرَس، تعود اصولهم بلا استثناء الى منابت عرقية أخرى ولا شيء يربطهم بالبلاد التي يحكمونها غير سلبها. والدين الذي جمع الحاكم والمحكوم كان في أغلب الاحيان غطاءً مزيفاً لأطماع الحاكم وجرائمه.

لم يكن لهؤلاء العبيد الحَرَس متسع من الوقت لغير النهب وامتصاص دماء محكوميهم، ومحاربة بعضهم بعضاً على حساب أرواح المواطنين وبؤسهم. هذا التناحر الدؤوب ذو الطابع المدني لم يكن قاصراً على إضعاف اهالي البلاد، بل ادى الى ميوعة حدودها وغموضها والى أن تكون مفتوحة لغارات البدو وغير البدو مستغلة ضعف الحاكم وعدم مبالاته. وقد ادى مما ادى الى شلل النشاط الزراعي وإهمال استغلال الأرض عمداً وتقليص إنتاج الغلة بقدر المستطاع كيلا يحتفظ الفلاح بفائض قد يؤول الى المصادرة أو الى النهب[٤٣].

وخلال الحكم العثماني الطويل زاد الوضع الحدودي غموضاً واضطراباً، إما بتسلط حكام (ولاة) لايدينون بالطاعة للخليفة السلطان إلاّ بالاسم، وإما باعتماد المركز تقسيم الأقاليم الناطقة بالعربية على أساس يقصد منه تسهيل جباية الضرائب. وهذه (الولايات) نفسها لم تتمتع بأي استقرار حدودي بسبب من ذلك، فهي دائماً عرضة للدمج أو التقليص أو الالغاء. تنشأ ولاية جديدة من ضم جزء من هذه وتلك لتختفي بعد حين. وتتقلص ولاية باقتطاع جزء منها وضمه الى ولاية أخرى. وتدمج ولاية بولاية ثم تفصل الواحدة عن الأخرى. وبهذا تواصل العمل الى آخر سني الإمبراطورية.

ان نشوء كيانات سياسية متميزة بالاسم من هذه الولايات، قدمت نفسها للعالم بوصفها دولاً عربية، إنما كان نتيجةً مباشرة لحدثين تاريخيين هامين. أولهما: بروز حزب تركيا الفتاة (جون ترك) في العام ١٩٠٨ وتسلمه زمام السلطة الفعلية في الإمبراطورية. وهذا الحزب هو الفرع المتطرف من حزب الإتحاد والترقي الموغل في التعصب للقومية التركية "الطورانية". وكما يلحظ القاريء هذا، فهؤلاء القوم لم يأخذوا من (يوسيّي ماتزيني) (ايطاليا الفتاة) غير

(٤٣) يعزو بعض الباحثين البايو - اجتماعيين أن هذا الوضع هو المسؤول عن حالة سوء التغذية العام الوراثي الشائع في البلاد الناطقة بالعربية خصوصاً، وبلدان الشرق الأوسط عموماً.

الاسم والتغطية المزيفة بشعار الثورة الفرنسية المثلث (حريت. عدالت. مساوات)[٤٤].

تحت هذا الشعار انضمت طائفة قليلة من رجال البلاد الناطقة بالعربية المشتغلين في الامور العامة ومن طلاب المراكز والمصالح[٤٥] في حين لم تُخدع الغالبية من مفكريها وحملة لواء النهضة المثقفين، بمناداة هؤلاء الانقلابيين بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين دون تمييز أفي العرق أو الدين أو اللغة أو الأرض. وأبدوا شكاً في تنظيم الإتحاد والترقي وفرعه المتطرف. أولاً: لأن قادتهما جميعاً ومن غير استثناء هم ماسونيون[٤٦] وثانياً: لأن يهود سلانيك (في اليونان) كانوا قلب الجمعية النابض وممولها.

والى ما ذكرت يضيف الكاتب (ستون واطسن)[٤٧]:

"الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الإتحاد والترقي هي انها ليست تركية وليست إسلامية. فمنذ تأسيسها لم يبرز من قادتها زعيم تركي خالص الاصل. فـ(أنور باشا) هو ابن رجل پولندي إعتنق الإسلام. و(جاويد بگ) من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونما في اليونان (أسلمت طائفة منها في وقت قريب). و(كراسو) من اليهود الأسپان الذين قطنوا (سلانيك). و(طلعت بگ) بلغاري غجري (كاولي) إعتنق الإسلام. و(احمد جمال رضا باشا) الملقب بـ(السفاح) نصفه جركسي ونصفه الآخر هنگاري. و(محمود شوكت باشا) جركسي من أولاد المماليك (الكولمند). ليس بينهم تركي واحد".

بدافع من هذا الشك، ولظهور النوايا، عمد هؤلاء الى تأسيس جمعيات سرية عديدة في مختلف الأقطار الناطقة بالعربية وفي العاصمة العثمانية نفسها. بعضها نادى بعين شعارات

(٤٤) هكذا كانت تكتب بالتركية التي كتبت بالألفباء العربية.

(٤٥) من هؤلاء: المفكر القومي الدكتور ساطع الحصري، ورشيد عالي الگيلاني. فقد كانا من أنشط أعضاء الإتحاد والترقي أولهما في إستنبول وثانيهما في بغداد.

(٤٦) أخوية أو جمعية سرية، من أكبر وأقدم الجمعيات في العالم، يمارس أعضاؤها طقوساً ومراسيم معقدة. والأعضاء على درجات، تنتهي بالرئيس الأعلى لجميع المحافل الإقليمية. وتقصر عضويتها على الذكور. ولأصحابها معتقدات دينية خاصة لايبوحون بتفاصيلها. وأقدم محفل لهم هو المحفل الانكليزي المؤلف في ١٧١٧م. وهناك محافل فرعية ومستقلة لهم في انحاء العالم كافة. وقيل إن عدد اعضائها الكلي قد يزيد عن ستة ملايين. حاربت الماسونيةَ الأديانُ كافة ورمتها بالإلحاد والزيغ. واتُهم اعضاؤها في بلاد كثيرة بالتجسس والعمل لمصلحة الاجنبي صدقاً أو كذباً في حين ماكانوا يقبلون للعضوية ملحداً. وهذا من أعجب العجاب.

(٤٧) نهوض القومية في البلقان (Stone Watson :The Rise of Nationality in The Balkan) ص١٣٥.

تركيا الفتاة وغطائها جمعية الإتحاد والترقي. اذ لم تكن لديها فكرة معينة للدعوة الى قومية عربية جامعة تهدف الى إقامة دولة أو دول مستقلة مثلما فعلت دول البلقان (صربيا، مونتينگرو، ألبانيا، اليونان... الخ) كيانها منفصل عن الدولة العثمانية. بعد تعليق دستور ١٨٧٦ العثماني[٤٨]. بدء هؤلاء يطالبون بعودة الدستور والإصلاح تحت تأثير الجامع الديني. ما أن اتضح هدف (الجون ترك: تركيا الفتاة) للعيان اثر انقلاب ١٩٠٨، واعتماد الانقلابيين سياسة التتريك، حتى راح قادة الرأي والمثقفون العرب يفكرون بمستقبلهم على أساس قومي وبالأسلوب الذي احتذاه الثوار الترك قبلهم، فطفقوا يؤسسون جمعياتهم السرية الخاصة للدفاع عن حقوق العرب، لكن ضمن الإطار العثماني.

لم تكن هناك نزعة إستقلالية قط ولم يبد شيء من هذا في برامج أي جمعية من تلك الجمعيات[٤٩]، إلاّ انها على كل حال أيقظت شعوراً قومياً واضحاً دفعت به أحداث الثورة الحجازية، التي عرفها بعضهم بالثورة العربية الكبرى الى الأمام، وبلورت الفكرة الإستقلالية منه بلورة تامة.

★★★

وبالرجوع الى التعبير الوحيد للحياة العربية بالمعنى العرقي الضيق تبرز لنا الحركة الوهابية، التي نبطت في قلب جزيرة العرب ونادت في القرن الثامن عشر بالرجوع الى مباديء

(٤٨) استنّه مدحت باشا والي بغداد الشهير ثم الصدر الاعظم (رئيس الوزراء). أخذ بالاساليب الديمقراطية الحديثة (الانتخابات، البرلمان. الحد من صلاحيات السلطان...) أعلن عبدالحميد الثاني تطبيقه والتقيد بأحكامه ساعة نصبه خلفاً لأخيه المخلوع عبدالعزيز، لكن ما لبث ان تنكّر له وأبطل العمل به واستاق مدحت وكل من زامله في عمل الدستور الى محاكمة صورية بزعم التآمر على حياة أخيه المخلوع. ونُفي ابو الدستور الى الطائف حيث دبر أمر قتله خنقاً في السجن ١٨٨٤ وله من العمر ٦٢ عاماً.

(٤٩) بين الجمعيات السرية التي تسنى لي إحصاؤها: (جمعية العربية الفتاة) وتعرف بالفتاة فقط او بـ(العربية الفتاة) في سورية ولبنان، و(الجمعية الثورية السرية) في سورية و(جمعية الإخاء العربي العثماني) و(المنتدى الادبي) و(الجمعية القحطانية) و(جمعية العلم الأخضر) و(حزب العهد). هذه كلها تأسست بالأصل في البصرة وعمادها الضباط: (الجمعية الاصلاحية) في البصرة. (النادي الوطني العلمي) في بغداد. (حزب اللامركزية الادارية العثماني). وكان لمعظم هذه التنظيمات فروع في غير محل تأسيسها. لم أجد شخصية مصرية بارزة تشارك في هذه الاحزاب غير شخصية الضابط عزيز علي المصري، أحد مؤسسي حزب العهد. فقد كان في مصر اثناء تلك الفترة وقبلها احزاب مصرية بحتة وأظهرها (الحزب الوطني) الذي تزعمه مصطفى كامل و(حزب الأمة) الذي تزعمه احمد لطفي السيد و(حزب الاصلاح) على المباديء الدستورية. وهي من الاحزاب التي سبقت حزب الوفد وخمل ذكرها بقيامه. أحزاب مصرية صرفة لا علاقة لها بالعروبة.

الإسلام الأولى. وهي حركة مبدأية فكرية خالية من أية ميول قومية قصرت اهتمامها على تنقية الإسلام من الممارسات الدخيلة والخرافات التي لصقت به عبر القرون. مع هذا فقد قدّر لها ان تعمل عمل مبدء تنظيمي لبدو الشمال اشتم منه نسمات من ريح الإستقلال والتحرر. وتلك ظاهرة غريبة بحد ذاتها نواجه فيها واحداً من النقائض الاجتماعية – التاريخية. فمع إن الوهابيين عرب أقحاح، إلاّ أن اهتمامهم القاصر انصبّ على تنقية الإسلام من الشوائب التي علقت به وجعلهم مسلمين أولاً. وعلى أساس من هذا، فإن وعياً سياسياً للعرب شبيهاً بذلك الوعي، الذي زال بنجاح في نشر وتعميم الدين الإسلامي عند أول ظهورهم على خشبة مرسح التاريخ البشري، لاتستطيع ان تجدها في أنسالهم هؤلاء. تراهم دون شعور منهم يقطعون مسافة طويلة للعودة الى أقدم فترة من فترات البداوة القبائلية وهي الفترة التي تتقدم الوعي القومي. وأعني بذلك الوعي الذاتي للعرب الأقحاح (البدو) ازاء المستعربين أو مدّعي العروبة، وهم سكان المدن أو الحضريون، من دون مقدرة ولا إرادة في إحياء تراث العرب والإسلام الفريد. وها هوذا دين عالمي ولغة عالمية. أمن الممكن أن يستخدما معاً لتغطية حالة تفردت به اللغة في تحديد المجتمع ذي الجنسيات المتعددة تحديداً يستبطن صهراً وإذابة؟

مع هذا كله، فنحن نخطأ خطأ بيّناً إذ نقول بأن التفوق القومي العربي قد زال. فما برحت حتى يومنا هذا شجرة نسب تعود بصاحبها الى قبيلة عربية معروفة أو الى اسرة النبي أو قبيلته أو الى أصلاب الخلفاء راشديهم وامويهم – حرزاً ثميناً ومدعاة فخر ووثيقة إثبات للعربية الأصلية. وإن كان هذا التفوق يخلو اليوم من معنى كبير(٥٠).

كذلك من العبث ان نبحث عن تجربة تاريخية مشتركة جمعت كلاً من مصر واليمن والعراق ومراكش، لا لأن الفروق بينها عميقة بطبيعتها بل لأن التفاعل الناجم عن التماس والروابط قبل انشاء دولها الحديثة لم يكن له وجود. بل حتى عندما كان الإسلام حقيقة ساطعة لامعة تنبض بالحياة. فتلك الدول التي قامت قبل هذا العهد لم تعمل معاً وبانسجام حتى ضد الغزاة المغول والصليبيين والتتر والأتراك. وعلى الصعيد السياسي لم يؤطر تناسقه الآيديولوجي بأي إطار من الوحدة الصميمة. ففي خلال السنوات الألف التي سبقت الحرب العالمية الثانية كانت هذه الدول التي عُرفت بعدها بالدول العربية تنافس إحداها الأخرى وتنازعها بدرجات متفاوتة.

(٥٠) عند البدو الأوائل كان ينظر الى المنحدر من صلب الأم بعين المستوى الذي يُنظر اليها المنحدر من صلب الأب، لكن منذ قيام الخلافة العباسية لم يعد للأول منهما قيمة. اذ كان معظم أمهات الخلفاء من الإماء والمحظيات الأجنبيات. حتى الأئمة العلويون وأنسالهم، فلم تخل دمائهم أيضا من دم الأجنبي لعلّة التزاوج إعتبارا من الإمام الرابع فصاعداً.

كانت مفاهيم القومية العربية في الواقع موضع اهتمام وخصوصية أقلية ضئيلة، والأغلبية لم يكن قد مسّها ولو عن بعد مفهوم للقضية واضح المعالم، كانت تبدّت القومية خلال الحربين العالميتين فهي أشبه بانفجارات عاطفية حماسية كثيراً ما استخدمها الساسة المحليون أداة سيطرة ومساومةٍ وعنف وتحريضٍ غوغائي.

ومصر بالذات وهي أكبر بلد مسلم ناطق بالعربية، الدولة التي تعتز بأطول كيان سياسي حديث وهوية، كادت تكون منغلقة على نفسها منشغلة بذاتها خلال العقود الأربعة الأواخر والأربعة الأوائل من القرنين التاسع عشر والعشرين. لم يكن هناك محل للعروبة أو القضية العربية. فقد سيطرت على تفكير كتابهم ومفكريهم والمشتغلين في الأمور العامة منهم مسألة التخلص من السيطرة البريطانية والإمتيازات الاجنبية. ومن نتيجة ذلك ولدت القومية المصرية وراحت بعيداً عن القومية العربية وإتخذت صبغة إقليمية بحتة. وبقيت كلمة عربي عندهم تعني البدوي في مصر. كانت نسبة الفلاحين ٩٠٪ من مجموع السكان وكان من الصعب حتى ان تشرح لهم كيف إن مجرى الأحداث جعلت بدو الصحراء الدخلاء عليهم تاريخياً (واحياناً الأعداء) صنواً معادلاً لهم وهم فلاحو أقدم دولة فلاحة في العالم.

والقبط والآشوريون (قاطبة مسيحيي العراق) وهما أقدم مجتمعين عرقيين مسيحيين في الوجود لم يتأثروا بريح القومية العربية ولم تفز منهم بطائل، ولم يعلق منها شيء في أذهانهم خلال العقود الثمانية التي حددناها آنفاً. إن استجابتهم الوحيدة الواضحة الى وسطهم الإسلامي هو إستجابة التعايش في الوطن الواحد خلال حقب موغلة في القدم، إستجابة محيط وبيئة وخضوع متساو تقريباً لتعامل سياسي معين، ولحاكم أجنبي واحد.

والأمر يختلف في سورية ولبنان، ففضلاً عما ذكرناه، إستخدم المسيحيون هنا فكرة القومية بمثابة جسر يصلهم بالأغلبية المسلمة، لكن في الوقت الذي وجد علماؤهم وادباؤهم ومفكروهم في رفع شأن اللغة العربية وبعث تراثها العلمي والأدبي وفي تهيئتها لاستقبال منتوج الحضارة والفكر الغربيين – سيؤدي الى بلورة الدعوة للقومية العربية، بقي القبط مشدودين الى وجهة النظر الفرعونية التأريخية التي قُدّر لها في حين من الزمن ان تسري عدواها الى المسلمين المصريين بشد الطرفين الى الماضي المصري العريق المؤدي الى الوطنية المصرية البحتة. لهذا بقيت مصر مدة غير قليلة بعد الحرب العالمية الثانية مشدودة الى فكرة الوطن المصري ومشاكله لاسيما مع الدولة صاحبة النفوذ فيها. وكل ذلك يتجلى فيما كتبه سياسيوها الأدباء ونظمه شعراؤها العظام وعلماؤها الاجتماعيون وأدباؤها الخالدون في سفر تاريخ اللغة

العربية.

كان الوضع البائس المزري للأغلبية الساحقة من المصريين لا يسمح لهؤلاء بفسحة من الوقت ليلهوا بترف المناداة بالعروبة والوحدة العربية، بل التعصب لفكرة قومية مهما كان نوعها. وما كانت الدعوة الى الفرعونية إلاّ جزءً من محاولة مقارنة لهذا الوضع الشقي بالتذكير بالماضي المجيد.

كان المصريون المسلمون يشعرون بإسلاميتهم وبارتباطهم الديني مع البلاد الناطقة بالعربية وبعض كتابهم وسياسييهم المتأدبين دعوا عملاً الى توثيق هذه الرابطة بشعور منهم على أية حال بأنهم أعضاء في الجمعية الإسلامية الكبرى الواسعة الرحاب. وفي داخل هذا الإطار بقي ارتباطهم المحلي قوياً بارزاً. انه لموقف يتفق تماماً مع تعاليم الإسلام ونهجه. فالدين في الإسلام فوق القومية.

في هذا المجال لا يسعني تجاهل ما كتبه «من المختارات» العام ١٩٦٧ المفكر والاديب الكبير سلامة موسى، وهو قبطي يمثل طائفة الوطنية المصرية:

"في العام ١٩٣٠ أكثر ما كنت أخشاه هو أننا سنتغلب على المستعمرين ونطردهم لكننا سنعجز عن التغلب على العصور الوسطى في حياتنا ونهفو الى الدعوة القديمة: العودة الى الأقدمين. إن الثورات الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية في عصرنا هذا خلقت مجتمعاً جديداً معقداً غريباً، بحيث لم يعد في الماضي العربي دروس مجدية، وشريحة كبيرة منهم تعمل حثيثاً لإحياء المجد الضائع. وهو أقوى الآن من أي وقت مضى والسبب بسيط: النصف الماضي من هذا القرن قد جلب للعرب ست حروب كبيرة وعدداً آخر أصغر منها، معظمه كانت عاقبته الهزيمة على يد دولة حديثة جداً، صغيرة جداً تستند في دعواها بالأرض الى تاريخ قديم. **وهي أيضاً تجد قوة معنوية كبيرة في دينها، إلاّ أنها تكيفت بنجاح يفوق أي نجاح آخر بلغته الدول العربية بمراحل وفقاً للأساليب الحديثة والتطور الحضاري الذي بلغه العلم.** الوجود الإسرائيلي منغرز في الفكر العربي بوصفه انكاراً لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. ولتفسير تلك المحنة إستمر العرب في لوم القدر واليهود والغرب والله. والمؤامرات والاكاذيب."

في حين يكتب (عبدالرحمن عزام) وهو أول امين عام للجامعة العربية (العام ١٩٤٦):

"المؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوان لاتفرقهم الأوطان ولا العصبيات ولا

المنافع ولا الخوف ولا المنفعة ولا العبودية ولا سبب من الأسباب. للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حل وأينما كانت الدار. **فلا جنسية تميز الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسوله.**

والدعوة المحمدية **لا تعرف الوطنية والعنصرية** بالمعنى الحديث. فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية فهو يميد مع العقيدة بل هو في الحقيقة وطن معنوي والمسلم اخو المسلم اينما كان، أجاوره أم تباعدت به الأرض. والمسلم اينما حل في دولة إسلامية فقد حل في وطنه."

وقبله كتب الصحافي والشخصية العلمية المصرية (رشيد رضا)[٥١] في مجلته الشهيرة (المنار- ١٩١٤) من مقال بعنوان (الجنسيات في المملكة العثمانية):

"لم يوجد دين من الاديان ألف بين شعوب وقبائل مختلفة في جميع روابط الجنسية. وجعلها امة واحدة وجنسية واحدة إلاّ الدين الإسلامي وقد بينا هذا مراراً فلا نعيده الآن... **إن العصبية الجنسية في هذا العصر قد دخلت في طور سياسي جديد وكان العرب آخر الأجناس شعوراً به، الآن سوادهم الأعظم مسلمون يكادون لا يشعرون بغير الجنسية الدينية.**"

من هذا يتضح للقاريء موقف اللامبالاة الذي اتخذته مصر من الإنطلاقة الحجازية في العام ١٩١٥ التي عُرفت بالثورة العربية الكبرى، وقد نبتت فكرتها في مصر التي كانت أيضا قاعدة تموينها وتمويلها وإسنادها عسكرياً وفي معزل تام عن المصريين كما سنرى. وكل هذا سيأتي بحثه بتفصيل.

على ان عبدالرحمن الكواكبي السوري النجاد. ميّز في كتابه (طبائع الإستبداد) بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب...

"تلك المكانة الخاصة التي يجب ان يحتلها العرب في الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم... ولأن عرب الجزيرة هم المؤهلون لإعادة مجد الإسلام لأن العناية الإلهية حمتهم من الفساد الخلقي الذي ألمّ بالأتراك..."

فهو يستبعد والحالة هذه كل من يرى نفسه عربياً من غير المسلمين، وكما ترى أيضاً لاتجد

(٥١) محمد رشيد رضا ١٨٦٥-١٩٣٥: أصله من لبنان، إلاّ انه عاش طوال عمره في مصر. هو مؤسس مجلة (المنار) ورئيس تحريرها، من علماء الدين الاسلامي وأحد رجال النهضة المصرية. ومن تلاميذ الإمام الشهير محمد عبده.

في هذا القول دعوة الى القومية، فتركّزه منصب على الإسلام بالدرجة الأولى[٥٢].

قبل ان يعلن السلطان عبدالعزيز آل سعود عن قيام مملكته بعنوانها الحالي كان بوسعه ان يقول دون تردد بأنه مسلم أولاً وعربي ثانياً. وكثير من حكام الدول العربية القوميين عقيدة وتسلكاً لايستطيعون إلاّ مجاراته في هذا. إن موقفاً كهذا من الملك السعودي، وهو موقف يعيد الى الذهن الأحوال السياسية التي سادت القرون الوسيطة ساعده على أن يستخدم لإدارة بلاده مسلمين من العراق ومصر وسورية وغيرها من البلاد الإسلامية. دون ان يجد في ذلك أي حراجة. القرن التاسع عشر كله لم يعرف قضية للعروبة وللعرب في المحافل السياسية الدينية. وقليلاً ما كانت لفظة "عربي" أو "عرب" بالذات تطلق في الوثائق والسجلات الرسمية على سكان الجزء العربي من الإمبراطورية العثمانية، تماماً مثلما كانت الصفة بعيدة عن الكتب والمؤلفات التي وصلتنا من القرن الثاني عشر فصاعداً. بالأحرى كانت تطلق على بدو الصحراء والى حد ما على بعض سكان الأرياف. فالمتعارف المتفق عليه هو إطلاق لفظتي مسلم أو مسيحي لبيان الفرق حيثما دعت الحال[٥٣].

في عراق القرن التاسع عشر، بل قبل الحرب العالمية الأولى كان قسم كبير من السكان لايشعرون باختلافهم عن الترك طالما جمعتهم رابطة الدين. والأغلبية الشيعية فيه بقيت مستكنة للتسلط العثماني ومماليك الحكام لأنهم كانوا إسلاماً على اية حال. العراقيون جميعاً ومن ضمنهم الأقلية المسيحية، كانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولتهم والخليفة السلطان رئيسها غير المنازع. واليك ما يكتبه (توفيق السويدي)[٥٤] في هذا الصدد:

"كل الذي عرفه أهل العراق عن انقلاب (الجون ترك ١٩٠٨) هو أنه سيجعل المسلم وغير المسلم إخواناً في الوطن الواحد وأنه سيحدّ من سلطة الخليفة وهذا ما لم يرضه أحد منهم، حتى ان أكثر المصلين في المساجد (ببغداد) بكوا على سلطانهم (عبد الحميد) عندما ورد في خطبة الجمعة لأول مرة اسم السلطان محمد الخامس."

(٥٢) ١٨٤٩– ١٩٠٢: كاتب اجتماعي وصحافي سوري – حلبي أنشأ في مدينته جريدة (الشهباء) في ١٨٧٧ ولاحقه الأتراك بسبب آرائه في الحرية. (انظر عن سيرته في هوامش الفصل الأول).

(٥٣) إعتاد الأتراك ان يطلقوا على هؤلاء عبارة (پيس عربلر) أي العرب القذرين وأمثالها من العبارات المهينة.

(٥٤) توفيق السويدي ١٨٩٢–١٩٦٨: من أسرة عربية عراقية اشتهرت بعدد من العلماء والأدباء. تولى رئاسة الحكومة العراقية ثلاث مرات. وكان وزيراً في عدة وزارات. ذو دور هام في عالم السياسة العراقية والعربية.

وليس من قبيل التكرار أن نعيد هنا ما أثبتناه من قول للرحالة والمبشر البريطاني (ويگرام) في كتابه (مهد الشرية) لوجه الشبه بين القولين عن الموصل لعين المناسبة:

"الحق يقال ان هذه المدينة هي من أشد مدن الإمبراطورية العثمانية تعصباً وهي بالتأكيد البقعة الوحيدة التي كان رجالها يبكون في الشوارع عندما سمعوا نبأ خلع السلطان عبدالحميد، ويندبونه بحرقة قلب. فبينما كانت البهجة تعم أرجاء الإمبراطورية بسقوط الطاغية، اقيمت في الموصل مناحات تتحدى الحكومة، كنت تسمع خلالها هذه العبارة الراثية: اليوم هوى ركن من اركان الإسلام."

في وقت متأخر لهبوب الريح القومية لقبت هذه المدينة بقلعة العروبة والقومية وحملت لقبها بجدارة في أحداث آب ١٩٣٣ الدموية.

المسيحيون الناطقون باللغة العربية منقسمون على أنفسهم رغم أنهم الأوائل في تبني الفكرة القومية. فالتظاهر الشديد بالإسلام عند القوميين العرب خلق ردة فعل عميقة أدت الى بحث جدي بينهم عن حقيقة هويتهم القومية، وقد حمل لواءه الآشوريون في بلاد ما بين النهرين في عين الوقت الذي أعلن المارونيون احتجاجهم على تسميتهم عرباً. المارونيون كانوا أول المنضوين من كنائس المشرق تحت راية الفاتيكان، وكان ذلك في العام ١١٨٠م، أي قبل سقوط الخلافة العباسية بحوالي ثمانين سنة، ثم وضعوا أنفسهم تحت الرعاية الفرنسية منذ اوائل القرن التاسع عشر – هؤلاء والطوائف الأخرى المسيحية اقتبلوا اللغة العربية بمثابة سبيل للخروج من عزلتهم التقليدية. لكن سرعان ما انكفأوا على الأعقاب وعادوا الى وضعية الدفاع عن النفس إزاء المحيط الإسلامي الذي اكتنفهم بعد إقتبال المسلمين الصيغة الشوفينية المتعصبة من القومية – أي بعد صيرورة مسلميهم عرباً قوميين، مقترنة قوميتهم بتلك الصحوة الإسلامية المتشددة. وبدأوا هم من جانبهم يبحثون عن هويتهم القومية مقترنة أيضاً بالصحوة المسيحية إن جاز لنا التعبير، فدعا أدباؤهم وساستهم ومفكروهم الى إحياء ما دعي بالقومية السورية. والأصل الآرامي والفينيقي وما لا ادري. ومثلهم في هذا مثل مسيحيي العراق العربي.

في العقدين الأولين من القرن العشرين لم يكن هؤلاء يشعرون بعاطفة قومية واضحة تشدهم الى الماضي. وفي المبدء لم يكن يعنيهم في شيء أن يصنفهم القوميون الجدد في عداد العرب، أو ان يعاملوهم كما عاملتهم الدولة العثمانية من قبل، أي إعتبارهم (ملة) أو(طائفة) على أساس الدين فحسب. لأن "العثمانية" كانت الخيمة التي نُشرت فوق كل القوميات في

الإمبراطورية. إلاّ أن الإحتلال البريطاني غيّر كل شيء بالنسبة الى علاقة الأقليتين الهامتين المسيحية واليهودية بالأغلبية المسلمة.

في العام ١٥٥٢ انضم فريق من أتباع كنيسة المشرق الى الفاتيكان وعرفوا منذئذ (بالكلدان) وإزداد عدد المنضوين الى الكثلكة طوال قرنين من الزمن لتغدو هذه الطوائف المنشقة عن الكنيسة الآشورية (كنيسة المشرق) أغلبية طائفية واضحة في القرن العشرين. هذه الطائفة المستجدة ربما شعرت بنوع من الإمتياز والرعاية خاص بسبب قيام علاقات دبلوماسية بين السلطان العثماني وبين ملك فرنسا وپاپا روما ضمنتها وعززتها معاهدات خُصت فيها فرنسا والفاتيكان بامتيازات معينة تتعلق بحرية التجارة والتبادل الاقتصادي وبحرية نشاط البعثات الدينية. وقد حصل في العراق مثلما حصل في سورية ولبنان لكن بنطاق أضيق.

وبخلاف أتباع كنيسة المشرق (الآشوريين) سكان الجبال والقرى والبلدان في قلب كردستان، بقي حضريو المسيحيين العراقيين حتى العقد الثاني من القرن العشرين، والشعور القومي مبهم لديهم غاية الإبهام لايهمهم في شيء إن صُنفوا في عداد العرب أو أخرجوا من دائرته. إلاّ ان الحال انقلبت فجأة عندما ارتفعت يد الأتراك عن هذه البقعة من الأرض بالغزو ثم الإحتلال البريطاني.

بالأول عرف العراقيون السلطة المحتلة بهويتها المسيحية، وقد حاربوا جيوشها الغازية الى جانب الأتراك بحمية الدين المشترك وجهلوا أو ربما تجاهل العارفون منهم علمانيتها وبأن رئيس دولتها لايشبه خليفة إستنبول المسلم بأي حال، بمعنى إنهم صنفوا السلطة الجديدة على الأسس التقليدية القديمة. وكانت شبه مقاطعة لاسيما من الأغلبية الشيعية. وبشعور واضح لهذه الحالة لم يكن بالمستغرب قط ان يشجع البريطانيون الشعور القومي العربي، كمحاولة للحد به من الشعور الديني المتعصب ضدهم. وقد جاءت ومعها طاقم للحكم مشبع بالحماسة القومية العربية من رجال الثورة العربية الكبرى، وهيأتهم لتسليمهم مقاليد الحكم والإدارة من المبدء حتى الإستقلال. ثم وبعد تأمينهم استغلال النفط لم يعد يهم البريطانيين إن ذبح العراقيون بعضهم بعضاً أو تصافوا، فهم مع القوميين أو مدعي القومية عندما يجدون فيهم آلة لتحقيق التوازن في الداخل من شأنه ان يبعد الخطر عن النفط، وهم ضد الأقليات القومية عندما يجدون إن المطالبة بالحقوق والمساواة قد يضع استغلالها النفطي في خطر. وليفكر القوميون العرب ما يفكرون وليفكر الشيعة ما يفكرون وليفكر الآشوريون ما يفكرون وليفكر الكُرد ما يفكرون، فالنتيجة واحدة لأن الهدف واحد.

يقول القوميون العرب إن بريطانيا هي التي حرضت الكُرد وهي التي حرضت الآشوريين ضد القومية العربية، والآشوريون يرفعون ظلامتهم للعالم كله بسبب وقوعهم ضحية الخيانة البريطانية، والكُرد يحملون اللوم والتبعة على القوميين العرب المتعصبين الذين يلاقون تشجيعاً بريطانياً على سحق إنتفاضاتهم وثوراتهم بإرسال سلاحهم الجوي علناً لدك قراهم ومعاقلهم. والجميع ضحايا هذا الخداع البالغ التعقيد ولم يكن هناك عاقل واحد بين الأغلبية العراقية، ولاسيما القوميين منهم من ينتبه الى هذا.

ولتشجيع البريطانيين فكرة القومية العربية في العراق سبب حيوي آخر يتعلق بإنجاح سياستها في بناء عراق بحدوده الجغرافية الحالية، فقد كانت هناك مطالب جدية لإقامة كيان كُردي مستقل، وكان هناك تهديد تركي بقطع ولاية الموصل عن هذا الكيان، فضلاً عن مواجهة التهديد الشيعي في الجنوب. وقد دفع البريطانيون ثمناً فادحاً لهذا في ثورة العشرين والثورات الكُردية المتلاحقة.

كان البريطانيون بحاجة الى آيديولوجية قومية لبناء هذا الكيان وقد وجدوها في القومية العربية واختاروا لها خير من يمثلها في نظرهم!

ما عتم البريطانيون أن وجدوا الطريق ليس بالسهولة التي ظنوها. كانوا بحاجة ماسة الى متعلمين وموظفين وكتبة وعمال ومستخدمين. وازاء المقاطعة الشيعية، وقلة هذه الأصناف بين العراقيين الآخرين المسلمين، لم يكن هناك بد من استخدام المسيحيين واليهود لملء هذه الشواغر. واقبل هؤلاء، وبينهم نسبة كبيرة جداً من المتعلمين ذوي الكفاءات المطلوبة دون حرج من دين وبدافع الحاجة. ومن هنا بدء الشك القومي في ان المحتل يخص هاتين الأقليتين برعاية خاصة وأنه يريد أن يخلق منهم طبقة جديدة تساند وجوده الدائمي في البلاد. وارتفع الشك الى شبه اليقين عندما عمدت القيادة العسكرية الى تجنيد الليڤي الآشوري[٥٥] ورؤي كل ذلك كنوع من المحاباة والارتفاع بالصلة الدينية بين السيد المحتل وهؤلاء.

والى حد ما كانت النظرة الى الأقلية الهامة اليهودية مشابهة، على أن اليهود بقوا طوال خمسة وعشرين قرناً وأكثر في بلاد الرافدين محتفظين بهويتهم مع انهم لم يعرفوا في حياتهم إلاّ العربية. ولم يستخدموا لغتهم العبرية إلاّ لقراءة التوراة. وظلوا يتمسكون بطقوس دينهم ولم ينقسموا الى فرق وطوائف ولم تؤثر فيهم الإرهاصات التي طرأت على إخوانهم في

(٥٥) في السنتين الأوليين من تأسيس وحدات الجيش العراقي، كان تعداده (٢٠٠٠) في حين بلغ عدد جنود الليڤي في خدمة البريطانيين حدود أربعة آلاف!

أوروبا وأمريكا. كما إنهم لم ينتسبوا الى قومية، ولم يطلقوا على انفسهم إسماً لقومية. لم تصلهم ريح النهضة القومية وعصر الإنفتاح القومي للقرن التاسع عشر، ذلك العصر الذي كان هؤلاء ضحيته في كل مكان. وقد وفقت الحركات القومية ذات الطابع الإنساني الليبرالي في القضاء على عوامل التمييز العنصري والديني الى حد كبير. لكن...

عندما أخذت القوميات الأوروبية تواجه الحكام الأتوقراطيين في صراع دموي، وجد اليهود انفسهم في موقف خطير. فهؤلاء إعتادوا الخضوع للنظام السائد مهما كان لونه، وتعلموا أباً عن جَدٍّ عن سلف قيمة الولاء لصاحب السلطة الفعلية. فكان القوميون ينظرون اليهم دائماً كأعداء زرعوا في وسطهم، وفي عين الوقت كان هؤلاء الحكام في محاولة منهم لتحويل العاصفة وتخفيف الضغط عنهم، يثيرون اهتمام خصومهم باستعداء شعبي واثارة جماهيرية ضد هذه الأقلية باستخدامها كباش فداء. فيثيرون مذابح قد تكون عفوية وقد تكون منظمة، وفي هذا تلتقي الأقلية اليهودية والأقلية المسيحية في البلاد الناطقة بالعربية قبل قيام دولة اسرائيل. فقد وقع كلاهما ضحية هذا الاستعداء، فكانت مذبحة آب ١٩٣٣ في الآشوريين وهي تذكرة أليمة بمذبحة المسيحيين في دمشق العام ١٨٦٠، وبعدها كانت مذبحة اليهود في بغداد عقب فشل حركة مايس ١٩٤١ القومية الموالية للنازية.

اتخذت الفكرة القومية والدعوة لها في العراق من المبدء اتجاهاً بعيداً عن القومية الليبرالية الإنسانية ذات الإتجاه الديمقراطي. وسلكت سبيلاً مشابهاً الى حد كبير لسلوك جماعة (الجون ترك) الإستعلائي التحكمي ونزوعهم الى سياسة الصهر والإذابة – للأقليات العنصرية، بل التصفية عند اللزوم مثلما حصل للأرمن. فقد كان الضباط العراقيون العرب أو الناطقون بالعربية الذين سلمتهم السلطة المحتلة مقاليد الحكم، نتاجاً خالصاً للذهنية التركية كضباط (الجون ترك) زملائهم في الدراسة وفي الخدمة العسكرية وقد خاضوا حروباً معاً دفاعاً عن الإمبراطورية في مختلف ميادين القتال وقبلها تلقوا تعليمهم وهم صغار على أيدي معلمين أتراك وبعين العقلية كانوا يمارسون الحكم. وكـ(الجون ترك) ظل هذا الجيل من القوميين العرب ينقمون على الغرب ودوله لا بوصفها عند القدماء منهم والمحدثين دولاً مارست وما تزال سلطة المنتصر على العدو المغلوب، بل لغيرة وحسد خفيين غامضي الحدود – على التقدم الحضاري الذي أصابوه. وقد كانت وماتزال عقدة نقص خطيرة بدت في أحيان كثيرة بشكل إعجاب يمازجه حقد في كتاباتهم وآرائهم، وسنقدم منها نماذج طريفة في فصول لاحقة.

★★★

ليس هناك الكثير مما يقال حول يقظة قومية عربية في بلاد شمال افريقيا الأخرى.

بقيت هذه الاقطار بعيدة عن الحركات القومية الى ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان هؤلاء بصورة عامة يدينون للعثمانية بنوع ما من ولاء، ولما إنتزعت فرنسا هذه البلاد قبل قرن ونصف قرن تقريباً بدا وكأن كل شيء يسير وراء الثقافة الفرنسية الجديدة وتراجعت اللغة العربية الى الخلفية وحصرت بين جدران المساجد والمدارس الدينية. وتصدرت اللغة الفرنسية مقام اللغة الأولى[٥٦].

في القرن التاسع عشر لم يوجد في هذه الاقطار طبقة متنورة واعية سياسياً مثلما كان في مصر وسورية ولبنان. الدائرة العربية كانت استمراراً ضيقاً للماضي البعيد متقوقعة على نفسها منكمشة، وقد حرّض الإستعمار الفرنسي على عدم الإقتراب منها بعد سحق ثورة عبدالقادر الجزائري[٥٧]. ويغلب العنصر البربري في هذه الأقطار. هؤلاء الذين تعدادهم ثمانية عشر مليوناً أو أكثر في يومنا هذا، عاشوا شبه منفصلين مع الغزاة ثم المهاجرين العرب رغم دخولهم التدريجي في الإسلام ابتداءً من القرن الثامن الميلادي، لكنهم لم يحاولوا الإمتزاج معهم. ويبدو للباحثين انهم متصلون لغوياً بالمصريين القدماء. فاللغة البربرية والمصرية القديمة وفرعها القبطي تنتمي في عرفهم الى (الأسرة الحامية) من مجموعة اللغات السائدة، كانوا أكثرية مطلقة عندما بدأت هجرة عربية جماعية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ودخلها الجمل العربي معهم، فتبناه البربر وانقلبت غالبيتهم الى البداوة وغدو رحّلاً ومربي جمال[٥٨] واحتفظوا بلغتهم ولهجاتهم.

(٥٦) في ٢٧ من كانون الاول ١٩٩٠ استن البرلمان الجزائري قانوناً سمي (قانون التعريب) ويقضي بتعريب المراسلات الرسمية الحكومية. كان ذلك بعد مرور (٢٨) عاماً على الإستقلال. ويزداد العجب ان هذا القانون لم يمر مروراً هادئاً طبيعياً، فقد لقي معارضة شديدة داخل البرلمان وسخطاً في أوساط جزائرية واسعة.

(٥٧) زعيم طريقة صوفية (١٨٠٨–١٨٨٣) نفي الى فرنسا بعد فشل حربه العقائدية مع الفرنسيين خلال خمسة عشر عاما (١٨٣٢–١٨٤٧)، استسلم بعدها ونقل الى فرنسا بحفاوة وإكرام، ثم أعلن رغبته في سكنى سورية. فنقل اليها بعد تعهد منه ان لا يعود الى الجزائر أو يعاود نشاطاً. وقد شارك ابناؤه وأحفاده مشاركة فعالة في النشاط السياسي السوري.

(٥٨) في العشرين من آب ١٩٩٨ اصدر الملك الحسن الثاني مرسوما يقضي بتدريس اللغة الامازيغية (لغة البربر) في المراحل الابتدائية واكد في خطاب وجهه الى الشعب بمناسبة ذكرى (الثورة) ان درس اللهجات المحلية (يقصد الامازيغية والريفية والسيوسية) السائدة في مناطق التوزيع الجغرافي يساعد في المحافظة على مقومات المغرب وخصوصياته. تعلق جريدة الحياة في عددها المرقم (١١٥٠٩) على هذا بقولها: (تذهب مصادر مهتمة الى اضفاء بعد سياسي على القرار. وقد بزرت دعوات الى التعاطي مع اللهجات المحلية من خلال درسها في الكليات والجامعات ضمن خطة للمحافظة على التنوع العرقي... ويستطيع =

لم تمسّ هؤلاء ريح القومية بربرية أكانت أم عربية، ولم تحاول الأسرة الحاكمة التي هي أسرة علوية مهاجرة ان تمسّ ولو مساً خفياً بمسألة القومية أو الإدعاء بالقومية العربية. لكن إحياء الثقافة والتراث العربي الأدبي لم يعترها وهن، بل زادت نشاطاً ولكن في حدود الثقافة والدين. البربر هم أكبر أقلية في عالم الدول الناطقة بالعربية بعد زنوج السودان.

★★★

ليس هناك ما يمنع حصول تجانس قومي والإدعاء بالقومية بالرجوع الى الماضي التليد وقد يحتاج دعاة القومية الى هذا مبدئياً. إلاّ ان الغلوّ فيه وشدة التمسك به قد يخلق رد فعل سيء.

الفرنسون يقولون في تاريخهم أنهم أحفاد الغاليين Gauls والإيطاليون يفخرون بأن الرومان هم أسلافهم، حتى الأمريكان انفسهم فقد وجدوا لهم اسلافاً يفخرون بانتسابهم اليهم، فأنسال المهاجرين بصرف النظر عن أصولهم العرقية وأرومتهم ينظرون الى (الآباء المؤسسين) للولايات المتحدة نظرتهم الى آبائهم واجدادهم.

لم يكن ثم محيص للوعي الذاتي الإسلامي المسيحي في القرن التاسع عشر في إنبات وغرس بذرة القومية – إلاّ ان يربط بالماضي وليس هناك خير من ماض مؤثل للتقدم الفكري والعلمي المذهل الذي حققته البلاد في فترة معينة من سيادة العرب المسلمين. في عين الوقت ليس هناك مندوحة من الاعتراف باختلاف الماضيين المسيحي والإسلامي في أمور كثيرة جوهرية. لقد استثني الماضي المسيحي من أجندة القومية العربية الإسلامية لمدة طويلة. واستهين بكل ما يعتز به هؤلاء ويفخرون، بل جرت محاولات هوجاء من بعض القوميين

= أي مراقب ان يرصد الآن وجود مجلات وصحف عدة باللغة الأمازيغية..) آه. نقول: بقي البربر عنصراً انثروبولوجياً تحف به الأسرار منذ بداية التاريخ وأصلهم مختلف فيه قد يرجع كما يقول علماء الأجناس الى مجموعات عرقية جاءت من أوروبا (كلتية او اليوسية) اختلط بها فيما بعد الفينيقيون واليونان ثم الرومان. وغزتهم قبائل القندال (الاندلسية) الاسپانية وامتزجت بهم ونتج عن كل هذا التفاعل كثرة في بياض البشرة وزرقة العين والشقرة وطول القامة. كانوا قوام الجيش العربي (بالإسم فقط) في فتوحاته الاوروبية وطارق ابن زياد فاتح إسپانيا بربري. ثاروا على العباسيين وتبعوا الخوارج. وكانت منهم سلالات ملكية حاكمة في كل من جنوب اسپانيا (الاغالبة، الرستميون، المرابطون، الموحدون...) وزالت هذه الدول في أواخر القرن الثالث عشر واختلط اهل المدن منهم بالعرب النازحين من الجزيرة واعتصمت الأكثرية في جبال اطلس والريف والصحراء، وهم مقيمون على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم.

العرب لعملية صهر واذابة لتلك القوميات الصغيرة في القدر العربي الكبير بتزوير فاضح في الوقائع التاريخية الثابتة.

تاريخ كل امة أو شعب أو دولة لايخلو من مواقف مخجلة. ولم ينج أي من الشعوب والأمم من سقطات وعثرات إبتلاها بها حكامهم وأولو الأمر فيهم. وهو مما لايمكن اخفاؤه. وكثير من الأمم الواعية تشجع مؤرخيها على إبراز هذه العثرات وعدم إخفائها والتحريض على النقاش فيها. وفي تاريخ العرب والإسلام[٥٩] احداث ووقائع لاتدخل في عداد الأمجاد والماضي الذي يمكن الفخر به. إلاّ ان كتابات وآثار القوميين العرب، لاسيما في إبان الحماسة الطاغية لها وفي أوقات مخصوصة، ظلت تعمد الى إخفاء هذه الثغرات وتغطيتها وتحرص على الاشادة بالماضي المؤثل المثقل بالأمجاد والمفاخر الى حد التنفر والقرف الذي دعا بعضهم الى التحذير من هذا وبيان اخطار التمسك المغالي بالماضي الى حد نسيان وجوب العمل للحاضر والمستقبل. ويحضرني في هذا ابيات للشاعر العراقي (معروف الرصافي) من قصيدة مشهورة:

تقدم أيها العربي شوطاً ... فإن أمامك العيش الرغيدا
وأسس في بنائك كل مجد ... طريف وأترك المجد التليدا
ووجه في عزمك نحو آت ... ولا تلفت الى الماضي جيدا
ودعني والفخار بمجد قوم ... مضى الزمن القديم بهم حميدا[٦١]

وأذكر للشاعر نفسه أبياتاً من قصيدة قالها عند استيلاء الليڤي على (الفلوجة) في حركة مايس ١٩٤١:

(٥٩) يعتز الكلدوآشوريون كل من جانبه او مجتمعاً بتاريخ أسلافهم عندما كانوا في عصر ما سادة الدنيا. انه إعتزاز كاد يكون جزءً من شخصيتهم، ومن أمثلة ذلك التزوير ما يحاوله قوميو العراق الحاليون وهم حكامه. ففي ١٩٨٠ سخرت السلطة قلم الكاتب والصحافي الفرنسي المرتزق (پيير روسي) ليصدر كتاباً كبيراً مصوراً باللغات الفرنسية والانكليزية والعربية عنوانه الغريب: (العراق أرض النهر الجديد) انفقوا عليه فيما يبدو من نفاسة طبعه مالاً طائلاً اقتبس منه العبارات التالية مترجمة حرفياً من طبعته الانكليزية: "... وعلينا ان نحذر على أي حال من الخلط بين مدلولي لفظتي عربي ومسلم، فموسى يقصد موسى الكليم كان عربياً الا انه لم يكن مسلماً شأنه في هذا شأن آشوربانيبال ونبوخذنصر. ان لفظة (عرب) لم تكن قط تطلق على مجموعة عرقية، لكن على شعب يسكن رقعة مترامية انصهرت في داخله وذابت مجموعات عرقية عديدة باختيارها وبتأثير حضارة العرب"، ص٣٥. "ومملكة اكد اقامها الملك والقائد العربي سرگون أو شروكين بالآرامية، كما ان خلفاءه اسسوا مملكة بابل في السنة ٢٣٠٠ ق.م"، ص٤٣. "... ونتحرك صعداً بحسب احد قوانين التاريخ الى بقعة إستقر فيها العرب الآشوريون"، ص٤٦. "... الإحتلال الأجنبي للعراق الذي تم بعد سقوط العرب الآشوريين"، ص٥١.

ايهـا الانگليـز لـن نتناسـى بغـيكم في مـسـاكن الفلوجـة
ذاك بغي لن يشـفي الله إلا بالمواضي جـريحـه وثبـيـجـة
يوم عـاثت زبان آثور فـيـهـا عـبـثـة تحـمل الشنار سـمـيـجـة
فـاستـهنتم بالمسلمين سـفاها واتخـذتم من اليـهـود وليـجـة

قوات الليڤي التي حاربت في اشتباكات مايس كانت تتألف من ٦٠٠ كردي و٧٠٠ عربي و٩٠٠ آشوري وفق أوثق المصادر.

ولو قدّر للمدّعين بالعروبة والعاملين لإقامة وحدة عربية ان ينجحوا كمقدمة تمهيدية في بناء أمة على أساس اللغة المشتركة والأرض، فسيكون هناك ٩٠٪ أغلبية ساحقة، وهذه الأرجحية العددية ستؤثر اجتماعياً وسياسياً على علاقتها بالأقليات.

كـان على القـومـيين العـرب منذ البداية ان يعـملوا على إزالة الوعي الذاتي الإسـلامي أو التخفيف منه بقدر المستطاع، إلاّ انهم لم يفعلوا بل تقصدت أكثرية الدعاة لها ان تبرز العامل الديني وبشكل صـارخ. فـالى جـانب تنكّر القـومـيين العـرب للروح الليـبـرالـيـة والإنسـانـيـة والديمقراطية التي نادت بها الثورتان الأمريكية والفرنسية والثورات القومية الأخرى لم يتسنّ لهم الأخـذ بآراء فـلاسـفـتـهـا ومـفكريهـا من أمـثـال (ماتزيني وروسـو وتوم بين) وأضـرابهم، وبالانجذاب وراء نظرية القوة والأتوقراطية، ربطوا الفكرة القومية بالدين ربطاً محكماً، فأصبح حلمهم بشعب عربي أو أمة عربية واحدة حلماً يوتوبياً يغدو بكرور الزمن أكثر استحالة، ولقد خلف هذا الإرتباط فيـما خلف مسـحالاً من الدمـاء وصبّ كثيـرا من الـويلات – اثناء فـشل المحاولات القومية المتلاحقة، بل وأكثر من هذا فقد وطّأ لقيام حركات التشدد الإسلامية في الأقطار الناطقة بالعربية كبديل بشكل ما.

الأقلية المسيحية التي اسهمت في الدور الأعظم في تثبيت دعائم الفكرة القومية الحديثة وجدناها منذ مذابح آب ١٩٣٣ فصاعداً تجتاز وضعاً معقداً، سيما بعد قيام الأزمة اللبنانية التي اظهرت هشاشة الوضع المسيحي في الوسط الإسلامي. فلجأت طوائف كثيرة منهم الى البدء في اعادة التفكير في مواقفهم. وقد وجدنا أولئك الذين بقيت مشاعرهم الدينية متينة يعودون الى تراثهم القديم، وكانوا قد هجروه منذ العقد الرابع من القرن الماضي. اما الآخرون وهم اليساريون والقليلو الاحتفاء بالدين، فقد انحازوا الى المعسكر الآخر بأمل قيام مجتمع صحي ديمقراطي يجدون انفسهم فيه على قدم المساواة مع الأغلبية.

كانت اهمية العامل الديني في تاريخ العرب مسألة مركزية. عامل كان له أكبر الأثر لعدة

قرون في تكوين الشرق الأوسط السياسي والاجتماعي واحياناً في تقرير مصيره. وكان على القوميين العرب ان يدركوا بأن مصير الأمم والشعوب وتقدمها لايخضع لمعايير لايستمدها الخلف عن السلف بقدر ما يستمدها من التقدم الحضاري وتطور العقل البشري ونظرته للحياة الجديدة. ومن المؤسف جداً ان عدداً كبيراً من الذين يعنون اليوم بتاريخ العرب المعاصر اما لايعرفون هذا التاريخ بالشكل الذي ينفع الحاضر واما لايعرفونه معرفة صحيحة، واما انهم ينظرون اليه من خلال زجاج ملون لايعكس لهم الآراء السياسية والقومية العلمانية الحديثة، فيتجاهلونها عمداً أو إهمالا. ان القوميين الذين يريدون ان يتفهموا العالم الناطق بالعربية فهماً صحيحاً يجب عليهم ان يدرسوا الإسلام من وجهه السمح المتسامح، كما يجب أن يدرسوا مشاكل الاقليات وعلاقاتها بالأكثرية درساً بعيداً عن شهوة التعصب والعصبية ونيات الصهر والإذابة القومية الكريهة.

الفصل السابع

كتابة التاريخ عند أبي اسحق الصابي . الثورة العربية في الحجاز . الحقائق من الأساطير . المصادر . الابتعاد عما جرى عليه العرف والتواتر واجتناب الأحكام المسبقة . الموقف البريطاني حول مستقبل الامبراطورية العثمانية بعد الحرب . تفكيك الامبراطورية بدل المحافظة عليها وفق السياسة القديمة . مكماهون في مصر . خطط الفرنسيين لسورية بعد الحرب . الاتصال بالعرب والزعماء المسلمين . إساءة فهم الاسلام . الأمير عبدالله ابن الحسين يتصل بالاستخبارات البريطانية في القاهرة . صلة الاستخبارات بالمبعدين السياسيين العرب . موقف الشريف حسين . التلويح بمنصب الخلافة في التصريح البريطاني الأول . حياة الشريف المثالية في منفاه باستنبول . أبناء الشريف : فيصل . التفكير البريطاني في مستقبل البلاد العربية . تأسيس المكتب العربي في القاهرة . استيناف المفاوضات مع الشريف في صيف ١٩١٥ . محمد شريف الفاروقي ، الهياج الذي أثاره في المكتب العربي . المفاوضات تتواصل . المنازعة على تقسيم النفوذ بين بريطانيا وفرنسا في الأقطار الناطقة بالعربية . اتفاق سايكس- پيكو- سازانوف . فلسطين والصهيونية . الوضع الحربي في العراق . نكبة الكوت .

لما استولى (عضد الدولة ابن بويه)[1] على بغداد ، نَقِم على (أبي اسحق الصابي)[2] في أمور ، فأمر بالقبض عليه. ولما كلمه فيه بعض الشفعاء قبل ان يسكت عنه ولا يوقع به ، ولكن يظل في محبسه ويشغل نفسه بتأليف كتاب في مآثر الدولة الديلمية (البويهيّة). حتى اذا فرغ من تأليف الكتاب أخلى (عضد الدولة) سبيله واطلقه. وقبل (الصابي) الشرط وشرع في تأليف الكتاب المطلوب وهو في السجن. وكان اذا فرغ من جزءٍ منه، حُمل الى (عضد الدولة)

(١) توفي في ٩٨٣م. من الذين خلدهم المتنبي بشعره. وهو واحد من اخوة ثلاثة واشهرهم. جعل بلاد فارس والعراق دولة موحدة تحت حكمه. باسم دولة بني بويه (٩٣٢–١٠٥٥م). وهو الذي اظهر قبر الإمام علي بن ابي طالب في النجف وبنى عليه.

(٢) ابراهيم ابن هلال من صابئة حران. أشهر كتاب العربية في عصره اطلاقا. تقلد ديوان الرسائل في دولة بني بويه. اشتهر برسائله التي نشرها له المؤرخ والكاتب الدرزي الأمير شكيب ارسلان (١٨٧١–١٩٤٩).

حتى يقرأه ويتصفحه ويزيد فيه وينقص منه. فلما تكامل الكتاب على نحو ما أراد (عضد الدولة)، قريء عليه جملةً في اسبوع الاّ انه لم يطلق (الصابي) الاّ بعد مرور سنة واحدة على انجاز الكتاب. وقد دخل على (الصابي) بعض اصدقائه وهو في الحبس. وكان مشغولاً بتبييض وتسويد صحائف الكتاب. فسألوه ماذا تكتب يا ابا اسحق؟ فأجابهم «أباطيل انمقُها وأكاذيب ألفّقها».

ولئلا أرمى بعين ما قال الصابي عن نفسه، أو أقف من القرّاء عين الموقف الذي وقفه مؤرخو الاسلام والعرب المتأخرون بعد (الصابي) وهو عندي على الاغلب موقف اتهام امّا بعجز عن تفهّم الحقائق أو قصور في تفسيرها او اغفالها او كتمها عمداً او تزويرها – فقد خرجت في فصولي التالية حول الثورة العربيّة عن الخط الذي التزمه باعفاء القاريء من إثبات المراجع والمضان التي اعتمدتها في كلّ كتابي. واثبتُ هنا مصادري بوضوح حيثما استدعى السياق. فأنا اخشى ان ما سيجده القاريء فيها قد يُزلزل ثقته بما قرأ قبلاً او حُمل على الاعتقاد بصحته في مراجع ومصادر أخرى.

★★★

وضعت في الفصل السالف عاملين تاريخيين هامين لتطور الفكر القومي عند دعاة القومية العربية، كان لهما تأثير سيء العقبى على مسارها وتطورها اللاحق.

تناولت اول العاملين بالشرح. وانا الآن بصدد الكلام عن العامل الثاني.

وقد سبق لي التنويه بظاهرة تاريخية لايمكن اغفالها ولاتصح المجاراة فيها. وهي التي كانت البلاد الناطقة بالعربية ميدانها. كل ما وقع من حروبٍ وثورات واعمال عنفٍ ذات طابع عام في هذه البلاد خلال قرننا هذا كان يهدف بالأساس لتحرير كل بلدٍ لذاته من حكم استبدادي محلي أو من محاولة ازاحة نفوذ أجنبي او من اجل الاستقلال الوطني، لا من اجل رؤى واهداف قومية عربية شاملة. وسواء في الأمر أكانت حدود البلد طبيعية ام مصطنعة ام هي عمل الاجنبي. وقد شذّ عن كلّ هذا تلك الثورة التي اعلنها الشريف حسين ابن علي في مكّة. فقد اعلنت لا باسم مكّة ولا باسم الحجاز ولا باسم الجزيرة. بل باسم العرب – اعلنها ثورة على الحكم العثماني وما ان قطعت شوطاً حتى ثبت لها مفهوم واضح. وانتهى بها الأمر لتطمح الى شمول جزءٍ كبير من البلاد الناطقة بالعربية، وبضمنها الهلال الخصيب بل تعدتها الى المطالبة باقاليم وبلدان لايقطنها ناطق بالعربيّة – بلدان لاتربطها بالقومية العربية صلة الاّ

صلة الدين في بعض الاحيان.

القصّة الحقيقية لهذا الحدث التاريخي لم تكتب بعد في رأيي. ربّما لان مؤرخي القضايا العربية العارفين بحقائق الأمور كانوا يتهيّبون النفوذ الى اعماقها والكشف عن اسرار فيها قد تكون مصدر حرج وازعاج لمن سبقهم في الكتابة عنها وجعل من كتابته آيات مسطرة منزلة لا يأتيها ريب. بل وربما لم يكن قصر باعهم متأتياً عن قصد في عدم المتابعة والاستقصاء، أو قصورهم في التحريّ العلمي الأمين. ففي غضون العقود الاربعة الأخيرة من قرننا هذا صدر العديد من الكتب والدراسات التاريخية في العالم الغربي حول كل ما تعلّق باحداث الحرب العظمى الأولى وآثارها ومقدماتها وادوار الاشخاص والساسة فيها الى جانب المذكرات والسير الشخصية. والمؤلفات التي تدور حول تاريخ الشرق الاوسط الحديث والشؤون العربية المتأخرة يكاد يجتمع في مكتبة كبيرة. ولا أذكر هنا من جملتها ما احتواه مركز الوثائق الرسمية البريطانية بعد ان فتحت ابوابه للباحثين يغترفون منه ما شاؤا وهو في الحقيقة اهم مصدر بالنسبة الى ما أدوّنه.

للمركز هذا ملفّات عديدة ضخمة تضمّ آلاف الرسائل والتقارير والمذكرات والمحاضر لاسيما تلك التي كانت لندن تتبادلها مع المكتب العربي في القاهرة. وهي بمجموعها وبحدّ ذاتها تحتضن وقائع الثورة العربيّة بدقائقها وتفاصيلها ووقائعها الخفيّة.

وفي ايامنا هذه هناك فريق في البلاد الناطقة بالعربيّة ينزل هذه الثورة منزلة التقديس وفريق يهمل أمرها. هناك حكومات ودول تستعيد ذكراها باحتفال واعياد في حين تتجاهلها حكومات ودول. نجدها تقع احياناً موقع صدارة في آثار تاريخية معينة، في حين تغفل أمرها آثار أخرى. وفي كلّ هذه المواقف تجد العامل السياسيّ والمشاعر الشخصيّة بكلّ ما طبع عليه سكان البلاد الناطقة بالعربية وحكامهم من غلوّ عاطفيّ وسرعة تحوّل.

سأترك للقاريء الحكم، بعد محاولة النفوذ في اعماقها وتحرّي الحقيقة في تفاصيلها ليكون له كامل الحرية في تقويم تأثيرها على حركة الوعي القومي العربيّ، وعلى النضال في سبيل التحرر القومي، لأني بالخصوص لا اريد أن يقال عني كما قال (الصابي) عن نفسه.

ولا سبيل لي إلاّ الى تمهيد تاريخي:

★★★

في العام ١٧٩٨ عجز ناپوليون پونابرت عن تحقيق حلمه عندما غزا مصر وسار نحو سورية

معتزماً كما ادعى فيما بعد – انتهاج سبيل المجد والخلود الاسطوري للزحف بعدها الى بابل ثم الى الهند. وقد أُوقف ونكص على اعقابه إلاّ انه حاول اقناع حليفه قيصر روسيا المأفون (پولس) بوضع الجيش الروسي في خدمة هذه الفكرة.

كان الردّ البريطاني واضحاً. فهذه الاصقاع هي جزءٌ من الامپراطورية العثمانية. وايران وافغانستان درعان للهند. اذن فالوقوف إلى جانب هذه الامبراطورية المتداعية والمحافظة عليها واجبٌ بريطاني، لأنه يتضمن أيضاً وقوفاً ضد التوسع الاوروپي.

بمقتضى هذه السياسة لم تكن بريطانيا – خلافاً لإدعاء كثير من المؤرخين العرب – ترغب قط في بسط سيطرتها على اي اقليم في الشرق الاوسط تابع لآل عثمان او مستقلّ عنها. وكلّ ما طمحت اليه هو منع الدول الاوروپية الأخرى من التسلل اليها.

هكذا وجدنا الحكومات البريطانية المتعاقبة طوال القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين – تتبع سياسة نجدة الدول الاسلامية المتداعية في آسيا ودعمها ضد التدخل الاوروپي، وقد خاضت من اجل ذلك حروباً وعاونت على مقاومة غزاتها. وفي هذا المجال لم تكن لا فرنسا ولا ألمانيا من الخصوم الرئيسة. بل كانت روسيا القيصرية.

ومضى القرن التاسع عشر برمته مع الاجيال المتعاقبة من الساسة والدبلوماسيين والعسكريين والموظفين البريطانيين، يستطيبون هذه "اللعبة العظمى" ويراهنون بالغالي عليها. يورد الكابتن (كلايتن) وهو غير ذلك سيتردد اسمه كثيراً في هذه الفصول قولاً للورد (كرزن) نائب الملك في الهند حول هذا الرهان:

"تركستان، افغانستان، شرق قزوين (كردستان)، بلاد فارس، انها اسماء لاتوحي للكثيرين إلاّ بشيء بعيد، أمّا عندي وانا اقرّ بهذا فهي قطع فوق رقعة شطرنج تجري فوقها لعبة السيطرة على العالم"(٣).

وامّا الملكة ڤكتوريا فقد وصفت اللعبة بوضوح كاف:

" انها مسألة السيادة الروسية او البريطانية في العالم".

كلّ ساسة بريطانيا حتى العام ١٩١٤ كانوا يتبنون سياسة المحافظة على الامبراطورية العثمانية مهما بلغت فداحة الثمن. وهاهو (سر مارك سايكس) صاحب الدور الكبير في

(٣) كليتون G. D. Clyton: «بريطانيا والمسألة الشرقية Britain and the Eastern Question» لندن ١٩٧١. ص١٠٤.

الانقلاب السياسيّ الذي سيتمّ وخبير المحافظين في الشؤون التركية يقول في مجلس العموم (١٩١١):

"ان اختفاء الامبراطورية العثمانية هي بدون شك الخطوة التمهيدية لاختفاء امبراطوريتنا"[٤].

مع هذا، لم يقتض لبريطانيا اكثر من مائة يوم في ١٩١٤ لتتغلب على سياسة اتبعتها اكثر من مائة عام ولتنطلق جادةً في تحطيم هذه الامبراطورية الهرمة بعد ان ركبت الاهوال وخاضت المرير من الحروب لصيانتها.

مائة عام. بمائة يوم! إنهّا ايام العدّة للمطلّقة في الشريعة الاسلامية!

عند اعلان الحرب وقبل انضمام تركيا فيها الى دول الوسط، وجد البريطانيون حاجة ماسة الى تفسير طبيعة التواجد البريطاني في كل من مصر وقبرص وكلاهما جزءٌ من الامبراطورية العثمانية.

دخلت مصر عسكرياً في العام ١٨٨٢ واحتلتها احتلالاً فعلياً بعد قمع ثورة احمد عرابي[٥] وحكمتها حكماً غير مباشر من خلف (الخديوي) والخديوي رسميّاً هو نائب السلطان العثماني ويتمّ تعيينه بارادة ملكيّة. وفي حين كان ثم دوائر حكوميّة بلندن تفكر في فصل مصر عن جسم الامبراطورية، نجد الفكرة الغالبة باقية وهو ان هذا يُعدّ خرقاً لتعهد بريطاني بالجلاء عمره (٤٥) عاماً تبتديء بقيام مشكلة ديون القناة. وان الوجود العسكري في تلك البلاد هو وجود مؤقت.

في نهاية العام ١٩١٤ – وعندما ارسل السر هنري مكماهون معتمداً بريطانياً الى مصر ليخلف اللورد كتشنر قاهر المهدي في السودان الذي عين وزيراً للحرب – كانت الشائعات تدور بان الخديوي (حسين كامل)[٦] الذي اتخذ لقب (سلطان) يفكر في الحلول محلّ السلطان العثماني خليفةً للمسلمين وحاكماً لجميع البلاد الناطقة بالعربيّة، اعني تجزئة الامبراطورية

(٤) جورج كورسون George Curson: «بلاد فارس والمسألة الفارسية Persia and the Persian Question» المجلد ١. لندن ١٩٦٦.

(٥) (١٨٤١–١٩١١) كان ضابطاً في الجيش المصري برتبة عميد. تزعم ما دعي في حينه بالحزب القومي المصري. وكانت ثورته بالاصل تعبرّ عن نقمة الضباط المصريين الاقحاح على الضباط الأتراك الكبار حول الترقيات وقد اتسع مفهومها وهدفها الى طرد البريطانيين. حوكم وحكم عليه بالموت، ثم استبدل الحكم بالنفي الى جزيرة سيشل.

(٦) تولى الخديوية في العام ١٩١٤.

العثمانية الى نصفين.

المعتمد البريطاني الجديد رجل لا حظ كبير له من الذكاء. قضى جلّ حياته موظفاً في الهند وقد شارف سن التقاعد، بطيء الفهم عادم اللون. إلاّ ان المجموعة التي كانت تحفّ به مثلت انبغ العقول وافضل القابليات فالجنرال (ريجنالد وينگيت) سردار (قائد) الجيش البريطاني وحاكم السودان كان رجلاً اريباً ذكياً يتقن العربيّة بلهجاتها. ويمثله في القاهرة (گلبرت كلايتن)[٧] الذي ادّخر لينهض باعظم اعباء الثورة العربيّة. والى جانبه دبلوماسي آخر لايقلّ عنه شأناً هو السر رونالد ستورز السكرتير الشرقي في دار المعتمد السامي، وآخرين سيرد ذكرهم فيما بعد.

***

في ٢٣ تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩١٤ عند دخول تركيا الحرب بدأ الفرنسيون بعد صدمة الحرب الأولى – يعدون كالبريطانيين خططهم لالحاق سورية بمستعمراتهم. وتشير المصادر الفرنسية الى ان دبلوماسييها في كلّ من القاهرة وبيروت. كانا يلحّان[٨] على حكومتها بضرورة انزال قوات عسكرية في لبنان. إلاّ ان الحكومة الفرنسية التي أجليت عن العاصمة پاريس امام الاندفاع الالماني نحوها، واستقرت في (بوردو) في ١ من تشرين الثاني كانت في شغل شاغل بسبب تركيزها على وقف الاندفاع في الجبهة الغربيّة فلم تعر الاقتراح اهتماماً في حينه.

هناك سبب آخر: كانت فرنسا ترى ان المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية في ذلك الوقت اهم بكثير من ضمّ سورية الى املاكها. فقد كان ٤٥٪ من اموالها الخارجيّة موظفاً في الاقتصاد العثماني ولها من الديون التي استقرضتها الحكومات التركية ٦٠٪ من مجموع

(٧) كان سكرتيراً خاصاً لونگيت (١٩٠٨ حتى ١٩١٣) ثم عينه ممثلاً له في القاهرة. وفي عين الوقت تولى رئاسة استخبارات الجيش البريطاني في مصر منذ ٣١ تشرين الأول ١٩١٤ ويبدو من واصفيه انساناً رفيع الخلق لطيف المعشر جمّ المعارف واسع الذكاء. يتقن العربية الفصحى واللهجة المصرية. ومن الجدير بالذكر هنا ان جميع من استخدم (كلايتن) في دائرة استخباراته وفي متابعة الثورة العربية كانوا من اولئك المغامرين الطموحين والتلاميذ الاركيولوجيين وصغار المستشرقين الذين تقاطروا الى القاهرة ليعملوا في ادارته. ولم يجد احد منهم على كثرتهم كلمة سوء واحدة تقال بحقه بل اجمعوا كافة على امتداح سلوكه والاشادة بقابلياته.

(٨) تضمن اقتراح قنصل فرنسا إنزال (٢٠٠٠) من المشاة في بيروت وتعهد بان يعزز هؤلاء حال نزولهم بثلاثة آلاف من المتطوعين المحليين.

الديون العثمانية الخارجيّة العامة[٩].

عندما توقف (هنري مكماهون) في باريس وهو في طريقه الى القاهرة لمزاولة وظيفته وقابل صانعي السياسة في وزارة الخارجية، ولم ينجح في اعطاء اجوبة صريحة مباشرة عن اسئلة وجهت اليه بخصوص سياسة بلاده في البلاد الناطقة بالعربية لجهل ومحدودية في عقله، حسب الفرنسيون عجزه العقلي حيلةً وروغاناً ذكياً وترجموا قصوره هذا بالدهاء وهم الدائمو الشك في نوايا البريطانيين لم يسعهم الاّ الاستنتاج بان صاحبهم هذا يتعمد اخفاء النوايا البريطانية الحقيقية، وادّى بهم هذا الاستنتاج إلى الاعتقاد بان البريطانيين يتهيّأون لغزو سورية. وعندها اوعزت الحكومة الفرنسية بتشكيل حملة انزال في سورية حال قيام البريطانيين بمثله – سواء أدعوهم للمشاركة ام لم يدعوهم.

بعد ثلاثة أشهر ونيف – وفي الاجتماع الذي تمّ بين وزيري خارجية البلدين في شباط ١٩١٥. اكد البريطاني لزميله بأن حكومته لا نية لها في غزو سورية. واتفقا على ان لاتعارض بريطانيا التواجد الفرنسي في سورية عند تجزئة الامبراطورية، في الوقت الذي اعربا في عين الوثيقة عن تفضيلهما عدم تجزئة الامبراطورية.

وعندما استقر رأي الحكومة البريطانية على الإتصال بالعرب والزعماء المسلمين لم يحاول اي طرف منهما التغلّب على عقدة نقص متبادلة وهي علّة سوء فهم مزمن خلّف ثروة من هفوات سياسية مضحكة وكان أساساً لمشاكل تالية في العلاقات بينهما لا اوّل لها ولا آخر.

بالأول كان البريطانيون والفرنسيون يعتقدون ان العالم الاسلامي مركزيّ الكيان تقوم على رأسه سلطة عليا تأمر فتطاع وان الاسلام وحدة كاملة مثلما هو تنظيم متراص البنيان يقوم على اساس طاعة المسلم لرئيسه الروحي. فكَسْبُ هذا الرئيس أو إخضاعُه كفيل بتأمين السيطرة على العالم الاسلامي كلّه. لذلك كانت الحكومة البريطانيّة تعتقد بانه من الممكن شراء الإسلام أو توجيهه أو تطويعه بشراء او أسر أو توجيه رئيسه الديني الاعلى. وكما سنرى فقد استهوتهم حتى زمن ما فكرة مؤداها أن كلّ من يسيطر على شخص الخليفة فهو يسيطر على الإسلام!

بلغ من تأثير هذه الفكرة على صانعي السياسة في لندن حداً اعتقدت اكثريتهم معه – بوجوب تشجيع فكرة اناطة الخلافة بعد الحرب بشخصية عربيّة لأن باعث الدين الاسلامي هو عربي. والغرض المتوخى هو بسط سلطانهم على قلب جزيرة العرب وسواحلها الشرقية

(٩) «مذكرات سر رونالد ستورز The Memoiris of Sir Ronald Stores» نيويورك ١٩٣٧. ص٢٠٦.

الشمالية، التي اخفقوا في ادخالها ضمن منطقة نفوذهم طوال القرن التاسع عشر.

هرع الموظفون البريطانيون في دار المندوب السامي بالقاهرة يمطرون لندن باقتراحاتهم المستوحاة من هذه الفكرة ليزيدوها رسوخاً في عقول ساستهم وركزوا على ان المرشح الظاهر والمناسب لتبوّء منصب الخلافة هو شريف مكة العربي سليل النبيّ، وانهم حققوا صلةً به منذ وقت يسير.

لم تكن هناك صلةً في الحقيقة. وكان الموظفون البريطانيون الى حينه يكذبون على لندن ليزيدوا في اقتراحهم رسوخاً. كل ما في الأمر ما يتذكره (كلايتن) حول زيارةٍ قام بها (عبدالله) ابن الشريف المكيّ للقاهرة قبيل اندلاع الحرب واعرب في مقابلة يتيمة عن تخوّفه من قيام حكومة (جون ترك) بعمل ضدّ والده. وانه يتطلع الى مساندة من الخارج.

هناك ايضا لقاءان سابقان لعبدالله باللورد كتشنر في القاهرة ولقاء آخر مع ستورز لعين الغرض. والوثائق البريطانية ليست واضحة بخصوص ما عرضه عبدالله وما قيل له. والظاهر انه كان في كلّ هذه اللقاءات يحاول الحصول على وعدٍ من البريطانيين بالمساندة في حالة اقدام الباب العالي على عزل أبيه. ويظهر ان الردّ البريطاني لم يكن مشجعاً، بسبب تمسك لندن حينذاك بسياسة المحافظة على الكيان العثماني. الاّ أن الشريف توصل الى استرضاء الباب العالي بعد هذه اللقاءات وزالت اسباب الخلافات بدليل ان (عبدالله) لم يطرق باب المندوب السامي في القاهرة بعدها.

يذكر (ستورز) في مذكراته ان عبدالله ادعى كذباً في اثناء مقابلته بان زعماء الجزيرة العربيّة وشيوخها (المتنافسين والمحتربين دوماً) مستعدون للانضمام الى ابيه لمقاومة نوايا الباب العالي السيئة فيه. وانه اقترح اقامة علاقة سياسية مستقبلية بين بريطانيا وبين جزيرة العرب على غرار تلك العلاقة التي اقيمت مع افغانستان والكويت وعدد من امارات الخليج. فقد كانت أسَرُها الحاكمة تمارس حكماً محلياً، في حين تقوم بريطانيا بمهمة الإشراف على العلاقات الخارجية والحماية. ويذكر (ستورز) انه لم يشجع (عبدالله) على الفكرة[١٠]. والملم باحوال جزيرة العرب وقتذاك لايخرج بغير نتيجة واحدة: لم يكن اي شيخ أو زعيم عربي فيها مستعداً قط للجلوس مع آخر، ناهيك بالاعتراف بزعامته.

(١٠) المرجع السالف. وانظر أيضاً: ايلي خضوري، حُسني ومترجموها» في التيه الانكلو عربي، مراسلات مكماهون «In The Anglo - Arab Lalyrinth: The Mcmahon Husayn Corespondence» حُسني ومترجموها (١٩١٤–١٩٣٩): لندن ١٩٨١.

وكما يبدو فإن الاستخبارات البريطانية لم تكن تعلم حتى ذلك الحين بهذا الواقع وبمدى الخلاف والعداء الذي يكنّه واحدهم للآخر، فمصادرها في هذا الباب كانت مضللة مغرقة في الخيال بعيدة كل البعد عن الواقع. وهي بجملتها وقضها وقضيضها عصبة من المنفيين والمبعدين الى القاهرة من البلاد الناطقة بالعربيّة وابرزهم واكثرهم حُظوة الرائد (عزيز علي المصري)[١١] وقد اساءت الاستخبارات البريطانية فهم مراميه ونواياه تلك. وجدته من اشد

(١١) من اصل جركسي. احد اعضاء «جون ترك» البارزين. ولد في مصر ودخل المدرسة الحربية في استنبول. كان في هيئة اركان الجيش العثماني برتبة رائد عندما تولى زميل الدراسة (انور) وزارة الحربية. وهما ابنا دورة واحدة، وكان الكره بينهما متبادلاً. و(عزيز) يستصغره ويستخف بعقليته ولايجعل من ذلك سراً. من اجل هذا انقلب على الاتحاد والترقي ونقم، وعبرّ عن نقمته بتأسيس جمعية او حزب العهد وهو تنظيم سرّي صغير يتكون من ضباط اصولهم من البلاد العربية، رفضوا الادارة المركزية التي اتبعها الاتحاد والترقي الحاكم وجأروا بالاحتجاج على حرمان بلادهم سهماً اكبر في السلطة المركزية للامبراطورية الخ... أمر أنور بإلقاء القبض على عزيز علي وأحاله الى مجلس عسكري بتهم لا أساس لها في اوائل ١٩١٤ وصدر حكم الموت عليه. فتوسط له (اللورد كتشنر) المعتمد السامي في مصر آنذاك – عند (جمال باشا) الذي نجح في استصدار عفو عنه وابعاده الى مصر. فوجد عزيز نفسه فيها يتقمص دور الثوري العربي رغمّ انفه إذ كان بالاصل يطمح لزعامة او قيادة في الامبراطورية كلها لا في جزء منها. الى جانب هذا فقد كان معارضاً منذ صغره احتلال البريطانيين مصر. يكره الانكليز قدر ما يحب الالمان ويعجب بهم. (ظهر ذلك في الحرب العالمية الثانية كما سيأتي بيانه) ويهمه بقاء الامبراطورية العثمانية موحدة غير مجزاة. قُدر لهذا الضابط ان يتولى في زمن متأخر رئاسة اركان الجيش المصري في آواخر حكم الملك فاروق. جاء في مذكرات جمال پاشا عنه ما يخالف هذا، قال:

«ولما عين أنور باشا في النهاية لوزارة الحربية أظلمت الدنيا في عيني عزيز بگ (المصري) فإنه لم يستطع صبراً على أن يبقى وهو الذي كان زميلاً لأنور في المدرسة الحربية وقام بأعمال نافعة وأظهر قسطاً عظيماً من الوطنية بكباشياً (مقدماً) بسيطاً في هيئة أركان الحرب بينما منافسه صار وزيراً للحربية، فأدى به الى استنتاج هذه النتيجة السيئة وهي أن اشتراكه في العمل مع الأتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجداً إذن فلتحيا الثورة العربية. وقد بلغت دسائس عزيز بگ مبلغاً خطيراً حتى نفد صبر أنور پاشا فأصدر أمره بالقبض عليه وإرساله الى المحكمة العسكرية بتهمة اختلاس ثلاثين ألف ليرة سلمها له أنور قبل مغادرته طرابلس بصفتها من أموال الحكومة. ماكاد يذيع نبأ القبض على عزيز بگ حتى علت الضجة بين الشبان العرب في الاستانة وكنت وقتئذ وزير العمل فواصل أعضاء النادي العربي سعيهم لدى الوزراء وأرباب النفوذ... وكانت وزارة الحرب أرسلت الحكم (بإعدام عزيز) للباب العالي واقترحت أن تخفف الإرادة الشاهانية حكم الإعدام الى السجن المؤبد. وفي مساء اليوم الذي أذيع عرض الحكم المعدل على جلالة السلطان للتصديق أقيمت مأدبة فخمة في دار السفارة الفرنسية وهنا لقيت (جورج ريموند) المراسل الحربي لمجلة (لوستراسيون الفرنسية) فخاطبني قائلاً: "بلغني أن التهمة الموجهة لعزيز بگ هي اختلاس أموال عهد بها اليه للدفاع عن الوطن. لنسلم انه من الثوار العرب وان آراءه تختلف مع أنور پاشا لكنه على التحقيق ليس لصاً وأنا واثق بأنك تستطيع إنقاذ عزيز بگ من عقاب لايستحقه". وجاء بعد ريمون عدد كبير من أصدقائي الفرنسيين والأتراك عسكريين وملكيين يسألونني التدخل لمصلحة عزيز بگ وأدركت في الحال أن الرأي العام أشد سخطاً على أنور باشا منه على عزيز بگ... وفوق ذلك رأيت أن عزيز بگ من أشجع الثوار العرب وأكثرهم أمانة وقد خطر لي انه من العبث أن نعلن عفواً عن جميع =

الناقمين على الاتحاد والترقي وتوهمت بان يد الانگليز في إنقاذه من موت محتّم ضامنة ولاءه وصدق نصيحته وظنّوا فيه حليفاً عظيم الامكانات.

اقترح (عزيز علي) قبل نشوب الحرب بشهر ونصف الشهر – على (كلايتن وستورز) ان تشرع لندن بحوار مع الشريف بهدف احلاله خليفةً للمسلمين بدلاً من السلطان العثماني. وعلى اثر ذلك كتب (ستورز) تقريراً بالمقابلة ذكر فيها مخطئاً (ربما بتضليل من عزيز علي) ان كلاً من حاكم العسير واليمن، (ابن الرشيد) في نجد، بل حتى (عبدالعزيز ابن سعود) مستعدون للانضمام الى الشريف حتى "تغدو أرض العرب للعرب" هكذا كما ورد نصاً.

في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩١٤. خُوّل (ستورز) بناء على تقريره هذا، ارسال مبعوث الى (عبدالله) ليطرح عليه السؤال: "أستكون الحجاز مع بريطانيا ام عليها في حالة نشوب الحرب؟". بعد اسابيع ورد جواب غامض. لكن عصبة القاهرة وجدته مشجعاً. فقد طُلب من وزير الحرب (كيتشنر) ان يفصح عما يجول في ذهنه عن النتيجة المتوخاة من التعاون. وما هو الشكل الذي يريد له؟

في ذلك الحين كانت دائرة المعتمد السامي على اتصال وثيق ومستمر (بعزيز علي) وبعدد كبير من المبعدين واللاجئين العرب في مصر، وهؤلاء كانوا يواصلون فيما بينهم وفي المقاهي والمنازل، المناقشة حول من هم العرب، ومن هم غير العرب؟ وما هي مكانة سكان البلاد الناطقة بالعربيّة في الامبراطورية؟ كانت الهوية القومية شغلهم الشاغل وقضية الساعة تلك التي بدأت في دمشق وبيروت واستونفت في القاهرة وفي حي الطلاب بپاريس. هاهم الآن يناقشونها مع البريطانيين في القاهرة بحميّة وجدية.

هؤلاء المبعدون الذين يتكلمون العربيّة، كانوا بنظر السلطات العثمانية وفي مجال سياستها المحلية واهداف الجون ترك – شرذمة من المتآمرين على الامبراطورية.

وممَّ تتألف تلك الامبراطورية؟

= الثوار الآخرين ونحرم عزيز بگ، فلهذا السبب اهتممت حقيقة بإنقاذه فلما عدت الى الدار كتبت الرسالة الآتية لأنور باشا: "بالرغم من البينات التي جمعتها المحكمة ضد عزيز فإن الرأي العام غير ساخط إلا عليك والسخط عليك بهذه الطريقة يحدث لك ضرراً أكثر مما لعزيز جراء سجنه بضع سنين". وفي اليوم التالي أبلغني أنور باشا تلفونياً ان جلالته أصدر عفوه عن عزيز بگ ثم حضر إليّ أخوه مع (جورج ريموند) وقد وصلهما الخبر يشكرانني فأخبرته بوجوب سفر أخيه الى مصر في الحال وعدم التدخل في السياسة التركية». [من كتاب «مذكرات جمال باشا» ترجمة علي أحمد شكري، بغداد ١٩٦٣، منشورات دار البصري، الص ٧٦–٧٧].

دولة خضعت فيها الى حكم حوالي ٤٠٪ يتكلمون التركية والغالبية تتألف من نسبة مماثلة تتكلم العربيّة، فضلاً عن ١٠٪ تتكلم الكردية و١٠٪ تتكلم لغات أخرى. في حين لايتولى من المناصب الكبرى ذات المسؤولية من مواطني البلاد الناطقة بالعربية غير نسبة ٣ الى ٥٪ من مجموع تلك المناصب التي يكاد كلها يكون وقفاً على الاتراك. ونقم الجون ترك كثيراً كما نقموا على السلطان عبدالحميد الثاني لأنه فَسَح المجال أمام العرب والكرد للمساهمة في الحكم بشكل لم يسبق له مثيل، وقبل الكثير من ابنائهم في الكليات العسكرية واسندت الى طائفة كبيرة مناصب هامّة، فمثلاً اتخذ (عزت بگ العابد) السوري صدراً اعظم.

هؤلاء المبعدون الذين تسميهم كتب التاريخ بالقوميين او بدعاة القومية العربيّة الاوائل – لم يطلبوا استقلالاً بل طالبوا فحسب بحصّة اكبر في الادارات المحلية. انهم ما عارضوا في ان يحكمهم الترك، والترك على كلّ حال مسلمون مثلهم. وهم بهذا يختلفون عن القوميين الاوروپيين. لأنهم اناس وحّدتهم عقيدتهم الدينية اكثر مما وحدتهم اصول عرقية علمانية، يعيشون داخل سور الاسلام بالشكل الذي لم تعشه اوروپا داخل سور المسيحية منذ مطلع القرون الوسطى. ولو أُخِذت كل شخصية منهم على حدة لخرجنا بحقيقة لا مجال كبير للطعن فيها هي انهم لا يمثلون مجموعة عرقية واضحة المعالم. فكما ألمحنا سابقاً ان العنصر العربي الخالص والحقيقي هو سكان جزيرة العرب – تاريخياً وعملياً. وان المواطنين الذين يتكلمون العربيّة في الولايات العثمانية امثال بغداد والموصل والبصرة وحلب ودمشق وبيروت الخ... او في مدن شمال افريقيا امثال القاهرة، الجزائر، الاسكندرية، تونس، الخرطوم وغيرها هم خليط من العناصر العرقيّة الطارئة والمستقرة بخلفيات واصول تحدرت من سيل دافق متوال لقوميات وثقافات وشعوب سكنت في رقعة تمتد من المحيط الى الخليج. والواقع هو انه في يوم نشوب الحرب العالمية لم يكن هناك من المجاهدين القوميين العرب. ولنسمهم بالانفصاليين كما اطلق عليهم الترك في حينه – إلاّ عشرات قليلة ناشطة عملاً بين خضم هائل من مواطنين لايعرف سكان قريةٍ ما يحصل لقرية مجاورة ولو دكت وانقلب عاليها سافلها الاّ بعد زمن.

وجلّ نشاط هؤلاء كان اتصالاتهم بدائرة الاستخبارات البريطانية ودار المعتمد السامي. انهم النخبة الواعية المثقفة الحسنة الصلة بالحزب التركي الذي طردهم من بين صفوفه، والذين يشعرون بخطر سياسة الجون ترك، وعن طريقهم كانت الاستخبارات البريطانية تتزود بالانباء ومنهم كانت تستخلص الخطط السياسية الواجبة الاتباع.

★★★

في الشهر الاوّل من اعلان تركيا الحرب على الحلفاء كتبت وزارة الحرب لـ(ستورز) تشير عليه كما مرّ بتجديد صلته مع (عبدالله) وفق اسس وضوابط وتعليمات. فقام هو و(كلايتن) بترجمة النص الى العربيّة ترجمة موسّعة المفاهيم، فبدت وكأنها تعهّد بالدعم البريطاني لتحرير العرب بهذا الشكل:

"اذا ساعد الشعب العربي بريطانيا في هذه الحرب التي فرضتها تركيا عليها. فان بريطانيا تضمن بان لايحصل اي تدخل خارجي في جزيرة العرب. وستقدم لهم كلّ عون ممكن ضدّ اي اعتداء خارجي".

[المقصود بالعرب هنا سكان الجزيرة][١٢].

والمعنى واضح: ان تمكن الزعماء العرب من تحرير جزيرتهم من حكم السلطان العثماني واعلنوا استقالهم فان بريطانيا ستساعدهم في حمايته من أي اعتداء او غزو خارجي.

ربما اوحى هؤلاء المبعدون (لكلايتن) بان عرب الحجاز مازالوا يشكوّن في النوايا البريطانية. هذا الاحتمال ربما قوي عنده عندما لم يتلقّ من (عبدالله) رداً مرضياً. والواقع هو ان الشريف ماكان يفكر في اي شيء غير الاحتفاظ بمنصبه. وما اتصاله بالانگليز الاّ من قبيل الاحتياط: عملية قد يلجأ اليها في اسوء الاحتمالات. وهذا الاحجام فسرّه المبعدون القوميون لـ(كلايتن وستورز) بأن عرب الحجاز مازالوا في شك من النوايا البريطانية.

وعكس (كلايتن) هذا لحكومته، فخوّلته اصدار ايضاح جديد لرسالتها الأولى. وللمرة الثانية ذهبت مؤسسته مسافةً أبعد من ترجمتها السيئة للرسالة الأولى. بإصدار تصريح لا يقتصر على الجزيرة بل يشمل كل البلاد (والدول) الناطقة بالعربية في الشرق الآسيوي!

التصريح هو وعدٌ من بريطانيا بضمان استقلال تلك البلدان اذا ما تخلصوا من الحكم العثماني. وإن أخذ الوعد بحرفيته وبقدر المقصود منه، فهو وعدٌ معقول رغم تخطيه الحدود التي رسمتها لندن. فلندن لم تعط قبل هذا أي تعهّد مناقض له بخصوص مستقبل الولايات العثمانية الناطقة بالعربية أعني: لو تمكن اهلوها بشكل ما من تحرير انفسهم، فليس هناك اي سبب وجيه يحول دون الضمان والعهد البريطانيين في حماية حريةٍ واستقلال نالهما هؤلاء بمجهودهم وعرق جبينهم. بل سيكون ذلك في مصلحة بريطانيا وحلفائها اثناء الحرب وبعدها.

(١٢) جورج انطونيوس George Antonius. «يقظة العرب: قصة الحركة القومية العربية The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement» نيويورك ١٩٦٥. ص١١٦.

لكن الرسالة خُتمت بما يشبه انفجار قنبلة:

" الأمل هو ان يتولى العرب ذوو العنصر العريق زمام الخلافة في مكّة او في المدينة. وإنّ بعد العُسر يُسراً".

وبقي الجهل كالسابق يسود القاهرة ولندن فيما تمتد اليه سلطة الخلافة واخطأ الجانبان خطأً فادحاً في اعتقادهما بان سلطة الخليفة يمكن ان تكون قاصرة على الشؤون الروحية. وبقي الجميع لايدرون بان الخليفة في شريعة السنيّة يملك تصريف شؤون الدين والدنيا كالسلطان العثماني حالياً، وكما هي عقيدة الشيعة في الإمام. لم يدروا بان الخليفة هو الحاكم المدني المطلق وامير الحرب وامام الصلاة في الوقت عينه. كذلك فاتهم ذلك القدر العظيم من الشقاق والشنآن والتشرذم الذي يعانيه الإسلام عموماً.

من مقتضى التصريح البريطاني الأخير مثلاً، ان يعترف (عبدالعزيز بن سعود) ذلك الزعيم الوهابي المتشدد بالسلطة الروحية بل كذلك بالسلطة الزمنية لأمير مكة الشريف (حسين)، أي ان يخضع له سياسياً. وان يكون على شيخ الشريعة المجتهد الأكبر الشيعي في النجف الاعتراف بإمامته ومن ثمّ إطاعته. وهي احتمالات مستحيلة غير واقعيّة. الإسلام كان وسيبقى – كالمسيحية عشرات من المذاهب والطوائف والطرق المتناحرة يشهر واحدهما خنجره بوجه الآخر دائماً ويكفرّه احياناً.

من ناحيةٍ أخرى، فمفهوم تلك الرسالة يتضمن أيضاً عرضاً بأن يكون أمير مكّة حاكماً مملكةً مترامية الحدود. وهكذا فهمها الشريف وما كان عليه ان يفهمها بغير ذلك. وقد حمله هذا فوراً على استئناف الحوار مع البريطانيين. هذه المرّة حول الحدود التي تمتد اليها مملكته المقبلة! والوثائق البريطانية تشير الى ان (ستورز) اعتراه ذهول لردّ لم يكن هو ولا رؤساه في لندن يتوقعونه. فالنية في الوعد لم تكن تتعدى حدود الحجاز. كان البريطانيون يؤيدون ترشيح الشريف لمنصب شبيه بمنصب (پاپا) روما وهو منصب لا حدود له. إلاّ انهم دون ان يدروا شجعوه في محاولته حكم العالم الناطق بالعربية، بل ربما هم الذين غرزوا في عقله هذه الفكرة التي ماكان ليطمح اليها أو يحلم بها[١٣].

(١٣) بلغ نبأ هذا التصريح وزارة الهند في ١٢ كانون الاوّل ١٩١٥ فقامت قيامة رئيس الدائرة السياسية، الخبير (السر ارثر هرتزل) وتهوّل الأمر وسوء العقبى واسرع ينتقد ما نعته "بتلك المراسلة البالغة الخطورة في اشارتها الى الخلافة بهذا الشكل وان وزارته ما كانت ترى قط ان يقدم على خطوة كهذه. وكانت وزارة الهند وحكومة الهند التي تشرف اشرافاً كاملاً على علاقات بريطانيا بالمحميات العربية والشؤون العربيــة تعتقد انه اذا كان الرأي هو اثارة العرب على تركيا، فالمرشح المناسب لذلك هو (ابن سعود) =

ومن الجدير بالتنويه والشيء بالشيء يذكر أن الكابتن (وليم هنري شاكپير) المقيم السياسي في الكويت خلال الايام التي سبقت الحرب، كان قد اقام علاقة وطيدة انقلبت الى صداقة شخصية مع (ابن سعود). وكان هذا النجم الصاعد في سماء الجزيرة قد اعرب اكثر من مرّة عن رغبته في ان يكون كـ(عبدالله) زبوناً لبريطانيا عند بدء الحرب. الاّ ان (شاكپير) اعرب له كما اعرب له (ستورز)، أن حكومتهما لاتريد التدخل في شؤون محلية صرفة تخصّ تركيا. بدليل ان وزارة الحرب البريطانية كانت تميل الى دعم (ابن الرشيد) الموالي للسلطان في نزاعه الدموي مع ابن سعود. وفضلاً عن (ابن سعود) فقد كان هناك الشيخ (مبارك الصباح) القوي المهاب الجانب الصديق الصدوق لبريطانيا، وثم ايضاً الشيخ (خزعل) امير المحمرة، بل وجد في البصرة (طالب پاشا النقيب) ذلك "المخاتل الخطر" كما وصفه (هرتزل).

ولدعم اعتراض (هرتزل) استشهدت (دلهي) بتقرير (للسير پرسي كوكس) الدبلوماسي الشهير صاحب الدور الجوهري في اقامة الكيان العراقي والنظام الملكي الدستوري فيه. كتبه في ١٥ من كانون الاوّل ١٩١٥ إثر مقابلة جرت له مع (ابن سعود والشيخ مبارك) قال فيه: انهما لايعيران اي اهتمام بمسألة الخلافة وان (ابن سعود) قال له بالحرف الواحد:

"انكم لاتجدون بين سائر الزعماء العرب من يكترث بإطلاق لقب خليفة على نفسه. وان مذهبي لايعترف بعد الخلفاء الاربعة الاولين بأي خليفة آخر".

كما جاء في التقرير ايضاً إن الشيعة لايعترفون إلاّ بخليفة واحدٍ ويرون البقية أدعياء غاصبين.

وجه الغرابة هنا ان لا أحد في لندن حاول ادراك هذه الحقيقة ولا ان يستخلص النتائج عندما وضعت سلطة الخليفة على المحكّ بإعلان السلطان محمد رشاد (الجهاد)[١٤] بوصفه خليفةً للمسلمين في تشرين الثاني ١٩١٤ ضدّ بريطانيا، فلم يستجب له صوت ذو شأن.

★★★

كان الشريف الحسين إبن علي يحكم في الحجاز بموجب (فرمان) صادر من السلطان – الخليفة وبوصفه نائباً عنه. وشرط التولية ان يكون سليل الإمام الثاني الحسن ابن عليّ ابن ابي

= لذلك لم تكن الجهتان راضيتين عن الخطوة التي اقدمت عليها القاهرة بدعم من وزارة الحرب بخصوص التعامل مع الشريف. (انظر في الوثائق البريطانية لاسيما 38 .QQ .30157 .KB).

(١٤) تم له الإعداد للمناسبة في العاصمة استنبول بمظاهرات وخطب الميادين العامة، وعزفت موسيقى الجيش وجوقات أخرى في الميادين. واثيرت ضجة دعائية كبيرة دون نتيجة.

طالب[١٥] وتلك سنّة اتبعها السلاطين العثمانيون منذ اتخذوا لقب الخلافة. وهم يختارون الشريف بأنفسهم، وقد اختاره السلطان (عبدالحميد) من بين مرشحين متنافسين ومن عشيرة (ذو عون)، رغم ممانعة الاتحاد والترقي الذين ايدوا ترشيح منافس آخر. في العام ١٩٠٨ وقبل التولية بزمن قصير وجدنا الشريف (حسيناً) وهو ابن الرابعة والخمسين اسيراً في استنبول معظم سنيّ حياته يحيا حياة مترفة ولم تسجّل عليه نقيصة ولم يشع عنه أي شائعة تتضمن طعناً بخلقه ولا فضيحة من بين كلّ الفضائح التي عزيت الى مشاهير تلك المدينة بل أُثر عنه أنه كان يقضي جلّ اوقاته في الصلاة والعبادة. وهو ما أمن له الحصانة من تخرصات اعدائه وأقاويلهم.

محض الشريف ولاءه المطلق من دون مواربة، وبكل صدق، وساءه كثيراً ان يتولى الحكم في استنبول شبّان أغرار لاينتسبون الى اسر معروفة عريقة وكلّ مطمح له في الحياة ان يفوز بامارة مكّة وان يحتجز المنصب لنفسه ولسلالته وان يزيد من سلطته. وعند توليه المنصب كانت الحجاز ولاية بعيدة كلّ البعد عن المركز. تستمد اهميتها فحسب من وجود الاماكن المقدسة الاسلامية فيها[١٦].

قليل من الرحّالة الاجانب وُفق في الوصول الى مكّة، ودخولها فذلك محرّم على غير المسلم. والاوروبيون الذين نجحوا في ذلك، اتفقوا على انها وإن كانت مدينة مقدّسة، الاّ ان ممارسات مشبوهة لا أخلاقية كانت متفشية فيها. وبحسب ما ذكر في الانسكلوبيديا البريطانية نقلاً عن المتواتر ان الاقاويل والشائعات التي انتشرت عنها في العالم الاسلامي كانت ترقى الى

(١٥) لم يجز العثمانيون ان يكون شريف مكة سليل الحسين الامام الثالث. والسبب لااظنه سيخفى عن القاريء. من مقتضى البروتوكول العثماني (قانون الالقاب). كان مقام امير مكة يساوي مقام خديوي مصر، ومقام رئيس الوزراء (الصدر الاعظم). امّا من ناحية السلطة الفعلية فالشريف لايملك أياً من صلاحيات شبيهة بتلك التي يملكها هذان.

(١٦) دائرة المعارف (الانسكلوبيديا) البريطانية (طبعة العام ١٩١٠: اي بعد نصب الشريف) تصف ولاية الحجاز جغرافياً بأنها: «اقفر بقعة في جزيرة العرب واشدّها وحشة. مجاهل قاحلة لا ماء فيها ولا نبت. يبلغ طولها حوالي ٧٥٠ ميلا (١٣٠٠ كم) وعرضها في اوسع موضع ٢٠٠ ميل (٤٦٠ كم). ولا يزيد عدد سكانها عن ثلاثمائة الف. نصفهم حضريون ونصفهم بدو. ومع انها جزء من المملكة العثمانية الاّ ان بعدها عن العاصمة يزداد وعلاقتها تبعاً لذلك تزداد تعقيداً ومشقة لصعوبة المواصلات. لذلك بقيت دوماً تمارس لوناً من الحكم الذاتي. يؤمها سنوياً حوالي سبعين الف حاج والوظيفة الرسمية لممثل الحكومة هو أمن الحجيج وردّ غارات البدو عليهم. وقد اعتادت السلطة اغراء بعض القبائل بالمال لاقناعهم بان حماية الحجاج اكثر غنماً من سلبهم وقطع الطريق عليهم. ومكة عاصمة الولاية تبعد عن اقرب ميناء في ساحل البحر الأحمر بحوالي (٤٥) ميلاً. اي برحلة يومين على ظهر الجمال وتقع في وادٍ مقفر شديد ولايزيد عدد سكانها عن ستين الفاً.

مرتبة الفضائح وهي ابداً مصدر فزع واستنكار الحجاج الاتقياء. فمثلاً كانت تحت غطاء الحج تجري عمليات تصدير واستيراد عدد كبير من الإماء والعبيد، الى جانب أمور أخرى لاتقرّها الشريعة الاسلامية.

لكن لدائرة المعارف تلك – حديثاً آخر حول صفات عالية في سكانها العرب فتقول:

"العرب جسدياً هم من اقوى واصلب وارشق وانبل القوميات في العالم. شديدو المراس قلما خضعوا لقومية أخرى مادام ذلك ممكناً. وهم عقلياً يفوقون معظم الأعراق البشرية المعروفة، وتأخرهم وانحطاطهم انما يعزى فحسب الى افتقارهم للمقدرة التنظيمية. وعجزهم عن القيام بعمل جماعي. والإهمال والقصور هو الطابع الذي يطبع الحكم عندهم. بل هم لايصبرون على حكم او نظام".

اعتزمت حكومة الاتحاديين بسط سلطانٍ حقيقي على الحجاز عن طريق مدّ السكة الحديد التي تبدأ بدمشق وتنتهي بالمدينة – لإيصالها الى مكّة ثم الى ميناء جدّة، وهو أعظم ما كان يخشاه الشريف المعين حديثاً. فهو عملاً وواقعاً يهدد البدو اصحاب الجمال بقطع ارزاقهم وانهاء سلطانهم المطلق على طريق الحجّ. بل كان الاتحاديون بهذا، يهددون استقلال الشريف باستخدامهم السكة الحديد والتلغراف للسيطرة المباشرة على المدينتين المقدستين وبقية الحجاز.

وقد اجاب الشريف على هذه النوايا باثارة القلاقل والاضطرابات. وكان قبل هذا يستخدم الحامية النظامية التركية ضدّ البدو وشيوخهم لفرض سلطته، الاّ ان المبادرة التركية الجديدة صارت تلجئه لا الى اعادة النظر في سياسته وحدها، بل الى التفكير الجدي في تغيير ولائه وتحويله عن السلطان. والتبس الأمر عليه فترةً من الزمن. فاختار بين مساندة الامبراطورية آناً، ومعارضة حكومتها آناً آخر.

في السنوات القلائل التي سبقت الحرب كانت الجمعيّات السريّة العربيّة في دمشق الى جانب بعض شيوخ العرب وزعمائهم المتنافسين في الجزيرة كثيري الاتصال فيما بينهم لاستطلاع مدى قدرتهم على الاتحاد والتضامن في وجه الاتحاديين (جون ترك) دعماً للمطالب العربيّة التي اشرنا اليها.

ففي العام ١٩١١ مثلاً، قصد عدد من نواب البلاد الناطقة بالعربية في مجلس (المبعوثان) الشريف حسيناً وسألوه عما اذا كان يرغب في تزعم البلاد الناطقة بالعربية بهدف الخلاص من الحكم التركي. فرفض رفضاً قاطعاً وأبى مستنكراً. واعادت الجمعيات السريّة الكرة في ١٩١٢ فاتصلت لا بالشريف بل بمنافسيه وخصومه للغرض نفسه. وفي ١٩١٣ توصلت هذه

الجمعيات والقوميون العرب بأن الشريف "لايعدو الا ان يكون اداة طيّعة بيد الترك يحركونه لضرب العرب"[١٧]. هذا في الوقت الذي كانت الحكومة التركية لاتثق به ولاتأمن جانبه ووقتما كانت تبحث عن الوسائل للتخلص منه.

إثنان من ابناء الشريف عرفا بنوع من النشاط السياسيّ: (عبدالله) الابن المفضل و(فيصل)، اولهما كان نائباً في مجلس (المبعوثان) عن مكّة وثانيهما نائب عن جدّة. اشار اولهما على والده بمقاومة الحكومة وفي اعتقاده ان هذا ممكن بدعم بريطاني وتأييد من الجمعيات السريّة. في حين نصحه (فيصل) بعدم مقاومة الحكومة. وبين جرأة الاول وحذر الثاني - بقي الشريف معلقاً مذبذباً بحبل الولاء. ومن منصبه المتأرجح القلق افلح خلال السنوات الخمس التي تلت تعيينه - في تثبيت مركز اسرته بضرب الشيوخ احدهم بالآخر. ونجح بسعة حيلة في اضعاف نفوذ خلايا الاتحاديين في مكة والمدينة. مع هذا، فقد وجد نفسه في العام ١٩١٣ والعام الذي تلاه مهدداً بأعداء خوارج من شيوخ عرب من الجنوب والشرق. فضلاً عن اولئك الذين سميناهم بالانفصاليين في دمشق والقاهرة ومنهم من يعدّه مجرد موظف تركي لايمكن الاطمئنان اليه. كما كان ثم البريطانيون الذين تسيطر قواتهم البحريّة على سواحل الحجاز الطويلة دون عائق، وهو على علم بأنهم سيكونون من اعدائه لو بقي ولاؤه لتركيا وألقى حظوظ مع حظوظ أسياده هؤلاء. أخيراً هناك الحكومة التركية الاتحادية التي تتربص به الدوائر وتعمل للاطاحة به. إلاّ أن الحرب ارغمت الاتحاديين على إيقاف مَدّ السكة الحديد، كما ارجأت مسألة عزله واستبداله. بل اوعزت اليه بدل ذلك بتجهيز وإعداد جنود للخدمة في الجيش. وكان من السهولة بمكان ان يدرك معنى هذا التكليف. انهم سيرسلون الجنود العرب الى ميادين قتال بعيدة في حين يسوقون جيشاً نظامياً تركيّ القوام الى الحجاز للسيطرة على الموقف.

ما كان في يد الشريف من حيلة ازاء ذلك إلاّ المساوفة والمساومة. بعث أوّلاً يسأل خصمه (عبدالعزيز آل سعود) عن موقفه من اعلان الجهاد. أسيكون معه او عليه؟ كان اعلان الجهاد ضدّ الكفرة اضحوكةً كبرى. فتركيا تحارب الى جانب الكفرة ايضاً وتساند قضيتهم!

وناقش (فيصل) مندوبه مسألة القيام بعمل مشترك ضدّ تركيا مع رجال الجمعيات السرية

(١٧) ارنست داون Ernest C. Dawn: «مقالات حول أصول القومية العربية. من العثمانية الى العروبة From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism» ص١٤ وما بعدها. ط. شيكاغو ١٩٧٣.

في دمشق، في عين الوقت الذي اكدّ للترك بأنه سينفذ امرهم بتجنيد متطوعين وطلب منهم مالاً لهذا الغرض!

وفي نهاية العام ١٩١٤ عندما تهيأ (جمال) للهجوم على القوات البريطانية في السويس، كتب الشريف للقائد التركي تعهداً بارسال قوات للمشاركة في الهجوم، كما بعث (عبدالله) في الوقت عينه الى القاهرة مؤكداً لـ(ستورز) بانه قرر الانحياز الى بريطانيا حال نشوب القتال موضحاً ذلك بقوله: «ويجب ان يبقى ذلك سراً، لأن الوقت لم يحن بعد للكشف عن نية التحالف. وانا ايضاً لا أتمكن من القيام بايّ عمل».

والمراسلات المحفوظة في مركز الوثائق البريطانية بترتيب، تدلّ على ان القاهرة كانت مرتاحة من هذا الموقف. ففي ٢٧ من كانون الثاني ١٩١٥، كتب (ستورز) معبراً عن رضاه:

"مازلت على اتصال حيّ وثيق بشريف مكة وانا على ثقة تامة بأنه اكثر اهتماماً بمصالحنا وأدعى الى اهتمامنا به من اي شيخ محلّي آخر مهما بلغ شخصياً من حَول وطول، فليس بمقدور احدٍ سواه من ممثلي الاسلام كسب ولاء السنة في أي بقعة من بقاع العالم»[١٨].

★★★

بدأت لندن التي استقرت على سياسة تجزئة الامبراطورية العثمانية تفكر في مستقبل الولايات العثمانية الناطقة بالعربيّة. ومن اجل هذا ألّفت الحكومة لجنة عرفت بـ(لجنة دي بنسن) نسبةً الى رئيسها. والى هذه اللجنة ضُمّ فيما بعد الشخصية التي قدر لها ان تضع بصماتٍ خالدة على خريطة تلك البلاد. وتدمغها بطابع سياسيّ وقومي مازالت اثاره باقيةً الى يومنا هذا، بكل حسناته وسيئاته، وخطئه وصوابه. انه السرّ مارك سايكس.

مالبث (سايكس) ان تولى امر اللجنة وغدا هو خبيرها وروحها الفعّالة. وهو الذي كتب تقريرها. اسرعت لندن في ارسال (سايكس) الى القاهرة ليبحث توصياته مع المسؤولين هناك في اوائل ١٩١٦. ومنها قام بعدة رحلات الى الخليج الفارسي وجنوب ميسوپوتاميا والهند استغرقت ستة أشهر استطلع خلالها وجهات نظر مختلفة من مسؤولين بريطانيين وشخصيات

(١٨) رسائل ستورز، لاسيما المرقمة: 15 .QQ .47 .30157 .Kew. والواقع هو ان جلّ ما كانت لندن تريده من الشريف هو بقاؤه حياً وفي منصبه. ولذلك نجد البليد (مكماهون) يكتب لوزير الحرب في ٢ شباط ١٩١٥: "لا ضرورة هناك تدعو الى عمل سريع... كل ما كان ضرورياً عمله مع شريف مكة قد تم" (عين المرجع).

محليّة. وفي مصر اجتمع بـ(كلايتن) و(ستورز) وقدّمه هذان الى الشخصيات العربيّة الصديقة لبريطانيا.

إقتنع سايكس بوجاهة فكرة بقاء سورية لبريطانيا، وتعويض فرنسا عنها في مكان آخر، كما اقتنع ايضاً بفكرة رفع الشريف الى سدّة الخلافة، كما انحاز الى رأي (ستورز) في مشروع اقامة «امبراطورية مصريّة»[١٩] والى خلق كيان موحد للبلاد الناطقة بالعربيّة مشمول بسيادة الخليفة الروحيّة فقط على ان يكون رئيس الدولة السياسي خديوي مصر، وان يحكم هذا الكيان من القاهرة بإشراف وهداية المندوب السامي البريطاني... الذي سيكون اللورد كتشنر لا غيره!

لكن المعارضة الفرنسية الحازمة خربّت هذا المشروع برمّته. وعلى اي حال كان هذا تصوراً مستقبلياً فحسب. أما النتيجة العملية من ذلك الاجتماع فهو الموافقة على اقتراح تأسيس «مكتب عربي» في القاهرة. في حين كانت لندن ترى اقامة «مكتب اسلاميّ» بالأحرى، ففي كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ أمر رئيس الحكومة البريطانية بعقد مؤتمر موسّع يتمثل فيه كل الادارات المعنيّة لبحث اقتراحها في تأسيس «المكتب الاسلامي». لكن المؤتمر اقرّ اقتراح (سايكس) بدل ذلك اي باقامة مكتب عربي، شريطة ان لايكون ادارةً بذاتها، بل دائرة تابعة للاستخبارات في القاهرة. كما خولت القاهرة صلاحية استخدام موظفيه، وانشاء ادارة خاصة تحتفظ الاستخبارات بحق الاشراف عليها. وتقرر تعيين (ديڤيد هوگارت)[٢٠] رئيساً له... كان هناك اسباب ودوافع لهذا التدبير.

ولنعد الى الوراء قليلاً.

في صيف العام ١٩١٥ اعترت الدهشة المسؤولين البريطانيين في القاهرة من رسالة بعث بها الشريف بعد ستة أشهر من انقطاع، طلب فيها دون سابق انذار ومن دون اعطاء اي تفسير –

(١٩) كانت في حينه تدور شائعات بان الخديوي حسين كامل (تولى الخديوية في ١٩١٤) الذي اتخذ لقب السلطان، يفكر في الحلول محلّ السلطان العثماني خليفةً للمسلمين وحاكماً لجميع البلاد الناطقة بالعربية وبعبارة أخرى تجزئة الامبراطورية الى نصفين.

(٢٠) عالم آثاري بالاصل، خريج اكسفورد، كان قبل تعيينه يشغل منصب ضابط استخبارات البحرية البريطانية. شخصية غامضة كان يعمل مع المخابرات البريطانية قبل الحرب. ما يذكر عنه انه جاء بالسر كيناهان كورنوالس من السودان ليكون نائباً وهو عينه مستشار الداخلية في العراق عند قيام الازمة الآشورية. كما صحب معه المدعو (توماس ادورد لورنس) الشاب الذي كان واحداً من تلاميذه المساعدين في المتحف الاشمولي باكسفورد، الى جانب عدد كبير من المغامرين طلاب الشهرة ومنهم اصدقاء لسايكس وسيأتي الكلام عن ادوارهم ومساهمتهم في الثورة وفي عالم السياسة الشرق اوسطية.

بأن يتكوّن من كلّ عرب آسيا مملكة مستقلة تحت حكمه.

ماكان هناك سبب يدعو الى الدهشة في الواقع. فهذا ما عرضوه عليه في السابق عندما زينوا له ان يكون خليفةً للمسلمين كافةً، وهو ولا غروَ منصب يقلّ عن منصب "خليفة للعرب". لم يندهشوا فحسب، بل استنكروا وتندروا وهزؤا. علق (ستورز)على الرسالة بقوله:

"على حسين ان يكون شاكراً بقناعته بحكم الحجاز، ربما كان طلبه هذا يهدف الى جعله اساساً لمفاوضات يطرح فيها طلبات اكثر بكثير مما يحق له أو يأمل به، او يقوى عليه، أو يتوقعه"[٢١].

إلاّ ان مكماهون وبعقلية الدبلوماسي التوفيقية الضيقة، لم يشأ اشاعة خيبة عند الشريف. واجابه بمنتهى الرّقة بان البحث في شؤون حدود الشرق الاوسط يجب ان يؤجل الى نهاية الحرب.

لم يكن طلب الشريف المفاجيء باقامة مملكة عربيّة – طلباً مبتسراً او غير معقول بالنسبة اليه، وكما بدا للمكتب العربي... فـ(مكماهون وستورز) كانا يجهلان وقتذاك التطور الفجائي الذي حصل في مكة خلال كانون الثاني (يناير) ١٩١٥. فقد وقع بيد الشريف دلائل خطيّة تشير بوضوح الى ان الحكومة الاتحادية اتخذت قراراً بعزله حال نهاية الحرب. وأن تأجيلها ذلك كان بسبب الحرب ليس الاّ. عندها ارسل (فيصل) الى استنبول لمواجهة صديقه (الصدر الاعظم) ومنه علم هذا بان قضية عزل والده مبتوتٌ فيها.

وعلى اساس من هذا بعث الشريف برسالته المفاجئة الى القاهرة، بعد قيام فيصل باستطلاع آراء الجمعيات السرية في دمشق وهو في طريق العودة. كان هؤلاء قد اعلموه قبلاً وهو متوجه الى استنبول (آذار ١٩١٥). بان هناك ثلاث فرق عثمانية معظم ملاكها من العرب ترابط في منطقة دمشق وهم يعتقدون بأنها ستكون طوع أمرهم وقيادتهم. كما تحدثوا عن تزعم ثورة على تركيا غير انهم ابدوا تحفظاتٍ منها اعتقاد بعضهم ان المانيا ستكسب الحرب بعد امدٍ قصير ومن الغباء وقصر النظر ان يكونوا الى جانب الخاسر. ثم انهم من جهة أخرى يفضلون ان يحكمهم المسلمون الاتراك على المسيحيين الاوروپيين ان كان بيدهم الخيار.

كلّ من كتب من المؤرخين الاجانب حول هذا، كانت تنقصهم المعلومات الدقيقة وكذلك نحن أيضاً. ماذا كان قوميّو دمشق يخططونه آنذاك؟ اين هو المصدر العربي الموثوق الذي يمكن

(٢١) روجر ادلسن Roger Adlson: «مارك سايكس، صورة لهاوٍ Mark Sykes: A Portrait of an Amature لندن ١٩٧٥. ص١٨٧.

الاستناد اليه؟ وأنا ما لديّ من حيلة إلاّ الاستقراء والاستنتاج. فالذي يبدو لي ان القوم هناك جمعياتٍ وافراداً كانوا يميلون الى عرض الولاء العربي في سوق المنافسة بين تركيا وبريطانيا. وجدناهم ينصحون الشريف عن طريق مبعوثه (فيصل) بالاّ ينحاز الى الحلفاء إلاّ اذا تعهدت بريطانيا بمساندة مطلب استقلال معظم البلاد الناطقة بالعربية في آسيا. وفي حالة حصولهم على وعدٍ كهذا - فيسيعودون الى تركيا ويعرضون عليها الشروط عينها.

إلاّ ان (فيصلاً) لم يجد دمشق عند عودته (٢٤ أيار ١٩١٥) مثلما استقبلته وهو متوجه الى استنبول. لم يبق شيء! فقد وفق (جمال پاشا) في ضبط وثائق بالاسماء تشير الى وجود مؤامرة عربية. فلم يضع وقتاً في اجتثاثها وقضى على الجمعيّات السريّة بإلقاء القبض واعتقال عدد كبير من زعمائها. وارسل طائفة منهم الى المشنقة، وشتت شمل البقية، ثم اعاد النظر في ملاكات الفرق الثلاث واجرى تغييرات كبيرة في تشكيلاتها، وارسل عدداً كبيراً من ضباطها الى جبهة غاليبولي وچناق قلعة وجبهة القفقاس[٢٢] والعراق غيرها.

من نفر باق لهذه الجمعيات[٢٣] عَلِمَ فيصل انهم ماعادوا قادرين على اشعال فتيل الثورة وأنّ على ابيه ان يقوم بذلك. فتسلل (فيصل) في غيهب من الليل وهرب وقد علم أن (جمال) يبحث عنه[٢٤] ويجدّ في طلبه. كان رجال الجمعيات قد كتبوا وثيقةً عينوا بها الحدود والاراضي «العربية» التي سيشملها الاستقلال. وقد عرفت فيما بعد بـ(برتوكول دمشق) أقرّوها في شهر آذار (مارس) ١٩١٥. ودونك النصّ الخاص بالحدود الذي كان فيما بعد الأساس الذي دارت عليه مراسلات الشريف لمكماهون:

١- اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربيّة الواقعة ضمن الحدود التالية:

شمالاً: الخطّ الممتد بين (مرسين) و(أدنه) بموازاة خطّ العرض (٣٦) ومن ثم امتداد لخط بيره جك - اورفه - مدياث - الجزيرة - عماديه حتى الحدود الفارسيّة. شرقاً: الحدود الفارسية الحالية حتى الخليج الفارسي. جنوباً: المحيط الهندي. باستثناء عدن. التي

(٢٢) ت. أ. لورنس: «رسائل سرية من جزيرة العرب Secret Despatches from Arabia» ص٦٩. لندن. ربما كان طبعه في ١٩٣٨.

(٢٣) ستة اشخاص عند (لورنس) وتسعة عند (داون). (المرجع السالف).

(٢٤) بعض الكتاب ينفي ذلك. وبعضهم يثبته. إلاّ ان المؤرخ والباحث (محمد كُرد علي) الذي زعم في مذكراته (دمشق ١٩٥٥ ج٣) بانه كان احد المتوسطين والشفعاء عند جمال للعدول عن تنفيذ حكم الموت الصادر بحق المحكومين القوميين اثناء وجودهما في القدس. لكن القائد التركي بسط امامه البينات والوثائق التي ادينوا بموجبها وتثبت بأنهم كانوا يعدون للإنقلاب، لا ينسى هذا العالم الكبير ان يتوجه باللوم الى (فيصل) بقوله انه الذي ورط المحكومين وتركهم لمصيرهم متسللاً من دمشق. ويصفه بالجبن والانانية.

تبقى بوضعها السياسي الحالي (اي محمية بريطانية). غرباً: البحر الاحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى (مرسين).

٢- إلغاء الامتيازات الاستثنائية الممنوحة للاجانب بموجب المعاهدات الاستسلامية الماضية (المعاهدات التي ارغم عليها الباب العالي).

٣- اقامة حلفٍ دفاعي بين بريطانيا العظمى وبين الدولة العربية المقبلة.

٤- منح الافضلية لبريطانيا في التعامل الاقتصادي.

عندما أبلغ الشريفُ القاهرة بهذا البرتوكول بوصفه صادراً عنه لم يُؤخذ كلامه مأخذاً جدياً.

***

في غفلةٍ عجيبة من غفلات التاريخ ومنعطفاته الحادة، قدر لهذه المرحلة ولضابط صغير خامل الشأن. ولأكذوبة صغيرة اخترعها، ان يحدث تغييراً جوهرياً في سياسة الحكومة البريطانية ازاء البلاد الناطقة بالعربية وان ترتفع حرارة العلاقات بين القاهرة ومكة الى الدرجة القصوى غير المتوقعة قط. قصّة اهملها مؤرخو العرب اهمالاً تاماً في حين كانت جزءً هاماً من التاريخ القومي وتاريخ الثورة.

حمل (سايكس) معه الى لندن شيئاً يفوق اقتراح تأسيس المكتب العربي اهميّة: حمل انباء مثيرة عن شاب ضابط عثماني برتبة ملازم ثان يُدعى (محمد شريف الفاروقي) ويبلغ من العمر ٢٤ عاماً ومن اهالي مدينة الموصل[٢٥] ادّعى انه عضو في جمعيّة العهد السريّة

(٢٥) في خريف تلك السنة فرّ (الفاروقي) من جبهة غاليبولي وعبر خط النار والمنطقة الحرام وسلم نفسه للبريطانيين مدعياً أنه يملك معلومات خطيرة جداً تهّم المخابرات البريطانية، فأرسل الى القاهرة فوراً للتحقيق. ربما كان فراره بدافع خوفه من وشاية أو قلق من وجود وثائق في دمشق عند قيادته تدينه او لعله كان يسعى الى شهرة من لعبةٍ خاصة يلعبها في ميدان السياسة الدولية. فقد ظهر فيما بعد انه كان يتصرف ذاتياً ولم يثبت للبريطانيين ولا لغيرهم بان جماعة أو أحداً ما يقف وراءه ويحركه. كما ثبت أيضاً انه لا يمثل اية جهة. كان قليل الحظ من الانكليزية ولذلك بدا من الصعب عزل ما كان ينوي قوله عن ما عُزي اليه من اقوال او ما وضعه مستجوبوه في لسانه وزعموه عنه وفي نيتهم ان يحبوا سماع كل ما ادعى انه من بنات افكاره. لم يكن آنذاك يعرف عن الفاروقي الاّ القليل. وقد ظلّت شخصيته يكتنفها الخمول حتى يومنا هذا. ومن القليل الذي جاء في الوثائق البريطانية ان الشاب هبط كالشهاب الثاقب في خريف على المكتب العربي واستأثر باهتمام الحكومة البريطانية طوال العام ١٩١٦ ثم لفّه ضباب الخمول وخبت ناره ولم يظهر له اسم او صيت خلال الاحتلال البريطاني للعراق وانه قتل في العراق العام ١٩٢٠ في اثناء غارة عشائرية في الطريق العام. وارجح انه من أسرة آل العمري المعروفة في الموصل وهي نسل الخليفة عمر بن الخطاب الملقب بالفاروق. كان عضواً في واحدة من الجمعيات السرية بدمشق =

العسكرية. واستشهد بذكر رئيسها في دمشق العميد (ميرآلاي) الركن (ياسين الهاشمي) رئيس اركان الفرقة الثانية عشرة. ومع انه اقرّ بانه لم يُخول حق «التفاوض معكم رسميّاً» إلاّ

= عندما توقف فيصل فيها وربما كان أحد الذين إجتمعوا به هناك. وإن لم يحصل هذا فربما أنهى إليه زملاؤه بتفاصيل محادثاتهم مع فيصل. وقد شملته تنقلات (جمال). لفترة ما اعتقد البريطانيون اعتقاداً جازماً بأن صلته بالجمعيات الدمشقية لم تنقطع ومنهم علم بتفاصيل مجهودات (فيصل) وابيه في الانحياز الى بريطانيا واعلان الثورة. مثلما علم بنبأ البروتوكول. وقد جاء ذكره في مذكرات جعفر العسكري. ويظهر ان الفاروقي استطاع أن ينال ثقته – قال جعفر:

«بعد انتقالي الى دار الدكتور پيتر اتصل بي ان ضابطاً شاباً عراقياً من الموصل يسمى شريف الفاروقي وصل الى القاهرة ممثلاً لجلالة الملك حسين لدى السلطات البريطانية في مصر فذهبت لزيارته وكانت معرفتي به قديمة لأنه كان أحد تلاميذي القدماء لما كنت مدرساً في المدرسة العسكرية في بغداد ففهمت منه انه هرب من الجيش التركي والتحق بالجيش الانگليزي وادعى انه ممثل للجمعيات العربية وبيّن استعداده للاتصال بالشريف حسين للقيام بحركة واسعة النطاق على الامبراطورية العثمانية في جميع الأقطار العربية وانه فعلاً أرسل الى جلالته وكانت النتيجة ان الملك حسين عينه ممثلاً عنه لدى السلطات العسكرية البريطانية للحصول على الأسلحة والذخائر ولإرسال المتطوعين الى الحجاز لخدمة الشريف حسين. ولما كانت شخصية ذلك الشاب وتصرفه في الأمور على غير ما يرتاح إليه رجال العرب لذلك كان تأثيره قليلاً وكان يخامره الشك في أمر الذين يقابلونه ويتخوف منهم لئلا يفقد مركزه عند الشريف والانگليز لأن العراقيل التي وقفت في سبيلي في باديء الأمر في قضية انضمامي الى الشريف كانت نتيجة مخاوف شريف الفاروقي هذا لأنه كان يحسبني من الاتحاديين نظراً الى الصلة الشخصية التي كانت بيني وبين أنور باشا... وفي خلال هذه المدة التي قضيتها في مصر كنت أقابل من حين لآخر شريف الفاروقي منتظراً منه أن يبلغني جواب الكتاب الذي كتبته الى جلالة الملك حسين طالباً السماح لي بالانخراط في سلك جيشه لنجدة العرب وكنت أشعر بمماطلة وتسويف وأصررت عليه ليبيّن لي الأسباب التي تؤخر البت في أمري فحاول أن يبيّن لي من طرف خفيّ ان السلطات البريطانية هي المرتابة في أمري لأنها تخشى أن أفلت من يديها فأرجع الى صفوف الجيش العثماني» [مذكرات جعفر العسكري: تحقيق وتقديم نجدة فتحي صفوت، دار السلام، لندن ١٩٨٨، الص ١٠٢–١٠٤]

بالعودة الى نهاية محمد شريف الفاروقي التي ادخرها له القدر ما يستدل منها على شجاعة وشهامة في الرجل. لم يكن مقتله في ساحة حرب أو في ثورة العشرين كما علق الاستاذ (صفوت) بل كان بيد بدوي وهو في طريقه من الموصل الى بغداد دفاعاً عن مسيحي، وأظن الصديق (صفوت) استمد ذلك من كتاب كوتولوف (ثورة العشرين، الترجمة البيروتية ١٩٧٥) المليء بالأكاذيب والمختلقات فقد قال هذا عن مقتله ولاأدري من أين جاء مصدره: "ان مقتل الفاروقي هو من بين الأعمال الوطنية التي قام بها الأنصار عقب انتهاء الثورة"!!. والحقيقة هي أن الذين اغتالوا الفاروقي لم يكونوا من الأنصار بل من قطاع الطرق النشطين على طريق الموصل – بغداد، وكانت طريقاً غير مأمونة حتى الثلاثينيات تجول فيها عصابات التشليح وسلب المال الى حدّ القتل. غادر شريف الفاروقي الموصل في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٠ الى بغداد وكان في قافلة مؤلفة من خمس سيارات... وفي موضع بين الشورة وحمام علي اعترضتها عصابة من البوحمد مؤلفة من ١٥٠ خيالاً برئاسة شيخهم (بليبل آغا) وكان بين الركاب رجل من أسرة بثيون المسيحية (يدعى عزيز) فدنا منه رجل من العرب وسأله هل أنت نصراني؟ فأجابه بحدة نعم نصراني، فصرخ الرجل في وجهه يا خنزير ثم فتك به. والظاهر أن الفاروقي حاول أن يردع الرجل ولعله انتهره ظناً منه أنهم يعرفونه فتوهم (بليبل) بأنه نصراني مثله فتقدم منه وأطلق النار عليه دون معرفة به ثم =

ان (كلايتن) قبله بوصفه ناطقاً باسم حزب العهد يعرض مقترحاته. وصدقت الاستخبارات به اعتماداً على (كلايتن) رغم انها لم تتأيد لها عن مصادر أخرى ولم تجد حاجة للتحقيق في صحة مزاعمه.

لم يكن في الواقع يمثل اي جهة ولا ناطقاً باسم «العهد» والواقع هو ان كلايتن كان ضحية خدعة. والأمر الذي حمل كلايتن على تصديقه هو معرفة الفاروقي بأدق التفاصيل حول المراسلات بين الشريف والقاهرة، وكذلك علمه بمطالب الشريف الأخيرة.

هاهنا مطلبان متفقان يأتيان من جهتين مختلفتين فأي برهان أقوى من هذا؟ وكلاهما يطابق ما عرضه مؤسس حزب العهد نفسه (عزيز علي المصري) وغيره من المبعدين العرب في القاهرة منذ اولى ايام الحرب. الاستنتاج المنطقي الوحيد المبنيّ على هذه الفرضية الخاطئة هو:

(ان كانت الجمعيات السريّة تدعم الشريف. فلا إمكان بعد هذا للتمسك بالوهم بأنه لايمثل اكثر من الاقليم الذي يحكمه في جزيرة العرب. واذا كانت الجمعيات السرية بهذه الدرجة من القوة كما يزعم (الفاروقي) ويقنع به (كلايتن) فالشريف والحالة هذه انما يتحدث بلسان مئات الالوف من الجنود الناطقين بالعربية في الجيش التركي وباسم ملايين من رعايا بلادهم في الامبراطورية).

مضى (الفاروقي) في لعبته وقد زادته حماسةً شدة اهتمام هؤلاء الرجال الخطيرين باقواله وجذبتهم في الأخذ بها. فأنذر (كلايتن وستورز) ورفاقهما بوجوب الاسراع في الموافقة على مطالب الشريف وزاد قائلاً بأن على البريطانيين ضمان استقلال البلاد العربيّة اذا رغبوا في ان يقوم حزب العهد باشعال نار الثورة في قلب الامبراطورية واعطاهم (كذا!) مدة اسابيع قليلة لقبول هذه المطالب "وإلاّ فان الحركة العربية ستدعم المانيا وتركيا بكل امكاناتها!".

لم يسأل أحد من البريطانيين اين هو العهد هذا؟ وماذا فعل؟ ومن هم رجاله؟ ولم يكونوا على إدراك بأن (جمال) أوقع بهم وأحال حزبهم أثراً بعد عين. ابتلع البريطانيون الكذبة كأيّ سمكة. واصيبت القاهرة بحمى وهياج. فكتب (ستورز) لوزير الحرب كتشنر في ١٠ من

= قامت العصابة بنهب السيارات وتشليح أهلها.

ألقي القبض على بليبل وسيق الى المحكمة في الموصل بتهمة قتل هذين ولم تثبت عليه التهمة بسبب عدم تقدم أحد للشهادة خوفاً من الانتقام فبريء. والتقى به بعد البراءة عبدالمنعم الغلامي ونقل عنه قوله "والله ياخوي ما آني قاتل شريف لكن الذين قتلوه اتهموني وجعلوني مسؤولاً عن دمه ليضربوا عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل" (قحطان أحمد عبوش، ثورة تلعفر، بغداد ١٩٦٩، الص ٣٨١–٣٨٣، نقلاً عن جريدة صدى الأحرار، ٢ آذار ١٩٥١).

تشرين الأول (اكتوبر):

"بلغت القضية العربيّة انعطافاً حاداً."

ونظم (كلايتن) بدوره تقريراً لخص فيه محادثته مع الجنرال (ماكسويل) قائد القوات البريطانية العام في مصر وعلى اثر ذلك وبنتيجتها ابرق هذا القائد لوزيره بالآتي:

"ان منظّمة قوية جداً تنشط خلف خطوط العدّو. وانها مصدر طلبات شريف مكة فعلاً. إنْ تمّ التوصل الى اتفاق نهائي معها فسينحاز العرب (كذا!) الى جانب العدّو".

لم يفكر هذا الجنرال لحظة ليسأل نفسه قبل إرسال البرقية. عَمّا هو موقف العرب تلك الساعة؟ أهم على الحياد حقاً؟ أليسوا هم جزءً من العدوّ... على الاقلّ تكنيا؟

الواقع هو ان الفكرة التي سادت بريطانيي القاهرة بعد «الانذار» (الفاروقي) الصاعق. أنّ ثورة عربيّة عارمة ستكون عاملاً مساعداً يضمن انقاذ القوات الحليفة التي كانت تقاتل قتال المستميت في غاليبولي، حيث راح قائدها الجنرال (أيان هاملتن) يحث (مكماهون) على تلبية مطالب العرب بسرعة. فكان هذا عند حسن ظنّه ولبّى طلبه بردّه الشهير، وكما يوحي بذلك تصريحه الذي ادلى به بعد سنة واحدة، نافياً عن نفسه مسؤوليته في رسم صورة تلك الثورة العربيّة المزعومة التي بان فشلها وإخفاقها قبل ميلادها وهذا هو نصّ التصريح:

" كان يوماً من أنحس ايام حياتي واتعسها عندما القي على عاتقي مسؤولية الحركة العربيّة. وأرى ان كلمات قليلة هي ضرورية جداً لإيضاح موقفي؟ الا فليُعلم بان لا علاقة لي بهذه المسألة مطلقاً. انها اولاً وآخراً مسألة تخصّ الجيش وقد بدأت بنداء عاجل من الجنرال (السرّ أيان هاملتن) يناشدني فيه القيام بعمل فوري يهدف الى إخراج العرب من الحرب. في تلك الساعة كان قسم كبير من القوات الغربيّة في غاليبولي وفي ميسوپوتاميا. وكاد كلّ القوات فيها يكون من العرب"[٢٦].

وفي الوقت الذي راحت دار المعتمد البريطاني في القاهرة تطلب من لندن الموافقة العاجلة على مطالب "الفاروقي – الشريف" ذكرت ان "الباب مازال مفتوحاً للتفاوض، وقد يقوم هذا

(٢٦) الوثائق. المرجع السالف. انظر ايضاً «The Chalham House Version and other Middle Eastren Studies» ص١٤. نشرها الكاتب والباحث العراقي ايلي خضوري. لندن ١٩٨٤.

الضابط العربي بتنازلات عند الحاجة!".

بخارقةٍ من خوارق التاريخ، ومفارقاته المذهلة وجد (محمد شريف الفاروقي) نفسه في الأسابيع بل في الاشهر القلائل التالية، قطب الرحى وفي المركز العربي الأعلى للمفاوضات والحوار حول مصير البلاد الناطقة بالعربيّة. وفي الوقت الذي وجب على هؤلاء الموظفين ان يزيحوا طرفاً من الغشاوة عن أعينهم ليتبينوا بان الأمر كله ليس غير خدعة كبيرة، وجدنا (الفاروقي) مجداً يرسم لهم ويعيد رسم حدود البلدان والامبراطوريات في اثناء تبادل الرسائل وكتابة التقارير وابداء وجهات النظر – بين المندوب السامي وبين الشريف والقوميين العرب في القاهرة، وكلّ طرفٍ من هذين الأخيرين يعتقد بانه يمثل الطرف الآخر وينطق باسمه!

الفاروقي قُدمّ لأمير مكة بوصفه عضواً خطيراً في حزب العهد ومحلّ ثقة من البريطانيين. في حين زعم هو لبريطانيي القاهرة بانه يمثل الشريف وينطق بلسانه.

وقد حاول (فيصل) عبثاً ان يكشف عن هوية هذا العربي الغامضة الذي اصبح في القاهرة شخصية بالغة الاهمية والخطورة فلم يظفر باكثر من اسمه فكتب لأبيه في رسالة:

"وامّا عن الفاروقي هذا، فأنا لا اعرفه ولا اعرف عنه شيئاً"[٢٧].

انداحت دوائر الحصاة التي القاها الفاروقي في بحيرة السياسة البريطانية الشرق اوسطيّة لتشمل النوايا والسياسة والاطماع الفرنسية في سورية وسائر البلدان الناطقة بالعربية. وهنا أيضاً اتفقت مقترحات (الفاروقي) مع عين الفكرة التي كان (كلايتن) قد رسا عليها في السابق باعتزامه معارضة الادعاء الفرنسي بداخليّة سورية في خطّ يمتد من حلب حتى دمشق ماراً بكلّ من حمص وحماه. وكان كلايتن يدرك بان فرنسا لايمكن ان تنزل عن ساحل سورية ولبنان حيث يعيش المسيحيّون بحماها.

واستناداً الى تقارير (كلايتن)، ان (مكماهون) اقتبس قول الفاروقي وضمنه برقية الى وزارة الخارجية. مؤداه ان امير مكّة لن يصرّ على مطالبه الاصليّة، اي ان تمتد حدوده الغربيّة الى البحر، لكنه سيعارض بالسلاح اي محاولة فرنسيّة لاحتلال (مناطق)[٢٨] حلب وحمص وحماه ودمشق.

(٢٧) الوثائق واوراق اللورد كتشنر .48 .30157 .26 .R. R.

(٢٨) شجعه على ما اوحاه الفاروقي له، بان الشريف سيوافق ويتنازل عن ادعائه بهذه الاماكن. ولايعرف ماذا كان يقصد (مكماهون) بالمناطق. هل يقصد بها ولاية ام مدينة مع ضواحيها. (مركز الوثائق. ومجموعة اللورد ليڤربورك – وثائق مجلس اللوردات: اوراق لويد جورج 3-205 F .No. 17.

وطلب هذان تخويلهما بقبول شروط الشريف بعد التعديل ودأب (كلايتن) يلحّ على حكومته بإعطاء الاسبقية للقضية العربيّة. ووجد لراحته وفرحه في (سايكس) حليفاً قوياً عظيم النفوذ في لندن، ذلك الرجل الذي انقلب بتأثير الجو القاهري والعدوى «الفاروقية» إلى نصير عظيم للقضية العربية، وعدوّ لدود لمن كان يحترمهم ويحبّهم بالأمس[٢٩] اعني الاتراك. ومن هذا الانقلاب نبطت فكرة المكتب العربي كما بيّنا.

★★★

على أثر العاصفة الفاروقية، أبلغ (مكماهون) بان يقدم التعهد الذي طلبه الشريف. وتمت الموافقة على فتح حوار حول تعيين الحدود التي ستمتد اليها مملكة الشريف. الاّ ان مكماهون بقي يستخدم اسلوب المواربة والعموميات والصيغ العريضة المدلول. ففي رسالته المؤرخة في ٢٠ من تشرين الثاني (نوڤمبر) وافق من ناحيةٍ على ان ينال العرب استقلالاً بعد الحرب. الاّ انه اشار من ناحيةٍ أخرى الى ضرورة وجود مشاورين وموظفين اوروپيين لتنظيم الادارة في البلاد المستقلّة، وشدد على ان يتم اختيارهم من البريطانيين فحسب. وبعبارة اكثر صراحة ان ايّ استقلال تناله مملكة عربية في الشرق الاوسط سيكون تحت الحماية البريطانية.

وماذا عن الحدود التي ستمتد إليها مملكة الشريف؟

قال مكماهون بتقسيم الاراضي التي ادعى بها الشريف الى مناطق أربع واضاف: ان بريطانيا لايسعها ربط نفسها بتعهد يؤدي الى مساندة الشريف في ضم اية منطقة منها. واشار بوجوب صرف النظر عن ادعائه بمناطق دمشق وحلب وحمص وحماه. ثم انتهى بقوله:

"ان المملكة العربية التي يتصورها الشريف ويطمح اليها لن تشمل لبنان وسورية وفلسطين ولا الولايات الشرقية بغداد والبصرة، ولأن لبريطانيا مصالح فيهما فستتخذ بشأنهما تدابير ادارية خاصّة. [لم ينوه مكماهون بشيء ما حول ما اذا كانتا ستدخلان في حدود مملكة الشريف ام لا]. وامّا بخصوص المناطق الغربية اي

(٢٩) تعود (سايكس) احترام الطبقة الحاكمة التركية وحظيت قابلياتها بتقديره دون رعاياهم الآسيويين الذين كانوا موضع احتقاره. وكثيراً ما لجأ في كتبه الى اقبح النعوت في وصفهم. كذلك عرف بالقفز على الآراء واقتناصها وهي سانحة دون ان ينفق اي وقت في تمحيصها، فلا عجب إن وجدناه ينقلب فجأة ليكون من اشدّ المدافعين صرامة عن قضايا شعوب الشرق الاوسط على انه بقي وهو الكاثوليكي المتعصب لايكن ذرة من احترام لليهود. وبقي يمسكه خوف عظيم منهم ومن نواياهم لم يفارقه حتى مماته في العام ١٩١٩ وهو ابن الاربعين. ولم يجد حرجاً وهو في موقفه الاوّل المتعاطف مع الترك. في ان يتبنى مأساة الأرمن ويدافع عن حقهم في كيان مستقل (المرجع السالف، مارك سايكس: «صورة لهاو»).

سورية ولبنان وفلسطين فإن يد بريطانيا لن تكون حرّة فيها اذا ما اعترضتها مصالح حليفتها فرنسا فيها. ولما كانت الحليفة تدعي بها فليس بوسع بريطانيا دعم مطلب الشريف فيها أيضاً مثلما كان امر دمشق وحلب وحمص وحماه".

هذا ما كتبه (مكماهون) بناءً على تعليمات دقيقة من حكومته.

إذن، لم يبق غير الجزيرة العربية. وهذه موزعة النفوذ على عدد من الشيوخ والزعماء والامراء والشريف واحدٌ منهم ليس إلاّ. ولبريطانيا مع طائفة منهم كبيرة، معاهدات واتفاقيات حماية. وبينهم (ابن سعود) خصم الشريف العنيد.

وفي هذا الصدد أكّد (مكماهون) للشريف بان حكومته لايسعها ان تعده بشيء قد يخلّ بعلاقاتها مع الزعماء العرب الآخرين. وبالتالي فهي لاتستطيع ربط نفسها بوعد يتضمن دعم مطالبه في اي مكان منها. واجاب الشريف بما ملخصه: انه لن يوافق على مسألة دمشق وحلب وحمص وحماه، وكذلك يصرّ على ان تكون ولايتا بيروت وحلب ضمن حدود مملكته، وأمّا عن الفرنسيين فقد اجاب بالحرف الواحد:

"ان ايّ تنازل منتوى يتضمن منح فرنسا او أية دولة أخرى شبراً واحداً من الاراضي في تلك الانحاء هر أمر خارج عن الصدد".

في لندن، لم تجد وزارة الخارجية حكومتها مرتبطةً بأي تعهد بخصوص استقلال عربيّ. فقد اشترطت لإعطائه قيام نصف سكان الامبراطورية العثمانية الذين يتكلمون العربية وينتسبون للقومية العربية – بثورة ضدّ السلطان. وهو ما لم يحصل وما لايعتقد بأنه سيحصل. فالمسألة والحالة هذه لاتعدو صفقة معاوضة. مادام العرب عجزوا عن تنفيذ الجزء المتعلق بهم فإن بريطانيا في حلّ من تنفيذ الجزء الخاص بها. والواقع هو ان لندن في العام ١٩١٦ لم تكن تعتقد بان العرب سينحازون فعلاً الى الحلفاء. وبهذا الصدد خاطب وزير الخارجية اللورد (إدورد كري)[٣٠] زميله (اوستن چمبرلين) وزير الهند[٣١] بقوله مُطمْئِناً:

(٣٠) ادورد كري Edward Cray (١٨٦٢–١٩٣٣): تولى وزارة الخارجية احدى عشرة سنة (١٩٠٥–١٩١٦) وهي اطول مدة لوزير خارجية في تأريخ انگلترا. انه صاحب العبارة المشهورة التي ذهبت مثلا. قالها عند نشوب الحرب العظمى "انطفأت المصابيح في كل اوروپا ولن نراها تنير ثانية طوال ما بقي من عمرنا". كان مهندساً والقوة الدافعة لمعاهدة بندن السرية مع ايطاليا ١٩١٥ التي جرتها للحرب مع الحلفاء.

(٣١) سير ج. اوستن چمبرلين Sir J. Austen Chamberlain (١٨٦٣–١٩٣٧): وزير الهند اثناء الحرب. وزير الخارجية بين ١٩٢٤ و١٩٢٩. من حزب الاحرار، وهو الأخ غير الشقيق للسير نيڤل چمبرلين رئيس الوزارة البريطانية وقت نشوب الحرب العظمى الثانية وصاحب الاتفاق مع هتلر الذي اطلق يد الأخير في =

"لا عليك ولاتقلق حول العروض التي تقدمت بها القاهرة فالأمر كلهُ لايعدو بناء قلعة في الهواء لن تتمخض بشيء!".

وقليل من الانفصاليين القوميين في البلاد الناطقة بالعربية من أدرك بان الوعود البريطانية لاتسوى الحبر الذي كتبت به ولا الورق الذي دونت عليه. والمخادعة والمخاتلة لم تكن من جانب العرب وحدهم. فهي مخادعة مزدوجة متبادلة. ومن هذا القليل المدرك يُشخصُّ (عزيز علي المصري) الذي كتب للورد كتشنر:

"ان بريطانيا لاتستطيع تحقيق اهدافها في الشرق الاوسط الناطق بالعربية إلاّ اذا كانت ذات رغبة خالصة في ترك اهلها احراراً يمارسون استقلالاً تاماً من دون حماية ومن دون ضمّ»[٣٢].

★★★

كانت المشكلة عند بريطانيا انها لاتستطيع تحقيق اهداف ما بدون تسوية مع فرنسا. وهي الآن بحاجة إلى الموافقة الفرنسية على تحويل جزء من قواتها الى مصر عندما تحين ساعة الهجوم على فلسطين وسورية. لكن فرنسا بقيت مترددة في ارسال قوات. فالوضع في الجبهة الغربية كان عصيباً للغاية والألمان يهاجمون في (ڤردون) وقبلها في (السوم)[٣٣] ومع هذا وجدت لندن – خوفاً من تردد الشريف – من الضروري البدء في مفاوضات مع فرنسا وكان (سايكس) المسموع الكلمة في وزارة الحرب قد انذر:

"إن لم نحلّ خلافاتنا هذه مع فرنسا بسرعة. فقد يتم عزل الشريف أو يقتله الترك. وقد يشتعل فتيل الجهاد الذي اعلنه السلطان – في الاراضي المقدسة وليس بامكاننا ان نتعهد بشيء للشريف دون موافقة فرنسا".

بدأت المفاوضات بعد كتاب مكماهون – في لندن ببحث مستقبل سورية وحدودها، ومن أجل اطلاق يد بريطانيا حرةً في التعامل مع الشريف وانتهت باتفاق سايكس- پيكو-

= چيكوسلوفاكيا. كان وزيراً للهند خلال ١٩١٥–١٩١٧. وعضواً في وزارة الحرب الى جنب زميله (كري) وهو مهندس وصاحب فكرة معاهدة لوكارنو الشهيرة.

(٣٢) الوثائق: رقم 8 RR -30/75 .48.

(٣٣) جرى في ڤردون (١٩١٨) اعظم معركة واشدها هولاً في التاريخ البشري. قتل فيها وجرح واسر واصيب بالغاز السام من الجانبين سبعمائة الفٍ. وفي معركة السوم بلغت الخسارة عند الطرفين ما مجموعه مليوناً ومائتي الف جندي.

سازانوف المشهور. وعلى الضدّ مما يروج له عدد من المؤرخين، لم يكن باعث هذه المفاوضات خطاب مكماهون للشريف مُطلقاً[٣٤]. بل كان ثم اسباب أخرى اكثر أهميةً.

فإلى جانب الاهداف الستراتيجية التي توخاها (سايكس) من الاتفاق، اراد تقديم عوض للحصول على الموافقة الفرنسية في حالة قيام الجيش البريطاني بالتحرك نحو فلسطين وسورية. ولهذا وذاك كان هو ورئيسه على استعداد حتى للتضحية بالمصادر النفطيّة التي تزخر بها ولاية الموصل في سبيل وضع فرنسا بمواجهة البرابرة الروس[٣٥].

وبالنتيجة حصل الطرفان كلّ على ما يريده من الآخر. فرنسا ستحكم لبنان الكبير، وتمارس نفوذا من غير منازع على سورية، فضلاً عن امتدادٍ الى ولاية الموصل. في حين تبقى ولايتا بغداد والبصرة للبريطانيين. وبقيت فلسطين عقبة، وتنازع الطرفان عليها. واصرّ (پيكو) على ضمّها الى النفوذ الفرنسي، ثم توصلا الى اتفاق يقضي بان تحصل بريطانيا على مينائي حيفا وعكا مع حزام أرضي تُمدّ فوقه سكة حديد منهما الى ميسوپوتاميا. وتناط بقية فلسطين بإدارة هيئة دولية. وما تبقى بعد هذا من اقاليم ناطقة بالعربية، يؤلف منه دولة عربية الطابع او نوع من الكنُفدرالية العربية تضمّ عدة أيالات (دويلات) مستقلة إسمياً وتخضع عملياً الى

(٣٤) بدأت المفاوضات في ٢٣ من تشرين الثاني. ورأس الجانب البريطاني اولاً (سر ارثر نيكلسن) معاون السكرتير الدائم لوزارة الخارجية في حين مثل الوفد الفرنسي (جورج بيكو) وتواصلت المفاوضات اسبوعاً وكانت قد بلغت طريقاً مسدوداً عند عودة (سايكس) فاستبدل بـ(نيكلسن) فوراً. كان من خطة (پيكو) التظاهر باصرار فرنسا على حكم سورية حكماً مباشراً، لقاء تعديل الحصول على تنازلات مقابلة، كما كان يأمل في مدّ النفوذ الفرنسي شرق البحر المتوسط الى اقصى ما امكن ليشمل ولاية الموصل ذات الاغلبية الكردية. وكان يجهل ان (سايكس) وعضيده (كتشنر) ينويان ايضاً التنازل لفرنسا عنها، اذ كانا يحبذان ان ينداح النفوذ الفرنسي شرقاً كذلك ليغدو الفرنسيون بمواجهة الروس وليكون نفوذهما متعادلاً في المناطق التي سيستوليان عليها. وبهذا يتمّ اجتناب احتكاك بريطاني – روسي أو تصادم مصالح في الشرق الاوسط. أي ان تكون فرنسا هناك بمثابة سور الصين الشهير يحمي الاملاك البريطانية في الشرق الاوسط. كان هذان الرجلان على استعداد للنزول عن الكثير في سبيل تحاشي نزاع دموي مع الروس دام اكثر من مائة عام هناك. ولم يجد سايكس الكاثوليكي المحبّ للفرنسيين أي مانع في الموافقة عندما انذر (پيكو) بأن "مسيحييّ سورية لن يقبلوا بأي شكل من الحكم يفرضه شريف مكة". وشدّد (كامبون) السفير الفرنسي على ضرورة ذلك وكيف انه سيحول دون حرب اهلية دينية الطابع. وقال وكأنه يقرأ صفحات الغيب: "يكفي ان نتأمل في تلك المنافسة المسعورة بين مختلف الطوائف والاديان في الشرق. للتنبوء بعنف الاحتراب الداخلي في لبنان عندما تفتقد قوة خارجية لاحتوائه". (اندرو وكانيا فورستر Andrew and Kanya Forster: «اوج التوسع الفرنسي الامپريالي In Climax of french Imperial Expension» لندن ١٩٦٧. ص٨٩.

(٣٥) موريان كنت Murian Kent: «النفط والامپريالية، السياسة البريطانية وميسوپوتاميا Oil and Empire: British Policy and Mesopotamia 1900-1920» لندن ١٩٦٧. ص٨٩.

مجالي النفوذ الفرنسي- الانكليزي. وجاء في نصّ الاتفاق انه يبقى سرّاً مع الحلفاء ولاينفذ إلا بعد اعلان الثورة العربية. على ان (سايكس) لم ينجح في اقناع الفرنسيين بمقدرة الشريف في المساهمة بعمل مفيد لقضية الحلفاء.

وُقع هذا الاتفاق في ٣ من كانون الثاني ١٩١٦.

وجدت جماعة القاهرة في هذا الاتفاق نكثاً بالعهد الذي قطعته للشريف بقيام دولة عربية مستقلة. لم يقولوا ان (سايكس) غدر بهم، بل قالوا انه غدر بالعرب. حتى لكأن العرب وليس هم الذين رغبوا في سورية لبريطانيا![٣٦].

كان على (سايكس) ان يضمّ روسيا الى الاتفاق، فشدّ الرحيل الى سان بطرسبرغ. ولم يكن يعلم بان الحكومتين الفرنسية والروسية قد توصلتا قبلاً إلى حلّ لقضية مستقبل فلسطين المعقدة عن طريق معاهدة سرية ثنائية صادقتا عليها في ٢٦ من نيسان ١٩١٦. وفيها فصّلت الحدود التي سيمتد اليها نفوذ كلّ من الدولتين بعد زوال الامبراطورية العثمانية. ومما تضمنه المعاهدة تعهداً روسيّاً لفرنسا بدعمها في أية مفاوضات تجري مع بريطانيا حول مستقبل فلسطين السياسي. واشارت الى ان التسوية التي جاء بها إتفاق (سايكس- پيكو) هي تسوية غير عملية وان نفوذاً فرنسياً يجب ان يحل محلّها. وبخلاف ذلك فقد قبلت روسيا بالاتفاق وضم (سازانوف) وزير الخارجية توقيعه عليه[٣٧].

لم يكن الروس يحتفظون بايّ عطف على اليهود، ولا على ادعائهم بأرض الميعاد وأقنعوا (سايكس) ولم يكن بحاجة الى اقناع بأن الصهيونية اليهودية هي قوة خطرة معادية لهم كما هي معادية ايضاً لاية بلاد أخرى. وأسرع (سايكس) اثر ذلك بإبلاغ وزارة الخارجية باقتراح مؤداه. انه وفي الوقت الذي اكدّ لـ(پيكو) في حينه بأن بريطانيا ليست حريصة على حيازة فلسطين. فهي في عين الوقت مطمح الصهيونية، واليهود يريدونها لأنفسهم وعلى الحلفاء ان

(٣٦) الوثيقة 47 .30/57 .QQ. (مركز الوثائق) تؤيد اعتقاد (سايكس) بأنه كسب للعرب في هذا الاتفاق ما طمح فيه كل من الشريف حسين والفاروقي (الذي وصفته بممثل الجمعيات السرية العربية). ووُصف العرب في هذه الوثيقة التي دوّنها سايكس بشكل تقرير "بأنهم يفتقرون الى ادراك لمعنى الوحدة القوميّة الفعلية إلاّ باعتبارها مثلاً اعلى. وان وحدة كهذه لاتتحقق لأنها لاتنسجم مع عبقريتهم القومية كما لايمكن تصورها في وجهة النظر الادارية والمالية. وأنهم لايملكون تلك الروح القومية بالمعنى الذي نفهمه، بل يملكون بدل ذلك روح اعتزاز باصولهم واعراقهم. وهو ايضاً شيء حسن. لذلك كان عليهم ان يقنعوا انفسهم بكونفدرالية دول ناطقة بالعربية يحكمها عرب. إن ما غاب عن (سايكس) هو ان الشريف والجمعيات السرية انما كانت تطالب بدولة عربية تامة السيادة لا بحماية اوروپية.

(٣٧) بقي الاتفاق سرّاً حتى فضحته حكومة اكتوبر السوفيتية في ١٩١٧.

يحسبوا حسابهم وهو يقترح بان يُقطعوا جزءً منها ان شاءت الدول الحليفة بعد ربح الحرب عن طريق السماح لشركات لهم بشراء اراضٍ هناك.

وجاءه جواب فظّ مقتضب من الوزارة: "لاتتدخل فيما لايعنيك. واحتفظ بافكارك لنفسك".

★★★

في الوقت الذي بقي المكتب العربي يأمل بقيام ثورة عربيّة عارمة، يكون فيها القضاء على الامپراطورية. طلبت منه وزارة الهند التدخل لكنس اوضار حملة عسكريّة سيئة العقبى في مجرى الحرب مع تركيا. تلك هي الحملة العسكرية في ميسوپوتاميا. والكارثة التي نزلت بها في وقعة الكوت.

في بدايتها وللغرض الذي رُسم لها - كانت حملة محدودة الاهداف ضيقة النطاق. لكن حصيلتها الأولى كانت نكبةً وخذلاناً عسكرياً يفوق فشل حملة (غاليبولي) بمراحل.

قبل نشوب الحرب بشهر واحدٍ، أمرت لندن حكومة الهند وكتدبير احتياطي، بإعداد قوة عسكرية تبحر الى الخليج الفارسي لحماية إمدادات النفط من مصفاة في عبادان. وفي ٦ من تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩١٤ اي يوم اعلان بريطانيا الحرب على تركيا. تحركت هذه القوة وبعدها بأسبوعين سقطت قصبة (الفاو) بعد رشقات قليلة من مدفعية الزوارق الحربيّة. ومالبثت البصرة ان وقعت بيد الحملة. وهي تبعد زهاء ١٠٥ كيلومترات عن الساحل.

الفكاهة في الأمر هو ان الحملة لم تقم بحماية النفط من تعرض مسلّح يقع عليها في الاراضي الايرانية، بل استخدمت في مغامرة عسكرية لم يُخطط لها ولم تكن واقعة في الحساب.

كانت المقاومة التركيّة ضعيفة، فالبصرة تبعد مئات عدة من الكيلومترات عن بغداد، لذلك سهل جداً صَدّ الهجمات التركية المقابلة. وادرك الغرور قائد الحملة الفريق (سر جون نيكسون) وهو عسكري طموح متهوّر[٣٨] وطمح بالمزيد من الانتصارات فدفع باللواء (چارلس تاونزد) صعداً بمحاذاة دجلة وأمره بدون هدف ستراتيجي معين بالزحف والاستيلاء على بغداد، رغم احتجاج تاونزد وتطيّره، وهو قائد لامع وستراتيجي بارع لايفتقر الى الشجاعة والاقدام. رأى هذا القائد وبكل وضوح ان الزحف الظافر نحو بغداد من البصرة يحتاج لا الى خبرة سوقية عالية وحدها بل الى قوات كبيرة ووسائل نقل نهرية كافية، معدات وافرة ومستشفى عسكري

(٣٨) تسلّم القيادة في نيسان ١٩١٥.

كامل ومدفعيّة وارزاق وعتاد لم تكن حكومة الهند قادرة على تأمينها لحملة كهذه الحملة. ثم ان قوة (تاونزد) كانت تتقدم عبر أراضي قفر ومستنقعات وأهوار لا طرق فيها ولا سكة حديد، بمحاذاة دجلة الضحل الكثيرة الإلتواءات التي يضيع مجراها عند ولوجها عالم الأهوار المترامي والبلاد كلّها موبؤة بالملاريا وغيرها من امراض المستنقعات المعروفة. مع كل هذا قاتل (تاونزد) بضراوة واستماتة وشق طريقه بموهبة قيادية فذّة تقارب العبقرية، وكاد يحقق نصراً عزَّ نظيره في تاريخ الحروب لو وصلته الارزاق والامداد الذي طلبه والحّ فيه.

وفي (سلمان پاك) التي تبعد عن بغداد بحوالي ٤٠ كيلومتراً علم (تاونزد) وبالقوة الصغيرة تحت امرته، ان الفيلد مارشال (كولمان فون درگولتسه) الذي كان يعدّه واحداً من كبار ستراتيجيي عصره – قد انيطت به القيادة العليا للقوات العثمانية في ميسوپوتاميا، كما عَلِمَ أيضاً بان الثلاثة عشر الفاً من الجنود الترك الذين يواجهون قواته الأربعة آلاف والخمسمائة، سيعززون بثلاثين الفاً أخرى.

وادرك هذا القائد بحصافةٍ، أن اقرب موضع للصمود فيه يبعد عن بغداد بحوالي (٣١٠) كيلومترات جنوباً وعلى ضفاف دجلة إلاّ انه قرر من دون تردد وبعد تقهقر عصيب بمسافة ١٧٠ كيلومتراً خسر فيه ألفاً من قوته الصغيرة، قرر ان يقف وقفته في الكوت[٣٩]. وبعد حصار فيها تخللته هجمات معاكسة ومحاولات فك حصار دامت (١٤٦) يوماً وافقت وزارة الحرب على استسلام القوات. وخوّلت المكتب العربي في القاهرة اختيار مندوبين يبحثان مع القيادة التركية شروط الاستسلام. فأرسل النقيب عضو مجلس العموم (اوبري هربرت) وهو شخص معروف عند الترك، وصحبه النقيب (لورنس). الذي لم يشرّف بعد بلقب لورنس

(٣٩) كانت الكوت وقتذاك قرية صغيرة ابنيتها من طين. تقع كما تقع اليوم على منعطفٍ حادٍ وتكتنفها مجراه من جوانب ثلاثة احتمى بها تاونزد وخندق واستحكم في الجانب الرابع. فغدا امنعَ من عقاب الجو، في قلعة حصينة حبس نفسه فيها او صعب عليه الخروج منها قدر ما صعب على الترك اقتحامها. عمد (فون در گولتسه) الى ترك قوات كافية لحصارها وللحيولة دون وصول نجدات بريطانيا. ولجأ (تاونزد) الى خطة انقاذ ضيّع فرصة نجاحه فيها. فمع انه كان يملك ارزاقاً وعتاداً تكفيه حتى نيسان ١٩١٦، فقد ابرق للقيادة بقصد استعجالها يقول انها لاتكفيه لأكثر من كانون الثاني ولم يكن بوسع القيادة تحشيد تلك الاستغاثة الملحة غير المتزنة، ما ألجأها الى تجريد حملة انقاذ ضعيفة، فشلت هجماتها المتكررة ولولا ذلك لأمكن اختراق تحكيمات الترك وانقاذ قوة (تاونزند). وبعد فشل المفاوضات اضطر المحاصرون الى الاستسلام واتلفوا مدافعهم واسلحتهم وعومل تاونزد معاملة طيبة في الاستانة إلاّ ان جنوده سيقوا مشياً على الأقدام مائة وثمانين كيلومتراً حتى بغداد فضلاً عن ٨٠٠ كيلومتر أخرى حتى الاناضول وسخروا للعمل جوقات في مدّ سكك الحديد. ولم ينج منهم غير القليل. خسرت قوة تاونزند عشرة آلاف بين الشروع في التقدم نحو بغداد وبين الاستسلام كما خسرت القوات البريطانية ٢٣ ألفاً في محاولة انقاذهم.

العرب وهو لقب لايستحقّ اي جزء منه كما سيأتي بيانه:

كان (تاونزند) وقد افقدته حمى الملاريا توازنه – قد عرض على الاتراك مبلغ مليون پاون سترليني مقابل رفع الحصار عنه. الا انّ (لورنس) ورفيقه بتخويل من المكتب العربي ضاعفا المبلغ «وبغاية من الخجل» حسب تعبير لورنس – فرفض (انور پاشا) الذي بدا مستمتعاً بإذلال البريطانيين في رفض هذا العرض واصرّ على الاستسلام دون قيد او شرط.

من آثار هذه النكبة العسكرية، ان زاد الميل عند القاهرة ولندن الى الاعتماد على الشريف، والجديّة في دفعه الى تحرك عسكري ضدّ الترك. في جبهة ميسوپوتاميا، لم يتخلل وقائع الحرب مجهود بريطاني يذكر في كسب الولاء المحلي عن طريق استنهاض وعي قومي او وطني. ولا محاولة اتصال بشخصيات قوميّة معادية للترك لغرض التعاون. فقد كاد كلّ رجال الاحزاب السريّة يكونون في الخارج موزعين على جبهات قفقاسيا وغاليبولي (چناق قلعة) والسويس. وقد الغي البدل العسكري وسيق كلّ قادر على حمل السلاح الى الخدمة. واخليت المدارس الاعداديّة في المدن وجند تلاميذها. ومن بلغ من الذكور أراذل العمر سيق أيضاً للخدمة في (جيش الشغل).

استنهضت همم بعض العشائر في اول مراحل الحملة فشاركت في وقائع الحرب الاولى[٤٠] وبدوافع دينية غامضة استطاع العلماء والمجتهدون في النجف وكربلاء تحريكها في النفوس القبلية لفترة قصيرة وقد اضطروا أمام «غزو إسلامي كافر» ان يطووا عداءهم التاريخي الطويل للسلطات العثمانية السيئة السياسة والنوايا. الا ان الدرس الذي تلقته العشائر كان كافياً للعزوف عن الاصغاء الى نداءات "نجدة الاسلام" الصادرة من الأماكن المقدسة في

(٤٠) كانت تحت تصرف القائد التركي (سليمان عسكري) حوالي (٦٠٠٠٠) من الجنود النظامية، كما اجتمع لديه من رجال العشائر زهاء (١٠٠٠٠) تشتتت وتفرقت ايدي سبأ عند اول اشتباك في وقعة الشعيبة: (١٣–١٤) نيسان ١٩١٥. وهذه اول وآخر مشاركة عشائرية محلية جدية في هذه الحرب. فقد وجد رؤساء الجنوب القبليين بكلّ عدائهم التاريخي للترك. وبقدر ما نالهم من ظلم وتنكيل منهم، الخير كلّ الخير في الجلوس على التلّ وعلى اهبة منح الولاء لمن ترجح كفته بالأخير. من جانب آخر وفي محاولة اثارة الشعور الديني خلف خطوط البريطانيين، نجدهم بقصر نظر عجيب وغباء منقطع النظير يحاولون في تلك المرحلة إقناع ابن سعود واسترضاءه بالتحرك ضد القوات البريطانية من الخلف رغم مساندتهم العسكرية الطويلة لخصمه ابن رشيد. فبعثوا اليه بوفد من بغداد مؤلف من اصدقاء واشياع للوهابية (محمد شكري الآلوسي وعلي علاءالدين الآلوسي، والحاج نعمان الأعظمي) ففشلوا وعادوا قانعين منه بوعد... بحياده!... فضلاً عن هذا فقد كان جلّ الشباب المتعلم والموظفين المحليين غير المحبذين وهم من الاسر المعروفة الوجيهة في بغداد، اعضاء نشطين في جمعية الاتحاد والترقي، مدافعين متحمسين للعثمانية. منهم رشيد عالي الگيلاني. وآل فائق (حكمت سليمان) واخوته وآل الجميل والدفتري وغيرهم وغيرهم.

النجف وكربلاء وبغداد. تلك النداءات التي بدأت تضعف تدريجياً بالانتصارات التي بدأ الغزو البريطاني يحققها في اواخر العام ١٩١٦ وما تلاها.

***

في كتاب نشره (احمد جمال پاشا) والي دمشق وقائد الفيلق الرابع، برر بأدلّة وبينات عرضها امضاء حكم الموت عمّن سمّاهم بالخونة والمتآمرين وجاء فيه شرح واف لنشاط الجمعيات السرية. ونفى عنهم صفة الوطنيّة والقومية[٤١]. وسواء في الأمر أهو بسبب تلك الضربة التي اوقعها (جمال) او بدونها، فإن ولاء المواطنين الناطقين بالعربية لم يعتره ضعف لا للحكومة العثمانية ولا للإسلام. وهذا ما توصلت اليه بريطانيا أيضاً كما تنطق به وثيقة بريطانية هامة. صدرت بشكل مذكرة عن الاستخبارات في القاهرة، مبنية على مقابلات واستجوابات للضباط الأسرى العرب في المعسكرات:

"... ومن هنا يتبين ان معظم هؤلاء الضباط يؤيد حكومة الجون ترك (الاتحاديين) فعلاً. بل حتى تلك الاقليّة التي لاتؤيدهم تجد نفسها غير قادرة على اقناع ضمائرها في القيام بانقلاب عسكري ضدّ تركيا"[٤٢].

وضيّع الحلفاء فرصة كبيرة واضحة تهدف الى تقويض صرح الامبراطورية، الا أنهم تعمدوا إهمالها ولا تفصح الوثائق البريطانية عن سبب لعدم الافادة منها وهو اعجب العجاب. تلك الفرصة عرضها (جمال) بنفسه. وهو الوحيد بين ثلاثي الحكم الذي نأى بنفسه عن المشاركة في مذابح الأرمن. وهدفه ان يبقي طريقاً مفتوحاً بينه وبين الحلفاء[٤٣].

عندما بدء الترك يفتكون بالأرمن ويجلونهم عن أوطانهم، اتصل (جمال) بالحلفاء وطلب معونتهم على انتزاع العرش العثماني لنفسه. تقدم بهذا العرض بتوسط حزب (الطاشناسيون) الأرمني القومي. متوهماً بان مجهوداته في انقاذ الأرمن والمسيحيين هو هدف عام رئيس عند الحلفاء غير مدرك بانهم انما يستغلون كارثة القوم لغرض الدعاية فحسب.

(٤١) صدر في استنبول باللغة الفرنسية وبعنوان: الحقيقة في المسألة السورية La Verite sur La Question Syrienes من منشورات الفيلق الرابع.

(٤٢) اوراق سايكس: Middle East Papers. Oxford. D. R. 588. 25.

(٤٣) كان (جمال) بعد فشله في حملة السويس قد استقر في دمشق والياً على سورية التي عوملت وكأنها اقطاع له لا ينازعه في حكمها احدٌ ولايعبأ بتنفيذ أمرٍ لايعجبه صادر من العاصمة.

ففي كانون الثاني ١٩١٥ ابلغ الدكتور (ظفريان) المبعوث الطاشناسي الحكومة الروسية أنّ (جمال) مستعد لاسقاط الحكومة التركية. وكان ذلك بعد مرور شهر واحد على بدء الحلفاء بالانسحاب من (غاليبولي). وكان من المتوقع بعد هذا الخذلان ان يستجيب الحلفاء لهذا العرض وان يدفعوا مثل هذا الثمن مقابل انهاء حالة الحرب مع تركيا والتفرغ لميدان آخر[٤٤].

وارتأى الروس قبول مقترحاته. إلاّ ان فرنسا رفضت العرض رسمياً في آذار ١٩١٦ واصرت على ان يكون لها سورية الكبرى وكيليكيا. كذلك أبدى وزير الخارجية البريطاني عدم رغبة بلاده في مساندة ثورة تركيّة صرفة خلف خطوط القتال. لان ذلك يعني التخلي عن الأراضي التي فتحت واستولي عليها في تركيا الآسيوية وقد وعدت بها حلفاءها. الطمع وحده أعمى بصيرة حكومات الحلفاء، واضلهم عن الحالة التي ستؤول اليها غنائمهم الاقليمية المقبلة. ربح الحرب فقط، هو الذي اعماهم عن جائزة الخروج من الحرب بأقل خسارة في الأرواح والأموال.

لم يكتشف (طلعت وانور) اتصالات جمال السريّة. ومضى (جمال) يقاتل الحلفاء بدل أن يكون معهم. واتجهت الانظار الى ما سيفعل الشريف وما ستتمخض به ثورته الموعودة. فقد بقي هذا البيدق فوق رقعة الشطرنج ساكناً لم يتحرك... او يُحرّك بالأحرى.

(٤٤) شروط (جمال) كما فصلها سازانوف وزير الخارجية الروسية (مذكراته Vospminaniya 1910-1916) المترجم في ١٩٢٧ الى الانگليزية بعنوان: "السنوات المصيرية The Fateful Years 1910-1916" كالاتي: تركيا آسيوية مستقلة تتألف من سورية وولايتي بغداد والبصرة. أما أرمينيا المسيحية والآشورية وكيليكيا وكردستان، فكل منها تتمتع بحكم ذاتي وان يرأس جمال هذا التشكيل السياسي الفدرالي سلطاناً. ووافق جمال على الطلب الروسيّ المحتوم، أي التنازل عن استنبول ومضايق الدردنيل كما عرض ان يتخذ خطوات فورية لإنقاذ الأحياء من الأرمن والمسيحيين وان يزحف أثر ذلك على استنبول بمساندة الحلفاء ويخلع السلطان ويسقط حكومة الإتحاد ويعلن اتحاداً فدرالياً. وطلب معونة مالية بعد اتمام ذلك لإعمار ما خربته الحرب في تلك البلاد. قتل (جمال) ١٨٧٢–١٩٢٢ غيلة في تفليس.

الفصل الثامن

تتمة : الثورة العربية . إعلان الثورة . جمال باشا (السفام) والقضاء على أقطاب من الحركات السرية السورية . التحرك العسكري التركي . إعلان ثورة الشريف . حماية الاسطول البريطاني للشريف حسين ، القصف من البحر . الأموال التركية والبريطانية المدفوعة للشريف . خيبة الأمل من استجابة عامة للثورة . قلة حجم قوات الشريف . تدخل القوة الجوية البريطانية لإنقاذه . النشرة العربية . الشريف يفتقد الى إسناد أي منظمة عربية . لويد جورج والشرق الأدنى . كليمانصو رئيساً للحكومة الفرنسية . سير العمليات في سيناء ونشاط لورنس . إحتلال القدس وبيان أللنبي . تصريح بلفور . إعتراف الزعماء القوميين السوريين بالمجهود الحربي الصهيوني! . اجتماع فيصل بوايزمان . اليهود في أوروبا . التعقيدات بعد تصريح بلفور . جيش فيصل . وساوس الانكليز من نوايا الشريف . لورنس وفيصل جهود في سبيل نصب فيصل ملكاً على سورية . إساءة تقدير سايكس وكتشنر لقوة الحركة الوهابية . بعض نجام عسكري تحرزه القوات العربية قبيل نهاية الحرب . فرض فيصل ملكاً . موقف الزعماء السوريين من فيصل . قرارات أللنبي بخصوص سورية . خدعة لورنس . تنظيم دخول القوات العربية دمشق قبل دخول جيوش الحلفاء

لمّا اعلن الشريف ثورته المرتقبة في الحادي عشر من حزيران ١٩١٦ الموافق للتاسع من شعبان ١٣٣٤هـ، وجد فيها رجال المكتب العربي نجاحاً لسياستهم ومساعيهم وقالوا: انها نصر لكلايتن عظيم. في حين ان الشريف ما أعلنها إلاّ بعد يقينه بأن ايامّه في حكم مكّة باتت معدودات وان أمر العزل قد يرده في ايّ لحظة.

وعند الشريف نفسه، كان إعلانه الثورة مساوياً لاعترافه بإخفاق سياسته وخطه الذي انتواه من المبدأ وقرر السير فيه الى الأخير وهو ان يبقى محايداً، يجمع الرشاوى من الجهتين ويلعب على حبليهما. لم يكن في الثورة التي أعلنها أي محتوى قوميّ أو باعث مشابه، إلاّ انها انتهت لتكون عامل يقظةٍ قوميّة وهو ما سنوضحه فيما بعد. المسألة كلها كانت تدور في

محور السياسة والطموح الشخصي فحسب. وقد ارغم الشريف على هذا التحول بكثير من التردد ، وبسبب اعتزام الاتحاد عزله. وبدأ خوفه يتعاظم عندما باشر (جمال باشا) في عملية القضاء على زعماء الجمعيات السريّة.

كان القائد التركي قد حصل على وثائق الإدانة من القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت، وفيها اسماء الزعماء وتفاصيل عن صلاتهم وما يخططون. فضلاً عن فضحها وكيلاً بريطانياً هامّاً[1]. فتم اعتقالهم واستجوابهم وعُذّبوا. وفي ٢١ من آب ١٩١٥ حكم المجلس العرفي العسكري على احد عشر منهم بالموت شنقاً ونفذ فيهم. وكانت ثمّ اعتقالات ومحاكمات أخرى في أشهر تالية لعدد من كبار القوم ومبرزيهم نفذ حكم الموت في ستّ

(١) لاتذكر الوثائق البريطانية اسمه ولكنها تؤيد أنه كان بين من أعدم الحياة. [راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب] ونضيف هنا من مذكرات جمال باشا، المرجع السالف، ص ٢١٤:

«بعد وصولي الى دمشق مباشرة شرعت في إعداد معدات الحملة على القناة وحولت جهدي لإيجاد جو مملوء بالحماسة الدينية والغيرة الوطنية في جميع البلاد العربية فأقمت حفلة أدبية بواسطة زعماء الثورة العربية مثل عبدالقادر الخليل والدكتور عبدالرحمن الشهبندر وغيرهما ممن كان يسمى بالمصلحين وفي خلال الحفلة التي أفصح فيها الخطباء بعدة خطب وإنشاد القصائد الحافلة بمآثر العرب وأشاروا بالتمجيد الى حبهم للعلم وشغفهم بالمعارف هي صفات تتجلى في العنصر العربي ورتلت الأغاني التي رددت الآمال في تحقق الوحدة العربية وكادت الأنشودة العربية الوطنية:

نحن جند الله شبان البلاد نكره الظلم ونأبى الاضطهاد

فارفعوا الأعلام وامشوا للجهاد .....

تزلزل فوق رؤوسنا وتهز سقف المكان الذي كنا فيه». ثم يقول في ص٢١٧: «ولايسعني اذا ماقارنت بين بين ما وصلت اليه الحال اليوم وبين المظاهرات الدينية التي جرت وقتئذ في دمشق وحلب وحماه وحمص وبيروت بل في لبنان ايضاً إلا أن أستنزل اللعنات السماوية على الشريف حسين وأولاده لأنهم هم وحدهم المسؤولون عما أصاب الاسلام من الكوارث والمحن».

وحول الإعدامات يقول في ص ٢٤١ وما بعدها: «وفي اليوم الثالث نفذت أحكام الإعدام في بيروت ودمشق. ويقول البعض لقد كان ينبغي ألاّ ينفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان، ورداً على هؤلاء أقول أولاً اني خولت السلطة القانونية ان أفعل ما فعلت، وثانياً ان المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدي الخونة. وفي بلاد العرب يرى الإنسان لأرباب الحيثيات نفوذاً كبيراً حتى ان وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق. فإن أراد قائد مثلي ليس له إلا القليل من الموارد أن يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سممتها الدعوة الانكليزية والفرنسية عدة سنين كان من أهم الأمور أن يجرى بحيث يؤمن الأهالي المدنيون بمقدرته على الأخذ بناصية أي شخص كائناً من كان ومعاقبته أشد معاقبة بدون استئذان المراجع العالية في الاستانة. إن الفضل في عدم حدوث ثورة ما في سورية خلال العامين ونصف العام اللذين أعقبا إعلان الشريف حسين استقلال بلاده إنما يرجع الى أحكام الإعدام التي وقعت في نيسان ١٩١٦. وبقطع النظر عن ذلك فإن أنور باشا وهو وزير الحربية وطلعت باشا وهو وزير الداخلية قد وافقا على تنفيذ أحكام الإعدام بدون استئذان المراجع العليا».

وعشرين ضحية أخرى من بينها عسكريون ذوو رتب كبيرة.

من بين من استُجوب بالتعذيب كان هناك من يستطيع ان يفضح تفاصيل محادثات (فيصل) مع أعضاء جمعيتي العهد والفتاة. ووعود الشريف لكلّ من (كتشنر) و(مكماهون). ولم يكن الشريف متأكداً بأن هؤلاء الذين توقلوا درج المشنقة أو نالوا الأقل من العقاب قد بقوا ساكتين وحفظوا سرّه. وحاول أن يكشف ذلك بالتدخل بالكتابة الى كلّ من (جمال) و(الباب العالي) طالباً الرحمة والتخفيف. إن فعل هذا التدخل شيئاً فقد زاد من الشكّ فيه. ولم يجبه جمال عن رسالته، بل أقدم على ما اكدّ له بان قوّة منتخبة ومدربة تدريباً عالياً تتألف من ٣٥٠٠ جندي على وشك "التحرك من دمشق نحو الحجاز، ثم السير والوصول الى نهاية الزاوية الجنوبيّة من الجزيرة بغية قيام ضباط ألمان مرافقين بنصب مركز تلغراف هناك". كان في هذه اكثر من الكفاية للقضاء عليه، والأمر سواء أهو المقصود بها اصلاً أم أن تصفية الحساب معه ستتم في أثناء مرورها بالحجاز. كان عليه أن يعمل بسرعة.

طلب اولاً الحماية من الأسطول البريطاني على طول الساحل وكان قد تسلم قبل ذلك ٥٠٠٠٠ ليرة ذهبيّة عثمانية عداً ونقداً من الباب العالي وهو المبلغ الذي طلبه لتجهيز القوة المطلوبة منه لـ«قتال البريطانيين» كما حصل على ما يعادل ١٠٠٠٠٠ پاون ذهبي سترليني من البريطانيين كأوّل دفعةٍ لتجهيز قوات تقاتل الاتراك[٢]. في الواقع ان الثورة اعلنت في وقت ما بين الخامس والعاشر من حزيران، إلاّ ان الشريف والآخرين اثبتوا لها التاريخ الذي ذكرناه وقرنوها بحكاية دخلت التاريخ. وهي ان الشريف صعد سطح بيته وبيده بندقية من نوع (هنري مارتيني) وهي واحدة من البندقيات الجديدة التي ارسلتها الحكومة التركية اليه وأطلق منها إطلاقة واحدة إيذاناً بالثورة.

واسرع الاسطول البريطاني بالحركة على طول ساحل الحجاز لصدّ القوات التركية الألمانية. ومنعها من التقدم خطوةً واحدة. وكان في اعتقاد المكتب العربي ان إعلان الثورة سيلقى استجابة ودعماً حماسيّاً من العالم الإسلامي الناطق بالعربيّة، والأهم من هذا اعتقاده بأنّ مساندة الثورة الحقيقية الفعّالة ستأتي من الاغلبية العربيّة التي تألفت منها الجيوش العثمانية. اذ كان الشريف وابنه فيصل قد أكّدا في رسائلهما بانهما يتوقعان ان يلتحق بالثورة حوالي مائة الف من الضباط والجنود العرب، وهو يناهز ثلث ملاك القوة القتاليّة العثمانية. وقد عكس المكتب العربي ذلك على حكومته[٣]. في حين اكدت نصوص أخرى

(٢) أرنست داون: المرجع السالف ص٣٣.

(٣) نصوص الرسائل الاصلية في Fo. 882, vol 19, kew. AB/ 16/ 5.

أنهما توقعا ان يلتحق بالثورة ربع مليون او كلّ الجيش العثماني الذي هو في ساحة القتال[٤]. لكن ما حصل فعلاً ان الثورة المتوقعة لم تحصل قط وانه لم تنضّم اليه أية وحدة من وحدات الجيش العثماني مهما قلّ عددها. ولم تلتحق به أية شخصية سياسية أو عسكرية بارزة، لا به ولا بالحلفاء. وتلك الجمعيّة السرية الضخمة ذات الشبكات والأذرع الطويلة الممتدة في احشاء البلاد، التي أشاد بها الفاروقي[٥] ووعد بها لم يبن لها أثر. وإن وجدت حقاً، فإنها لم تجرُء على إظهار نفسها والتعريف بوجودها.

كان قوام قوة الشريف لايتجاوز الآلاف الأربعة، بل ربما زادت قليلاً ثم نقصت بحسب المزاج الخاصّ، وبحجم الهبات والعطايا للبدو وبحسب سيولتها او انقطاعها من المكتب العربي والأموال البريطانية. ولم يكن عنده جيش مدرب كما لم يحظ بدعم من خارج الحجاز لا من جيرانه ولا من اي جزءٍ من أجزاء العالم الناطق بالعربيّة.

كان الشريف بحاجة الى ضباط ومدربين وقد استطاع البريطانيون تأمين خمسة او ستة من أسرى الحرب ومن أولئك الذين طردوا وأبعدوا وبعضهم اشترى حريته بالانضمام الى الثورة[٦]. مشكلة أخرى بدت في مقدمة المشاكل. فقوات الشريف البدوية وقفت مشلولة أمام المدفعية التركية. ومنيت بالفشل هجماتهم على حاميتي مكة والطائف وهزموا كذلك في المدينة وفي جدة.

ماكاد المكتب العربي يدرك بان اعلان الثورة سيؤدي الى الإطاحة بالشريف وبها، حتى هبّ لانقاذهما. انطلقت القوة الجوية الملكية RAF، والقطع البحرية البريطانية تضرب (جدّة) ضرباً عنيفاً. ثم انزلت جنوداً مسلمين تابعين للجيش المصري، وتقدمت الحملة الى الداخل لمعاونة الشريف في تحكيم قبضته على (مكة) والاستيلاء على الطائف وعلى ميناء (رابح) الذي كانت حاميته التركية لاتزيد عن ثلاثين جندياً تمّ اسرهم دون مقاومة. كذلك كان الأمر في (ينبع). وبهذا الشكل أنجز الاسطول البريطاني سيطرته التامّة على ساحل البحر الأحمر الشرقي وثبّت أقدامه في موانئه.

(٤) أوراق سايكس: .D 8244.4) OR. 588).

(٥) يراجع الهامش في الفصل السابع.

(٦) مثل نوري السعيد. ومن المرجع السالف: "أن ضباطاً كثيرين من أبناء العرب الذين كانوا أسرى حرب في الهند انضموا الى الشريف". وفي (ص١٠٥) "زارني فوزي بگ البكري (وزير داخلية الشريف) مع الدكتور عبدالرحمن الشهبندر ورفيق العظم وطفق يبين لي الصعوبات الجمة التي يلقونها لعدم وجود ضباط وجنود مدربين لمواصلة الحرب على الأساليب العسكرية الحديثة وأنه لا يمكن التغلّب على المواقع العسكرية التي يحتلها الجيش العثماني بلا وسائل حربية حديثة".

إلاّ ان الشريف ظلّ يعارض في إنزال وحدات مسيحيّة والحركة بها الى الداخل. وتدلّ الوثائق البريطانية على ان الانفصاليين في القاهرة كانوا يتأففون من هذا السلوك ويعدونه تنطعاً لا معنى له وضيق أفق في الرؤيا يفسد عليهم وعلى الشريف تحقيق نصر سريع واختزال في الوقت. وحجة الشريف هي أن هذا يلحق ضرراً بمركزه في العالم الاسلامي وقد ينقم المسلمون عليه لسماحه لغير المسلمين بوطء الارض التي تضمّ الأماكن المقدسّة. والمشكلة على اية حال هي ان الشريف لم يكن قطّ نداً للأتراك. ولهذا كتب (وينگيت) وكان في حينه حاكم السودان العام يلحّ على (كلايتن) بعمل كلّ ما يستطيع لحمل (لندن) على إنزال قوات في الحجاز أرض الشريف أرَضيَ أم لم يرض وأنه شخصياً يوافق من دون اي تحفظ على إنزال قوة عسكرية في الحجاز[٧].

كان (كلايتن) بدل ذلك يحاول باستماتة الإستعانة بالضباط الأسرى والمبعدين في القاهرة للطواف في معسكرات الأسرى والاجتماع بالضباط والجنود لحثهم على الالتحاق بقوات الشريف حسين. وفي مذكرات جعفر العسكري ما يفيد ان طوافه هو و(عزيز علي المصري) لم يصب كثيراً من النجاح[٨]. لم توافق (لندن) على الحملة ولكنّها صعّدت بدل ذلك من كمية المال والأعتدة والمهمات الحربيّة المرسلة وعلى إمداد الشريف بالخبرة العسكرية ما امكن من الضباط والجنود المتطوعة. وأوصى البريطانيون وبإلحاح كبير بتعيين الرائد (عزيز علي) رئيساً لأركان القوات التي كان يقودها (علي) الإبن الأكبر للشريف، فتسلم منصبه في أواخر العام ١٩١٦ ولم يمكث فيه أكثر من شهر واحدٍ. اذ نحي بدسيسةٍ فخلفه جعفر العسكري الكفوء وهو عقيد ركن سابق كرديّ عراقي مستترك ثم مستعرب، ونحي أيضاً هو الآخر بدسيسة.

يذكر مجيد خدوري[٩] ويؤيده البرت حوراني[١٠] ان (عزيز علي المصري) بدأ يتآمر لانتزاع القيادة من الشريف وليقوم بعدها بمفاوضات مع الأتراك بهدف الانحياز اليهم وفق شروط تقضي بجلاء القوات العثمانية عن الحجاز وموافقة الباب العالي على المطالب العربيّة بالحكم

(٧) أركيف السودان (جامعة دورهام) أوراق گلبرت كلايتن 47/40, G. D. Cloyton: «بريطانيا والمسألة الشرقية: من ميسولونجي الى غاليبولي:Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Galiboli ط. لندن ١٩٧١.

(٨) جورج انطونيوس: المرجع السالف ص١٦٧.

(٩) من مقالة لمجيد خدوري Middle East Magazine, 1981: عنوانه «عزيز علي المصري والحركة القومية العربية» جامعة كاليفورنيا.

(١٠) البرت الحوراني Albert Hourani: «ظهور الشرق الأدنى The Emergence of the Middle East» ط. لوس انجلس ١٩٨١. ص١٤٤.

المحليّ.

وأساس القضيّة هو ان (عزيزاً وجعفراً) وأضرابهما كانوا يعتقدون بان ألمانيا ستربح الحرب لا محالة. لكن وبعد مرور أكثر من سنتين، وعندما بدا واضحاً ان النصر سيكون معقوداً للحلفاء، بدأت مواقف بعضهم تتغير. في حين بقي موقف الآخرين ثابتاً كياسين الهاشمي رئيس جمعية العهد السريّة الذي استطاع بدهاء وسعة حيلة ان ينجو بنفسه من أحبولة جمال الدموية: ثم أن البريطانيين من جانبهم بقوا الى الأخير غير مدركين أهداف الجمعيات السرية العربيّة بالعمق الكافي وهي أهداف تخالف غايتهم ومخططاتهم للشرق الاوسط كلّ المخالفة. في مبدأ الحرب إلتزمت الجمعيات العربيّة الجانب التركي، ووقفت ضدّ الفتح الاوروپي[١١] وظلت طوال الحرب تقريباً مخلصةً على هذا. فقد كانت تفضل الحكم الذاتي. او الاستقلال ان أمكن. فإن لم تفز بطائل من هذين، فالحكم التركي هو أفضل من الحكم الاوروپي.

والشريف نفسه، واصل بعد إعلانه الثورة اتصاله بالإتحاديين بهدف العودة الى حمى الامبراطوريّة وانحيازه اليها في الحرب. وقد ظهر ما يؤيد ذلك في عدد ٢٥ من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٦ للنشرة العربية التي بدء يصدرها المكتب العربي في القاهرة وكان اتهاماً صريحاً للشريف من (عبدالعزيز آل سعود)[١٢]:

"ان نيّة حسين الأساسية هي اللعب بالورقة البريطانية ضدّ الترك من اجل نيله منهم استقلالاً بضمانة المانيا...

واساس مفاوضة الشريف كالسابق: سلطة أكبر بوصفه أميراً من أمراء الامبراطورية الكبار، وحكم وراثي اشبه بحكم الخديوي في مصر، وعدم وجود والٍ عثماني في الحجاز، وان تكون القوات العسكرية خاضعة له يستخدمها لسيادته على الجزيرة".

وراحت مراسلات الشريف السريّة تنكشف تباعاً للبريطانيين، إلاّ أنهم أخذوا بسرعة يفقدون احترامهم له لأسباب غير هذه. ففي الظاهر أنهم ماكانوا يرون فيها نكثاً بالعهد ومخاتلة.

(١١) أرنست داون: المرجع السالف، ص٤٧.

(١٢) كان يطبع من هذه النشرة ٢٦ نسخة فقط. وهي شبه سرّية. وبالمناسبة أثبت هنا جزءً من مقال كتبه لورنس (قبل أن تستطير شهرته) في أول عدد منها (٦ حزيران ١٩١٦) حول ثورة الحجاز المعلنة مشيراً فيه الى مشكلة توحيد العرب حتى من أجل القيام بثورة فيقول: "ما أن يعقد اجتماع قبائلي حتى تظهر المشاكل، والترك يعرفون نقطة الضعف هذه فيهم. لذلك تجدهم لايأتون بحركة، يسكتون ويتربصون. ويتأخرون في أتخاذ أي إجراء على أملٍ مؤكد بأن التنابز والتنازع القلبيين لن يلبثا أن يشتتهم".

فهي حيل دبلوماسية قهروهم فيها ولم تكن في أي وقت من الأوقات وقفاً عليهم أو احتكاراً لهم. كلاّ فالسبب ليس هذا. والسبب الحقيقي انهم وجدوا الشريف حسين أبعد من أن يصلح قائداً للقومية العربيّة الوليد الجديد، وإنما مجرد حاكم قليل الإكتراث بالعروبة يركز كلّ اهتمامه في الفوز بسلطات إضافية ورقعة من الأرض أوسع وأرحب.

وقد علّق هوگارت رئيس المكتب العربيّ على هذا بقوله: "من الواضح ان الشريف لايرى في الوحدة العربيّة إلاّ مُرادفاً لملوكيته". فقد اصرّ الشريف على اعلان نفسه ملكاً للعرب رغم تحذير (ستورز) وإنذاره بألاّ يقدم على هذه الخطوة وكتب فيما بعد:

"انه [يقصد الشريف] يدري أكثر منّا بأنه قاصرٌ عن إضفاء هذا اللقب الضخم على نفسه، أن يكون ملكاً لكل العرب؟ إن ادعاءه هذا هو اشبه بمأساة هزلية"(١٣).

ويشير العدد السادس من النشرة العربية (٢٣ من حزيران) الى أنّ الثورة التي اعلنها الشريف لم تحقق إلاّ اليسير. وهذا اليسير من النجاح يعود الفضل فيه الى البريطانيين. فالقوات التركية المرابطة على الساحل وقعت بين قطع الاسطول البريطاني وطائراته وبين العرب المتربصين، فاحتمت خلف المتاريس والجدران، ولم تستسلم بحربٍ بل بسبب نفاد الماء والطعام ليس غير. ولأن الآبار التي يمتارون منها ماءهم كانت خارج استحكاماتهم. كما أكد الأسرى الذين استسلموا للقوات البريطانية ان القذائف البريطانية من الجو والبحر عجلت في الاستيلاء على (جدّة).

رجال الشريف لا فائدة منهم كجنود، فهم مجموعات عشائرية غير مدربة على الحرب الحديثة لا تملك مدفعيةً ولا رشاشات، تفضل معارك العرض الروائي الزاهي المظهر على الاستتار والتخفي والمناورة. ويصعب جمعهم كوحدة تتلقى الأوامر فتنفذها، لأي فترة من الزمن مهما قصرت إلاّ بإغرائها بالمال والأرزاق العسكرية، فهذان هما اللذان يجتذبانهم ويحدثان أثر السحر فيهم(١٤).

(١٣) مذكرات ستورز: ص١٦٧ نيويورك ١٩٣٧.

(١٤) علق لورنس على هذه الظاهرة في العدد ٣٢ من النشرة العربية (تشرين الثاني ١٩١٦): «في رأيي أن سرية واحدة من الجيش التركي مخندقة بشكل صحيح في أرض متطامنة – تستطيع دحر كل قوات الشريف. إن قيمة القبائل القتالية، هي الدفاع فحسب. ومجالها حرب أنصار لا غير. أنهم (أي البدو) فرديون الى أقصى الحدود فلايخضعون لقيادة. ولايقاتلون صفاً متراصاً واحداً ولايساعد أحدهم الآخر. ومن المحال أن يجعل من هؤلاء قوة نظامية».

وقعت دعوة الشريف الى الثورة في آذان صماء في كلّ من العالمين العربي والإسلامي. تماماً مثلما كان حظ دعوة خليفة المسلمين السلطان الى الجهاد ضدّ الكفّار. وكتب (هوگارت) بعد مرور عام واحد من اعلانها:

"انها لم تحقق الآمال التي عقدت عليها، ولا يبدو اي أمل في مستقبل يعقد عليها. فالعرب البدو هم مجرد أنصار فحسب simply guerillas وليس من النوع الجيّد أيضاً حتى إذا امكن إعداد جمع كبير منهم في عمليات الحصار الأولى فلم يكن هناك اي شك في أنهم سيحجمون عن مهاجمة القوات النظامية التركية ولن يصمدوا لها. وافضل ما كان يرجى منها في المستقبل هو الثبات في مواقعها فحسب"(١٥)

وليس هذا بالمردود الجيد للبريطانيين لقاء الاتعاب والمصاريف والهبات. فبحسب ما أثبته (ستورز)(١٦) ان الحكومة البريطانية أنفقت على الثورة العربية ١١ مليون پاون سترليني وبحساب ذلك الزمن كان المبلغ يعادل ٤٤ مليون دولار. بقوة شرائية تعادل اليوم ما قيمته ٦٠٠ مليون دولار على اقل تقدير. وأما الاتعاب أو بالأحرى التبعات السياسية والعسكرية التي تحملتها من اجلها، فهي الأخرى جسيمة. وفي ٢١ من أيلول (سپتمبر) ١٩١٨ كتب (وينگيت) الذي خلف (مكماهون):

"ان المسلمين بصورة عامة ظلّوا حتى يومنا هذا ينظرون الى ثورة الحجاز ومساهمتنا فيها بنفرة وشك. لكن كان مهمّاً لنا أن لانجعل الشريف حسين يبدو فاشلاً كي تحافظ بريطانيا على ماء وجهها"(١٧).

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على اعلان الثورة، أبلغت وزارةُ الحرب مجلس الوزراء بمذكرةٍ رسميّة، بأنّ البلاد الناطقة بالعربية لم تلبّ نداء الشريف. وفي مذكرة سرية أخرى هيّأتها هيئة الأركان الإمبراطورية لمجلس الحرب الأعلى. في ١ من تموز ١٩١٦ جاء:

"إن الشريف حسين كان يزعم لنفسه دوماً في مراسلاته مع المعتمد السامي صفة الناطق باسم العالم العربيّ لكن وبقدر ما تبين لنا، إنه لا يتمتع بإسنادٍ من أية منظمة عربيّة".

(١٥) النشرة العربية Arab Bulletin: العدد ٥٢ (٣١ ايار ١٩١٧).

(١٦) المرجع السالف: ص١١٧.

(١٧) أيلي خضوري: المرجع السالف .

وتوصي مذكرةُ الحكومة في الختام بأن لاتفترض موافقة الزعماء العرب الآخرين على اي اتفاق يتمّ معه[١٨].

وفي أيلول أشارت تقارير الإستخبارات من القاهرة الى ان الثورة العربية في الحجاز هي في طريقها الى الانهيار وبأسرع مما كان متوقعاً وعلى أثر ذلك رأى (سايكس) ان يعزز قوات الشريف بنجدات عسكرية، فلم يؤخذ برأيه ورفضت هيئة الأركان نقل أي مقدار من قوات الجبهة الغربية أو بذل أي مجهود في هذا الشأن. بالأخير اهتدى البريطانيون الى علاج، إذ فكروا في إرسال مئات قليلة من أسرى الحرب المعتقلين في الهند نتائج عمليات حملة ميسوپوتاميا (العراق). وبقيت قيادة الجيش مصرّة على موقفها من نجدة الشريف.

واتصل (مكماهون) بعد موافقة حكومته، بالحكومة الفرنسية يسألها إرسال نجدة للشريف. وتلكأت السلطات الفرنسية في باديء الأمر ولم تستجب فوراً، لأن ذلك يقتضي سحب قواتٍ من الجبهة الغربية ثم مالبثت أن ادركت بأن هذا الطلب يستقيم مع خططها المقبلة في التواجد العسكري هناك. وفي أواخر صيف العام ١٩١٦ بعثت بقوّة باسم (البعثة العسكرية الفرنسية) بقيادة الكولونيل (ادورد بريمون) قوامها ٤٢ ضابطاً و٩٨٣ جندياً نقلوا بحراً، واستقبلهم العقيد (ولسن) الضابط البريطاني الأقدم في الحجاز. ووصفت الوثائق الفرنسيّة مهمة القوة بأن "الغرض منها تعزيز قوات الشريف بكادر من المحترفين والمشاورين العسكريين من مسلمي المستعمرات الفرنسية".

لم يدر في خلد البريطانيين ان فرنسا التي رفضت بإصرار في السابق ايّ تواجد عسكري لها في الثورة. وكان سماحها لمكماهون بالاتصال بفرنسا مجرد مناورة يقصد منها تأكيد الرفض الفرنسي السابق. فكان إرسال قوة بمثل هذا الحجم مفاجأة غير سارّة، الأمر الذي حملهم على إرسال دفعة أخرى من القوات البريطانية. وفكر الكولونيل (بريمون) من جهته بزيادة عدد "بعثته" وكتب لرؤسائه إلاّ انه لم يجد تشجيعاً.

في ذلك الوقت بدء (عبدالله) يصارح البريطانيين بخوفه من قيام الحامية التركية في المدينة بشنّ هجوم على مكة يتضمن الاستيلاء على كل المواقع بين المدينتين، مما حمل (ستورز) على السفر الى الحجاز لمدارسة الوضع عن كثب، وكان يرافقه (عزيز علي المصري) وشابٌ يبلغ من العمر ٢٨ عاماً هو (توماس ادوارد لورنس) بعينه ذلك الشاب الذي اصطلحت ظروف غريبة وواحدة من غفلات التاريخ لتضع اسمه في قائمة المشاهير الخالدين.

(١٨) أوراق سايكس: المرجع السالف.

وليعرف في الموسوعات والكتب بلقب «لورنس العرب» أو «لورنس الجزيرة» وهي مكانة في التاريخ لايستحقها ولم يكن لها أهلاً، وكثيراً ما تخلفت في التاريخ فراغات ملأها أمثال لورنس عبر الأجيال. ربما تأتّى مصدر المجد الذي ناله لورنس من اتفاقه في الرأي مع المكتب العربي والحضور البريطاني السياسيّ في كلّ من مصر والسودان، بخصوص إبعاد الفرنسيين قدر ما أمكن عن شؤون الشرق الاوسط، والحيلولة دون تدخلهم في الجزيرة، لاسيّما في عملية إنقاذ الثورة العربيّة المحتضرة. (راجع الذيل).

★★★

وطرأ على سياسة بريطانيا تحول مفاجيء عند تولي (لويد جورج) زعيم حزب الأحرار رئاسة حكومة ائتلاف بدلاً من (اسكويث) ووزير خارجيته (لورد گري) اللذين كانا يعارضان في مدّ رقعة النفوذ البريطاني الى الشرق والشرق الأوسط. فقد بقي (لويد جورج) يعتقد أن الشرق ذو أهمية عظيمة في ربح الحرب. وكان يمقت الترك مقتاً شديداً وهو الذي أثر تأثيراً بالغاً على نهجه السياسي في كثير من الأحيان.

وفي فرنسا فإن تعاقب حكومات عدة أثناء الحرب لم يحدث عند ايّها تحولاً مفاجئاً في سياسة البلاد العامة حتى أيار ١٩١٧ عندما تولى رئاسة الحكومة الجديد (جورج كليمانصو)[١٩] وهو من المتطرفين محام وصحافي لامع محارب طوال حياته. جاء الى الحكم وهو ابن ٧٦ عاماً.

وهو يكره الألمان كلويد جورج. الاّ انه كان بخلافه لايستسيغ التوسع الأقليمي وينفر من الإستعمار.

في نيسان ١٩١٧ عُين (سايكس) رئيساً لبعثة سياسيةٍ الى القيادة العامة في مصر، وفي آخر لقاءٍ له مع (لويد جورج) بمحضر من (لورد كرزن) اقترح عليهما «إحياء الثورة العربيّة الميتة» بدفع العرب الى القيام بعمليات أنصار وتخريب خلف خطوط العدو أثناء الهجوم العام المرتقب، فوافقا شريطة أن لايعطى الشريف او العرب بصورة عامة ايّ تعهدٍ بريطانيّ لايتفق والمصالح البريطانية، ونبّه بصورة خاصّة بألاّ يقدم على اي عمل من شأنه ان يزيد في العلاقات البريطانية – الفرنسية سوءً وأن لايخلق لها مشاكل جديدة. وأن يضع نصب عينيه:

(١٩) حكومات (ڤيڤياني، وريبو، وبريان) سمح لها البرلمان بالاستقالة إلاّ أنه أسقط حكومة (پول بوليڤيه) ونصب (كليمانصو) مكانه.

"أهمية عدم التعرض للحركة الصهيونية والتزام الحياد في معالجة أمرها والبحث في إمكان تطويرها تحت الرعاية البريطانية"

ويمضي محضر المقابلة المدوّن في سجل محاضر مقابلات مجلس الوزارة ليذكر أيضاً بأن رئيس الحكومة شدد على أهمية إضافة فلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط بعد الحرب. وحذر (سايكس) من إعطاء العرب أي وعدٍ يتعلق بفلسطين[٢٠].

مع ان رسائل (سايكس) الى وزير الخارجية (بلفور) من باريس كانت حافلة بالتفاؤل حول الموقف الفرنسي وتوقع تعديله. وفي مصر قام (سايكس) بأخذ صديقه (پيكو) الى الزعماء العرب المبعدين والمغتربين في زيارة تعريف، كما صحبه في زيارة للشريف وفيها أطلعاه على الإتفاق الثلاثي [سايكس پيكو سازانوف]. وخلافاً لتحذير المكتب العربي لسايكس بأن الوجود الفرنسي في الشرق الأوسط سيجلب معه الشرّ والكدر إلاّ انه لم يأبه بالتحذير وراح يحاول التقريب بين وجهات نظر پيكو وبين الشريف وأولاده. وفي النهاية كتب برقيته هذه في ١٢ من أيار ١٩١٧:

"توصل پيكو الى التفاهم مع الممثلين العرب"

وبعد اسابيع كتب لصديق:

"يغلب على ظنيّ أن فرنسا ستكون على استعداد للتعاون معنا في اتباع سياسة مشتركة أزاء الشعوب الناطقة بالعربية".

وفي أثناء ذلك انطلق الجنرال (سر آرچيبالد موري) في هجومه عبر سيناء، لكنّ رُدّ على اعقابه في فجر يوم ٢٦ آذار وهو على أبواب (غزة). إذ كان القائد الألماني اللامع (كرِسْ فون كرسِنشتاين) قد حصن القاطع تحصيناً محكماً فلم ينل منه الهجوم مأرباً. واعاد البريطانيون الهجوم في ٢٩ من نيسان فرُدوا على أعقابهم أيضاً بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة، عندها أصدرت وزارة الحرب أمرها بعزل القائد وعينت (الجنرال أللنبي) في محلّه فتسلم القيادة في حزيران ١٩١٧.

كان هذا ضابط خيّالة ابدى حنكة وبراعة في الجبهة الغربيّة، مالبثت أن ظهرت باستيلائه عنوةً على غزة وانحداره الى (بئر السبع). وتعززت انتصاراته التالية عندما بدأت قوات

(٢٠) أركيف رحبوت، إسرائيل وايزمان Rohobot, Israil Weisman Archieve: سلدمير روپر Sledmere Roper: ملحوظات عن المؤتمر المنعقد في داوننگ ستريت Notes of Conferance held at Dawning Street» بتاريخ ٣٠ من نيسان ١٩١٧.

فيصل المحمولة بحراً الى العقبة (حوالي ١٠٠٠ بدوي) من موانى الحجاز تشاغل القوات التركية على جناحه الأيمن بعد تعزيزها بحوالي (٢٥٠٠) جندي أسير وتقضّ مضاجعها بغارات موضعيّة تراوحت بين الفشل والنجاح[٢١].

في أثناء ذلك وباقتراب القوات البريطانية – شعر (جمال) بشكل مبهم بنشاطٍ معادٍ عربي– يهوديّ وراء خطّ القتال. فأقدم في عيد الفصح على إخلاء مدينة (حيفا) من سكّانها اخلاءً تاماً وبقي حائراً لايدري ماذا يفعل بهؤلاء الآلاف المؤلفة وإن كان يتحدث عن محاولة اسكانهم في سورية. هذه العملية أعادت الى الذاكرة مأساة الأرمن في قارس واردهان والآثوريين في حكاري (١٩١٥).

كان من توقعات قيادة (أللنبي) ان أسرى الحرب هؤلاء الذين أُلحِقوا بقوات (فيصل) ستحولها إلى شيء شبيه بالجيش النظامي. فكانت خيبة أمل اوليّة فيهم؛ حتى أن ممثلاً لوزارة الخارجية الأمريكية في القاهرة كتب لمرجعه في نهاية العام ١٩١٨:

"ان جيش (فيصل) بقي عاجزاً عن اخضاع أفراده للنظام والانضباط"[٢٢]

إلاّ ان الحياة بدأت تدب في هذه القوات بعد احتلال اورشليم القدس. واكتسبت عمليات [اضرب واهرب] صفة الاستمراريّة. إلاّ أن الجنود الأسرى الذين كانوا تحت قيادة العقيد (جويس) المباشرة والذين تولى المقدم (هربرت يونگ) أمر نقلهم لم يحققوا ما كان مأمولاً منهم. إذ ماكان بوسعهم الصمود أمام الأتراك[٢٣].

وفي القدس تلا (أللنبي) بياناً وُضعت المدينة بمقتضاه تحت الحكم العسكري. مبرراً ذلك لـ(پيكو) بأن المدينة تقع ضمن منطقة العمليات الحربية ومن الطبيعي ان تنحصر السلطة بيد القائد العسكري الأعلى وله وحده ان يحدد مدة سريان الأحكام العسكرية ويقرر إنهاءها،

(٢١) راجع الذيل لهذا الفصل. للوقوف على تفاصيل هذه العمليات يحبذ مراجعة مذكرات جعفر العسكري. لندن ط. دار السلام ١٩٨٨.

(٢٢) حوالي أربعين ألفاً.

(٢٣) رونالد ساندرز Ronald Sanders: «اسوار اورشليم العالية The High Walls of Jerosalim» نيويورك ١٩٨٣ ص٤٩٣. (وهو تاريخ لتصريح بلفور وقيام الانتداب البريطاني على فلسطين). من مذكرات جعفر العسكري: "كثيراً ما كنا نتعب مع أهالي الحجاز واليمن سواء كان ذلك في تنفيذ الأنظمة الضرورية أو الباسهم البزة العسكرية وكانوا يسمون السراويل (شنقيطاً) وينفرون من لبسها النفور كله... وكانت النظافة والعناية بالشؤون الصحية على ما يرام ولاسيما بعد ورود الجنود اليمانية وتكاثف المعسكر. وتفشت الكوليرا بين هؤلاء فأخذت تفتك بهم فتكاً ذريعاً. وكان الدكتوران أحمد حمدي وحسن شرف وباقي الأطباء ينادون بمقترحات صحية لدفع الغائلة مما يصعب تطبيقه على هؤلاء الناس".

ولذلك فلن يعمل باتفاق [سايكس پيكو سازانوف] من خطّة (أللنبي) مواصلة الزحف على دمشق ثم على استنبول. لكنه توقف مضطراً، بسبب إرسال معظم قطعاته الى الجبهة الغربية لصدّ هجوم ربيع العام ١٩١٨ الخطير لاسيما بعد أن نقل الألمان مجموعة جيوشهم من الجبهة الشرقية إثر عقد معاهدة الصلح مع الحكام السوڤييت. على أنه تلقى نجداتٍ في أواخر العام ١٩١٧ واوائل العام التالي فاستعدّ للتقدم نحو دمشق.

كان (أللنبي) قائداً عاماً لجيوش الحلفاء في هذه الجبهة. ومع أن معظم قطعاته بريطاني يرفع العلم البريطاني. إلاّ أن زحفه كان يرفع الى جانبه اعلاماً كثيرة. ومنها علم الثورة العربيّة المستحدث.

وكان (سايكس) قد اقترح على الشريف عند بدء الثورة اختيار علم لقطعاته وبعد دراسة مستفيضة قام بها المكتب العربيّ لتاريخ العرب والرايات التي كانت ترفعها دولهم الغابرة والأزياء السائدة لمختلف العهود. تمّ رسم نموذج لعلم يتألف من الالوان الأحمر والأبيض والأسود والأخضر. وقدم (سايكس) الرسم للشريف. يقول سايكس أن الاعتراض الوحيد الذي ابداه الشريف عليه ان اللون الأحمر كان فاتحاً. ثم أوصى بتسليم التصميم الى معامل الجيش البريطاني في القاهرة. فخاط عدداً منها وأرسلت للشريف، وتحت هذه الراية سارت الخيالة العربية الثلاثمائة في شوارع دمشق عندما تم فتحها[٢٤].

★★★

لم ينشر تصريح (بلفور) الشهير عند فتح (أورشليم). فقد انشغل بال المكتب العربي ووزارة الخارجية في حلّ مشكلة حساسّة: التوفيق بين الوعدين المتناقضين الذين اعطيا للعرب عن طريق الشريف. ولليهود عن طريق (وايزمان).

وفي القاهرة اجتمع الجنرال (كلايتن) بزعماء سوريين من القوميين والوطنيين وانتزع منهم اعترافاً بأهميّة اليهود في المجهود الحربي. وقد اعلمهم خلال ذلك أن اليهود لاينوون إقامة حكومة في فلسطين، وأن بريطانيا ليست مستعدة لذلك حتى لو صحت نيتهم. وبعدها هيّأ لقاء بين (فيصل) و(وايزمان) ويظهر أن هذا فوجيء بما لم يكن يتوقعه من فيصل فقد كتب لزوجه عنه:

(٢٤) غدت هذه الراية العلم الوطني العراقي ثم الأردني ثم السوري وبعد قيام الوحدة تبنتها الجمهورية العربية المتحدة مع بعض تغيير في الترتيب. إلاّ أن الألوان الأربعة لم يعترها تبديل ولم تنقص. وقد تغير شكل العلم العراقي أربع مرات إلاّ أن الألوان كانت دوماً متمثلة فيها.

"إنه اوّل قومي عربي اجتمعتُ به. زعيمٌ بحق، ذكيّ جداً، صادق الى أبعد حدّ، وسيم، جميل المحيا حاسّ جداً ذو يدين جميلتين تشبهان يد انثى اصابعهما تتحرك دوماً بعصبية عندما يتكلم لكنه قوي العزم قلق بخصوص تسويات ما بعد الحرب لكني نصحته بوجوب وضع الثقة في أن دول الحلفاء ستعامله معاملة منصفة وقد وجدته غير مهتم بأمر فلسطين. إلا انه من جهة أخرى يريد دمشق وكل أقليم سورية الشمالية، وهو يحتقر عرب فلسطين الذين لايعدّهم عرباً اصلاً"

وهكذا تبدو قضيّة الزحف اليهودي الى (أرض الميعاد) وكأن لا محيص لنا من التطرق اليها جانبياً هنا. فها هي ذي يقظتان قوميتان استحدثتا من عامل الدين واللغة والتراث والاضطهادين العنصري والسياسي قوّتهما في الدعوة الى السيادة والوطن والوحدة. تزامنتا، وتشاء المقادير أن تتشابكا في ميدان واحدٍ، حيث أثرت الواحدة منهما في الأخرى تأثيراً عميقاً وخاضتا باسم القوميّة حروباً طاحنة متساجلة فيما بينهما زهاء نصف قرن من الزمن. ليس هذا وحده، فقد كان القول في مستقبلهما زمن تلك الصحوة القومية مرهوناً كليةً بسياسات حكومات امبراطورية متغلبة واحدة. لم تقم جهودهما الخاصّة في بناء الصرح القومي الذي جاهدا في سبيله إلا بدور صغير. ولم يعملا الشيء الكثير في تحويل هذه السياسات وإن استفاد من تقلباتها وإرهاصاتها الذكي الأريب مهما قصر عن ذلك الجاهل الأرعن.

وقد كتب الكثير والكثير حول هذا. كتب ما يتسع لمكتبة ضخمة، ومن المقالات الصحافية ما يملأ مخازن وأهراء وهو يختلف بين الحماسة والعاطفة وبين الرزانة والتعقّل. وأنا ما اعتقدت بأني سأضيف شيئاً جديداً الى هذا الركام الهائل وما اقدمت إلاّ وكُليّ تردد وخوف من اشاعة الملل الى القاريء بترديد ما قرأه هو أو كتبه غيري. ولذلك سأتحرى الاختصار الشديد وأحصر القول في أضيق نطاق يسمح لي به تسلسل الأحداث والوقائع. وفي اعتقادي اني لن أثير زوبعة بعد التطور السياسي الكبير في العلاقات بين دولة إسرائيل ومعظم الدول الناطقة بالعربيّة. وكان رائده الأول (السادات) رئيس الجمهورية المصرية.

كان الرئيس الأمريكي (ودرو ويلسن) و(لويد جورج) قد وعدا شعوب الامبراطورية العثمانية بحياة أفضل. لكن وفي الوقت الذي كان أولهما يهدف من الوعد – تمتع تلك الشعوب بحق تقرير المصير وبحكم ذاتي، وجدنا ثانيهما يقترح الدعوة الى التحرير القومي أي إعطاء شعوب الشرق الأوسط حكماً أفضل مما تستطيع هي أن تعطيه لنفسها. ومن أولى

خطواته في هذا المجال هو أمره الصادر للقوات البريطانية في البلاد المصرية بالتحول الى الهجوم بقصد الاستيلاء على سورية وتصعيد العمليّات العسكرية في العراق بغية الاستيلاء عليه. وكان قد اعتزمَ في سِرّه ان لايمنح الفرنسيين ما رسم به اتفاق سايكس پيكو سازانوف.

الاتفاق بحدّ ذاته لم يكن ذا أهميّة عند الحكومة البريطانية الجديدة. ولايقوم عقبةٌ في وجه خططها السياسية، فالاحتلال العسكري هو الأصل. وفي هذا الصدد يذكر المؤرخون أنه قال للسفير الفرنسي في نيسان ١٩١٧ عن فلسطين:

"سنكون هناك بحقّ الفتح وسنبقى فيها"(٢٥)

كان الوحيد بين أعضاء وزارته الذي يريد فلسطين لبريطانيا وتبعاً لذلك كان تشجيع استيطان اليهود فيها أمراً مرغوباً عنده. فهو يحقق لتلك البلاد تطوّراً كما كان يعتقد. وقد عجب زملاؤه لهذا الإصرار. لكن كان ثمّ خلفية لتفكير (لويد جورج) لم يفطن اليها هؤلاء – تكونت جرّاء دراسته الكلاسية وتاريخ الشعوب القديمة في الأراضي المقدسة، كما أنه كان يعلم بان هناك ميلاً ورغبة تمتد الى عدة قرون ماضية عند رجال الدين الإنگلكان وغيرهم في إعادة اليهود الى صهيون. وبقدر ما يتعلق الأمر بالعودة الى صهيون (أرض الميعاد) كاد لويد جورج ان يكون آخر المسيحيين الصهاينة في بريطانيا، أولئك المهووسون المغفلون الديّنون في انگلترا الذين كانوا يحلمون بإمكان اعتناق العائدين من اليهود، الدينَ المسيحيّ!!

وبدأ دخول الأتراك الحرب موطّئاً لظروف سياسيّة جعلت من حلمهم هذا أملاً لايخلو من واقع. وفي حينه تساءل الكاتب الانگليزي الشهير بنبوآته العلمية إچ جي ويلز .H.G Welles في رسالة صحفية مفتوحة ساعة دخول تركيا الحرب: "ترى ما الذي يمنع اليهود من حيازة فلسطين وإعادة دولة يهوذا حقيقية؟"

وكانت هناك فكرة مماثلة تختلج في قحف رأس (سر هربرت صموئيل) وزير البريد في الحكومة السالفة وأحد قادة حزب الأحرار، وبها كتب مذكرةً لرئيسه اسكويث. مقترحاً ان تكون فلسطين محمية بريطانية بسبب اهميتها الستراتيجية للامبراطورية. ومبيّناً الفائدة من تشجيع الهجرة اليهوديّة اليها بنطاق واسع. وقد وزعت نسخة واحدة منها في السنة عينها

(٢٥) رسائل أوراق حييم وايزمان The letters and papers of Haim Weisman: ط. اسرائيل مجلد ٨ ص٢١٠.
نوه اسحق رابين بذلك اللقاء قبل أسابيع قليلة عند أول خطاب له بمحضر من الملك حسين. وهو لقاء اختتم بمعاهدة سلام.

(١٩١٥) على أعضاء الوزارة لكنها لم تلق أهتماماً أو معاضدة. بل نالت تعليقاً ساخراً من (اسكويث) اذ قال:

"من الغرابة بمكان ان يكون لويد جورج النصير الأوحد لهذا الاقتراح. لا حاجة لي الى القول إنّ الرجل لايهتم قلامة ظفر باليهود، لا بماضيهم ولا بحاضرهم"(٢٦)

المسألة هي أن (لويد جورج) ما اعتنق هذه الفكرة إلاّ خوفاً من استئثار فرنسا بفلسطين. لكن (اسكويث) لم يفهم ذلك. ففي الوزارة نفسها اعترض (كتشنر) بشدّة مبيناً أن فلسطين ليست مهمّة قطّ لبريطانيا من الناحية الستراتيجية(٢٧).

والحركة الصهيونية تلبس الآن ثياب القرن التاسع عشر القومية بوصفها حركة جديدة. إلاّ أن جذورها قديمة قدمَ تلك الدولة اليهودية التي أزالتها (روما) من خريطة العالم وشتتت معظم مواطنيها في مشارق الأرض ومغاربها خلال القرن الثاني الميلادي. إلاّ أنهم أقاموا على دينهم وتشبثوا به وحافظوا بحرص عزّ نظيره على طقوسه وتقاليده وتحملوا ما يتحمله مواطنو الدرجة الثانية من أهمال واحتقار واضطهاد ومذابح عدة، ومن طردٍ ونفي من بلدٍ لآخر، الأمر الذي زاد من شعورهم بهوية منفصلة ومصير خاص كالآشوريين والأرمن والأقباط. وقد نصت تعاليمهم بأنّ الله سيعيدهم في النهاية وبعد كلّ المحن الى صهيون، ولذلك تراهم جيلاً بعد جيل يرددون في صلواتهم عند احتفالهم بعيد الفصح "السنة التالية في اورشليم". وهم يزينون بيوتهم ومحلات عملهم حيثما تيسّر بلوحة كتبت عليها بالعبرية المقولة التوراتية الشهيرة التي نطق بها أحد أنبيائهم في المنفى:

"إن نسيتك يا اورشليم فلتنسني يميني"

والعودة الى فلسطين واورشليم بقيت رؤيا رسالية الى ان حولتها آيديولوجيّة القرن التاسع عشر القومية في اوروپا الى برنامج سياسيّ. وتتمثل بفكرة سائدة زرعتها في ذلك الزمن وفي كلّ مكان وطأة جيوش الثورة الفرنسية، فنمت واشتدّ عودها. الفكرة التي أتينا إلى شرحها في فصول سالفة وهي ان لكل شعبٍ الحق في بلادٍ مستقلّة لنفسه. رغم أن قضية مكوّنات الشعب مازالت حينذاك قضية مفتوحة غير مستقرة. وقد لخص جوزيف ماتزيني الذي نعتناه بأبرز المناصرين لهذا المبدء، المحصلة بعبارة بسيطة:

"كل شعب يجب أن يتحرر ليحقق ألمعيته الخاصة ويتابع رسالته في خدمة

(٢٦) محاضر مجلس الوزراء: المرجع السالف.
(٢٧) رسائل اسكويث: المرجع السالف، ص٤٠٦.

البشرية ورقيّها".

ومعنى هذا أن قومية اي شعب لاتقتصر على خدمة مصالحه الخاصة بل تخدم أيضاً مصالح جيرانه. وقد وجدنا القوميين الثوريين في كل عصر ومن كلّ لون سياسي يقاتلون في ميادين نضال شعوب أخرى غير شعوبهم. إلاّ أن اليهود في أوروبا واجهوا الجانب المظلم من القومية. فكان هذا سبباً في دفع عجلات مركباتهم الى أرض الميعاد بشدّة ولهفة.

السبب الأساس في بعض أمراض العالم أن بعض الشعوب حيل بينها وبين تحقيق هويتها واستقلالها بالقوة الغاشمة. حتى أن (ماتزيني) الوادع الذي كره العنف وشجبه اقترح على أتباعه القيام بالتغيير عن طريق الحرب والثورة. ذلكم هو الجانب المظلم من القومية. طريق العنف الذي لابُدّ منه وعدم التسامح في استعمال حق تقرير المصير بالانفصال أو الانسلاخ. يجب ان يتحد الناس شاؤا أم أبوا. ذلك هو الوجه الكالح من القوميّة، التشدد وعدم التسامح مع مجموعات تخالف الاكثرية[٢٨].

وكالكرد والمسيحيين في الشرق الأوسط. فهم مازالوا يواجهون كما واجه اليهود في أوروبا حالة مماثلة، ففي البيئة القومية التي انتقلت اليها أوروبا الغربية كما انتقلت البلاد الناطقة بالعربية إليها في ظل الحكم العثماني. اتخذت القضية اليهودية مظهراً جديداً خرج عن النطاق الديني.

هل ان يهود المانيا هم ألمان؟

هل ان يهود انگلترا انگليز؟

ويهود روسيا؟ هل هم روس؟

ان كان الأمر كذلك فماذا عن هويّتهم الخصوصية؟

ذلك طبق ما يواجه مجموعات الشعوب والطوائف التي لا تدعي بالقومية العربيّة في البلاد الناطقة بالعربيّة.

بنهاية القرن التاسع عشر تحقق لليهود في غرب أوروبا التحرر القانوني، إذ زال كثير من القيود المدنيّة والاجتماعية التي كبلتهم بها القوانين خلال قرون عديدة وصار بوسعهم أن

(٢٨) من أمثلة ذلك الحرب الأهلية في سويسرا (١٨٤٧) عندما حاولت كانتونات سبعة الانسلاخ عن الإتحاد السويسري. والحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٠–١٨٦١) حين حاولت إحدى عشرة ولاية أمريكية الانسحاب من الأتحاد. وفي الحالتين سحقت المحاولتان بجيوش الحكومتين الفدراليتين.

يتركوا أحياءهم الخاصة المغلقة ghettos الى المناطق الأخرى وأن يزاولوا التجارة ويمارسوا الحرف بحسب اختيارهم ومن دون قيد وأن يبتاعوا عقاراً ويتمتعوا بحقوق المواطنة، إلا أنهم ظلوا يواجهون موجة عداء من الآخرين الذين مافتئوا يعتبرونهم اغراباً.

على أن الحال كان مختلفاً في أوروبا الشرقية وفي الامبراطورية الروسية التي تضمّ پولندا ودول البلطيق وأوكرانيا بنوع خاص. إذ بقي اليهود هناك يعيشون في ظلّ خطر دائم مداهم. وكان معظم يهود العالم إذذاك يعيش في هذا الجزء من "خط السياج: Pale"[٢٩]. ستة ملايين من اليهود الروس لايسمح لهم أن يتسمّوا روساً، لم يكن الأمر قاصراً على تكبيلهم بأصفاد القانون بل ظلوا هدفاً للإنتقام والإضطهاد. وكانوا ضحايا مذابح منظمة: Pogroms.

وبما أن القومية اعتبرت حينذاك الدواء الشافي لهذه الأسقام الاجتماعية فقد بات في حكم المحتوم أن يقوم بين هؤلاء – مثلما قام بين الناطقين بالعربية دعاة للقومية اليهودية، ممن يفترضها جواباً وحَلاً لمأساتهم. فبدأت عبارات الوحدة القومية وحق تقرير المصير تظهر في عدة كتب. ومن الخطأ القول مثلاً بأن (ثيودور هرتزل)[٣٠] كان اوّل الدعاة السباقين. لكن النقطة الهامة التي يجب أن نقف أمامها مكبرين هي أن صهيونية هرتزل السياسية كانت أبعد افقاً عمن سبقه. صحيح إنها دعت الى أن يكون لليهود دولة خاصّة بهم إلاّ أن موضعها وأرضها لم يكونا ذا أهميّة خاصة رئيسة عنده. ألا فلتكن في أفريقيا أو في أمريكا أو في استراليا، لايهم. تجده في كلّ ما كتب يعترف بأنه يكاد لايعرف شيئاً لا عن اليهود ولا عن أورشليم وهو صحافي عصريّ التفكير ومراسل لصحيفة نمساوية يمثلها في پاريس لايهمّه من أمر اليهود شيء وقد نسي أصله اليهودي فعلاً إلى أن جاء ذلك الزلزال الفرنسي المدمّر ضدّ الساميّة على أثر قضية (دريفوس)[٣١] التي اقنعته بضرورة الجهاد في سبيل إنقاذ اليهود المنتشرين في أرجاء العالم من محنتهم التاريخية، فشرع فوراً بتأسيس الجمعيّة الصهيونية

(٢٩) لفظ مشتق من كلمة هي اسم الوتد الخشبي. وتستخدم أعداد منه لإقامة سياج.

(٣٠) ممن سبقه موسى هسّ Moses Hess بكتابه: «روما واورشليم» ١٨٦٢. وليو بنسكر Leo Pinscker: بكتابه «التحرر الذاتي» ١٨٨٢ وغيرهما. تزامنت هذه الكتابات القومية مع الآثار الأدبية والسياسية التي نشرها دعاة القومية العربية كما يلاحظ.

(٣١) أتهم الكابتن دريفوس Dryfus اليهوديّ الفرنسيّ ظلماً وبسياسة من ضباط فرنسيين في وزارة الحرب (١٨٩٧) بالجاسوسية وبيع أسرار عسكرية للألمان فحكم عليه مجلس عسكري بالسجن مدى الحياة وطرده من الجيش وأرسل الى جزيرة الشيطان وفيها أسوء سجون فرنسا بالباسيفيك. وإزاء ثورة الرأي العام في الداخل والخارج ساهم فيها الكاتب الكبير أميل زولا في كتيب شهير عنوانه: «إني أتهم» أعيدت محاكمته وتبينت براءته بعد ظهور فساد الأدلة ضده.

في العام ١٩٠٢ ولم تسفر مفاوضاته مع السلطان عبدالحميد عن شيء، وبقي نشاط هذه الجمعيّة بكل ما سجله التاريخ عنها محدوداً وعلى نطاق نشرات وكراريس وصحف دورية موسميّة.

بتشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين خلال العقد الاوّل من قرننا أخذت فكرة الوطن التاريخي تنزل من علياء الخيال والرؤى الى ما يشبه الواقع. ونقلتها الحرب الى الصعيد السياسيّ الجدّي بإدراك من زعماء الصهيونية بأنها فرصتهم التي لايمكن أن تفوّت. وفي شباط ١٩١٧ انتخب [حييم وايزمان] رئيساً للاتحاد الصهيوني البريطاني، وكان هو وزميله (ناحوم سوكولون) قطباها ومدار رحاها واستغلّ اولهما مكانته التي تبوّأها اختراعه في المجهود الحربي[٣٢] ليدفع بالقضية القومية الى أروقة الوايت هول. وخطا خطوته الأولى بلقاء مع النجم السياسي الصاعد ولم يكن غير صاحبنا (سايكس) الذي يدسّ نفسه في كل شيء كان اذذاك يتحرى عمن يكون قادة المنظمة الأعلين ولم يكن (وايزمان) حينذاك يدري بأن فلسطين والأراضي المقدسة ومستقبلها من مقتضى اتفاق (سايكس بيكو سازانوف) أن توضع بعهدة ادارة دولية. في حين بدأ (سايكس) بعد مرور عام عليها وكأنه يريد أن يضع قضية الشرق الأوسط كلها ضمن هذا الاتفاق الثلاثي الذي هندسه وقد اهتدى خلال ذلك الى القضية اليهودية وتبناها بالحماسة المعروفة عنه. وها قد ظهر الآن وضع جديد: الوطن اليهودي!

نتيجة اللقاء توصل (سايكس) الى فكرةٍ، مالبث أن اقترحها على الحكومة البريطانية. مؤدى الفكرة هي أن هويّة الوحدة اليهودية في فلسطين يجب أن توضع تحت حكم بريطاني – فرنسي مشترك: Condominium، على انه لم يصارح (وايزمان) بسبب استقراره على هذا الحلّ، ولم يكن مُتفقاً لا مع نوايا (لويد جورج) ولا مع آمال (وايزمان) الذي كان يريد أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية فحسب.

واقترح جماعة (وايزمان) ان تؤخذ القضية الى رئيس الحكومة. لكن (وايزمان) وقد اكتشف نقطة الضعف في (سايكس)، فضّل أن يعمل على تغيير نهج (سايكس) بالأول. وفي عين الشهر التقى الجميع به واتهموه بصراحة أنهم يعارضون فكرة الحماية المزدوجة ويريدون أن تكون الأراضي المقدسة تحت الحماية البريطانية دون شريك وأثر عن (سايكس) أنه أجاب على هذا بالقول:

(٣٢) كان وايزمان من عباقرة علماء الكيميا. وقد اهتدى الى طريقة انتاج مادة (الاسيتون) الرئيسة في عمل المفرقعات والمتفجرات من نبات الذرة. وقدم اختراعه هذا هدية للحكومة البريطانية التي كانت في اشدّ الحاجة الى هذه المادة وقتذاك.

"إن المشكلة هي فرنسا، وليست العرب. مسألة العرب يمكن احتواؤها".

وفي اليوم التالي أخذ (سايكس) الزعيم الثاني الصهيوني (سوكولوف) لمقابلة زميله (بيكو) وعلى أثر محادثة طويلة، وَعَد (بيكو) بأنه سيعمل كلّ ما في وسعه لتعريف حكومته بأهداف الصهيونية. لكنه شخصياً لايرى ثمّ احتمالاً في استعدادها للتنازل عن دعواها بفلسطين. وفي الواقع أن ٩٥٪ من الفرنسيين يريدون فلسطين لفرنسا[٣٣]. إلاّ أن الجميع اتفق على التريث والانتظار. وبعد اسابيع قامت ثورة اكتوبر في روسيا ودالت دولة القياصرة. ثم دخلت الولايات المتحدة الحرب.

لم يقتض لـ(سايكس) طويل وقت ليدرك تأثير هذين الحدثين على اتفاقه الثلاثي. وكان ما كان من اسراع (لويد جورج) باصدار أمر الهجوم في جبهة سيناء، وأسرع (بيكو) ليجد في هذا الأمر هجوماً على المصالح الفرنسية وكتب لحكومته إثر ذلك هذه البرقية:

"لندن تعتبر إتفاقنا ميّتاً. الجيوش البريطانية ستدخل سورية من الجنوب انطلاقاً من مصر وفلسطين وستشتت انصارنا هناك"[٣٤]

كان (وايزمان) خلال هذه المدة قد حقق اتصاله بلويد جورج وعرف نواياه وادرك العقبة الفرنسية الكأداء التي تحول بين رئيس الحكومة البريطانية وبين تحقيق هدفه في حيازة فلسطين. الاّ أن صبر (لويد جورج) كان حينذاك قد نفد من الإدعاءات الفرنسية في الشرق الأوسط، فأبلغ (وايزمان) بـ:

"أن مستقبل فلسطين هو مسألة سيكون حلها بين بريطانيا واليهود فحسب. وأنا لاأدري لماذا هذا الاهتمام الكبير الذي يوليه (سايكس) للفرنسيين. أن فلسطين بالنسبة اليّ هي من شؤون الحرب التي تشغل بالي وتستولي على اهتمامي حقاً"[٣٥]

وعندها اقترح (وايزمان) رئيس الحكومة أن تعلن حكومته على الملأ إلتزامها بإسناد مشروع الوطن اليهودي في فلسطين. وكان قبل هذا جنّد للفكرة اثنين من كبار الموظفين

(٣٣) المرجع السالف: رونالد ساندرز: «اسوار اورشليم العالية» ص٤٦٦. نيويورك ١٩٨٣.
(٣٤) كريستوفر م. آندرز وكانيا فورستر. المرجع السالف ص١٢٤.
(٣٥) اولسن: سايكس. المرجع السالف ص٢٢٥: "بعد سنوات من انقضاء الحرب. اخترع لويد جورج في مذكراته قصة خيالية لا أساس لها تبريراً لموقفه من قضية فلسطين. فزعم أنه لم يوافق على تصريح وزير خارجيته بلفور إلاّ إقراراً بفضل وايزمان في اهدائه اختراعه للحكومة البريطانية". نقول: إختراع (وايزمان) كان حقيقياً إلاّ أن اختراع لويد جورج هذا التعليل كان زائفاً.

البريطانيين ذوا حول وطول هما (لورد روبرت سيسل) الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية، و(سر رونالد گراهام) من الباحثين المعتبرين وأحد البارزين في تلك الوزارة. وهو الذي عهد اليه بوضع مسودّة تصريح بلفور.

استقر الرأي على اصدار تصريح. لكن كيف سيمرر؟

والعقبة الفرنسية مازالت قائمة؟

الفرنسيون ينظرون الى الصهيونية نظرة احتقار، يهزأون بها ويسخرون، ويراها جزءٌ كبير من الرأي العام عندهم بأنها نصيرة للألمان، ويعادونها بسبب من ذلك. والأنكى من هذا أنها لم تلق مناصرة أو تشجيعاً من يهود فرنسا أنفسهم. كان الوضع على الأقل بهذه الصورة حتى ثورة أكتوبر في روسيا. تلك الثورة التي جعلت اليهود يبدون سياسيّاً أكبر أهمية مما هم في الواقع[٣٦]. كذلك كانت وزارة الخارجية الفرنسية تخشى ان يترجم إحجامها عن مدّ يدها الى الصهيونية بالتخلي عن ادعائها بفلسطين. ولهذين السببين وبدهاء وسعة حيلة من (ناحوم سوكولوف) حُلّت القضية وذُللت العقبة الفرنسية. فقد تعمد في أثناء لقاءاته بمسؤولي الخارجية الفرنسية أن لا يثير النقطة الحساسّة: أيّ من الدول ستضع يدها على فلسطين؟ واستنتج الفرنسيون من هذا بأن الصهيونية لاتهتم بمن سيكون سيد الأماكن المقدسة وأنها ستقف على الحياد أثناء الاحتراب عليها بينها وبين بريطانيا. ولم يكن يدور في خلد وزارة الخارجيّة كما يبدو – احتمال نجاح اليهود في تحقيق هوية قومية انفصالية ذات خصوصية مميّزة في كلّ اجتماعات موظفيها. والحاصل أن الوزارة لم تجد ضرراً في إعطاء الصهاينة كلمة تشجيع مادامت لاتعني شيئاً ولاتؤدي الى شيء ما. كانوا يعتقدون بأن هؤلاء الذين غرقوا في احلام اليقظة قد يمكن كسبهم باعطائهم نوعاً من التشجيع الأدبي القولي الذي لايتضمن التزاماً حقيقياً[٣٧].

وبمقابل هذا التشجيع القولي وعد (سوكولوف) بان يشدّ الرحال الى روسيا ليستخدم نفوذه عند يهودها في صالح فرنسا. وفي الرابع من شهر حزيران فاز من (جول كامبون) المدير العام لوزارة الخارجية بتصريح خطيّ هذا نصّه: [الخطاب موجّه الى سوكولوف]:

(٣٦) من ذلك لوحظ وجود شخصيات يهودية في السلطة السوفيتية الجديدة تقف في أعلى درجات السلم السياسي. منها (ليف تروتسكي) الشخصية الأولى في الحكم التي تلي (لنين). و(كانيف) عضو المكتب السياسي وواحد من ابرز النظريين البلاشفة وغيرهما.

(٣٧) أندرو وكانيا: «التوسع الإمبريالي الفرنسي»، المرجع السالف، ص١٤٩.

"كنتَ بدرجة كافية من الحصافة والكياسة في شرح وتقديم المشروع الذي اوقفت عليه جهودك. ذلك المشروع الذي من شأنه تطوير الاستيطان اليهودي في فلسطين. وكنت من جهة أخرى مصيباً في رأيك بأن استقلال الأماكن المقدسة وبالظروف المتاحة يجب أن يصان. وأن إحياء القوميّة اليهودية بحماية الدول الحليفة سيكون إجراءً عادلاً وتعويضاً لها في تلك الأرض التي نفي منها شعب إسرائيل منذ قرون خلت. ان الحكومة الفرنسية التي دخلت الحرب دفاعاً عن شعوب هوجمت ظلماً واعتداءً، وواصلت النضال لتحقيق نصر الحق على الباطل والجبروت، لايسعها الاّ أن تنظر بعين العطف على قضيتكم التي يرتبط نجاحها بنصر الحلفاء. انه يسعدني حقاً، اعطاؤك مثل هذا التأكيد"[٣٨]

صياغة التصريح بقدر ما تعلق الأمر بالحكومة الفرنسية، كانت صياغةً محكمة دقيقة لاتحتوي وعداً قد يتضمن نقطة ارتكاز للفكرة الصهيونية الأصلية أي وجوب إحياء القوميّة اليهودية في نطاق وحدة سياسيّة خاصة بها. زد على هذا أن الأماكن المقدسة التي نّوه بها التصريح على أساس بقائها مستقلة، بعيدة كل البعد عن الوعد بالوطن، في مجالات كانت اتفاقية (سايكس پيكو سازانوف) قد حددتها وهي مساحة شاسعة من الأراضي تشمل مما تشمل معظم فلسطين المأهولة غرب نهر الاردن، فلو قدر التطبيق لهذا التحديد فان «العطف الفرنسي» على شعب يهودي في فلسطين سيكون قاصراً على حيفا وحبرون وشمال الجليل وصحراء النقب فحسب[٣٩].

كان التصريح بمجمل القول – خالياً من أي إلتزام.

في بعض الأحيان يشار الى أن تصريح (بلفور) التالي، هو الآخر غامض غموض تصريح (كامبون). إلاّ ان الاوّل منهما نشر رسميّاً وأشار الى فلسطين بالذات، كما أشار كذلك الى خلق وحدة كانت مقدمة وتمهيداً لتكوين قوميّة يهودية واضحة المعالم، أي وطن قومي.

مع هذا فما من شك في أن الفرنسيين وقعوا في الفخّ الذي نصبوه لغيرهم وورّطوا أنفسهم من حيث قصدوا توريط غيرهم. فتأكيدهم الخطيّ هذا رغم أنف كل الحذر والدقة اللذين روعيا في صياغته – أنار بالضوء الأخضر طريق بريطانيا الى تصريحها البلفوري الخاص. وهكذا فأنت ترى، ما ان يصبح للصهيونية تصريحان صادران من حَليفين، بالغ ما بلغا من غموض

(٣٨) كينيث روز (المرجع السالف): أسوار أورشليم العالية، ص٥٣٤.

(٣٩) قارن بين هذا التحديد وبين قرار التقسيم الصادر من مجلس الأمن في العام ١٩٤٨.

وإبهام – حتى تغدو الحركة ذات دور هام في اختيار أي من الدول تضع نفسها في حمايته، وستختار بريطانيا بطبيعة الحال.

بعد وقوع هذا الخطاب في يد الجماعة الصهيونية، دبت الحركة في نصيريها (سيسل وگراهام) ولم يبذلا كثيراً من جهد مع وزير خارجيتها الذي كان بدوره متهيئاً. وفي أواسط حزيران تلقى (وايزمان) منه دعوة للمشاركة في صياغة البيان.

المناقشة حول الاسلوب المناسب والجهة التي سيوجه إليها التصريح استغرقت معظم الصيف وتأخر التصريح أيضاً بعائق غريب غير متوقع. فقد كان هناك فريق من يهود بريطانيا وهم من ذوي الحول والطول والكلمة في السياسة البريطانية يرون في التصريح خطراً على مستقبلهم وعلى مركز اليهود في بريطانيا وتزعم هذا الفريق «مونتيگو» وزير الهند وابن خالته (أو عمته؟) السر هربرت صموئيل ولورد ريدك روفوس ايزاك. هؤلاء كانوا ينطقون بلسان الأغلبية اليهودية في بريطانيا أو هكذا كانت الدلائل تشير.

فبتاريخ ١٩١٣ وهو آخر تاريخ نجد فيه أرقاماً عن الحركة الصهيونية لم يكن منتمياً إليها أكثر من ١٪ من مجموع يهود العالم(٤٠). أما تقارير الاستخبارات البريطانية فقد أشارت الى نوع من تعاطف في المناطق الروسية المسيحية مع الحركة الصهيونية أثناء الحرب دون ذكر أرقام. ووجد (مونتيگو) وصحبه من المؤيدين كلاً من (اللورد كرزن) وزير الهند و(آندرو بونار لوو) زعيم الأغلبيّة البرلماني في وزارة الائتلاف وقد ايدّت الولايات المتحدة نصيحة هؤلاء بتأخير نشر التصريح حتى ١٧ من تشرين الأوّل. كان الرئيس الأمريكي (ويلسن) ممن يعطف على الصهيونية، إلاّ أنه بقي يشك في نوايا البريطانيين وبدا وكأنه يفضل فلسطين يهودية، على فلسطين بريطانية.

وعمد الزعماء اليهود الى حيلة بارعة لإحتثاث بريطانيا على التعجيل في نشر التصريح باللّعب على مخاوف الحكومة وهواجسها. فأوعزوا لجماعتهم في ألمانيا فقام هؤلاء بالواجب!

في صباح يوم ١٧ حزيران ١٩١٧ خرجت جريدة برلينيّة لا تتمتع بانتشار واسع أو شهرة سوى أنها مقربة من حكومة القيصر، خرجت بخبر مدسوس لا أساس له، مفاده أن البريطانيين يدرسون فكرة دعم الصهيونية من أجل الحصول على فلسطين لتكون لهم بمثابة جسر أرضي يوصل مصر بالهند واقترحت الجريدة على الحكومة الألمانية عرقلة هذه الخطة بمناورة استباق

(٤٠) رحبوت، إسرائيل: أركيف وايزمان (رسالة سر گراهام الى الجنرال ريجنالد وينگيت) مؤرخة في ٢١ من أيلول ١٩١٧.

بريطانيا الى دعم الحركة الصهيونية!

لم تكن الحكومة الألمانية مهتمة مطلقاً بتبني الحركة وهو ما كان يجهله البريطانيون. أسرع (وايزمان) بالمقال ووضعه أمام (گراهام) فهرع هذا يبدي مخاوفه بحماسةٍ لبلفور وكتب مذكرة ختمها بالعبارة:

"... وقد نواجه في أية لحظة تحركاً ألمانياً لصالح القضية الصهيونية، من الواجب أن نتذكر بأن الصهيونية وإن لم تكن من بنات أفكار اليهود الألمان. إلاّ أنها على أية حال فكرة يهود النمسا"(٤١)

وفي ٢٦ من تشرين الاوّل (أكتوبر) ١٩١٧ خرجت جريدة التايمس اللندنية بمقالها الرئيس تهاجم فيه التأخير المتوالي في إصدار التصريح مشيرة الى الخبر:

"غاب عن ساستنا أن يدركوا كم هو ثمين لقضية الحلفاء – عطف كل يهود العالم قلبياً عليها. ذلك التعاطف الذي يمكن أن يكسبه تصريح قاطع حاسم عن السياسة البريطانية أزاء أمانيهم القومية. كانت ألمانيا سريعة في إدراك الخطر على مشاريعها ودعايتها – المتأتي من الرابطة الكائنة بين الحلفاء وبين أماني اليهود القوميّة ولم تكن عاطلة في محاولة عرقلتنا واعاقتنا".

وتمّ في ٣١ من تشرين الأول تغلّب الوزارة على المعارضة التي ترأسها فيها (مونتيگو وكرزن) وخولت وزير خارجيتها (بلفور) بإصدار التصريح، لكن بعد إجراء كثير من التنقيح والحذف والتعديل على الصيغة التي اقترحها (وايزمان). وأسرع (سايكس) يزفّ إليه نبأ الموافقة بقوله:

– دكتور وايزمان. إنه وَلَدٌ ذكَر!

الاّ أن الزعيم اليهودي لم يكن قطّ سعيداً بهذا الوليد الذكر بكل التغيير الذي جرى على الصيغة الاصليّة.

وُجّه البلاغ الى أشهر شخصية يهودية في بريطانيا بشكل خطاب من وزير الخارجية إليها مؤرخ في ٣١ من تشرين الأول (أكتوبر):

عزيزي لورد روتشيلد

(٤١) سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج ٣–٢–٣٤ (يلاحظ أن النمسا كانت تقاتل الى جانب المانيا. والنمساويون ألمان عنصراً).

ببالغ السرور انقل إليك نيابة عن حكومة صاحب الجلالة – التصريح التالي بالتعاطف مع أماني الصهيونية وقد عرض على مجلس الوزراء فصادق عليه:

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى قيام وطن قوميّ للشعب اليهودي في فلسطين وأن تستخدم أفضل مجهوداتها لتسهيل الوصول الى هذا الهدف. وليكن مفهوماً بوضوح أنها لن تقدم على أي أمر من شأنه أن يلحق ضرراً بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المتواجدة الآن في فلسطين ولا بالحقوق أو الشخصية السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلدٍ من البلاد الأخرى. وسأكون ممتناً لو تفضلتم بإبلاغ هذا التصريح الى الإتحاد الصهيوني. »

(بلفور)

لم يتوقع الزعماء البريطانيون ردّ فعل سيء من حلفائهم العرب ومازالوا يجدون في فرنسا مشكلتهم الوحيدة التي تمّ حلّها. وقد كتب لويد جورج فيما بعد عن الموقف العربي:

"على مايبدو لي لم تكن فلسطين تثير عند العرب كثيراً من الاهتمام أو تورثهم قلقاً... إن حكومتنا أبلغت الملك حسين والأمير فيصل بخطتها في إعادة خلق كيان قوميّ يهودي في الأماكن المقدّسة. ولم يكن بوسعنا اذذاك الاتصال بالعرب الفلسطينيين فقد كانوا يحاربون في صفوف العدو"(٤٢)

وتبين فيما بعد خداع (سوكولوف) فقد كذب على وزارة الخارجية الفرنسية حين وعد بالاتصال باليهود في روسيا. لم يفعل شيئاً ولم يجرء على الرحيل. وقد نقلت ثورة أكتوبر السلطة الى البلشفيك.

في المقابلة التي تمت بين (فيصل) و(وايزمان) كان العقيد (جويس) رئيس أركان فيصل المنتدب من القيادة – حاضراً. وقد أبلغ رؤساءه برأيه الذي كوّنه عنها فكتب:

"رحب فيصل بفكرة التعاون العربي – اليهودي. بل وجدها في الواقع عاملاً جوهرياً في تحقيق الأماني العربيّة القومية، إنه وإن لم يكن بوسعه التعبير عن وجهة نظر دقيقة معيّنة دون تخويل من أبيه، لكنه يقبل بفلسطين يهودية ان كان ذلك يؤثر تأثيراً ايجابياً على الحلفاء في دعم ادعائه بسورية"(٤٣)

(٤٢) لويد جورج: محاضر الصلح ١٩١٩. مجلد ٢ ص٧٣٧.

(٤٣) مركز الوثائق العامة (أوراق المكتب العربي 24 vol 882. وكذلك Fo. 10588174. Kew. vol. 20 M 1/ 19/3.

إلاّ أن (وايزمان) لم يجد عند الفلسطينيين ما وجده عند ممثل الثورة العربيّة (فيصل). لم يجد تحمّساً لفكرته هذه لا بين مسلميهم ولا بين مسيحييهم. وبدأ شكه يتعاظم بسبب موقف الإدارة البريطانية هناك عندما طلب منها العمل بالسياسة التي رسمتها لندن فرفضوا ولم يعيروا طلبه اهتماماً.

حُلّت مشكلة فلسطين مع زعماء الثورة العربيّة بهذا الشكل ولم يخرج من فم الزعماء العرب الآخرين ولا الجمعيات السريّة صوت احتجاج على التصريح أو انتقاد له. ومَرّ الحدث التاريخي بالسهولة التي تمّ فيها الاستيلاء على دمشق. فقد انحل الجيش الرابع التركي قبل دخول معركة من أجلها، وتفرق الى جماعات وهرب قائده (جمال).

أجمعت الوثائق البريطانية المحفوظة على أن الجيش الذي قاده (فيصل) هناك، كان عدد أفراده يتراوح بين الثلاثة آلاف والثلاثة آلاف وخمسمائة من الجنود العثمانيين السابقين، الذين لقوا تدريباً ما. في حين أن الدعاية البريطانية كانت تلهج بذكر عدد يتعذر احصاؤه من المجاهدين المقاتلين الملتحقين براية أمراء الحجاز. وفي السرّ كان للبريطانيين قصة أخرى مختلفة عن تلك القوات وعمّا أنجزته في ميادين القتال. فوثائق الحكومة التابعة في محاضر العام ١٩١٩ أشارت بأن الأتباع قُدِّروا عددياً خلال الحرب تقديراً مبالغاً فيه بشكل خرج عن كل اعتدال وبينها تقرير صادر عن الوكالة (المقيمية) البريطانية في (جدّة) ١٩١٩ يصور الشريف (الملك الآن) كمية مهملة عسكرياً:

"ربما بلغ أتباعه ألفاً من المدربين و٢٥٠٠ من غير النظاميين، وربما قد ينضاف إليهم آلاف قليلة أخرى من البدو بقيمة قتالية تافهة وزعوا على أولاده الثلاثة... إن الملك حسين غارق في أحلام جنونية من الفتوح، الاّ أن انسحاب البريطانيين سيتركه تحت رحمة ابن سعود ذلك النجم الوهابي الصاعد"

في شهر كانون الثاني ١٩١٨ أفضى الشريف للرائد (كيناهان كورونوالس) الضابط في المكتب العربي وبعد أن أعلن نفسه ملكاً – أنه يفكر أيضاً في إعلان نفسه خليفةً للمسلمين. فحاول هذا الضابط(٤٤) ان يثنيه عن عزمه مستهدياً بسياسة المكتب العربي وقتذاك، تلك التي ماعادت تهتم قطّ بحسين، مذكّراً اياه بالمشاكل الخطيرة التي قد تنجم عن محاولته ارتداء بُردة النبيّ. وأزاء هذا المطلب وجد جماعة المكتب أنفسهم في موقف فيه من الإحراج ما

(٤٤) هو عينه الذي كان مستشاراً لوزارة الداخلية العراقية أيام الأزمة الآشورية في ١٩٣٣. وكذلك السفير البريطاني أيام حركة مايس ١٩٤١.

فيه. أدركوا موقفهم العسير عندما تذكروا بأنهم مع استاذهم وزير الحرب الراحل شجعوا الشريف فيما مضى على اطّلاب الخلافة! لم يجدوا سبيلاً للخروج من المأزق إلاّ بتجاهله ثم القيام بإتلاف الرسائل والخطابات التي كتبوها بهذا الصدد، بنزعها من ملفاتها الرسمية أو القيام بعمل نسخ معدّلة منها عندما يتعذر إتلافها. فمثلاً تجد (لورنس) يزعم في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) كذباً طبعاً بأن (كتشنر) وجماعة المكتب العربي كانوا مؤمنين بتفوق القومية العربية منذ البداية. في حين تثبت الوثائق أنهم ماكانوا يؤمنون بها إطلاقاً بل كانوا يركزون على الجانب الاسلامي من الشريف وثورته. كانوا يؤمنون بقدرة الخلافة على تغيير مسرى الحرب مع الترك مثلما كانوا يؤمنون بقدرة الشريف على اطّلابها لنفسه ولهم. ولايرون أي جدوى في قومية عربيّة تنهض بالبلاد العربية، بل أن الدين هو كل شيء. ولو كانت غايتهم القومية العربية، فإن (الشريف) هو آخر من يفكرون في نصبه قائداً لها وزعيماً ورمزاً، وآخر من يفكرون في استخدامه وتقويته. إنه رجل عينه الأتراك لرعاية أمور الأماكن الاسلامية المقدسة طالما استخدم الجيش التركي لإخضاع القبائل العربية الخارجة عليه. ولو كان للمكتب العربي اي إيمان بقدرة القومية العربية وجدواها في هذه الحرب لاختاروا زعيماً عسكرياً قومياً آخر. أدرك (لورنس) هذه الحقيقة من الأول فحاول ان يجعل من (فيصل) في كتابه قائداً قومياً منه لا من أبيه لكن... بعد خراب البصرة كما يقول المثل العراقي السائد.

من أعظم المواقف الفاشلة التي مني بها المكتب العربي واستخبارات وزارة الحرب هو تجاهل حركة البعث الوهابية المدهشة تحت راية إبن سعود – تلك الحركة التي تمخضت بميلاد حركة الفدائيين المشهورة باسم (الإخوان) في العام ١٩١٢. فضلاً عن أكثر من قرن ونصف قرن من حربٍ سجال بين الدعوة الوهابية وبين الحكومات العثمانية. فالوقائع التي سجلت لمؤتمر لجنة وزارة الحرب المنعقد بتاريخ ١٦ كانون الأول ١٩١٦ لسماع شهادة (سايكس) حول القضايا العربية تشير الى أن (كتشنر) تساءل بقوله:

– أما تزال الوهابية موجودة؟

فأجابه (سايكس) على الفور:

– أجدها ناراً تلفظ آخر أنفاسها.

وبعدها بسنتين أي بعد مرور ستة أعوام على قيام حركة (الإخوان) كتب (كلايتن) لـ(سايكس):

"لدينا ما يشير الى انتعاش كبير في حركة قائمة على الخطّ الوهابي في قلب

الجزيرة، حركة تشبه تماماً ما حصل في السابق عندما تدنّت مكانة الإسلام الى أدنى مستوى. لسنا بعد في وضع يمكّننا من تقدير قوة هذه الحركة، إلاّ أن الأوضاع السائدة تساعد على تقويتها والقضية تستأثر منا باهتمام كبير. وقد يكون من شأنها تغيير الموقف كله تغييراً جوهرياً"(٤٥)

وكتب كلايتن لـ(سايكس) في أواسط العام ١٩١٨ عن الثورة العربية:

"إن الأهمية الحقيقية لهذه الثورة تكمن في أنها أشعرت الآخرين بوجودها وأن هذا الشعور قد ازداد خلال الأشهر القلائل الأخيرة. ونطاقها يتسع يوماً بعد يوم. ولكن علينا في الوقت ذاته الإقرار بأن ٩٠٪ من جنود الشريف هم لصوص. وان العرب لم يجرؤا على إعلان الثورة على الأتراك إلاّ بعد الإنزال البريطاني والاستيلاء على ساحل الحجاز. ومن ثم دعمهم مالياً وعسكرياً. بكلمة أخرى أن ثورة الشريف اعتمدت أولاً وآخراً على مبلغ قابلية البريطانيين على احراز تقدم عسكري"(٤٦)

لم يوافق (سايكس) على هذا التخريج وظلّ مقيماً على ولائه للشريف معتقداً بأن (فيصلاً) وأخوته يسهمون مساهمة جيدة في المجهود الحربي. وحجته في هذا هي أن ثورة الشريف كانت في العام ١٩١٨ تستأثر باهتمام (٣٠٠٠٠) جندي تركي سواء في الجزيرة العربية أو في ميادين فلسطين وسورية. وتعترف مذكرات الجنرال الألماني (ليمان فون ساندرس) بهذا في قوله(٤٧): "في ١٩١٨ عندما بدأ الجنود يفرون من صفوف الجيش العثماني وجدوا أنفسهم يعانون ضربات أليمة من البدو العرب"

ولهجة (كلايتن) نفسها كانت تشعر بان القوات العربية في شرقي الأردن نجحت في إشاعة الفوضى في المناطق التي يسيطر عليها الترك.

وعلى أية حال – ففي أوحال السياسة واعاصيرها آنذاك بقيت مسألة تقويم مساهمة (فيصل) في نصر الحلفاء مُبهمة وستبقى الى يومنا هذا وبعده(٤٨). في تلك الفترة – وبعد

(٤٥) أوراق سايكس DR. 5881251. DS 149.

(٤٦) أوراق المكتب العربي (المرجع السالف) Vol 17. D. 20.

(٤٧) المفتش العام للجيش التركي. مذكرات ليمان فون ساندرس Liman Von Sanders: «خمسة أعوام في تركيا Five Years in Turkey» اناپوليس – الولايات المتحدة ١٩٢٧. ص٣٠٦–٣٢٠.

(٤٨) خير مرجع بالعربية يمكن الركون إليه في هذا الباب هو المذكرات التي دونها (جعفر العسكري) عن تلك الفترة وهو رئيس أركان فيصل في عمليات الجناح الأيمن. وتبدو لي رزينة تكاد تخلو من المبالغة =

دخول الحلفاء دمشق، أثير هذا السؤال السياسي:

أكان واجباً على بريطانيا دعم الشريف وابنه (فيصل) بمواجهة الزعامات القومية السورية الحقيقية؟ ثم أكان واجباً عليها مساندة (فيصل) ضدّ أبيه؟

ففي ذلك الحين كانت العلاقات بين الاثنين قد اشتدت توتراً. وكان (فيصل) قد قطع صلته تماماً بالحجاز وبأسرته وصار يدور عملاً في الفلك البريطاني وكانت الإستخبارات البريطانية تعترض سبيل البرقيات التي يرسلها الشريف وكلها شكوى ومضاضة؛ ومن ذلك:

"إنهم حوّلوا ابني ضدّي. ليعيش في بلاد أخرى. فيصل غير صادق، ثائر على أبيه، العيش تحت أوامر هذا الابن العاقّ الخائن اثقل كاهلي فوق ما أشعر به من بؤس"

وتراه يهدد بقوله:

"إن ظلّ فيصل يصر على تدمير مستقبله ووطنه وشرفه فمن الضروري إقالته وإقامة مجلس حربٍ في مكانه"(٤٩)

وبعيد دخول دمشق بقوات من الجيش العربي. تشير تقارير المكتب العربي الى أن ناطقاً باسم "الوطنيين" السوريين صرح بأنهم قد يقبلون (بفيصل) ملكاً دستورياً شريطة أن يكون مستقلاً بأمره لا أن يمارس الحكم بوصفه نائباً عن أبيه. وعلى أثر ذلك اضطر الحلفاء الى إعادة النظر في تقويمهم للشريف الذي اتخذ لقب الملك – وركز (كلايتن) جهوده للوصول الى تفاهم مع أولئك الذين أطلقنا عليهم اسم الانفصاليين في كل من القطرين السوري والعراقي

= والتبجح اللذين تشاهدهما في أغلب ما كتب. ويستفاد منها أن العمليات التي كانت تقوم بها وحدات فيصل لاتخرج عن اشتباكات محلية تقوم بها مجموعات قد لايزيد تعداد أكبرها عن ما يؤلف سرية واحدة بالمصطلح العسكري العراقي (حوالي ١٠٠–١٢٠ جندي). ولايذكر العسكري أعداداً. وإنما يتحدث عن جيش فيصل. وفرقة فلان أو فلان ويتكلم كذلك عن (مفارز) ولايذكر حجمها. ومن الجدير بالتنويه هنا أن صاحب المذكرات يؤكد "أن المناوشات الحربيّة في منطقتهم انتهت بعد ٢٥ من أيلول ١٩١٨". ولايتحدث بشيء عن دخول دمشق وإنما ينتقل رأساً الى الإجراءات المدنية بعد الاحتلال مباشرة و"عن تقدم القوات الى الشمال وتوزيعها على المناطق المحتلة وتسريح الراغبين في الرجوع الى أهلهم».

(٤٩) [الوثائق Fo. 882 Vol 17 Do 33]. في الواقع ظلّ فيصل ينقم على ابيه مما كان يعتبره سوء تصرفات له ويعدها أساساً لكل ما لقي من سورية من متاعب. هناك شاهد على ذلك لايتطرق الى أقواله شك – وأقصد به العلامة ورجل الدولة الدكتور داود الچلبي الموصلي (أنظر كتابنا: «العراق في عهد قاسم» ج٢ ص٥٩١ وما بعدها) ففي جلسة ضمتهما ولا ثالث معهما كان فيصل وهو ملك العراق يحاول اقناع الچلبي الذي يعتذر عن مواقفه بأنه إنما يفعل ذلك تثبيتاً لملكه وولاءً لأبيه. فيصيح به فيصل غاضباً: "دكتور داود إياك أن تذكرني بوالدي فهو علة كل ما نزل بنا من مصائب".

بعد احتلال بغداد (وهذا ما سيأتي تفصيله في الفصل التالي)، فعرف أنهم ينفرون من حكم يتولاه غير مسلمين. وكان عددٌ من الساسة البريطانيين يرى أن الانتلجنسيا(٥٠) السورية مشكلة تفوق أعقد مشاكل الشرق الأوسط. وقد كانت مصدر قلق سايكس العظيم وبصورة خاصّة معرفتة بأن هؤلاء المثقفين السوريين سيرفضون اتفاق [سايكس پيكو سازانوف] ولن يرضوا قطّ بالشروط التي اتُفِق عليها بين الشريف ومكماهون.

في خريف العام ١٩١٨، الذي ضاقت اجواؤه بضجيج صحف بيروت ودمشق القومية الجديدة، وفي زخم الاجتماعات الجماهيرية والمؤتمرات المعقودة في السرّ وفي العلن. اقتنعت فرنسا بالتوقيع مع بريطانيا على تصريح جديد حول نوايا الحلفاء بهدف تبديد مخاوف العرب، وشكوك الأمريكان في الأطماع الإستعمارية للدولتين الإمپرياليتين، بحسب تقويم(٥١) (لنين) في حينه. وفي ٨ من تشرين الثاني ١٩١٨ صدر التصريح الانگلوفرنسي وقد صيغ بشكل عموميّ الطابع منوّهاً "**بالمساندة الكاملة لخلق حكومات محليّة في الشرق الأوسط**" ولم يشر بصيغة دقيقة الى "**استقلال البلاد الناطقة بالعربية**". ومهما كانت يد الحكومة الفرنسية في هذه التعمية فبريطانيا كفرنسا، ما كانت قطّ على استعداد لسلوك السبيل المثالية التي اختطها الرئيس الأمريكي ولسن، ورغب فيها (سايكس).

وبعد فتح القدس ودمشق سأل (أللنبي) لندن حول الشكل الذي ستتخذه الإدارة هناك. فأكدت له وجوب اتباع النهج الذي رسمه اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) والتقيّد بالحدود المرسومة فيه، على أن الخلاف بين أعضاء الحكومة كان شديداً في هذه المسألة(٥٢).

(٥٠) Intlligentcia: التعبير أصله روسيّ. وربما كان (بوبورايكن) الصحافي مخترعه وأول من استخدمه في العقد السادس من القرن الثامن عشر ويعني بهم تلك الفئة الإجتماعية التي تألفت من نخبة من المثقفين العصريين الذين حصلوا على تعليم مساو لمعاصريهم في أوروپا الغربية وممن لاينتمون الى الجهاز الحكومي. والعرب كغيرهم، نشأت أولى براعم القومية عندهم في تربة الانتلجنسيا وليس بمحض الصدفة أن يكون أول دعاتها قد بدأوا بالبعث الثقافي واللغوي والأدبي لينتقلوا الى الهدف السياسي كما ذكرنا.

(٥١) خطأ (لنين) الكبير في تعريف الامپريالية، كان له تأثير عميق في الفكر السياسي اليساري والقومي الحديث، عند تعريفه لها بأنها اطّلاب المزيد من المستعمرات وأنها سبب الحروب. وباستقراء تأريخ التوسع الأستعماري الأوروپي وأخذ كل حرب نشبت خلال القرن التاسع عشر في أوروپا وغيرها، يتضح أن معادلة (لنين) إنما وضعت بشكل معكوس للأمپريالية فالخسائر المادية كانت تدفع الأطراف المتحاربة الى التعويض عنها بالبحث عن أرباح أخرى. والمجال هنا لايتسع للتفصيل في هذا مثل قطعة مطاط قصيرة لسحبها فوق مسطرة (المادية الديالكتية) الطويلة جداً باعتبارها تفسر كل شيء. لاسيما وأن اسباب الحروب كثيرة لاتدخل تحت حصر.

(٥٢) أوراق ملنر Melner Papers: اكسفورد. المكتبة البودلية، فلسطين (Oxford Bodlien Library, Palastine) 40/64, 140/54, 140/2

وطبقاً لهذا أمر (أللنبي) أن يستخدم ضباط فرنسيون في كلّ الأقاليم السورية للإدارة المدنية فحسب. وتوالت عليه برقيات وزارة الحرب توصيه بالعمل قدر الإمكان على إقامة إدارة عربية مرتبطة بالفرنسيين، في الوقت الذي سمح برفع علم الثورة فوق دمشق وسائر المدن السورية الهامة بناءً على أوامر صريحة صادرة من وزارة الخارجية. كان هدف الوزارة من هذا مزدوجاً: تذكير فرنسا بأن داخلية سورية ستتمتع باستقلال عربي اسميّ على الأقل. ودعم دعوى الشريف بالسيادة على سورية.

كان عدد سكان دمشق وقتذاك يناهز ثلاثمائة ألف فهي والحالة هذه أكبر مدن الهلال الخصيب وجزيرة العرب[٥٣] وأهمية السيطرة عليها واخضاعها لإدارة معينة فيه من الآثار والمعاني ما فيه. وكان ثم تناقض في الأوامر: أوامر (أللنبي) الموجهة لفاتحها الجنرال (هنري شوڤال) قضت ببقاء الوالي العثماني وإدارته يمارسان عملهما:

"إذا سبب لكَ فيصل أي مشكلة فعالجها عن طريق لورنس!"[٥٤]

إلا أن وزارة الخارجية البريطانية أعلمت نظيرتها الفرنسية بأن (أللنبي) سيعالج مسألة الإدارة العربية المؤقتة وفق ما رسمه اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) ومن خلال ضابط ارتباط[٥٥]، الأمر الذي يدل على أن وزارة الخارجية كانت تتوقع قيام (أللنبي) بتنحية الإدارة العثمانية ووضع إدارة عربية في محلّها خلال وقت طال أم قصر وأن اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) لن يطبق إلاّ بعد تمام هذا. وعلى أساس من هذا حثت وزارة الحرب على إرسال تعليمات خطيرة الشأن لـ(أللنبي):

"الأراضي السورية التي يحتلها الجنرال أللنبي تعامل معاملة بلادٍ حليفة وتتمتع بشخصية دولة مستقلّة ولاتعتبر أراضي محتلة من بلاد العدوّ. ومن المحبّذ أن يُصاغ بيان اعتراف بذلك وان يقام حكم عربي محلّي تصاحبه مظاهر وإجراءات ذات طابع رسميّ وإعلامي كرفع علم عربي وتأدية التحية له في المراكز والدوائر الرسمية والمحلات العامة"[٥٦]

في الوقت عينه صدر هذا الأمر من المقر الميداني العام لقيادة أللنبي:

(٥٣) يقابل ذلك حوالي مائتي الف نسمة لبغداد وضواحيها.
(٥٤) الوثائق العامة. أوراق المكتب العربي: رقم الوثيقة ٣٦٧٥٧.
(٥٥) مركز الوثائق العامة Vol 24 .Fo. 882.
(٥٦) أوراق ملنر: المرجع السالف ١٤٠/٦٤.

"الجيش العربي الذي يقوده فيصل هو الجيش الوحيد الذي سيدخل دمشق ويحتلّها".

كان وراء هذا الأمر العقيد (جويس) والمقدّم (هربرت يونگ) والهدف منه واضح: تحاشي النقمة والإمتعاض المحتملين اللذين قد يشيعان في نفوس الأهلين بمشاهدة جيش غير مسلم يدخل المدينة. وكتب (كلايتن) لوزارة الخارجية في تحبيذ ذلك:

"أزاح هذا العمل جانباً كبيراً من شكوك الفرنسيين في نوايانا بسورية".

كانت قوات (فيصل) تبعد عن دمشق مسيرة ثلاثة أيام في حين انشغلت الخيالة النيوزيلاندية في تعقيب فلول الجيش العثماني المنحل. ومع أنها أبلغت بعدم دخول المدينة، وبأن تبقى أعمال المطاردة والتعقيب قاصرةً على الضواحي إلاّ أن تحريرها لم يسرْ طبق ما رسمته القيادة. إذ مالبثت الإدارة العثمانية أن ذابتْ بكل موظفيها ومسؤوليها ظهرَ الثلاثين من أيلول وتركت المدينة تشيع فيها الفوضى. وعندها نهض الأمير (عبدالقادر) الجزائري وشقيقه (سعيد)[٥٧] للسيطرة على الموقف وبادرا الى رفع العلم الشريفي من تلقاء نفسيهما ومن دون أن يكون عندهما فكرة عن قرار ميدانيّ قضى بذلك وفقاً لرغبة وزارة الخارجية البريطانية وتعليماتها، رفعه الدمشقيون تلقائياً وتلك من غرائب الصدف وتوارد الخواطر. في عين الوقت وجد القائد النيوزيلاندي ألاّ محيص له من دخول دمشق بوصفها أقصر الطرق الى مطاردة بقايا الجيش العثماني وأسرها وحسب الأميران وأعيان المدينة انه هو الفتح. فالتأم جمع منهم لاستقبال القطعات الإنكليزية الداخلة استقبالاً رسمياً! تماماً مثلما كانوا يستقبلون الوالي العثماني الجديد.

وهكذا فشلت خطة (كلايتن - جويس - يونگ - أللنبي) وراح الجنرال (شوڤال) قائد القاطع السوري يجدّ في البحث عن (لورنس) ضابط الارتباط بفيصل دون جدوى. فقد انسلّ هذا مع النقيب نوري السعيد[٥٨] الملتحق بفيصل وأخذا يضربان في طول النواحي وعرضها بجهود مستميتة لجمع ما يمكن جمعه من البدو والجنود الأسرى والهاربين لتنظيم مسيرة دخول الى المدينة. أخيراً دخل (فيصل) على رأس كوكبةٍ من الفرسان تفاوت تقدير عددها بين ثلاثمائة وستمائة.

وسارع فيصل بنصب (علي رضا الركابي) حاكماً عسكرياً لدمشق. بعد تنحية اللواء

(٥٧) هما حفيدان للأمير عبدالقادر الجزائري.
(٥٨) يعطيه جعفر العسكري صفة رئيس أركان جيش فيصل (المذكرات).

شكري الأيوبي[٥٩] عن الإدارة وكان قد تسلمها من وكيل الوالي العثماني الهارب. ثم مالبث أن عينه حاكماً عسكرياً لبيروت عندما قام فيصل باحتلالها دون مقاومة بمائةٍ من خيالته. ورفعوا العلم الشريفي على سارية السّراي في ٥ من تشرين الأول.

في اليوم التالي رست سفن فرنسية حربية في ميناء بيروت وانزلت قطعات عسكرية صغيرة. وفي ٨ من الشهر عينه دخلتها قوات جيش أللنبي وسيطرت عليها. وأمر (فيصل) بإنزال علمه وسحب قواته فوراً فانصاع، وما تمّ ذلك حتى تسلّم الفرنسيون الإدارة وحدهم دون المداخلة. وبعدها بقليل قدم (پيكو) أحد ثلاثي الإتفاق، بوصفه الممثل السياسي الفرنسي في قيادة (أللنبي) للمناطق المحررة.

إتفقت إرادة الجميع على قتل اتفاق (سايكس پيكو سازانوف): كلايتن، وكرزن وزير الهند، والمكتب العربي، وسايكس الذي هندسه، بل حتى (لويد جورج) رئيس الحكومة، فقد رأى هذا أن الأحداث استبقت الاتفاق فأوردته حتفه – وعلينا أن لاننسى أنه كان ضدّه من المبدأ. فهو في رأيه: "اتفاق سخيفٌ من أي ناحية نظرتَ إليه"[٦٠]

ويتضح رجوع (سايكس) عنه من رسالة مؤرخة في ٣ آذار ١٩١٨ موجهة الى كلّ من (كلايتن) و(وينگيت) اعترف فيها بوجوب صرف النظر عن تطبيق الاتفاق:

"بسبب تعاقب أحداث معينة، كدخول الولايات المتحدة الحرب ونقاط ولسن الأربع عشرة والثورة البلشفية ونشرها بنود الاتفاق مما جلب عليه سخط الرأي العام العالمي"[٦١]

وفي ١٠ من حزيران ١٩١٨ بادر الى إبلاغ الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية بأنه وفي الوقت الذي لايحق للشريف والزعماء العرب الآخرين أن يتظلموا من هذا الاتفاق أو يسخطوا عليه لأنه أبلغهم بكل بنوده وأنهم وافقوا عليه، فعلى بريطانيا الآن أن تطلب من فرنسا إلغاء الاتفاق الذي لم يعد محلّ ولا مجال لتطبيقه[٦٢]. وبعدها بشهر واحدٍ أبلغ الدائرة بأن (سايكس پيكو سازانوف) هو اتفاق ميّت شاء الفرنسيون أم أبوا، والمطلوب الآن هو إحلال بديل عنه. فإذا رفض الفرنسيون فإنه مستعد للمباشرة في مفاوضة حول شروط لإدارة

(٥٩) من أسرة صلاح الدين الأيوبي. وهي أسرة معروفة في سورية اليوم.
(٦٠) لويد جورج: «ذكريات الحرب War Memoirs 1933-1937» بوستن ص٨٤.
(٦١) من الجدير بالذكر أن الإدارة البريطانية المحتلة منعت نشر النقاط الأربع عشرة في البلاد الناطقة بالعربية. فلم تظهر حتى ١١ من تشرين الأول ١٩١٨.
(٦٢) محاضر الدائرة الشرقية (الوثائق).

الأراضي المحتلة على أساس قيام الاتفاق.

وفي الخامس من تشرين الأول كتب لورد إيمري في مفكرته[٦٣]:

"تحدثت مع سايكس حول ما يجب عمله بخصوص الاتفاق. فقال إنه ابتكر مشروعاً جديداً من أبدع ما يمكن. يتم بموجبه انسحاب الفرنسيين من جميع البلاد الناطقة بالعربية باستثناء لبنان. وبالمقابل يأخذون كردستان كلها مع أرمينيا اعتباراً من أدنه، الى ايران الى القفقاس. إلاّ أن الفرنسيين لم يوافقوا"

★★★

رغب البريطانيون في أن يسلّم زعماء العرب بحسن نية الحلفاء، وأن يضعوا فيهم ثقتهم. وعنصر المأساة هنا أن الحلفاء أنفسهم ما كان يثق أحدهم بالآخر بل يعمل على الكيد له. وكذلك كان الزعماء العرب أنفسهم لايثق أحدهم بالآخر ويعمل على الكيد له. كيف يمكن بناء مستقبل سياسيّ على مثل هذه الثقة؟ فيصل الذي قطع علاقته بأبيه كان يعلم جيداً أن البريطانيين كانوا قبل سنين خلت قد فكروا من وراء ظهره وظهر القوميين العرب بتسوية سلميّة تقضي بتقسيم لا للإمبراطورية العثمانية بل لسورية فحسب، وبأنهم أي العرب سيتركون بمواجهة العثمانيين ليقعوا تحت رحمتهم. بل يغلب على الظن أن هؤلاء القوميين أو الانفصاليين أو دعاة الوطنية والاستقلال أو سمّهم ما شئت، كانوا يعلمون (بعضهم إنْ لم يكن كلهّم) بأن فرنسا وبريطانيا اتفقتا سراً قبل سنوات على تقسيم العالم الناطق بالعربية فيما بينهما عند أول بادرة حربٍ كبيرة. وأن لاتضيعا الفرصة كما ضيعتاها أثناء تدخلهما في إيقاف محمد علي عن زحفه المظفر نحو إستنبول في العام ١٨٣٢.

الثقة لم تكن الجوّ الذي عاش فيه الشريف وأولاده، والقوتلي وفارس الخوري والشهبندر والهاشمي والركابي وجعفر والأيوبي وعزيز علي والعظم وو... فهؤلاء كانوا حتى الى ١٩١٥، يفكرون في الانحياز الى العثمانيين في أوقات مختلفة من أيام الحرب. والزعماء السوريّون وهم ابرز الناشطين في الحقل القومي لم يكونوا يحتفظون بأي ثقة للشريف. وكانوا كثيري التخوف من تمليك فيصل بل ما كان يهمّهم قلامة ظفر ما يحصل في الحجاز ولا مصير القوم في العراق. كان المصير السوري بلبنانه وربما بفلسطين الى حَدّ ما – شغلهم الشاغل. الإستقلال السوري بعيداً عن النفوذ الشريفي في أفضل الأحوال وفي اسوئها استقلال يشوبه

(٦٣) «يوميات لورد إيمري ١٨٩٦–١٩١٩: Lord Amery Dairies» لندن ١٩٨٠ ص١١٤ المجلد الأول.

نفوذ فرنسي أو بريطاني قد يزيد قليلاً على الإمتيازات التي منحت لهذين في بلادهم أيام الحكم العثماني.

هؤلاء قبلوا بفيصل على مضض، وما قبلوا به إلاّ لأن الجيش البريطاني فرضه عليهم فرضاً.

الفصل التّاسع

انعكاس اعلان تطبيق الدستور العثماني في ميسوپوتاميا (العراق) . التيار الديني المعارض . تظاهرات ضد الانقلاب في بغداد وغيرها . واقم حكم السلطان عبدالحميد الثاني . مجهودات النواب العراقيين في مجلس المبعوثان . الاتحاديون يفتحون مدارس . صدود البدو العرب عن عملية الاصلاح . نزول الحملة البريطانية والفتاوى الدينية للعمل على نبذ الأحقاد والاستجابة لنداء الجهاد . انسحاب سريع للقبائل والقوات غير النظامية من القتال . إنشاء قوات الليڤي والتطوع العربي فيها . دخول الجنرال مود بغداد ، اذاعته البيان الذي أعده (مارك سايكس) . لجنة في لندن لإدارة بلاد الرافدين برئاسة اللورد كرزن . كوكس رئيساً للإدارة في بغداد . عنوان الحاكم المدني العام . أرنولد ولسن خلفاً لكوكس – التعاون مع (گرترود بل) . استسلام الحكومة العثمانية . التوقيع على الهدنة . لويد جورج وسياسته . التخوف من التدخل الأمريكي . صفقة بين لويد جورج وكليمانصو والتنازل عن ولاية الموصل . موقف القوميين السوريين من التسويات السرية . حق تقرير المصير . اقترام الاستفتاء . الضباط العراقيون في سورية لايعملون على اسس قومية . اقترام ضم ولاية الموصل الى الكيان الجديد . معضلة القوميات والطوائف المعارضة العراقية لتولية أمير عربي . ليشمان الضابط السياسي لولاية الموصل . ثورة العام ١٩٢٠ . سياسة تخفيض النفقات حجر الزاوية في السياسة البريطانية . مؤتمر القاهرة . عرش العراق يعرض على فيصل فيقبل به . الخلاف حول الإقليم الكردي . طالب النقيب . فرض فيصل . تبني اسم (العراق) للدولة الحديثة بدلاً من ميسوپوتاميا . رفض أمريكا العضوية في عصبة الأمم . ضم ولاية الموصل

تأخرت حركة الوعي القومي في ميسوپوتاميا عن سورية كثيراً. كما تأخر الوعي الوطني (المحلي) عن مصر فترة أطول زادت عن القرن الواحد.

في ما سمي اليوم العراق، لم يجد الفاتح ما أمكن تسميتهُ بالوطن وبالشعب، فالولايات الثلاث كانت غارقة في خضم ملتطم الأمواج من المتناقضات الاجتماعية. كانت تعكس

أرضية موزاييك لشعوب وبقايا أقوام ذات أصول انثروبولوجية متميزة، منها ما كان مستقراً ومنها ما كان طارئاً دفعت به الهجرات المتعاقبة الى القرون الحديثة ومنها ما جاء مع الغزاة المغول والتركمان والترك والفرس... والعرب. وسلم من هذه الهُجنة الرائعة التي عزّ نظيرها في بلاد أخرى – المسيحيون الذين عصمهم تمسكهم الجنونيّ بدينهم ورفضهم التخلي عنه رغم كلّ المغريات وسوء المعاملة وهم بقية من أغلبية مطلقة، وكذلك سلم الجزء الكردي الى حدّ ما من الهجنة باعتصامهم بمعاقلهم الجبليّة وقسوة العيش فيها على الأغراب. وترسبت نعرات طائفية وعداوات ونزاعات دينيّة. زادها مرور الأيام ومداخلة الفاتحين فيها حيرة وشدّة. وكان ثم انتفاضات دموية وحروب داخلية مدمرّة لا هدف لها ولا تطلعات سياسية مستقبلية. وأظهرها تلك الغارات التي كان يشنّها عرب البادية المنتشرون بامتداد ضفة الفرات الوسطى والجنوبية ومصدرهم نجد والجزيرة – غارات لم تنقطع مطلقاً ضدّ أية سلطة حاكمة منذ الفتح المغولي.

وبلغت هذه الولايات العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وهي خالية من تلك القوى الفكرية بأيّ مستوى عامل على تثبيت مفاهيم سياسية مستقبليّة كتلك القوى التي اتبعها الأدباء والمثقفون السوريون والمصريون قبل أكثر من نصف قرن.

ولم تنشأ على تربة هذه الولايات تنظيمات وجمعيات ولم تقم دعوات كتلك التي نشأت في الأقطار الأخرى الناطقة بالعربية المشار إليها، فمثلاً إنك لاتجد (عراقياً) واحداً يشترك في أول تنظيم قومي سجله التاريخ للعالم الناطق بالعربية. وأقصد به تنظيماً كاد يكون مجهولاً عند المؤرخين العرب، أسسه في پاريس طلاب ومثقفون شبان من لبنان وسورية وفلسطين في أوائل العام ١٩٠٥، وعرفه الغرب باسم (عصبة الوطن العربي Ligue de la patrie Arabe) عرّف نفسه لفترةٍ ببيانات ومنشورات دعت مما دعتْ، الى: إقامة مملكتين عربيتين واحدة تضمّ رقعة الهلال الخصيب وأخرى من الحجاز حيث ستقوم خلافة بدلاً من خلافة سلطان آل عثمان[1] وهو خيالٌ يقف أمامه المرء باحترام. إذ لم يكن لتلك الجمعيات السرية التي عقبته ذلك الأفق القومي الصحيح المنتهي بالاستقلال. حتى سياسة (الجون ترك) التي اتبعتها في هذه الولايات وأقصد بها سياسة التتريك والعثمنة – لم تدفع قادة الرأي هنا الى ردّ فعلٍ معاكسٍ بتجريد سلاح القومية العربية، على الأقل دفاعاً عن مصالحها الاقتصادية. ففي بغداد كما في البصرة والموصل والنجف وكربلاء وكركوك والسليمانية، وجدنا العناصر

(١) روسي E. ROSSI: «وثائق حول أصول وتطور القضية العربية Documenti sulle origine et gli Deve-luppi quertione Araba 1875-1944» روما. (وهو مرجع هام جداً لايستغنى عنه في تتبع الموضوع الذي كتب من أجله).

الناشطة اجتماعياً من المتعلمين وغير المتعلمين قد انقسمت الى فريقين: فريق يمالي‌ء سياسة الاتحاديين ويدافع عنها وفريق يجد في سياسة هؤلاء الطارئين على الحكم خطراً داهماً على الخلافة وعلى الدين والأخلاق والتقاليد. وقد احتدم الصراع بينهما لفترةٍ انقضت بإعلان الحرب والغزو البريطاني.

في ٣٠ من تموز ١٩٠٨ أعلن الاتحاديون تطبيق الدستور على أثر انقلابهم الذي وصفته جرائدهم بأنه واحدٌ من أعظم الوقائع في تأريخ الإمبراطورية العثمانية وشعوبها. إلاّ أن الناس في العراق لم يفهموا منه إلاّ أنه أدى الى خلع السلطان الذي كان مجرد اسمه يشيع الرهبة في النفوس. وفهمت الأغلبية المسلمة من شعار الاتحاديين المثلث (حريت، عدالت، مساوات) بأنه ساوى بينهم وبين غير المسلمين ووجدوا في ذلك ظلماً وحَيْفاً ما بعده ظلم وحيف، بل عدّوه إهانة لمن تعود منذ قرون عدة أن ينظر الى النصارى واليهود واليزيدية وغيرهم نظرة تزيد قليلاً على نظرتهم الى الخدم، تماماً مثلما وجد أجدادهم في (التنظيمات الخيرية) التي أعلنها السلطان محمود الثاني[٢] قبل سبعين عاماً ونيف. فقد ولّدت في حينه نفرةً وأحدثت أسوء تأثير في النفسيّات.

كان هذا موقف السواد الأعظم الذي لم يكن يتفهم أفضال العدالة والحرية والمساواة إلاّ نفرٌ قليل منه بسبب صلة لهم بالعالم الخارجي أو تتبع علمي أو اتصالهم بجماعة الاتحاديين.

في الجوّ الصاخب الذي أحدثه الانقلاب كثرت في المدن العراقية كما كثرت في غيرها من مدن الإمبراطورية الاجتماعات وإلقاء الخطب. وكان من مقتضى الانقلاب إلغاء القيود على المطبوعات بصورة مطلقة ورفع كلّ رقابة على إصدار الصحف فلم يعد يُحتاج الى إجازة لإصدارها. فكثرت في المدن الكبرى الثلاث، وبعضها كُتب له البقاء وبعضها احتجب إلاّ أن قراءها كانوا قلة لاتعد وانتشارها محدود في بلدان وولايات لاتجد فيها من يحسن القراءة والكتابة أكثر من ٥٪[٣].

في هذه الجرائد كتبت مقالات وأبحاث توضح المقصود من الأهداف التي توختها شعارات

(٢) أو «خط گلخانة» صدر في ١٨٣٩ بعد قضاء السلطان محمود الثاني على الإنكشارية. وهو خطة إصلاح شامل لأجهزة الدولة يتناول مما يتناول تأسيس جيش عصري محترف، وإصلاح جذري في الشؤون القضائية ومن ضمنه إصدار قوانين عصرية ومحاكم مدنية على الطرز الأوروبية. وتنظيم مالي يعتمد على ميزانية للدولة سنوية. ويتضمن إعادة النظر في الضرائب وكيفية جبايتها الخ...

(٣) مما صدر بالعربية في حينه: بغداد، الوميض، الإيقاظ، الزهور، المصباح، صدى الإسلام، البصرة، الهدف، الموصل، الروضة، مصباح الشرف، التهذيب. ومن المجلات: لغة العرب، تنوير الأفكار، المعلم، النور، الحياة وغيرها.

الاتحاديين. لكن الغالبية كانت تلاحظ بأن ما يقال غير ما يطبق ويجري. يقول أحد المؤرخين:

"كان العجب يساور السواد الأعظم من بقاء القيود على الحريّات كالسابق بل ازداد بالنسبة لمعارضي الاتحاديين. كما كان سوء التطبيق مشهوداً في كلّ ارجاء الامبراطورية"[٤]

وفي الأوساط الدينية الإسلامية كانت هذه العبارة ومثيلاتها على كل شفة:

"ان كانت الشريعة الإسلامية حيّة فاعلة فأيّ فضل للدستور عليها وما هي الحاجة اليه؟"

التيار الديني المعارض كان يتطيّر من الحريّة المنشودة ويكرهها وبعض رجال الدين يجدها ضربة موجهة الى الإسلام كعقيدة. ومقصدهم المخفيّ القول بأنه ضربة على سلطتهم الروحيّة. ولم يبقوا ساكتين واجترأوا على الحكومة في خطب الجمعة ثم انتهزوا في بغداد يوم ١٧ رمضان ١٩٠٨ وهو يوم مقتل الإمام عليّ ابن أبي طالب. فأخرجوا تظاهرة كبيرة تصدّرها رجال دين وراح المشاركون فيها يضربون الصدور ويندبون موت الإسلام، وينادون بالويل والثبور للإهانة التي لحقت بالشريعة وانتشار الإلحاد والفجور.

كان الهدف الحقيقي منها معارضة الحكومة الجديدة.

وفي مدينة الموصل وقع عزل السلطان عبدالحميد خليفة رسول الله وقوع الصاعقة. وقد وصف أحد المقيمين الأجانب حالة المدينة بهذه العبارة:

"هذه المدينة هي من أشدّ مدن الامبراطورية العثمانية تعصباً، وهي بالتأكيد الأرض الوحيدة التي كان الرجال فيها يبكون في الشوارع عندما سمعوا بنبأ خلع الخليفة عبدالحميد الثاني ويندبونه بحرقة قلب، فبينما كانت البهجة تعمّ أرجاء الامبراطورية بسقوط الطاغية، أقيمت في الموصل مناحات تتحدى حكومة الاتحاديين، كنت تسمع من خلالها هذه العبارة الراثية: (اليوم هوى ركن من أركان الإسلام)"

لم يكن عبدالحميد قط بأسوء ممن خلعوه، لم يكن مثلما صوره لنا الإتحاديون وبعض الذين أصابتهم غائلته إصابة لاتزيد عن ركلةٍ خفيفة بالمقارنة بما اجترحه طغاة القرن العشرين

(٤) ويگرام Wigram: «مهد البشرية The Cradle of mankind: Life in Eastern Kurdistan» من ترجمتنا العربية، بغداد ١٩٧٠.

ودكتاتوريوهم. وقد أجمع المؤرخون بأن وجوده كان سيجنّب الامبراطورية العثمانية الحرب وويلاتها ومآسيها التي انتهت بتمزيق الامبراطورية، لكن الناس يظاهرون الثائرين والانقلابيين أملاً بحال أفضل وهذا عنصر المأساة في كلّ ثورة وانقلاب في الشرق.

وكذلك استقبل الأدباء والشعراء العرب الانقلاب بالبهجة[٥] في أوّل الأمر وعدّوا القائمين

(٥) هزّ الإنقلاب الشاعر المصري المعروف (حافظ إبراهيم ١٨٧٢-١٩٣٢) فنظم بالمناسبة قصيدة أشاد فيها بأبطال الإنقلاب وهم ثلاثي (شوكت وأنور ونيازي) جاء فيها:

ثلاثة آساد يجانبها الـردى وإن هي لاقاها الردى لاتجانبه
يصارعها صرفُ المنون فتلتقي مخالبُها فيـه وتنبو مخالبـــه
روتْ قول (بشار) فثارت واتسمت وقامت الى عبدالحميد تحاسبهُ
إذا الملك الجبار صعّر خـده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وهذا البيت الأخير تضمين من الشاعر الكبير بشار ابن برد (٧١٤-٧٨٤) لقصيدة شهيرة له يقول فيها:

إذا كنت في كل الأمـور معاتباً صـديقك لم تـلَق الذي لاتعاتبه
فعش واحداً أو صلْ أخاك فإنه مقارف ذنبـاً مـرة وتجانبه
إذا أنتَ لم تصبر مَراراً على القذى ضمئت وأي الناس تصفو مشاربه

في حين نجد زميله ومعاصره أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) يودع الخليفة السلطان المخلوع بأسى ورثاء وحنين الى عهده بقصيدة أذكر منها مطلعها هذا:

سل (ييلدزاً) ذات القصـور هـل جاءها نبأ البدور
لو تستطيـع إجـابـة لبّتكَ بالدموع الغزيـر

.....

عبدالحميد حساب مثـ ـلك في يد الغفـور
سدت الثلاثيـن الطوال ولسن بالحكم القصـير
دخلوا السرير عليـك يحتكمون في رب السرير
أنعم بهم من آسريـك وبالخليفة من أسـير

فما كان من وليّ الدين يكَن (١٨٧٣-١٩٢١) إلاّ أن يتصدى له بقصيدة معارضة وهو أديب تركي الأصل مستعرب وشاعر من الفحول وأول من عالج القصّة الطويلة وكتابة المذكرات الشخصية في الأدب العربي. شخصية رائعة مرهفة الحسّ تعشق الديمقراطية الغربية والحرية والدستور وتعرض لسخط (عبدالحميد) وملاحقة بوليسه في مصر، وتحدى الطبقة الأرستقراطية العليا التي انحدر منها بزواجه من ارمينية وتسمية ابنته باسم أوروپي (فكتوريا)! تحدّيا وتمرداً على وسطه الديني. ونشر المقالات التاريخية في شجب الاستبداد والطغاة. وأنا أذكر من القصيدة نصف مطلعها قوله يخاطب (شوقي):

وبكيت بالدمـع الغـزيـر لباعث الدمع الغـزير
ولواهب المـال الكثـيـر وناهب المـال الكثـير
إن كان قد أخنى علـى ربّ الخورنـق والسدير
فلتـأهلن من بعدهـا آلاف آلاف القـصـور

كان غاية ما تعرض له هذا الأديب حسب ما جاء في مذكراته المطبوعة (المعلوم والمجهول) أن كبس البوليس منزله ثم صدر الأمر بإبعاده الى أستنبول حيث اسندت اليه وظيفة هامة في وزارة المعارف، لكنه لم يكفّ ولم تهدأ له ثائرة. فعاد عبدالحميد لإصدار أمر بإبعاده الى (سيواس) بوظيفة أخرى مماثلة! =

به أبطالاً ورموزاً للحرية واستبشروا بما حدث، ثم مالبثوا أن انكفأوا على أعقابهم خائبين فيما أملوا وعادوا ينظرون الى نوع من إصلاح من عمل أنفسهم وعلى نطاق مجتمعهم الخاص، أي في النطاق الوطني أو القومي أو سمّه ما شئت.

ونشط الإتحاديون في مقاومة التيارين (الرجعي) الذي تمثلوه في رجال الدين وتيار أولئك الذين خاب ظنهم فيهم واستغلوا حرية التعبير للإعراب عن خيبتهم. وكان يقف في طليعة هؤلاء الصحافيون والأدباء الجدد وطلاب كلية الحقوق والطلاب المتخرجون في كليات استنبول[٦].

وفي مجلس النواب الذي دعي الى الإنعقاد في الأستانة تقدم النواب العراقيون باقتراح تعيين موظفين في البلدان الناطقة بالعربية، ممن يحسن لغة العرب وأحبط الاقتراح بطبيعة الحال، لأنه لايتفق وسياسة التتريك وأدرك هؤلاء وغيرهم إلاّ قلة شايعت الإتحاديين - بأن دعاة الحرية الترك لايقصدون غير حريتهم وإنها لاتشمل الشعوب الناطقة بالعربية.

والأنكى من كلّ هذا فإن هذه اللغة المحليّة بقيت تُدرس كالأولى كلغة أجنبية بمعلم تركي وباللغة التركية حتى في تلك المدارس الجديدة التي فتحها الاتحاديون في بغداد والبصرة والموصل على سبيل الدعاية والإعلان. لكن كان ثم مدارس الحوزات الدينية في المدن الشيعية وما تحويه من مكتبات غنية بالتراث الأدبي والعلمي العربي ومدارس البعثات الدينية المسيحية واليهودية في هذه المدن، وبفضلها جلبت المطابع العربية الحديثة الى جانب ما كان يتسرّب من سورية ومصر من الصحف والكتب والدواوين وهو قليلٌ لايحظى في الواقع بموضع

= ومن الطبيعي أن يبدو وكأن لا سبيل إلاّ الى المقارنة بما كان سيحصل له أو لغيره من الأدباء والكتاب في البلاد الناطقة بالعربية يتعرض بالنقد لواحدٍ من كثرةٍ من الطغاة والمستبدين الصغار والقوميين التقدميين منهم بصورة خاصة الذين تعاقبوا على حكم دول في العالم العربي.

(٦) عندما قررت وزارة المعارف العثمانية تدريس اللغة العربية في مدارس الولايات بعد ثلاث سنوات تقريباً من فشل اقتراح النواب العراقيين بتعيين موظفين فيها يحسنون اللغة، عينت لتدريسها معلمين أتراك! وفي العام ١٩١٣ أبلغ والي بغداد جميع الألوية والأقضية التابعة للولاية - بأن يكون التدريس في المعاهد العالية ودار المعلمين ومدرسة الحقوق والإعداديات باللغة العربية باستثناء بعض الدروس. ومما يذكر أن مدرسة الحقوق في بغداد تأسست في مطلع العام ١٩٠٨ واتخذت لطلابها القلائل غرفة دراسة في بناية المحاكم القديمة الكائنة في النهاية النهرية لشارع المتنبي. يذكر الأستاذ عباس العزاوي: «العراق بين احتلالين» ج٨، أن وزارة المعارف العثمانية عينت بعد إعلان العمل بالدستور (١٩٠٨) مديراً للمعارف في بغداد تركي يدعى (حسن رفيق بگ) وهو رجل أميّ جاهل وصفه الشاعر معروف الرصافي بهذه الأبيات:

معارف بغـداد قد جـاءها مديـرٌ من الطيش في مسـرحِ
حمـار ولكـنّه نـاطـق صـبيّ ولـكـنـه ملتـحِ
فيا أيها العلِم عنها ارتحـل ويا أيها الجهل فيـها انـسلحِ

حسن في مجتمع تجد غالبيته فيه ما يعارض الفكر الديني. لولا هذه العوامل لما استقبل عهد الاحتلال وما بعده أدباء وشعراء وصحافيين من أمثال الرصافي والزهاوي والشبيبي والازري والهنداوي وأنستاس الكرملي واحمد صالح شكر وعبداللطيف ثينان وإبراهيم حلمي العمري والشاوي والعزّاوي وغيرهم.

وعلى العموم ظلت النظرة الرسميّة والحضرية والاجنبية الى البدو العرب في الجنوب والغرب والشمال الغربي من البلاد مثلما كانت منذ الفتح العثماني وما قبله: مجموعة لايؤمن جانبها تحترف قطع الطريق على الحجاج والقوافل وتغير على الحواضر ما تيسّر لها لتسلب ما أمكن سلبه. امتزج عدد كبير من القبائل بمرور الزمن ببقايا السكان الاصليين واحترفوا الفلاحة واستقروا وبقوا جهلة أميين يعيشون كما عاش اجدادهم قبل أربعة عشر قرناً لاتعبأ بمصائرهم الإدارة العثمانية وتجرد حملات تأديبية عليهم كلما اعتصبوا وأبوا دفع الضرائب وفي هذا المجال كان يصيبهم الكثير من قسوة الولاة ووكلائهم وقادة حملاتهم. وكلّ ذلك كان يهون عليهم إلاّ ملاحقة دوائر التجنيد لتطويع أبنائهم في الجيش العثماني المستحدث منذ وضع (خط گلخانه) موضع تطبيق[٧] وغالبيتهم من الشيعة بعلمائهم وزعمائهم الروحيين توارثوا

(٧) يقضي قانون الجندية الجديد الصادر في ١٩٠٩ والذي الغى القانون القديم – على كل عثماني مسلماً كان أو غير مسلم أن يخدم في الجيش عند بلوغه الحادية والعشرين مدة ٣ سنوات خدمةً فعلية، وخمس سنوات احتياط، و٢٥ سنة رديفة (أي الاستجابة للدعوة عند الحاجة)! والخدمة في البحرية هي أيضاً كذلك باستثناء السنوات الخمس الأخيرة. في حين كان القانون القديم يقصر الخدمة الفعلية على خمس سنوات تعقبها سبع أخرى رديفة. لم يكن ثم فرق بين الاثنين في التطبيق العملي فالمجند لايسرح مطلقاً ويبقى في الخدمة رديفاً حتى يبلغ سن الشيخوخة ويشيب ويبيض شعر رأسه ولحيته أو يخر صريعاً في واحدة من ميادين القتال الكثيرة بعيداً عن مسقط رأسه، وأهل الميت لايبلغون عادة بوفاته، ولذلك تراهم حين يقع ابن لهم في مصيدة الجندية يعدونه ميتاً حال ارتدائه البزة وكثيراً ما أقيمت مجالس عزاء ومناحات صغيرة عند وداعه. وضاعف القانون الجديد البدل العسكري وهو بالأصل مبلغ كبير جداً للأغلبية الكادحة لايقوى على دفعه إلاّ ذوو اليسار، ولهذا يلجأ المجندون الى مختلف الحيل للتهرب إذ كان سبيل الهرب مسدوداً لاسيما بوجه سكان المدن والقصبات، فهؤلاء ولكثير من سكان الريف كان الأسلوب المفضل، وهو الأسلوب الذي جنى على أنسالهم فيما بعد – أن يراجعوا أقرب قنصلية إيرانية ليحصلوا لقاء رشوة بسيطة على وثيقة تشهد لهم بأنهم إيرانيون. فبعد حوالي قرن من الزمن زوّدت هذه العملية سلطات البعث الحاكمة بحجة رغم سخفها وجورها لترحيل عشرات الألوف من العراقيين العرب والكرد خلال سنوات (١٩٧١–١٩٨٤) الى إيران باعتبارهم من أصول إيرانية لا حق لهم بالجنسية العراقية وفق قانون الجنسية العراقي الصادر في ١٩٢٤ والآخر الجديد الذي نحا نحوه وقد وصف العراقي بالذي انحدر من أب وأم عثمانيين فحسب.
في ١٨٧٠ أسست في بغداد الأعدادية (الثانوية) العسكريّة وكان المتخرجون فيها بعد دراسة وتدريب أمده ٣ سنوات، يرسلون الى المدرسة الحربية في الاستانة ليكونوا ضباطاً. وكان الاقبال عليها قليلاً. فالطبقة العليا في المجتمع العراقي لم تكن تجد لأبنائها فيها حظاً للترقي ولذلك كان أصل الضباط العراقيين =

الكره الشديد للحكومة السنية الباطشة الناهبة، وهم من جهة أخرى مازالوا تحت تأثير ذلك الصراع العقائدي الذي هيمن على حياة مجتهديهم وعلمائهم في العراق وإيران طوال القرن التاسع. وأقصُد به النزاع بين من عرف بالأصوليين ومن عرف بالإخباريين[*] وقد ظهر مجدداً بوجهه السياسي بإعلان المشروطية في كلّ من إيران في (١٩٠٧) وفي البلاد العثمانية في (١٩٠٨). على أية حال لم يبدل الانقلاب العثماني من مواقفهم ولم يحملهم على إعادة النظر فيها أزاء الحكم: المقاطعة الصامتة لكل ما هو حكومي بقدر الإمكان والامتثال الحاقد المتمرد عند وجود القوة الكافية لحملهم عليه. إلاّ ان الحال طرء عليه تبدل جوهري عند نزول الحملة البريطانية على شواطيء ولاية البصرة. فهؤلاء الغزاة الجدد هم كفرة، والعثمانيون هم مسلمون على أية حال. كان من الطبيعي والحالة هذه ان تدفن الخلافات التاريخية – العقائدية ولو بصورة مؤقتة. وبقوة من فتاوى المجتهدين والعلماء أمكن تجريد ألوف عديدة من رجال العشائر رأيناهم مع الفرسان الكرد القادمين من السليمانية وشهروزر يشاركون الجنود النظاميين في اوّل وآخر معركة لهم. وهي معركة الشعيبة سيئة الصيت التي ابتدأت في ١٢ نيسان ١٩١٥ وانتهت بهزيمةٍ كاملة للقوات النظامية – العشائرية العثمانية وانتحار قائدها.

بعد أن ذاقت العشائر طعم الخسائر التي أوقعتها بهم أسلحة حديثة مدمرة لا عهد لهم بمثلها، لم تعاود الكرّة وتركت الخصمين يصطرعان ووقفت موقف المتفرج المنتظر ما سيسفر عنه الصراع.

وكتمت الأقلية المسيحية واليهودية مشاعرها المغرقة في الخيال حول المعاملة الممتازة التي ستحظى بها من الفاتح الجديد. وكيف لا؟ فهذه البعثات التبشيرية والدينية الأوروبية سهلت لأبنائهم سبل التعليم ولقنتهم لغات أجنبية الى جانب علوم أخرى وبيوتهم التجارية اعتمدت على أبنائهم في معاملاتهم، ثم ألم تتدخل القوى الأوروبية عسكرياً ودبلوماسياً من أجلهم في خلال القرون الثلاثة المنصرمة؟ أليس هذا دليلاً على اهتمام أوروبا المسيحية بمصائرهم في دولة متعددة القوميات والطوائف. ان القادمين الجدد هم بالتأكيد ليسوا كالفاتحين السابقين

= المحترفين الذين تخرجوا من طبقة كادحة أو دون المتوسط عامة أو من أسرة امتهنت الجندية أجيالاً. ويذكر كدليلٍ على قلة الإقبال أنه تخرج في هذه الأعدادية ١٣ طالباً فقط في العام ١٨٨١، ولم يزد هذا العدد إلاّ واحداً بعد مرور عشر سنوات (في ١٨٩٠) ومن تخرج أول دفعة أرسل الى الاستانة. إن المؤلف ما يزال يذكر القصة المروعة التي رواها له الوالد عن كيفية تخلصه من الخدمة وقت الحرب بحيلة كادت تكلفه حياته. ويذكر كذلك ابن عمٍ له ضابطاً برتبة نقيب (يوزباشي) خرّ صريعاً في ميدان قتال سورية (على الأغلب) ولم يعلم الأهل بفقده إلاّ بعد سنين.
(*) أنظر ذيل (١) في آخر هذا الفصل.

المسلمين الذين لم يترددوا في ذبح بعضهم بعضاً وإن كانوا لهم اخوة في الدين.

إن السأم من القتال الذي أقبلت عليه العشائر في مبدأ الحرب ثم بعدها عن المشاركة فيه، مالبث أن انقلب الى نوع من التعاون والتقارب مع الفاتح الجديد إثر الانتصارات السريعة المتلاحقة وانهيار المقاومة التركية. بل وأكثر من هذا فقد تبينت العشائر والريف وسكان الجنوب الفرق العظيم في التعامل مع السيد الجديد الذي كان يفرّق المال بسخاء بدل جباية الضرائب. ويبتاع أرزاقه ومؤنه دون مساومة نقداً بدل مصادرتها والاستيلاء عليها عنوةً. لذلك لم يتردد رجال العشائر كثيراً في الإقبال على التطوع في التشكيلات شبه العسكرية التي أقامها المحتل حال احتلاله (الناصرية) وفيما بعد، وقد عرفت باسم (الشبّانة) وكانت نواة قوات (الليڤي) التي اقتصرت على الآشوريين والكرد فيما بعد.

★★★

سبع سنوات تصرّمت على وعد الاتحاديين بالحرية والمساواة وتحسين الأوضاع دون أن يتبدل شيء هنا. وإنما زادت الاحوال سوءً. وظهر جلياً فشل الـ(جون ترك) التام في مجهوداتهم الرامية الى إعادة تجديد حياة البلاد. كانت العوائق صعبة الاقتحام. والحكام الجدد فضلاً عن تعصبهم القومي يفتقرون الى الخبرة والتجربة في سياسة تطويع هذا الخليط المجنون من المصالح والمعاملات الذي اصطلح عليه باسم (الحكومة العثمانية). والمصيبة هي أن حياة هذا الخليط المجنون وجب أن تبقى وتستمر والوحيدون القادرون على هذا، هم عصابات من الموظفين الفاسدين العفنين الذين كان طردهم وتنظيف دوائر الدولة منهم اول مهمّة لأيّ حكومة صالحة. لكن كان يوجد في العراق أيضاً صنف من البشر، غير أولئك الذين تعودوا الطاعة العمياء والرضا دون سخط بكل صنف من الظلم واعتباره من قبيل القضاء المحتوم والقدر – هؤلاء هم أقليّة ضئيلة لكنها جهيرة الصوت لايمكن اسكاتها. إنهم صنف من البشر لايسعهم العمل مع الحكومة أو مع بعضهم بعضاً. ومن هؤلاء خرج المعارضون السياسيّون لها وللفاتح الجديد ولكيانه السياسي الجديد فيما بعد.

كان يوجد أيضاً علماء الشيعة ووراءهم كل من يستطيعون التأثير عليه من المسلمين وقد شدّهم تعصبهم لمذهبهم برباط البغض ذي الحدين: بغض الحكومة، وبغض السنيّة. وهناك أيضاً زعماء الطوائف المسيحية الذين يفسرون مصطلح (ملّة)[٨] الغامض تفسيراً يبتعث الألم

(٨) تجد شرح المقصود بهذا التعبير في الكتاب الثاني.

الشديد ويضجون بطلب الإصلاح حيثما وجدوا لهم متنفساً أو سامعاً. وهناك عددٌ من الناس لايمكن تقديره، يفضلون بقاء المياه عكرة موحلة لأنهم خير من يصطاد فيها.

أخيراً هناك من أعضاء وزعماء الـ(جون ترك) من هم في أفضل الحالات أتراك نظريون يطمحون الى عثمنة كلّ شخص بصرف النظر عن دينه ومذهبه وقوميته غير مدركين كيف ظلّ هذان العنصران التوأمان – الدين والقومية يسيران كتفاً لكتفٍ في هذه الأرض التي يحكمونها؟

وبصورة عامة بقي الجمهور العراقي بدويّهُ وحضريّه يتفرجون على صراع القوتين الأجنبيتين وقد فقدوا كل حماسة للمشاركة بل لم تحركهم النكسة العظيمة التي حلت بالبريطانيين في الكوت ولا شاركوا في الإحتفال بدخول الجيش الظافر بغداد دار الخلافة.

أرسلت هزيمة الكوت في جسم الحكومة البريطانية والرأي العام الإنكليزي تياراً كهربائياً صاعقاً وألجأها الى عمليّة تطهير واسعة النطاق في بناء الحملة تناولت مما تناولت أعلى مقام فيها، فسلمت القيادة لأمير اللواء (ستانلي مود) بأمر صادر من وزير الهند الجديد، ونائب جديد للملك في الهند.

ودخل الجنرال مود بغداد بعد قتال حذر طبقت فيه الأصول الحربية المدرسية من دون مغامرة أو مجازفة. كان ذلك في آذار أي قبل دخول البريطانيين (أورشليم القدس ودمشق).

ومع أنه لم يكن واضحاً قطّ الهدف من الحملة على بغداد، وما هو الغرض الذي تتوخاه منها الستراتيجية العامة للحرب، فإن احتلال العاصمة العتيقة المؤثلة باقترانها بقصص ألف ليلة وليلة، وعصر (الرشيد) الذي بولغ كثيراً في وصفه، استهوى خيال (لويد جورج) كما نال ما يستحقه من هتاف وتصفيق في مجلس العموم، وهو ما كان في أمسّ الحاجة إليه وقتذاك. فأوحى اليه كما جاء في مذكراته بفكرة الإلحاح على الجنرال (أللنبي) ليستعجل في احتلال (أورشليم) بتحقيق نصر بريطاني ثانٍ مماثل[٩].

النصر العسكري في بلاد الرافدين أثار مسألة دقيقة.

ماذا سيكون من أمر هذه الأقاليم المحتلة؟

(٩) تاريخياً كانت بغداد (مع اورشليم وروما) واحدة من ثلاث مدن كبيرة مقراً لكرسي الحاخام الأكبر (الكاوون) في بلاد المنفى (دياسپورا) قبل ألف وخمسمائة عام وكذلك كانت كرسياً لبطريرك كنيسة الشرق النسطورية التي تضم كل مسيحيي الشرق غير التابعين لكنيسة روما والپاپا. قبل تحول فريق منهم الى الكثلكة.

كانت حكومةُ الهند تنوي إلحاق ولايتي بغداد والبصرة بإدارتها المباشرة عندما يتمّ سلخهما عن جسم الإمبراطورية. أما (سايكس) ومن ورائه المكتب العربي، فقد مالا الى أن تدار بما يعتبرونه هم أنفسهم شيئاً مكروهاً. إذ كتب (سايكس) مذكرة في ١٩١٦ أنذر فيها لندن بقوله:

"إن أنيط العمل بالهند فسيؤدي هذا بكم الى أن تنظروا الى كلّ التراث القديم على قاعدة الأبيض والأسود. ليس في إمكانكم أن تسوموا العرب على قاعدة الأبيض والأسود"

وقام (سر پرسي كوكس) رئيس الدائرة السياسية الملحقة بالحملة وكبير الضباط السياسيين، بصياغة بيان للأهلين، حدّد قائمة فيه ضمن إطار الدعوة الى التعاون مع الإدارة البريطانية – الهندية المؤقتة. وطلب الإذن من لندن بإذاعته. إلاّ أن لندن لم توافق عليه وكتبت مسوّدات عديدة هناك، وبعد نقاش مستفيض وأخذ وردّ رست وزارة الحرب على النصّ الذي صاغه (سايكس) أساساً لصياغة أخيرة تم الاتفاق عليها فيما بعد وهو البيان الذي تلاه (ستانلي مود) إثر دخوله بغداد[١٠].

دعا البيان "الزعماء العرب" (لم يكن واضحاً من هم المدعوون بالذات) الى المشاركة في الحكومة بالتعاون مع السلطات البريطانية. وتضمّن عباراتٍ طنانة منمقةً حول الحرية والانعتاق. مستذكراً المجد الغابر والرقي والعظمة التي ستبلغها البلاد في المستقبل، كما عبّر عن الأمل في أن تجد "الأمة العربية" سبيلها الى الوحدة من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، مشيراً ولو ببعض غموض الى كونفدرالية عربيّة شرق أوسطية تحت زعامة الملك حسين!

وما أدري إنْ كان (سايكس) يدري بأن معظم سكان ولايتي بغداد والبصرة هم شيعة؟ لم يقرأه (الجنرال مود) إلاّ بعد اعتراضه عليه. فقد رأى وبوصفه عسكرياً، من الضروري أن تقام إدارة بريطانية صرفة لضمان سيادة الأمن أثناء القتال الذي كان يدور شمال بغداد وفي كردستان. كما رأى، فضلا عن هذا، أن عرض قدر من الحكم المحليّ لعرب بغداد، لم يضع في الحساب واقعاً لا سبيل الى إنكاره – وهو أن الأغلبية الساحقة من سكان بغداد ليسوا عرباً ولايمتون الى أصول عربيّة وإنما هم خليط مترسب من قوميات مختلفة. لكن نصّ (سايكس)

(١٠) بريتون كوپر بوش Briton Cooper Busch: «بريطانيا والهند والعرب Britain, India and the Arabs» ١٤١٤–١٩٢١ مطبعة جامعة كاليفورنيا، ص١٢١.

فُرض على الجنرال مود وسر پرسي كوكس فرضاً ليسبب فيما بعد كثيراً من المشاكل والمتاعب والإضطراب. انه ذلك البيان الذي ابتدأ بالقول "جئناكم محررين لا فاتحين" وهو معروف ولا حاجة بنا لإثباته هنا.

بعد خمسة أيام من احتلال بغداد، شكلت وزارة الحرب لجنة لإدارة بلاد الرافدين برئاسة اللورد (كرزن)، وكان من مهمّاتها تقرير شكل الحكم الذي سيقام في الأرض المفتوحة. مبدئياً قررت اللجنة أن توضع ولاية البصرة تحت إدارة بريطانية صرفة لا إدارة هندية – بريطانية. وأن تكون ولاية بغداد وحدة سياسية عربيّة بحد ذاتها أو أن تلحق بأي وحدة أخرى وتوضع تحت الحماية البريطانية. كما قررت وجوب سحب الموظفين التابعين لحكومة الهند منها.

فأبرق (الجنرال مود) لرؤسائه:

"الأوضاع المحلية الراهنة لاتسمح باستخدام أحدٍ في مناصب ذات مسؤولية غير الضباط البريطانيين الكفوئين القادرين على التعامل مع السلطة العسكرية ومع الأهلين. وقبل أن يباشر في تطبيق عملية إنشاء واجهة إدارية عربية صميمة في البلاد، يبدو لي من الضروري أن يُبنى أساسٌ للنظام والقانون بشكل حقيقي وصحيح"[١١]

وأثار (سر پرسي كوكس) هذه المسألة بالذات بشكل آخر عندما سئل عمن سيكون زعيم عرب بغداد، فاقترح تعيين ضباط سياسيين يجمعون الصفتين – العسكرية والمدنية، مسخفاً السؤال بإهمال الجواب عنه.

من الواضح انه كان يرى: إمّا أن لندن لم تحرز القدر الكافي من المعلومات عن حقيقة الوضع السكاني. أو أنها لاتولي أي اهتمام بهذا الخليط الأهلي العجيب في الولايات الثلاث – ولاتقيم وزناً لتلك الكراهية المتوارثة بين الأقلية السنية والأكثرية الشيعية ولا بتلك المنافسة المسعورة القبائلية وتقاليدها في الخروج عن طاعة كل الحكومات ورفض الانصياع لأوامرها. ولا بالتقسيم التاريخي – الجغرافي – الإثني، بين الناطقين بالعربية وبين كُرد الجبال والمرتفعات في ولاية الموصل، ولا بالسيادة المالية والتجارية التي يمارسها اليهود والمسيحيون، وهي سيادة مقرّ بها تعود الى عدة قرون مضت.

وأثار (كوكس) أيضاً مسائل أخرى ذات صبغة عمليّة آنية لم تفكر فيها حكومته. فالعمّال الهنود غير المقاتلين الذين رافقوا الحملة واستخدموا في أعمال مدنيّة صرفة أثناء الحرب، إن

(١١) المرجع السالف: الص١٢٢–١٢٥.

سُحبوا فمن هم أولئك الذين سيحلون محلهم؟ ثمّ أن النظام القضائي كان مرجعه الأعلى محكمة التمييز (المحكمة العليا) في الاستانة في حين أن النظام القضائي الهندي يمنح صلاحية مماثلة للجنرال مود. فماذا سيكون من أمر القضاء وصلاحيات (الجنرال مود) نفسه إن قطعت الصلة بالهند؟

وقفت لجنة اللورد كرزن حائرة أمام هذه المسائل ولم يكن لديها حلول شافية، والحرب مازالت قائمة والجيوش البريطانية تطارد الأتراك شمال بغداد. وأزاء هذا اضطرت اللجنة الى الأخذ برأي (كوكس) وقبول العمل بالإدارة الهندية.

وهذا الجنرال (مود) الذي وضعه بيان (سايكس) فوق منبر خطيب يوم الجمعة، يعد بالحياة الأخرى السعيدة وبالعزة والكرامة في ظل حكم وطني أو محليّ، مالبث القرار الأخير أن جعل من خطبته هذه رماداً تذروه الرياح. ووجب عليه أن يستقر على خطة ثابتة خشية أن تؤدي هذه الترقيعات الى اضطراب ثم نفرةٍ بعد أن تطوّع لقول ما بدا شبيهاً بوعد في استقلال منطقة لم يدر في خلد أهلها أن يطلبوه، وفي الوقت الذي شرعت السلطات العسكرية والمدنية المحتلة تعمل بخلافه وتعدل عن البرّ به!

هاتان الولايتان اوّل أقليمين عثمانيين يحتلهما البريطانيون أثناء الحرب وها هو (الوايت هول) يبدي عجزاً في التفكير بتفاصيل عمليّة لتحقيق وعدٍ أعطي جزافاً وبسخاء لجزءٍ من مواطني تلك الامبراطورية. كان موقفاً منذراً بسوء العاقبة بالنسبة أيضاً لتلك البلاد التي سيتم احتلالها وهي ولاية الموصل وولايات حلب ودمشق وبيروت وغيرها.

تبنى (سايكس) ورهطه سياسات أوسطية دون اعتبار مسبّق لإمكان تطبيقها بنجاح على ضوء الوضع السائد. ترى كم أثّر هذا على تاريخ البلاد الناطقة بالعربية السياسي أو على الإرهاصات القومية والحركات المنبثقة عنها؟ هذا ما سيكون مدار اهتمامي في الفصول التالية.

والعقدة الآنية التي مالبثت أن انكشفت، هي أن الضباط السياسيين لم يكونوا قادرين على تطبيق عملية (الواجهة الحاكمة المحليّة) ولو ملكوا المقدرة بتوفير الموظفين المسؤولين من المواطنين، فسيبقى السؤال هل أنهم سيسمحون بتطبيقها؟ من غير جواب.

وهكذا لم تتقدم سياسة الوعد بالتحرر القومي، خطوةً واحدة وبقيت ضمن الحدود القوليّة، وكثيراً ما عبّر (كوكس) عن اشمئزازه من الحالة. ولم ينقذه إلاّ اضطرار لندن الى تعيينه وزيراً مفوضاً لإيران بصورة موقتة واستنابة العقيد (ارنولد ويلسن) خلفاً و(ويلسن) ضابط من

المرتبات الهندية يفكر بالعقلية البريطانية الامبراطورية السيّدة، لم يكن يؤمن باستقلالٍ للبلاد التي يدير أمرها، ولا بدور (الشريف) البعيد عن شؤون العراق. وكان (كوكس) قد خلّف له سكرتيرته الشرقية الشهيرة (مس گرترود بل).

كتبت هذه الخبيرة الخطيرة لصديق قديم لها هو (چارلس هارونگ) نائب السكرتير الدائم لوزارة الخارجية ضمن رسالة في شباط:

"تمّ تحقيق قفزات عجيبة نحو إقامة حكومة منتظمة... ليس عندنا عائق مهم وكلّ ما زادت قدرتنا على تحكيم قبضتنا، كلما زاد ذلك من رضى الاهلين وسرورهم، فما يخشونه هو أنصاف الحلول. وليس في بغداد أو في البصرة من يفكر في حكومة عربية مستقلة"(١٢)

ذلك صدى ناشز بعيد التصريح الذي كتبه (سايكس) وتلاه (مود). والمسكين (سايكس) الطيب الحسن النية كان في الوقت نفسه يرى بعين كسيرة وألم دفين تحول السياسة البريطانية عن موقفها أزاء (الشريف) الذي تمسك به وبقى على ولائه له. وكان موقف أمير مكة الذي أعلن نفسه ملكاً للحجاز، يتردّى عسكرياً أمام خصمه (إبن سعود) الذي كان يحظى بدعم حكومة الهند الكامل. وجد (سايكس) لدهشته البالغة عند زيارته الحجاز في ربيع ١٩١٧ (الملك الشريف) وخلافاً لما اعتاده منه، كثير التنازل مستعداً للتفاهم والرضا بالتعاون مع بريطانيا في بلاد الرافدين، بل حتى مع الفرنسيين في سورية. وأضاف الى هذا شرطاً:

"لكننا نطلب من بريطانيا العظمى أن تساعدنا!"(١٣)

★★★

في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من صباح الأحد الموافق لـ ٢٧ من تشرين الأول استسلمت الحكومة العثمانية وصعد الوفد التركي برئاسة (رؤوف بگ) وزير البحرية درج البارجة الحربية (آغا ممنون) الراسية في ميناء مودروس في جزيرة لمنوس اليونانية ببحر إيجه. فقدم له الأميرال (كالثورب) شروط الهدنة ببنودها الأربعة والعشرين. لم يكن ثم بدّ من قبولها، ووقعت في اليوم عينه.

(١٢) ونستن Winston: «كرترود بل Gertrude Bell» لندن ١٩٧٨، ص٢٠٢ وأيضاً (بريتون بونش) المرجع السالف ص١٢٦.

(١٣) أوراق سايكس: (المرجع السالف). D. R. 588-52.

لم تكن هدنةً في الواقع بل استسلاماً مطلقاً يسمح للحلفاء باحتلال النقاط الستراتيجية في الامبراطورية وقتما تشعر القوات الحليفة بتهديد، أعطى حرية احتلال أية بقعة يريدونها. بقوة هذا الشرط تمّ احتلال كلّ ولاية الموصل التي لم تكن عاصمتها قد وقعت بأيدي البريطانيين عند التوقيع على شروط الهدنة.

إدعى (رؤوف بگ) وأعضاء وفده عند عودتهم الى أستنبول بأن شروط الهدنة هي أخف بكثير مما كان متوقعاً. وبتفسير من هذا، أو بالأحرى بكذبتهم الكبيرة، زرعوا بذور الخيبة والنقمة بكل الآثار التي نجمت فيما بعد[١٤].

إن واحداً من الأسباب التي حدت (بلويد جورج) الى العمل السريع بالنسبة الى الأقاليم التركية المستولى عليها، ومن ثم تسوية كلّ قضاياها هو خشيته من دخول الولايات المتحدة الميدان. هناك فقرة في يوميات (موريس هانكي) سكرتير مجلس الحرب الوزاري الأعلى مؤرخة في ٦ من تشرين الأوّل تثبت قولاً يدور حول ما كان رئيس الوزراء يفكر فيه أثناء تلك الفترة وهو قول فيه من الصراحة ما هو خارق للعادة:

"إتخذ (لويد جورج) موقفاً في غاية الصلابة، واعتزم العودة الى اتفاق (سايكس بيكو سازانوف) ليأخذ لنا فلسطين ويضمّ ولاية الموصل الى منطقتنا، بل مضى حتى الى إبعاد فرنسا عن سورية، بأن يحتال على الولايات المتحدة بتقديم سورية وفلسطين لها وبذلك يجعل الفرنسيين أكثر استعداداً لمنحنا الموصل وفلسطين وليكون لهم عذرهم في احتفاظهم بسورية... كذلك كان كثير الاستخفاف بالرئيس (ويلسون)، كثير الاهتمام بقضية تجزئة تركيا خصيصاً بين فرنسا وإيطاليا قبل التحدث الى الولايات المتحدة. وكان يفكر كذلك بأن ازدياد حصتنا من تركيا حالياً، وحيازة سهمنا من المستعمرات الألمانية فيما بعد سيكون اقلّ مدعاة للتساؤل وملاحظة أرباحنا الهائلة من الحرب"[١٥]

بعد شهر واحدٍ من إعلان الهدنة مع ألمانيا وقبل شهرين من انعقاد مؤتمر (ڤرساي) عقد في ١ من كانون الأول ١٩١٨ اجتماع بين (كليمانصو) و(لويد جورج) في مقرّه بـ(داوننگ ستريت). كان ذلك استباقاً لوصول الرئيس الأمريكي لندن في أواخر ذلك الشهر لبسط آرائه

(١٤) في الثاني من تشرين الأول هرب ثلاثي الحكم (طلعت وأنور وجمال) الى ألمانيا مع الخبراء والعسكريين الألمان. وطلب الرئيس التركي الجديد تسليمهم إلاّ أن المانيا كانت قد عمتها الفوضى واختفى الهاربون.

(١٥) ستيڤن روسكيل هانكي S. Roskill Hankey: «رجال الأسرار Men of Secrets» ج١ ص٦٠٩. لندن ١٩٧٠-١٩٧٢.

المثالية حول المستقبل.

جلسا وحدهما دون ثالث، ولم يدوّن أيّ منهما ملاحظات. لكن وبعد مرور ثمانية أشهر، رفع اللورد (بلفور) تفاصيل وقائع اللقاء كتابةً الى مجلس الوزراء. وكان قد استمدها من لويد جورج نفسه وأيّدها هذا في مذكراته – القسم الخاصّ بمعاهدات السلام: وهذه هي الفقرة الخاصة بولاية الموصل:

"برز موضوع الشرق الأوسط في أثناء الحديث الذي بدء بالمسائل الأوروپية فسأل (كليمانصو) أي تعديل لمطالب فرنسا ترغب بريطانيا فيه؟ أجاب لويد جورج: الموصل. فقال كليمانصو: ستكون لك. أهناك شيء آخر؟ قال لويد جورج: فلسطين. فعاد كليمانصو يقول: ستكون لك أيضاً"[١٦]

في الأيام الثملة الأولى لدعاة القومية العربية في دمشق[١٧] بات واضحاً أن القوميين السوريين ربما كانوا في أثناء الحرب وبعدها يحاولون وصل ما انقطع من نشاطهم في الحقل السوريّ. وهذا عراقي معاصر يقرّ بذلك. يقول (توفيق السويدي) أحد رؤساء الحكومات العراقية في العهد الملكي وربما اتفق كلّ رجال الحكم المتعاقبين في العهدين معه:

"كان اهتمام الشباب السوريّ في العام ١٩١٢ (منصرفاً) الى ضرورة اعتبار المؤتمر المنوي عقده في پاريس للنظر في شؤون العرب القاطنين في الامبراطورية العثمانية، نظراً لأن السوريين فقط هم القائمون بالفكرة القوميّة. ولم يتقدم لمساعدتهم أحدٌ من العرب. وقد كان لإنصراف الشباب السوري هذا كلّ المبررات لأن موقف العراق والحجاز واليمن من القضية العربية عدا كونه غير مفيد لها فإنه كان في بعض الأحيان مناهضاً لها ومضراً بها كثيراً. فالقسم الأكبر من الحجازيين وخصوصاً أهل المدن يدّعي بانه لايمتّ الى العروبة بأية صلة وإن هو تكلم بلغتها وتثقف بثقافتها لأنه يدعي بأنه أتى من بلاد غير عربية. وإن أنسى فلا أنسى احتجاج الشريف حسين أمير مكة حينئذ على ما قام به المؤتمر العربيّ الأوّل من أعمال اعتبرها خدمة أجنبية (يقصد للاجانب) وخيانة للوطن العثماني. وكنت أحتفظ بنسخةٍ من جريدة (إقدام) التركية التي نشرت برقيته الموجهة الى الصدر

(١٦) اقتبستها اليزابيت مونرو Elizabeth Monroe في كتابها الموسوم: «المرحلة البريطانية في الشرق الأوسط British Moment in the Middle East 1914-1971» مطبعة جامعة جون هوبكنز ١٩٨١.

(١٧) هوارد م. ساكر Howord M. Sacher: «تاريخ إسرائيل منذ قيام الصهيونية حتى يومنا هذا» نيويورك ١٩٧٩ ص١٢٣.

الأعظم متضمنة هذا الاحتجاج. وكذلك لا أنسى في جلسة مجلس المبعوثان سنة ١٩١١، حصلت مناقشة كبيرة قال فيها نواب بغداد أن العراق غير عربي بما فيه بغداد، ومما يذكر هنا أن عضو المجلس (جميل صدقي الزهاوي) وهو كردي كان ضدّهم. وفي المؤتمر العربي الاوّل المنعقد بپاريس في (العام) ١٩١٣ كان العرب المسيحيون أعلى الأصوات في (طلب) الإستقلال والإنفصال عن العثمانيين".

وعلى هذه الوتيرة فمختلف ضروب النشاط القومي العربي للعراقيين كان ضمن إطار الضباط القادمين من ولاياتها الثلاث والمنضوين الى جمعيات ماكان يخطر ببالها المطالبة بالإستقلال أو الوحدة السياسية على أساس قومي، لأنهم يعرفون على الأقل أن التركيبة العرقية الجغرافية – التاريخية في وادي الرافدين ماكانت تجعل مطلبهم ذا طابع جدي. وفي دمشق عندما دخلها فيصل وقواته كان هؤلاء الضباط وهم أغلبية يمارسون عملهم ووظائفهم باسم فيصل وأخويه. أغلبية نشأت في أحضان الجون ترك وتشبعت بآرائهم حول القومية، حتى بعد أن تحول ولاؤهم عن العرش العثماني والى نهاية الحرب. وبينهم فدائيون ومحترفون، وخصوم لبريطانيا ألدّاء، لايتوقع منهم إلاّ أن يكونوا خطراً جدياً كمّاً وكيفاً على الخطط البريطانية يزيد كثيراً عن خطر ساسة دمشق وخطبائها وساسة القدس وخطبائها.

إلاّ أنّ الإدارة البريطانية الأولى بمرتباتها في أرض الرافدين لم تَرَ الأمر بهذا الشكل. فالتوتر القائم بين السكان ذوي الأصول المختلفة والإنتماءات الدينية المتنافرة، بدا لها كفيلاً بإثارة أعظم المشاكل. هناك القبائل الكردستانية في الشمال، والقبائل الشيعية في الجنوب خطرها كان متأتياً من فوضى العهد العثماني المتوارثة والاحتراب بين الطوائف الخفي إن لم يكن غياب قومية متجانسة موحدة كان بمثابة تحدٍ للسلطة البريطانية. كانت أوّلاً تجد في الحديث عن حكم ذاتي واستقلال قومي لغطاً أجوف مصدره الدساسون الطموحون لأمر آخر وذوو الشبهات الذين يغيّبهم ظلام النسيان والخمول وقت أن تتوقف قيادات الحلفاء عن استخدام نقاط ويلسن الأربع عشرة كمادةٍ للدعاية.

بغياب (كوكس) اختلفت وجهات نظر خلفه، ووجهات نظر مساعدته (مس گرترود بل) حول مستقبل بلاد الرافدين، فهذه كانت تميل الى أن تضع ولايتي بغداد والبصرة تحت الحماية البريطانية فحسب، بينما كان (أرنولد ولسن) يميل الى الحكم المباشر. لكن كان في العام ١٩١٨ فسحة كافية من الأرض يقفان فيها معاً ويتفقان فوقها. وكتبت مذكرة صادق هو عليها. تقول فيها:

"ان الحديث عن تقرير المصير قبل انعقاد مؤتمر الصلح وفي إثباته هو أمر غير مرغوب فيه"

وكانت قبلاً قد كتبت:

"الأهلون في ميسوپوتاميا، بعد أن رأوا نهاية الحرب الناجحة، باتت فكرة بقاء بلادهم تحت السيطرة البريطانية من قبيل المسلّمات وهم بصورة عامة مغتبطون سعداء بقبول قرار انفصال بلادهم بقوة السلاح. وان التصريحات المؤيدة لحقّ تقرير المصير القوميّ في مؤتمر الصلح الصادرة من (ودرو ويلسن) وغيره، تفسح المجال الى إحتمالات أخرى ينظر إليها إجمالاً بما يكاد يكون نظرة قلق وتوجّس. ولا تأثير لها يزيد عن كونها تفسح المجال لدسائس سياسيّة تُقدم عليها عناصر متلونة ومتعصبّة"(١٨)

بالأخير، لما تبنت الحكومة البريطانية الخطّ الذي رسمه مبدأ الرئيس الأمريكي أو تأثرت به على أقل تقدير، أشارت على وكيل الحاكم المدني العام في ميسوپوتاميا، باستفتاء الأهلين في أي شكل من نظام حكم يريدونه. أو أي دولة يرغبون في إقامتها. فأسرع (ويلسن) يجيب جواباً قاطعاً:

"ما من سبيل للتأكد من الرأي العام هنا"(١٩)

في الوقت الذي كان مستعداً لتنظيم إداري في ولايتي بغداد والبصرة ثم ولاية الموصل فيما بعد عندما اعتزم البريطانيون حرمان تركيا منها، لم يكن يعتقد في قرارة نفسه انه يمكن عمل وحدة سياسيّة منسجمة من هذه الولايات باسم العراق، وهو الاسم الذي اختاره لها البريطانيون، فقد بدا له أن هذه القطع مفككة بدرجة لايمكن أن يطلق عليها هذا الاسم.

والمركز الستراتيجي الهامّ لولاية الموصل جعل إضافتها الى العراق ضرورة والإحتمال القوي بوجود منابع نفط غنية في جوفها جعلها ثمينة، لكنها كانت مما دُبر أو افترض أن يؤلف جزء من دولة كردستان. وجادل (ارنولد ولسن) في أن نصف المليون من الكرد الأشداء المقاتلين الذين أدخلوا في إدارته لن يقبلوا قط بحكم عربي(٢٠) ورأت عين (ولسن) معضلة أخرى

(١٨) المرجع السالف.
(١٩) المرجع عينه.
(٢٠) ايلي خضوري Eli Khadouri: «انكلترا والشرق الأوسط: القضاء على الإمبراطورية العثمانية England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire 1914-1921» ص١٩١.

أساسية وهي رفض حوالي مليوني شيعيّ في البلاد، سيطرة أقلية سنيّة في الوقت الذي ماتصوروا تشكيل حكومةٍ ما إلاّ بأكثرية سنيّة. وبدأ الاضطغان بين الطائفتين بأجلى مظاهره عند بدء الدعوة القومية. فقد أسس كلّ منهما جمعية قومية عربية ناهضت إحداهما الأخرى[٢١].

ورأى (ولسن) ضرورة لإدخال الطائفة اليهودية الكبيرة التي تسيطر على الحياة التجارية في الولايتين تقريباً، ولاسيما في بغداد. وكذلك الطائفة الكلدآشورية الكاثوليكية والنسطورية والارثوذكسية. ولاسيما الآشوريون النازحون إليها من تركيا حكاري.

وصف (ودرو ويلسن) الـ٧٥٪ بالمائة من سكان وادي الرافدين وشرقه وغربه أثناء وجوده في لندن بـ:

"العشائريين الذين لم يُعرفوا بأيّ تراث سابق في إطاعة أية حكومة"

وتعكس (مس بل) عين المسألة أيضاً في رسالة لوالدها فتكتب:

"الوجهاء المحليون البارزون يعارضون في استحداث اي حكومة عربيّة ويقولون انهم لايريدون أن ينجوا من طاغية ليقعوا في قبضة طاغية آخر"[٢٢]

فخلافاً لاولئك النفر من العسكريين القادمين من سورية، وهم قوميون جدد انحصر مجال تفكيرهم في وحدة سياسية. كانت الفئة الغالبة في البلاد تشك في إمكان توحيد هذه الولايات الثلاث. وتتساءل دوماً هل سيكتب لهذه المحاولة المفرطة في التفاؤل النجاح في ميدان التطبيق العملي؟

تقول (مس بل) وهي التي أوقفت كلّ جهودها ومساعيها على هذه الغاية ان مبشراً أمريكياً حذرها بوجوب تجاهل الحذر التاريخي الواقعي أثناء سعيها الحثيث بهذه العبارة:

"إنك لتحلّقين طائرةً بمواجهة أربعة آلاف سنة من التاريخ في محاولتك رسم خطّ حول العراق ثم تسميته بوحدةٍ سياسية، فآشور تنظر دائماً من الغرب والشرق والشمال، وبابل تشخص من الجنوب، وما كانتا في أي وقتٍ وحدةً سياسية مستقلة. عليك ان تخصصي وقتاً ملياً لجمعها وخلطها معاً. ويجب أن يتمّ هذا بالتدّريج. إذ ليس للدولة القومية مفهوم لديها بعد"[٢٣]

(٢١) المرجع السالف: ص٢١٩ (ونستن: كرترود، مس بل).
(٢٢) المرجع السالف.
(٢٣) كان كلّ قوام الجيش البريطاني في العام ١٩٢٠ أربعة آلاف عسكري خلافاً لما ذكر (لورنس) في مقالة =

لم يعر الموظفون البريطانيون الذين كلّفوا بهندسة البلاد الجديدة، اهتماماً بأمثال هذا التحذير. لأنّ الموضوع هو كيفية الجمع والتأليف بين البناء السياسيّ وبين المصالح البريطانية. وبعبارة أخرى أوضح كيف يمكن أن يخدم البناء المنتوى المصالح البريطانية على أفضل وجه؟

لم يُوضع قطّ في الحساب خطر نشوب ثورات محليّة. لا أحد وضع في حسابه هذا غير المغضوب عليه (ولسن) الذي كانت (مس بل) تتآمر عليه بكل ما ملكت من طاقة. فقد سبق وحذّر لندن من ثورات في الشمال وفي الجنوب وأنذرهم بأن تسريح القوات البريطانية[٢٤] قد ترك القوات المرابطة عنده في غاية من الضعف. وحدات قليلة جداً لاتكفي لتغطية بقعة مساحتها (٤٥٢) ألف كيلومتر مربع. وأشار الى الخطر المتأتي من أنصار فيصل رغم أن (نوري السعيد وجعفر والهاشمي) وغيرهم ممن خدم بأمرته مازالوا ممنوعين من العودة الى وطنهم... على أن عدداً كبيراً من أمثالهم كانوا قد تسللوا خفية وبدأوا بنشاط واسع كبير الأثر، في ترويج قرار المؤتمر العام الذي عقد في دمشق بخصوص استقلال ميسوپوتاميا. ولم تبق تركيا عاطلة، فقد بعثت بوكلائها الى كردستان.

في أيام عيد الميلاد للعام ١٩١٩، طلب (ولسن) من لندن استعارة خدمات العقيد جيرالد ليشمان (لجمن) وهو رجل استطارت شهرة له في صحارى الشرق التي جعلت منه أسطورة.

وصل (ليشمان) في ربيع ١٩٢٠ ليجد في انتظاره نبأ مقتل ستة من الضباط السياسيين البريطانيين قبل عشرة أيام من وصوله. وفي الشهر التالي وُفّق في إنقاذ جماعة من الضباط البريطانيين هاجمتهم عصابة صغيرة في الصحراء. لكنه فشل في إنقاذ ضابطين سياسيين اختطفا واحتفظ بهما رهائن ثم قتلا.

كانت بادية العراق الغربية تعجّ بالجماعات البدوية المغيرة، طبق ما كانت الحال مع الإدارة التركية. ورأى (ليشمان) بصلافته وعنجهيّته التي أوردته حتفه فيما بعد، أن:

"الطريقة الوحيدة للتعامل مع القبائل هي ذبحها بالجملة"[٢٥]

وفي حزيران ١٩٢٠ انتفضت قبائل الجنوب فجأة بثورة كاملة الأبعاد. وبدا سبب نشوبها المباشر الفتيلة التي أشعلتها محاولة الإدارة البريطانية والحكومة المحلية المؤقتة جباية

= بجريدة التايمس وقد أشرنا إليه. يدعمهم حوالي ثلاثة أفواج من جنود الليڤي الآشوري فحسب (المرجع السالف).
(٢٤) ونستن H. V. E. Winston: «ليتشمان Leachman» ط. نيويورك ١٩٧١، ص٢٠٨.
(٢٥) ونستن: «گرترود بل» المرجع السالف. ص٢٢١.

الضرائب المتأخرة.

وفي ١٤ حزيران ادّعت مس بل (وكانت سابقاً تميل الى الترضية والتوفيق وتذهب بهما الى أقصى الحدين، وتتقلب آراؤها بتقلب الأحداث):

"بأنها الآن تعيش في جوّ يسوده الإرهاب القومي"[٢٦]

وهي تبالغ بالطبع. إلاّ أن ثورة الفرات الاوسط تمكنت من الاستيلاء على عددٍ من المواقع العسكرية وفتكت بعدد كبير من الضباط وقطعت خطوط المواصلات واوقعت بالجيش البريطاني ضربة موجعة في جنوب الحلة. ولعلّة ما أو أخرى كانَ ثمّ عدد من الأسباب وعدة جهات من الثائرين تتحرى أهدافاً. إلاّ أن البلاد كلها قامت بوجه البريطانيين. واتسع نطاق الثورة وأعلن في (كربلاء) الجهاد ضدّ المحتل. وفي موضع ما من الحدود الغربية الشمالية اقتحمت خيالة عربية بقيادة أحد ضباط فيصل معقلاً بريطانياً في بلدة (تلعفر) ذات الأغلبية التركمانية من السكان وأعملت فتكاً بالبريطانيين المدافعين عنه. ومن ثم سرت أنباء سوءٍ أخرى فـ(ليشمان) الذي ترك بغداد في الحادي عشر من آب لحضور اجتماع بقبيلتين في موضع ما على الفرات قُتل غيلة[٢٧].

في ٧ من آب ١٩٢٠ ظهر في صحيفة التايمس مقال رئيس عن الثورة في بلاد الرافدين تساءلت فيه:

"الى متى يُضحى بأرواح ثمينة في جهود لا طائل منها - لفرض إدارةٍ محكمة فادحة الثمن على السكان العرب، لم يطلبوها ولم يرغبوا فيها ؟"

وبعد ثلاثة أيام خرجت بمقال آخر رئيس جاء فيه:

"نحن ننفق في ميسوپوتاميا وفارس مبالغ قد تصل الى مائة مليون پاون سنوياً لمساندة وتثبيت سياسة خرقاء تقضي بإقامة حكومة في الشرق الأوسط".

خلال الثورة الصحفية، راحت حكومة الهند تدفع بالنجدات وتصبّ الموارد صباً في تلك البلاد لإعادة النظام. فتمّ ذلك بوقت وجيز في المدن حيث قبض على ناصية الحال. إلاّ أن إحكام القبضة على الريف ومناطق البدو لم يتّم إلاّ بعد فترة امتدت حتى شهر شباط[٢٨].

(٢٦) ونستن: گرترود بل، المرجع السالف، ص٢٢١.

(٢٧) بلغت خسائر البريطانيين وفق المصادر الرسمية ٢٥٠ قتيلاً و١٧٥٠ جريحاً و٤٥ مفقوداً. أنظر (بودج): المرجع السالف. ص٤٠٨. كاليفورنيا١٩٧١.

(٢٨) احتيل عليه وأقنع بالاستغناء عن مرافقيه المسلحين. دسّ عليه قاتل فأطلق عليه عياراً نارياً من الخلف بأمر من شيخ عشيرة زوبع (ضاري المحمود). كان قد حلّ عنده ضيفاً. ليس بوسعي كتمان عجبي =

ملكت (الوايت هول) الحيرة في تقويم أسباب الثورة. وتقدم (ارنولد ولسن) بقائمةٍ من أسباب ثلاثه عشر، مشدداً بالخصوص على ثلاثة منها:

(١) أنصار فيصل، (٢) مداخلة تركيا الكمالية. (٣) وربما بتحريض ومداخلة شركة نفط ستاندر أويل الامريكية[٢٩]

ثورة الفرات الأوسط أحدثت رجّة عنيفة في الإدارة الهندية - البريطانية وسرت الى الجذور وكانت إدارة مستقرة سارت سيراً هادئاً إعتيادياً، رغم الثورة. وهو ما دعا (ولسن) الى التأكيد لحكومته في كانون الأول: "لا رغبة حقيقية في ميسوپوتاميا - لإقامة حكومة عربيّة. والعرب من السكان يفضلون حكماً بريطانياً مباشراً"[٣٠]

لو كان الأمر كما يدعي، فكيف يفسر الإنفجار الذي حصل قبل خمسة أشهر إلاّ بأنه حركة حملت في بطنها جنين حركة استقلال عربية؟ ويستطرد (ولسن) ليقول: "ما نواجهه هنا هو فوضى وتعصب ليس إلاّ، لايوجد فيه من الروح القومية إلاّ القليل إن وجد فعلاً... القبائل كانت أيضاً تنتفض على الحكومات السابقة بهذا الشكل"[٣١] وعاد في أواسط آب يكتب: "لم تعد الحركة الثورية منذ وقتٍ ما، ذات محتوى سياسي بل غدت فوضى تامة"[٣٢].

ليس هذا بالتفسير المقنع. فهو يأتي في وقت وقفت الانتفاضة العراقية على رأس

= ودهشتي من كتاب الجيل القوميين الذين أطبقوا على اعتبار هذا الحادث المخجل مأثرة عربيّة تدعو الى تمجيد فاعله، وعدّها صفحة جليلة من صفحات ثورة العشرين. كيف يغيب عن هؤلاء أن أسمى ما يفخر به العربي ويعدّه جزءً من تقاليده هو إكرام الضيف وافتداؤه بالمهجة عند اللزوم ولو كان عدوّا. وما من شك في أن اغتيال المرء وهو في غفلة ومن الظهر، هو ليس من الشجاعة والحميّة في شيء وبالتالي لايمكن عده من السجايا العربيّة. وها نحن نرى المجرمين في أفلام الغرب الأمريكية (وهي لاتبتعد قط عن واقع ما كان يجري) يترفّعون عن إطلاق الرصاص على خصومهم ومعقّبيهم ويأبون إلاّ أن يقابلوهم وجهاً لوجه. وما من شك في أن الإدارة البريطانية كانت أكثر شهامة ونبلاً عندما أصدرت عفواً عن ولديْ ضاري (خميس وسلمان) ببيان صدر في ٣٠ من أيار ١٩٢١ شمل كل المحكومين المبعدين والهاربين المشاركين في ثورة العشرين.

(٢٩) ارون كليمان: المرجع السالف. ص٥٧.

(٣٠) ارون كليمان: المرجع السالف. ص٥٨.

(٣١) ستيفن رويكل هانيكي: المرجع السالف. ص٢٠١.

(٣٢) جون دارون John Darwin: «بريطانيا ومصر والشرق الأوسط. السياسة الإمبراطورية إثر نهاية الحرب Britain, Egypt and the Middle East: Emperiel Policy after the end of war 1918-1922» مطبعة سان مارتن: نيويورك ١٩٨١ ص١٢٠٠. (يميل بي الظن الى أن ولسن وهو ضابط من مرتبات الهند كتب ما كتب وفي ذهنه وقائع الثورة الهندية في العام ١٨٥٧ وما نجم عنها من متاعب وخسائر وقد بدأت بتمرد الجنود الهنود على الأوامر عند تزويدهم ببندقيات جديدة يقتضي تزييت عتادها بمزيج من الدهن يحتوي على دهن الخنزير. وكان من آثارها احتلال الثوار مدينة دلهي).

الإضطرابات والفورات اللذين سادا الشرق الأوسط كله. ما الذي جعل المصريين يرفضون المفاوضات ويواصلون التظاهرات العنيفة؟ ماذا عن ثورة الفلسطينيين؟ ماذا عن حركة المقاومة السورية العنيدة للمحتل؟

وبقيت الدوائر السياسية والحكومية في لندن عاجزة عن الإتفاق على تعليل ما يحصل في تلك البلاد التي تتكلم العربيّة. وبلغ بها الشطط والحيرة حداً أن وجدت فكرة من الفِكَر أنصاراً لها في لندن، مؤادها أن ما يحصل هو بتأثير تدخل خارجي. أيّ تدخل خارجي هذا في بلد تحكمه أكبر إمبراطورية في العالم، يؤدي الى إنفجار عام فجائي بوغتت به سلطة تملك أدق وأوسع جهاز استخبارات وتجسس في عالم ذلك الزمان؟ أيّ تدخلٍ هذا الذي جعل الإنتفاضات السالفة تختار وقتاً واحداً للإنفجار، وبرباط يجمعها بشكلٍ ما؟

★★★

أعلن ونستن تشرشل حال تسلمه وزارة المستعمرات سياسته بمقولته الشهيرة: "**كل ما يحصل في الشرق الأوسط، هو ثانويّ بالنسبة الى تخفيض النفقات**" وكان عند كلمته. فما حل شهر أيلول ١٩٢٢، حتى كان بوسع الحكومة أن تعلن عن واقع إنخفاض النفقات الى الربع. أي إنزالها من ٤٥ مليون پاون سنوياً الى ١١ مليوناً فقط.

ومن أجل الوصول الى هذا، فضل تشرشل مسالمة فرنسا، ومال الى نصب (فيصل) وأخويه حكاماً للبلاد الناطقة بالعربية لأن ذلك:

"سيُغني بريطانيا بستراتيجية اقتصادية تساعد حكومة صاحب الجلالة في ممارسة ضغطٍ في مجال عربي واحدٍ للفوز بما تريده في المجال الآخر"(٣٣)

كان يعتقد أن ممارسة ضغط على فرد من أسرة الشريف، سيؤدي الى أن يحصل على تنازل من أفراد الأسرة الآخرين. وإن أتيح لواحد منهم حكم مملكة فلن تحتاج بريطانيا الى أكثر من تهديد مملكة أخرى يحكمها عضو آخر من الأسرة، لتحمل الأول على الإنصياع والسير بالشكل الذي تريد.

كثيراً ما نجحت أمثال هذه الخيالات الخارقة والمعادلات التجارية التي عشقها تشرشل ولم يتردد في تطبيقها طوال حياته السياسية كلما سنحت له فرصة فيها. ولذلك رأيناه يفكر بين

(٣٣) مارتن گلبرت Martin Gilbert: «ونستن تشرشل: العالم المنكوب Winston Churchile: The Stricken World 1916-1922» المجلد الرابع، الباب الأول، ط. بوسطن ص٥٤٥.

آن وآخر هنا، في الانسحاب الكامل أو الجزئي من الشرق الأوسط. أو الجزئي من الشرق الأوسط. وفي خلال ذلك التفكير عَمد الى سحب (سر ارنولد ولسن) وإعادة (كوكس) مزوداً بتعليمات صريحة تتضمن التمهيد لتطبيق سياسته، وقفت على رأسها طبعاً مسألة تخفيض النفقات وإليك هذه البرقية التي أرسلها لمعتمده الجديد:

"... وان لم يكن بالامكان حكم العراق بأسعار أرخص فإن بريطانيا ستنسحب من سائره مع الاحتفاظ بخطّ الساحل فحسب"(٣٤)

واعتنق في فترة أخرى فكرة (لويد جورج) القاضية بالانسحاب من العراق وفلسطين معاً وإهدائهما للولايات المتحدة. ثم عاد لتنفيذ فكرته الأولى: الإقتصاد في النفقات أي بحكم العراق بـ"الطائرات والمصفحات" فوضع فيه أعظم قوة جويّة تملكها أية دولة في الشرق الأوسط. وسلم القيادة العسكرية هناك للقوة الجوية رغم معارضة المندوب السامي الشديدة. وهو الأمر الذي اضطره الى ملافاة النقص في القوات البريّة (المشاة) بمضاعفة قوات الليفي الآشوري لتبلغ أربعة آلاف وبسعر أرخص(٣٥).

وفي ٧ شباط ١٩٢١ وصلت (كوكس) برقية من (تشرشل):

"الموضوع قيد البحث (موضوع العراق) لايمكن تسويته بتبادل البرقيات. وأنا لا أجد لي فسحة من وقت تتيح لي زيارة ميسوپوتاميا. وأنا أقترح والحالة هذه عقد مؤتمر في مصر يبدأ في الأسبوع الأول أو الثاني من شهر آذار. مؤتمر قد يستغرق أسبوعاً واحداً. وسيرافقني إليه رؤساء الموظفين في دائرة الشرق الاوسط التابعة للوزارة"(٣٦)

والتأم المؤتمر الذي عرف فيما بعد بمؤتمر القاهرة في فندق (سميراميس) صباح يوم ١٢ من آذار ١٩٢١. وعقد خلاله عدد من الجلسات يتراوح بين الأربعين والخمسين وحضره أربعون مشاركاً. كان موضوع المؤتمر الرئيس هو البحث عن وسائل لتخفيض النفقات في ميسوپوتاميا. وانتخبت لجنتان لمناقشة الأمر: عسكرية ومدنية خصصتا الأيام الأربعة الأول لتخطيط مستقبل العراق. وكان حذق تشرشل الذي بدأ هنا بأجلى مظاهره نزّاعاً الى الأخذ

(٣٤) المرجع السالف: ص٥١١.
(٣٥) المجند الآشوري في الليڤي كان يكلف الخزينة البريطانية ربع ما يكلفها الجندي البريطاني وأقل من نصف ما يكلفها المجند من المستعمرات.
(٣٦) گلبرت: المرجع السالف، ص١٣٣٤.

بالنصائح والآراء التي يتقدم بها الموظفون البريطانيون المتواجدون موقعياً. وهو ما دعا (مس بل) مرافقة (كوكس) الى الكتابة بحماسة:

"كان مستر تشرشل رائعاً. كان على اتّم استعداد للقاء كل واحد منّا في متنصف الطريق. وكان كذلك أستاذاً باقعة في إدارة دفة الاجتماع السياسيّ الكبير وإرشاد اللجان الصغيرة التي انشعبت إليها. لم يكن بين الظروف الموآتية أقلهّا شأناً مجيئنا أنا و سر برسي كوكس ومعنا خطّة معينة مدروسة، ما أن رفعنا عنها الغطاء حتى وجدناها تتفق تماماً مع ما يقترحه تشرشل ويريده"[٣٧]

وبعد مرور ثلاثة أيام من بدء المؤتمر أبرق تشرشل لرئيس الحكومة:

"كل المسؤولين هنا توصلوا الى إتفاق حول جميع النقاط السياسية منها والعسكرية"

كان أمام المؤتمر مسائل أربع للبّت فيها: أولهّا عرض عرش العراق على (فيصل) بشرط أن يبذل كل مجهود ممكن ليبدو العرض وكأنه صادر من كل السكان المختلفي القومية والأديان لا من بريطانيا. وثانيها الإبقاء على الوجود العسكري في البلاد على أساس نقل ثقله الى وزارة الطيران (كان تشرشل حينها وزيراً للطيران بالوكالة)، إتباعاً لستراتيجية الاحتفاظ بالقواعد الجويّة. وثالثها مسألة الأقليم الكردي، وقد اختلف الأعضاء فيما بينهم أشدّ اختلاف حول إدغامه بدولة العراق الجديدة أو إقامة دولة كردية مستقلة فيه. ثم أتفق أخيراً على أن يبقى وحدة منفصلة ترتبط مباشرة بالمندوب السامي وتكون خالصةً من صلاحياته. ورابعاً مشكلة القوميات الأخرى ذات الهوية القومية الواضحة: مطالبها، حاجاتها، تطلعاتها. وهي بالضبط مشكلة الشمال الغربي ومجموعاته، لاسيما المجموعات العرقية التي لا مكان لها ولا سبيل لها للعودة الى مواطنها الأصلية ومن بينها الآشوريون المسيحيون اللاجئون والأرمن والمجموعات الكردية من إيران وتركيا. واعترف المؤتمر بأنه قليل الحيلة في معالجة مشكلتهم. وبأنه لايملك عمل الكثير لهم. ونال تشرشل موافقة حكومته على قرارات مؤتمر القاهرة السياسية حول قضايا الشرق الأوسط للبلاد الناطقة بالعربية[٣٨].

واستعّد موظفو الإحتلال في بغداد لعرض التمثيلية التي كتبت على موائد مؤتمر القاهرة

(٣٧) رسائل مسّ بل: المرجع السالف، ص٢١٣.
(٣٨) سيرد الحديث حول القرارات التي اتخذها المؤتمر بخصوص البلاد الأخرى ذات الهوية العربية في الفصل التالي.

بخصوص اختيار (فيصل) للدولة العراقية العتيدة، وحُذروا بأن يكون نشاطهم من وراء الستار قاصراً على التلقين والإخراج. وطمأنهم (فيصل) من جانبه بأنه سيتعاون معهم الى أقصى حدّ يؤهله له مركزه. ونصب (لورنس) وسيطاً بينه وبين (تشرشل). وما عتم هذا الوسيط أن أبلغ سكرتير الوزير الخاصّ، بأنه التقى (فيصلاً) فأكد له استعداده للتفاوض مع الحكومة البريطانية من غير الإشارة الى سورية مطلقاً، وأنه مستعد كذلك للتخلي عن مساندة والده في كلّ أدعاء له بفلسطين.

وفي القاهرة نظم (لورنس، ومس بل، وكوكس، وساسون حسقيل وزير المالية العراقي) جدولاً زمنياً لهذه الغاية مرتباً على فصول تبدأ أولها برحيل (فيصل) الى مكة. ومنها يرسل برقيةً الى وجهاء القوم وزعمائهم في العراق الأوسط والجنوبي (أنتقيت أسمائهم وزود فيصل بقائمة لها) يذكر فيها أن "أصدقاء!" له حثوه على القدوم الى العراق. وإنه قرر بعد المداولة مع أبيه وأخوته في هذا الشأن. أن "يعرض خدماته على أهالي العراق".

وبعد انتهاء أعمال المؤتمر بعث (لورنس) برسالة عاجلة لفيصل الذي كان في لندن:

"الأمور سارت طبق المأمول بالضبط. أرجو الشخوص الى مكة حالاً بأقرب طريق ممكن وأقصره. سألقاك وأنت في طريقك وأشرح لك التفاصيل. وبناءً عليه، لاتواجهِ أحداً غير والدك ولاتذع أيّ شيء للصحافة وبأيّ شكل من الأشكال"[٣٩]

في حدود ذلك الوقت وردت (كوكس) أنباء مزعجة من الوكيل الذي استنابه في بغداد:

"منذ رحيلك تغيّرت الأمور كثيراً... السيد طالب (النقيب) وهو الزعيم غير المنازَع في البصرة توصل الى اتفاق مع (عبدالرحمن النقيب)[٤٠] في بغداد. على أساس أن يقوم بمساندة السيد طالب في ترشيح نفسه لعرش العراق. وكلاهما وضع أساس الدعوة لحاكم عراقي النجار. وهناك دلائل تشير بأنّ هذه الدعوة تلقى قدراً كبيراً من التأكيد. وبلا مواربة أظنّ أن ترشيح فيصل سيلقى مقاومة شديدة"[٤١]

فأسرع (كوكس) عائداً الى بغداد ليقنع المتنافسين بالإنسحاب من الميدان وبينهم إن كنت لاتصدق عبدالعزيز آل سعود الذي احتجّ على ترشيح سليل الأسرة الهاشمية. فأُمِر بالإنسحاب

(٣٩) كلبرت: المرجع السالف، ص١٤١٤.
(٤٠) نقيب الاشراف في بغداد سليل أسرة الگيلاني وعميدها في العراق ورئيس أول حكومة عراقية.
(٤١) أرون س. كليمان: المرجع السالف: ص١٤٦.

وشرُي سكوته بالمال وبعطايا أخرى سياسية أغرقه بها البريطانيون.

"وفي أثناء ذلك واصل (طالب پاشا النقيب) جولاته في أنحاء البلاد مقابلاً وزائراً شيوخ العشائر ووجهاء المدن، خاطباً في الجمع، مؤكداً "الحاجة الى التعاون مع بريطانيا" ومنادياً في الوقت ذاته بشعار "العراق للعراقيين"[٤٢] وتبادر الإستخبارات البريطانية الى تبليغ (كوكس) بتشاؤم وقلق شديدين:

"أن (طالباً) يقابل بحماسة وحفاوة بالغتين في كلّ مكان"[٤٣]

في متنصف شهر نيسان قصد السيد (طالب) دار المندوب السامي لحضور دعوة شاي ووجد (كوكس) عند وصوله يعتذر لبرهةٍ تاركاً اياه مع قرينته وسائر المدعوين. بعد أن غادر السيد طالب دار المندوب وجد نفسه محاطاً بثلة من الحرس البريطاني وبأحد موظفي السفارة يبلغه بقرار (كوكس) القاضي باعتقاله ونقله رأساً الى جزيرة سيلان (سريلانكا). وفي اليوم التالي أذاع (كوكس) بلاغاً جاء فيه: أنه أمر بإبعاد (طالب النقيب) حفظاً للأمن والنظام بعد تهديده بإثارة شغبٍ ومباشرة أعمال عنفٍ.

يشكّ كثيراً في أن (طالباً) نطق بما يمكن حمله محمل تهديد بالإخلال بالأمن وكل ما بدر منه هو أنه قال في وليمة عشاء أقامها لمراسل الديلي تلگراف:

"لو أن بريطانيا لن تكون منصفة أو لاتقف موقف حياد أزاء المرشحين المتنافسين فلايستبعد أن تثور القبائل مرةً أخرى"

ونقل الحديث بصيغ عدة. ويدّعي (كوكس) أن (مس بل) نقلته إليه. ولم تكن موجودة في وليمة العشاء تلك.

ومع هذا وبرغم إبعاد السيد طالب ظلّت مقاومة ترشيح (فيصل) متواصلة وإنْ اتخذت أزياء أخرى. قدمت مقترحات حول إقامة جمهورية أو تفضيل حاكم تركي الأصل. أو فصل البصرة عن بغداد، أو ترك الأمور على وضعها الحالي تحت حكم المندوب السامي المباشر لكن لندن كانت قد بتت في الأمر.

وعلى هدى من المشاورين البريطانيين الذين طلبهم (فيصل) بنفسه، وصل الحجاز وسوّى أموره مع أبيه ثم أقلع الى البصرة على نفقة بريطانيا. فنزلها في ٢٤ من حزيران ١٩٢١، بعد

(٤٢) المرجع السالف: ص١٤٨.
(٤٣) المرجع السالف: ص١٤٦.

أن استقبل وهو على ظهر الدارعة التي أقلتّه - أعضاء مجلس الوزراء العراقي يتقدمهم رئيسهم عبدالرحمن النقيب الذي دعاه ليحل ضيفاً على البلاد.

وظلت الحكومة البريطانية تتمسّك أو تتظاهر بالتمسك بالرواية الرسميّة - أي وقوفها موقف حياد، وعدم انحيازها إلى أحدٍ. أما في السرّ فقد أشار (كوكس) على (فيصل) أن يخرج الى العلن فيخوض معركة الترشيح لنيل مساندة جماهيرية تعين الموظفين البريطانيين على ادعائهم بأن حكومتهم ما فعلت إلاّ أن نزلت الى إرادة الشعب بقبولها بنصبه ملكاً عليه.

وفي ١١ من تموز، اتخذ مجلس الوزراء قراراً بالإجماع بقبول (فيصل) ملكاً دستورياً. وفي ١٦ منه أمر المجلس بإجراء استفتاء عام للمصادقة على هذا الإختيار. وفي ١٨ من آب أعلنت وزارة الداخلية بأن (فيصلاً) فاز فوزاً ساحقاً في استفتاء (نعم و لا). وبعدها بخمسة أيام توّج رسمياً. وفي عين هذا اليوم تُركت كلمة (ميسوپوتاميا) الإغريقية وتعني (مابين النهرين) واستعيض عنها رسمياً بكلمة العراق. واختفت الصفة القديمة تدريجاً من المكاتبات الرسميّة.

تشير الوثائق البريطانية الى أن (فيصلاً) بدأ حتى قبل تتويجه يزعج البريطانيين ويقلق راحتهم بإصراره على استقلال رسمي ورفضه صيغة الانتداب التي فرضتها عصبة الأمم - بسعي من بريطانيا طبعاً - مقترحاً أن تكون العلاقة بين الدولة الجديدة وبريطانيا مبنية على معاهدة واحتج البريطانيون بأنهم لا يملكون حقاً قانونياً في تغيير وضع العراق الدولي من دون تخويل عصبة الأمم. لكنهم وافقوا بالأخير على معاهدة يتم التفاوض حولها، شريطة أن يشار فيها الى الإنتداب. فرفض (فيصل) تضمينها هذه الإشارة. وتواصلت المفاوضات في لندن طوال سنة واحدة حول هذه النقطة التي كانت تثير غيظ البريطانيين وحنقهم.

في أواخر صيف ١٩٢٢ كتب تشرشل لرئيس الحكومة:

"فيصل يلعب معنا لعبة في غاية الدناءة، فيها من الختل ما فيها"

وأضاف الى هذا تأكيداً على وجوب اجتماعه مع أعضاء الحكومة للبحث في مسألة طرد (فيصل) أو الانسحاب البريطاني من العراق[٤٤].

وبعد بضعة أيام أبلغ تشرشل زملاءهُ في الحكومة أثناء اجتماع وزاري:

"إن الملك فيصل يثير مشاكل عظيمة ويزيد في حالة العراق إضطراباً، وكان قد

(٤٤) المرجع السالف: ص١٩٦٦.

احتجّ على الإنتداب لكنه أعرب عن موافقته على إبرام معاهدة وهو على أية حال غير مستعد للإعتراف بالإنتداب كمبدءٍ ويراه وصمة عارٍ وُسِم بها العراق، ولم تنفع فيه أي حجة أو تعليل عرضا عليه وهو الآن منحاز الى المتطرفين، الذين يجدونه اليوم نصيرهم وراعيهم"(٤٥)

وهو لاشك يعني طبقة القوميين الجديدة التي خلقها جوّ التفاوض على المعاهدة مما سنتولاه بالتأمل فيما بعد. بعد ذلك بقليل وجه لـ(لويد جورج) مذكرة أخرى جاء فيها:

"إني عظيم القلق بخصوص العراق. والمهمة التي عهد بها الي باتت من قبيل المستحيل فعلاً. ما من صحيفة محافظة أو عمالية أو ليبرالية واحدة إلا وهي تقف بإصرار واستمرار موقفاً معادياً لبقاء بريطانيا في العراق... ومن أعماق قلبي أقول إني لا أجد شيئاً يمكن اغتنامه من هذه البلاد. وأنا أقترح أن نوجّه لفيصل إنذاراً أخيراً، أن لم يرضخ له فسأتخلى عنه مبغضاً بالتأكيد"

وكان هذا جواب (لويد جورج):

"كمبدء عام، أنا ضدّ سياسة إغراق السفينة، أفي مياه العراق أو في مياه غيره» (بعدها أشار الى الإحتياطي الكبير من النفط الذي يعتقد الخبراء بإنه موجود في جوف العراق)... لو نحن تركناه فقد نجد أنفسنا بعد سنة واحدة أو اثنتين من انسحابنا – مسلمين للأمريكان والفرنسيين جزءً من أغنى حقول النفط في العالم"(٤٦)

★★★

إنسحبت الولايات المتحدة من ائتلاف الحلفاء فعلياً في وقت بين ١٩١٩ و١٩٢٠ وتمت القطيعة رسمياً في آذار عندما رفض مجلس الشيوخ الأمريكي التصديق على معاهدة ڤرساي وأبى أن تكون البلاد عضواً في عصبة الأمم. وكذلك رفض دعوة العصبة لإنتداب الولايات المتحدة على أرمينيا. وبدا ذلك في جواب لوزارة الخارجية على مذكرة من السفير الفرنسي. فقد أجاب الوزير الأمريكي نيابة عن الرئيس ولسن بأن:

"الولايات المتحدة لن ترسل ممثلاً عنها الى مؤتمر الصلح ولن تضع توقيعها على

(٤٥) المرجع السالف: ص١٩٦٧.
(٤٦) المرجع السالف: ص٨١٨.

أية معاهدة مع الإمبراطورية العثمانية ولن تشارك في المفاوضات حولها. لكنها تأمل من معاهدة الصلح أن تأخذ بنظر الإعتبار وجهة النظر الأمريكية، فضلاً عن وجهات نظر الرئيس الأمريكي بخصوص أمور معينة في الشرق الأوسط"

كما أصرّ الجواب على وجوب أتباع سياسة الباب المفتوح، دون تفريق بين الموقعين وغير الموقعين على المعاهدة. متمسكاً بوجوب المحافظة على الحقوق الأمريكية في المنطقة. وهذا يعني أن أسواق منطقة الشرق الأوسط لن تغلق قط في وجوه الماليين ورجال الأعمال الأمريكان. وقد أدّى هذا الى النزاع السياسي بين بريطانيا والولايات المتحدة، نزاع مرير حادّ كان من آثاره أن بدأ موظفو الإدارة البريطانية في العراق يداخلهم الشكّ في أن المصالح النفطية هي وراء الإعتصاب والانتفاضات والتظاهرات المعادية حتى زعموا بأن دائرة المخابرات البريطانية كانت قد ألقت القبض على واحدٍ من زعماء ثورة العشرين وفي حوزته رسالةٌ من إحدى الشركات التابعة لكارتل (ستاندرد أويل) ظهر منها أن مبالغ أمريكية كانت تدفع لشيعة الجنوب في كربلاء مصدرها القنصل الأمريكي في بغداد(٤٧).

لم يكن هناك ظلّ من الحقيقة في الإدعاء. وقد أراد البريطانيون منه ضرب عصفورين بحجز واحد كما ترى.

إلاّ أن النزاع استمر طويلاً. أستمر الى ما بعد أربع سنوات من ضمّ ولاية الموصل رسمياً الى العراق الجديد وانتهى باتفاق نهائي بخصوص النفط في ٣١ من تموز ١٩٢٨، بعد ستّ سنوات من المفاوضات بين الشركات الأمريكية والبريطانية. وهو موضوع لاتهمنا تفاصيله هنا، إلاّ بقدر التأثير الذي أحدثته مشكلة الموصل على تطور الفكرة القومية العربية في العراق. ومقدار ما دفعته من ريح في شراعها وكذلك مسؤوليتها في الاتجاه المغلوط والخط الذي سلكته دعوة القومية وهو ما سنعرض له في فصول تالية.

★★★

بهذه الطريقة – وبعد ضمّ ولاية الموصل خرج التكوين السياسي الذي أعطاه الفاتح اسم (العراق) وهو اسم تاريخي عربي النجار إيرانيّ الأصل. اتخذه المؤرخون العرب وفرقوا بينه وبين عراق آخر يحدّه غرباً. فسموه العراق العربي – تمييزاً عن العراق العجمي(٤٨). كيان

(٤٧) ونستن: «المغامرة غير المشروعة The Illegal Advanture» لندن ١٩٨٢. ص٣٤٨.
(٤٨) في التسمية أنظر مادة (العراق) في معجم البلدان لياقوت الحموي. وحول التشكيل السكاني القلق للكيان العراقي أرى من المفيد أن أجتزيء فقرة من خاطرات دونها الملك فيصل في مذكرة وزعها على =

اقتضته مصلحة الفاتح الذي يمثل في ذلك الزمن أكبر وأقوى إمبراطورية في العالم. وكما رأينا، لم تكن لمواطنيه وأهله أيّ يدٍ في إقامة صرحه ولم تستمزج رغبتهم فيه. وهو خليط غير متجانس، باعدت فيما بينهم اللغة واللهجات والهويات والإنتماءات والتقاليد. انها إرادة غالب لاتتوخى من نفع عام إلاّ بقدر ما يفيد مصلحتها ويسايرها. رأت هذه الإرادة في فترات أن تشجيع شعاري الوطنية والوطن العراقي من مصلحتها. وعندما بدأ هذا الشعار يستر بجلباب القومية العربية ليحل محلّه بالتدريج، مزوّداً ببركات البريطانيين، وأحياناً بتشجيع منهم. إلاّ أن السبيل الخطرة التي سلكها دعاتها والآراء والإتجاهات التي دفعوها في صلب الدعوة، مالبثت أن أسفرت عن وجههم وجاءت بما لم يكن في مصلحة أي طرف من الأطراف. ولم تبق الأخطاء التي ارتكبت باسمها مجرد أخطاء بل ارتفعت الى مرتبة جرائم ارتكبت بدعوى الدفاع عنها.

ومن مفارقات التاريخ العجيبة أن تكون ولاية الموصل ولاسيّما عاصمتها التربة التي أخرجت شطء النمط العراقي من القومية العربية – إن صحّ لنا وصفها بهذا وفي أثناء الصراع على عقائدها الولاية بالذات. ثم جاءت مذابح آب الآشورية التي ارتكبت باسمها، وبعد ربع قرن كانت أيضاً محاولة العقيد الشواف الانقلابية على حكم قاسم وهي التي سمّاها القوميون بالثورة القومية وبكل ما ارتكبت فيها من مقاتل وجرائم وبكل ما خلفته من بصمات في تأريخ العراق الأخير.

= طائفة من رجال الدولة المقربين تتضمن آراءه ومعتقداته في الدولة التي وُضع على رأسها. بدأ مذكرته بهذه الفقرة العظيمة الدلالة لصراحتها وانطباقها على الواقع: "إن البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الإجتماعية، وهو الوحدة الفكرية والملية والدينية (يقصد بالملية، القومية)". ثم يقول: "في اعتقادي لايوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد كتلات بشريّة خالية من أية فكرة وطنية، مشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لاتجمع بينهم جامعة. سمّاعون للسوء ميالون للفوضى مستعدون دائماً للانتفاض على أية حكومة". (النص الكامل في تاريخ الوزارات العراقية. ج٣ ص٣٠٠ وما بعدها. وكذلك في أحد ملاحق كتاب مذكرات جعفر العسكري. والمعتقد أن الملك كتبها في وقت ما من الشهرين الأخيرين للعام ١٩٣١.

الفصل العاشر

عودٌ الى بدء . النزاع على سورية . القوات العربية تستبق جيش الحلفاء في دخول رمزي الى المدن السورية . فيصل يلتقي بممثل زعيم صهيوني . تشجيع الهجرة اليهودية والتخطيط لإقامة دولة عربية . لجنة كنغ – كرين الامريكية ، فشلها . سحب القوات البريطانية من سورية . شروط فرنسا لإبقاء فيصل . رفض السوريين مؤتمر سان ريمو ووضع الأقطار العربية تحت الوصاية . اعتزال كليمانصو العمل السياسي والتشدد الفرنسي . قرارات مؤتمر دمشق . فيصل يطلب العون التركي . مناورة الفرنسيين . تحرك الجيش الفرنسي نحو دمشق . التخلي عن فيصل وخروجه من سورية . الأمير عبدالله وشرقي الأردن . ولادة الامارة ووضعها تحت الانتداب البريطاني . لورنس يفشل في حمل الشريف (الملك) حسين على توقيع معاهدة . (عبدالله فيلبي) مستشاراً للأمير عبدالله . أوضاع شبه الجزيرة العربية . الخلاف بين ابن السعود والملك حسين . تحرك الإخوان . هزائم الملك حسين . السياسة البريطانية بين الغريمين . مصر والحماية البريطانية . قيام سعد زغلول ومصطفى كامل . الحزب الوطني وحزب الوفد ، نشاطهما . المؤتمر الوطني . التظاهرات في ١٩١٩ في القاهرة والاسكندرية . تدخل الجيش البريطاني . نفي سعد زغلول ورفاقه ، ثم عودتهم . الرابطة الاسلامية المصرية . شعار مصر للمصريين . جمال الدين الأفغاني – محمد عبده : آراؤه التقدمية ، نظرته الى الإسلام . الأوضاع العامة في الجزائر وتونس ، اشتباكات مع الفرنسيين وأنشطة وطنية . تواصل النزاع بين الملك حسين والإخوان .

لم تعرف أطماع بناة إمبراطورية بريطانيا لما بعد الحرب في النفوذ الى البلاد العربيّة حداً. فهؤلاء كما بدا لنا مما سبق لم يكتفوا بسخاء (كليمانصو) الذي تنازل لهم عن الموصل وفلسطين. بل حاولوا حرمان حليفتهم من سورية أيضاً.

ففي مطلع العام ١٩١٩، وزعت سكرتارية مجلس الوزراء على الصحف البريطانية مذكرةً سريّة حاولت فيها أن تثبت بأن «قوات فيصل ساندت قوات الجنرال أللنبي في فتح سورية

مساندة «فعلية» وأنها دخلت المدن الكبرى الأربع فيها (دمشق، حمص، حماه، حلب) «قبل قوات (أللنبي) وقد قامت بهذا لا بوصفها قوات أجنبيةً غازية جاءت من الحجاز، بل كقوات عربيّة محلية... لذا كانت الغالبية العظمى من الجنود العرب الذين ساعدوا في تحرير سورية هم من سكان الولايات السورية»[١].

والقصد من هذا إثبات أمرٍ لم يقع أصلاً: أعني التأكيد بأن سورية العربيّة قد ثارت وحرّرت نفسها، فإخضاعُها لحكمٍ أجنبي مخالفٌ للمباديء التي تقوم عليها الديمقراطية الغربية.

وحصل (لويد جورج) من (فيصل) على تصريح نُشر في حينه، مؤاده بأن العرب جَرّدوا ما بلغ عدده مائة ألف جندي خلال الحرب. وهم إما خدموا تحت قيادته أو كانوا حلفاء له ولأبيه. وقد اعترف (لويد جورج) في مذكراته بعدها أن هذا الزعم ليس صحيحاً وأن "مساهمة العرب في العمليات العسكرية هناك تكاد لاتذكر"[٢].

إلاّ أن الفرنسيين لم يأبهوا وتمسكوا بحقوقهم المزعومة بسورية.

واستمرت محاولة بريطانيا في إبعادهم عنها. فادعى مندوبوها في مؤتمر ڤرساي بأحقية (فيصل) في أن يملك على سورية. ودافعوا عن حريته في رفض المشورة الفرنسية لو فضل ذلك. وكان الرئيس الأمريكي بطبيعة الحال مستعداً لمساندة هذا الإدعاء.

و(فيصل) الموجود في پاريس كان مستعداً للرضا بكل شيء مقابل بقائه ملكاً في سورية. تراه يبذل قصارى جهده ويدفع من البريطانيين وتشجيعهم لكسب الولايات المتحدة عن طريق النفوذ الذي تمارسه الحركة الصهيونية في البيت الأبيض وفي الكونگرس، والتقى فيصل بـ(فيلكس فرانكفورتر) ممثل الزعيم الصهيوني الأمريكي (لوي براندیس) وعلى أثر المقابلة أبرق الأخير لرئيسه:

"إن القضية القومية العربيّة لم تعدّ بعدُ تمثل عائقاً في تحقيق برنامجنا أمام مؤتمر الصلح"

لم يكن في هذا شيء مستجدّ. ففي حزيران ١٩١٨ جرت مقابلة وحديث بين (فيصل ووايزمان) أشرنا اليه في ما سبق. وفي خريف تلك السنة وقع الجانبان اتفاقاً كان أحد شروطه:

(١) وثائق وزارة الخارجية (9) F. O. 205-3.
(٢) مذكرات لويد جورج: المرجع السالف، الص ٦٦٥–٦٦٨.

"تشجيع وتنشيط وتسهيل الهجرة اليهودية والاستقرار الجماعي لليهود في فلسطين مع المحافظة على حقوق الفلاحين العرب والمزارعين المستأجرين"

كما اقترح في مادة أخرى منه أن تقوم المنظمة الصهيونية بإرسال مجموعة من الخبراء لتوضع خدماتها بأمر ما سُمي بالدولة العربية بخصوص مسح الموارد الإقتصادية ومساعدة تلك (الدولة العربيّة) على نيل استقلالها (كذا). الفرق الوحيد بين اللقائين أن ثانيهما تمّ قبل أن يكون لفيصل صفة رسميّة. في حين تمّ أولهما وهو ملك على سورية.

وكان (فيصل) عند كلمته. فقد عبر للمؤتمر عن وجهة نظره هذه في مذكرة قدمها للمؤتمر بتاريخ الأول من كانون الثاني وبعنوان "مطالب عرب آسيا" أشار فيها الى أن اليهود والعرب هم قريبون جداً بالدم، وليس بينهم مناقضة في الخلق والعادات. وهم في الواقع يعتنقون مباديء ووجهات نظر واحدة. وجاء في المذكرة أيضاً:

"إن البلاد الواقعة ضمن خط يمتد من الأسكندرية الى حدود إيران شمالاً وجنوباً الى الأوقيانوس الهندي، هي بلاد يسكنها العرب نعني بهم شعباً من الشعوب الساميّة يتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية... وأن هدف الحركات القومية العربية التي كان والدي يقودها في أوائل الحرب بعد النداءات المشتركة التي وجهها اليه كلّ من القيادات السورية والعراقية – هو جمع شمل العرب وتوحيدهم في نهاية الأمر في إطار أمّة واحدة"

وأبلغ المؤتمر بأنه يستثني فلسطين من التبعية التي حددها وادّعاها لممارسة إستقلال عربيّ. كان هذا صدى أجوف لما كتبه بعد ثلاثة عشر عاماً وهو ملك على العراق. وبدت اللعبة سليمة في قاعة المؤتمر. (كليمانصو) يقف من الصهيونية موقفاً صلباً حازماً بعكس (فيصل). وهو أيضاً ضد قومية عربيّة استقلالية الكيان بعكس (لويد جورج) الذي يرائي في العلن ويبدي استعداداً للسماح بأيّ نفوذ يفلح الفرنسيون في ممارسته على حكم (فيصل) في حين يُشجع (فيصلاً) من طرف خفيّ على رفض أي شكل من أشكال الصلة مع الفرنسيين. والفرنسيون يعلمون حق العلم أنه زبون من زبائن بريطانيا لايخرج عن الخطّ الذي تنتهجه في المؤتمر ويلازمه (لورنس) ملازمة الظل، ولايدعه يغيب عن نظره مترجماً وصديقاً ومشاوراً وموضع ثقة وضابط ارتباط ورسولاً. و(فيصل) يزداد صلابة في تعامله مع الفرنسيين اعتقاداً منه أن الانكليز سيساندونه الى النهاية بل حتى المخاطرة بعلاقاتهم مع حليفهم هذا.

واستاق الفرنسيون عدداً من الزعماء السوريين الى المؤتمر ليفلّوا بهم من غُراب حُجة فيصل

ويفحموه. قال هؤلاء في مؤتمر الصلح إنه رغم المشابهة في اللغة وفي الدين فالسوريون ليسوا عرباً. وأنهم يستأهلون دولة لأنفسهم لا تمتّ الى القومية العربية بصلة وأن تكون هذه الدولة تحت الوصاية الفرنسية.

ونفذ صبر (كليمانصو) بالأخير، فصارح (لويد جورج) بلهجة حاسمةٍ بأنّ:

"الرأي العام السياسي الفرنسي لايدع له أيّ خيار في إصراره على حيازة سورية. وهو شخصياً لايهتم بالشرق الأوسط كثيراً. إلاّ أن فرنسا كانت دائماً صاحبة دور كبير هناك. والرأي العام الفرنسي يتوقع تسوية تتفق ودور فرنسا وأنّه لايستطيع القيام بأي تسوية مخالفة لهذا الإتجاه"

وأثر عنه قوله لمن حوله:

"لا، لايسعني التنازل أكثر من هذا. ولويد جورج إنسان مخادع"[٣]

إلاّ أنّ (الوايت هول) اعتزم لعب كلّ ورقة متاحة يرجو منها ربحاً – فأوعز للجنرال أللنبي بإصدار إنذار كاذب لا أساس له زعم فيه:

"بأن الحرب قد تنشب بين العرب والفرنسيين في أية لحظة"

وابتلع الرئيس الأمريكي الكذبة وحمل البلاغ محملاً جدياً وباغت رئيس الحكومتين بإقتراح إرسال لجنة الى الشرق الأوسط للتأكد من رغبة الأهلين في نوع الحكم الذي يريدونه. لم يكن البريطانيون يتوقعون ردّ فعلٍ كهذا. ونظروا إليه كالفرنسيين بانذهال، إذ وجدوه اقتراحاً صبيانياً ساذجاً. لأنهم ما كانوا يعتقدون بوجودٍ لرأي عام في الشرق الأوسط شبيه بذلك الذي يُعرف في أوروبا وأمريكا. ولم يسعهم غير الموافقة.

تأليف لجنةٍ وسفرها شيءٌ. إلاّ أن عملها وسلطاتها شيء آخر وهذا ما كانوا يعرفونه. وما قبلوا إلاّ إرضاء للرئيس الأمريكي، وكان الطرفان يتسابقان الى خطب ودّه وتحاشي إغضابه.

هذه اللجنة لم تذهب الى العراق، ولم تذهب الى مصر وكلاهما في قبضة بريطانيا. وكان البريطانيون قد أعلنوا مصر محميّةً، ونجحوا قبلها في ضمان اعتراف الولايات المتحدة ببسط حكمهم عليها، الأمر الذي كان له أثره الحاسم في إبقاء المسألة المصرية خارج جدول أعمال مؤتمر الصلح[٤]، كما سبق لها أن بسطت نفوذها على إمارات الخليج الفارسي وساحل جزيرة

(٣) ليونارد بيكر Leonard Baker: «براندیس وفرانكفورتر Braandis and Frankfurter» نيويورك ١٩٨٤ ص١٧١.

(٤) كريستوفر أندرو: (أوج التوسع الفرنسي)، المرجع السالف، نيويورك ١٩٨٤.

العرب الجنوبي خلال القرن التاسع عشر[٥] واتخذت من (ابن سعود) و(الشريف) صنائع في بلادٍ لايتصور قط أن تصل إليها لجنة تقصي حقائق أو استطلاع رأي عام فيها.

ورفض (كليمانصو) إرسال مشاركين في اللجنة. وكبح (لويد جورج) جماح حصانه وقد تبين له بعد هذا أنه مضى في مناهضة فرنسا الى أبعد مما يجب وقد يؤدي استرساله الى انهيار مؤتمر الصلح وسقوط سقفه على رؤوس أهله، فامتنع هو الآخر عن المشاركة، واتخذ قراراه هذا فجأةً ومن دون سابق تمهيد أو إنذار.

وصلت هذه اللجنة التي عرفت باسم عضويها (كنْگ – كرين King - Crane) الى سورية وفلسطين، حيث كان الضباط البريطانيون في مركز يسمح لهم بانتقاء من سيمْثل أمام اللجنة ومن سيُستبعد. وحَميَ غضب الفرنسيين لهذا التاكتيك. إلاّ أن التقرير الذي وضعته تلك اللجنة لم يُعبأ به ولم يوضع موضع اعتبار قطّ. ولم يحظ بدور رسميّ على أنه زاد من النفرة والعداء بين فرنسا وبريطانيا.

كان الرئيس الأمريكي تنبأ بأن أي سلام لايدوم إن لم تُبنَ أسسه على شروط عادلة لجميع الأطراف ذات العلاقة، وإن لم يؤخذ مبدء حق تقرير المصير مأخذاً جدّياً بالنسبة للشعوب الخاضعة لدول أجنبية في أوروبا وفي آسيا بنوع خاصّ.

كانت فرنسا وبريطانيا تتصوران بأنهما ستستأثران بتقرير شروط معاهدة الصلح مع الأتراك. إلاّ أنهما واجهتا في مؤتمر فرساي أطرافاً عديدة تمثل ناطقين باسم الشعوب التي أخضعها العثمانيون لحكمهم، ففضلاً عن الوفود المتنافسة القادمة من أرمينيا، ووفدين كرديين، وآخر آشوري وثلاثة وفود عربيّة، كان هناك سبعة وثلاثون وفداً مستقلاً آخر.

عشرة آلاف قاصدٍ زخرت بهم باريس وضاقت على رحبها. كلهم قدم من أجل المؤتمر.

ووضعت على الطاولة العهود، والمعاهدات والإتفاقات، والتوصيات وهي كثيرة[٦]. وادعى (لويد جورج) أن معاهدات باريس تصمنت أكبر قدر من التحرر القومي للشعوب المستعبدة، يفوق ما سجلته أية تسوية تمت بعد حربٍ. وأن ليس هناك تسوية سلميّة حررت مثل هذا العدد

(٥) كذلك نجحت بريطانيا في استبعاد إيران من أعمال المؤتمر بعد أن بسطت عليها نوعاً من الحماية بالأتفاق مع فرنسا في ١٩ آب ١٩١٩.

(٦) من ذلك إتفاق القسطنطينية للعام (١٩١٥)، ومعاهدة لندن (١٩١٥)، وتعهدات مكماهون – حسين (١٩١٥–١٩١٦) واتفاق سايكس – بيكو– سازانوف) (١٩١٦) واتفاق سان جان دي موريين (١٩١٧)، ووعد بلفور (١٩١٧)، تعهدات هوگارث للشريف (١٩١٨)، وتصريح الدول السبع (١٩١٧)، والتصريح الأنگلوفرنسي (١٩١٨)، ونقاط ولسن الأربع عشرة، والخاتمات الأربع (٤ تموز) ١٩١٨، والخصوصيات الخمس (٢٧ أيلول ١٩١٨) وغيرها من الإتفاقات المعقودة أثناء الحرب للشعوب والعهود المقطوعة لها.

من قبضة الطغيان كتلك التي حصلت العام ١٩١٩ في باريس[٧]. وبلغ به الحنق منتهاه وبشكل خاص عند الإدعاء بأن بريطانيا لم تبرّ بالوعد الذي قطعته للشعوب الناطقة بالعربية فكتب:

"بَرّ الحلفاء بالوعود التي تضمنتها تلك التصريحات، وأوفوا بعهودهم المقطوعة كاملةً. ليس هناك من فاق الحلفاء بدافعٍ من إخلاصٍ بحت – في الوفاء بما التزموا به للشعوب المضطهدة وبمقدار ما فعلناه للعرب. وإن نحن وضعنا موضع إعتبار تلك التضحيات التي بذلها الحلفاء ولاسيما بريطانيا وإمبراطوريتها – فليس للعرب أن يتظلموا، إنهم نالوا إستقلالهم في العراق وفي الجزيرة العربيّة والأردن وسورية في حين أن معظم الشعوب المنتمية للعروبة حاربت الى جانب الأتراك مضطهديها وأخصّ بالذكر منهم عرب فلسطين الذين قاتلوا من أجل إبقاء بلادهم خاضعة للحكم التركي"[٨]

★★★

في ١٣ أيلول ١٩١٩ وبعد أن نفد كلّ ما في جعبة البريطانيين من حيل ومناورات لإبقاء فرنسا بعيدةً عن الشرق الأوسط، أعلنت حكومتهم بأنها ستسحب كلّ قواتها من سورية إبتداءً من شهر تشرين الثاني. وكانت عند كلمتها. تركت (فيصلاً) وحده بمواجهة الفرنسيين وقالت إنها أوفت بتعهداتها للجهتين وما عليها من لوم أو تثريب.

إدعاء مخجل! هم يعرفون حق المعرفة أن (فيصلاً) ورهطه لا يملكون من قوةٍ تستطيع مواجهة الفرنسيين... أولئك الذين اخترعوا قصّة المائة ألف مقاتل التي يتألف منها الجيش السوري. وعَدّ جماعة المكتب العربي في القاهرة هذا الإنسحاب خيانةً وغدراً مثلما رآه (فيصل). وقتذاك كان (كليمانصو) مستعداً للقبول بـ(فيصل) ملكاً، لو أنه لقيه في مُتنصّف الطريق ووافق على إجراء مفاوضات يعترف بنتيجتها بالأقلّ الممكن من الشروط الفرنسية. وهي: الإذعان والتسليم بحق فرنسا في حكم لبنان الكبير، وأن تكون سورية دولة موالية لفرنسا تمنحها مركز الدولة المفضلة (كما حصل في العراق فيما بعد).

(٧) أفتتح مؤتمر پاريس رسمياً في كانون الثاني ١٩١٩ إلاّ أن القرارات المتعلقة بمصير الإمبراطورية العثمانية تم التوصل اليها في مدينة (سان ريمو) بالريڤيرا الإيطالية في نيسان ١٩٢٠. وقد ألغت هذه المعاهدة ضمناً معاهدة (سيڤر) التي وقعت في ضاحية (سيڤر) بپاريس في ١٠ آب ١٩٢٠.

(٨) مذكرات لويد جورج: المرجع السالف، الص ٧٢٣–٧٢٤.

هذه الشروط وضعت (فيصلاً) بين نارين. إذ وجد نفسه وسطاً بين قوى متصارعة. فالقوميون العرب الذين أسكرتهم خمرة فوزٍ لم يشاركوا فيه ولاسيما الدمشقيون منهم الذين يدّعون بأنهم أتباعه في حين لاتربطهم به رابطة ما، كانوا على استعداد لتركه يطلق على نفسه صفة الحاكم عليهم شريطة أن لايدع للفرنسيين أي سيطرة على البلاد. في حين كان الفرنسيون مستعدين لتركه يطلق على نفسه الحاكم شريطة أن لايحول دونهم ودون دخول البلاد. و(فيصل) الغريب في الأرض السورية لايجد أمامه من سبيل غير مفاوضةٍ كلّ ما كان يأمل منها هو الحصول على بعض التنازلات من الحكومة الفرنسية ثم محاولة الحصول على بعض التنازلات من المجاهدين القوميين في دمشق.

في تلك الفترة وبعد عام ونصف عام من نهاية الحرب بدت دمشق ملتقى السياسيين والعسكريين العثمانيين المتقاعدين الناقمين الحائرين المتقاطرين من البلاد العربيّة، وهم يتدافعون بالمناكب ويتسابقون في معركة التقرب من مراكز السلطة، يتبارون في إظهار عواطفهم القوميّة وإخلاصهم للقضية العربية وقد سرت فيهم حميّ القومية والإستقلال العربيين سرياناً أعماهم عن رؤية الواقع. معظم هؤلاء القوم ولانفضح سرّاً كانوا أعداء للحلفاء الى آخر مرحلةٍ من مراحل الحرب، يدافعون عن كيان الإمبراطورية العثمانية ووحدتها. إنهم الآن يدافعون عن الحقوق القومية العربيّة. والعداء واحدٌ وإن اختلف سببه ومأتاه الآن.

أمام الضغط المزدوج المتزايد ومن أجل مقابلة العناد الفرنسي، دعا (فيصل) الى مؤتمر عام سوريّ بشعور مفهوم بأنه غريب عن دمشق وسورية، ولمعرفته بمباديء الرئيس الأمريكي. وكان يقصد من عقد المؤتمر أيضاً تثبيت المطالب التي هيأها لمؤتمر الصلح، وكذلك ليبرهن للمؤتمر بأنه الناطق الحقيقي باسم الشعب الذي يسكن سورية.

والتأم المؤتمر السوريّ العام في ٦ من حزيران ١٩١٩.

أمر واحد غاب عن أدراك (فيصل) وهو ضرورة السيطرة على إتجاهات المجلس بتأمين مندوبين له مستعدين للموافقة على الإمتيازات التي سيضطر الى النزول عنها للفرنسيين تمشياً مع الوضع الدوليّ.

الحرس التقليدي القديم المتكون من أسر سورية المتنفذة الحاكمة في كلّ من دمشق وحمص وحماه وحلب[٩]. وهم قبل وجود (فيصل) موالون للعثمانيين، بقي معظمهم أعداء لـ(فيصل)

(٩) على سبيل المثال لا الحصر: الأتاسيّون، وآل العظم، وآل النشاشيبي، والأرسلانيون، والحورانيون، =

ورهطه وللجمعيات القومية من العسكريين وفازوا بمقاعد في المدن الأربع وغيرها. لكن جمعيات القوميين المتطرفين ونواديهم نجحت في القبض على ناصية المؤتمر بعد عقدها صفقةً مع عناصر من الحرس التقليدي القديم[١٠].

أعضاء جمعية العهد وهي واحدة من جمعيات ثلاث[١١] يسيطر عليها ضباط عراقيون إنحصر اهتمامهم بمستقبل بلادهم. وأمّا النادي العربي الذي يسيطر عليه مندوبون من فلسطين وهو هيئة معادية للصهيونية عداءً محكماً. فقد كرس أعضاؤه جهودهم في إرغام (فيصل) على التنكر للوعد الذي قطعه بخصوص استقرار اليهود في بلادهم، وكان عدد من أعضاء لجنته التنفيذية يحتل مراكز هامة في حكومة (فيصل) طوال فترة الحرب. وكذلك حقق الفلسطينيون لأنفسهم مركز ثقلٍ في (حزب الإستقلال) ذي القاعدة الشعبية الواسعة. وهو حزب أسسه النادي القومي وكان أكثر مَن برزوا من جميع الكتل والجمعيات التي ذكرناها.

لم يكن هناك أي تردد في المصادقة على قرارات المؤتمر بما يشبه الإجماع[١٢]: الدعوة الى إنشاء دولة موحّدة في (سورية الطبيعية) ويضمنها فلسطين ورفض كلّ من إتفاق (سايكس بيكو سازانوف) ووعد بلفور. والموافقة على اعتلاء فيصل عرش سورية، ملكاً دستورياً يملك ولايحكم وإقامة نظام حكم ديمقراطي نيابي كتلك الأنظمة السائدة في الديمقراطيات الغربية سواءً بسواء.

في الوقت الذي أعلنت دول الحلفاء في (سان ريمو) عن نيتها وضع الأقطار الناطقة بالعربية تحت الوصاية مقسمةً بين فرنسا وبريطانيا، كان (فيصل) قد نفض يده من المؤتمر بعد أن عيل صبره في قساوة واقع يمليه الظرف السياسيّ. ولخيبة أمله في أن يرى سورية تحت الوصاية البريطانية أو الأمريكية، وتطلعاته في المساندة الصهيونية ضدّ مطالب فرنسا، قرر نهائياً أن لايكون ضمن المشهد الدرامي في دمشق. وشدّ الرحال الى باريس.

= والبرازيون، وآل اليوسف والگيلانيون، والجزائريون، وآل الداعوق، وآل القوتلي، والعظمة، وآل سلام، والصلح وغيرهم... (بينهم عدد كبير من الأسر ذات أرومة غير عربيّة).

(١٠) أيلي خضُوري: المرجع السالف. مطبعة كمبردج ١٩٨٣ ص١٥١.

(١١) القحطانية والفتاة.

(١٢) ذكر المؤرخون أيضاً أن فكرة المؤتمر لم تكن بمبادأة من (فيصل)، بل كانت فكرة الساسة والقوميين السوريين الذين سلّموا بشرعية تمثيل فيصل في مؤتمر الصلح، وأرادوا إعطاءه صفة رسميّة. ومما يذكر في هذا الوقت الذي كان المؤتمر الذي عاد الى الإنعقاد في آذار يتدارس مواد القانون الأساس للدولة الجديدة عن طريق لجنةٍ برئاسة ياسين الهاشمي. قرر المجلس الأعلى لمؤتمر سان ريمو إنتداب فرنسا على لبنان وسورية، وإنتدابٍ بريطانيا على العراق وفلسطين وشرق الأردن.

وفي أوائل كانون الثاني ١٩٢٠ توصل الى اتفاق سرّي مع (كليمانصو). ارتؤي أن يكون سرّياً لأن رئيس الحكومة الفرنسية كان يعتزم دخول معركة إنتخابات رئاسة الجمهورية. ولم يكن بوسعه إعطاء خصومه سلاحاً يشهرونه بوجهه أثناء المعركة، بادعائهم أن موقفه من سورية لم يكن يتفق ومصلحة البلاد وإنه فرّط بها. قضى هذا الإتفاق بأن يُسمح لفيصل بإقامة دولة مستقلة بمستشارين فرنسيين فحسب. والمخطط كله كان يؤول الى وضع البلاد تحت وصايةٍ أخفّ شروطاً بكثيرٍ من الوصاية التي فرضت على العراق فيما بعد.

كانت شروطاً سخية لايقبل بها أي واحدٍ من صانعي السياسة في فرنسا. وليس بينهم من يوافق على أن يتمتع السوريون بأيّ درجة من الاستقلال، بل حتى أن يقبلوا ببقاء (فيصل) الموالي للبريطانيين في سورية ناهيك باعتلاء عرشها.

فشل (كليمانصو) في الإنتخابات فاعتزل الحكم وطلق العمل السياسي طلاقاً بائناً في كانون الثاني ١٩٢٠. وحلّ محلّه (الكساندر ميلّران) وهو زعيم كتلةٍ استعمارية المنحى قوية الجانب يدعمها البرلمان. ولم تجد حكومته نفسها ملزمةً بتطبيق إتفاق (فيصل - كليمانصو) ولا كان همها قلامة ظفر مسألة المحافظة على ماء وجه بريطانيا في الشرق الأوسط، أو إحترام تعهداتها للآخرين[١٣] فبقي أمل (فيصل) الأخير مرتهناً بأن يشعر الفرنيسون بضرورة تطبيق الاتفاقية عند علمهم بها وأن يكون القوميون في سورية مستعدين للرضا بها. فترك باريس ووصل دمشق في ١٤ من كانون الثاني ليجد القوميين العرب غير مستعدين لقبول أي دور فرنسي في شؤون سورية. فأنذر واحدة من الجمعيات العربية بأن رفض الإتفاق يعني الحرب مع فرنسا، فكان جواب الجمعية:

"نحن مستعدون لإعلان الحرب على فرنسا وإنكلترا معاً"[١٤]

وبعد أيام قلائل صوت المؤتمر السوري بالإجماع على رفض الاتفاق. وبعد هذا الفشل راح (فيصل) يعدّل من موقفه ونهجه، فتحدث وكأنه يقصد العمل مع القوميين ونقل عنه في شباط من السنة عينها قوله في حديث له:

(١٣) بخلوّ سورية من التواجد البريطاني، بات الجوّ ملائماً ليفرض الحلفاء جميعاً شروطهم على الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي ادّى الى تقسيم أسلابها على الدولتين العظيمتين وهي بلاد الشرق الأوسط الناطقة بالعربية أمّا بالنفوذ أو بمقتضى معاهدات أو بطريق الإنتداب. فبموجب معاهدة سيڤر (آب ١٩٢٠) التي وقعها السلطان محمد السادس متردداً منحت أرمينيا استقلالاً وأعطى كردستان حكماً ذاتياً ومثله للكلدوآشوريين.

(١٤) أندرو م. كريستوفر: (أوج التوسع الفرنسي). المرجع السالف، ص٢١٥.

"الفوز باستقلال عربي تام ضدّ نيات فرنسا ولو كان بحدّ السيّف"[١٥]

محض ديماگوگية قصد منها مباراة ديماگوگية القوميين لكسب مساندة الأوساط الشعبية. أقوال جوفاء تتجاهل الواقع وتتسم بكثير من التهور وعدم الفطنة، وبين الحماسة النارية والفشل والخيبة يكون الوقت قصيراً دائماً عند القوميين العرب كما سنرى.

في الخفاء نشط (فيصل) جداً للتقرب الى الفريق المحافظ من الحرس التقليدي والأسر العريقة لكسبها والحصول منها على مساندة سياسية أزاء فرنسا. هؤلاء أعداؤه القدماء الذين وجدوا مصالحهم ونفوذهم مهددين بإندفاعات القوميين، ما لبثوا أن انحازوا الى (فيصل) الذي أقنعهم بتأليف حزب جديد أطلق عليه اسم (الحزب الوطني).

في العلن، دعا هذا الحزب الى استقلال سورية الطبيعية أو (الكبرى) كما سمّاها. ولكنه كان مستعداً في السر للقبول باتفاق (فيصل - كليمانصو): مجرد (استقلال) فحسب. ولم يصرّ على صيغة (إستقلال تام) وهي الصيغة التي تبنتها قرارات المؤتمر. وكذلك كان الحزب مستعداً لقبول الحضور الصهيوني في فلسطين[١٦] وطناً.

تمّ تأليف الحزب قبيل انعقاد المؤتمر العام. وشعر القوميون المجاهدون بما بُيّت. ولاستباق (الحزب الوطني) في العمل والنشاط، وقبل تنظيم قواه، بادرت كتلهم الى دعوة المؤتمر للإنعقاد وصوّت على القرارات التي سبق ذكرها[١٧]. في الوقت ذاته واجه وفدٌ فلسطيني الحاكم العسكري البريطاني في القدس بقرار مقاومة الحركة الصهيونية وبأنّ فلسطين ستكون جزء من الدولة السورية المرتقبة. وبادرت الكتلة العراقية بعقد إجتماع خاص، تمّ الإعلان فيه عن استقلال ولايتي بغداد والبصرة بدولة واحدة ونصب الأمير (عبدالله) شقيق فيصل ملكاً عليها[١٨].

بوغتت بريطانيا بقرارات مؤتمر دمشق رغم استيائها من موقف فرنسا المتعصب وبادرت

(١٥) جوخا نيڤاكيڤي Jukha Nevakivi: (بريطانيا وفرنسا وعرب الشرق الأوسط Britain, France and the Arabs of the Middle East 1914-1920) لندن ١٩٢٠ ص٢١٦.

(١٦) فيليب الجوزي: «الوجهاء الحضريون والقومية العربيّة Urban Notables and Arab Nationlism» مطبعة كمبردج ١٩٨٣ ص ٦٦.

(١٧) جوخا نيڤاكيڤي: المرجع السالف، ص٢١٧.

(١٨) آرون ا. كليمان: أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة في ١٩٢١ Faundation of the British Policy in the Arabs World: The Cairo Confernce of 1921» مطبعة جون هويكنز ١٩٧٠، ص٢٢١.

بتحذير (فيصل) من الآثار الخطيرة التي ستنجم عن اتخاذ أيّ خطوة عمليّة لوضع تلك القرارات موضع تطبيق[١٩]. إلاّ أن (فيصل) الذي بان عجزه عن السيطرة على المؤتمر، لم يقف عند حَدّ إعطاء الضوء الأخضر لأتباعه وللقوميين لشنّ حرب أنصار ضد القوات الفرنسية والميليشات المسيحية المحليّة الموالية التي جنّدها الفرنسيون في حينه، ونشرها على طول خطّ الساحل، بل أقدم على طلب المساعدة من تركيا الكمالية التي كانت قواتها وقتذاك تكيل ضربات ناجحة للفرنسيين في (كيليكيا). ومنع (فيصل) وحلفاؤه الجدد من المجاهدين القوميين، الفرنسيين من استخدام سكة حديد (حلب) فحيل بينهم وبين تعزيز قواتهم هناك بنجدات بريّة وأرغموا على إرسالها الى (كيليكيا) بحراً.

ونشأ حلف وتعاون عملي غير معلن رسميّاً بين تركيا الكمالية والقوميين العرب في سورية. وبقوا لايفهمون كم كان وضعهم ووضع (فيصل) يعتمد على المساندة البريطانية. هؤلاء الذين أعلنوا استقلال ولايتي بغداد والبصرة لم يدروا بأن عملهم هذا المبتسر سيحمل بريطانيا على مساندة فرنسا بالأخير، والتسليم لها دون اعتراض - الهيمنة على المقدّرات السورية. وأنه يتسبب في عودة الصفاء والوئام ثم التعاون بين الحليفين على مائدة الشرق الأوسط. وكانت قد تقطعت بينهما الأسباب خلال اجتماعات مؤتمر الصلح.

و(لويد جورج) بالذات الذي كان يفرك كفيه فرحاً للتحدي الذي أبداه السوريون، لم يجد بالأخير مندوحةً من مساندة فرنسا فيما انتوته. أجل، كان قوميو البلاد الناطقة بالعربية أكثر سذاجةً وأقل تبصراً بالعواقب في شؤون السياسة الدولية ومنعرجاتها، أكثر سذاجة مما يتوقع منهم في تلك الظروف. وكّل المسألة هي أن الشعور القومي والحاجة الى التحرر على هذا الأساس، لم ينمُ عندهم نمواً طبيعياً، وإنما جاء في حلم ليلة صيف قائظ على بساط ريح بريطاني. لم يحاربوا من أجله ولم يضحوا ولم يدفعوا فيه ثمناً كذلك الثمن الذي اعتادت الشعوب والأمم دفعه من أجل قضاياها المصيرية الكبرى.

كان أوّل اهتمام للفرنسيين فصلُ القوميين السوريين عن الزوج التركي الجديد وفصم عرى الحلف الخطر مع مصطفى كمال. فأسرعت الحكومة بإرسال وفدٍ الى (أنقرة) مقرّ قيادة هذا الثائر وعاصمته الجديدة، ونجح (روبير دي كاي) كبير الممثلين في سورية ورئيس الوفد في عقد هدنة مؤقتة معه.

بعد هذا وعلى أثر جلاء القوات البريطانية وتحييد لندن وخروج أمريكا من الميدان، أصدرت

(١٩) المرجع السالف، ص٢٢٣.

باريس أمراً في ٢٧ من أيار ١٩٢٠ للجنرال (گورو) قائد قواتها في بيروت بالتهيؤ لمنازلة قوات الجيش العربي. وفي الرابع عشر من تموز وهو يوم الإحتفال بسقوط الباستيل في ١٧٨٩ وانطلاقة الثورة الفرنسية وجه (گورو) إنذاراً لفيصل فيه شروط لايمكن القبول بها على أية حال ومنها نزع سلاح الجيش العربي وحلّه.

مع هذا بادر (فيصل) الى إبلاغه بقبولها - لاشك إنه كان قد فقد السيطرة على أعصابه إذ وضع نفسه تحت رحمة القوميين الذين هيجوا عليه دمشق، إلاّ أن (گورو) ووفْقَ أوامر مباشرة من باريس تأمره بتنفيذ خطة الزحف رغم وصول موافقة (فيصل)، بادر الى العمل وكأن الموافقة غير كافية، وتردد (دي كاي) قليلاً. إلاّ أن الجنرال (گورو) تغلب على تردده وأجاب (فيصل) بان استسلامه جاء متأخراً فقد سبق وتحرك الجيش نحو دمشق. آنذاك لم يكن للفرنسيين قوات كبيرة تكفي لقتالٍ ما مهما كان حجمه وجديته. وساء الموقف الفرنسي أيضاً عندما نقضت تركيا الكمالية الهدنة واتضح الخطر العظيم الذي تتعرض له الحملة وبدا للحظةٍ وكأن الفرنسيين وقعوا في كمين نَصبَه عَدوّان. إلاّ أن آلهة الحظ بل خور عزيمة القوميين بالأحرى، خدمهم بشكل فاق تصور الجنرال (گورو). وحقيقة الأمر هي أن ذلك (الجيش العربي) الذي قدّرته لندن بمائة ألف ذاب جملةً وتفصيلاً كما يذوب الثلج بقدوم الربيع، وذهبت ريحه مع أصداء صراخ وهتاف متظاهري دمشق الذين غصت بهم شوارعها.

لم تجد القوات الفرنسية لعجبها الشديد أي مقاومة.

لم تكن هناك مواجهة. لم تحاول أي مجموعة مسلحّة الوقوف في وجه الزحف الفرنسي. ومهما كتب المؤرخون العرب من إشادة بالمعارك الخياليّة وكل ما نسج خيال القوميين من روايات التضحيات والشجاعة في المعارك الضاربة... فهذا هو الواقع مع الأسف. كان معظم القوات الفرنسية يتألف من جنود سنغاليين بإمرة ضباط فرنسيين. واقتضت خطة الزحف باختيار أقصر الطرق المؤدية الى دمشق وأشدّها خطراً في عين الوقت. فقد تقدم عامل الوقت على عامل الحذر ولصالح المباغتة. ووجب على القطعات بمقتضى ذلك أن تخترق شُعُباً جبلية صعبة وتمرّ بخوانق. وكان بالإمكان وبحرب أنصارٍ منظمة تشرف عليها قيادة لاتحتاج إلى كفاءة عالية أو عبقرية عسكرية - تشتيت شمل القوة الزاحفة التي تتألف من فرقتين غير كاملتين (بحدود ١٤٠٠٠ جندي) وتمزيقها دون عناء في تلك الشُعُب الجبلية، إلاّ أن بقايا قوة (فيصل) وقوميي سورية المتطوعين والميليشيا انتظرت الفرنسيين حتى خرجوا الى السّهل وعندما ظهر في الأفق سرب من الطائرات الفرنسية راح يحوم فوق (فيصل) وأتباعه وفوق

دمشق، فدب الخوف في نفوس أولئك الذين كانوا قبل أقلّ من سنةٍ واحدة جنوداً عثمانيين مع (الباش بزق: الميليشا) البدو وولوا على أعقابهم دون مقاومة.

هذه الحادثة سميت في كتب التاريخ باسم معركة (ميسلون) وهي ضاحية لدمشق. وخلدت في الكتب بمقتل وزير الدفاع الذي سَلّ سيفه وراح يهيب بالفارين ويحثهم على الصمود، فصرعته رصاصة طائشة. وبعد ثلاثة أيام دخلت هذه القوات دمشق وأمرَ القائد (فيصلاً) بمغادرة البلاد فتركها بعد يومين مع نفر من أصحابه وخلصائه، حزيناً كاسف البال ينعي مصيره لائماً قوميي دمشق أكثر من لومه المحتل[٢٠] وأعلن (مللرّان):

"إن سورية كلّها صارت في قبضة فرنسا والى الأبد"[٢١]

وباشر الفرنسيون في تقطيع سورية الى وحدات سياسية صغيرة، فخططت حدود ما دعته بلبنان الكبير[٢٢] وهو لبنان اليوم وجعلته كياناً واحداً بموجب قرار اتخذ في الأول من أيلول

(٢٠) روى أحد مرافقيه في المطار بدمشق، إنه كان يردد هذا البيت بمرارة وأسف:
وَمَنْ رعى غَنَماً في أرضِ مَسبعةٍ ونَام عنها، تَولىّ رعيها الأسدُ
(الأرض المسبعة التي تكثر فيها الوحوش أيَ الضواري) والقصد مفهوم.

(٢١) أرون س. كليمان: المرجع السالف. مطبعة جون هوبكنز ١٩٧٧ ص٥١.

(٢٢) دخل ما دعي بلبنان الكبير (الجمهورية اللبنانية اليوم) في حكم العثمانيين في العام ١٥١٦، أثناء زحف السلطان (سليم ياووز) على مصر. ووزعت أراضيه على عدد من الولايات، فكان شماله جزء من ولاية طرابلس وجنوبه جزء من ولاية صيدا. وشرقه (البقاع) جزءً من ولاية دمشق. وبقي الحال كذلك حتى الغيت ولايتا صيدا وطرابلس وأنشئت ولاية بيروت، خلال تلك المدة تم نوع من استقلال ذاتي لأجزاء منه (الشهابيون أخيراً وقبلهم المعنيّون والدروز الخ...) وهو ما عرف بـ(جبل لبنان). في الواقع أن هذه السلسلة الجبلية سكنتها بالتعاقب طوائف شيعية إثنا عشرية، ومجموعات سنية وإسماعيلية ودرزية. وجاء زمن كانت فيه الشيعة مستظهرة في لبنان بسبب صلتهم بالأسرة الفاطمية الحاكمة في مصر حتى شتت المماليك البحرية والبرجيّة شملهم عندما قبضوا على ناصية الحكم وأعملوا السيف في رقابهم وأجلوهم تقريباً عن الجبال ما بين أعوام ١٢٩٢–١٣٠٥. وما لبث إسماعيليو وادي التيّم والشوف أن تحولوا الى المذهب الدرزي. أما الموارنة المسيحيون فكانوا يحتلون شمال البلاد وبضمنها المنطقة الجبليّة، إلاّ أن نفوذهم وسكناهم امتدا جنوباً بعد الضربات التي مني بها الشيعة. وفي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر استظهروا في الوسط وتواجدوا في الجنوب. وزاد عدد السنّية بتحول قسم كبير من الشيعة. ثم هاجر الى البلاد مجموعات سنيّة وطوائف مسيحيّة من داخلية سورية الحالية. وقوي ساعد الموارنة واستظهروا بالتدخل الفرنسي والأوروبي. عندما تنصر الأمير (بشير الشهابي) على المذهب الماروني ونفا عنه الإسلام وتبعهُ قسم من أفراد الأسرة (حكموا بعد المعنيين ١٧٩٧–١٨٤١). وبين العام ١٨٤٢ و١٨٥٨ قُسّم جبل لبنان الى قائمقاميتين على أساس طائفي. واحدة مارونية في الشمال وأخرى درزية في الجنوب. وآل التقسيم الى فتنةٍ طائفية تخللتها مذابح وقتول وحروب دامية. وتدخلت فرنسا للمرّة الرابعة بزعم حماية المسيحيين. وسوي الأمر كما تقدم بيانه بمعرفة لجنة دولية ترأسها عثماني وتمثلت فيها فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وپروسيا. ووضعت اللجنة في أوائل حزيران ١٨٦١ نظاماً =

١٩٢٠. وهو تقريباً عين الحدود التي رسمها اتفاق (سايكس بيكو سازانوف) بإضافة المدن الساحلية (بيروت وطرابلس وصيدا وصور) ووادي البقاع. وليس في هذه المناطق والمدن ما كان ضمن متصرفية (جبل لبنان) العثمانية. حيث تركزت القوى المسيحية. أضاف ضَمّ هذه المدن والمناطق اليهم عدداً كبيراً من السنيّة والشيعة.

وإذا كان هذا الامتدادُ والضمُ السبب الذي أدىّ الى سفك الدماء في العقدين الثامن والتاسع من هذا القرن، حيث هوجم المسيحيون في بلادٍ باتوا فيها قلّة. وسواء في الأمر أكان الاحتراب من عمل المارونيين الخائفين على مركزهم السياسي والمتطيرين من أشباح مستقبل مظلم اتخذت فيه القوميّة العربية ثوباً دينياً وطابعاً جهادياً، ونضت عنها ثوب الدين للّه والوطن للجميع. أو كان نتيجة السياسة الفرنسية والضغوط الفرنسية، أو بسبب نزوح الفلسطينيين وصيرورتهم عامل إقلاقٍ ديني وسياسي. مدّ الأيادي والمصالح التي دفعت الجنرال (گورو) الى اتخاذ قرار لم يكن بمقدور أحدٍ أن يتنبأ بالمصائب والمخاطر التي سيجرّها على رؤوس أبناء البلاد، أو ان يقدرّها تقديراً كاملاً.

السهولة التي تمّ بها احتلال دمشق يبدو أنها فضحت دعوى (فيصل) والقوميين العرب بأنها عملية خداع لجأ إليها البريطانيون لكفّ يد فرنسا عن سورية. ورغم الانتفاضات المسلحة والإعتصابات العنيفة المحليّة التي تخلّلت فترة الإنتداب الفرنسي على سورية وما أريق فيها من دماءٍ وأحدثت من أضرار وخسار. وبإخراج الإصرار الفرنسي على حيازة سورية من المعادلة، يكون من الطبيعي جداً أن يحمّل التاريخ مسؤولية ما حصل كلاً من البريطانيين والقوميين العرب في سورية مناصفةً. أما أصولها فالبريطانيون وحدهم هم الذين يتحملون مسؤوليتها.

فعلوا ذلك مراراً وتكراراً. تخلوا عن الكُرد، وتخلوا عن الآشوريين، كما تخلوا فيما بعد عن شريف الحجاز بعد ان نفخوه وزادوه في حجمه أضعافاً. وشجعوا القوميين في سورية الى الحد الذي دفعهم فيه قصر عقلهم السياسي الى الإعتقاد بأن بريطانيا ستكون لهم ظهيراً عند مثار النقع. والنتيجة؟ بكل ما فيها من غرابة وطرافة أليمة. أن القوميين صاروا من ناحية ينعون على البريطانيين خذلانهم، والفرنسيون من جانبهم يلومون البريطانيين لأنهم نصبوا فيصل ملكاً. والعرب جميعاً يلومونهم لأنهم تخلوا عن (فيصل)!

= إدارياً خاصاً للجبل، قضى بأن يكون لبنان متصرفية تتمتع بحكم ذاتي. يعين لها متصرف مسيحي على ان لايكون من أهل البلاد.

ويحصل إنقلاب فجائي في المواقف تبعاً. ما وجد القوميون السوريون والفلسطينيون والعراقيون أنفسهم إلاّ وهم ينحازون الى (فيصل) ليكونوا في صفّ أعداء البريطانيين. ولكن ها هنا سؤال، ما الذي جعل البريطانيين يصرّون إصراراً لا مَردّ له على الإحتفاظ بوجودٍ لهم في البلاد الناطقة بالعربية؟

قيل للرّأي العام في أنگلترا أن واحداً من أهداف الحكومة هو مساندة حركة (فيصل) العربية. إلاّ أن عرب (فيصل) انحازوا الى الأعداء. فما الذي يدعوها الى الإستمرار في دعمهم حتى بعد أن تخلّت عن فيصل؟

سنرى فيما بعد هذا الدعم استمرّ في العراق الى أن شارف نصف القرن العشرين على نهايته. ورأى آية في إشراك القوات البريطانية في قمع الانتفاضات المسلحة الكردية المتعددة وفي المأساة الآشورية. والأنكى من هذا، أن هؤلاء القوميين الذين انحازوا الى (فيصل) كانوا دائماً عنصر إقلاق وإفسادٍ للعلاقات بين الحليفتين الطبيبة بالأصل. طالما وضعوا تلك العلاقة في كفّ القدر في أماكن عدّة، منها ساحل فلسطين، وداخلية فلسطين، وما وراء نهر الأردن، الى الحدّ الذي يحمل الفرنسيين على التأهب لغزو شرقي الأردن، والمخاطرة بمواجهة عسكرية بين الحليفتين لايرغبان فيها.

أضف الى هذا ازدياد قلق الفرنسيين من اليهود، الذين شرعوا يتقاطرون بأعداد متكاثرة من روسيا وشرق أوروپا الى الجهة الغربية من نهر الأردن، وقد وجدوا فيهم خطراً داهماً زاد في حراجته التحامل الديني للرأي العام الكاثوليكي الفرنسي واللبناني ضدّ القادمين الجدد. الأمر الذي دفع (دي كامي) الى إعتبارهم رسلاً للبلاشفة بقوله:

"إن الروح الثورية النبويّة التي كثيراً ما يمكن ملاحظتها عند اليهود قد انقلبت الى بلشفية"(٢٣)

أما رئيس «مؤسسة مدارس الشرق» فكان يرى:

"أن مباشرة العمل ضد مراكز البروتستانت واليهود في فلسطين هي ضرورة تتطلبها المصالح القومية الفرنسية وحدها. بل النوازع الدينية أيضاً. ليس من المقبول قط أن تقع بلاد السيد المسيح فريسة لليهودية وللزندقة الأنگلوسكسونية بل يجب أن تبقى تراثاً غير مدّنس. إنه لعار قوميّ وجريمة لايمكن إصلاح آثارها –

(٢٣) المرجع السالف، ص٢٢٠.

التقاعسُ عن استخلاص هذه الأرض المقدسة من اطماع حلفائنا وجشعهم البربري"(٢٤)

على أن البريطانيين من جهتهم كانوا يرون في التواجد الفرنسي خطراً يهدد البلاد الواقعة شرق نهر الأردن، وكانت آنذاك منطقة جرداء قفراء تكاد تبدو خالية من زرع أو ضرع وهي غير مسكونة. كانت مساحتها تقارب ٧٥٪ من المساحة الكلية التي تقرر دخولها ضمن منطقة الإنتداب البريطاني وهي فلسطين.

وهذا الأقليم كاد جيوفيزيائياً يكون جزءٌ من جزيرة العرب، سيما بحياة البداوة التي يحياها منتجعوه الموسميّون من رجال القبائل. وكان أثناء الحرب ميدان عمليات قوات (فيصل) الوحيد. وبقي لايحكمه أحد قبل دخول (اللنبي) أراضي فلسطين غرب الأردن، إذ تركه البريطانيون لفيصل ورهطه، ومن ثمّ ارتبطت إدارته بدمشق. وكانت غلطة، إذ ما أن طرد الفرنسيون فيصلاً وحكومته حتى صاروا في وضع يمكنهم من الإدعاء بحقٍ في الأرض بوصفهم خَلَفَ فيصل.

هذه الأرض التي عرفت فيما بعد بشرق الأردن، ثم بإمارة شرق الأردن ثم بالمملكة الأردنية الهاشمية، بدت إذذاك منطقةً تسودُها فوضى لا أوّل لها ولا آخر. تتحكم في مصائرها نزاعات وخصومات قبائلية، وتضارب مصالح في حقوق الرّعي والزراعة، كثيراً ما أدت الى اشتباكات دمويّة.

وكان ثَمّ خوف حقيقي من استغلال الفرنسيين هذا الوضع واتخاذه حجةً للإستيلاء على الأقليم وقت أن دبت الحركة في خصوم الفرنسيين من قوميي سورية، وقد جمعوا أشتاتهم للعمل على إعادة فيصل. هؤلاء ادّعوا بأنهم قد اعتزموا شن غارات أنصار ضدّ الفرنسيين إنطلاقاً من شرقي الأردن. وهو ما كان سيمنح الفرنسيين حجّة لاحتلال تلك الأراضي في الوقت الذي لم يكن للبريطانيين قوات عسكرية تذكر في فلسطين الغربية. وكل ما كان بوسع السلطات المحلية عمله هناك هو إقناع لندن بإرسال عددٍ من الإداريين والموظفين المدنيين إليها.

كتب النقيب سومرست برنتن Summerset Brenton المقيم هناك، يشرح الوضع لرؤسائه:

"السكانُ هنا يقولون: أن البريطانيين سينسحبون. ويبدو أن لا أحد منهم راضٍ باحتلالنا وليس بين الفوضى الكاملة وبيننا إلاّ خطوة واحدة... السكان هنا

(٢٤) رئيس جمعية دينية فرنسية تبشيرية تشرف على مدارس في الشرق الأدنى وهي كاثوليكية النجار. أنظر المرجع السالف، ص٢٢١.

لايؤلفون وحدة سياسية متجانسة ومتراصّة عنصرياً. هناك برزخ واسع حاد، يقوم بين البدو والحضر. الفريق الأخير يرغب في حكومة مستقرة محمية من أعمال العنف والإبتزاز الذي يفرضه الأولون عليهم. والبدو من جانبهم يفضلون بقاء الفوضى على استتباب الأمن والنظام، لأنهم يعيشون على النهب والسلب من الحضريين وعلى سرقة مواشيهم وأغنامهم ولايؤمل منهم تشكيل إدارة لبلادهم"(٢٥)

واهتم هذا العسكريّ بفكرة مستوحاة من واقع المنافسة بين بلاده وفرنسا، فاقترح الإتيان بممثل للأسرة الهاشمية (أسرة الشريف) يستخدم وجوده لإثارة مشاعر العداء للفرنسيين. فلم يعر أحدٌ اهتماماً باقتراحه في مبدء الأمر، فعمد الى حيلةٍ:

في ٩ أيلول كتب لمرجعه بأنه أعلن «جهاداً»! ضد الفرنسيين في سورية وجَنّد لذلك متطوعين وأطلق سراح محكومين من سجن بُليدة (عمّان) وألحقهم بقوته(٢٦).

وبعدها بيومين كتب بشيء من الإرتياح:

"إن الممثل الهاشمي الذي أرسل الى المنطقة (ولم يكن غير الأمير عبدالله إبن الشريف الثاني) قد نجح في تجنيد خمسين رجلاً"

لكنه أبدى عدم ارتياحه من موقف حكومته في مسألة الإدارة. وعاد يكتب:

"أن فكرة السيطرة على أراضٍ بعضهما يسكنه لصوص وهمج – عن طريق منحها حكماً ذاتياً بعددٍ من المشاورين البريطانيين وعلى سبيل التجربة، قد تبدو فكرة جذابة إلاّ أنها ستمنى بالفشل عند التطبيق"

لكن كيف قفز الأمير عبدالله الى الصورة فجأة؟

كما قلتُ التزمت بريطانيا سياسة اجتناب مواقف استفزاز حيال فرنسا لأسباب عدة، منها أنها سحبت كلّ قواتها تقريباً من الشرق الأوسط وسرحتهم، واجتنبت إزعاجهم في سورية عند مهاجمة دمشق، في حين أن الأمير يدعي أنه ما جاء الى (عمان) إلاّ "لتبديل الهواء" وقضاء أيام النقاهة من مرض اليرقان. لم يصدّق أحدٌ مدّعاه بالطبع. وليس واضحاً حتى الآن أكان هذا مقدمة لخطة معدّة في مكتب (برنتن) بتوجيه من حكومته أو هو محض مبادرة شخصية

(٢٥) عين المرجع: ص٢٢٦.
(٢٦) المرجع السالف: ص٢٢٧ وما بعدها.

منه لا دخل لأحد فيها؟

فالحَلّ الذي ارتآه (تشرشل) وقد بدا وكأنه من وحي الساعة، هو محاولة شراء (عبدالله) بعرض منصب الإمارة عليه في الأراضي الواقعة شرق نهر الأردن مقابل امتناعه عن التحرش بفرنسا في سورية. إذ كان يخشى اشتباكاً بين هؤلاء والقوات الفرنسية، يتمخض بالرد الفرنسي بالهجوم على فلسطين البريطانية. إلاّ أن اقتراحه اصطدم بعدد من الإحتجاجات. فالمندوب السامي في فلسطين (سر هربرت صموئل) احتج بقوله أن الإدارة المزمع إقامتها هي جزء من إدارة فلسطين الكلية، داخلة ضمن الحدود التي يمتد إليها الإنتداب بحسب قرار عصبة الأمم وليس من حق بريطانيا فصل هذه الأراضي من طرفٍ واحدٍ، وبموجب شروط الوصاية.

كان المندوب السامي يخشى أن يجعل فيصلُ شرقَ الأردن، بخلق كيان سياسي له قاعدةً للنشاط المعادي للصهيونية موجّه الى فلسطين. وهي أمنية مماثلة لما يعتمل في نفس (لويد جورج) الذي كان بدوره يخشى أن تعتبر فرنسا احتضانَ حكومة (عبدَالله) مساوياً لإعتبارها احتضانها (فيصلاً)، وهو عندها شخص غير مرغوب فيه persona non grata بحسب وصف الوثائق الفرنسية له. وكلاهما يجاور سورية الآن أحدهما من الشرق والآخر من الجنوب، إنها كما ترى عملية إستفزاز دائمي بالنسبة للفرنسيين. ولذلك كتب (لويد جورج) لتشرشل في ٢٢ آذار ١٩٢١ هذه البرقية:

"درست الوزارة اقتراحك حول شرق الأردن بكثير من التوجس والحذر. كان الشعور السائد أن تخطيط حدودين في آنٍ واحدٍ لأخوين في أقليمين مجاورين لمجال النفوذ الفرنسي قد تنظر إليه باريس بشك عظيم، وقد يترجم بأنه تهديد لمركزهم في سورية تمّ وضعهُ بناءً على خطة مرسومة مقصودة منّا. وأنا وإن كنت أقدّر الأسباب والدوافع التي حملتك على اقتراح حَلّ عربيّ لا فلسطينيّ لمسألة شرق الأردن. إلاّ اني أخشى أن تؤدي أي محاولة منك لإقامة وحدة عربيّة في هذه الأراضي، الى توريط بريطانيا في تعهدات ومشاكل فادحة الثمن هي في غنى عنها"(٢٧)

إلاّ أن تشرشل نجح بالأخير في إقناع حكومته برأيه. مُضيفاً إقتراحاً بضرورة تواجد عسكري، إذ بدون وجود قوة بريطانية، سيتعذر إقامة أي كيان سياسي، مشيراً في الوقت

(٢٧) گلبرت: (ونستن تشرشل ١٩١٦–١٩٢٢) المرجع السالف، ص١٤٠٧.

ذاته بأن الأمير (عبدالله) قد يتوقع بقاؤه مدة تزيد عن «الأشهر القليلة»، وانه على ضوء التجارب الماضية قد يكون عاملاً مساعداً في أستتباب الأمن والنظام، وأنه سيتعاون كذلك في مسألة أختيار شخصية محلية تقوم على رأس الحكم في تلك الأراضي.

في الواقع كان تشرشل يرى أن (عبدالله) قد يكون عاملاً مساعداً لكبح جماح الحركة الصهيونية والوقوف في وجه النفوذ الفرنسي مع قوميي سورية العرب. فبمقدور هاتين القوتين المؤتلفتين أن تُثبتا لهما قَدَما في تلك البقعة العربية الخالصة من فلسطين الكبرى. وبنظره أن "الحلّ الهاشمي" هو الكفيل بحلّ هذه المشاكل وليس بخلقها كما روّج له ناقدوه داخل الحكومة وخارجها.

العقبة الباقية تمثلت في البيت السعودي، الذي عارض بشدة رفع البيت الهاشمي إلى منصب سياسي آخر. لكن العقبة أزيلت بقبول عرض (تشرشل) على (عبدالعزيز) برفع راتبة السنوي الى مائة ألف پاون[٢٨]. بعد ارفضاض مؤتمر القاهرة في نهاية آذار، رحل (تشرشل) الى القدس والتقى (عبدالله) أربع مرات توصل خلالها الى أتفاقٍ كليّ معه. وكتب:

"موقف عبدالله كان معتدلاً حافلاً بالطيب والمودّة. أنه ذو أصالة سياسية وقد أتخذ بالنسبة الى التظاهرات العربيّة ضد الصهيونية موقفاً صائباً تماماً وعنّف المتظاهرين وقال أن البريطانيين هم أصدقاؤه وأن الحكومة البريطانية سوف تفى بالتزاماتها لليهود... وافق على أن يتولى الحكم في شرقي الأردن لمدة ستة أشهر بمعاونة مشاورين بريطانيين (ضباط سياسيين) وبدعم ماليّ بريطاني لكن من دون حضور عسكري. ووافق كذلك على إنشاء قواعد جوية لنا... تحول عبدالله تماماً. أملي هو أن لايحزّ أتباعهُ رقبتَه، إنه شخص مهذب وودود للغاية"[٢٩]

مع هذا بقيت البلاد الجديدة التي عرفت بالأردن اختصاراً – مصدر قلق لوزراء المستعمرات المتعاقبين في الحكومات البريطانية. فبعد أسابيع قلائل فحسب مرت على تعيين (عبدالله) حاكماً للمنطقة. بدء المراقبون البريطانيون يستنتجون بأنه أضعف من أن يحكم. ففي شهر نيسان وبعد أقل من شهر على تنصيبه أصيبت سلطتهُ بانتكاسة، عندما ذُبح الوسطاء الذين أرسلهم لفض نزاع عشائري – ذبح النعاج، فاستجار بالبريطانيين طالباً إرسال قوةٍ، إلاّ أن المندوب السامي في فلسطين لم يرسل غير طائرات وفي الوقت عينه قدّم السفير الفرنسي في

(٢٨) المرجع السالف: ص٤١٤.
(٢٩) المرجع السالف (گلبرت: ونستن تشرشل) ص٤٠٥.

لندن احتجاجاً على وجود (عبدالله) في شرق نهر الأردن قائلاً أن وجوده سيكون مصدراً لأعمال عنفٍ ضدّ الفرنسيين في سورية. ولنلاحظ أن هذه وجهة نظر مخالفة لرأي الحكومة البريطانية التي راهنت على وجوده، عاملاً لمنع العنف وكانوا مخطئين إذ سرعان ما تحقق لهم أنه لم يكن قادراً ولا راغباً.

ففي آواخر حزيران نصب أربعةٌ مجهولو الهويّة كميناً للجنرال (گورو) حاكم سورية العسكري بقصد اغتياله. وأعلم (السر هربرت صموئيل) الوزير (تشرشل) بأن الشكوك تحوم حول الأردن بوصفه المصدر الذي جاء منه هؤلاء. وأشفع الفرنسيون احتجاجهم الأول بآخر أشدّ لهجةً.

لم يكن المندوب السامي في فلسطين سعيداً قطّ بما قررته لندن لـ(عبدالله). وكتب تشرشل:

"سببٌ واحدٌ من أسباب عديدة للنفرة وعدم الرضا الذي نجده عند الرأي العام هو أن سكان الضفة الشرقية من نهر الأردن ينظرون الى رهط (عبدالله) السوريين نظرة أزدراء ويعتبرونهم غير كفوئين، وسقط متاع لايرجى منهم خير"[٣٠]

في الواقع لم يكن في رحاب الشرق الأوسط العربي من البريطانيين من يعتقد إن وجود (عبدالله) سيؤثر في مجرى الأحداث غير رجل واحدٍ وهو (لورنس) وقد دافع عن وجهة نظره هذه بقوله:

"إن مجموع ما يكلف وجودُ عبدالله الخزينةَ هو أقل من نفقات فوجٍ عسكريّ. ونظامه لايضرّنا بشيء. ومهما يكن الحلّ الأخير الذي نتوصل إليه، فيجب أن يشترط فيه أن لايكون كثير التقشف وأن لايكون شديد الفاعلية(؟)"[٣١]

لم تكن الحكومة البريطانية في تلك الفترة مهيّأةً ولا قادرةً على اختيار واحدٍ من مصيريْن لهذه البقعة من الأرض: إما جعلها وحدة سياسية قائمة بذاتها بفصلها نهائياً عن فلسطين أو إلحاقها بالحجاز. لذلك كان الإبقاء على (عبدالله) فيها – من شأنه تأخير إتخاذ القرار وهو المطلوب حينذاك.

لكن تعليل (لورنس) حول التقشف والإقتصاد في النفقات وقع موقع استحسان من تشرشل بل أخذ بلبّه. وهو الذي جعل من ذلك شعاراً ونهجاً لوزارته حين تقلدها لاسيما وأن

(٣٠) آرون كليمان: المرجع السالف ص٢١٦.
(٣١) المرجع السالف (گلبرت: ونستن تشرشل) ص٤٠٦.

(عبدالله) الذي لم يَعُد له أيّ أمل في عرش العراق، كان قد تعهد للبريطانيين بالتعاون والاستعداد للتوقيع على معاهدة بريطانية – هاشمية حملها لورنس إليه بوصفه ممثلاً خاصاً لـ(تشرشل) مطلق الصلاحية.

وأمضى (لورنس) في الحجاز شهراً، حاول فيه إقناع الملك حسين بالتوقيع على معاهدة هي بمثابة تسوية عامة لكل الإدعاءات التي تقدم بها لنفسه وللعرب بدءً بالأيام الأولى من الحرب. ومن شروطها تأكيد بريطاني على الإعتراف به ملكاً على الحجاز ودفع مبلغ قدره مائة ألف پاون سترليني راتباً سنوياً (بقدر ما يأخذ عبدالعزيز آل سعود)، وفرض عليه مقابل ذلك الإعتراف بالإنتداب الفرنسي على سورية والإنتداب البريطاني على فلسطين.

كان (حسين) يقول أحياناً أنه سيوقع المعاهدة وأحياناً يمتنع. ويصف (لورنس) الموقف بقوله: "إنه يطلب الاعتراف بسيادته على كلّ الحكام العرب أينما كانوا!"

ويبلغ الحنق (بلورنس) حد هذا التعليق: "هذا الرجل الهرم في مكة، بات لايُطاق بالمرّة. لايمكن التعامل أو التفاهم معه بأيّ حال"

و(عبدالله)؟ بعد أشهر قلائل من إدعائه بأنه ما حلّ (عمان) إلاّ ترويحاً عن النفس، بدء يغّير تفكيره ويخطط للمستقبل، أي طموحه الى اعتلاء عرش سورية. ففي المبدء ترك البريطانيين يعتقدون بأنه لايعتزم البقاء طويلاً، لأن البلاد لا أهمية لها بنظره ولأنه يطمع في بلاد أوسع رحاباً. لكن (لورنس) كان على يقين بأن في وسعه إقناع (عبدالله) بمغادرة شرقي الأردن عندما يأزف وقت الرحيل. لكن وفي شهر تشرين الأول ١٩٢١ أبلغ لورنس مرجعَه بأن (عبدالله) ينوي البقاء نهائياً.

والظاهر هو أن تطورات جديدة شجعت عبدالله على الاعتقاد بأن الفرنسيين سيكونون بعد وقت قصير على استعداد للتفاوض معه وعقد اتفاق مصالحة تسمح له بالوصول الى هدفه المنشود الكبير. ولذلك قرر البقاء في هذا الموضع القريب.

في الوقت عينه كانت حاجة بريطانيا إلى إيجاد حاكم جيّد لشرقي الأردن قد أصيبت بفشل كبير وباتت ثانوية. فاكتفت بضمّ الرائد (سان جون فلبي) المشهور فيما بعد باسم (عبدالله فلبي) الى عبدالله مستشاراً رسمياً. في حين طفق العقيد (پيك F.G. Peak) صديق لورنس الشخصي يؤلف من البدو قوة نظامية مدربة. كانت في الواقع نواةً لتلك الوحدة العربية التي عرفت فيما بعد باللواء أو الفرقة العربية – تحت قيادة (جون كلوب) باشا الملقب بـ(أبو حْنّيك).

على أن فصل ما تبلغ مساحته ٧٥٪ من فلسطين وجعله وحدةً سياسية عربية كان في الواقع يعني منع اليهود من وضع قدم لهم فيها. وهو ما كان يخالف تصريح (بلفور) ويناقض صك الإنتداب على فلسطين.

كان تشرشل ضد تصريح بلفور بالأصل، وضدّ السماح لليهود بتخطي نهر الأردن الى الضفة الشرقية تبعاً. لذلك قرر تغيير شروط الإنتداب. وتمّ له ذلك على النحو المعروف وبسبب من هيمنة بريطانيا على عصبة الأمم وأعيدت صياغة صك الإنتداب على النحو الذي يمكن بريطانيا من استثناء شرق الأردن من شموله بتصريح (بلفور).

وانتاب زعماء الصهيونية القلق العظيم وقد تقلصّ مجال عملهم بعد فصْل هذه الأرض الواسعة. وانقلب قلقهم الى فزع عندما شرعت بريطانيا تفاوض الفرنسيين حول رسم الحدود الدولية بين فلسطين من جهةٍ وبين لبنان وسورية من جهةٍ أخرى، وقيامها خلال ذلك بالتنازل عن أرضٍ شمال فلسطين.

وكتب (حييم وايزمان) لتشرشل – وكأن فلسطين برمتها أصبحت ملك يمينهم:

"إن إتفاقية الحدود مع فرنسا حالت دون ولوج فلسطين حوض (الليطاني) وحرمانها من حيازة أعالي نهري الأردن واليرموك وانتزعت منها السهول الخصبة شرق بحيرة طبرية التي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت أفضل منطقة لإستيطان اليهود بشكل واسع النطاق... وأما من ناحية شرق الأردن فلتعلموا بان حقول (جلعاد) و(موآب) و(آدوم) مع نهري عرنون وجبعون[٣٢] هي جزءٌ من فلسطين تاريخياً وجغرافياً وإقتصادياً..."

مع هذا لم يقف زعماء اليهود وقفةً رجل واحدٍ بحملة قوية على عملية استحداث هذا الكيان العربي الجديد لأنهم كانوا يعتبرونه إجراءً إدارياً مؤقتاً ليس غير، مثلما كانت وزارة المستعمرات تعتبره. ولم يكن لتشرشل بأوسع خياله أن يتصور قطّ أنّ تنصيب عبدالله حاكماً لهذا الجزء من فلسطين سيورط بلاده في حربٍ عربيّة ضروس بين آل سعود والبيت الهاشمي.

فبعد سنة واحدة فحسب من قدوم عبدالله تحرّك (الإخوان) الوهابيون وبرزوا من تلك الصحراء التي لا حدود لها، ليهاجموا الحاكم الجديد فجأةً. لم يَقُمْ بين قوة من الهجّانة قوامها

(٣٢) رافد جبعون ينبع من مرتفعات عمان واسمه الحالي (وادي الزرافة) وعرنون هو وادي مجيب.

بين ثلاث آلاف وأربعة غير مسافة ساعة لتفاجأ بما لم يكن في الحسبان. فقد تولت الطائرات البريطانية وسياراتها المصفحة تشتيت شملها دون عناء.

وبمرور الزمن تبلورت سياسة بريطانية تشرشلية خاصّة للأردن. مالبثت أن باتت حقيقةً واقعة، احتلت البقية الجديدة اسماً في خارطة العالم واستقّر العامل الجديد في عاصمةٍ ليغدو وبعد حين قوة سياسية في لعبة الشرق الأوسط الكبيرة.

★★★

وماذا عن شبه جزيرة العرب؟

بدا في أوّل الأمر وكأن بريطانيا تقبض هناك على ناصية الحال. فأسطولها يسيطر سيطرة تامّة على مياه وسواحل البحر الأحمر غرباً. وعلى مياه الخليج الفارسي (أو العربي أو سمّه ما شئت) من ناحية الشرق وأخطر زعيمين فيها: إبن سعود وحسين صَنيعتان لها تُدفع رواتبهما من الخزينة البريطانية.

لكن، ما كادت الحرب تضع أوزارها، حتى وجدت لندن نفسها مضطرة الى الإقرار باضطراب سياستها في الجزيرة. فحليفاها هذان يشهران سيفيهما واحدهما في وجه الآخر. و(حسين) يلجّ ويصخب شاكياً بأنه مضطر الى إنفاق ١٢٠٠٠ پاون شهرياً من الإعانة التي تسعفه بها بريطانيا للدفاع عن نفسه ضدّ هجمات (إبن سعود) الذي كان يتسلم بدوره خمسة آلاف پاون شهرياً، تمتّ مضاعفتها فيما بعد[٣٣]. إعانات يصفها المقيم البريطاني في الحجاز بالسخف والغباء لأنها تؤدي الى حروب بين الجهتين[٣٤].

كان محتوماً أن تولّد هذه الحالة هماً لحكومة لويد جورج وأن تتمخض بخلاف حادٍ بين أعضائها حول ما يحسن عمله لحسم الموقف. وقد دام هذا الخلاف ليشلّ المقدرة على اتخاذ موقفٍ ثابت. ولم يتخذ قرار، وما أصدرت لندن من تعليمات وإنذارات، بقي ولم يُرسل. ويحصل أن يتخذ موظفون تنفيذيون في الموقع قرارات معينة، فلا يقال لهم ان موظفين آخرين أبطلوها.

بدء الخلاف بين الزعيمين العربيين حول ملكيّة واحتي (خرمة وترابه) الصغيرتين الواقعتين على الحدود التي نزل عنها (حسين) لغريمه. والقضية في الواقع ليست قضية واحتين فحسب،

(٣٣) بريتون گوپربوتش (المرجع السالف) ص٣٢٤. كاليفورنيا ١٩٧١.
(٣٤) المرجع السالف: ص٤٢٦.

بل أن حيازتهما يستتبع ولاء قبلياً تتمّ به السيطرة على أراضي رعي شاسعة[٣٥]. وليس هذا أيضاً. والسبب الأصلي هو الصراع المذهبي المحتدم.

لم يكن هناك إدعاء قوميّ. لم يكن ثم منافسة على من يكون زعيماً لعرب الجزيرة، بل هو نزاع على من سيكون زعيماً لمسلمي الجزيرة. وعلينا هنا أن نعرج بالقاريء الى ما أوردناه قبلاً وبشكل استطرادي[٣٦].

في أوائل ١٩١٨ أوردت "النشرة العربية" الصادرة في القاهرة نبأ حول احتجاج رفعه (الشريف) قال فيه أن سلطته مهدده بالدعوة الدينية التي تنشرها جماعة (إبن سعود). وحقيقة الأمر هي أن (إبن سعود) يبني إدعائه بالواحتين على واقع اعتناق أهلها مذهبه الوهابي. وهذا الواقع هو الذي أوحى له بالإفادة من التعصب للمذهب للوصول الى هدفه السياسي.

في نهاية العام ١٩١٢ بدأت حركة بعث في الجزيرة ذات طابع عجيب غير مألوف. في هذه الحركة الدينية التي قدرّ لها في وقت قصير أن تغيّر من حال الجزيرة، الذي امتد أكثر من عشرة قرون، لصالح ابن سعود، في هذه الحركة البيوريتانية وجدنا البدو يبيعون خيولهم وجمالهم وأغنامهم وسواها من الممتلكات في أسواق الحضر، ليستقروا معاً في مجمعات سكنية زراعية ذات طابع اشتراكي وليعيشوا عيشة خصاصةٍ وشظفٍ وكفاف وتزمّت تفرضها عليهم فلسفة الدعوة الوهابية ومبادئها. الاتجاه الجديد عُرفَ بـ(حركة الإخوان)، ولم يتردد إبن سعود ليضع نفسه على رأسها ليجد طوعَ عينيه جيشاً عقائدياً من البدو العرب الأصائل المجاهدين أصلب المقاتلين عوداً وأسرعهم الى التضحية.

في حركة (الإخوان) تضمحل سيادة رئيس القبيلة، في حين تنمو سلطة (إبن سعود) بوصفه زعيماً روحياً. وكان أخطر ما هدد سلطة (حسين)، انتشار هذه الدعوة في الحجاز، وهو السنيّ المذهب والوهابيون في نظره أصحاب بدعةٍ وزندقة، وهم في عين الوقت خصومٌ سياسيون. وواصل (حسين) يدفع الحملة تلو الحملة نحو (خُرمه وترابه) دون أن يحقق نجاحاً، لكن... في أيار ١٩١٩ بعد النصر المؤزر الذي أصابه الحلفاء، نجحت آخر حملةٍ له في الإستيلاء على (ترابه)، بقيادة ابنه (عبدالله) وبخمسة آلاف من مقاتلين مزودين بأسلحة وعتاد أنگليزيين

(٣٥) يسكن خرمه حوالي (٥٠٠٠٠) بعضهم من قبيلة سبيع وبعضهم من العبيد العتقاء وفيها عشرات من السادة. أما ترابة فيسكنها حوالي (٣٠٠٠) وهي بوابة مدينة الطائف.
(٣٦) راجع الفصل التاسع.

حديث. إلاّ أن إبن سعود أسرع من (الرياض) لإستخلاص الواحة. ولكن لم تقع المعركة الفاصلة التي استعد لها الجانبان، لأن قوّة وهابية قوامها ألف رجل وهي طليعة قوات إبن سعود – باغتت المعسكر الحجازي هناك ليلة ٢٥ من أيار وأعملت في الجماعة سيوفها وخناجرها وحرابها ذبحاً. وتمكن عبدالله من النجاة وهو (بدشداشة) نومه ولم يسلم من قوات الحجاز إلاّ نفرٌ[٣٧].

كانت هزيمة كاملة غير أن لندن لم تتردد في الشروع بعملية إنقاذ. أرسلت طائراتها الى الحجاز ووجه المندوب السامي في القاهرة باسم حكومته إنذاراً لإبن سعود[٣٨]. فلم يتردد هذا الداهية في إجتناب المواجهة وأذعن دون اعتراض مظهراً كل احترام للبريطانيين ومعتذراً بإنه بذل أعظم جهدٍ لكبح جماح (الإخوان) ذوي الرؤوس الحارة، حتى أنه كاد يفقده مركزه عندهم بسبب من ذلك.

إلاّ أن (حسين) المعاند المكابر، اتخذ موقفاً معاكساً برفضه الأنصياع الى النصيحة البريطانية. وركب رأسه مصراً على إدامة القتال. واقتضى كثير من الجهد والمداورة لإقناعه بعقد هدنة مع (إبن سعود) في آب ١٩٢٠.

وبهذا وعلى ضوء هذين المسلكين المختلفين، بدا وكأن لندن والقاهرة ساندتا الجانب غير العاقل الذي لايتفق مع مصالحهما. ولاسيما بعد أن حقق (إبن سعود) انتصارات جديدة باحتلال (العسير) وهو الأقليم الجبليّ في جنوب الحجاز، ثم تغلبه على خصمه التاريخي إبن الرشيد في ١٩٢١، وانتشار قواته التي قدرت في حينه وبكثير من المبالغة بمائة وخمسين

(٣٧) تختلف المصادر اختلافاً كبيراً في عدد القوات المشتبكة. كما تختلف في رواية ما حصل فعلاً. بعضها يقدر قوات عبدالله بـ(٨) آلاف. والمصادر النجدية تقدر عدد المهاجمين بـ(٤) آلاف. وقد اعترف عبدالله أنه لم يسلم من الـ(٨٥٠) حجازياً مقاتلاً غير (١٥٠). ويقول الإخوان أن جميع العتاد والأسلحة وقعت بأيديهم.

(٣٨) نص الإنذار البريطاني وجهه المندوب السامي في القاهرة بكتاب: "أمرتني حكومة صاحب الجلالة البريطانية بإبلاغكم بلزوم العودة الى نجد حال وصول كتابي هذا إليكم. وأن تتركوا خرمه وترابه منطقة غير مملوكة لأحد حتى تتقرر عائديتها بعد مفاوضات صلح يتم به تخطيط الحدود. فإن رفضتم بعد إطلاعكم على الكتاب، فإن حكومة صاحب الجلالة ستعد كل معاهدة بينها وبينكم ملغاة. كما ستتخذ ضدكم التدابير المقتضية لإيقاف أعمالكم العدوانية". ريتشارد هولدن وديڤيد جون Richard Holden, David John: آل سعود: «قيام وسقوط أقوى أسرة حاكمة في العام العربي The Rise and Fall of the Most Powerful Dynasty in the Arab World» نيويورك ١٩٨١، ص٧١. كذلك: گاري ترويلر Gary Troeler: «ولادة العربيّة السعودية وقيام بيت سعود The Birth of Saudi Arabia and the Rise of the House of Saud» لندن ١٩٧٦ ص١٤٢.

ألفاً، لإخضاع ما تبقى من الجزيرة، متحاشياً بطبيعة الحال تلك البلاد التي ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات حماية منذ القرن التاسع عشر.

والواقع هو أن لندن صارت تشعر بمضايقة وحراجة الموقف في الجزيرة. مما حمل مسؤولاً بريطانيا كبيراً في وزارة الخارجية على التعليق:

"سنبدو حمقى مغفلين في نظر عالم الشرق كلّه، إن أصيب مُدَلّلنا هذا (يعني حسين) بضربة قاضية وهو في عقر داره، بمثل هذه السهولة"[٣٩]

كانت تصرفات (الملك) الجديد تحرج البريطانيين في أكثر الأحيان وتثيرهم في بعضها[*] وعندما غزا (إبن سعود) الحجاز وامتلكها وطرد (حسيناً) لم تحرك ساكناً.

لخّص لورد مللنر وزير المستعمرات الذي سبق تشرشل، سياسة بريطانيا أزاء جزيرة العرب في السادس من أيار ١٩١٩ بما يلي:

"كانت الجزيرة العربية المستقلة مبدءً أساسياً دائماً في مجال سياستنا الشرقية. وما أعنيه هنا هو أن جزيرة العرب ستكون مستقلة بحدّ ذاتها في نجوةٍ عن التدخلات والمكائد السياسية الأوروبية وضمن مجال النفوذ البريطاني. وبعبارة أخرى، إن ذلك يعني بألاّ تكون لحكامها المستقلين معاهدات مع قوى أجنبية غيرنا"

كان إبن سعود يفهم ذلك جيداً. إلاّ أن الشريف بقي الى آخر يوم جاهلاً أياها.

★★★

مصر أهم وأكبر بلد من البلاد الناطقة بالعربية. قدر أن يتولاها في فترة حرجة جداً من تأريخها ذلك الذي تزعم الدعوة الشائعة الى الوحدة العربية أي الهدف النهائي للقومية العربية بمعناها المستجدّ.

(٣٩) هو روبرت ڤانسيتارت. أنظر بوتش: «بريطانيا، الهند والعرب Britain, India and Arab 1914-1921» لندن ص٣٣٠. ومن ذلك: إنه أعلن نفسه خليفة للمسلمين كافة في آذار ١٩٢٤ إثر الغاء الخلافة بقيام الجمهورية في تركيا وقد قوبلت هذه الخطوة باستياء في مصر لأن الملك فؤاد كان يطمح الى هذا اللقب. واعتبرها إبن سعود تحدياً لمشاعر (الإخوان) ومن ذلك أنه سمح للحكومة السوفيتية بتأسيس قنصلية لها في جدّة. في الوقت الذي كانت قوات بريطانية تساند القوات الروسية البيضاء التي تخوض حرباً مع النظام الجديد.

(*) أنظر الذيل.

إن أولئك الذين دافعوا عن استقلال مصر تحت شعار (مصر للمصريين) ما كان ليدور في خلدهم يوماً أن يليهم فريقٌ من المتحمسين للقومية العربية وجدوا في ذاك الشعار (الأثري) رائحة رجعيّة ونبذوه خرقةً بالية وهزؤا بالذين حملوه، وطاردوا أولئك الذين أقاموا عليه وثبتوا وسجنوهم.

حلّ البريطانيون مصر في المبدأ مجموعة من الموظفين المدنيين للإشراف على تحصيل الديون الأجنبية التي أثقلت ظهر المصريين جرّاء إسراف الخديوي (إسماعيل) ومن تلاه في الحكم. ثم دخلوا عسكرياً لإنقاذ الخديوي (توفيق) من تباريح إنقلاب عسكري تزعمه (أحمد عرابي)، فكان إحتلالاً فعلياً مبدؤه العام ١٨٨٢.

وظلّ البريطانيون يعدون المصريين مراراً وتكراراً بإنهاء وجودهم هناك، وكان متوقعاً أن يتمّ ذلك إثر ختام الحرب. فعندما أعلنت تركيا الحرب على بريطانيا أصدر اللورد (اسكويث) رئيس الحكومة تصريحاً جاء فيه أن مصر تحررت رسمياً وبصورة كاملة من السيادة العثمانية وباتت محميّة بريطانية. إلاّ أن الحكومة البريطانية أعلنت في الوقت عينه بأن حرية مصر وإستقلالها، هما من ضمن الأهداف التي تحارب بريطانيا في سبيلها ولهذا وُجدت فئة من السياسيين المحليين بعد نصر الحلفاء توافق على شيء شبيه بجدول أو برنامج زمني يودي تطبيقه في النهاية الى الإستقلال. واستند الى الكلمة التي قيلت واعتبرت تعهداً. ففي ١٣ من تشرين الثاني – بعد استسلام العثمانيين بأسبوعيين، سمح لعدد من الوطنيين غير الرسميين بمقابلة السر (ريجنالد وينگيت) المندوب السامي. وكان على رأس هذا الفريق الذي عُرف فيما بعد باسم (الوفد) محام يدعى (سعد زغلول) وهو قاضٍ سابق ووزير معارف في حكومات سابقة، ورئيس للجمعية (العمومية) الاشتراعية، التي كانت السلطات البريطانية قد جمّدتها وعلقتها الى أجلٍ غير مسمّى عند بداية الحرب.

أوضح (سعد زغلول) للمندوب السامي أن الغرض من زيارة الوفد هو الإجابة عن توقعات له بخصوص إزالة الأحكام العسكرية وقوانين الطوارىء ورفع الحماية البريطانية عن مصر في أجل قريب سيما وأن الحرب قد انتهت وأن بريطانيا ستعيد الى مصر استقلالها كما وعدت.

وطلب أن يَسمَح الحلفاءُ برفع ظلامة مصر الى مؤتمر الصلح أثناء انعقاده وأن يحضر لها ممثلون أثناء المفاوضات وأن يُسمح له بالسفر الى لندن للتفاوض في موضوع التغيير السياسي الذي وُعِد به المصريون. إذذاك، لم يكن في ذهن البريطانيين أية فكرة أو نية لمفاوضات أو لإستقلالٍ. وكل ما انصرف اليه ذهنهم يمكن استقراؤه مما سجّل رسمياً عن هذه المقابلة:

"في ١٣ من تشرين الثاني ١٩١٨ قام سعد زغلول بزيارةٍ للمندوب السامي وأعرب عن رغبته في الشخوص الى لندن ليبسط برنامج حكم ذاتي كامل. فرفض اقتراحه هذا لأنه لايخدم غرضاً حسناً"(٤٠)

في ذات اليوم الذي أرسل (سعد زغلول) خالي الوفاض بدء هذا ربما بتشجيعٍ من **السلطان (أحمد فؤاد) ينشط عملاً. فألف وفداً تمتع بدعم شامل من كلّ الطبقات الإجتماعية، ليكون بحسب قوله:**

"حافزاً للشخصيات السياسية المتناقضة على تأليف وترؤس وفود أخرى مماثلة"

ولنقف هنا بالقاريء قليلاً.

(سعد زغلول) وصحبه ماكانوا قط رواداً أوائل لمطلب الجلاء والاستقلال بل كانوا في الواقع حلقة وصل لما انقطع من مطالب مدتها عشر سنوات وقد تزيد قليلاً.

انهم لم ينبطوا فجأة ليمدوا ظلالهم على الحركة الوطنية، كما نبط الجنيّ من مصباح علاءالدين، فقد رسمت طريقهم وعبّدته حركة وطنية مصرية تزعمها وأمسك بعنانها شاب يدعى (مصطفى كامل) ذلك الرائد العظيم للحركة القومية المصرية الداعية الى التحرر والإستقلال الكامل، بحزبه (الحزب الوطني) وجريدته (اللواء).

مصطفى كامل (١٨٧٤–١٩٠٨) بنضاله وتعاليمه وأفكاره وسيرته المثالية يقف و(جوزيپي ماتزيني) في صف واحد ومن كل ما كتب عنه وهو كثيرٌ كثير – ماوجدت دليلاً واحداً يسلمني الى الشك أو الإعتقاد بأنّ هذا العبقري المصري قد وقف على آثار صنوه الايطالي أو تعمّد السير إثر خطاه أو تأثر بتعاليمه، كان نسيجاً وحده مثل الأول فلتة من فلتات التاريخ وأعاجيبه. واختلف عنه في أنه اعتبط وهو شاب لم يتخطّ الخامسة والثلاثين بداء وبيل لم يرحمه ولم يرحم به بلاده. لم تزد حياته السياسية الغنية عن عشر سنوات بكل نضوجها وعطائها وطابعها الخالد في تاريخ مصر والبلاد الناطقة بالعربية.

لم تطل به الحياة ليشهد (المشروطية) وذلك الانقلاب العسكري الذي جاء بالاتحاديين الى كرسي الحكم ولا ليرقب الضجة التي أحدثها الانقلاب وردود الفعل، ولا شك في أنه كان من الفريق الذي رآه خطراً ماحقاً يهدد مستقبل الأمة المصرية، أو القومية المصرية التائقة الى التخلص من حكم الأجنبي أياً كانت صفته ومأتاه، فهو مثل ماتزيني لايؤمن بالعنف، ويتطيّر

(٤٠) سر جيمس رندل Sir James Rondel 1920 عضو بعثة لورد مانر في ١٩٢٠. (دائرة المعارف البريطانية. الطبعة الثانية عشرة).

من تدخل الضباط والعسكريين في حركة التحرر قدر ما يتطير من تدخل النفوذ الديني فيها.

كان من الطبقة العليا في مجتمع ينقسم الى طبقتين فحسب. ورث لقب الباشوية مع الثروة خلافاً لماتزيني الذي نبع من صميم الطبقة الوسطى. فنبذه وأبى أن يلصق باسمه وعُرف بـ(مصطفى كامل) فقط، في حين كان الأغنياء يتهافتون على اللقب ويشترونه من الخديوي بالمال الجزيل. وأنفق كل ما يملك في سبيل قضية بلاده وافتقر. وتعرض للملاحقة والمطاردة كما تعرض ماتزيني واضطر الى النزوح عن بلاده والعيش في المنفى زمناً.

دعا مصطفى الى خط في العمل من أجل الاستقلال لايختلف عن خط ماتزيني مبدئياً، خطة معتدلة كاملة الأبعاد تعبر عن تفهم عميق لأقصى ما تصله طاقات الجماهير ودرجة وعيها وقوة احتمالها والمدى الذي يقف عنده صمودها. معبراً عن خوف شديد من حركة واسعة النطاق لاتسلم من حوادث عنف، وتعمّد عن أصالة الابتعاد عن الأساليب الثورية مكتفياً كما يقول بالاعتماد على الكتابة والخطابة والفضح والتشهير بالاحتلال ومساوئه:

"الغيرة التي تستعمل في غير موضعها تكون دواماً أضرَّ من البلادة والخمول. فلذا أناديكم مناداة محبّ لبلاده أن تنفوا باعتدالكم وسلوككم تهمة مَن يرمونكم بالميل الى الهياج والإضراب. ومثَل مصر مثَل مريض قارب الشفاء ينصح له الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشدّ من ويلها الأول".(٤١)

وكان يشعر بزخم وتأثير أولئك الذين يريدون الإبقاء على الصلة العثمانية وسيادة أسطنبول على مصر. واقعٌ لايمكن نكرانه، كثيراً ما تعلل به الإحتلال البريطاني للبقاء في البلاد واتخذه مبرراً لرفض الحوار مع الساسة الوطنيين. كان في الحزب الوطني تيار قويّ مناصرٌ لتركيا، يتزعمه الشيخ عبدالعزيز چاويش الذي نادى بالإستقلال المصري ضمن الجامعة الإسلامية:

"... حقّ الأمة المصرية (لاحظ أنّه يستخدم تعبير الأمة للمصريين) في الحرية والدستور والجلاء في ظلّ وحدة العالم الإسلامي ممثلةً في الدولة العثمانية التي يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها فإن في تمزيقها ضياع الوطن كلّه"(٤٢)

(٤١) أحمد رشاد: «مصطفى كامل، حياته وكفاحه» ص٥.

(٤٢) أنور الجندي «الشيخ عبدالعزيز جاويش» سيرةٌ، ص٨٣. مقابل هذا كان ثمّ تيارٌ (محمد فريد) صديق مصطفى كامل وأقرب أعوانه الى قلبه يؤمن بالدستور والإصلاح عن طريق المجالس وبالتدريج. آراؤه تتفق وآراء مصطفى كامل لكنه كان أقل جَلداً وأسرع الى اليأس وهو ينعى على جاويش موقفه ويكتب في مذكراته: "لقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش الى أن ينصحني بعدم حمل الدبوّس الذي حملناه في =

وكان ردّ مصطفى كامل واضحاً:

"رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنگليز من مصر، لنعطيها الى تركيا، وما هذه التهمة إلاّ تصريحٌ بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلاّ لأن نكون عبيداً أرقاء... إننا نطلب الإستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من الأمم كلّها وإننا إن أخلصنا الودّ لأمة أو لدولةٍ، فإننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يتجمعون ويتناصرون. إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقلّ عن كلّ الدول والحكومات والملوك والأمراء..."(٤٣)

إرتبط (مصطفى كامل) بالجماهير، يستقبله البسطاء من الناس لا بالمئات بل بالآلاف أينما حَلّ. كان الزعيم الحقيقي الوحيد في جميع البلاد الناطقة بالعربية. ولم تنجب أي بلدٍ منها مثله حتى يومنا هذا. إن لصوقه بالجماهير وتفهمه للخلق المصري تعبر عنه هذه الفقرة التي وردت في حديث أدلى به الى صحيفة نمساوية في العام ١٨٩٦: "سبيل الثورة نحن لانريده لإننا قبل كلّ شيء قومٌ مشهورون بالدّعة وحبّ السكينة ونبغض المذابح والجرائم. ومن جهة أخرى فإنّ لأوروپا عندنا مصالح تضرّ بها الثورة لذلك أعرضنا عن السبيل الذي نكرهه بفطرتنا واخترنا السبيل السلمي"(٤٤)

هذا الخُلق المصري الأصيل الذي عُرف به المصريون ومازالوا، لم تؤثر فيه شعارات القومية العربية التي قدمها عبدالناصر لهم في طبقٍ من خزفٍ بلون من الطعام لم يكن مستساغاً لأنه ينافي الواقع المصري. مالبث أن نفظ ما يحويه من طعام وهوى متكسراً بأيدي الجنين «الغول» الذي خرج من رحمه وأقصد به متشددي المساجد، أولئك الذين صبغوا أرض مصر بدمائهم ودماء ضحاياهم، وسيأتي الكلام عن هذا في موضعه المناسب.

كان فشل إنقلاب (عرابي ١٨٨٢) والإنتكاسة التالية له بكل ما جرّه على البلاد مستقراً في أعماق ضميره. لذلك كره أن يصطبغ حزبه بأي صبغة عسكرية فلم يقبل انضواء أي ضابط عضواً في حزبه. وكان قد تلقى خطاباً حماسياً من ضباط حامية (سواكن) في السودان وقعه

= جنيف والمكتوب عليه (مصر للمصريين) والذي قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين. وقال إن منظره في صدره وصدر إخواني يغيظ العثمانيين كما يغيظهم محافظتي على قومية مصر". (مقتبس من: مواقف حماسية في تاريخ القومية العربيّة لمحمد صبيح، (جريدة اللواء).

(٤٣) ألقي هذا الخطاب في ٢٢ تشرين الأول ١٩٠٧ في قاعة مرسح (ريزينيا) بالاسكندرية وحضره ستة آلاف من أعضاء الحزب وأنصاره. (جريدة اللواء).

(٤٤) علي فهمي كامل: «سيرة مصطفى كامل» ص٢٨٧. (المؤلف أخ شقيق لصاحب السيرة وهو عسكري).

عدد من الضباط أعلنوا فيه تضامنهم واستعدادهم للتعاون معهم فأجابهم بهذا:

"من الحكمة ألاّ نمكّن العدوّ من رقابنا وأنا لا أودّ أن يدخل الضباط في حركتنا السياسية دخولاً ظاهراً مسوّغاً لخلق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لايخفى عليكم"[٤٥]

أعتُبِط (مصطفى كامل) صغيراً. ومن العبث الصبياني والرجم بالغيب أن نتساءل: لو أن يد الموت تأخرت عنه ثلاثين عاماً، وبجماهيريته تلك التي لم تلق تحدياً أو منافسة. فأيّ شكل كان سيتخذه الجهاد المصري في سبيل الإستقلال وأي دور سيقدره التاريخ لخليفته سعد زغلول؟

توفي مصطفى كامل وتمزّق حزبه بوفاته دون أن تصاب خميرته بالتلف، كما سنرى.

هاجر أعضاؤه البارزون بالعشرات الى أوروبا تخلصاً من الملاحقة وضعفاً في النفس. وتسربّ نوع من اليأس في أبرز أعضائه بعد زعيمه، لهذا يكتب (محمد فريد) الهارب من حكم بالسجن صدرَ عليه في مذكراته بتاريخ ١١-١-١٩١٤ وهو في المنفى:

"إتضح لي من كثرة اتصالاتي ومساعيّ، أنه لا أملَ من جهةٍ من قيام الجامعة الإسلامية باسم الدين. ولا أمل في أن المانيا تساعدنا ضدّ الترك لأنهم محتاجون إليهم، ولايريدون أن يغبنوهم في شيء. ونحن في مثل هذه الظروف نفضل بقاء الإنكليز والإتفاق معهم على أخذ الدستور ولو تدريجياً"[٤٦]

إلاّ أن العالم تغيّر بعد عشر سنوات من تمزق الحزب الوطني، وأربع سنوات من حربٍ لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل بشمولها وبالخسائر التي نجمت عنها وبالحياة التي اتبعتها في عروق الشعوب المُستَرقّة، و(زغلول) ووفده يعرضان مطاليب محددة واضحة لا لبسَ فيها ولا إبهام.

بعد أربعة أيام من هذه المقابلة التاريخية بعث (وينگيت) بهذه البرقية الى وزارة الخارجية:

(٤٥) المرجع السالف: ص٥٥١. أورد نصّ الرسالة وهي كالآتي:
"الى الشهم الغيور الوطني المصري مصطفى كامل أفندي أيّده الله. إن الذين يخاطبونك يجدون أنفسهم أمام وطنيتك النادرة وتفانيك في حب مصر المقدسة صغاراً. لأن قلمك الحقّ أمضى من سيوفنا وحججك القوية أفعلُ من رصاصنا فإن قصرنا في شكرك المصري فلنا من عملنا أكبر عذر وفي حنوك أعظم أمل. إننا نشكرك أيها السيد المبجل شكر المصري الصميم لأخيه الحميم فاقبل شكرنا واعلم أن أرواحنا طوع إشارتك في خدمة بلادنا العزيزة".
(٤٦) محمد صبيح: المرجع السالف ص٢٦٨.

«السياسيون المصريون يطالبون ببرنامج حكم محلي (اتونومي) كامل، وقد أنذرتهم بألاّ يعمدوا الى إثارة أو يتسببوا في هيجان، إلا أن السلطان ووزراءه لايشعرون بأنهم يملكون قوة كافية تقف في وجه المطالب الوطنية.»[٤٧]

وكان هذا خلافاً للحقيقة فوزراء السلطان الكارهون الظهور للرأي العام بمظهر صنائع انگليزية ادّعوا انهم لايقبلون ترؤس أي وفد بالسفر خلال ذلك العام.

وفي كانون الثاني ١٩١٩ باقتراب موعد انعقاد مؤتمر الصلح صعّد (زغلول) وحزب الوفد من نشاطهما بين الجمهور وكثرت الاجتماعات العامة وكتبت مقالات شديدة اللهجة في الصحف وعم سخط شديد عندما عُلم في الثاني عشر من من هذا الشهر بأن وفداً سورياً سيُسمح له بحضور ذلك المؤتمر. وفي اليوم التالي دعا الوفد أعضاءه الى اجتماع تم عقده في دار أحد أعضائه، وفيه بسط (زغلول) رأيه في ضرورة نيل مصر مثل هذا الحق. كما تحدث عن الاستقلال التام والجلاء. فأصدرت السلطات البريطانية على الاثر أمراً يمنع (زغلول) بموجبه من الخطاب في العلن[٤٨] واستقال وزراء السلطان احتجاجاً. وأبى (زغلول) التقيد بالأمر الصادر فاعتقل مع ثلاثة من أبرز أعضاء وفده وأبعدوا في الثالث من آذار الى جزيرة (مالطة). واجتاحت مصر موجة من التظاهر والإضراب وبوغتت السلطة المحتلة بمفاجأة غير متوقعة ولا هي مستعدة لها، تم فيها تحدي القوانين التي وضعتها تحدياً سافراً.

ويستخلص من البرقيات التي كانت تصدر الى لندن من دار المندوب السامي أن إدارة الإحتلال كانت عاجزةً عن فهم ما حصل من تغيير خلال سنوات الحرب[٤٩] وإنها لم تستوعب قطّ ما طرء على مصر من التطور الإجتماعي والإقتصادي، ولا عن تنامي قوى الطبقة الوسطى وظهورها الكبير في جسم المجتمع المصري خلال العقود الخمس الماضية. ولا هي مقدّرة طموح هذه الطبقة ومصالحها التي يقف الإحتلال عقبة أمامها. على أنها كانت تعلم حق العلم بأن كثيراً من الساسة والمتعلمين المصريين فضلاً عن فريق من الصحافيين والكتاب والعلماء المسلمين، كان يسعدهم أن يروا بريطانيا تخرج من الحرب مهزومة.

واعترف (هوگارث) رئيس المكتب العربي ورئيس الإستخبارات في القاهرة بذلك في مفكرة له مؤرخة في ٢٢ من تموز ١٩١٧:

(٤٧) المرجع السالف: (جون دارون) ص٧١.
(٤٨) كان يسري فضلاً عن الأحكام العرفية أحكام قانون التجمهر الذي يمنع اجتماع أكثر من خمسة أشخاص سواء في طريق عام أو محل عمومي.
(٤٩) المرجع السالف: جون دارون، ص٧١.

"مصر في الوقت الحاضر، هي أرض عبد بدون شكّ. وليس في الإمكان ادّراء الخطر الداهم الناجم عن هذا، إلاّ بأن تأخذ بريطانيا على عاتقها مسؤولية إعادة تنظيم المجتمع المصري(!)"[٥٠]

ما الذي يقصده (هوكارث) بعبارته الأخيرة؟

عما يمكن عمله في إعادة تنظيم المجتمع المصري؟

في جو السياسة المصرية الحافل بالضباب، كان السلطان أحمد فؤاد ووزراؤه، والمعارضة والوطنيون والإصلاحيون، وجمهرة الكتاب والمثقفين يناورون ويداورون فيما بينهم ويساومون أحياناً نزولاً لخاطر بعضٍ وأحياناً ضدّ بعضٍ لبعضٍ تحت ستار المطالب الوطنية، من أجل الفوز بمساندة مجموعات من المجتمع المصري. ومراكز الاقتصاد المصري ليس لها اهتمام كبير بما يحصل. تيارات شديدة كانت تتجه رغم تضاربها نحو هدفٍ منذر بانفجار هذه البلاد التي وضعت تحت الحماية رغم غفلة البريطانيين عنها كما تشير الدلائل، إذ بدا لهم (زغلول) ووفده أناساً لايختلفون عن غيرهم من الناقمين وطلاب المناصب الذين يستخدمون المطالب الوطنية سُلّماً للوصول الى كراسي الحكم. وقد ورد في تقرير للمندوب السامي ما يتفق تماماً وهذا، إذ كتب في نيسان ١٩١٧ عن زغلول:

"إنه يتقدم في السنّ، وربما كان يرغب في أن يؤمن له مدخولاً"[٥١]

لكن. مامرّ أسبوع على إبعاد «طالب المنصب والمدخول» هذا، حتى انفجرت تظاهرات كبيرة في القاهرة والأسكندرية وغيرها من المدن، شملت رقعتها الدلتا ورفعت شعارات حزب (مصطفى كامل) الحزب الوطني: "مصر للمصريين". ونزل الأقباط المسيحيون الى الشارع ليشاركوا المسلمين: رجال دين، فلاحين، كسبة، عمال. وسمعت هتافات حول معانقة الصليب والهلال وغيرها. وانقلبت التظاهرات الى أعمال عنف عندما تصدّت لها السلطة. وعقبتها إضرابات. أضرب عمال النقل والنسيج وقلعت قضبان السكك الحديد في الخطوط الرئيسة وفي خلال أسبوع واحد ابتداءً من ١٦ آذار ١٩١٩ توقفت قطارات القاهرة وقطعت أسلاك البرق بين العاصمة وبين الدلتا ومصر العليا. وضرب نطاق حول أحياء الأجانب وتصاعدت ألسنة نار الفوضى قدر ما تصاعدت الهجمات على أفراد القوات المسلحة البريطانية. وبلغت في ١٨ منه شأواً خطيراً بمصرع ثمانية، بينهم ضابطان ومفتش سجون في قطار قادم من

(٥٠) أوراق وينگيت: جامعة دورهام رقم ٤٠١٧.
(٥١) المرجع السالف: ص٢١٦.

أسوان الى القاهرة. وأبلغ المندوب السامي لندن أنه لايملك أية وسيلة لإعادة السيطرة على مصر العليا، وهو كذلك لايملك أي معلومات عن الوضع هناك. لكنه وبحسب معلومات جديدة، لايستبعد أن يؤدي هذا الفوران الى ثورة بمقياس واسع لايدانيه أي عصيان في الإمبراطورية الشرقية منذ "العصيان الهندي".

كان في هذه المخاوف كثير من المبالغة. إلاّ أن المندوب السامي يعبّر هنا عن شعور خاصٍ حقيقي لا مماراة فيه. وما صدمه هو "الطابع البلشفي" بحسب تعبيره. وعندما تمالك نفسه كتب: "إن الحركة الحالية في مصر هي حركة وطنيّة بكل معنى الكلمة، وبكل أبعادها. وهي الآن موضع عطف لسائر الطبقات والعقائد"

القبط يتظاهرون مع المسلمين. طلاب الأزهر مع طلاب المدارس، نساء محجبات من الطبقة العليا يتظاهرن مع الرجال. كلّ هذا مقبول لكن بمشاركة جماهير الريف التلقائية هو الذي فتّ في أعصاب السلطة المختلفة. وهو أعظم ما بوغتت به ولم تكن تتصوره في الأحلام. بل وأكثر من هذا "طابع الانتظام والإعداد المسبق، لا العفوية والإرتجال".

وجد البريطانيون أنفسهم... على حين غرة بمواجهة رأي عام سياسي مصري يشدّ أزره وطنيّون مبرزون ذوو عزمٍ وهدف.

واستقدم الجنرال (أللنبي) من القدس على عجل لمعالجة الوضع. وأعلن حال وصوله في ٢٥ من آذار عن اعتزامه قمع الإضطرابات. وفي السابع من نيسان أعلن نبأ الإفراج عن (زغلول) ورفاقه وإعادتهم الى مصر. فهدأ الوضع قليلاً وأفلحت القوات البريطانية في إعادة النظام بالتدريج خلال فصْلي الربيع والصيف. إلاّ أن التظاهرات لم تتوقف كُليّةً.

وفي نهاية العام ١٩١٩ أرغمت لندن على إرسال لجنة لتقصّي الحقائق برئاسة لورد (مللنر)، توصلت في تقرير لها الى وجوب إنهاء الحماية البريطانية وإحلال نوع من العلاقة السياسية محلّها. ونجم عن هذا محاولاتٌ بريطانية خلال سنوات ١٩٢٠-١٩٢٢ التالية للتفاوض على شكل العلاقة مع الزعماء المصريين بدون الوصول الى نتيجة. ولم يؤدِّ نفي (زغلول) ورفاق له الى جزيرة (سيشل) في المحيط الهندي إلى طائل واضطرت السلطات البريطانية الى إعادتهم كما حصل قبلاً أمام ضجة وضغطٍ جماهيريين متصاعدين[٥٢].

★★★

(٥٢) المرجع السالف.

في مصر قبل الحرب وبعد الحرب، لم يكن هناك شيء يصل بينها وبين العروبة. وفي ميدان التعامل السياسيّ كما في ميدان الأدب والصحافة كان ثمّ شعارات فحسب. مصر (الأمة المصرية)، والإسلام (الجامعة الإسلامية).

المصريون المسلمون لايعرفون عير أنهم مصريون مسلمون كالأقباط لايعرفون إلاّ أنهم مصريون مسيحيون صميمون عصمهم تمسكهم بدينهم من الهجنة الى حدّ كبير وفخروا بتلك العصمة. في حين ترى أهل المدن الكبيرة لاسيما الطبقة العليا يفخرون بأصولهم التركية والأجنبية وبأنهم من نسل الحكام المماليك، ولايعتبرون الإقرار بأيّ أصل عربي شرفاً ومحتداً. خلا أولئك الذين ينسبون أنفسهم صدقاً أو كذباً الى العترة النبوية وهم السادّة. وفخرهم متأت من هذا فحسب، لا من أرومتهم العربيّة. وسكان الصعيد الذين يؤلفون عصب الريف المصري وعماده هم مصريّون في كلّ شيء سوى الإسلام واللغة. بقوا بعيدين كلّ البعد عن مدنية الغرب ولم تؤثر فيهم تلك الثورة الإجتماعية والفكرية التي أطلق (محمد علي الكبير) لها العنان. وهذه المشكلة لم تبرز بطبيعة الحال عند السوريين واللبنانيين: فأقباط الصعيد أنفسهم خلافاً لمارونيي سورية لم يقوموا بدور كبير في بناء الحياة الثقافية في حين أن كثيراً من المسيحيين الذين أحدثوا بصمات خالدة في العالم الثقافي المصري كانوا أغراباً اجتذبتهم الحرية النسبية التي كانت تتمتع بها مصر في القرن التاسع عشر. كان بوسع هؤلاء وقد أتينا الى ذكر كثير منهم، أن يتحركوا في مصر باتجاه الآمال المصرية دون أيّ شعور منهم بأنهم ليسوا صادقين مع أنفسهم ولم تقف سلطة الكنيسة ورجالها عائقاً رغم مساندة الدولة لرجالها وأحبارها فكثيراً ما تجاهلوها. أما بخصوص المسلمين فإن الإسلام كان منغرساً في أعماق ضمائرهم لايتحركون فكرياً وسياسياً بدونه.

إن الحياة في دنيا العصر لها متطلبات تحتم إحداث التغيير في أساليب التنظيم الإجتماعي بل وفي تركيب المجتمع نفسه. وقد تحتم على المفكرين والأدباء المسلمين أن تصاغ تلك الحياة بالشكل الذي يشعرهم بأنهم صادقون مع أنفسهم، ولايتأتى هذا إلاّ إذا ترجم الإسلام بالمعنى الذي ينسجم مع قوى البقاء والتقدم العالميين ويسايرهما. كانت هذه لحظة الشروع التي إلتزمها أولئك الذين يمكننا أن نطلق عليهم مصطلح "المفكرون الإسلاميون" المصريون.

نبغت في مصر طبقة نيّرة من هؤلاء، رأت أن الإسلام لاتقصر قوته في موافقته للعقل والتقدم والتعاضد الإجتماعي، وهي أسس المدنية الحديثة، بل هو بالتأكيد يأمر بها إذا ما فُسرّ تفسيراً صحيحاً. وهؤلاء الذين التفوّا حول مصطفى كامل وسعد زغلول وحول دور النشر

الحديثة ومطبوعاتها الدورية، كان منطقهم[٥٣] يمثل تلك الأفكار التي عرضها (جمال الدين الأفغاني ١٨٣٩-١٨٩٧) في مصر، وهو إيراني لاتخلو كتاباته من غموض، إلاّ أن تأثير شخصيته كان هائلاً في مصر، طورت أفكاره تلك وبُسطت بما كتبه مصريّ كردي الأصل يدعي (محمد عبده ١٨٤٩-١٩٠٥) ولقب بالإمام بحق. وكان لكتاباته أثرها العظيم الباقي لا في مصر وحدها بل في سائر العالم الإسلامي- ولاسيما في البلاد الناطقة بالعربيّة.

أجمل (محمد عبدُه) الغاية التي توخاها في حياته كما ذكر هو نفسه بقوله:

"... باطلاق الفكر من إسار التقليد، وفهم العقيدة كما فهمها جماعة المسلمين قبل الخلاف. والعودة الى الأصول الأولى لكسب المعرفة الدينية ووزنها بميزان العقل الذي ما خلقه الله إلاّ ليكون حائلاً دون الغلوّ والزيغ ولتظهر فيه حكمة الله ويحافظ على انتظام أعمال البشر، ولإثبات كون الدين يجب أن يعتبر صديقاً للعلم ومحفزاً للإنسان على كشف اسرار الوجود، وداعياً الى احترام الحقائق الثابتة من أجل أن يعتمد عليها في سلوكه وحياته الروحية"[٥٤]

الظاهر من تعاليمه انه يفصل بين مباديء الإسلام الأساسية وبين تعاليمه الإجتماعية وحدوده القانونية. فعنده أن المباديء البسيطة التي وصلتنا عن خطٍ أو سلسلة مركزية من المفكرين الذين يعبّر عنهم باصطلاح "السلف الصالح": هي الإيمان بالله وبنزول الوحي على الأنبياء الذين خُتموا بمحمد بن عبدالله، وبالمسؤولية الأدبية وهي الجزاء في الحياة الأخرى. وكل هذه يمكن الدفاع عنها وحمايتها بقوة العقل. أما الشريعة ومباديء الأخلاق، فهي ممارسات قررتها ظروف خاصّة لمباديء معينة مقبولة عقلاً نصّت عليها آي القرآن، فإن تغيرت الظروف وجب أن تتغير هي أيضاً. وفي دنيا العصر يكون مهمة المفكرين الإسلاميين (العلماء والفقهاء) التوصلُ الى إيجاد الرابطة بين القوانين والشرائع الوضعيّة المتغيرة وبين المباديء والتقليد الثابتين. وبهذا توضع الحدود ويتمّ التوجيه.

كان من الطبيعي أن نشاهد (محمد عبدُه) يشارك مشاركةً فعالة في ثورة أحمد عرابي. وأن يكون على رأس ملهميها الروحيين وقد اتهم معه وحوكم عسكرياً.

(٥٣) كان ذلك في كانون الأول ١٩٢١. وهم خلاف زغلول، مصطفى النحاس، وحمد الباسل، ومكرم عبيد وعدلي يكن. كان زغلول (١٨٥٧-١٩٢٧) أزهرياً بالأوّل وقد اتصل بمحمد عبدُه وجمال الدين الأفغاني (الأسترابادي). وتولى رئاسة الحكومة في ١٩٢٤.

(٥٤) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبدُه، ج١ ص١١. ط. القاهرة ١٩٣١.

وكانت ثورة عرابي مصريّة بحتة. كانت محاولةً للحدّ من السيطرة البريطانية أو لإنهاء الإحتلال. كانت ثورة قومية مصريّة خاصة بمحتواها الوطني، وإنْ لم يكن متكاملاً. إذ لم تغد قوة سياسية فعالة تنضوي الجماهير تحت شعاراتها. ولم تطرح صيغةً معينة تملك لبّ الرأي العام وتستأثر باهتمامه وبالشكل الذي يمكن استخدامه للقيام بثورة كالثورتين الأمريكية والفرنسية، تتناول أسس المجتمع بتنظيم جديد. ولم يتمّ الإحساس بضرورة مثل هذا التغيير إلاّ في مطلع القرن العشرين وكما تقدم شرحه.

في مصر ما قبل الحرب وأثناءه كانت القومية المصرية أزاء القومية التركية موجهتين الى حلّ مشاكل الهوية والنظام السياسي على الصعيد المصري في الأولى وعلى صعيد الإمبراطورية في الثانية، ولم تتبدل المعادلة كثيراً بعد الاحتلال البريطاني. فقد كان التيار الذي يسند مصر الى الإمبراطورية العثمانية قوياً متغلباً حتى زالت دولة آل عثمان. فرجحت كفة التوجيه الى عدوان الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها.

القومية المصرية كالقومية التونسية والجزائرية والمراكشية كانت تواجه خلاف ما تواجهه القومية التركية بوجهها الإتحاديّ، والجامعة العثمانية بوجهها المسلم قبلها، فقد كانت تواجه مشاكلها الخاصّة جراء الحكم الأوروبي، ولم يكن من الممكن أن تمتد فكرة العثمانية الى ما وراء حدود الإمبراطورية وقتذاك لتشمل كلّ من يتكلم التركية أو العربية.

تلك مشاكل بلاد وضحت هويتها منذ قرون، بعيداً عن رابطة اللغة والدين وأصبحت ذات حدود معينة ثابتة. كل واحد من هذه الأقاليم التي ذكرناها كان ينفرد بهوية سياسية تختلف عن الأخرى، ذات تاريخ طويل نسبياً، بسيطرة أسرها الحاكمة حيناً، وتحت وطأة الحكم الفرنسي – الإنكليزي أخيراً.

فالجزائر مثلاً، وإن كانت إسميّاً عثمانية منذ أن فتحها العثمانيون، إلاّ أنها ظلتّ كتونس أيضاً تتمتع باستقلالٍ ذاتي حقيقي حتى العام ١٨٣٣ عندما اندغمت بفرنسا فعلياً.

في الجزائر اختارت القبائل قائداً لها بعد الإحتلال الفرنسي وقعت معه المعاهدة المعروفة بمعاهدة «دي ميشيل» اعترفوا فيها بسلطته على عموم الجزائر باستثناء ثلاث مدن ساحلية. لكنه أسرع فاتخذ لنفسه لقب (أمير المؤمنين) وهو لايدعي بصلة رحم للنبوة، بل كان شيخ الطريقة القادرية هناك. وقد قاوم وهو في المغرب الإحتلال الفرنسي العام في ١٨٤٤ لعموم الجزائر مدة ثلاث سنوات وقع بعدها في الأسر فنقل الى فرنسا. ثم أبعد بحسب رغبته الى دمشق وفيها توفي مخلفاً ذريته التي قطعت صلتها تماماً بالجزائر.

في العام ١٨٧١ حصلت انتفاضة دينية المنحى بقيادة (محمد مكراني) شيخ الطريقة الصوفية الرحمانية وقُمعت وأخضع المدينيون الجزائريون الى عملية قلب لأصول المجتمع الجزائري تناولت اللغة والتراث الأدبي بصورة رئيسة، مما أدىّ الى تقوقعها داخل المساجد في الأوساط الدينية، مثلما حصل في تونس لكنه على نطاق أوسع. تمّ إهداء (تونس) للفرنسيين في العام ١٨٧١ بمقتضى معاهدة برلين إذ أعطي لها الضوء الأخضر لبسط حمايتها عليها وانتزاعها من جسم الإمبراطورية العثمانية. وفي نيسان ١٨٨١ غزاها جيش فرنسي قوامه ثلاثون ألفاً من الجزائر وأنزلت قطعات أخرى في ميناء بنزرت. وفي السنة عينها وقعّ حاكم (باي) تونس معاهدة (باردو) التي حولت تونس الى محمية فرنسية.

وهنا أيضاً أعلن مشايخ الطريقة الرحمانية جهاداً ضد الغازي وحصلت اشتباكات مسلحة واقتضى لقمع الحركة أربعة أشهر. خلفت هذه المقاومة حركة شبه سرّية مبعثها شعور قومي تونسي لمقاومة صامتة مالبث أن انبثقت في العام ١٩٠٧ من عصبة (الشباب التونسي) ذات اللون القومي الواضح وقد ضمت رجالاً ذوي ثقافة فرنسيّة، إلاّ أنها لم تدع الى الإنسحاب الفرنسي الفوري من البلاد، بل كانت كمثيلاتها من الجمعيات السرية في أستنبول وسورية تطمح الى تغيير في السياسة الفرنسية يتم بموجبه منح التونسيين مجالاً أوسع للثقافة وفرصاً أكبر في الوظائف الحكومية والخدمات الزراعية. لون من مشاركة محدودة في حكم محليّ كان الفرنسيون يأبونه عليهم.

وظهر في الجزائر أيضاً – وعلى سطح المقاومة المستمرة للإستعمار حركة (الشباب الجزائري) وهي حركة أصغر حجماً من مثيلتها في تونس، تنادي كذلك بفتح أبواب الثقافة والتعلم الفرنسيين، وبالإصلاحات المالية والقضائية وحقوق سياسية أوسع ضمن إطار الإحتلال.

إلاّ أن مقاومة الحماية الفرنسية لمراكش، كانت واسعة في المدن وفي الريف معاً. وظلت تجد قادتها بين رجال الدين. وتبحث عن رموزها وشعاراتها في الأصول التقليدية للفكر الإسلامي. واختلفت في ذلك عن جارتيها تونس والجزائر في ذلك، لأنها لم تمرّ بالمرحلة التي مرت بها تلك البلاد، فقد حافظت على استقلالها قروناً عديدة الى أن بُسطت عليها الحماية الفرنسية – الإسبانية في آواخر القرن التاسع عشر.

***

نوهت قبل هذا بما يجب عليّ أن أختم به هذا الفصل الآن.

مختلف الحركات القومية – أملتها تحديات لعدد من الظواهر السياسية والأحداث

التاريخية المستجدة. القومية التركية وهي القومية التي استمدت منها القومية العربية عناصرها بجميع أخطائها ومزالقها. كانت ردّ فعل للضغط المتزايد المستمر من أوروبا. ففي أثناء ما كانت الشعوب المسيحية في أوروبا تنسلّ عن الإمبراطورية العثمانية واحداً بعد الآخر انهارت القومية العثمانية لتحل محلّها بالتدريج فكرة القومية التركية متسربلة بالرداء الديني ومتخذةً لوناً إسلامياً بات يتضح ويزداد عمقاً. لكن عندما انبثّت الوشائج بين العرش وبين الطبقة الحاكمة ظهرت فكرة الوطن القومي الواحد غير المستساغة من الأقوام الأخرى. ومجمل الفكرة هي أن الإمبراطورية لايمكن أن تدوم إلاّ على أسس أمّة متماسكة متحدة بلغة مشتركة. لكن الإمبراطورية كانت في الواقع دولة تركية – عربية – كردية، بأقلية مسيحية هامة بدأ وعيها القومي يتكامل لتعبّر عنه فكرة غامضة عن الجبليين الآشوريين. وكان من الطبيعي أن أي محاولة لتأكيد التفوق العنصري التركي ستخلّ بالتوازن العربي – التركي – الكردي وسيزداد المسيحيون الشرقيون إحساساً بقوميتهم المتميزة. وبمقتضى ردّ الفعل هذا أخذت معالم القوميتيين العربية والكردية تتضحان شيئاً فشيئاً لتنأيا بنفسيهما عن القومية التركية.

في مبدء الأمر ابتعدت الحركات القوميّة عن الدّين، إلا أنها تثبتت بأذياله. تغيّر وضع علماء الدين وتحولوا بالتدريج عن تبوء القمة في المجتمع ولم يعودوا يشغلون مراكز هامة في الحكومة، أو يُشرّفون بمقام الناطقين بمطالب عامّة الشعب أو زعامة الجمعيات السياسية أو الفكرية... ولم تعد المدارس الدينية والتعليم الديني قبلة للشباب الطموح المالك حريّة الأختيار، لأنه صار قاصراً عن أن يتوسّل لنيل الوظائف الحكومية والتقدّم فيها أو يساعد على فهم دنيا العصر والتحكّم في شؤونها. ورأت العقود الأخيرة من القرن الماضي والأولى من القرن الحاضر في معظم شباب سورية ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والجزائر وتونس ومراكش صدوداً مطرّداً عن الكتاتيب الدينية في المساجد. وفتحت مدارس للشابات في هذه الأقطار. واجترأ كثير من الكتّاب على ما لم يجترىء جيلهم السابق من المسلمين المتنورين الذين لم يكتفوا بوطء تلك الأرض الحرام التي كانت وقفاً على رجال الدين، بل كتبوا ونقلوا الى العربية كتباً وأفكاراً وجدها المتنطعون كفراً وزندقةً وإلحاداً. وحدثت أمور في غاية من الغرابة والأهميّة. وما أسرع ما انتقلت الى مصر آراء داروين ونظريته وإشتراكية ماركس وبرنارد شو، وشوبنهاور وإبسن وديستويفسكي وكروپوتكن. ووجدت النظريات الإشتراكية محلاً في أدمغة المثقفين واجترأ الأدباء وقادة الرأي على مهاجميهم من العلماء ورجال الدين المتعصبين بما لم يجترىء عليه اليوم كاتب أو أديب.

ولايتورع (ولي الدين يكن) ولايخشى عاقبة إذ تراه يكتب:

"العامة تحبّ الشيء إذا حببه إليها زعماؤها وتبغضه إذا بغّضه إليها زعماؤها. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لايرغبهم في الشورى (يعني الديمقراطية) شيءٌ فهم يحبّون أن يظلوا متحكمين على الرقاب وأن يبقوا عيالاً على الأمّة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملؤوا أكياسهم"(٥٥)

وفي موضع آخر يسخر منهم:

"لو جمعنا العمائم التي بالبلاد العثمانية وجعلناها بعضها فوق بعض، لبنينا حصناً يعجز عن هدمه أسطول إنكلترا بأسره"(٥٦)

بل مضى هؤلاء المفكرون والكتاب الأحرار الليبراليون الى أبعد من هذا بكثير، فهتكوا الحجج التي اتخذها رجال الدين هؤلاء لإثبات مباديء هي ليست من الدين في شيء، وليهدموا الأسوار التي بنيت حولها حجراً حجراً. فهذا الأستاذ (علي عبدالرزاق ١٨٨٨–١٩٦٦) أحد تلاميذ الأمام محمد عبدُه يناقش في كتابه: (الإسلام وأصول الحكم) مسألة الخلافة، ليثبت بأنها ليست مقررة إلهياً وأن النبي العربي محمد بن عبدالله لم يرسل ليؤسس حكومة بل لم يحاول ذلك مطلقاً:

"... والحقيقة هي أن الإسلام بريء من الخلافة التي عرفها المسلمون... إنها ليست رتبة دينية ولا هي منصب قضاء أو أيّ منصب من مناصب الدولة، فهذه هي وظائف سياسية بحتة ولا علاقة للدين بها. إنه ما عرفها ولا أنكرها، ما أمر بها ولا حرّمها، فقد تركها لنا لنراجع بخصوصها مباديء العقل وتجارب الأمم وقوانين صناعة الحكم"(٥٧)

★★★

كل هذا كان يتساوق ويسير خطوةً خطوة مع إشتداد المطالبة بالجلاء والحريّة.

وتحولت مصر الى مركز ثقل في الفكر السياسي – وأخذ مفكروها وزعماؤها السياسيون زمام المبادأة من السوريين بعد الحرب. وامتلأت دور كتب البلدان الناطقة بالعربية بالمطبوع

(٥٥) «المعلوم والمجهول» ط. مصر. ج٢ ص٩.
(٥٦) «التجارب» ط. مصر، ص٣١.
(٥٧) الطبعة الثانية. القاهرة: ج٢ ص١٠٣.

المصري السياسي أسفاراً وصحفاً ومجلات وقفت أمامها سلطات الإحتلال الفرنسية والبريطانية في كلّ هذه البلدان عاجزةً مكتوفة اليدين.

وفي مصر بالذات اصطدم الخيال البريطاني الرئيس بجدار الواقع.

الزعماء السياسيون ومن ورائهم الأدباء الصحافيون يرفضون حكماً محلياً أو حتى استقلالاً اسمياً. والبلاط يناصرهم في الخفاء. والجميع يريد استقلالاً تاماً ناجزاً لما دعاه بالأمة المصرية. وهو ما لم يكن بوسع بريطانيا الإستجابة له بوجود قناة السويس. وفشل الموظفون البريطانيون في الوصول الى حلّ، فكان على لندن أن تبقي قواتها هناك السنوات العديدة التالية.

وتمرّ عقود عدة لتأتي محاولة حكم (عبدالناصر) اللعب (سياسياً) بورقة العروبة والقومية العربية، والوحدة العربيّة من المحيط الى الخليج، ويجند لها نظامه جمهرة من الأقلام المتحمسة للحكم الجديد المروّجة لدعوته، في مجهود لتصوير دعوة القومية بمثابة حلقةٍ من سلسلة متصلة للنضال السابق في سبيل التحرر. إلاّ أن الرأي العام المصري كان في الحقيقة يتحدث ويكتب ويتظاهر ويقاتل في سبيل استقلال أمة متكاملة هي الأمة المصرية، وتحرير الشعب المصري في مصر، لا الشعب العربي في مصر.

ملحق

رقم ١١٣٥

F. O. 406-44- P. 322 No. 261

٦ تشرين الأول ١٩٢٠- الرملة

تاريخ الوصول ٢١ تشرين الأول ١٩٢٠

من مستر سكوت الى إيرل كرزن

سيدي:

لي الشرف في أن أقدم لكم بكتابي هذا، مقتطفات من تقرير رفعه لي الرائد (دبليو باتن W. Batten) وكيل المقيم البريطاني في جدة للفترة المنتهية بـ٢٠ أيلول ١٩٢٠. وسيلاحظ سيادتكم أن الملك حسين ما زال مقيماً على رفضه توقيع معاهدة صلح مع تركيا، حتى تقوم حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) بإعطائه تعهداً بالوفاء بما دعاه بإتفاقنا معه.

وأما عن المحادثات بين الوفد النجدي والملك حسين، فقد سبق لي أن أرسلت تقريراً بها لسيادتكم. لقد وجدنا من المستحيل تقريباً إمكان الحصول على التفاصيل عن الحدود التركية القديمة التي أشار إليها تقرير الرائد باتن، لا من القسطنطينية ولا من أي مصدر آخر.

و«الفلاح» التي نوّه بها هذا التقرير هي بالأصل صحيفة دمشقية. لكن وعلى إثر احتلال الفرنسيين هذه المدينة، هرب رئيس تحريرها الى مكّة واستأنف إصدارها. والصحيفة تتضمن تقارير خيالية لا ظلّ لها من الحقيقة عن انتصارات عربيّة في سورية مع مقالات تقدح بالفرنسيين عموماً.

في التقرير الذي نظمه النقيب (نصيرالدين) بتقديم الرائد باتن، هناك تفاصيل أخرى حول المفاوضات المشاع عنها بين الملك حسين ومصطفى كمال.

نسخ من هذه التقارير وملحقاتها أرسلت الى بغداد وأورشليم وجدّة.

أرنست سكوت

وكيل المندوب السامي

سرّي

مكّة ١٩ أيلول ١٩٢٠

F. O. 466-44- P. 326-327

NO. 261-2

١- هناك شائعات التي تدور حول حصول تفاهم بين الملك (حسين) وبين مصطفى كمال. وهي متواترة وأنا أميل الى الإعتقاد بوجود كثير من الحقيقة فيها. فقد بلغنا أن مصطفى كمال أرسل وكلاء له عبر الأراضي الواقعة تحت سيطرة إبن رشيد. وبسبب السرّية أطلق عليهم اسم «المشارقة». بحسب القول الشائع إن مصطفى كمال أقسم يميناً على موالاة الملك حسين والاعتراف به خليفةً شريطة أن يقطع كل علاقة له بالحكومة البريطانية. وتمهيداً لهذه الخطوة، فقد قيل أنه دعا الى مؤتمر لزعماء مكّة الموثوقين وأشار عليهم بوقف جهودهم الى الإقتصاد بالأرزاق وعدم تبذيرها. إذ من المحتمل أن تكون مكّة بحاجة الى تدابير تحفظية. وهذا يشير الى توقعه ضرب حصارنا على الحجاز في حالة تسرب أنباء مفاوضاته تلك. وكنت قد كتبتُ قبل هذا أن الملك لم يسمح بخروج القمح من مكّة الى البدو إلاّ بكميات قليلة جداً ورفض أثناء وجودي في القصر السماح بأكثر من غرارتين من الحنطة لبدو جاؤا بطلبه.

٢- هناك رواية أخرى تقول أن الملك حسين هو الذي سيحلف اليمين لمصطفى كمال وليس العكس. وقد تأيدت الرواية بقول الملك إنه مستعد لإعلان ولائه لأي خليفة يختاره المسلمون. ولما كان مصطفى كمال يعتبر القائد الحاليّ لحركة قوميّة في مصلحة الإسلام، فمن الطبيعي أن يكون هو المقصود بالقول.

٣- تسلمّ الملك برقيّة من سورية مؤادها أن اشتباكات مسلحّة وقعت بين الأكراد والحورانيين في دمشق، سقط خلالها ستمائة قتيل في ساحة الميدان وحدها. وأن الجنود الفرنسيين الموجودين في المدينة كانوا خلال ذلك يمتعون أنفسهم بالمنظر وهم مسرورون ولم يحاولوا التدخل. هذا وقد قتل (نوري شعلان) بيد مجهول.

وتستطرد البرقية لتذكر بأن بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية صرح بأن الأمل الوحيد للسوريين مسلميهم ومسيحيّهم هو في الشريف حسين، والملك يخشى أن يسيء الساسة الأوروبيون ترجمة هذه الأعمال أو التصريحات الصادرة من شخصيات مسؤولة في

سورية. وأن يتهم هو بالتحريف في كلّ هذه الإنتهاكات والدسائس.

٤- وكذلك ذكر أن الملك أسرّ لبعض الحجاج الإيرانيين بما يجول في خاطره فوعدوا بأن يبذلوا كل ما في طاقاتهم لإيضاح موقفه عند عودتهم. بعض هؤلاء الحجاج كانوا يشجبون علناً موقف الحكومة البريطانية ويندون بها بسبب الإتفاق الأنكلو فارسي ويقولون أنه يهدف الى القضاء على استقلال فارس.

ويحاول الملك أيضاً إقامة صلة مع محمد علي وشوكت علي. وأكاد أجزم بأنه نجح في إقامة علاقة مودّة مع الإدريسي الذي كتب له برسالة قبل يومين. كلّ هذه المواقف تدفع المرء الى الإستنتاج بأن الملك يحاول ببطء ولكن بإصرار الجمع بين كلّ لون من أصحاب الرأي وأن يستظهر كلّ العالم تحت قدميه.

يجب علينا الإقرار بكل أسفٍ بأن ثقة الحكومة البريطانية قد أصيبت بزلزلة عنيفة، إن لم تكن قد انهارت تماماً. وليس هذا بالغريب عندما يجد المرء كل لون من الآراء في الصحافة تقف الى جانبه وهو ما يوحي اليه بفكرة مبالغ فيها على أهميته.

٥- يوجد هندي اسمه إسماعيل خان. سكن مكّة منذ السنوات الخمس أو الست الأخيرة، كانت تعتريه نوبات جنون بين آونةٍ وأخرى. وفي العاشر من أيلول ركبته نوبة فنطق بعبارات فيها تحقير للعلماء العرب. فنقل الأمر الى الملك الذي أمر بإيداعه السجن، وقيل أنه تعرض لمعاملة قاسية شهدت عليها آثار التعذيب في جسمه. وفي ١٦ من أيلول توفي الرجل وأشيع أن سُمّاً دسّ له بأمر من الملك. وكان أهله قد وجدوه لايشكو شيئاً صباح ذلك اليوم. إلاّ أنهم أعلموا بوفاته بعد ظهره.

٦- الأسلوب الوحشي في وسم لسان السارق بحديد محميّ الى درجة الاحمرار هو إجراء يمارسه الحكم الهاشمي هنا. وهو ما لم يقدم عليه الأتراك. وتلام الحكومة البريطانية علناً وعلى رؤوس الأشهاد على هذا التغيير في أسلوب القصاص اللاإنساني التركي السابق قياساً على أساليب الملك الوحشية الحالية. وفي هذا العصر من التقدم الحضاري. وصلت الى علمي قضية من هذا النوع نفذ بها القصاص الوسم. لكن هذا يقع يومياً وبأعداد كبيرة.

٧- قوافل الحجّ المتوجهة الى المدينة غادرت مكة خلال الفترة المنوّه بها في هذا التقرير ويتألف معظمها من الفرس. كما يوجد فيها أيضاً أعداد من الهنود يبلغ حدود الألف ومائتين. ومن الحجاج من يدعى (س. مرتضى حسين) كان يسكن مكّة عدة سنوات وواحد من

المقربين جداً للملك، إستأذنه بالذهاب الى المدينة وكانت القافلة قد خرجت قبل يومٍ واحد، فرفض الملك رجاءه قائلاً وهو يشير الي: "لو سمحت لك بالذهاب الآن وحصل لك أي مكروه فإن هذا الرجل سوف يمسك بخناقي".

٨- من المشاهد الإعتيادية في مكة، رؤية ضباط الحكومة العربيّة ببزاتهم العسكرية يرفعون مظلات فوق رؤسهم حتى عند إمتطائهم الخيل! والعرض اليومي لتلاميذ مدرسة الضباط مدته عشر دقائق يقضونها في مسيرة وهم يحملون البندقيات. بعد إنتهاء المسيرة تجمع الأسلحة في موضع ويشغّل التلاميذ بنقل الصخور والحجارة من ساحة تقابل الثكنة. وبزاتهم العسكرية تصرف لهم من مخازننا بالتأكيد، ومن الواضح أننا عاجزون عن تجهيزهم بغطاء الرأس وكان على الطلاب أن يؤمنوه لأنفسهم، لذلك تراهم وهم في ساحة العرض وقد اعتمدت رؤوسهم بكلّ ألوان قوس قزح. هناك بينهم تلميذ حربي، طفل لاتتجاوز قامته القدمين، ولايزيد عمره عن أحد عشر عاماً!

٩- بسبب عجرفة الملك وتعاليه، قاطعه بعض خبراء البعثة الزراعية وتبادل أحدهم (السيد أحمد الداعوق) برقيات بأعنف لهجةٍ مع الملك ورفض البقاء في الطائف رغم أوامر الملك القاطعة. وهو يقول أن الاضطراب الذي يسود بلادهم يزيد من قلقهم على ذويهم. وهم لذلك عاجزون عن القيام بواجباتهم بصفاء ذهن وتفرغ والأفضل أن يعودوا. أمّا حقيقة الأمر فهو يأسهم من إنجاز أي عملٍ إذ أن كلّ مقترحاتهم للتطور كانت تقابل بالرفض من الملك، ولاتترك لهم فرصة لعمل مفيد. وهم يقولون أن الملك يعتبر عقله ومعارفه متفوقة على عقلية الخبراء وتجاربهم حتى في أمور الميكانيك. وعارف بگ الذي اشتهر بالمداهنة والملق والقومية المتعصبة سيبقى. وربما عين وزيراً للأشغال العامة، في الواقع أنه يخشى العودة الى بيروت. ومع أنه غير مرتاح هنا فهو يفضّل البقاء فترة أخرى لاسيما وأن أسرته معه. وهو يفكر كذلك في الشخوص الى الهند لإثارة الرأي العام المسلم وتجنيده لصالح الملك حسين.

(توقيع)

الفصل الحادي عشر

الحكام الأجانب ، ما خلفوه من أثر ديني أو قومي لايذكر . فقدان الرأي العام السياسي . الولاء وقتي وموزع وإرغامي على الأكثر . أيام الاحتلال الأولى ومعاداة المحتل . أولى براعم الوعي القومي العربي في عاصمة الولاية ، وقوفه ضد التيار التركي القوي . الخلاف بين الجنرال مود قائد القوى المحتلة وبين (كوكس) الحاكم المدني العام . زيارة ستورز من المكتب العربي وتجواله في المدن العراقية . وفاة الجنرال مود ، كوكس يبقى حراً في العمل . استئناف الزحف في كردستان وسائر الولاية . دخول الجيش الانكليزي الموصل رغم ممانعة واليها التركي الشديدة بعد التهديد باستئناف القتال عليها والتلويح بمواد الهدنة . القحط والمجاعة في الموصل . معالجة الجيش المحتل السريعة للوضع الاقتصادي . ولاية الموصل تصبح مشكلة دولية ويرفع أمر البت في عائديتها الى عصبة الأمم . الاقلية واليهود في التاريخ العراقي . قانون إسقاط الجنسية . البصرة وطلب الارتباط بالهند . اغتيال الضباط البريطانيين . الأفندية العرب ، يستخدم المحتل بعضهم . مركزهم الاجتماعي . العاملون منهم في سورية ومعظمهم ضباط قدماء في الجيش التركي . الدعاة والوكلاء الأتراك ينشطون في الولاية . آراء إدموندز . الميثاق القومي التركي . ثورة الفرات والتحاق بعض الضباط بها . محاولة إشعال ثورة مماثلة في الشمال . تفاصيل الحملة على تلعفر وسنجار . مقتل الضباط في تلعفر وفشل التقدم نحو الموصل . ختام الحكم العسكري في العراق . تتويج فيصل . أول حكومة عراقية . إسناد مسؤولية الدفاع عن العراق الى القوة الجوية الملكية . قضية الأشوريين النازحين . رأي (ولسن وإدموندز) . معسكر بعقوبة . تجنيد الليثي الأشوري . محاولة العودة الى وطنهم حكاري تمنى بالإخفاق والعودة الى العراق . حكومات مدن أثناء القتال . معارك الاحتلال . استيناف الزحف واحتلال كردستان . المجاعة والقحط . تسليم عاصمة الولاية وختام الحرب . الموقف العام من الأشوريين ، المفاوضات بشأنهم ، مصيرهم . أعمال لجنة التحقيق وتعيين الحدود

يكتب توفيق السويدي[1]:

"في إحدى جلسات مجلس المبعوثان (النواب) المنعقد في ١٩١١ في أستنبول حصلت مناقشة كبيرة قال فيها نواب بغداد أن العراق (أي الولايات الثلاث) غير عربي بما فيه بغداد. ومما يذكر أن عضو المجلس (الشاعر) جميل صدقي الزهاوي وهو كردي كان ضدّهم"

قليلة هي الدول التي تقوم على مجتمع أحادي الدين والعرق واللغة. فمعظم دول العالم – ربما كانت كلها في عرف الأنثروبولوجيين – تضمّ أقليات كبيرة أو صغيرة من هذا العنصر أو ذاك، تتميز عن الأكثرية بأصولها أو بثقافتها وتراثها الاجتماعي، وبعقائدها الدينية.

وطبق ما توصّل اليه أحد علماء الاجتماع: إن أكثر من ثلثي دول العالم يوجد فيها أقليّة من هذا النوع تضمّ ٢٠٪ من مجموع السكان أو أكثر. وبحكم سيادة الأغلبيّة، فقليل من هذه الأقليات نجا من اضطهاد الأكثرية واعتدائها بهذا الشكل أو بذاك. والأقل من هذه الأقليات نسي أو حاول ان ينسى، والأقل من تلك الأغلبيات من حاول أن يُنسي تلك الأقليات ما لاقته عبر تأريخهما.

المجتمع العربي المسلم في العراق بعبارة أخرى: العرب في وادي الرافدين وأعاليهما على فرض تواجدهم – هم تأريخياً عنصر طاريء وليسوا آخر العناصر الطارئة عليه أو أولها ولم يكونوا آخر فاتحيه، فقد سبقتهم أقوام أخرى جعلت منه مجتمعاً غلبت عليه المسيحية والزرادشتية الى جانب عقائد أخرى. والأقلية المسيحية التي بقيت متمسكة بديانتها ومحافظة على تقاليد وتراث متميز خاص ظلت الى جانب الأقلية اليهودية أقلية كبيرة جداً.

وما جرى لهاتين الأقليّتين في العراق خلال فترة تمتد لأكثر من ثلاثة عشر قرناً من حالات

(١) مذكرات توفيق السويدي. المرجع السالف ص٣٦. "ليس بوسعي أن أنفي أو أجزم بصحة هذه الرواية. فالمرجع الوحيد وهو محاضر المجلس ليس بمتناول اليد. لكن ومع هذا فليس من المستبعد صدور ذلك من أشخاص انتقاهم الحزب الحاكم (الاتحاد والترقي) من أعضائه أو مؤيديه وعينهم تعييناً وهو حزب متعصب للتركية – فهم بطبيعة الحال لاينطقون إلاّ بما يحسن في عينه ويستجلب رضاه. فضلاً عن ذلك فمن بين أسماء هؤلاء الأعضاء تجد معظمه ذا أصول عربية تترفع عن الانتماء الى الأصل العربي وتراه منقصة. وسواء في الأمر أكان القول صحيحاً تماماً أو غير صحيح تماماً، فمثل هذه الانطلاقات الاجتماعية والفكريّة ليست غريبة في هذه البلاد وخير مثال لها تلك المشادة بين الفقهاء وعلماء الدين المسلمين حول تفسير نصوص الوحي القرآني وأحكامه، تلك المعركة التي بدأت قبل أربعة عشر قرناً وهي ماتزال محتدمة ترى أصحابها يكاد يقطع بعضهم بعضاً إرباً ويصل الأمر الى التراشق بتهمة الزيغ والكفر والإلحاد. والدين واحد وأحكامه واحدة وهي منزلة «بلسان عربيّ مبين».

اضطهاد وقمع تصل أحياناً حَدّ إراقة الدماء، حَفَر أخاديد من المضاضة والتوتر النفسي في أذهان الأجيال المتعاقبة، آيتها بالخوف والمذلة، والرعب الخانع وصعب اجتثاثها ولم تكترث الأكثرية في أي وقت بردم هذه الأخاديد ولم تحاول إزالتها بدراسة أو بعملية استكشاف لأنجح السبل الى إزالتها. وفي العراق الحديث كانت هناك استمرارية مبتذلة، لم تفلح في إيقافها حتى عند حدود المعقول. مجهودات نبيلة من قوميين ووطنيين عرب ومثقفين متفتحي الأذهان. كانت صرخاتهم تضيع في وادٍ غير ذي زرع.

المعادلة الديموغرافية الحاليّة في العراق بوصفه جزءً من العالم الناطق بالعربيّة، لا سبيل الى إسقاط العنصر المسيحيّ منها بكلا جزئيه: الكردي والعربي. تميزت هذه المعادلة خلال حقبٍ من التاريخ بالخروج المتزايد للسلطة المسلمة المتمثلة في قادة الرأي والحكام ورجال الدين – عن تعاليم القرآن والسنّة وأوامرهما بشتى الحجج والفتاوى والتعاليم لخلق مبررات للممارسات القمعيّة.

كلّ هذا جعل الأقليّة المسيحيّة في البلاد الناطقة بالعربيّة تتطلع الى الغرب المسيحيّ منذ خرج الإضطهاد عن إطار ضيّق وكسب صفةً عموميّةً.

الأقليّة اليهودية لجأت الى ترديد واستذكار أحلام أنبيائها بالخلاص وبعملية إنقاذ تتم على يد إله إسرائيل[٢]. ولأن الغرب المسيحيّ لم يكن في أي وقتٍ من الأوقات أكثر رأفة بهم من عالم الشرق الإسلامي. بل كان فعلاً وفي أوقات كثيرة قد تطول وقد تقصر يخصهم برعاية ممتازة. وقد سبق أن فصّلنا في هذا ولا حاجة الى الترديد والتأكيد. واسترسل مسيحيّو سورية وجبل لبنان ووادي النيل فضلاً عن بلاد الرافدين في أحلام اليقظة بتلك المرحلة التي كانوا فيها سادة بلادهم.

والجدل في هذا مستمر لاينقطع. لأن سلوك الأغلبية لايحاول محاولة جديّة للقضاء على أحلام اليقظة هذه. المسلم الناطق بالعربيّة ذو الشعور القوميّ، يكاد يجزم لك بأن دينه أحسن

(٢) قدرت الأقلية اليهودية بما يتراوح بين مائتي ألف ومائة وخمسين في العراق حتى صدور قانون إسقاط الجنسية عنهم (يذكر إحصاء ١٩٤٧ العام رقم ١١٨٠٠٠ لهم). وفي خلال السنة الأولى والأشهر القلائل التالية على صدور القانون نزح منهم مائة وخمسة وعشرون ألفاً. وتوالت الهجرة بعدما صدر قانون تجميد الأموال لليهود النازحين. ولم يرحلوا كلهم الى إسرائيل لاسيما أغنياؤهم وأصحاب العلاقات التجارية الخارجية، فقد بقي جانب كبير منهم راحوا يتسللون واحداً بعد آخر. وقد روى لي رئيس الطائفة في العام ١٩٧٠ إنه لم يبق من الآلاف الخمسة التي صمدت حتى الستينات غير بضع مئات تمت تخليتهم خلال السنتين الأخيرتين بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له بعد العام ١٩٦٨، وما مرّ ربع قرن على صدور قانون إسقاط الجنسية حتى خلا العراق من يهوديّ واحد.

معاملة بقايا الشعوب الأصلية في تلك البلاد ممن لم يجحد دينه – وبصورة خاصة أحسن معاملة المسيحيين دائماً. لكن هؤلاء وفي فترات سجّلها التاريخ خرجوا عليه سيّاسياً، وتعاونوا مع الأجنبي المسيحيّ وغير المسيحيّ ضدّه، فاضطر الى ملاحقتهم واضطهادهم. والمؤرخ المنصف سيجد في بطون التاريخ وزواياه براهين لمصلحة هذا الجانب أو ذاك.

وقد يشير المسيحيّ في مجال الإعتذار عن سلوكه في تطلّعه للغرب والتجائه اليه، بأن هذا ماكان إلاّ نتيجة اضطهاد وملاحقات سابقة. يشير مما يشير الى البِيَع التي حُوّلت الى مساجد، والى إرغامه في فترات تاريخية على ارتدائه زيّاً خاصاً يتميز به عن سائر المسلمين، والى قوانين وأوامر حكام معينة تحطّ من إنسانيته. ومثلما تذكر طوائف مسيحيّة معينة لم ترتبط بالغرب، بل كانت تضمر له عداءً مذهبياً. كذلك يشير المسلمون أنفسهم الى سلطات وإلى حكام اضطهدوا الشيعة الاثني عشرية ولاينسون أن جماعات من الأقلية المسيحيّة ورجال دين وكبار وزعماء حملوا السلاح ضدّ الجيوش الإسلاميّة الى جانب الغزاة الأوروبيين أثناء الحروب الصليبية. وتستعاد هذه الذكرى بكثير من الإستفزاز والنقمة بإطلاق كلمة "صليبيّ" على كلّ من يعتبره القوميون العصريون العرب معادياً للقوميّة العربية من المسيحيين كتاباً أو سياسيين وهم يشاركون المسلمين الأصوليين في هذا[٣] لكنهم ينسون أن كثيراً من الحكام المسلمين كانوا يحاربون إخوانهم الى جانب الصليبيين.

هذه المعادلة لم يعد لها مكان في التاريخ بعد مرور ثلاثة قرون على الفتح العربي. فجوّ الحرية النسبي الذي تمتع به المسيحيون خلال هذه الفترة تم القضاء التام عليه عندما خرج العباسيون والمماليك والمغول والدول التركمانية بدولتي الخروفين الأبيض والأسود والفرس خروجاً فاضحاً على تعاليم القرآن والرسول كاد يكون كفراً وإلحاداً، فسبوا ونهبوا وهتكوا الأعراض وهجّروا وأعملوا في المسيحيين قتلاً حتى أرغموا أكثريتهم الكاثرة على اعتناق الإسلام بقسوة كان بعض حكامهم يعتبرها مثابةً يتقرب بها الى اللّه وعملاً مبروراً فيه رفع لشأن الإسلام.

عندما دخل الفرنسيّون سورية كانت ذكريات مذابح المسيحيين وصدماتهم في لبنان ١٨٤١ وفي دمشق ١٨٦٠ حيةً في الأذهان. وعندما دخل الجيش الإنكليزي ولاية الموصل – ولا نقول

(٣) كان مؤلف هذا الكتاب واحداً ممن حظي بهذا النعت في العام ١٩٨٠ من خلال مقال قدح خصصته له جريدة (صوت الجماهير) المعبرة عن لسان القيادة القطرية لحزب البعث الأشتراكي (سورية). وكثيراً ما تجد الوصف يتردد في مقالات الصحف التي تصدر اليوم في إيران باللغة العربية.

ولاية بغداد، كان ثم ذكريات أكثر من عشرة قرون من المعاملة الفظة ومن المذلة والاحتقار، بدأ حلم إعادة تنصير سورية وما بين النهرين بدعم غربي خيالاً مضحكاً يدغدغ رؤى بعض المسيحيين المهووسين، في حين تحوّل التراث الدموي عند الأكثرية منهم الى كراهية ونقمة أزاء شهوة السيطرة عند الأغلبية المطلقة مصحوبةً بتلكؤ المسلمين العروبيين المستمر وتجاهلهم الواقع المسيحيّ الناطق بالعربية والسريانية، لاسيما عند تلك الطبقة المتعلمة والمثقفة منهم الراغبة في فصل الولاء الديني عن القومي. وهم أقلّ من القليل مع الأسف وقد عرف المؤلف منهم أصدقاء وإخواناً كانوا مثالاً لأروع المثل الإسلاميّة والقومية الساميّة الصحيحة نال بعضهم في إخوانهم في الدين والقومية – ما يناله الزنديق الكافر الخارج عن الدين وضاعت صيحاتهم في خضم من التعصب الأعمى والحماسة الجنونية[٤] وموجات القمع القومية المتعصبّة.

لم يكن في ثورة العشرين محتوى قوميّ عربي بالمعنى المقصود منه اليوم، ولهذا سميت بالثورة العراقيّة. وفي هذه التسمية أيضاً تجاوزٌ لأن فكرة الوطن العراقي اختمرت في ذهن الوايت هول قبل أن يبشر بها ويمهّد لها في الولايات الثلاث. فوجهاء ولاية البصرة ورأيها العام كانا يريدان أن تلحق ولايتهما بحكومة الهند مباشرة، أو أن تمنح حكماً ذاتياً كاملاً ضمن إطار الدولة الجديدة. وكذلك كان التيار السياسي آنذاك في لندن يميل الى خلق دولة

(٤) من هؤلاء أذكر بصورة خاصة الوطني والمجاهد القومي الأستاذ يحيى ق آل عبدالواحد (حرف القاف هنا بديل لكلمة قحطان). في مطلع شبابه كان عضواً في واحدة من الجمعيات السرية العربية (القحطانية أو العهد؟)، ودخل سلك التعليم في أوائل الاحتلال. نفي الى النجف من الموصل على إثر خطبة ارتجلها أثناء زيارة فيصل المدينة لأول مرة، اعتبر بعض ما جاء فيها تهديداً وتطاولاً. ظل (يحيى ق) خصماً لدوداً للتعصب القومي، مخلصاً لعروبته ووطنه الجديد، يكره المصانعة والتخاذل والإزدواجية والتدجيل، بعقلية متفتحة تزداد حكمة رؤياه بتراكم السنين على عمره طوال العهد الملكي الذي لم يمسسه بسوء رغم العنف الذي كان يهاجمه به وينتقد تصرفات حكامه وساسته. وقد عرف بكتابه (تعليم الأمية) الذي أصبح منهاجاً لتعليم الأميين وتخرج على يده ومن مدرسته التي كان مديراً لها من تولى مناصب وزارية ودبلوماسية، ووظائف خطيرة. انتخب رئيساً لفرع نقابة المعلمين في العام ١٩٥٨ إثر انقلاب الرابع عشر من تموز. وكان شوكة مؤلمة في جنب الناصريين والبعثيين لايستطيعون أن ينالوا منه مأرباً، ثم حانت فرصتهم فيه فألقي القبض عليه تمهيداً لتصفيته مع العناصر الأخرى، التي اعتقلت عشية إعلان العقيد الشواف عن انقلابه في آذار ١٩٥٩. وعلى أثر انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ البعثي القومي قبض عليه وعذّب وسيق الى المجلس العرفي العسكري في الموصل بتهمة الطعن والقذف بالعروبة وبالدين وهُيء له شهود زور ذكروا عنه أنه قال في يوم كذا من العام ١٩٥٨: "إن الشرف عند العرب هما المكانان اللذان تخرج منهما فضلات الجسم فحسب". فحكم وهو ابن السبعين بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنين. ووافاه الأجل فجأة وهو سجين وبالسكتة القلبية يوم سقوط الطائرة المروحية بعبدالسلام محمد عارف رئيس الجمهورية المعيّن واحتراقها به.

كردية من معظم ولاية الموصل وبعض أجزاء من ولاية بغداد. وربما أمكن اعتبار تلك الثورة والى حدٍ ما إمتداداً للنزاع الفكري الضيق الذي نشأ في أعقاب المشروطية للعام ١٩٠٨، بين (الجون ترك) وأنصارهم من جهة وبين الفئة المحافظة من جهة أخرى. المحافظون لجأوا الى سلاح الدين يشهرونه في وجه الإتحاديين، واتخذوا من إساءة استخدام الحرية التي أطلق لها العنان، فانتشرت بسببها فوضى أخلاقية لا عهد للعراق بمثلها – سلاحاً يشهرونه بوجه دعاة الحريّة هؤلاء[٥].

وكان لهذا امتداد سيء العقبى فقد بقي دعاة العروبة، حتى أولئك الذين لايعتبرون العقيدة الدينية مصدر هويّة عرقيّة، يتخذون من الدين الإسلامي ركيزة لدعواتهم القومية. حاول بعض الضباط الشريفيين المتسللين عن تركيا وسورية الى جانب عدد ضئيل من المثقفين المدنيين في بغداد وفي النجف وكربلاء إيقاد نار الوطنية في الثورة وسحبها على مسطرة الاستقلال الوطني في مراحلها الأخيرة. فقد كان لقيام حكومة فيصل في سورية والإنتفاضة الوطنية المصرية أثرهما. إلاّ أن كلّ ذلك جاء متأخراً، فقد أطفيء لهب الثورة قبل أن يتكون منها

(٥) ينقل الكاتب العراقي عبدالكريم العلاف عن شاهد عيان (بغداد القديمة، ط. بغداد الص ١٤٥–١٤٨) ما نصه: "صارت بغداد شبه معرض لأنواع الأسلحة، حيث كانت تباع علنا أنواع المسدسات والخناجر والبندقيات والسيوف... ويحكى أن أحد الأشقياء في ذلك الحين سقط على بيت وقتل صاحبه، فحكم عليه بالموت، صرخ محتجاً: أين هي الحرية التي تنادون بها؟. وشهدت بغداد عقب إعلان الدستور أول مرسح ترقص عليه إمرأة وهو حدث هزّ المجتمع البغدادي هزاً عنيفاً. ثم توالت بعد ذلك وفود الراقصات والمغنيات من بلاد الشام ومصر وتركيا"آه.

ويذكر الأستاذ روفائيل بطي في كتاب (الصحافة في العراق، ط. القاهرة ١٩٥٥، ص٢١) عن الفترة عينها: "كانت هناك فورة صحفية. وكان من شأن كل جريدة أن تموت بعد صدور أعداد قليلة منها. وكثيراً ما كان صاحب الجريدة يلجأ الى الشتيمة المقذعة أو المعارضة الشديدة لكي تروج صحيفته فترة من الزمن. واضطر بعض الأعيان أن يسدوا أفواه الصحفيين الوقحين بمبالغ يدفعونها ليأمنوا غائلتهم. إلاّ أن السلاح الأكبر الذي أشهره أعداء الإتحاديين المتسترين برداء الدفاع عن القيم الإسلامية – هو شعار الإتحاديين بالمساواة بين المسلم والمسيحي واليهودي، فهذا أمر لم تستطع الأغلبية المسلمة أن تهضمه أو تفهمه."آه... (في الروض الأزهر في تراجم آل جعفر. مصطفى نورالدين الواعظ:(نشره ابراهيم الواعظ في ١٩٤٨ أيام كان رئيساً لمحكمة الاستيناف في الموصل وقام كاتب هذه السطور بتصحيح متونه ومسوداته بطلب من الناشر. روى المؤلف هذه الحادثة: "أحد الضباط من أعضاء فرع جمعية الإتحاد والترقي (الحلة) يدعى حمدي ابن حفوف خطب ذات يوم في جمع من الناس وقال في آخر خطابه أن هذا هو دور الحرية والمساواة والأخوة فأخذوا يبحثون عن الضابط ليقتلوه. ولم يتعظ هذا الضابط فقد طفق يتحدث بمثل ما تحدث به عن الحريات، ومما قاله أن المغني يشبه حاخام اليهود. فأغلقت الجوامع وقرر (القزويني) وقد حمى غضبه أن لا صلاة بعد اليوم إلاّ بعد أن يأخذ العدل (!) مجراه. وثار أهل الحلة وراحوا يبحثون عن القائل ليقتلوه واحتقب كل سلاحه وهجموا على دار الحكومة ونهبوا ما فيه من أثاث ولم تهدأ البلدة إلا بعد أن سيق الضابط مخفوراً الى بغداد".

هدف سياسي واضح غير شعار الإستقلال الغامض وعلى الأساس الإقليمي لا العربي.

كان الولاء السياسيّ فردياً موزعاً، ففي مكان كنت تجد الثوار ينزلون العلم البريطاني ليرفعوا في مكانه العلم الشريفي ذا الألوان الأربعة. وفي مدينة أخرى يرفعون العلم التركي بنجمته وهلاله. وفي معظم الأماكن كنت تجد الأعلام التي تظهر عادة بمناسبة ذكرى استشهاد الحسين في أيام (محرّم) تخفق فوق رؤوس القبائل المغيرة.

كان رجال الدين الشيعة الإيرانيون المستقرون في النجف وكربلاء لولب الإنتفاضة الكبرى في الفرات الأوسط[٦] قد أبقوا على صلتهم بالأتراك، تلك الصلة التي أحكمت عراها إنتفاضة النجف الشهيرة في العام ١٩١٧ وحصارها، وهو أمرٌ لا يمكن تفسيره إلاّ بأنّ الغازي الأوروبي هو كافر في عرفهم والترك على كلّ حال مسلمون. إنّ كلمة كفّار، وعبارة حكم الكفّار بقيت لاصقة بالمحتل البريطاني وقد حورب وقتل ضباطه السياسيّون على هذا الأساس، مثلما حصل في كردستان تماماً، وإن لم يكن هناك علاقة بين الأعمال العنيفة التي حصلت عند الجانبين ولا تنسيق كما زعم بعضهم.

في الفرات الأوسط والأدنى كان الدافع الطائفي والمادي غالباً مصدر الثورات العشائرية المتواصلة ضدّ الحكم التركي. ولا عجب في أن لايكون لهذه الثورة من الأثر في إقامة الحكم الوطني قدر ما كان لسياسية الإقتصاد في النفقات وضرورة تسريح القوات الإمبراطورية من أثر في إقامته. ربما كان الأصح القول إنها أي الثورة عجّلت الى حدٍ ما في ذلك وكان من الطبيعي والحالة هذه وأزاء النفوذ التركي والعطف الذي خلّفهُ في نفوس أفراد الأسر ذات الأصول غير العربية ولاسيما المنتفعة من الحكم التركي البائد. أن تغمض سلطة الاحتلال عينيها عن تصاعد الحماسة القومية، وإن كانت في بعض الأحيان مصدر إزعاج لها لاسيما

(٦) منهم آيات الله مرزا محمد تقي الدين الشيرازي وابنه محمد رضا، والطباطائي، وفتح الله الأصفهاني وأبو القاسم الكاشاني وهبة الدين الشهرستاني وميرزا أحمد الخراساني. لهؤلاء ولغيرهم كان الدور الحاسم في تهيئة الأجواء للثورة. يذكر المؤرخ الاجتماعي الدكتور علي الوردي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) هذا: "وراح نفر من السادة ورجال الدين يتنقلون بين مضائف الشيوخ يحثونهم على الانضمام للثورة ويثيرون النخوة فيهم. حدثني السيد أبو القاسم الكاشاني أثناء زياراتي له في طهران إنه كان يدخل على الشيخ في مضيفه فيثير نخوتهُ على الطريقة البدوية فيقول له: أليس من العار عليكم أن أدافع عن بلادكم وانا من تبعة إيران بينما أنتم أبناء البلاد لاتدافعون عنها؟ وإنه كان كثيراً ما يستعمل في كلامه مع الشيوخ الفاظاً بذيئة وشتائم عامية كان يقول لهم مثلا: "إن الإنكليز سيفعلون بنسائكم كذا. وإن الرجل منكم ديوث لا غيرة له إن لم ينهض لمقاتلة الإنكليز دفاعاً عن عرضه". ويقول الكاشاني أن شتائمه كثيراً ما كانت تثير النخوة فيهم وتحرك همتهم :"فيضطرون الى رفع راية القتال وتنطلق الهوسات عندئذ فيصعب عليهم التراجع بعدها".

من طبقة الصحافيين وكتاب الصحف الموسمية. فقد راحت طائفة منهم تهاجم المحتلين والسلطة البريطانية بحريّةٍ وهو ما لم تجرأ عليه في عهد التسلط التركي. بل كانت الإدارة البريطانية تعمد الى تغذيته وتشجيعه في محاولة منها لوقف تيار العداء الديني والإفادة منه في مقاومة المحاولات التركية لاستعادة ولاية الموصل.

★★★

بدت محاولة الأتراك في استرجاع ولاية الموصل جديّةً أكثر مما هي في الواقع. فمنذ مؤتمر ڤرساي كان مصير الولاية قد تقرر كما رأينا. ولم يكن تركها لتركيا بأي شكل موضع بحثٍ قط. لكن بقيت تنتظر الحَلّ الدولي القانوني لإسباغ الشرعيّة على عمل المنتصر اللاقانوني.

وفي خضم هذه المحاولة والتصدي لها. أخرجت بذرات القومية أول أشطائها في المدينة، وكان من مصلحة المحتل البريطاني فضلاً عَمّا ذكرته أن يغذّي هذه المشاعر أيضاً ليحقق نوعاً من الموازنة بينها وبين المشاعر القومية الكردية المستيقظة وأمانيها في إقامة كيان سياسي مستقل، لاسيما بعد أن بدأت أخيلة الوعود البريطانية في إقامة ذلك الكيان تبتعد عن أذهان الوايت هول لتفسح السبيل الى فكرة ضمّ الولاية إلى الجزء الذي تمّ احتلاله وإقامة الكيان العراقي الموحدّ.

لم يكن قوميّو الموصل يدينون بالكثير للجنوب، بل كانت الصلة مقطوعة تماماً خلال الحرب وما بعدها. وربما كان التأثير السوري أكثر ظهوراً وصلته أمتن. وسنرى كيف أن الموصل كانت هدف ضباط جيش فيصل العربي. ولنعد الى الخلف قليلاً.

مَرّ عدد من مدن الجنوب وبلداتها بمرحلة سياسية طريفة فريدة أثناء معارك الإحتلال. فقد كانت تقوم فيها حكومات مدن City States عند انحلال الإدارة العثمانية أو ضعفها أو هروب موظفيها. ولم يكن ذلك بهدف قومي أو سياسيّ. بل لضرورة الدفاع عنها – لا ضدّ الجيوش البريطانية – بل ضدّ غارات البدو العرب.

كانت السلطة قبلها تحميهم، والآن غابت السلطة وعليهم أن يتدبروا الأمر بأنفسهم – فتراهم يقيمون نظاماً مصغراً لحكومة يرأسها وجهاء وشخصيات معروفة دينية وعلمانية، توزع الواجبات وتقيم الحدود برضى تام من عموم الأهالي. هؤلاء يتوزعون السلاح فيما بينهم ويرممون الأسوار ويتبادلون الحراسة. وأحياناً يَستَعْدون قبيلة ضد أخرى أو يغرونها بمال دفعاً لغائلة أخرى. وديدن القبائل التربص وانتهاز الفرص في ضعف الإدارات المركزية أو خلوّ

المدينة من حامية كبيرة تدافع عنها. يسيطر على أفرادها ودهمائها وعلى رؤسائها فكرة واحدة هي سلب ونهب كلّ ما يمكن أن يقع تحت يدها. تلك كانت الهواية وسبب العيش معاً لدى تلك القبائل. لا شيء من رابطة قومية أو عنصرية يربطها بسكان المدن يجعلها تحجم عن أسلوبها هذا، منذ أن أخذت تعبر الضفة اليمنى من الفرات وتتسلل عبره الى الداخل خلال القرون التسعة الماضية قادمة من الجزيرة العربية ونجد. حتى تلك الرابطة الدينية والمذهبية بين هؤلاء وبين حضريي بلاد النهرين. فقد كان لها حدودها التي تقف عندها كلما لاحت الغنائم والكسب الحرام قطوفاً دانيةً في الأفق أو في متناول اليد وتحفل مذكرات العراقيين الذين عاشوا تلك الفترة وكتبوا عن وثائقها بروايات وحكايات تكاد لغرابتها تشكك قارءها في صدق راويها أو ترغمه على تصديقها، إذ لايمكن أن يسمو أبعد خيال الى اختلاقها وهي بعد إذ تروى وما أكثرها – فبالأسماء والتواريخ[٧].

بَدءَ تشجيع الشعور القومي عند الناطقين بالعربية – ضد التيار التركي واضحاً من المعاملة التي خص المحتل العرب بها أثناء الحرب. فقد ميزت دائرة رئيس الضباط السياسيين أثناء مطاردة الجيش العثماني وملاحقة الذين فروا واختفوا، بين سكان البلاد الناطقة بالعربية وبين الجنود الأتراك – فأسروا هؤلاء وأرسلوهم الى معسكرات الإعتقال. في حين أطلقوا سراح الأولين ويقدر عددهم بالآلاف. بعد تحقيق أوّلي روتيني للتأكد من هوياتهم وأخذ تعهد منهم بالحضور أمام سلطات الاحتلال عند استدعائهم. في حين واصلت تلك الشعبة السياسية الملحقة بالجيش ملاحقة أعضاء حزب الإتحاد والترقي وإلقاء القبض عليهم.

كما جاء ذكره كان السرّ پرسي كوكس، الذي هو من أعضاء المكتب العربي، قد أُلحق بالحملة كبيراً للضباط السياسيين. وعندما تم احتلال بغداد حرص الجنرال (ستانلي مود) على حصر السلطتين العسكرية والمدنية بيده، فمالبث أن نشب خلافٌ بينه وبين (كوكس). كان

(٧) منهم عبدالعزيز القصاب، الذي كان قائمقاماً عثمانياً للسماوة عند بدء الحملة البريطانية. (عين متصرفاً للواء الموصل أثناء النزاع على الولاية في العام ١٩٢٤ وأستوزر أكثر من مرة) يروي في مذكراته (من ذكرياتي بيروت ١٩٦٢ ص١٠٨) إن جماعة من البدو العرب بعد هزيمة (السنّ) قرب العمارة، اعترضوا المجتهد الكبير (السيد عبدالرزاق الحلو) الذي كان قد خرج مع أتباعه للجهاد في (القرنة) ولم يبق معه بعد الهزيمة سوى أربعة رجال، فأخذ ينتقل بهم من موضع الى آخر فخرج عليه هؤلاء وكانوا من مقلديه. وأمروه بالنزول عن البغلة التي يركبها لهم قائلين: "شيخنا، بدلاً من أن يأخذ أهل القرية التي تلينا حوائجك وأمتعتك وهم أعداؤنا، فالأولى بها نحن أصحابك". واستولوا على بغلته وأمتعته وتركوه يسير ماشياً رغم شيخوخته ومرضه. وكذلك يروي إن جماعة من العشائريين هجموا على خيمة مجتهد كبير بغية نهبها، فوجدوا المجتهد يصلي فوق سجادة ثمنية فأمروه بإنهاء صلاته بسرعة لأنهم يرغبون في سجادته. فلما لامهم المجتهد على فعلهم أجابوه بكل أدبٍ: شيخنا لاتطولها. إن لم نأخذها نحن أخذها غيرنا.

(كوكس) قد تلقى تعليمات واضحة من القاهرة في العمل على إيقاظ المشاعر القومية العربية والتعاون في هذا الحقل لمواجهة الدعاية التركية وإقامة جبهة ضد جبهة أنصار الترك ومحبّيهم.

إلاّ أن الجنرال مود لم يكن يرى في هذه السياسة فائدة كبيرة، كان يرى الإستعانة بالعروبيين مضيعة للوقت. وبقي لايعير اهتماماً بتوصيات لندن. ويقيناً كان (كوكس) يعيش حياة بائسة يبثّ آلامه برسائله الى المكتب العربي والى وزارة الهند وبلغ به الأمر أن هددّ بالإستقالة محتجاً "بحقوق زوجته عليه في العيش بين مجتمع متحضّر!". وكان (مود) يأبى إشراك (كوكس) في أيّ شيء قائلاً إنه إنما يتلقى أوامره من وزارة الحرب وجيشه جيش احتلال والحرب لم تنته بعد.

بغية الوصول الى حَلّ للأزمة. وجدت لندن ضرورةً في دراسة الوضع موقعياً فوافقت على شخوص صاحبنا (ستورز) رئيس المكتب العربي الفعلي – الى بغداد.

ووصل هذا في الثامن من أيار ١٩١٧ وقام بجولات في معظم المدن الهامة التي تمّ فتحها، وبزيارات عدة لمراكز القوى الدينية والمدنية في رحلات دامت ثلاثة أسابيع وفي الوقت الذي كانت القوات البريطانية تطارد فلول الجيش العثماني المتراجعة الى سامرّاء[٨]. ويدون (ستورز) نتائج وفادته، ويطرزها بانطباعات طريفة عن الرجال الذين زارهم أو التقاهم الى أن يقول:

"شكا لي كوكس، مضاضته وتنفّره من معاملة الجنرال. وخلص الى القول بان التعاون معه بات ضرباً من المحال. إنه (أي الجنرال) يهيم حُبّاً بالسلطة ولا سبيل لتخليّه عن أي جزء منها. وقال كوكس إنه مصرّ على الإستقالة وأن لا فائدة في بقائه عاطلاً دون عمل، وإنه كان ينوي اعتزال حياة الوظيفة قبل الحرب والركون الى الراحة مع زوجه التي عانت الكثير من حياة الغربة الشاقة في الصومال والخليج الفارسي. فرحتُ أهدّيء من سورته مطمئناً بأن حكومة صاحب الجلالة مازالت بحاجة الى خدماته، وأن كل شيء سيكون على ما يرومه"

وأمنت سكرتيرته (مس بل) على أقوال رئيسها[٩].

زار (ستورز) شخصيات في بغداد والكاظمية وانتقل الى كربلاء وقام بزيارات خاصة

(٨) تبعد بمسافة مائة كيلومتر شمال بغداد.

(٩) رونالد ستورز: «إتجاهات Orientations». لندن ١٩٣٩ ص٢٣٠ وما بعدها.

لعلمائها. وكتب يقول إن الشيعة رحبّوا بثورة الشريف ووصفوها بأنها مصدر فخر للعرب. كما ذكر أنه عرض عليهم أسئلة معينة في مستقبل الحكم وعما يطمحون اليه. وفعل الشيء عينه في كلّ من الحلة والكوفة والبصرة وقفل منها الى نجد لزيارة ابن سعود.

بعد مراسلات عديدة نجح (كوكس). وخولته دائرته الصلاحيّات التي يريدها، تم خلالهُ تهيئة الجوّ بعد وفاة (الجنرال مود) بوباء الكوليرا[١٠]. بعد أربعة أشهر على تولي (الجنرال مارشال) منصب القيادة العامة، كان الإنسجام قد تحقق في فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكريّة. إلاّ أن (كوكس) لم يكن في العراق عندما احتلّ الجيش البريطاني الموصل عاصمة الولاية وتم طرد آخر جندي تركي من كردستان أو وقع في الأسر بعد هدنة مودروس – فقد صدر أمر نقله فجأة وزيراً مفوضاً لطهران بمهمة خاصة في نيسان ١٩١٨. وأسند منصبه وكالة للعقيد (أرنولد ولسن) وهو شاب لم يتخط الخامسة والثلاثين. رافق الحملة العراقية ضابطاً سياسياً من الأوّل وشارك في وقائعها. ومن عرف الرجل عند توليه الأمور بمنصبه الجديد لايستغرب من وقوع الإختيار عليه لهذه المهمة الصعبة الخطيرة المسؤوليات. ومن أتيح له العمل معه يقرّ له بنزاهة وكفاءة وتفرغ مكنه خلال سنتين من إقامة صرح جهاز إداري بقي العراق ينعم بمحاسنه عقوداً طويلة من السنين، لكن شاء سوء حظه أن يصطدم بأنانية (الآنسة بل) وحبّ التسلط الجنوني الذي رافقها الى آخر ساعة من حياتها. إذ سرعان ما اختلفا وراح أحدهما يكيد للآخر ويتسقط هفواته ويدوّن مآخذه وانتقاداته برسائل وتقارير الى لندن. ورجحت كفة الآنسة لما كانت تحظى به من مقام في أوساط لندن السياسية. وزاد في تعقيد الأمور تلك البلبلة السياسية التي كانت تسود الوايت هول في ذلك الزمن وآيتها تضارب المصالح. وقد أشرنا الى ذلك في فصول سابقة. وبلغت الحيرة السياسية أقصاها عندما عبرت

(١٠) بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال (مود) الذي تمّ عمله في لندن ونصب في ساحة أمام السفارة البريطانية في كانون الأول ١٩٢٣، كتب الرصافي الشاعر مقالة في العدد ١٤ من جريدة (الأمل) الصادرة في الشهر عينه جاء فيه: "نريد هنا أن نعالج مسألة تاريخية خطيرة تهمّ العراقيين والبريطانيين على حد سواء. وهو تأثير إنقاذ مدينة بغداد على يد الجنرال مود، وما لهذا القائد الكبير من المقام الخالد في التاريخ العربي (معروف الرصافي: من تأليف قاسم الخطاط ومصطفى السحرتي ومحمد الخفاجي: القاهرة ١٩٧١ ص١٢٩). [حطم غوغاء بغداد هذا التمثال يوم ١٤ تموز ١٩٥٨]. هكذا كان حكم الرصافي باتاً على عملية تحرير بغداد البريطانية، مثلما كان حكمه عليهم باتاً أيضاً بعد خمس سنوات لا أكثر. في قصيدة مشهورة مطلعها:

أنا بالحكومة والنيابة أعرف أألام في تفنيدهـــــا وأعنفّ؟

وفيها يقول:

للأنكليز مطامع ببلادكم لاتنتهي إلاّ بأن تتبلشفوا

الجيوش البريطانية دجلة الى ضفته اليسرى وراحت تطارد القوات العثمانية في كردستان الجنوبية التي كان معظمها ضمن ولاية الموصل إدارياً. وبدء الخلاف حول ما يُعمل بها. ماذا سيكون من أمرها؟ كيف ستدار؟ خلاف وحيرة كانا يزدادان بتوالي الإنتصارات العسكرية.

يذكر (ويلسن) في هذا الصدد أن الجواسيس الألمان والأتراك استغلوا بيان الجنرال مود الموجّه الى العرب القاطنين في ولاية الموصل عند بدء العمليات العسكرية و:

"استخدموه بوجهٍ لايتفق ومصالحنا، ووزعوا بيانات في المناطق الكردية أوضحوا فيها كيف أن بيان (مود) تجاهل مصالح الكرد وحقوقهم وأن كل ما يفهم منه هو أنهم سيداسون بأقدام العرب الذين يبغضونهم ويحتقرونهم"

في ٢٦ من نيسان ١٩١٧ أصدر رئيس أركان الإمبراطورية (الفيلدمارشال سر وليم روبرتسن) أمراً (للجنرال مارشال) يقضي بالزحف نحو كركوك بغية احتلالها ثم التقدم شرقاً للإستيلاء على السليمانية. كان الدافع الى هذا الأمر المفاجيء ستراتيجياً بالدرجة الأولى قصد منه تخفيف الضغط عن القوات الروسية المندفعة من إيران الى شرق ولاية الموصل وجنوبها الشرقي.

وكان (كوكس) قد بعث قبل رحيله بخطابات ورسائل شخصية الى زعماء القبائل الكردية في السليمانية وكركوك تحفل بالوعود السياسية والإقتصادية حاثاً على التعاون العسكري مع القوات البريطانية. والظاهر أن الردود كانت مشجعة الى الحدّ الذي أيّدت إصابة رأي القيادة العامة في لندن بخصوص الإندفاع الى قلب ولاية الموصل ومعاقل كردستان الجبلية دون إقامة وزن لتقديرات ضباط أركان الجنرال (مارشال) الشديدة الحذر.

وفي ٢٨ من نيسان ١٩١٧ ولم يمض على الأمر التوجيهي أكثر من يومين، احتلت بلدة (كفري) وبعدها بيوم واحد احتلت (طوزخورماتو) بعد مقاومة تركية ضعيفة تلاها انسحاب سريع. وفي ٧ من أيار دخل الجيش البريطاني كركوك. وحافظت القبائل الكردية على الوعد الذي قطعته (لكوكس). وفي السليمانية عقد الزعماء القبائليون والشخصيات البارزة في المدينة اجتماعاً تقرر فيه إقامة حكومة كردية مؤقتة وأختير (الشيخ محمود البرزنجي) رئيساً لها بعنوان (حكومة دار كردستان). وأعلنت هذه (الحكومة) وقوفها الى جانب القوات البريطانية وبعثت بكتائب خيالة الى كركوك للإنضمام الى الجيش البريطاني. ووجه (الشيخ محمود) خطاباً الى الجنرال مارشال جاء فيه:

"نيابة عن الشعب الكردي أقدم لكم زمام الحكم. ويسرّني أن أكون ممثلاً للقوات

المحتلة في دست الحكم والإدارة تحت حماية العلم البريطاني... لقد غمر الفرح العظيم أهالي كردستان بأنباء الإنتصارات التي حققها الجيش البريطاني، والآن وها نحن قد تحررنا من ربقة الطغيان التركي على يد هذا الجيش، نرجو أن يحقق لشعب كردستان التحرر والتقدم والإزدهار مثلما تحقق ذلك للعراق على يدكم. ونتمنّى أن تقوم حكومة كردية مركزها السليمانية تحت حماية بريطانيا... وختاماً أرجو أن تمنعوا وبأي شكل من الأشكال أو أي عامل من العوامل عودة الحكم التركي الى كردستان مرة أخرى"

وأسرع كوكس بتوجيه رسالة التثبيت الى الشيخ محمود معلناً فيها اعتراف حكومته به، ومانحاً إياه حق تمثيل سلطة الإحتلال.

إلاّ أن الأتراك – وقبل نشر هذا الأمر في صحف بغداد – عادوا الى انتزاع كركوك من يد البريطانيين. وتطوع أحد وجهاء المدينة بإبلاغ (خليل پاشا) قائد الجيش السادس ووالي الموصل وبغداد حول اتصال الشيخ محمود بالسلطات البريطانية والتعاون معها، وعن محاولته إقامة دولة كردية تحت الحماية البريطانية. فبعث هذا القائد برقية الى العقيد (مصطفى بگ) آمر حامية السليمانية يأمره فيها باعتقال الشيخ محمود وعددٍ من الوجهاء المتعاونين معه تمهيداً لسوقهم الى محكمة عرفيّة.

أُرسل الشيخ محمود الى كركوك وأصدرت محكمة عسكرية حكم الموت عليه في جلسةٍ واحدة. إلاّ أن القائد تردد في تنفيذ الحكم، تحسباً للعواقب وربما إتعاظاً بالدرس الذي استفيد من إعدامات (جمال) للوطنيين العرب في سورية ولبنان، وربما خوفاً من عمليات ثأرية كردية تصيب قواتهم المتقهقرة وبقي الشيخ سجيناً.

مامضت أسابيع قليلة حتى نقل (خليل پاشا) وحَلّ محلّه (علي إحسان پاشا) وهو عسكري بارع وسياسي أريب عقدت عليه القيادة العامة في أستانبول آمالاً في أن يحقق مثل ما حقق من انتصارات على الآشوريين والروس في جبهة أورميه وأذربيجان. فكان من أوّل أعماله أن استقدم (الشيخ محمود) من محبسه الى مقرّه العام في الموصل وأصدر عفواً عنه وبالغ في إكرامه وزوّده بمبالغ كبيرة لغرض تجنيد قوات عشائرية لمساندة الجيش التركي. وسحب البساط من تحت قدمي (كوكس) بأن أثبت الشيخ في الوقت نفسه بالعنوان السياسي الذي اتخذه لنفسه.

توقفت الحرب أشهراً بعد التراجع البريطاني عن كركوك. إلاّ أن النجاح الذي أصابه

البريطانيون في سورية ولبنان وفلسطين وخروج (بلغاريا) حليفة تركيا من الحرب، أغرى القيادة البريطانية بإصدار الأمر للجنرال مارشال باستئناف الزحف على ضفتي دجلة لاحتلال ولاية الموصل كلها وبمقتضى هذا الأمر التوجيهي:

"إن خروج بلغاريا من الحرب والنجاح الذي حققناه في فلسطين وسورية يقرب الإحتمال في طلب تركيا الهدنة. فمن الضروري التقدم على ضفتي دجلة لإحتلال ولاية الموصل"

تقدم الجيش البريطاني برتلين أولهما شق سبيله على امتداد الضفة الغربية (اليمنى) في وجه مقاومة تتفاوت بين الضعف والتقهقر. إلاّ أن الجنرال (كوب) على الضفة اليسرى إندفع بقوات متفوقة فاحتل في ٢٣ من تشرين الأول ١٩١٨ بلدة (توزخورماتو)، وبعد أربعة أيام دخل كركوك ثم (آلتون كوپري) التي تبعد ٦٥ كيلومتراً شمالاً.

في ٢٣ من الشهر عينه تمّ استسلام عدد كبير من القوات التركية إثر معركةٍ فاصلة شمال (شرقاط) على الضفة اليمنى وتمزق الجيش العثماني شرّ ممزق وأسرعت البقية الباقية تحتمي بأسوار الموصل[١١]. وشرع الجنرال (كاسِلس) يتقدم صوب (حمام علي) التي تبعد ٢٢ كيلومتراً جنوب الموصل. وفي تلك البلدة المشهورة بحماماتها الصحية، التقى بوفد الهدنة المؤلف من ضابطين تركيين يحملان رسالة من (علي إحسان پاشا) موجهّة الى الجنرال (مارشال) فيها يعلمه بأنّ هدنةً بين بريطانيا وتركيا قد وقعت في ٣٠ من تشرين الأول (أنظر الفصل السالف).

كانت القيادة العليا التركية قد أبرقت الى هذا القائد البرقية المرقمة ٢١٧٨٧ بتأريخ ٣١ من تشرين الأول ١٩١٨ ووصلته في الثامنة مساءً وهذه هي:

"الى قيادة الجيش السادس: عقدنا هدنةً مع دول الحلفاء تدخل قيد التنفيذ إعتباراً من ٣١ تشرين الأول أكتوبر ١٩١٨ الموافقة للسنة ١٣٤٤ رومية. قام ممثلو الدول المذكورة بإبلاغ الأمر الى قوادهم العسكريين في بلغاريا وسورية وبغداد. فعليكم التقيد بتطبيق شروط الهدنة وإعلامنا بوصول الأمر والتفاصيل فيما بعد"

أحمد عزت: رئيس الوزراء

رئيس هيئة أركان حرب القيادة العليا العثمانية

(١١) يبت المؤرخون العسكريون إن ما بقي في الموصل منه كان بحدود ١٦٥٠ جندياً مع ٣٢ مدفعا وحوالي ١٥٠٠ جندي و١٢ مدفعاً على طريق التون كوپري.

وبعد ساعات قلائل حملت طائرة بريطانية الى الجنرال (كاسلس) برقية مشابهة وهو في خطوط القتال الأمامية.

كان من المفروض بمقتضى شروط الهدنة العامة أن يتوقف القتال ويقيم كلّ فريق من المتحاربين في الموضع الذي كان يحتله ساعة إبرام الهدنة. إلاّ أن برقيةً من وزارة الحرب البريطانية تسلمها الجنرال (مارشال) في ٢ من تشرين الثاني (نوفمبر)، تتضمن فضلاً عن شروط الهدنة – أمراً صريحاً بالتقدم لإحتلال مركز الولاية تطبيقاً للمادتين (٧) و(١٦) من شروط الهدنة[١٢].

بهدنةٍ أو بدونها، كان احتلال الولاية وعاصمتها أمراً مقضياً وهذا ما يثبته ولسن في العام ١٩٢٦:

"كنت منذ أشهر عدة. وبكامل اتفاق مع القائد العام، على اتصال بحكومتي، أصرّ عليها بوجوب توسيع نطاق أهدافنا العسكرية لتشمل ولاية الموصل. وقد اتفقت وجهة نظرنا على وجوب احتلالها قبل توقف العمليات العسكرية بهدنةٍ، أو بعد هدنةٍ، وسواء في الأمر أوقعت الولاية من نصيبنا أم نصيب الفرنسيين... أنا بطبيعة الحال لست من الأنبياء الذين يكشفون الغيب لأتكهن – وبعد خمس سنوات من وصولي الى هذه النتيجة – بإبرام صلح مع تركيا، ولا كان بوسعي أن أقدّر رضا الترك بالتنازل نهائياً عن مطلبهم بهذه الولاية بعد ثماني سنوات، لكني كنت على يقين بأن عصفوراً واحداً في يدنا العسكرية هو خير من عشرة عصافير في أشواك الدبلوماسية وشباكها. ومهما سيكون شكل الحكم الذي سيتقرر لبلاد مابين النهرين، فمن الضروري أن تشمل دائرته ولايات البصرة وبغداد والموصل، هذا إذا كانت إقامة مثل هذا الحكم هدفاً وقصداً"

وكان القائد العام من جهته يعمل وفق أوامر وزارة الهند التي أكدّت له في برقية بتأريخ ٣١ من أيلول ١٩١٨:

"إن رغبة الحكومة البريطانية وحلفائها، فضلاً عن مصالحها، تقضيان باحتلال ولاية الموصل"

(١٢) م. ٧: للحلفاء الحق في إحتلال أيّ نقاط ستراتيجية إن كان الوضع السائد يهدد سلامة قواتهم. م١٦: يتم إستسلام جميع الحاميات (التركية) المرابطة في الحجاز وعسير واليمن وسورية وبلاد ما بين النهرين الى أقرب قائد لقوات الحلفاء. وتنسحب القطعات العسكرية التركية من ولاية كليكيا، باستثناء ما هو ضروري لحفظ الأمن الداخلي على أن يتم ذلك بمراعاة المادتين ٥ و٧ من شروط الهدنة.

وفي منتصف ليلة ٢/١ من شهر تشرين الثاني (أكتوبر) أبلغ (علي إحسان) قبل ساعات قلائل من إرساله علم الهدنة، بوجوب إخلائه المدينة فوراً. في حين كانت رسالة القائد التركي الموجهة الى (الجنرال مارشال) تتضمن الطلب بسحب قواته من (حمام علي) الى بلدة (القيارة) التي تقع على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً جنوب الموصل. وهي النقطة التي كانت القوات البريطانية قد بلغتها ساعة توقيع الهدنة.

لم يكن الضابط السياسي الملحق بالجيش (العقيد ليتشمان) صديق (ولسن) وموضع ثقته. وقد كلّف هذا بحمل جواب الجنرال (كاسلس) الى القائد التركي. وفيه تأكيد على أن الأوامر التي تلقّاها من القيادة العامة تقضي باحتلال الموصل، وإخلائها من القوات التركية. ولم يتزحزح (علي إحسان) عن موقفه وعاد (ليتشمان) يحمل رفضه النزول عن الموصل، إلاّ أنه لايمانع من قيام الجيش البريطاني باحتلال التلال الجنوبية المشرفة على المدينة المعروفة بمرتفعات (أبو سيف). فإذا أصرّ فليتقدم لاحتلالها عنوةً.

والواقع وبحسب ما يؤكده الموصليون الذين عاشوا تلك الفترة أن القائد التركي كان قد قرر إخلاء المدينة قبل أكثر من أسبوع من إعلان الهدنة وعلى أثر المعركة الفاصلة شمال شرقاط. بعد يأسه من وصول نجدات كافية اليه والإسراع لاحتلال المواقع الدفاعية في سلسلة المرتفعات أمام (زاخو). وقد شهد الموصليون هؤلاء عبور الجيش العثماني الجسر الخشبي ليلاً الى الضفة اليسرى وعسكرته هناك. إلاّ أن القائد التركي أعاده الى الموصل ساعة إبلاغه بعقد الهدنة كما مَرّ. وأسقِط في يد الجنرال (كاسلس) ولم يدر ما يفعل. لأنّ مبادأته القتال من أجل الموصل دون استفزاز هو إخلال بشروط الهدنة ولم يرَ بُدّاً من القبول باقتراح آخر للقائد التركي وهو الاجتماع به شخصياً.

في ٤ من الشهر عينه قدم (علي إحسان) الى مقر القائد البريطاني وتمكن بدهاء منه وحنكة سياسية من إقناع خصمه على خطّ فصل بين قوات الطرفين تحتل فيه قواته مواقع تبعد زهاء ميلين جنوب الموصل. وثارت ثائرة القيادة البريطانية في بغداد عندما أبلغت بالإتفاق، وبعثت ببرقية تأنيب للجنرال كاسلس هذا نصها:

"تنصّ الفقرة السابعة من اتفاق الهدنة على أن يكون للحلفاء الحقّ في احتلال النقاط الستراتيجية. وقد أمرت وزارة الحرب باحتلال الموصل وعليك التنفيذ بصرف النظر عن مواقع القطعات العسكرية القريبة من المدينة مثلما ورد في أمرنا السابق"

فأصدر (كاسلس) أمراً بالحركة من (حمام علي) فتقدمت قواته واحتلت النقاط الستراتيجية ومفارق الطرق والمرتفعات الجنوبيّة المطلة على المدينة. وتمسّك (علي إحسان) برأيه وأصرّ على موقفه محتجاً بأن الموصل وضواحيها ليست جزءً من (ميسوپوتاميا) ولا يحق للحلفاء احتلالها بموجب المادة السابعة من هدنة (مودروس)، ثم إن جيشه هو جيش ميدانيّ[١٣] وليس حاميةً وهو غير ملزم والحالة هذه بالاستسلام بموجب المادة (١٦) من الهدنة.

وغادر (الجنرال مارشال) بغداد الى الجبهة ليتسلّم القيادة الميدانية. منذراً الوالي والقائد التركي بأنه عازم على حيازة المدينة مهما كلّف الأمر. وجرت اتصالات تالية ختمت باجتماع أخير في ٧ من تشرين الأول في مقرّ الوالي عينه أي (السراي)، وفيه أكد (مارشال) بأنه مصرّ على إنذاره وإنه غير مستعد لأي مناقشة ووضع أمام خصمه شروطاً وطلب منه التوقيع عليها[١٤] ثم عاد الى مقرّه ليصدر أوامر معينة من بينها أمرٌ بتعيين العقيد (جيرالد ليتشمان) حاكماً عسكرياً وضابطاً سياسياً لولاية الموصل بسابق اتفاق مع وكيل الحاكم المدني العام (ولسن).

وتشاء الصدف وحدها. أن يصدر في عين هذا اليوم الذي بلغ فيه النزاع على الموصل أوجه ذلك التصريح الإنگلوفرنسي الذي أشرت اليه في الفصل السابع بخصوص مصير البلاد التي احتلّت في الشرق الأوسط[١٥]، وهو البيان الذي قصد منه بالدرجة الأولى إرضاء الرئيس

(١٣) قدّر العسكريون الذين أرخوا لهذه الفترة. أن ما بقي من الجيش السادس لايزيد تعداده على العشرة آلاف بين ضابط وجندي يدخل فيه ما ذكر في الحاشية (١١).

(١٤) من أهم هذه الشروط: (١) إخلاء ولاية الموصل من جميع الوحدات العسكرية التركية خلال عشرة أيام من تاريخه. (٢) مبادلة أسرى الحرب فوراً. (٣) تسليم السجن المركزي وسائر المسجونين فيه. (٤) حظر خروج أي من الأهالي مع الجيش كرهاً أو اختياراً. (٥) تسليم كلّ السجلات والوثائق الرسمية التي تخصّ الولاية. (٦) تقديم قائمة بمواقع الحاميات التركية العسكرية في سائر أنحاء الولاية وإصدار الأوامر لآمريها بمواصلة تبعات إدارتها حتى يتسلمها موظفون بريطانيون. (٧) يخير الموظفون العثمانيون المدنيون بالبقاء في مناصبهم الى أن يحسم مصير الولاية أو بالرحيل عنها.

(١٥) وهذا نصه: "إن الغاية التي تتوخاها الحكومتان الفرنسية والبريطانية من هذه الحرب التي خاضتاها في الشرق والتي قدح الألمان شرارتها الأولى هي تحرير شعوبها بشكل تام حاسم. ويقصد بها تلك الشعوب التي نالها من مظالم الإحتلال التركي واضطهاده وإقامة حكومات وطنية وإدارات مدنية تستمد سلطتها من إرادة سكانها الأصلاء واختيارهم الحرّ. والإعتراف بهذه الحكومات حال قيامها". (المقصود بعبارة الشعوب التي تمّ تحريرها في الشرق الأوسط – هو العرب والكرد والآشوريون والأرمن. في كلّ من الحجاز وسورية وميسوپوتاميا والجنوب الشرقي من بلاد الأناضول وأرمينيا التركية). وقد نشر هذا التصريح في كل من لندن وپاريس والقاهرة ونيويورك. من الناحية السياسية، يمكن القول إن هذا التصريح حلّ اتفاق (سايكس – بيكو – سازانوف).

الأمريكي ولسن. واستجلاب ثقة سكان البلاد المفتوحة بنوايا الحلفاء الطيبة وتأكيد وعودهم السابقة المبذولة للشعوب التي حكمها الأتراك وبالأخص سكان البلاد الناطقة بالعربيّة.

في تلك الساعات كانت مدينة الموصل أشبه بالفتاة التي يتنازع خطيبان على يدها ولا كلمة أو خيار لها في الأمر. وكان سكانها يعيشون حالة الوجوم والتبلّد الحسي الذي يبدو عادة في المجتمعات المنكوبة أو التي تتوقع مصيبةً تدفعها إلى أكل كلّ ما حرمته الأديان وعافته النفوس. إبتداء بلحوم الكلاب والهررة وانتهاء بلحوم البشر والجيف. وأرغمت الطبقة المتوسطة على بيع كلّ ما يمكن بيعه من مقتنى ونشب ومبادلته بحفنات من البرّ أو الشعير. وقد ساعد على إنقاذهم من الموت جوعاً تلك العادة المتأصلة تاريخياً فيهم. عادة تخزين الضرورات من الطعام لموسمين كاملين من السنة[١٦].

(١٦) تأصلت هذه العادة خلال أحقاب من التاريخ بسبب ما كان يتعرض له الموصليون من سنوات قحط ومجاعة وحصار الغزاة المستمر والنهب المتواصل لضواحيها وقراها ومصادر تموينها واعتمادها الأقتصادي. وتبدأ عمليات التموين بمراسيم خاصة في شهر تشرين الأول عادة، فتشترى كميات كبيرة من الحنطة ويخزن بعضها ويعمل من بعضها رقاق الخبز الجاف بأعداد كبيرة، ويسلق بعضها ليعمل منه البرغل ومشتقاته. ويشترى السمن ولحوم الغنم والعجول وتكبس وتوضع في دنان كما يفعل بالجبن ولايستغنى عن الحبوب والفاكهة المجففة. كلّ شيء قابل للحفظ والخزن باستثناء المواد القابلة للتلف السريع كالخضار ومنتجات الألبان وهي ميسورة عادة في كل وقت وإن لم تكن الحاجة اليها ماسة. كلّ ذلك يوضع في (السراديب) التي لايخلو منها منزل واحد. بقيت هذه العادة ولم أشهد اندثارها الكلي بعد اجتيازي سن البلوغ. وبالمناسبة فأنا شخصياً لم أسمع من الوالد وكثيراً ما روى لي بعض ذكرياته عن تلك الفترة – ولا من غيره الذين تحدثوا عن تلك المجاعة – عن موصليّ معروف توفي جوعاً أو أسرة موصلية فقدت أحد أفرادها بسبب المجاعة في تلك السنة التي أطلقوا عليها عبارة (سنة الليرة)، إشارة الى أن (وزنة) الحنطة التي تساوي حجماً أربعة غالونات تقريباً – كانت تباع بليرة ذهبية واحدة، في حين كان سعرها في الأوقات العادية لايتعدى قروشاً قليلة. على أن ما سَدّ خلّة أسرتنا وكفاها غائلة الجوع الجراية المنتظمة التي كانت تصرف من المخابز العسكرية لثلاثة أخوال لي: صيدليان وخياط ملحقون بالخدمات العسكرية. وأنا شخصياً ومن كثرة ما سمعته ورواه لي معاصرو المجاعة، وإن كنت لا أظن أن المؤرخين والكتاب الذين تعرضوا لها كانوا يقصدون المبالغة في شدّتها وفي كثرة ضحاياها – إنهم يروون وقائع معينة شاهدوها أو رويت لهم وليس من الصحيح أن تكون الواقعة قياساً وتعميماً. إلاّ أن ذهن القاريء قد يضخمها ويوسع خياله رقعة شمولها. والظاهر أن المجاعة التي شملت منطقة واسعة إبتداء من مدينة (وان) ومروراً بديار بكر وانتهاء بالموصل، دفعت بالجموع الجائعة من سكان القرى فيها الى التوجه نحو الجنوب أملاً في الحصول على القوت، بعضهم قضى نحبه في الطريق وبعضهم سقط ميتاً في أزقة الموصل وهي آخر المطاف.

ويروي صاحب كتاب (مقدرات العراق السياسية، ج٣. ص١١٣): أن أحد أبناء عمومته (محمد أمين العمري) الذي كان ضابط إعاشة الفيلق في الموصل أنذر الوالي – القائد (خليل پاشا) عن احتمال حصول مجاعة في أوائل العام ١٩١٨ مقترحاً عليه تموين المدينة من العاصمة. إلاّ أن القائد التركي لم يعر اقتراحه اهتماماً ورفضه متعللاً بأن ولاية الموصل هي مستودع تموين لسائر الولايات ولا خوف هناك =

كان أهالي الموصل في شغل شاغل بأنفسهم في أثناء تلك المفاوضات على مصير الولاية والمدينة، لايفكرون برؤوسهم بل ببطونهم الخاوية. يعيش سوادهم على الأمل بانفراج الأزمة الإقتصادية وملء البطون، فقد تواترت الأنباء عن الجنوب والوسط حول حسن المعاملة التي كان السكان فيهما يلقونها من الفاتح الجديد وإشاعات كثيرة عن اغراق أسواقهم المحلية بأصناف البضاعة والمواد المعاشية الضرورية، فضلاً عن سخاء أو عمل خير من الحكام العثمانيين.

لم يكن هناك أي احتمالٍ في قيام نشاط اعتدائي من جانب الأكثرية المسلمة على المسيحيين واليهود، فالخوف المتبادل كان الرادع. الأقليات الدينيّة لم تعمد الى ما قد يكون متوقعاً في مثل هذه الحالة، بالتعبير عن استبشارها وفرحها بقدوم فاتح جديد غير مسلم، تعبيراً قد يرقى الى مرتبة الاستفزاز، في حين كبحت الأغلبية بما فيها أولئك المنتصرون للحكم التركي والمنتفعون منه – عاطفة الإنفعال والخيبة، خشية عقاب ينزله الفاتح بهم.

وقطع لي معاصرو تلك الأيام العصيبة بأنه بدا على المدينة وكأن سكانها أجمعوا على فرض حضر التجول اختياراً. فقد أقفرت الطرقات تماماً من السابلة، واختفى معهم من أبقته المجاعة حياً من الكلاب والقطط السائبة. لاذ كلّ موصلي ببيته وأحكم رتاج بابه. وهذا ما رواه لي على الأقل الشخص الوحيد الذي وجد في نفسه الجرأة وربما دافع الحاجة الذي لايقهر الى كسر هذا الحظر. فخرج بقصد أن يكون اوّل السابقين الى عرض خدماتهم على الفاتح الجديد، وشاءت المقادير ومصادفات التاريخ العجيبة أن يكون هذا الموصلّي مشاهداً ومساعداً في رفع العلم البريطاني وإنزال العلم التركي من بناية السرّاي[١٧]. قبل دخول جندي بريطاني واحد

= من حصول مجاعة.

ومما رواه لي الوالد أيضاً تلك الحادثة الوحيدة عن بيع لحوم البشر، وقد شنق مقترفاها (عبود) وزوجه على إثر اكتشاف جريمتهما، فقد كانا يغريان الأطفال بالحلوى أو يخطفانهم ويذبحانهم ثم يعرضان لحومهم مطبوخة في مطعم صغير. أذكر إني قرأت تفصيلاً للحادث معززاً بصورة فوتوغرافية تمثل المجرمين معلقين على المشنقة – في مجلة (الدنيا المصورة) القاهرية في عدد من أعدادها الصادرة في ١٩٣٢. وقد سمعت حكايات عن المجاعة عديدة غيرها لم تنته أية واحدة منها بموت، والله أعلم.

(١٧) آثرت الا أحرم القاريء من تفاصيل الحادث الطريف. ورواية إبن عمة لي لم يعرف بالكذب في حياته. وقد توفي في الستينات وطوى معه وقائع تأريخية وأسرارا اطلع عليها بحكم وظيفته التي بقي فيها زهاء أربعين عاماً في تلك المدينة، التي استأثرت باهتمام دولي وتوجهت اليها أنظار الصحافة العالمية وتناقلت عنها وقائع معينة بالغة الأثر في سياسة الشرق الأوسط مرات عديدة. كان قريبي هذا مستخدماً عند البعثة العسكرية الألمانية المشرفة بجناحها المدني على إنشاء الخط الحديد، ساعدته هنا موهبته في سرعة تعلم اللغات الأجنبية وشق طريقه بنجاح كبير الى اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية فضلاً عن مثلها من اللغات المحلية. ذكر إنه بات دون عمل بعد انسحاب الألمان، فدفعت به بطالة الأشهر العديدة =

إليها.

لم يجد (علي إحسان) بداً من الرضوخ لأمر حكومته بالجلاء، إلاّ أن عمد قبل تركه الموصل الى أمرين، أولهما إرسال برقية الى قائد الحامية التركية في السليمانية يأمره فيها أن يكون هو وحاميته رهن إشارة الشيخ محمود، وبرقية أخرى للشيخ نفسه يخوله فيها تولي الإدارة باسم الحكومة العثمانية في متصرفية شهرزور.

ولم يأبه الشيخ بالأمر الصادر اليه ولم يشأ ممارسة الحكم باسم الحكومة العثمانية، وقام بتسليم الحامية التركية لسلطات الإحتلال البريطانية. وأصدر علي إحسان كذلك أمراً لم يطع بإيداع حكم الولاية الى موصلّي نيابةً عنه، وخلت المدينة من سلطة عثمانية عليا ودخلت الوحدات البريطانية في عين اليوم. إلاّ أن كل الولاية لم تكن بعد قد وقعت في قبضة البريطانيين، بل كان نصفها تقريباً بيد العثمانيين ومعظم الأقضية وهي صرفة أو بغالبية كردية، أخذت القوات العسكرية وقوات الأمن تنسحب منها بهدوء تاركة إياها في أيدي الموظفين المدنيين العثمانيين ومعظمهم من الأهالي. وما هي إلاّ أسابيع قليلة حتى ملأ الموظفون البريطانيون والهنود المناصب الإدارية الكبيرة وتسلموا السلطة الفعلية، ضباطاً سياسيين في المدن ومراكز القائمقاميات الهامة ومعاوني ضباط سياسيين في الأقضية الأخرى وبعض النواحي. مع تواجدٍ عسكري يمثله ضابط أو أكثر من ضباط الجيش وثلة من الهنود بعنوان ضباط شرطة. وأبقى معظم مرتبات الأمن والشرطة المحلية (الضبطيّة) يزاولون عملهم.

كانت أوامر الحاكم المدني العام تقضي بانتهاج عين الخطّة التي انتهجت في بغداد والمدن

= ومسؤولية إعاشة الأسرة الى ما لم يقدم عليه أحد بخرق قرار "منع التجول الاختياري". قال: عندما غدا الجيش البريطاني على مرمى حجر من المدينة وسرى النبأ في المدينة أن الوالي والجيش قد تركا المدينة الى غير رجعة. خرجت من داري متوجهاً الى السرّاي بحثاً عن عمل عند البريطانيين شبيه بعملي السابق، في الترجمة. فلم أجد وأنا في سبيلي بشراً واحداً. وبدت المدينة أشبه بمقبرة واسعة. وما أن وصلت مشارف السراي حتى لاح أعرابيّ قادماً من الناحية الجنوبية بخطى حثيثة والريح تعبث بعباءته ولما تقدم منيّ تبينت من تحت الكوفية والعقال بشرته البيضاء وعينيه الزرقاوين وشعره المائل الى الحمرة فبادرته بالفرنسية أعرض خدماتي وقبل إكمال عبارتي قاطعني بعربية ذات لهجة بدوية جنوبية غير مألوفة عندنا: من أنت ماذا تعمل؟ قلت: إني شاب مسيحيّ أبحث عن عمل لديكم وأنا مترجم. فقال اتبعني فقد عينتك، هذا هو السرّاي. قلت: بلى. قال وهو يحث الخطى وأنا وراءه: أين الطريق الى السطح؟ فتقدمته وأسرع ورائي يتوقل الدرجات الى حيث السارية والعلم العثماني مازال في موضعه، فساعدته على إنزاله وأخرج من طيات جلبابه علماً بريطانياً ربطه بحبل السارية ورفعه". لم يكن هذا الأعرابي غير (العقيد ليتشمان) نفسه وهو أول ضابط سياسي حكم الموصل وكان عند كلمته، فقد عين صاحب الرواية فعلاً مترجماً وبقي يشغل هذه الوظيفة قرابة أربعين عاماً واقتضت منه وظيفته هذه أن يكون شاهد عيان لكلّ ما مَرّ على المدينة من أحداث جسام لاسيما فترة النزاع على الولاية.

العراقية الأخرى، أي محاربة الدعاية التركية والقضاء على (العثمانية) باستبدالها «بالعربية» عن طريق التقرب الى بقايا أعضاء الجمعيات السرّية وإفساح المجال لهم واستخدام المتعلمين منهم في الوظائف لاسيما سلك التعليم. وانتهاج خطة التودد الى رجال الدين من إمامية وخطباء عن طريق المال والهبات وإلغاء الدراسة بالتركية في المدارس واستبدالها بالعربية.

ولم تكن الموصل بعيدةً عن الروح القومية[١٨]. والواقع هو أن بذور العروبية كانت قد زرعت في تربتها بشكل أكثر وضوحاً من بقية مدن الجنوب والوسط، لعوامل عدة منها صلتها الطبيعية بسورية وعن طريقها كانت ترد اليها الصحف والكتب والنشرات فتتداولها الأيدي إلاّ أن المتشيعين للتركية والعثمانية، وجلّهم من الوجهاء المنتفعين من ذلك الحكم المتمتعين بحمايته[١٩]، عمدوا الى أساليبهم القديمة يستخدمونها للتقرب من الحاكم الجديد، بمثل ما

(١٨) روى لي العدد القليل الباقي من طلاب عن المدرس الموصلي حسين النعلبند في الإعدادية العثمانية ومنهم ثابت عبدالنور، أن معلمهم هذا كان يغلق باب غرفة الدراسة، ويبدء منطلقاً بصوت خافت تشيع فيه الحماسة والرهبة من تسمع مدير المدرسة التركي، في شبه خطاب وطنيّ عن التراث العربي وتاريخه المجيد ويقرأ في أثناء ذلك عليهم مقالات قومية من بعض الصحف والمجلات السورية.

(١٩) روى لي الطيب الذكر العلامة الدكتور داود الچلبي كيف كان يجري إفساد الموظفين العثمانيين الكبار وتدجينهم واستخدامهم لصالح هؤلاء متخذاً من أحد الوجهاء والأغنياء المحليين الكبار نموذجاً. قال نظراً الى سرعة تغير الولاة واستبدالهم، إعتمد هذا الوجيه عيناً له في أستنبول يزوده بتقرير دقيق عن طباع الوالي الجديد وأصله ومبلغ نفوذه وهواياته فإن كان يهوى اقتناء الخيول الأصيلة أو الطيور النادرة أو العربات الثمينة هيأ له أحسنها هدية وأن كان عابداً متعبداً أمن له أفخر سجادة للصلاة. ويكون أول من يعرف بقدومه فيخرج لاستقباله بعربة نفيسة وبهدايا لزوجته وحاشيته.

وبعين الطريقة يشتري الوجيه نفوذ الموظفين الكبار ويستخدمهم لمآربه ومصالحه وهي الإثراء وردّ غائلة الخصوم والمنافسين له وفي أحد لقاءات لنا وما أكثرها – وكان ذلك عند تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الذي قضى على الملاك بتقديم كشوف عن الأراضي التي يملكونها. فقد ظهر أن أحد وجهاء الموصل الكبار كان يملك أكثر من مائة وعشرين قرية في أنحاء ولاية الموصل كافة يستغلها بآلاف من فلاحيها الآشوريين والكرد واليزيدية والشبك الذين كانوا أصحاب تلك الأراضي الأصليين في وقت ما، فحوّلتهم أساليبه التي اختلفت بين الإغراء بالمال الكثير وبين الضغوط والاحتيال والإكراه البدني الى أجراء وأقنان. قال الدكتور الچلبي مفسراً كيفية استيلاء هذا الوجيه على تلك القرى: "عندما يصطدم هذا الوجيه بصلابة الفلاح وعناده في تمسكه الغريزي بالأرض رغم مضاعفة الثمن لها، يلجأ إلى الحكومة لتيسير ذلك. فيجد القروي نفسه يوماً وقد داهمته الضبطية (الشرطة) وساقته مكبلاً الى المستنطق (حاكم التحقيق) بتهمة خيالية. ويزجّ في السجن مدة قد تطول شهوراً. ويقوم وكيل الوجيه الطامع بالأرض بزيارات للسجين مؤكداً له قدرة سيده على إنقاذه من الورطة إن وافق على بيع أرضه منه عارضاً عليه عين السعر المرتفع المرفوض دليلاً على حسن نيته بعدم استغلال موقفه. بعد تكرار الزيارات لايعود من العسير على المسكين أن يدرك بأنه لن يرى وجه الحرية إلاّ بالرضوخ الى المقدّر ويبدء يفكر بالحال الذي آلت اليه أسرته وبأن الحكومة على كلّ حال ستنتزع الأرض منه لأنه مطالب، وبحسب القانون العثماني بتسديد نفقات مأكله وملبسه =

كان ديدنهم مع الحكم البائد توسلاً للحظوة لديه.

أما طبقة الوجهاء والإقطاعيين والمالكين الكبار دائمي الصلة مع الولاة الأتراك، فقد شقّ عليهم أن يروا الفاتح الجديد ينزل الى مخاطبة القوم ويستدعي أولئك "المشاغبين" الذين يتحدثون عن الوطنية والإستقلال والحرية، يتصل بهم رأساً وبدون أخذ رأيهم مسبقاً فيما ينتويه، كما كان يفعل الولاة العثمانيون. وحاولوا استخدام عين الأساليب مع الضباط السياسيين والموظفين البريطانيين ولم يفلحوا كثيراً. فقد وجدوا هؤلاء لايقبلون رشوة ولا نصيحة "لوجه الله" أو خدمة "خالصة" لجلالة ملك بريطانيا وحكومته الفخيمة "كما اعتادوا قوله". يورد الكاتب محمد طاهر العمري شواهد لمحاولات هؤلاء الوجهاء التقرب من الحاكم الجديد[٢٠]:

"كانوا يحاولون التقرب بالنصيحة والنميمة والتجسس على من يعتقدون أن السلطة ترى فيه عدواً يخشى خطره وهم في الحقيقة أعداؤهم وخصومهم"

وأعداؤهم في ذلك الحين هم الأنداد الجدد المنافسون لهم في التقرب الى السلطة وأصحاب الحظوة لديها. أولئك الذين هبت عليهم ريح الوطنية والعروبة من الحجاز وسورية وكانت السلطة المحتلة تحبوهم بعطف وتشجيع لمناوئة التيار التركي كما ذكرنا، ثم باتت تخشى نشاطهم عند قيام ثورة العشرين و...:

"إذا خلا الجوّ (للشخصية البارزة) مع الحاكم (الضابط) السياسي وانفرد به، قال له (يا صاحب) أنتم غرباء عن هذه البلاد ولم تحتكّوا بأهاليها ولم تعرفوها بقدر ما نعرفها نحن أشرافها، وقد قضينا عمرنا فيها ورأينا أنواع الإنقلابات والتطورات على عهد الأتراك، فإن أردتم أن ترتاحوا من حركات هؤلاء (أي القوميين والوطنيين) فأبعدوا فلاناً وفلاناً، واسجنوا فلاناً وفلاناً، فإن الباقين من أتباعهم يخشون العاقبة ولايحركون ساكناً"

ويصف (العمري) تصرفات بعض هؤلاء بقوله:

"تراهم يتصدرون المجالس ليتفوهوا بما يضعف من عزائم الوطنيين ويقولون لهم:

= وسكناه في السجن! يقول الدكتور (الچلبي) كثيراً ما تتم صفقة البيع والتنازل عن الأرض في دائرة السجن. ويخرج السجين وهو يلهج بالشكر لخلاصه لذلك الذي أحسن اليه وتوسط لإطلاق سراحه، فدفع عنه المبالغ المترتبة عليه للحكومة. ومنّ عليه بإبقائه في الأرض فلاحاً أجيراً، حامداً الله لانتهاء البلبلة بفقدان الأرض فقط.

(٢٠) مقدرات العراق السياسية: ط. بغداد ١٩٢٥ ص١٧ ج٣.

هل أنتم مجانين؟ من يستطيع منا أن يقف أمام دولة بريطانيا العظمى فيطالب بحقوق البلاد ؟"

أمّا الأغلبية الساحقة من الموصليين زمرة المساكين الذين "لا نفع منهم ولا ضرر" بحسب تعبير (العمري) فديدنهم أن يقولوا "أنقله هنا بعين اللهجة الموصلية":

"يابا، أنا أش عَلَيّ؟ أنا رجل كاسب ومستور، أروح وأجي بدربي ولا أتداخل بشيء. وكلّ من يأخذ أميّ أسميّه عمّي!"(٢١)

لم يكن خفياً عن السلطة البريطانية بأنها تواجه في مدينة الموصل جبهة ذات نزعة تركية قوية تتزعمها أسر بارزة متنفذة جاء بها الفاتح العثماني لتكون عوناً له في حكم دام أكثر من ثلاثة قرون وأغدق عليها الإنعامات وحباها بالنفوذ. فضلاً عن جمهرة كبيرة من المنتفعين التجار، الذين بنوا ثرواتهم في ظلّ ذلك الحكم. هؤلاء أدركهم الخوف العظيم من المستقبل، كما هالتهم حالة الرخاء والدعة والطمأنينة التي شاعت في أرجاء المدينة والولاية، وقد اعتادوا الاصطياد في البحيرة العكرة الدائمة الهياج.

وبخلاف ذلك وجدت السلطة جمهرة كبيرة من الموظفين الساهين من أهل الولاية ومن سائر البلاد الناطقة بلغة الضاد، وأيضاً من كردستان، كانوا قد رافقوا الجيش العثماني أثناء تقهقره ابتداءً من البصرة. هؤلاء يتقاضون رواتبهم من الإدارة العثمانية أينما انتقلت ولم يكن لمعظمهم عملٌ وظيفي. وقد بدوا عنصر إقلاق. وحاولت استخدام عددٍ منهم إلاّ أنها استغنت عن خدمات معظمهم، فقد كان جهاز الإدارة العثماني مشبعاً بهم الى درجة تفوق الحاجة بكثير.

(٢١) يروي إدموندز: «كرد وترك وعرب» (ترجمتنا الى العربية. ط. ١٩٧٠ ص٣٠٥)، عن موظف كردي اسمه (وهاب بك) كان بطلاً لحكاية طريفة عن ناقم من هذا النوع ويقول إدموندز: «إن نوري السعيد وغيره من كبار الساسة في بغداد كانوا يستمتعون بروايتها ضاحكين، عادة بصدد وقائع ثورة الفرات الأوسط». والمناسبة هي أن كثيراً ممن علت أصواتهم وتقدموا الجموع الثائرة ونادوا بالشعارات القومية والوطنية ضدّ المحتل الأجنبي. كانوا في الحقيقة طلاب تقرب الى السلطة بجلب أنظارها اليهم وبمحاولتها اسكاتهم بما يطمحون اليه من مناصب ووظائف. كان وهاب بك قائمقاما لقضاء چمچمال أستغني عن خدماته في ١٩٢٢ أيام كان إدموندز ضابط كركوك السياسي. فبات عاطلاً عن العمل. فكتب رسالة بالتركية لصديق الطرفين يطلب منه التوسط لإعادة تعيينه: "أدمونسه سويله بني إيبر بيردها تعيين أيتمزسيي وطني أولوميم" وترجمتها: «قل لادموندز إن لم يعيّني في وظيفة فسوف أصير وطنياً". والشيء بالشيء يذكر، ما جاء في مذكرات النجمة السينمائية الأمريكية (شيرلي ماكلين) التي نشرتها مؤخراً. ففيها تنقل عن (فرانك سيناترا) وهو من أشهر النجوم السينمائية والغنائية وصفه لزميله (رونالد ريگان) رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق بقوله: "إنه (أي ريگان) غبيّ ثقيل الظلّ، لم يستطع الحصول على عمل في السينما فتحول الى السياسة".

كان لهؤلاء «الأفندية» العرب صولة وجولة ومهابة عند العوام – بما امتازوا عليه بطرف من العلم. هؤلاء «أصحاب القلم» كما جرت العادة بتسميتهم يتمتعون بمركز مرموق في محيط أمي. فهم مصدر الفكر والمعرفة وثورة التحولّ في الرأي العام. وقد تألف منهم مجموعة من الناقمين على الحكم الجديد الحاقدين في عين الوقت على الحكم العثماني الذي خاب ظنهّم فيه. وكان مقدراً لهؤلاء أن ينحازوا الى معسكر مضادٍ نشطٍ هو المعسكر العربي(٢٢) والى حين من الزمن بدت السلطة البريطانية هنا أشبه بالراقص ليلاً في مقبرة ملأى بالأشباح.

لم تكن المدينة بعيدة عن المشاعر القوميّة قطّ. وربّما فاقت بذلك غيرها من سائر المدن العراقية. كانت أكثر اتصالاً بحلب منها ببغداد. وعن هذه الطريق كانت ترد القوميين

(٢٢) ربما كان الحافز الذي دفع (ثابت عبدالنور) الضابط العثماني الموصلي للإنتماء الى جماعة العروبة. فقد وجدناه وهو من أسرة مسيحية أرثوذكسية معروفة، الوحيد الذي انتمى الى الحركة القومية العربية وخاض غمار حروبها في الحجاز. على أنه أشهر إسلامه عندما انضم الى قوات الشريف. وبقي الأمر غامضاً حول الدوافع التي حملته على ذلك. أكان عن قناعة أو بسبب ظروف العمل السياسي في العراق بولاياته الثلاث. فقد كان يختلف تماماً عن ظروفه في سورية ولبنان وفلسطين. فهنا كان يرى هذا تقليداً وتأريخياً وقفاً على المسلمين وحدهم وإن المشاركة غير الإسلامية هي اعتداء على حق من حقوقهم. وقد تعرض كثير من المسيحيين الذين حاولوا القفز فوق هذا الحاجز الى أعمال انتقام شائنة ودفع بعضهم حياته ثمناً لتلك المغامرة حتى في أزمات متأخرة، و(ثابت عبدالنور) هذا لم يمارس نشاطه بعد عودته في الموصل بسبب هذه الظاهرة أو ربما للمركز الكبير الذي كانت أسرته تحظى به في المجتمع المسيحي المحليّ المتعصب أيضاً. لذلك وجدناه يمارس عمله القومي في بغداد. وقد استوقفني في ذلك رواية مقتضبة عنه وردت في كتاب «هكذا عرفتهم» للأستاذ جعفر الخليلي (ط. ١٩٨٠ قم، ج٥،ص٢٣٠). رأيت ألاّ أحرم القاريء منها وهذه هي: "السيد ثابت عبدالنور موصليّ مسيحيّ أعلن اسلامه، وكانت له في العهد العثماني مواقف وطنية جليلة سجن بسببها، وشاع أنه حكم عليه بالأعدام من قبل الحكومة العثمانية ففر من السجن (نقول لا صحة لهذه الإشاعة) وحين أعلن استقلال العراق كان هو ويحيى قاف (آل عبدالواحد) أبرز من عمل مع (ثابت عبدالنور) في مكافحة الأمية. هذا الى جانب اشتغاله بالسياسة مع السياسيين. كان يبتكر الوسائل التي تثير في النفوس الروح العربية، فقد كان يومذاك عدد كبير ممن كانوا يميلون الى الأتراك وينتظرون رجوعهم لحكم العراق وكان جلّهم من المنتفعين مادياً ومن العناصر التركية الذين كانوا يشغلون الوظائف في العهد العثماني أو الذين تشدهم الى الأتراك رابطة الدين، فكان من الصعب عليهم الخضوع للإنگليز وهم من دين غير دينهم. وكان من أساليب ثابت، نشر الوعي وبعث الروح الوطنية وتجديد النهضة الأدبية. أن يقام مهرجان عام للشعر والأدب تمثل فيه النزعة العربية ووجد تأييداً مطلقاً من العناصر التي عملت معه وكان من ذلك قيام المهرجان الذي دعي (بسيوف عكاظ) إحياء لذكرى هذا السوق التاريخي العظيم» آه. بعد سنوات قليلة من السكن في بغداد (انتخب ثابت عن الموصل مرة واحدة، وأسندت اليه مديرية عامة في العشرينات) ترك العراق وعاش في مصر تاجراً مدة تزيد عن ثلاثين عاماً، قيل أن ذلك بسبب خلاف حاد نشب بينه وبين صديقه (نوري السعيد). ولم يعد إلاّ زيارة قصير للموصل بعد القضاء على الملكية (١٩٥٨). وقد حظيت منه بزيارة قصيرة في مكتبي برفقة صديق عمره (يحيى ق آل عبدالواحد). ولم يكن ثمّ مجال لالقاء أسئلة ذات طابع تاريخي عليه في تلك المناسبة. وقد عاد الى مصر وتوفي هناك بحدود فترة الستينات ولم يكتب مذكراته بحسب علمي.

الموصليين النشرات والمجلات والصحف الدورية التي تصدر في سورية ولبنان. لاسيما بعد تبوّء فيصل عرش سورية. فضلاً عن العلاقات التجارية وتقارب اللهجة بين المدينتين.

معظم الضباط القادمين من الولايات الثلاثة – ومنهم أيضاً الكرد – كانوا قد انضموا الى الجمعيات العربيّة السرية في أستنبول وفي سورية وشاركوا في ثورة الشريف وساهموا مساهمة فعّالة في الحكم الفيصلي بسورية. وما هو جدير بالذكر أن أحد أقطاب أعضاء الجمعية اللامركزية وهو (ياسين الهاشمي) كان أول من أسس للجمعية فرعاً سرياً في الموصل أثناء خدمته فيها قبيل إعلان المشروطية.

كان (كوكس) إتباعاً لخطة المكتب العربي قد اتخذ قراراً بفتح أبواب العودة إلى العراق للضباط العثمانيين بعد إعلان الإنتداب واستحصل من القنصل الفرنسي في بغداد قائمة بأسماء (٢٤٠) منهم وقد وردت الدفعة الأولى منهم بحسب رواية في ١٥ من شباط ١٩٢١ وعقبتها قوافل أخرى. إلا أن معظم سيل الضباط الذين انحدروا من أصل موصلي إلتزموا (فيصلاً) بعد تتويجه ملكاً على سورية وبقوا في خدمته ولم يعد منهم أحدٌ ذو شأن الى بلده. في عين الوقت بدأ رفض الترك التخليّ عن ولاية الموصل في مؤتمر (ڤرساي) وتجاهل معاهدة سيڤر، سبباً من أسباب الإنقلاب العسكري الذي أطاح بتلك المعاهدة ثم بالخلافة نفسها. والعلّة كما رأينا إنها لم تنتزع من الدولة العثمانية حرباً، بل استولى الفاتح عليها بالإكراه بعد إعلان الهدنة. ونشط الأتراك في إرسال وكلائهم ودعاتهم لاستنهاض همم أنصارهم وأشياعهم عندما بات واضحاً أن تركيا الكمالية لاتنوي التنازل عنها بسهولة. وعندما اتخذ النزاع عليها صفةً دولية برفع أمرها الى عصبة الأمم.

وبدأ العداء للبريطانيين واضحاً في خضم الأحداث، ورفع الموصليون العثمانيون رؤوسهم وأصواتهم بوجه الوطنيين، الذين رفضوا فكرة الخضوع لأي من الحكمين وقد اكتسحتهم موجة المطالبة بالإستقلال المندفعة من الجنوب ومن الغرب:

"كان لواء الموصل[٢٣] يختلف بوصفه الداخلي اختلافاً واضحاً عن كلّ من لواء كركوك وأربيل والسليمانية. وموقف المتصرف (المحافظ) والمفتش الإداري والشرطة أصعب من مواقفنا في الألوية الثلاثة المذكورة. فالموصل فضلاً عن

(٢٣) بموجب التقسيمات الإدارية الجديدة الغيت كلمة (الولاية) وأبقيت الالوية (أي المتصرفات) بأقضيتها ونواحيها الأصلية على حالها تقريباً وباستثناء لواء السليمانية الذي ارتبطت إدارته رأساً بالحاكم المدني العام وعومل لواء كركوك وأربيل إدارياً معاملة لواء الموصل.

كونها ثاني مدن العراق حجماً، هي أقلّ تأثراً بالعثمانيين ولعلها أكثر شعوراً بالقومية العربية من بغداد... ولعلّها تتألف من طبقات معينة كانت تشعر أن مصالحها الإقتصادية مرتبطة بحلب أكثر من ارتباطها ببغداد. ويعيش من أصل ستمائة ألف من سكان اللواء مائتا ألف تقريباً في المدينة. ومع أن الكرد منه (أي اللواء) يزيدون كثيراً على نصف سكان اللواء، فإنهم بعيدون عن المركز قليلو الإسهام في النشاط السياسي خلافاً لأشقائهم في جنوب كردستان"[٢٤]

مصداقاً لهذا التعميم الذي أورده إدموندز في أواخر العام ١٩٢٠، أي بعد تصفية ثورة الفرات الأوسط مباشرة وبالضبط في ٢٨ من كانون الثاني أصدرت الحكومة التركية القومية بيانها المشهور المعروف (بالميثاق القومي). جاء فيه اعتراف وتسليم بحق تقرير المصير للمناطق الواقعة جنوب خطّ الهدنة في حين تضمّن عبارات واضحة عن رفض فكرة فصل ولاية الموصل عن الممتلكات العثمانية.

جاء ذلك بعد محاولة الضباط الموصليين الملتحقين بالجيش العربي في سورية – العودة الى مسقط رأسهم أسوة بالبغداديين والكرد. ويذكر (الأيوبي) أنه قصد وزميلين له هما (جميل المدفعي وثابت عبدالنور) الملك فيصل وأنهم خاطبوه بالقول:

"إننا التحقنا بثورة الملك حسين في الحجاز، فحاربنا وضحينا، ثم تبين لنا مع الأسف أن الحلفاء الذين آزرناهم في أحلك أيامهم (كذا) قد تنكروا لنا واقتسموا بلادنا. أمّا نحن فصرنا لا ملجأ لنا ولا مأوى وبدأنا نشعر بأننا غرباء غير مرغوب فيهم. ولهذه الأسباب قررنا الذهاب الى (دير الزور) لمحاربة الأنگليز الذين نكثوا بعهودهم للعرب، فإما ننجح في مسعانا أو نموت دونه"[٢٥]

كان ذلك عندما انتشرت أنباء ثورة الفرات الأوسط وبلغتهم الإنتصارات التي حققها الثوار ويستتلي (الأيوبي) قائلاً:

(٢٤) سي. جيْ. إدموندز C. J. Edmonds: «كرد وترك وعرب» الترجمة. بغداد ١٩٧٠ ص٣٦١) من الضباط السياسيين الذين رافقوا الحملة البريطانية. ساهم بدور رئيس في القضاء على ثورات الشيخ محمود البرزنجي. وكان ضابط ارتباط اللجنة الموصلية في ١٩٢٤ أثناء النزاع على الولاية دولياً وأصبح معاوناً لمستشار وزارة الداخلية في العراق (١٩٢٦) ثم مستشاراً لها طوال عشر سنوات (١٩٣٥–١٩٤٥) وعينته حكومته بدرجة وزير في وزارة الخارجية في العام (١٩٤٨) وهو يعتبر من الخبراء الكبار في شؤون العراق الكردية. وخلافاً لكتابه المرجعي هذا له معجم كردي – إنگليزي بالمشاركة مع الأستاذ توفيق وهبي.
(٢٥) علي جودت الأيوبي: «ذكريات» ط. بيروت ١٩٦٧ ص٩٠.

"ان (فيصلاً) حاول أن يثنيهم عن مقصدهم"

فأجابوه:

"إن الروس والأتراك مستعدون لمساعدة أية حركة مناوئة، ومن الممكن الحصول على المال والسلاح منهم. ويذكر أنه قبل بعد لأيٍ أن يمنحهم ثلاثة آلاف جنيه مصري[٢٦] وأنهم تزوّدوا بالعتاد والسلاح الذي كان بحراستهِم"

والظاهر أن نية هؤلاء الضباط وإخوانهم الآخرين كانت معقودة على الانضمام إلى الثورة بدليل تصميمهم على التوجه الى (دير الزور) وهي بلدة على أقرب مسافة ممكنة الى موطن الثوار ومنطقة العمليات العسكرية. وكانت (دير الزور) بموجب التنظيم الإداري العثماني للولايات الصادر في ١٩١٠ قائمقامية ملحقة بولاية بغداد. فهي والحالة هذه جزءٌ من الأراضي الواقعة ضمن إدارة الاحتلال. أمّا ما حصل بعد ذلك ليثنيهم عن عزمهم. وليجعل (الموصل) هدفهم العسكري هذا بقوله[٢٧]:

"إن ضباط الموصل تجمعوا في (دير الزور) واستعدوا للهجوم على العراق!"

وأن أحدهم وهو (محمد أمين العمري) اتصل بالقيادة التركية في ماردين فزودته بمائة صندوق من العتاد وبكمية من البندقيات وخمسمائة قنبرة يدوية. يقيناً أن (فيصلاً) بمؤازرته الخفيّة ذات الحدود الضيقة من جهة وتظاهره بالرفض والنصح بالعدول عَمّا اعتزموه في الوقت عينه، كان يريد به أن يثبت للبريطانيين وهو يعلم أن حديثه سينقل اليهم – بأنه قادر على إزعاجهم والإضرار بمصالحهم في حالة تخليهم عنه وتركه بمواجهة الفرنسيين وحده. وإنه مازال على ولائه مقيماً برفضه اقتراح هؤلاء الضباط أن يكون (زيد) أخوه قائد الحركة.

يصف (تحسين العسكري) الحركة بعبارة: "فتح العراق وانتزاعه من يد البريطانيين بالقوة" تصور ينطوي على خيال واسع غير مبني على معطيات شديدة الصلة بالواقع، مالبث أن تقلص وانكمش بفشل محاولة استحداث صلة مع الثوار الفراتيين، الذين كانوا يخوضون معارك عشوائية متفرقة. وبعامل آخر غير متوقع أدّى الى عدول هؤلاء الضباط عن خطة فتح

(٢٦) لا حاجة للتذكير بأن هذا المبلغ هو جزء من المبالغ التي كانت تدفع لفيصل من قبل المكتب العربي في القاهرة عن طريق لورنس العرب.

(٢٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى، ط. النجف ١٩٣٨ ج٢ ص٩٢). نقول لايتفق ما جاء في مذكرات (علي جودت مع ما أوردته مس بل في رسائلها من زعم حول وصول أول قافلة من العسكريين الموصليين الى المدينة في ٢١ نيسان ١٩٢٠ أي قبل مفاتحته وزميليه بنيتهم في (فتح العراق) عن طريق تحشيد عسكري في دير الزور. (مس بل: الرسائل).

العراق بالقوة الى بديل آخر، هو التخطيط للزحف على الموصل وانتزاعها من يد البريطانيين عن طريق الخابور. والفضل في هذا – إن كان فيه فضل – يعود الى موظف موصلي صغير يُدعى (عبدالحميد) أو (حميد الدبوني)[٢٨] ودوره هنا بكل روائيته يشبه من وجوه عدة دور [محمد شريف الفاروقي] الذي تقدم ذكره. بفارق واحدٍ وهو أن (الدبوني) سبّب كارثة وانتهى بفشل ذريع.

ادعى (الدبوني) بأنه عضو في جمعية العهد. وقد أسندت اليه وظيفة (مدير مال) في بلدة تلعفر التي تبعد عن شمال الموصل بمسافة ستين كيلومتراً. كانت قد وردت الضابط السياسي في الموصل شكاوى عدة تتهمه بالإختلاس وبأخذ رشاوى. فاستدعاه وأشبعه توبيخاً وتهديداً بسوقه الى المحاكم ثم اكتفى أخيراً بطرده من الخدمة.

بقي (الدبوني) عاطلاً عن العمل مدةً، ثم سمع بأنباء تحشد قوات في دير الزور. يقودها أصدقاء قدماء وزملاء مدرسة تمهيداً لغزو العراق. فوجدها فرصة للإنتصاف لنفسه – من البريطانيين. فشد الرحال الى المدينة وراح يزين لهم خطة يتم بها الإستيلاء على الموصل مؤكداً لهم أن أهالي تلعفر التركمان ناقمون على الحكم الجديد وأنه وثيق العلاقة بوجهائهم ومقدميهم، وأن العشائر العربية والكردية المجاورة ستنضم اليهم حتماً. فضلاً عن أن القوات البريطانية المتواجدة هناك هي قوات رمزية، بسبب سحب معظمها الى الجنوب. وقد مال الضباط الى رأيه، فأهل تلعفر يدينون بالولاء للعثمانيين عنصرياً ولغوياً ومن المؤكد أن القيادة التركية في الجزيرة ستخفّ الى تموينهم ومساعدتهم، لأن أهدافهم تتفق إجمالاً وأهداف الأتراك بخصوص الموصل[٢٩].

(٢٨) في آب ١٩٣٣، كان هذا الرجل قائمقاماً لمدينة زاخو وقد ردّ اعتباره إليه كما سنرى، بعد أن رفع حكم الموت عنه بسعي جميل المدفعي وسيجد القاريء في (الكتاب الثاني) التفاصيل عن الدور الحاسم الذي أوكل اليه في مذبحة سميل. واسرة (الدبوني) من الأسر الموصلية الشهيرة نبغ فيها أطباء ومحامون وقضاة وضباط. وقد كان لي مع بعضهم علاقات وثيقة. أخصّ منهم بالذكر النقيب الطيار الطيب الذكر (حميد الدبوني) الذي تحطمت به طائرته فتوفي مأسوفاً عليه في ١٩٥٥. وهو زوج لإبنة حميد الدبوني هذا. ولدت كما ذكر لي في يوم النصر هذا في الاستيلاء على تلعفر فسماها (فتوح) تيمناً. وقد تسنى لكاتب هذه السطور مجالسة (الدبوني) مرة واحدة بعد تقاعده في الخمسينات. عرفت من أسرة الدبوني زملاء في المحاماة والقضاء بينهم قاضي تحقيق كانت تجري بعد إنقلاب شباط ١٩٦٣ في دائرته وعلى حضور منه عمليات التعذيب للمتهمين بإجهاض مؤامرة الشواف الإنقلابية، وربما كان له عذره في التشفي واللذة، فقد أعدم الحياة شقيق له ضابط برتبة ملازم أول بتهمة المشاركة في تلك المحاولة مع الضباط الآخرين في ١٩٥٩.

(٢٩) يظهر أن كلّ هذا لم يكن كافياً لإضفاء الهيبة والاحترام على الحملة، وهو ما ضنّ عليهم به فيصل حين رفض مرافقة أخيه الحملة، وهو ما كانوا يرونه ضرورياً لإبقاء الحماسة الدينية في نفوس تركمان تلعفر =

أكان هؤلاء الضباط الممتلئين حماسةً يفكرون جدّياً بتحرير الموصل والولاية بقوتهم التي لم تتعدّ (١٦٠) عسكرياً منهم أكثر من عشرين ضابطاً صغير الرتبة بعضهم كرد وتركمان – وهذا كلّ ما أمكن جمعه بعد الجهد الجهيد. وباتفاق كلّ من كتب عن الحدث. على أن القوات البريطانية المتواجدة في تلعفر كانت تتألف من جنود ثلاثة بريطانيين وحوالي (٥٠) شرطياً محلياً بإمرة النقيب (ستيوارت).

حملت هذه القوة مع أثقالها كما يحدثنا (الأيّوبي) بعشرين عجلة تجرها الخيول، كلّ منها تتسع لثمانية جنود مع مهمّاتهم. وأنيطت قيادتها بالضابط الشريفي (جميل المدفعي)[٣٠] زحفت تلك القوة: "وفي مقدمتها جنديّ يحمل علم الثورة العربية وقد نقشت عليه عبارة [الموت أو استقلال العراق]" وتقرر إطلاق اسم (عسكر الشريف) على القوّة.

وسبق (حميد الدبوني) الى تلعفر وتمكن من استمالة معاون الشرطة (جميل خليل) وبعض الرؤساء الذين أكدوا له ولاءهم وانضمامهم الى الحملة. ويبدو أن ضابط تلعفر السياسي الرائد (باولو) كان يجهل طبيعة ولاء رؤساء العشائر المتقلب وقد صدق بسذاجةٍ وقلة تجربة العهد الذي قطعوه له، فأعاد الى الموصل سياراته المصفحة. وراح يتنقل وحيداً بين العشائر يخطب ودّها بعد أن علم أن (عسكر الشريف) يقصد البلدة. وقد قتل وهو عائد إليها برصاصة أحد أفراد العشائر المتوجهة الى تلعفر. وكان (الدبوني) قد أعلن عن جائزة قدرها ٥٠ ليرة ذهبيّة لمن يأتي به الى تلعفر، حين كان يدير حركة العصيان ضد الجنود الثلاثة وقائدهم النقيب ستيورات المتحصنين في القلعة بحماية رشاش. وقد تمّ القضاء عليهم قبل وصول (عساكر الشريف) وتم للثائرين السيطرة على البلدة قبل دخول (عسكر الشريف) المظفر اليها بعجلاته العشرين وبجنوده المائة والستين.

إلاّ أن هذه القوة تعززت كما تشير المصادر المحلية بآلاف مؤلفة "من أفراد قبائل شمر

= الشيعة. فعمدوا إلى إلباس الملازم (عمر كركوكلي) التركماني عقالاً مقصّباً وعباءة وقدم للمستقبلين بوصفه (زيد بن الشريف حسين) وصار هؤلاء يهتفون له بالتركية «پيغمبر قوقسو گاليور... مكة قوقسو گاليور» أي «نحن نتنسم ريح النبي... نحن نتنسم ريح مكة»! (أنظر ثورة تلعفر بقلم قحطان أحمد عبوش التلعفري) ط. بغداد ١٩٦٩. لم يشر هذا الكاتب ولا غيره من مؤرخي الحادث الى كيفية انتهاء تمثيلية التقمص هذه.

(٣٠) المرجع نفسه: يذكر أن (الميجر باولو) كان قد خرج من اجتماع له ببعض رؤساء العشائر خارج تلعفر والتقاه وهو عائد اليها كوكبة من الفرسان العشائريين فقبضوا عليه وسلبوه سلاحه وساروا به الى تلعفر. إلاّ أنهم اصطدموا بالحملة التأديبية القادمة من الموصل تخفرها الطائرات. وانتهز (باولو) الفرصة وحاول الفرار فأطلق عليه أحدهم عياراً نارياً وأرداه قتيلاً وهو يعدو باتجاه الحملة التأديبية على أن المراجع البريطانية تؤكد أنه قتل غيلة أثناء الاجتماع.

والجحيش العرب، ثم من عشائر الكرد الگرگرية والشرفانية المجاورة التي راحت تستبق إحداها الأخرى للإستيلاء على ما خلّفه البريطانيون وما ينتظر من أسلاب وغنائم. وقرّر قائد الحملة (جميل محمد المدفعي) الذي اتخذ لنفسه عنوان (قائد الجيوش الشمالية)! الإتصال بجماعة حزب العهد في الموصل للتنسيق والإتفاق على إشعال نار ثورة داخل المدينة حال وصول قواته المختلطة مشارفها. وكتب بذلك رسالة توجيهية. كما كتب للمسؤول السياسي البريطاني [المقدم نولدر] يأمره بالخروج من الموصل فوراً"[٣١]

الوثائق البريطانية تشير الى الإجراءات الشديدة التي اتخذت في الموصل. فقد استقدم سربٌ من الطائرات وأصدر (نولدر) أمراً بجمع الأسلحة من الأهالي تحت التهديد بأشدّ العقاب وسَدّ مداخل المدينة بأسلاك شائكة ووضع نقاطاً عسكرية في مفارق الطرق تدعمها

(٣١) المرجع ذاته: (نص رسالة المدفعي الى الكولونيل نولدر): «نحن، باسم جميع أهالي العراق، نخطركم بلزوم خروجكم من ديارنا وتسليم العراق لمليكنا (ملكنا) صاحب الجلالة عبدالله الأول ابن جلالة الشريف حسين حسب عهودكم التي كانت أساساً للتحالف معنا. وإن لم تخرجوا فمع كلّ الأسف سنخرجكم بحدّ سيوفنا، لأننا لانقبل أن نعيش مستعبدين. وستكونون أنتم المسببين والمسؤولين عن سفك الدماء بيننا وبينكم. هذا ونؤمل منك الجواب العاجل بخصوص تخلية بلادنا والسلام على من اتبع الهدى.

التوقيع (قائد جيش العراقي المليّ الشمالي)
جميل المدفعي

وردّ عليه نولدر برسالة ظاهرة الجدية لكنها لاتخلو من تهكّم:
"الى القائد النقيب جميل:
ليس بخفيّ عنكم إني ضابط سياسيّ فحسب، مرتبط بقيادتي العليا في بغداد خاضع لأوامرها وليس من صلاحياتي البتّ في مثل هذه الأمور بإجلاء هذه الولاية فليس لي إلاّ أن أصدع بالأمر وإلاّ فإني سأنتظركم لإخراجنا بالقوة التي نوهتم بها".
وهذا هو نص الرسالة التي وجهت الى أعضاء جمعية العهد: (المرجع ذاته)
"بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نخبركم ونبشركم بأننا قد دخلنا تلعفر بدون ضائعات (خسائر) من طرفنا. وأسرنا اثنتي عشرة سيارة أتوموبيل فيها أربع مُدرعات وثمانية رشاشات وأسقطنا طيارة وقتلنا ما ينوف عن المائة من جنود الإنگليز. وقد اجتمعت واشتركت معنا عشائر شمر والجبور والكركرية والجحيش وأهل تلعفر وأغوات وأهالي سنجار. وإن شاء الله غداً أو بعد غدٍ سندخل الموصل، فعليه يلزم عليكم أن تستعدوا لترتيب الأمور الداخلية. ويلزم عليكم أن تقوموا لمدافعة الوطن وطرد الإنگليز توحدون الحركة معنا وتجردون اللازم مثل ما عملوا أهالي (تلعفر) و(دير الزور) و(البوكمال). ثانياً يلزم احضار محلات لأجل إسكان العسكر والعربات والمجاهدين. (ثالثاً) تكتبون مكاتيب الى العشائر من العرب والأكراد في طرفي دجلة من شعبة (العهد) ومن قبل حاجي محمود النجفي والشيخ سليم وغير سليم وغيرهم من أصحاب النفوذ أيضاً. والنصر من عند الله.

والسلام على الأحرار العاملين
قائد الجيوش العراقية الشمالية (جميل)

أوكار رشاشات ومصفحات وأصدر أمراً بإطلاق النار على كل من يدنو من سور المدينة[٣٢]. في حين وزع جماعة (العهد) نشرات جاء فيها أن البريطانيين يتهيّأون للرحيل عن المدينة، وأن على الأهالي المسيحيين واليهود أن يطمئنوا، فذلك سيكون في مصلحتهم وعليهم أن لايخافوا أو يخشوا ضرراً.

واستقدم (نولدر) بعض وجهاء المدينة وانتزع منهم وعداً بالإخلاد الى السكينة وإلتزام بيوتهم، وتطوع فريق منهم بتسمية عدد من القوميين (الوطنيين) الناشطين الذين أطلقوا عليهم صفة الغوغائيين والمشاغبين، فتمّ اعتقالهم وأودع بعضهم السجن وأرسل بعضهم مخفوراً الى بغداد.

كانت حركة منفصلة تماماً عما يحدث في الفرات الأوسط وإن تزامنتا. إلاّ أن النمط والأساليب كادت أن تتشابه. ومن ذلك تلك الحماسة التي ابتعثها انطلاق للإشاعات خرج عن كل حدود المبالغة – انتشرت في الأوساط العشائرية العربية والكردية إنتشار النار في الشوك الجافّ. وراح أفرادها يمنون النفس بالغنيمة والسلب، على غرار ما جرى في تلعفر والشعيبة.

إصطدمت القوة الزاحفة المختلطة على الموصل في ٨ من حزيران ١٩٢٠ بسريّة بريطانية مسلّحة بالرشاشات ومدفعين وثلاث مصفحات وبحماية طائرتين تحمل قنابل من زنة ٢٥ پاوند وقذائف المدفعية ففر أفرادها هاربين في كلّ جهة. وأسرع (المدفعي) الذي كانت جيوشه ذات المائة والستين جندياً – في المؤخرة – الى الإنسحاب بهم وبعجلاتهم لا الى تلعفر بل الى الخابور. وهرع (حميد الدبوني) الى تلعفر لإنزال (علم الشريف) وإحراق السيارات. ثم اختفى عن الأنظار تاركاً أهالي تلعفر لمصيرهم.

عاد هؤلاء الى بلدتهم وقد ملك الخوف عليهم مذاهبهم من انتقام السرية البريطانية المتوجهة إليها. كانوا يتصورون بكل ما نجحت ذكرياتهم الأليمة في تصوره عن الفاتحين السابقين – بأن القوة المنتصرة ستصبّ جام انتقامها على رؤوسهم فتحرق وتسبي وتأسر وتعمل السيف في الرقاب وتصادر. ولذلك كان الإجماع على ترك البلدة تنعي من بناها والنزوح جماعياً الى تركيا.

شاهدهم قائدا الطائرتين يتجهون برتل طويل نحو تركيا وقد زخرت بهم المسالك والطرق. ولم يبد شيء من هذا الذي توقعوه، فقد اكتفى البريطانيون بتحقيق قضائي وهدم سبعة دور

(٣٢) بوشر بهدم بقايا السور في ١٩٢٢ تدريجياً وكملت إزالته تماماً في الأربعينيات. ولم يبق منه غير أطلال أهمها القلعة الرئيسة (باش طابيه) أي القلعة الرئيسة.

لكبار المحرضين والمشاركين وإحراق محتوياتهما من أثاث. وصدر حكم من محكمة عسكرية بالسجن على عددٍ وبالموت على كل من حميد الدبوني، ومعاون الشرطة جميل آل خليل[٣٣].

وأسرع رؤساء العشائر المغيرة والتلعفريون[٣٤] يتسابقون "كالعادة" الى إظهار الولاء والطاعة. قالوا أنهم كانوا ضحية خداع وضغطٍ. وكان (عجيل الياور) شيخ مشايخ شمر ورؤوس قبيلته أول من عرض الدخالة.

وفي الموصل – نقلاً عن علي جودت "إعتقلت الشرطة بعض الوطنيين، بينما اختفى بعضهم أو فرّ الى القرى. وساد الموصل من بعد ذلك جوّ من الإرهاب ورفع الموالون للإنكليز رؤوسهم عالياً وصاروا يتحدثون عن "قوة الإنكليز وضعف العرب وكيف أن التلعفريين غرر بهم أفراد قلائل ودفعوهم الى القيام بتلك الحركة الطائشة التي أضرت بهم".

لم يوضح (علي جودت) نوع ذلك الإرهاب الذي ساد المدينة. وهو قول فيه مبالغة أو محض خيال. فما سمعته أنا من بعض الذين لاحقتهم الإدارة البريطانية ينفي ذلك. وما روي لي بشكل متواتر من معاصري الفترة أن الموصليين عامةً شعروا بانفراج وزايلهم خوفٌ كان يتملكهم ويعصر قلوبهم من احتمال دخول العشائر المدينة ومباشرتهم عمليات السلب والنهب.

زميله (جميل المدفعي) يتخذ لنفسه لقب (قائد الجيوش) في حين لم يتجاوز عدد أفراد حملته المائة والستين ضابطاً وجندياً، جاؤا وعادوا دون أن يخوضوا معركةً أو يلتحموا في إشتباك أو يطلقوا عياراً نارياً واحداً. لاينسى هذا القائد بعد إنسحابه السريع أن يلقي اللوم على العشائر التي خذلتهم وتفرقت عنهم[٣٥]. كان (المدفعي) ضابطاً محترفاً إنضم الى قوات

(٣٣) أصدر المندوب السامي (كوكس) في ٣٠ من أيار ١٩٢١ عفوا عاماً عن القائمين بحركة تلعفر والموصل والفرات الأوسط، مستثنياً من الحركة الأولى كلا من حميد الدبوني وجميل محمد آل الخليل (كثيراً ما يتوهم الكتاب أن المحكوم هو جميل المدفعي).

(٣٤) من ردود الفعل السريعة في تلعفر ما يدل عليه أن نبأ نشرته جريدة الموصل في عددها الصادر ٢٠ من آب ١٩٢٠ هذا نصه: "إجتمعت اللجنة الإدارية لبلدة تلعفر في ٩ من آب ورفعت عريضة الى معاون الحاكم السياسي تعرب فيها عن نفورهم من الطريقة البربرية التي قتل بها حاكمهم المحترم (الميجر بارلو) وثانياً رغبتهم في إبلاغ أقارب الفقيد مشاعرهم بالأسى على فقده، وثالثاً القبول بالإكتتاب الذي سيجمع قريباً وتخصيص المبلغ لإقامة نصب على ضريح الفقيد تنقش عليه عبارات تذكارية من جانب الهيئة الإدارية.

(٣٥) يورد مؤلف «ثورة تلعفر» نصّ كتاب الإعتذار الذي وجهه قائد الجيوش العراقية الى جماعة حزب العهد في الموصل معللاً أسباب انسحابه ونثبته هنا لطرافته ليس غير:

"لابد وأنكم سمعتم صورة الحركات التي جرت بأطرافكم وأسباب الانسحاب كان عن إهانة أهل تلعفر وإبراهيم اليوسف من الجحيش وغيرهم من الخائنين الذين خابروا الإنكليز عن قوتنا ونحو إمالتهم لهم (؟) ولما تعرض الإنكليز علينا لم يعاوننا أحد من الأعافرة (أهل تلعفر) وأكثر العشائر إلاّ القليل =

الشريف حسين منذ ثورته ورأى بعينيه المجهود الذي بذله البريطانيون في دفع عجلة الثورة الى أمام وبناء قواتها، وعرف القدر الضئيل الذي ساهمت به تلك القوات في حروب سورية. فأيّ حلم وأيّ خيال ذاك الذي كان يراوده ويراود إخوانه الضباط الآخرين في تحرير العراق بدءً بتلعفر والموصل، وبمائة وستين جندياً لايملكون من سلاح وذخيرة إلاّ ما انتهبوه من مخازن سلاح ائتمنوا عليها وما تصدق به عليهم الأتراك[٣٦].

مسألة لا أجد لها حَلاً بغير الرجوع الى ما توصل اليه المحللون وعلماء النفس عن تفسير

= والكثيرون فروا الى بيوتهم. ولما رأينا الحالة هكذا رجعنا من (التويم) الى (تلعفر) لندافع هناك ولكن لما رأيتُ في تلعفر أيضاً ما بقي ولا فرد وكلهم أخذوا عائلاتهم وفروا. ومن جهة ثانية (حمو شرو) قطع علينا الطريق في (عين الغزال) بعد أن دخل علينا وأرسل لنا هيئة ترجو قبول دخالته اضطرينا الى أن نترك تلعفر ونرجع الى (الفدغمي) بعد أن حرقنا المدرعات والأتوموبيلات والقشلة (دار الحكومة) وما فيها (كذا!). وما ندري ماذا جرى عندكم في الليلة الموعودة. ولله الحمد في عودتنا لم يحصل علينا أقل ضرر، أما عشائر شمر والجبور والگرگرية وغيرهم فمع كلّ الأسف كانوا قد التهوا بالغنائم وبيعها وإيصالها الى بيوتهم...".

قائد الجيش العراقي الشمالي
جميل المدفعي

(وحمو شيرو: هو زعيم دينيّ من يزيدية سنجار)
عرفتُ وأنا يافعٌ في المدرسة المتوسطة الشرقية رئيس شعبة حزب العهد السيد رؤوف الغلامي وهو مدرس اللغة والتأريخ فيها شخص هاديء لطيف المعشر فكه، لم يسمُ به المقام كما سما بالآخرين، وقد توفي في أواخر الأربعينيات. ومن بين القوميين النشطين في حزب العهد والقحطانية واللامركزية والفتاة. ومنهم شقيقه الأصغر عبدالمنعم مؤلف كتاب (ثورتنا في شمال العراق) ويحي ق آل عبدالواحد، وسعيد الحاج ثابت، وغيرهم. في الواقع كان رؤوف الغلامي رئيساً لفرع (العهد) في الموصل منذ متنصّف العام ١٩١٩ مرتبطاً بمقرها في دمشق. تصله بانتظام (العقاب) جريدة الحزب الرسمية في سورية، فيبعث بها إلى بغداد وغيرها من المدن. ينقل الدكتور على الوردي المؤرخ الاجتماعي العراقي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥، ص٥٤) نصوصاً من بعض رسالة كتبها الغلامي الى مقر الحزب في دمشق مؤرخة في ٣٠ من تشرين الثاني ١٩١٩ اقتبسها من جريدة (صوت الأحرار) البغدادية الصادرة في ٣ نيسان ١٩٥٣ (وهي وقتذاك لسان حزب الأحرار وهو واحد من الأحزاب الخمسة التي أجازتها حكومة توفيق السويدي في نيسان ١٩٤٦. ولاينكر (الوردي) المناسبة لنشر تلك الرسالة وكل ما هو بمدى علمي إن الغلامي كان معتمداً لحزب الأحرار في الموصل وقتما كان كاتب هذه السطور معتمداً لـ(حزب الشعب) فيها. فالتقى التلميذ بالأستاذ وكانت علاقة قصيرة الأمد.
(النصوص التي نشرت ونقلها الدكتور الوردي ربما كانت من قبل شقيقه عبدالمنعم)
«ماكشف الحلفاء عن مكنوناتهم إلاّ باتفاق العرب والترك مع البلشفك وألمانيا والنمسا... وعند وقوع حرب عامة في المستقبل، فتشكل حينذاك من إتحاد العرب والترك قوة لايستهان بها تحيي الأمل في قلوب كافة المسلمين، ولايخطر ببالنا نقصد بذلك الإستمرار من قوة الروس والإستفادة من هذا الاسم الجديد وتهديد الناكثين للعهود...» آه.
(٣٦) يذكر محمد طاهر العمري (المرجع السالف) إن القيادة التركية في الجزيرة مالبثت أن كفّت عن معاونتهم عندما علمت بأن نيتهم لاتنطوي على إعادة الولاية الى تركيا وإنما ضمها الى العراق.

لتصرفات أولئك النكرات، الذين يجدون أنفسهم فجأة في لجّةٍ من أحداث جسام ذات ظروف وإرهاصات ليست من عملهم - أحداث جسام ذات آثار بعيدة في مصائرهم ومصائر غيرهم طابعها العنف وسرعة الحركة. مهما بلغ الدور الذي ساهموا به من الضآلة والصغر تراهم وهم في وسطها يسترسلون في أحلام اليقظة العراض الطِوال بلا حدود، ماتلبث لشدّة ما تقرع به رؤوسهم - أن ينزلوها منزلة الحقائق فيضفوا عليها صفة الوحي والإلهام. ويبدأون في العمل لها إنجازاً لمضامينها بحماسة وعزم من غير تأمل وتحسبّ للعواقب. وبعين تلك الحوافز التي تدفع الفأر الى الحلم بأكل القطّ.

ولا يقف العجب بنا عند تلك الجدية وذلك العزم من (المدفعي وجودت)[٣٧] وغيرهما من الضباط القوميين الموصليين الآخرين - على تحرير العراق من نير المحتل البريطاني بمائة وستين عسكرياً خائري العزائم فقدوا معنوياتهم القتالية إثر الهزيمة العسكرية التامة التي لحقت بدولتهم - بل يزداد عندما نجدهما يكتبان ذكرياتهما عنها بعد ثلاثين أو أربعين عاماً بعين الجديّة والتصوّر والروح الحماسية التي دفعتهم الى المباشرة بها. وقد وجدنا معظمهم بعد بضع عشرة سنة يتبوأون المناصب الرفيعة في الدولة التي خلقها منهم ذلك المحتل الذي حاولوا طرده جدّية خلت من أي نوع من نقدٍ ذاتي أو اعترافٍ بخطأ.

ظاهرة يصعب تفسيرها قدر ما يتعذر احترامها أو محاولة إيجاد أعذار لها، والتعليل الوحيد الذي أجده في يدي ربما كان يكمن في الظروف السياسية والفكرية التي بدأت تسود البلاد الناطقة بالعربية بعد نهاية النصف الأول من قرننا (القرن العشرين) أو قبله بقليل. حيث وضع القوميون العرب الجدد، رجال السياسة القدماء في قفص الاتهام وعزوا اليهم "جملة المصائب" التي حلت ببلاد العرب. فانبرى هؤلاء للدفاع عن أنفسهم وردّ تهمة الخيانة والعمالة بكتابة مذكراتهم ليثبتوا قوميّتهم، وليبرهنوا بأنهم كانوا مثلهم إن لم يكونوا أكثر من متهميهم "قومية" وحرصاً على مصالح البلاد.

★★★

عاد (جميل المدفعي)[٣٨] بعد تتويج فيصل ملكاً على العراق - مع من عاد وبموجب قرار

(٣٧) جاء نوري السعيد بالمدفعي وزيراً للداخلية في ١٩٣٠، وفي ١٩٣٣ كلّف بتشكيل أول حكومة له، تلك التي أسقطها رشيد عالي بمؤامرة داخلية، وتولى رئاسة الحكومة ستّ مرات أخرى، كان آخرها في العام ١٩٥٣. أما علي جودت فقد ترأس ثلاث حكومات كان آخرها في العام ١٩٥٧ فضلا عن عضويتهما في وزارات متعددة.
(٣٨) تذكر (مس بل) في إحدى رسائلها لأبيها نبأ عن وصول قافلة من العراقيين الذين كانوا في سورية =

اتخذته حكومة عبدالرحمن النقيب في ٢٤ من تشرين الثاني، وتم تسفيرهم من سورية مع عائلاتهم على نفقة الحكومة العراقية. وفي ٢٩ من كانون الأول أي بعد أسبوع واحدٍ قررت أيضاً أن تعتبر خدمة هؤلاء في الجيش العربي الحجازي خدمة فعلية "بغرض تقدير الدرجة والترفيع وتعيين الراتب سواء في ذلك من أعيد استخدامه في الجيش العراقي أو اختار السلك المدني، اليوم باليوم والشهر بالشهر!". مثلما ورد نصاً في القرار.

بقي العلم البريطاني يخفق على مقر الحكومة في الموصل كما بقي كذلك في مدينة كركوك. الى أن استبدل بالعلم العراقي الجديد، وهو نسخةٌ من العلم الشريفي الذي اخترعه مارك سايكس كما تقدم[٣٩]. وكان ذلك بمناسبة أول زيارة لـ(فيصل) للمدينة في ١٢ من كانون الأول ١٩٢٤.

★★★

إنتهى الحكم العسكريّ في ميسوپوتاميا حال عودة (سر پرسي كوكس) من طهران في ٤ من تشرين الأول (أكتوبر) واتخاذه عنوان المندوب السامي High Commissioner. وفي ١١ تشرين الثاني استخدم صلاحياته كرئيس دولةٍ فطلب من السيد عبدالرحمن الگيلاني نقيب أشراف بغداد تشكيل حكومةٍ، وهذا لقب كان العثمانيون يمنحونه لرأس أسرة السادة المنحدرين من نسل الحسن ابن الإمام علي في مدن معيّنة[٤٠]. فضلاً عن تتويج فيصل فقد أصدر

= الى مسقط رأسهم الموصل. وتعين يوم ٢١ من نيسان ١٩٢٠ تأريخاً لوصولهم. وتعلق على عودتهم قولها إنهم مالبثوا أن أصبحوا عنصر شغب وقلاقل في الموصل وقد عُلّقت البيانات على الجدران في الليل وصارت الاجتماعات تعقد علنا مندددة بالحكم البريطاني، بتوقيع حزب العهد. وازدادت غارات البدو فيها على خطوط مواصلاتنا. ويؤخذ قول (مس بل) على علاته: فمن الواضح أن الذين عادوا، كانوا على صلة ما بضباط دير الزور وبحركة المسيرة الى تلعفر والموصل وعلى علم بها.

(٣٩) التغيير الوحيد فيه (بموجب قانون العلم العراقي) هو إضافة نجمتين مسبعتين في وسط الأبيض ترمزان الى القوميتين الرئيستيّن في البلاد أو الى الولايات الأربعة عشر التي يتألف منها العراق إدارياً. وقد تغيّر هذا العلم كثيراً كما هو معلوم إلاّ أن الألوان الأربعة الرمزية التي اخترعها سايكس كانت دوماً تتمثل في النسخ التالية منه.

(٤٠) كانت (مس بل) الساعد الأيمن لكوكس ومشاوره الذي لايردّ له رأي، على معرفة شخصية سابقة بالگيلاني قبل أن يقع عليه نظر أي بريطاني آخر. فقد قامت بزيارته في غرفته الخاصة بجامع الحضرة الگيلانية في باب الشيخ العام ١٩١١ عندما حلّت ببغداد ودونت حديثها المستفيض معه ورأيها فيه في كتاب رحلتها المطبوع في إنگلترا: (من عمورات الى عمورات Amorath to Amorath) ومن كتابها هذا صارت لندن على علم بوجوده وآراء أهم شخصية في مدينة بغداد وفي ولايتها. لذلك لم يكن تكليفه برئاسة أول حكومة محليّة عملاً غير مدروس. ورغم الدور الكبير الذي أتيح لهذه المرأة في مصائر =

الوايت هول قراراً بأن تتسلّم القوة الجوية الملكيّة RAF مسؤولية الدفاع على العراق الجديد من القيادة العامة ببداية شهر تشرين الأول ١٩٢٢ والاستعاضة عن القوات البريّة المسلّحة بتجنيد الليڤي الآشوري. وحَلّ فصائل الليڤي العربي (الشبانة)، التي بدء بتشكيلها في الأيام الأولى من الحملة البريطانية.

كانت هذه من جملة التدابير التي اتخذتها بريطانيا إزاء النجاح العسكري الذي راح يحققه اللواء مصطفى كمال (الملقب بأتاتورك) في الأناضول ضد الغزو اليوناني، ومن آثاره السياسية، تمزيق معاهدة (سيڤر) التي أقرّت بحكم وطنيّ لجزء من الأناضول الشرقية لكلّ من الكرد والأرمن أو الآشوريين في مادتيها الثانية والستين والرابعة والستين. لم تنفذ بنود هذه المعاهدة، إلاّ أن حلم كردستان المستقلة، وطموح الآشوريين الى الحكم الذاتي المسجلّ في وثيقة دولية، لم يُنسَ قط.

إنّ نقل صلاحيات الإدارة من دائرة المندوب السامي الى الحكومة المؤقتة أثار بطبيعة الحال وبشكل لجوج مسألتين من بين المسائل التي عرضت للإدارة المدنية – السياسية. وفي مقدمتها مستقبل كردستان والآشوريين.

مسألة الآشوريين كما رآها (ويلسن) ومَن بعده، هي بحسب تصور (إدموندز) ذات شقين، يقول إدموندز:

"هي من جهة موضوع إسكانهم. ومن جهة مسألة مستقبلهم كقوة عسكرية. كانت السلطة البريطانية في هذه الفترة (١٩٢٣) منشغلةً بالمشكلة الخطيرة. مشكلة مستقبل النساطرة المسيحيين الذين عرفوا بالآشوريين سكنة جبال حكاري. وهذا الأقليم هو ولايةٌ تقع شمال ولاية الموصل. إنتقض هؤلاء المحاربون الجبليّون الأشداء على الحكم التركي في ربيع العام ١٩١٦، بدفع وإغراء من قائد الجيش الروسي المهاجم، إلاّ أن تقهقر قواته أدّى الى بقائهم في الميدان لوحدهم معرضين

= العراق السياسيّة. فأنا أعتقد بأنّ الحجم الذي أعطاه المؤرخون المحليون لذكائها وسعة إطلاعها لايتفقان قطّ والمهام التي أوكلت لها ولا المكانة التي حظيت بها عند حكومتها. وقد أحصيت عند قيامي بقراءة رسائلها قراءة مدقق أخطاء تأريخية واستنتاجات شخصية نابعة عن اعتداد بالنفس لا حد له وهي كثيرة إلاّ أني أكتفي بتقديم مثل واحد من رسالة كتبتها لوالدها في ٣–١–١٩١٨ وهي في كربلاء جاء فيها: "... أعظم مشكلة تواجه العراق هي الهوة السحيقة التي تفصل بين أهل السنة والشيعة فالترك سنة والفرس شيعة. وموت عباس (العباس) آخر خليفة منحدر من صلب (محمد) وابنه (الحسين) كان السبب الذي أدى الى ذلك"!! فتأمل هذا الخلط.

لانتقام وعقاب حكومتهم الشرعيّة. فلم يروا بداً من الجلاء الى ايران هم وأسرهم والسلاح في أيديهم يقاتلون قتال انسحاب. وهناك بقوا يحاربون بأمرة القيادة الروسيّة الى أن انحلّ الجيش الروسي الإمبراطوري، ففقدوا نصيرهم الوحيد وعدموا قوة الحياة. وقد تمّ أخلاء ٣٥ ألفاً منهم وأودعوا معسكراً كبيراً للاجئين في ضواحي بعقوبة، التي تبعد عن شمال بغداد بثلاثين ميلاً. وفي أثناء السنوات الأربع (١٩١٩-١٩٢٣) تَمّ اسكان معظم من يحمل الرعوية التركية منهم، ما تراوح عدده بين سبعة آلاف نفس وثمانية آلاف، واستقروا فعلاً في جنوب حكاري على الحدود، حيث ماكان للسلطة التركية أثر. وآخرون منهم أسكنوا الجهة الشرقية من الحدود. وجُند عدد كبير من الرجال في الليڤي العراقي تحت امرة ضباط بريطانيين"[٤١]

هؤلاء المجندون كانوا جزءً من القوات الإمبراطورية المسلحة التي تخدم عبر البحار، تحكمهم قوانينها العسكرية ولايدينون بولاء ولايشعرون بأي احترام للحكومة العراقية. وهم في ذلك لم يكونوا مخطئين كل الخطأ. فقد بدا استقبالهم على الصعيدين الشعبي والحكومي مشوباً ببرود في أفضل الحالات، وبجفاء ونفرة في أسوئها[٤٢].

ولن نذهب بعيداً، ولنتحدث عن موقف مسيحيي مدينة الموصل نفسها إزاءهم قياساً. فعشرات الأسر الآشورية التي وجدت سبيلها اليها اصطدمت بذكريات النزاع العقائدي الذي أدّى الى انشقاق كنيسة الشرق، والخصومة الحادة التي دامت زهاء ثلاثة قرون ونصف قرن بين الكلدان الكاثوليك، وبين المقيمين على مذهبهم. ظلّ الخصام مستمراً حتى مفتتح القرن العشرين يخيم بظلال التعصب على النفوس، ولم يكن بغريب أن يقابل هؤلاء المشردون بصدودٍ ولا أن يطمعوا ببعض العطف الذي لقيه اللاجئون الأرمن مثلاً وهم على المذهب الأرثوذكسي وهو الأقرب الى أتباع كنيسة الشرق. ولولا عطف الإرسالية الدومينكانية على هذه الأسر لما وجدت المأوى في الموصل.

زاد عدد الأسر الآشورية خلال السنوات الست التالية السابقة لعملية البتّ في عائدية الولاية، بتواجد فصائل من قوات الليڤي الآشوري في المدينة وفي الولاية. وانتقل البطريرك

(٤١) سي. جي. إدموندز C. J. Edmonds: «كرد وترك وعرب Kurds, Turks and Arabs» ترجمتها العربية. دار العروبة – بغداد ١٩٧٠ ص٣٤٧.

(٤٢) راجع التفاصيل في الباب الثاني من هذا الكتاب. إن السياق اقتضى منّا هنا التنويه برأي أحد الإداريين البريطانيين الكبار في حجم المشكلة الآشورية كما بدت للإدارة البريطانية في العشرينات.

الآشوري وحاشيته الى المدينة وجعلها مركزاً لكنيسة الشرق بواقع انتشار رعيته في القرى العديدة شمالاً، قبل النزوح عن حكاري وبعدها.

ما كان ثمّ من سبيل أن يعرف الموصليون شيئاً عن تاريخ هذا المجتمع القوميّ الصغير ولا عن أصله العرقي الصميم. ولا بأن الآشوريين هؤلاء أحفاد أولئك الذين أرغمهم الإجتياح التركماني والمذابح الدينية التي تخللت غزواته – على هجرة بلادهم واللجوء الى المعاقل الجبلية في حكاري قبل خمسة قرون، بل اعتبروهم أغراباً دخلاء قريبين الى الفاتح الجديد الذي صار يستخدمهم في عمليات عسكرية داخلية، فهم في نظر القوميين الكرد والعرب أداة قمع في يد المحتل تقف ضد تطلعاتهم الى الإستقلال. وهم في نظر أولئك الذين يحنون الى الحكم التركي خونة مارقون تنكروا لدولتهم ورفعوا السلاح في وجهها. وهم في نظر إخوانهم في الدين خصوم عقائديون.

في خضم هذه التشكيلة الغريبة من الخصومة والعداء وقف الآشوريون الموقف الوحيد الذي كان ميسوراً وهو تسليم مقاديرهم الى السلطة الحاكمة وربط مصيرهم بها بوصفها ملجأهم الوحيد في مجتمع غريب لايرحم ولايُتوقع منه أي تعاون. وهو واقع ربما كانت السلطة البريطانية تحبذ الإبقاء عليه لأنه يستقيم والسياسة التي اعتمدتها في تلك الحقبة. لاسيما بعد الحملة الآشورية الفاشلة في ١٩٢٠ للعودة الى حكاري. لم يكن لديها أي فكرة عما ستجره هذه السياسة وما سينجم عنه من آثار خطيرة ومآس.

ولا ندري أكانت محاولة (كوكس) في ١٩٢١ ترمي إلى إزالة هذه النفرة أم هي محاولة ماليّة بحتة ترمي الى تحويل العبء المالي الذي تتحمله لندن لنفقات قوات الليڤي الى عاتق الحكومة المحلية التي شكّلها. إذ تشير محاضر جلسات الحكومة النقيبية الأولى الى إقتراح غامض العبارة قدمه لها (كوكس) بربط هذه القوات بإحدى وزاراتها. ولعله أدرك بعد الرفض المؤدب الغامض الذي جاءه بأن اقتراحه هذا لم يكن في محلّه. وبقيت قوات الليڤي مرتبطة به وجزءً من القوات البريطانية حتى حَلّها نهائياً[٤٣].

إن الأهمية التي كان البريطانيون يجدونها في قوات الليڤي تجلّت عندما قرروا قراراً لا رجعة فيه على أن تكون ولاية الموصل ضمن دائرة نفوذهم، أي جزءً من الدولة العراقية الحديثة والتي تجلّت في الإعلام الإنكليزي. فخلال الفترة المنحصرة بين العامين ١٩٢٠ و١٩٢٣ كان مستقبل الولاية ونفطها الموضوع الرئيس المحبب للصحافة البريطانية. والدور الآشوري في

(٤٣) أنظر الملحق في آخر الفصل.

المعركة المصيرية القادمة، تفضحه عبارات في [تقرير الإدارة في العراق للفترة ١٩٢٠-١٩٢٢] المذيل بتوقيع (سر پرسي كوكس):

"وضعت قيد الدرس مشاريع مختلفة لتوطين الآشوريين. كان أفضلها وأثرّها هو إقتراح اسكانهم في إقليم العمادية. وقد حظي هذا بموافقة كلّ من الكولونيل أي. تي. ولسن، والكولونيل ليتشمان الضابط السياسي في الموصل، وهو على الأقل مقبول من قسم كبير منهم. كذلك الفوج الآشوري الذي جنّد منهم للخدمة في كردستان (حملة ١٩١٩)[٤٤] كانت قد اتخذت به خطوات تغلب الشدّة عليها لتنظيف البلاد. والحكومة المحلية كانت على كلّ - عاجزة عن الوصول الى قرار في هذا الموضوع حتى إجلاء القوات البريطانية عن البلاد. لذلك بات المشروع غير عملي، وكان الإهمال مصيره والحالة هذه. وإنصافاً للآشوريين ينبغي أن نضيف هنا - إنه وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من هذه السنة (أي ١٩٢٢) عندما توالت الهجمات التركية - برهنوا على قيمتهم الستراتيجية في الحدود العراقية. وفي شهر مارت (من تلك السنة) تمّ تجنيد (٢٠٠٠) منهم في قوات الليڤي خلال ثلاثة أسابيع. وليس من غير المحتمل أبداً إن الردّ الفوري الذي اضطلع به قومٌ عرفوا بشدّة البأس والكفاءة في القتال - كان السبب الرئيس الذي أرغم الأتراك الكماليين على وقف هجماتهم"[٤٥]

(٤٤) المقصود بها الحملة التي قادها آمر اللواء (سر ثيودور فريزر) آمر الفرقة الثانية عشرة المرابطة في الموصل ضد الشيخ محمود البرزنجي وانتهت بأسر الشيخ واحتلال السليمانية (١٩١٩).

(٤٥) حاول الفرنسيون في سورية تقليد البريطانيين في استخدام الآشوريين أثناء نزاعهم مع تركيا الكمالية ولأغراض عسكرية أخرى داخلية ضد الدروز مثلاً. فاستقدموا من روسيا زعيماً آشورياً هو (مالك قنبر ابن مالك وردا) زعيم قبيلة الجيلو وأتباعه. وكان هذا في خلاف مع أسرة البطريرك لاعتقاده بأن حميّه نمرود بيت شمعون عمّ البطريرك (بنيامين) قد أغتيل بتحريض من (بنيامين) نفسه، فذبح ذبحاً مع أولاده وبناته وزوجته قبل خروج الآشوريين من مواطنهم في حكاري، لأنه كان يعارض في رفع السلاح بوجه العثمانيين ويدعو الى بقاء الآشوريين على الحياد. كان مالك قنبر هذا قد نجح أثناء بداية الحرب الأهلية في روسيا - في الوصول الى جورجيا (تفليس) وهناك اتصل به الفرنسيون ووعدوه كما قيل بإقامة دويلة حاجزة Buffer State للآشوريين في شمال شرق سورية تخضع لنفوذهم. وشجعوه على تجنيد متطوعين آشوريين تمّ نقلهم الى سورية عبر البحر الأسود. وقد أوكل الى الجنود الخمسمائة التي أمكن جمعها مهمة حفظ الأمن في المنطقة المشار اليها ولم تتضخم هذه الوحدة. لاندري كم كان هذا الرجل يعتقد بجدية وعود الجنرال (گورو) حاكم سورية. مهما يكن فالواضح أن الفرنسيين كانوا يريدون كالبريطانيين تسريح جنودهم وتخفيف النفقات. يذكر الكاتب الذي وقف على مذكرات (قنبر) الذي زار العراق في ١٩٥٨ أن رسائله العديدة التي بعث بها الى أبناء قومه في العراق يدعوهم فيها الى =

هذا ما ورد في التقرير الإداري السنوي وقد تمّ تدوينه بطبيعة الحال بعد الفشل الذريع الذي حاق بحملة "العودة الى الوطن" الآشورية، أو حملة (مندان) كما عرفت في الحوليات البريطانية، من المفارقات أنها حصلت في أعقاب فشل حملة (المدفعي) على الموصل. فبات على أثر ذلك الفشل وكأن لا مناص من الإعتماد على سياسة الإسكان والتوطين والإندماج في المجتمع العراقي الجديد. إلاّ أن مصير ولاية الموصل لم يتقرر بعد. وهي تكاد تكون الموطن الوحيد الصالح لهؤلاء[٤٦].

في أواخر العام ١٩٢٢، بدا وكأن لا مناص من المقارنة. آنذاك لم يكن تعداد الجيش العراقي المتشكل حديثاً، يزيد عن ثلاثة آلاف ضابط وجندي. في حين أناف عدد من جنّدتهم القيادة البريطانية في العراق من الليڤي الآشوري على الأربعة آلاف، استخدموا منذ ثورة الفرات الأوسط في الحركات العسكرية الفعلية، في حين كان المطوّعون في الجيش العراقي يتلقون التدريب العسكري وهم في أول مرحلة من التعود على النظام والانضباط. وفي الوقت الذي كان الليڤي الآشوري بأمرة ضباط بريطانيين يخضعون للقوانين العسكرية البريطانية

= الإنضمام للجيش الآشوري في القامشلي والحسكة ودير الزور "للمخاطبة ولإعلاء شأن الدولة الآشورية وتوطيد أركانها" ظلت دون جواب. أصيب هذا الرجل السليم النية بحسية واستفاق من حلمه الجميل عندما قررت القيادة العامة الفرنسية إبطال استعمال عنوان (الجيش الكلدآشوري) "الذي استخدمه والإستعاضة عنه بعنوان (الفرقة الأجنبية الفرنسية). وقد توفي في فرنسا.

(٤٦) اليزابيت بركوين Elisabeth Bergoine «مس بل، گرترود من أوراقها الشخصية Gertrude 1914-1926 Bell, From her Personal Papers» ج٢، ص٣١. "جرى بيني وبين نوري السعيد حديث حول القضية الآشورية. أن عرب الموصل يثيرون كثيراً من الجلبة حول عودة بعض الآشوريين الذين كانوا قد ذهبوا الى سورية عن طريق أستنبول. كانوا قد انحدروا برمتهم من الجبال التي تقع في الوقت الحاضر ضمن الإدارة العراقية، وإن كانت خارج الحدود التي رسمتها معاهدة (سيڤر) فهو الجزء الذي نريد استرداده من تركيا أولاً لأنها تؤلف حاجزاً واقياً رائعاً، وثانياً ليس بوسعنا - كما تمليه علينا مباديء الشرف أن نرى الآشوريين يخضعون لحكم الترك مرة أخرى، وكما يقول السرطان (سيكون ذلك من المنكرات بعد العطف الذي أبديناه). والآشوريون يقولون أنهم يفضلون النزوح الجماعي على قطع رقابهم بأيدي الترك. والى جانب هذا فهناك قدر كبير من التحاقد والاضطغان بين الآشوريين والعرب، والسبب الرئيس في هذا بحسب ظني هو الليڤي الآشوري. إنها غلطة من الأغلاط القديمة التي وقع فيها (سر پرسي كوكس) عندما خلق منهم داخل البلاد قوة عسكرية بقيادة ضباط، وقام هؤلاء بتوسيع الخرق وزادوا في الوضع سوءً في تذكيرهم أفراد الليڤي باستمرار بأنهم جنود بريطانيون جيدون، وليسوا عرباً قذرين صغاراً، وتلك نقطة بقيت إبنة (السر هنري دوبس) تشير اليها باستمرار. لا أدري خياراً للآشوريين إلاّ بتسوية خلافاتهم مع العرب وأراهم سيفعلون ذلك في النهاية شريطة ألاّ يتدخل ضباطنا" آه، (تأريخ الرسالة تشرين الأول) (السرطان هنا الحيوان المائي الذي نسميه أبو جينب وهي هنا تقتبس من حكاية ظريفة مشهورة. و(دوبس) هو المندوب السامي خَلَف (كوكس). ولابد لنا هنا أن نشير أيضاً الى قلة إطلاعها على وضع الحدود العراقية في ذلك الزمن).

ويتلقون تدريبهم على الأساليب المتبعة في الجيوش البريطانية وينعمون بحياة مرفهة نسبيّة بالراتب الذي يتقاضاه الجندي، وهو يفوق راتب المجند العراقي، نجد هذا الأخير بأمرة ضباط عثمانيين يدربون وفق النمط العثماني – الألماني بخليط من الأسلحة الأثرية والقديمة والحديثة المتعددة المصادر.

اجتمعت هذه الأسباب كلّها لتجعل من الليڤي الآشوري هدفاً سهلاً يصبّ عليه القوميّون والوطنيّون العراقيون بعربهم وكُردهم جام نقمتهم على المحتل، واعتبروه أداة قمع في يده. بكلّ الحسد والغيرة من الدوائر العسكرية العراقية بسبب نجاحه في الميادين القتاليّة. واتسعت دائرة النقمة والحسد لا لتشمل اللاجئين الآشوريين وحدهم فحسب، بل لعموم المسيحيين العراقيين.

كانت فكرة "القومية" بعد الحرب العالمية الأولى، فكرة بسيطة ساذجة ضيقة الحدود. ويمكن تلخيصها استناداً إلى ما كانت تكتبه الأقلام الوطنية القومية بهذا الشكل: "إن مجموعة من الناس يمكن أن يؤلفوا شعباً وإن هذا الشعب يجب أن يكون مستقلاً بأموره"

وفي العراق أغفل الكتاب والصحافيون النفوذ الى أغوار الفكرة، وتبسيطها وتعميقها. وعجزت تعليقاتهم عن إرشادنا الى محاولة إمكان إنارة السبيل الى تنظيم الحياة الاجتماعية لذلك الشعب. كانت الفكرة القومية لا تؤمن بتلك الرابطة التي يمكنها أن تحتضن أناساً من مختلف مدارس الفكر والعقائد والأديان تهدف أساساً الى إقامة كيان سياسيّ مستند على الإدارة الشعبيّة. والنصر الذي حققته الفكرة في العراق مثلما حققته في سورية وغيرها من البلاد الناطقة بالعربيّة وقتذاك – لم يتم على أكتاف الجماهير ولم يُخرج شطئه من وسط شعبي، وإنما حمل لواءه طبقة الوطنيين وأصحاب الملكيات والضباط العسكريون خريجو المدارس العثمانية، الذين سمحوا بقصر نظر وسذاجة للعامل الديني والطائفي بالتسلل الى دعوتهم وباستخدامه لتغذية الشعور القومي استخداماً أضرّ بالفكرة القومية من الأساس وأضرّ بهم في آخر المطاف. بأن أبعدوا عنهم شرائح اجتماعيّة من المواطنين هامة وناصبوها عداءً وامتلأوا منها شكاً وبادلتهم الشك والعداء.

ملحق

مقتطفات مما كان ينشر في الصحف العراقية حول خروج الآشوريين الى سورية

– ١ –

كتاب الحزب الوطني الى فخامة رئيس مجلس الوزراء المحترم

يا صاحب الفخامة

إن قضية التياريين تستأثر باهتمام الرأي العام العراقي. وقد تفاقمت لتصبح اعظم مصيبة تهدد مستقبل ازدهار البلاد. وسيان في ذلك اذا جرى استقرارهم في محل واحدٍ أو جرى تفريقهم في اماكن مختلفة.

لقد اتضح ان هؤلاء لم يدخلوا البلاد كي يعيشوا في حالة استقرار وهدوء، بل كان لديهم نوايا أخرى. لقد كانوا سبباً في احداث مؤسفة في كل من الموصل وكركوك ومنها تتضح خطورتهم أينما حلوا وفي أي وقتٍ كان.

لم يقدم اي شعب في العالم على خطأ فظيع كالخطأ الذي وقعنا فيه فقد منحناهم اراضي لسكناهم وصرفنا آلافاً من الدنانير على شؤونهم الزراعية وتركناهم ليجنوا خيرات بلادنا، ومع هذا كله فقد تركوا البلاد، واجتازوا الحدود بمجموعة تتألف من ألف وثلاثمائة مسلح وهم مستمرون في عبور الحدود. ولم يكتفوا بهذا ولكنهم اخذوا يهددون الآخرين وهم يخططون أمراً بطبيعة الحال كانوا قد صمموا عليه منذ زمن حتى افتضح مؤخراً. في هذه اللحظة هم غير قادرين مالياً ولكن كيف سيكون موقفهم من الحكومة اذا قدر لهم أن يزدهروا مادياً وثقافياً؟

نرى من واجبنا أن نوصي بأن أفضل علاج لهذا الوباء هو رجاؤنا من الحكومة أن تأمر بطردهم حالاً من البلاد وعدم تطبيق قرار عصبة الأمم. وان لايلتمس لهم ايّ عذر. وبهذا يتم تجنيب البلاد الاضطراب والإخلال بالأمن.

جريدة الاخاء الوطني، العدد ٤١٩ – ٣٠ تموز ١٩٣٣

امين السرّ (الحزب الوطني)(*)

(*) انصافاً للسيد جعفر ابي التمن مؤسس هذا الحزب، نرى ان نذكر هنا انه كان قد أبعد نفسه عن الحزب ونشاطه منذ زمن سبق هذا التاريخ بكثير واعتبر نفسه مستقيلاً احتجاجاً على تصرفات بعض الاعضاء البارزين فيه وصلاتهم وان تأخر نشر استقالته حتى تشرين الثاني ١٩٣٣– في جريدة الاهالي. ومما هو جدير بالذكر أنه هيئته العليا كانت تضم بعض الساسة والشخصيات التي لم تكتم وجهة نظرها =

– ٢ –

(نماذج مما كانت تحفل به الصحف البغدادية من آراء عن تلك الاحداث)

الاخاء : ٢١ آب ١٩٣٣

« ... پولندا عاملت اقلياتها بمنتهى القسوة، وألمانيا انزلت باليهود اشدّ الاضطهاد ، لكن بريطانيا والدول الأخرى لم تتدخل. ليس لاي دولة خارجية ان تتدخل في مثل هذه الأمور والعلاقات بين بريطانيا وبين بلادنا هذه يجب ان لاتتعدى علاقاتها مع الدول المذكورة آنفاً ان كان استقلالنا بنفس مستوى استقلال پولندا وغيرها من الدول.

ان الآثوريين رفعوا السلاح في وجه الحكومة ولهذا يجب على الحكومة اخضاعهم، كما يجب عليها ايضاً ان تتخذ كل الاجراءات لصهر هذه الفئة في الوحدة العراقية. »

الأهالي في ٢٤ آب

هذا الرأي الموحد الذي بدا مؤخراً ممتزجاً باطيب المشاعر يجب ان يصان ويتقوى، فباعتقادنا اننا سنواجه في المستقبل احداثاً ووقائع كثيرة لو قورنت بالعصيان الآشوري لبدا هذا بالنسبة لها أمراً بسيطاً.

الاستقلال ٢٧ آب ١٩٣٣

«لما عم الفرح والاستبشار اولئك بسبب دخولنا عصبة الأمم، كنا في مقدمة القائلين بأن ذلك لا فائدة فيه ولا منفعة، لقد مضى وقت طويل بين دخولنا وبين انسحاب كل من اسبانيا والبرازيل واليابان منها وعلى كل فسيدركنا الأسف لو اعتقد المستعمرون بأن عصبة الأمم ستخيف العراق. العراق هو دولة، او بالأحرى هو دولة مستقلة ترفض أن تهتم باي احدٍ في اثناء معالجتها لشؤونها ورعاية مصالحها. وعلى عصبة الأمم وبعض اعضائها بصورة خاصة أن يدركوا بان العراق ليس بضاعة تشرى وتباع. انه لم يعد كذلك الذي عرفه به الدساسون، عبداً في اسواق نخاسة (جنيف)... وإن لم يكن هذا مناسباً لجنيف او لپاريس او للندن فهو

= الخاصة في المسألة الآشورية من امثال عبدالغفور البدري (ضابط عثماني سابق وصاحب جريدة الاستقلال) وسعيد الحاج ثابت وقد مرّ ذكره. ومحمود رامز ومولود مخلص وبهجت زينل وعلي محمود الشيخ علي.

يناسب بغداد تماماً... »

الاستقلال ٢٨ آب

« ... الشعب العراقي مستعد لحمل السلاح والذهاب الى ساحة الموت... لكن الأمر ليس بمثل هذه الاهمية، ذلك لان هؤلاء العصاة الذين اخلوا بالأمن وتمردوا على الحكومة انما هم شرذمة صغيرة حقيرة... الاّ ان السبب الذي دفع بالشعب الى مثل هذه الثورة العظيمة هو ان هذه الشرذمة راحت تصرخ وتتباكى أمام الدول الاجنبية زاعمة انها تتقلى اسوء المعاملة وانها ضحية التعصب الديني... اننا لم ننس بعد صنوف الاضطهاد وعمليات القمع التي مارسها الطليان في (طرابلس) على اولئك الذين ارادوا المحافظة على كرامة بلادهم... يجب ان يقتلع النفوذ الاجنبي في هذه البلاد من جذوره وان الجمهور العراقي يطالب بتطبيق قانون خدمة العلم لأنه متعطش لدماء اعدائه. »

الفصل الثاني عشر

النزاع على ولاية الموصل . دور القوميين العرب فيه . النشاط التركي . الوعي القومي الكردي المتزامن . أغلبية سكان الولاية المطلقة من الكرد . الأقليات الدينية والعنصرية . موقف سكان المدينة السلبي من القوميين العرب . لا نشاط كردي داخل المدينة . الموقف المسيحي – اليهودي الجدي من رفض التبعية لتركيا . معركة دبلوماسية خفية بين بريطانيا وتركيا . إيقاظ المشاعر القومية ضد المشاعر الدينية التي كان يتسلم بها أغلبية السكان بممالأة الأتراك . قرار عصبة الأمم بتشكيل هيئة تحقيق تزور الولاية وتقوم بمهامها موقعياً . مفهوم جديد للقوميين الدعاة يختلف عن المفاهيم الأولى . التوتر على الحدود وإرسال قوات تركية عبر خط بروكسل . حث البريطانيين بغداد على إمضاء معاهدة قبل البت بعائدية الولاية . الشارع والصحافة . إبرام المعاهدة مع احتراز بطلانها إن لم تعد ولاية الموصل جزءً من العراق . قرار اللجنة . الأقليتان المسيحية واليهودية تصوّتان الى جانب الكرد . فصل الدين عن السياسة . الإلتزام القومي بالدين الإسلامي ورفض تركيا عودة اللاجئين الأشوريين الى مساكنهم في حكاري . فشل المساعي البريطانية . في ١٨ أيار ١٩٢٥ ختمت لجنة الحدود التابعة لعصبة الأمم أعمالها وأصبحت ولاية الموصل جزءً من العراق . إحالة قرار اللجنة الى محكمة العدل الدولية ، تأييده . معاهدة لوزان ١٩٣٣ نصر لتركيا .

مرة سألت الأستاذ (إسماعيل حقيّ فرج)[1] عن المناسبة التي أوحت أليه بنظم نشيد شاع إنشادنا إياه في المرحلة الدراسية الإبتدائية ومطلعه:

(١) كان ذلك قدر ما تساعفني الذكرى، بعد ثلاثة عشر عاماً من نهاية المعركة. وقد أدركت آنذاك الأستاذ فرج وهو مدرس العربية في الثانوية بالموصل. وكنت كثيراً ما الجأ اليه لتصحيح قصائد أنظمها، فلايبخل بالنصح والتصحيح لدماثة وطيبة فيه. وهو أحد أربعة شعراء (وطنيين) من أهل المدينة في تلك الفترة استطارت شهرتهم لتعبر أسوارها وهم محمود الملاح ومحمد حبيب العبيدي وفاضل الصيدلي وقد عرفت سائرهم شخصياً. سيما أحدهم وهو والد الشاعرين الأديبين الطيبي الذكر صديقا العمر اللذين حرمت منهما وأبى القدر عليّ فرصة مرافقتهما الى مثواهما الأخير: عبدالحق واخوه الدكتور أكرم. ولأذكر ان علاقة ودّ ربطتني بالوالد في آخر أيام حياته.

لستِ يا مـــــوصل إلاّ دار عِـــــزّ وكـــــرامـــــة

فأجاب بصوته الأبحّ وأنا أذكره الآن وكأنها البارحة قال: "كان ذلك بمناسبة بقاء الموصل للعراق ورفض دعوى الأتراك فيها" (مشيراً الى النزاع الدولي الذي حسمته عصبة الأمم على ضوء تقرير لجنة تحقيق دولية عينتها لإجراء التحقيق الموقعي واستطلاع رأي الأهالي في مستقبلهم السياسي. وهي اللجنة التي عرفت فيما بعد بـ(لجنة الموصل The Musul Commission). بطبيعة الحال كان قصد الشاعر هو أن يخص المدينة دون الولاية بالمديح وهو لاشك يقصد أن يقلدها فضلاً لو درى إنها لاتستحقه عملاً، لاختار لها وصفاً أكثر تواضعاً من وصفها "بدار العزّ والكرامة". فالواقع الذي كان يجهله هو وغيره من الكتّاب والمؤرخين الذين كتبوا حول هذا، إن دور المدينة في هذه المعركة المصيرية كان سلبياً هامشياً بقدر ما يتعلق بأغلبيتها السكانية، في حين أن الدور الإيجابي الواضح وجب أن يعزى بحق الى موقف سكانها من المسيحيين واليهود. رغم المجهودات غير المنظمة التي اضطلع بها عددٌ من الدعاة العروبيين والقوميين – الوطنيين من المتعلمين وطلاب المدارس الذين نشطوا بالدعاية الحكومية والدعاة الوطنيين القادمين من بغداد. وقد خلف نشاطهم الصاخب أثراً معكوساً كما سيأتي بيانه ولم يفد القضية في شيء.

وبترك اللجنة المدينة نفسه لإجراء مسح سكاني للولاية عموماً. فإلى شرقها لانجد للقرى المسيحية والكردية والتركمانية المحيطة بها قوسياً أثراً إيجابياً في معركة المصير، إلاّ أنه على كلّ حال يزيد على الأثر المتخلف في اللجنة عن أولئك البدو الذين سكنوا ورعوا في شبه القوس الغربي – الجنوبي. هؤلاء القبائليون العرب لم يكونوا يدينون للحكم العراقي بولاء، وعلى العكس من فلاحي قرى الشرق استغلوا الفوضى وغياب السلطة خلال فترة الحرب وما بعدها، فصعدوا من غاراتهم على المناطق الحضرية، واتخذوا قطع الطرق مهنة، ومحصّل ولائهم ولاء شيوخهم وهو عرضة للمساومة والبيع، ورهن بقوّة الإدارة وشدّتها. وسنرى أن اللجنة لم تجد حاجة إلى استطلاع رأيهم.

لكن الكرد إلى جانب الأقلية المسيحية – كانوا العامل الأكبر في هداية اللجنة الدولية الى ما توصلت إليه من توصيات حاسمة. ويحزنني إن لا أجد القصة الحقيقية الكاملة تروى بوقائعها الطريفة المثيرة. رغم ما كتب عنها وهو ليس بالكثير. ويعزى السبب في رأيي الى أن نص التقرير الدولي هذا لم يوضع بيد قراء العربية. فلسبب لا أدري كنهه بقي بنصيّه الفرنسي والإنكليزي غير مترجم واقتصر من كتب في هذا الموضوع على اقتباس فقرات

يختارونها على الأغلب – دعماً لوجهة نظر يعرضونها[٢].

إن الإتفاق الذي تمّ في (لندن) بين رئيسي الحكومتين البريطانية والفرنسية وحكم في (ڤرساي) – كان يقضي بإدخال ولاية الموصل ضمن منطقة النفوذ البريطاني. لكن وبالتعقيد الذي نجم عن احتلال عاصمة الولاية بعد إعلان هدنة ١٩١٨، وبروز الحركة الكمالية القومية في تركيا بنشاط عسكري دبلوماسي لاستعادة ما يمكن استعادته من أنقاض الإمبراطورية العثمانية، وجد البريطانيون رغم ادّعائهم بحق "الفتح" أن عليهم أن يخوضوا معركة دبلوماسية من إجل إبقاء يدهم عليها ولجعلها جزءً من الدولة العراقية بالتالي.

وفي خضم هذه المعركة الدبلوماسيّة. عادت الحركة القومية العربية في المدينة تتفتح ثانيةً بإغضاء الإدارة البريطانية أحياناً وبتشجيعها أحياناً. وظهر خلال تلك المعركة مفهوم للقومية يختلف عن ذلك الذي عرفت به بقايا الجمعيات السرية العربية التي ظاهرت محاولة الزحف على الموصل في ١٩٢٠ لانتزاعها من يد البريطانيين.

***

في ٢٤ من تموز (يوليو) ١٩٢٣ وقّع الحلفاء في مدينة لوزان بسويسرا – معاهدة مع تركيا كانت بديلاً لمعاهدة (سيڤر). ومما تضمنته، منح البريطانيين والترك مهلة قدرها تسعة أشهر ليحاولا خلالها فضّ نزاعهم حول الموصل بالطرق الوديّة[٣].

وفي الخامس من تشرين الأول (أوكتوبر) من السنة عينها، شرع الجانبان في المفاوضات الرسمية، إذ قدمت بريطانيا مذكرة للحكومة التركية اتفق على أثرها أن تبدء الأشهر التسعة من ذلك التأريخ.

(٢) قمت بترجمة هذا التقرير معتمداً على النصين في أواخر العام ١٩٧١، مشفوعة بدراسة وتعليقات. وقد افتقدتها إثر نهاية ثورة ١٩٧٥ الكردية ونزوحنا الى إيران. لكنها عادت إليّ بمفارقة من مفارقات الدهر بعد عشرين عاماً. ووجد التقرير طريقه كاملاً في كتابي الموسوم «يقظة الكرد» ط. أربيل، دار ئاراس ٢٠٠٢ فليراجع.

(٣) نص المادة الثالثة من المعاهدة: (لم يرد اسم الولاية هنا بل بدا النزاع وكأنه على الحدود) إن الحدود التي ستقوم بين العراق وتركيا، سيجري تثبيتها باتفاق ودّي يبرم بين بريطانيا العظمى وتركيا خلال تسعة أشهر. وعند عجز الفريقين عن الوصول الى اتفاق خلال هذه المدة يحال النزاع الى مجلس عصبة الأمم. وتتعهد الحكومتان التركية والبريطانية خلال فترة بحث موضوع النزاع لحين الوصول الى قرار نهائي في موضوع الحدود – بالامتناع عن القيام بأي تحرك عسكري أو غير عسكري يؤدي الى تعديل ما حاليّ في الحدود التي يعتمد تثبيتها على ذلك القرار.

على أن المفاوضات الفعلية لم تبدأ إلاّ في ١٩ من شهر أيار (مايس) ١٩٢٤ إثر وصول الوفد البريطاني إستنبول وكان مؤلفاً من السر (پرسي كوكس) ومعاونه النقيب (جاردين)[٤].

في الاجتماع طالب (كوكس) بخطّ حدود يبتعد كثيراً عن حدود الولاية شمالاً ليترك في الجانب العراقي كل موطن الآشوريين الأصلي، فضلاً عن ذلك الجزء الذي نجحوا في العودة اليه واحتلاله وطرد الإدارة التركية منه.

فيما طالب الترك باستعادة كل الولاية وأصرّ الجانبان كلّ على مطلبه وانفض الاجتماع دون نتيجة.

وفي السادس من آب (آغسطس) ١٩٢٤ بعد مرور شهر واحد على نهاية المدة المحددة في معاهدة لوزان، بادرت الحكومة البريطانية إلى إيداع النزاع عصبة الأمم.

أظهر ما حصل خلال المدة المنحصرة بين هذا التأريخ وبين قرار مجلس العصبة بتأليف لجنة التحقيق، هو الوضع العصيب الذي خلقه الشيخ محمود الحفيد للإدارة البريطانية بعد عودته الى المنطقة. مما دفع المندوب السامي الجديد (سر هنري دوبس) إلى اتخاذ قرار باحتلال السليمانية عسكرياً، وسيَّر رتلاً مختلطاً يتألف من فوجين من الليڤي الآثوري وفوج واحد من الجيش العراقي وقوة من شرطة تعززها القوة الجوية البريطانية. كما خوّل الضابط السياسي (چاپمان) الذي دخلها صلاحية متصرف (محافظ) لواء لإدارة شؤونها على أن يكون ارتباطه به لا بالحكومة العراقية.

إلاّ أن الترك قرروا في عين الوقت تحكيم قبضتهم على حكاري الجنوبية[٥] وحشدوا قوات عسكرية كبيرة في جزيرة ابن عمر (الجزيرة) وهم ثملون بخمرة نصرهم على اليونانيين وتمام طردهم الى آخر جندي لهم من آسيا الصغرى في أيلول ١٩٢٣.

هذا الإنتصار الساحق أحدث دويّاً في الرأي العام العراقي وبدرجة خاصة في ولاية الموصل،

(٤) كان النقيب جاردين R. F. Jardine معاوناً للمفتش الإداري للواء الموصل منذ العام ١٩١٩ ثم مفتشاً. وحضر كوكس لا بوصفه مندوباً سامياً بل ممثلاً لحكومة، إذ كان قد أنهى خدماته في العراق آنذاك. ومما يذكر أن بريطانيا حاولت أن يضمّ وفدها عضواً عراقياً فرفضت تركيا ذلك. وكان جعفر العسكري رئيس الوزراء قد طلب ذلك من المندوب السامي. إذ جاء في محضر جلسة ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٤ هذا: "قرر مجلس الوزراء أن يكرر الرجاء الى فخامة المعتمد السامي لإبلاغ الحكومة التركية رسمياً، طلب الحكومة العراقية إرسال مندوب عنها في لجنة تحديد الحدود لأن الأمر يخص العراق وتركيا مباشرة ولايشبه مؤتمر لوزان الذي كان دولياً" أنظر: «تاريخ الوزارات» ج١.

(٥) أنظر تفصيل ذلك في الكتاب الثاني من هذا السفر.

سيما عند أولئك الذين لم يفقدوا حنينهم الى الماضي فأسرعوا يجددون العهد عندما وصلهم نبأ تحشيد الفرق التركية على حدود خطّ (بروكسل) وكان خطّ الحدود المؤقت.

تكشف الوثائق البريطانية عن مبلغ التوتر العصبي والقلق الذي ساد الإدارة البريطانية وبلغ حداً غير مألوف في الطابع البريطاني، والذي تكشف عنه تقارير الضباط الساسيين ومعاونيهم والمفتشين الإداريين ونقلها ما كان يدور من إشاعات في أوساط العامة. ففي الموصل وكركوك بنوع خاصّ راجت إشاعات بأن الإندفاع التركي لن يقتصر على استعادة الولاية، بل الوصول الى تكريت. وفي تحديد الإشاعة ببلدة تكريت ما يشير إشارة لايخطئها النظر الى أن هذا الجزء اعتباراً من البلاد غير العربية، هو الجزء الذي لاتقطنه أغلبية عربية.

وكان (كوكس) في الأيام الأخيرة من مزاولة الوظيفة وأعلم وزارة خارجيته بأن الترك بدأوا اعتباراً من شهر تشرين الأوّل "يجنّدون ويدربون الجنود على القتال"[٦]، وأبلغ القنصل البريطاني في حلب المعتمد السامي ببرقية مؤرخة في ١٢ من كانون الأول (ديسمبر):

"إن وحدات عسكرية يقودها (علي شفيق بگ) الملقّب بـ(أوزدمير) هاجمت المعسكرات البريطانية في الحدود الشمالية، ومطار زاخو. إن السلطات التركية قامت باختزان ٧٥٠ طنّاً من القمح وضعت بالمناقصة شراء ألفي جراب لاستخدامها في تعويم الأكلاك واستخدمت عدداً كبيراً من الأهلين لتعبيد الطرق

(٦) وثائق الخارجية F.O. 9002/371. يكتب إدموندز في تقرير له موجّه الى المندوب السامي. "في ١٧ من آذار ١٩٢٢ خلعت حكومة أنقره لقب (قائمقام زاخو) على (رمزي بگ) أحد عملائها وأرسلته إلى ذلك القضاء. وبوصوله في نهاية (أيار) بدء فوراً بحملة مسعورة بين القبائل تدعمها تأكيدات عن قرب وصول نجدات عسكرية كبيرة تركية، لإنتزاع السليمانية وكركوك وأربيل من يد البريطانيين. وأرسل بعده في أواسط حزيران عقيدا يدعى (علي شفيق) ويلقب بأوزدمير. تمكن بوصفه عسكرياً مغامراً من القيام بدور رئيس في إثارة الخواطر. وكان يذيع على الأهلين إن الواجب الذي أنيط به هو استعادة ولاية الموصل كاملة بالقوة. وللعلم إن القائد التركي لجبهة الجزيرة هو اللواء عاكف بگ الألباني الذي فتك بثوار الحلّة وسبى نساءها أثناء الحرب العالمية". يذكر إدموندز كذلك أن كثيراً من الرسائل التي كان (أوزدمير) والقيادة التركية يوجهانها الى زعماء المنطقة وأعيانها تتضمن إيضاحاً مؤداه ان ولاية الموصل هي جزءٌ من تركيا ولن تكون للعراق وتدعوهم الى الجهاد. ويورد الكاتب فقرة أخيرة من رسالة مماثلة ذكر أنه يحتفظ بها: "يجب أن يعمل إخواننا في الدين وبعمومهم على تحقيق الإتحاد الذي تنشده الحكومة العثمانية (كذا)... وليتنفس المسلمون الغيارى هواء الحريّة. إن نقص العتاد عندكم وغيره من الضروريات الأخرى هو موضع اهتمامنا وسنسد حاجاتكم من كل شيء عما قريب. ألا فلينصر الله أولئك الذين يجاهدون في سبيل الدين ويسترخصون دماءهم فيها. ولعنة الله على المشركين الذين باعوا دينهم للإنگليز، وعلى فيصل وأعوانه آمين". («كرد وترك وعرب Kurds Turks and Arabs» من ترجمتنا ط. دار العروبة. بغداد ١٩٧٠ ص٢٢٤).

وبناء التحكيمات".

وذكر ضابط كركوك السياسي إنه: "في أوائل شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣، بينما كانت المحادثات تجري في (لوزان) انكشف لنا بأنّ الترك يحشدون قواهم في جزيرة ابن عمر على بعد أميال قليلة من (زاخو). وكان الأهلون سريعين في الوقوف على التحركات التهديدية، وملاحظة إعادة توزيع وحدات الجيش البريطاني التي أعقبت ذلك. وبلغ الهياج في كركوك حَدّ الهستريا، وامتقعت وجوه الموظفين المحليين المستخدمين عندنا وبان الرعب في أساريرهم... وانبثقت في عشية وضحاها لجان سريّة موالية للترك تساهم فيها معظم الأسر المتنفذة التي مثلت نفسها في هذه اللجان بواحد أو أثنين على الأقل من أعضائها الصغار"

ركزت دعوى الأتراك على الدين. تلك النقطة المركزية الحساسة التي وجدت تربتها الصالحة بواقع كون السيّد الجديد من الكفار، والشرع يقضي أن تُرفع يده عن الولايات الثلاث. وتبنى هذه المعادلة علماء السنيّة ومجتهدو الشيعة من الأوّل كما رأينا، لاسيما الأخيرون منهم. فواجبهم كما يرونه ويراه مقلّدوهم حماية الدين. وكلا الطائفتين بطبيعة الحال لاتعترفان بالقوميّة ولا شأن لهما بالاعتبارات السياسية وإرهاصاتها لأنّ الإسلام أمّة واحدة.

في العامين ١٩٢٢ و١٩٢٣ كان على البريطانيين أن يتصدوا لمواجهة هذه الدعوى على صعيد آخر شائكٍ. ففي بغداد مثلت المعاهدة التي اقترحتها سلطة الانتداب على الحكومة العراقيّة، عقبة عسيرة المرتقى، فقد باتت هدفاً للقوميين الدينيين، ولرجال الدين على السواء يصوّبون اليها سهامهم ويتخذون في مؤيديها مطعناً. فجريدة (الاستقلال) بشعارها المثبت في رأس صحيفتها الأولى (لا حياة بدون إستقلال) كانت وهي جريدة قوميّة، تنشر في الوقت نفسه فتاوى الدينيين وآرائهم أيضاً. ولم تخف حَدّة الهجوم بالإجراء الذي اتخذته لندن بجعل مدة سريان المعاهدة ٤ سنوات بدلاً من عشرين، ولا فلّت من غُراب الحلف القومي – الديني ضدّها وضد الحكومة المؤقتة التي نصبتها. في الوقت الذي اشتد ضغط لندن على فيصل وحكومته بالإسراع بالتوقيع على المعاهدة وإقرار القانون الأساس من قبل مجلس تأسيسي يتمّ انتخابه بأقرب وقت. ذلك الإنتخاب الذي أفتى المجتهدون العظام بأنه حرام على المسلمين لأنه "يميت الأمة الإسلامية. فمن انتخب بعدما علم بحرمة الإنتخاب، حرمت عليه زوجته وزيارته ولايجوز رد السلام عليه ولايدخل حَمّام المسلمين"[٧]

(٧) من فتوى السيد (أبو الحسن الأصفهاني) كان ثم أربع عشرة فتوى مماثلة صادرة من هؤلاء المجتهدين. =

كان معظم هؤلاء المجتهدين من أصل أيراني، أو هم إيرانيون مقيمون. أو عراقيون اكتسبوا جنسيتهم الإيرانية بالتجنس تخلصاً من أعباء المواطنة التركية. ولم يطل تردد حكومة (السّعدون) في اتخاذ إجراء حاسم ليتبين فجأة هو والذين خشوا سوء العاقبة، أن تلك الفتاوى لم تخلّف أيّ أثر في الناس والأتباع وعملية الإنتخاب.

بهتت الأوساط الحكوميّة العراقية والإدارة البريطانية بقدر ما شاع فيها الإرتياح لردّ الفعل الشعبي المتسّم بعدم المبالاة إثر إجراءات الإبعاد. فقد كانت الجهتان تتوقعان إثر إجراءات الإبعاد والتدابير الأمنيّة، حوادث شغبٍ واعتصاب واحتراب كبيرة في كل من بغداد والكاظمية ومدن الجنوب، أو بعد عملية "التنظيف" كما نعتتها تقارير الإستخبارات البريطانية. ولم يصدر من علماء السنية ما يشير الى موافقتهم على فتاوى مجتهدي الشيعة في المقاطعة. وسارت عمليّة الإنتخاب بالشكل الذي رسمته الحكومة في سائر أنحاء العراق بهدوء نسبي، خلا المقاطعة الجزئية في كردستان "حيث كان السبب سياسياً بحتاً". وقد يُعزى موقف السنية السلبي من فتاوى المجتهدين الشيعة الى أصول الخلاف المذهبي من بعض

= وهذه نماذج أخرى: جاء في فتوى المجتهد الأكبر محمد حسين النائيني: "بسم الله الرحمن الرحيم: صدر منا الحكم بتحريم الإنتخاب على كافة الأمة العراقية. فمن دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حادّ الله ورسوله". وجاء في فتوى الشيخ مهدي الخالصي: "لما كانت الإنتخابات مبنية على أساس مخالف لرغائب الأمة العراقية بواسطة السلطة العسكرية والحزب الحر المعتدل (حزب عبدالرحمن النقيب) الذي أسس بالقهر والقوة وسَدّ الأحزاب الموافقة لرغائب الأمة وتسويق أهلها وتشتيت جمعها وإصابة المتخلف عن الحزب الحرّ بالطيارات حتى قُتل بقنابلها الأطفال والعجزة والأبرياء والنساء وغير ذلك مما لو مات المسلم دونه أسفاً لما كان عندي ملوماً بل كان به جديراً. إن المداخلة بالإنتخابات وكلّ ما يبتنى على هذا الأساس المضرّ بمستقبل العراق بل بجميع شؤونه محرّمة شرعاً بإجماع المسلمين ونحكم بخروجه عن ربقة المسلمين وحسبنا الله وهو نعم الوكيل".
وقد نشط أتباع الخالصي في الكاظمية في تكثير هذه الفتوى وغيرها من الفتاوى وراحوا يلصقونها على الجدران وحصلت صدامات وشجار بينهم وبين الشرطة. فبادرت الحكومة الى تعديل قانون العقوبات ليجيز لها نفي المجتهدين الإيرانيين. وألقت القبض على الخالصي وولديه وطالب متحمس له يدعى (سلمان صفواني) وأبعدتهم الى الهند. وتضامن مجتهدو النجف وكربلاء والحلة معهم وأعلنوا عن اعتزامهم الهجرة من العراق احتجاجاً. ولم يصدر من الأهلين ما ينمّ عن تضامنهم عندما عزل هؤلاء المجتهدون أنفسهم في خيمة بظاهر المدينة ثم جرى تسفيرهم الى إيران دون حادث يذكر. وكان عدد الذين سفروا ثلاثين بينهم أبو الحسن الأصفهاني والنائيني وجواد الجواهري وعلي الشهرستاني وعبدالحسين الشيرازي وحسن الطباطبائي وعبدالحسين الطباطبائي ومحمد سلمان.
(وسلمان هذا، هو عين سلمان الصفواني أحد الأقطاب الأربعة الأوائل في حزب الإستقلال الذي أجيز في العام ١٩٤٦ وهو الحزب القومي الوحيد بين الأحزاب الخمسة المجازة. ورئيس تحرير جريدة اليقظة القومية – الاسلامية أيام حكم عبدالكريم قاسم).

الوجوه. ولعلهم ماكانوا يرغبون في زيادة للتقارب السياسي الحماسي الذي بدأ في ١٩١٩ و١٩٢٠، بحيث يسري إلى صميم العقيدة الدينية، وقد ألف علماء السنيّة طوال العهود التاريخية أن يكونوا المتبوعين وأصحاب القول الفصل والرأي عند الحاكم. لذلك لم يجدوا والحال هذه مسنداً شرعياً يسند هذه الفتاوى. ومهما يكن من أمر، فإن الحافز الذي دفع السنية الى هذا الموقف قد يكون عين ذلك الحافز الذي يدفع أصحاب المذهبين الى رؤية هلال العيد في يوم مختلف دائماً والى يومنا هذا.

والظاهر أن الثقة التي أودعها هؤلاء العلماء في مقلديهم وأتباع مذهبهم كانت في أفضل الأحوال مبالغاً فيها وفي أسوئها غير واقعية. إذ كانوا يعيشون في جوّ حلقاتهم التدريسية وخطبهم الدينية. وأبوا الى الأخير أن يفسحوا الى عقولهم سبيلاً للاتعاض بتجربة انتفاضة العشرين التي أوقدوا نارها، كيف أخمدتها القوة المجردة والمال والإغراء بالمناصب، كيف حولت هذه الأقاليم الثلاثة ومصدرها الكفّار كثيراً من أتباعهم عنهم وسحقت ثورتهم[٨].

وعن هؤلاء المبعدين الذين وصلوا كرمانشاه كتب القنصل البريطاني في كرمانشاه للسر پرسي كوكس:

> إن هؤلاء "يذكرون للناس هنا. بأنهم لن يعودوا الى العراق إلاّ بشروط في مقدمتها عزل الملك فيصل وإقالة الحكومة ومعاقبة كلّ من تسبب وقام وأمر بنفيهم"[٩]

كان القنصل البريطاني هناك بعيداً عن الجوّ الذي ساد العراق، واقعاً تحت تأثير المظاهرات والضجة التي أحدثها هؤلاء في تلك المدينة الإيرانية وأوساطها السياسية، معتقداً بسذاجةٍ أن ما حدث في منطقته هو عين ما يحدث في العراق.

ما حدث فعلاً كان خلاف ذلك تماماً. فمنذ زيارة (فيصل) لمنطقة الفرات الأوسط في شهر حزيران، بدا وكأن الجميع لايعيرون اهتماماً بما اتخذته الحكومة من إجراءات بحق مجتهديهم.

(٨) قدح فيهم (سلمان الشيخ داود) المحامي في جريدة (العراق) بسلسلة من المقالات منها مقالة بعنوان (العقلية البسيطة) نشرت في عدد (٥) تموز ١٩٢٣: "إن هؤلاء يعملون في السياسة دون أن يكون لديهم أي إلمام بالعلوم العصرية التي هي ضرورية لكلّ من يعمل في السياسة. فهم لايعرفون تاريخ الشعوب ونفسيتها، بل لايعرفون حتى حدود بلادهم ولايعرفون من تاريخ قومهم إلا صفحة مليئة بالخزعبلات والخرافات".
(٩) وثائق الخارجية F. O. 9047-371 وأنظر أيضاً: أ.د. مكدونالد A.D.Mcdonald منفى الفرات Euphartes Exile لندن ١٩٣٦. ص٦١.

وقد سبقت هذه الزيارة مثيلة لها قام بها فيصل للموصل وجرت له خلالها اجتماعات بأعيان المدينة ودعي لمقابلته شيوخ عشائر كردية من خارجها. وقد مكث فيها أسبوعاً. وخطب في اجتماع نظمتهُ البلدية مؤكداً بأنّ الولاية:

"أصبحت جزءً لايتجزء من العراق وإنها قطعت كلّ أسبابها بالترك. وعليكم أن تحاربوا الدعاية التركية المضلّة. من المؤسف حقاً أن يطالب إخواننا الأتراك بولاية لاتمتّ اليهم بصلةٍ أو أكثريةٍ . وأهلها عرب"

وفي اجتماعات المجلس التأسيسي العراقي أثيرت مسألة مصير الولاية. وكان ثم معارضة شديدة في المصادقة على المعاهدة قبل البتّ في عائديتها. وفي الشارع البغدادي كانت الضجة هذه المرّة من عمل الوطنيين – القوميين الشبان ورجال السياسية الجدد خلفهم يعضدونهم وهم معارضو الحكومة المنافسين.

أفسح المسجدُ للشارع السَّبيل. والمقالات والجرائد حَلّت محلّ الفتاوى والخطب الدينية وشهدت العاصمة صيفاً عصيباً تسود جوّه أعاصير وزوابع. فالمناقشات حول المعاهدة امتدت حتى ايّار تبودلت خلالها تهم وكلام جارحٌ وتعرّضٌ بالشخصيات. وفي هذا الجوّ الذي كهربته الاجتماعات السرية والمظاهرات بكشفها عن عداء الطبقة القومية الوطنية الجديدة للسلطة البريطانية، أعلنت الحكومة البريطانية إن الإمتناع عن المصادقة على المعاهدة في موعدٍ نهايته العاشر من حزيران ١٩٢٤ سيحملها على اتخاذ خطوات معينة لتطبيق القرارات المتعلقة بالعراق، تلك التي اتخذتها الهيئة العامة لعصبة الأمم. وفي اللحظة الأخيرة اقتنع (٦٩) عضواً من أصل (١٠٠) عضو بحضور آخر جلسة. وقبل متنصف الليل، أي ببضع دقائق عن انتهاء الأجل الذي ضربه إنذار المندوب السامي، صودق على المعاهدة بأغلبية ٣٩ صوتاً ضد (٢٤)، وامتناع ثمانية عن التصويت. ولم يستجب نواب ولاية الموصل (ألوية السليمانية وكركوك وأربيل ونواب أقضية لواء الموصل الكردية) لكل عوامل التهديد والوعيد وهذه كانت أكثرية نصف أغلبيّة الأصوات التسعة والثلاثين التي أقرت المعاهدة. إلاّ أنّ مصادقتهم تضمنت تحفظاً هو أنها ستكون باطلة إن لم تقم الحكومة البريطانية بحماية حقوق العراق في جميع ولاية الموصل.

***

في خريف العام ١٩٢٤، وبعدما تمّ طرد (رمزي بگ) من رواندوز وهو عين (رمزي) الذي أرسله الترك قائمقاماً لزاخو. وعندما أنجزت قوات الليڤي الآشوري والطائرات الحربيّة

البريطانية عملية القذف بآخر جندي تركي وراء خطّ (بروكسل). وقيام الميليشيا الآشورية بقيادة زعمائهم من جهة الغرب بصد الهجوم التركي ورد قواته على أعقابها، خيم هدوء نسبي في المنطقة. عندها بدأ مجلس العصبة ينظر في النزاع على الولاية وبعد تدقيق الإحتجاجات التي قدمها الطرفان حول العمليات العسكرية التي ابتدرها كلّ منهما عينت العصبة في أيلول ١٩٢٤ لجنة خاصة Commission ad hoc تتألف من كلّ من برانتنگ، وكينون دي ليون وكوانتي، عقدت اجتماعها في بروكسل. وبناء على توصية هذه الهيئة قررّ مجلس العصبة تعيين لجنة لتقصي الحقائق موقعياً. وإليك نص التوصية:

"(بعد المقدمّة)... كان الفريقان قد تعهدا سابقاً بقبول أي قرار يصدره المجلس في المسألة المعروضة عليه. وأن يمتنعا في الوقت نفسه عن مباشرة أيّ عمل عسكري من شأنه إحداث تغيير في الوضع الراهن Status quo لذلك قررت تعيين لجنة خاصّة لدراسة المسألة موقعياً وتقديم توصياتها – لمساعدة مجلس العصبة في التوصل الى حَلّ... إن التعهدات المقدمّة بخصوص الأعمال العسكرية أحيت المشاكل المألوفة وأثارت من جديد الخلاف حول أي وضع راهن ينبغي أن يحافظ عليه؟ أهو وضع ٢٤ تموز ١٩٢٤ كما طلبت بريطانيا أم هو وضع ٣٠ أيلول كما طلبت تركيا؟ ثم هل ان قيام أحد طرفي النزاع بإعادة احتلال رواندوز والسليمانية وقيام الطرف الآخر باحتلال حكاري وطرد سكانها (الآشوريين) ينطويان على أيّ تغيير ليس في مصلحة الآخر، أم هو مجرد عمل پوليسي داخلي؟"

بالتالي قررت اللجنة وأيدتها العصبة بوجوب قيام الحكومتين بسحب قواتهما وجعل الخط الذي سمي بخط بروكسل خطّ فصل بينهما وهو خط يطابق تقريباً حدود ولايتي حكاري والموصل الإدارية(١٠) يمتد على مجاري الأنهار بدلاً من متابعته قمم الجبال.

هذا القرار مهّد السبيل في ١٦ من شهر كانون الثاني ١٩٢٥ لتأليف لجنة التحقيق التي عرفت فيما بعد بلجنة الموصل من أعضاء ثلاثة هم (آف ڤيرسين والكونت تيليكي و أ. پاولس) ومقررين إثنين (هما رودولو وپورتاليه)[١١] و(كرامرز) الذي التحق بالوفد بوصفه

(١٠) نسب الى (بروكسل) لأن اللجنة التي قررته كان اجتماعها في العاصمة البلجيكية.

(١١) آف ڤيرسين (1875-1946) O.E. Thre Af Wirsen عسكري سويدي ثم دبلوماسي. عُين في سفارات عديدة وكان سفيراً لبلاده في رومانيا عندما انتدب للجنة. وسفير بلاده في برلين (١٩٣٧–١٩٤٠). كتب ذكرياته عن الحرب العالمية الأولى في ١٩٤٢ (ذكريات من السلم والحرب Minnen Fran Fred och Krig). انتخبه زملاؤه رئيساً للجنتهم لأنه يمثل بلاداً بقيت على الحياد طوال مدة الحرب ولم يكن ينتظر =

مترجماً أوّلاً. لكنه تبيّن فيما بعد إنه أغنى تقرير اللجنة بمعلوماته التأريخية والجغرافية والأثنية. تلك المعلومات التي جعلت ذلك التقرير عملاً فكريّاً فذاً فريداً من نوعه بين التقارير الدوليّة التي سبقته ولحقته[١٢].

وأرسلت الحكومة التركية مع اللجنة وفدها برئاسة الفريق (جواد پاشا) مراقباً ومستشاراً وعضوية ضباط عثمانيين ثلاثة، إثنان منهم عراقيان[١٣]. واختارت دار المندوب السامي

= منه (على رأي إدموندز) اهتمام بتمحيص المسألة التي انتدب إليها أكثر من محاولته لإيجاد حلول توفيقية. ويظهر من مذكراته إنه كان وثيق الصلة بالأتراك والألمان أثناء خدماته في الملحقيات العسكرية. أما الكونت تيليكي C. Paul Teleky فقد بدا بخلافه تماماً لايرضى بغير الحلول الباتة. ففي بلاده المجر كان واحداً من قادة الحركة الوطنية المعادية لثورة ١٩١٩ البلشفية، تلك الحركة التي نجحت في الإطاحة بحكومة (بيلاكون Bela Koon) الشيوعية كان رئيس الحكومة في بلاده خلال ١٩٢٠–١٩٢١. وتولى رئاستها ثانية في العام ١٩٣٩. وفي نيسان ١٩٤١ أطلق النار على نفسه مفضلاً الموت على الخضوع لأمر (هتلر) في استخدام الجيش الألماني أرض بلاده. كان اهتمامه الأساس بمشكلة الموصل منصباً على الطبيعة الجغرافية والتكوين القومي. أما (پاولس A. Paulis) فهو ضابط بلجيكي برتبة عقيد خدم طويلاً في الكونغو البلجيكية وهو رجل عاطفي المزاج ذو خبرة كبيرة في شؤون التجارة والإقتصاد اكتسبها من إقامته في تلك المستعمرة. وقد انصبّ اهتمامه بنوع خاص على الشؤون الإقتصادية. وورولو Roddolo هو من السلك الدبلوماسي الإيطالي بدرجة وزير مفوض. وپورتاليه H. de Pourtale هو سليل فرع من أسرة سويسرية نبيلة يتحدث بالإنكليزية بطلاقة مثل تيلكي كما يقول (إدموندز) إلاّ أن ڤيرسين كان يحسن الألمانية وحسب وهو قليل الإلمام بالإنكليزية، لكنه كان يفهم ويتكلم الفرنسية. (إعتمدنا في هذا على انطباعات إدموندز).

(١٢) كرامرز (J. H. Kramers 1891-1951) بدأ مترجماً للسفارة الهولندية في أستنبول. ولإتقانه التركية والفارسية وإلمامه الجيد بالعربية انتدب خبيراً للجنة. عاش حياة علميّة خالصة. وعين في ١٩٣٩ أستاذاً في جامعة أمستردام ونشر معظم كتب الجغرافيين العرب الأوائل. من أهم آثاره ترجمته الهولندية للقرآن ١٩٥٦ و(الإسلام والديمقراطية) ١٩٤٥، وكتاب «فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين» ١٩٤٤. كتبتُ عنه المامه ذاك في تعريف قصير في بحث (الجغرافية) وهو فصل من كتاب «تراث الإسلام» الذي نقلته بإضافات الى العربية في ١٩٥٣. (أنظر ص١٢٥ من الطبعة الرابعة له: بيروت دار الطليعة ١٩٧٨) (راجع كتابنا: يقظة الكرد، ط. أربيل ٢٠٠٢).

(١٣) كان جواد پاشا آنذاك مفتش الجيش العام لجبهة الجزيرة، والقائد العام المرشح لها في حال بدء العمليات العسكرية. وهو أحد القوميين الترك الذين اعتقلتهم لجنة الحلفاء العليا في أستنبول العام ١٩٢٠ وابعدته الى مالطا ثم سُمح له بالعودة بعد سنة واحدة. والرائد (كامل بگ) تركيٌ لم يسبق له العمل في العراق ولم يكتم أعضاء اللجنة إعجابهم بكياسته وروح الإستقامة فيه بعكس العضوين الآخرين. فالنقيب (ناظم بگ نفطجي زاده) هو من الأسر التركية الثريّة في كركوك. كان في العام ١٩٢٣ قد خرج من بلده والتحق بالجيش التركي. وهو الضابط السياسي للرتل الذي دخل الأراضي العراقية الى (چال) لطرد الآشوريين الثمانية آلاف الذين عادوا الى الاستقرار آنذاك على جانبي الطريق الممتدة بين جوله ميرك وچال كما تقدم ذكره. عرف بنشاطه المعادي لقطعات الإحتلال وقاد حملة الإستفتاء برفض ملكية فيصل في ١٩١٩ و١٩٢١. تذكر الوثائق البريطانية إن سبب موقفه العدائي من سلطات الإحتلال متأت من رغبة ساورته في تولي متصرفية لواء كركوك ورفض الإدارة البريطانية ترشيحه بدل ذلك لتولي متصرفية لواء =

النقيب (جاردين) مراقباً بريطانياً وهو الذي رافق (كوكس) في مفاوضات أستنبول كما تقدّم. وإلى جانبه الضابط العثماني السابق والكرديّ العراقي (صبيح نشأت) الذي كان يحسن الفرنسية الى حدٍ ما.

كان المندوب السامي يشك في مقدرة (جاردين) ومساعده (صبيح)، فهو على ما وصفه قليل خبرةٍ في التعامل مع لجان دولية، إلاّ انه كان قد أعدّ دراسة موقعيّة للمسألة . كما أنه قُدم للعصبة بوصفه المراقب البريطاني، لذلك طلب خدمات (إدموندز) المفتش الإداري للوائي كركوك والسليمانية، الأكثر خبرة والذي يتقن الفرنسية والألمانية والإيطالية فضلاً عن الفارسية والكردية وبإلمام كاف بالعربيّة. وقد فاق نظراءه الضباط السياسيين بطول الخدمة في مناطق الولاية الكردية. فأُلحق بالفريق البريطاني وباللجنة بوظيفة ضابط ارتباط. وبفضل هذا التعيين، حظينا بفصلين عن قضية الموصل في كتاب عظيم الخطر ألّفه هذا الموظف البريطاني بعنوان (كرد وترك وعرب)، تتبع الكاتب خلالهما مراحل عمل اللجنة خطوة بخطوة وسجّل دقائق ووقائع كانت ستضيع – وفيها من المتعة قدر ما فيها من الفائدة التاريخية. قال:

"بهذه الطريقة (طريقة إلحاقه باللجنة) كان بوسعي دائماً أن أبحث مع (جاردين وصبيح) المشاكل التي تعرض لنا. ولما كانت صلات ضابط الإرتباط ستشمل كلّ أعضاء اللجنة فضلاً عن المراقبين الترك، فتغدو ذات طابع رسمي، ولما ستكون معالجتي لأيّ مشكلة أو مواجهتي لأيّ عقبة ذات طابع منفردٍ لا علاقة له بمعالجة المراقب (جاردين) وخبرائه المخولين حق الدفاع المباشر عن مصالح البلاد التي يمثلونها، فسأجد في نفسي القدرة على الإدلاء بإيضاحات خفيفة ليّنة الجانب مضادّة لما قد تساق إليه اللجنة خلال نهوضها بأعباء مهمتها الدقيقة. لم يساور أحد منّا أقلّ شكٍ في اننا نخوض معركة حياةٍ أو موت بالنسبة الى العراق. وبيقين لايعتوره تردد بأن ولايتي بغداد والبصرة دون ولاية الموصل لايمكن أن تبنى منهما دولة معقولة (!) لأسباب إقتصادية وستراتيجية ومع ان الصحافة العالميّة كانت تصوّر هذه المعركة بمثابة جزءٍ من الحرب الهائلة المستعرة للسيطرة على النفط، فمن

= الحلة. كان من أبرز العاملين في حرب الدعاية التي سبقت قدوم اللجنة، فصدر عليه امر بالقبض فهرب. اعترض المندوب السامي على وجوده قائلاً انه أفاد من قدوم اللجنة ليعود الى العراق متمتعاً بالحصانة الدبلوماسية. فرفض اعتراضه. أما (فتاح بگ) فهو الآخر ضابط عثماني، كردي من أهالي السليمانية وهو شقيق زوج الشيخ محمود. كان الكماليون قد اختاروه عضواً كردياً في مجلسهم الوطني الكبير نائباً عن ولاية الموصل.

المهم أن نعود الى الوراء لنذكر كيف كان اسم النفط قليل الظهور في كل حساباتنا السياسية – على مستوى عمليّ على الأقل– فأنا لا أذكر وثيقة واحدة جاء فيها تنويه بالنفط كعامل بارز يرتفع الى مركز الصدارة في ميدان التجارة العام، مما يجعل الولايات التركية الثلاث السابقة، وحدة إقتصادية متكاملة لاتقبل التجزئة"(١٤)

مع أن إدموندز وغيره من رجال الإدارة البريطانية في العراق كانوا على علم مسبق بتصميم لندن على الإحتفاظ بالموصل مهما كلّف الأمر. ألا أنهم كانوا يدرون بأن أي قرار غامض للجنة، أو من شأنه إثبات أحقية المطلب التركي في كلّ الولاية أو في جزء فيها سيثير (للوايت هول) مشكلة في غاية الخطورة في عالم الدبلوماسية الدولية منها، وربمّا أقلها شأناً ضعضعة مركزها الممتاز المهيمن في عصبة الأمم(١٥).

الى جانب هذا كانت لندن تريد إكساء صبغة الشرعية على عملية فتح عسكري غير صحيحة بالنظر الى قواعد لعبة الأعراف الدولية والقانون الدولي – الى جانب اتفاقها مع مشاعر الأغلبية الكردية بعد القضاء على آمالها في دولة مستقلّة. وكسب القوميين العرب الذين بدأوا يناصبون حكمها العداء باسم الوطنية.

وكانت هناك فضلاً عن هذا قضية "هامشية صغيرة" في حساب البريطانيين – هي مصير ومستقبل ذلك الشعب الصغير المعروف بالآشوريين المسيحيين – الذي جرده انحيازه الى جانب

(١٤) في ١٩٧٠ نشأت بين كاتب هذه السطور وبين إدموندز (١٨٨٩–١٩٧٥) علاقة شخصية إثر نقلي الى العربية كتابه (كرد وترك وعرب: سياسة ورحلات وبحوث عن الشمال الشرقي من العراق ١٩١٩–١٩٢٥. ط بغداد ١٩٧٠). وأذكر بالمناسبة إنه كان كثير التشوق لرؤية الترجمة بحيث إنه استعجل بإرسال الأستاذ عبدالرزاق الحسني صديق الطرفين صاحب (تاريخ الوزارات العراقية) الشهير، وقد زارني والكتاب مجرد أوراق لم يجر تجليدها وحزمها. وأصر على أن يجرني من مكتبي الى المطبعة زاعما أن (إدموندز) أنذره بأنه لن يستقبله في لندن إلاّ وفي يده الترجمة. فتم تجليد نسختين منه ووصل مؤلفه نسختين منه قبل توزيعه بمدة. تخرج إدموندز في كمبردج وعيّن مترجماً في قنصلية ساحل المتوسط الشرقي في العام ١٩١٠، ثم الحق بحملة البصرة في ١٩١٥ ضابطاً سياسياً وأرسل بعين المهمة الى كردستان في ١٩٢١ والى جنوب كردستان ضابطاً سياسياً لكركوك وفي مهمة خاصة (موجهة ضد خطر حركة الشيخ محمود) في ١٩٢٢. وبفضل نجاحه أعيرت خدماته للجنة الموصل وبعدها عيّن معاوناً للمستشار (كورونواليس) في وزارة الداخلية ١٩٢٦، ثم مستشاراً فيها طوال عشر سنوات (١٩٣٥–١٩٤٥) غادر العراق بعدها وقد منح وسام الرافدين تقديراً. وفي العام ١٩٤٨ عينته وزارة الخارجية البريطانية مستشاراً برتبة وزير. وأحيل الى التقاعد في العام ١٩٥١. كتب أبحاثاً عربية وفارسية وكردية. وله بمشاركة الأستاذ توفيق وهبي معجم إنكليزي – كردي.

(١٥) كان (السر أريك دوروموند) وهو إنكليزي، السكرتير العام لمجلس العصبة وقتذاك.

الحلفاء من وطنه، فضلاً عن الوضع القانوني للأقليات المسيحية واليهودية في الولاية وفي سائر العراق.

الى جانب معارضة المعاهدة والدفاع عن حق العراق الجديد في استقلال تام، كانت هذه المعركة السياسية مع محتلّ جديد عاملاً من عوامل إيقاظ مشاعر قوميّة حادة عند فريق من القوميين المتعلمين وبعض رجال الصحافة والفكر والأدب. قدر ما كان لها من أثر في تطوير الوعي القومي الكردي، رغم إنه لم يكن بين الطرفين نقاط لقاء أو تفاهم. وكذلك بقدر ما أشعر الأقليّة المسيحية وربما اليهودية بالهوية القومية وبشخصيةٍ اجتماعية أُنكرت عليهم عبر قرون عديدة. لم يحاول القوميون العرب إحداث صلة مصيرية في أثناء هذه المعركة السياسية مع أي طرف من هذه الأطراف. وبدا كفاحهم وكأنه في سبيل مصير وطن يخصّهم وحدهم. إلاّ أن هاتين الأقليتين شعرتا بشكل ما بأنهما باتتا موضع ثقل سياسيّ واهتمام دولي، إذ طلب منهما عن طريق أعيانهما وسُراتهما – رأيهم ولأوّل مرة في التاريخ فيمن يفضلان من الحكام.

كانت خطوة ظاهرة متينة تلك التي قطعها الوعي القومي العربي في مسرى هاتين المعركتين، وهي خطوة أيدها الدفاع عن مصالح الوطن الجديد وكيانه السياسي بدت في أول أمرها تتجه اتجاهاً صحيحاً بظهور تعبير "الشعب العراقي" في الصحف وفي كتابات الأدباء، وشعر الشعراء، وسادت كلمة الوطنية والوطنيين بدلاً من قومية وقوميين في أوساط المعلمين وطلاب المدارس الثانوية والمعاهد المتقدمة المهنية في بغداد، وهؤلاء بطبيعة الحال نسبة ضئيلة جداً من مجموع السكان العام الذي لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين بأيّ حالٍ.

نمت الحركة الوطنية وتركز نشاطها بصورة خاصة في كلية الحقوق ومعهد إعداد المعلمين للمدارس الأبتدائية وهذا تمّ بفضل استيراد أعداد غير قليلة من المدرسات والمدرسين السوريين واللبنانيين ومعظمهم خريجو الجامعة الأمريكية ببيروت لسد حاجة المدارس الثانوية الخمس في سائر العراق. ومهما يكن من أمر فقد كان القلق والتوجس العظيمان يسودان الأوساط السياسية والوطنية عند قدوم اللجنة. ولا أدلّ على ذلك من تلك الرسالة العاطفية التي وجهها (فيصل إليها عند وطئه تربة العاصمة وهي رسالة طويلة أجتزيء منها هذا: [لاحظ استخدامه تعبير الشعب فيها]

"... ونحن نحترم الشعب التركي ونتمنى له كلّ الخير. على أننا نريد أن نعيش بسلام وأمان لنؤدي قسطاً من الخدمة في سبيل التقدم البشري كافّة، باستغلالنا مواردنا وتطويرها. ولبلوغ هذه الغاية ينبغي أن تبقى بلادنا موحّدة غير منقوصة

ويجب أن نتمتع بحدود تضمن لنا السلامة والأمن من كلّ اعتداء وان هذا بالنسبة إلينا مسألة حياة أو موت... إن إقامة وتوطيد دعائم حكومة مستقرّة في العراق مرهونان بالمحافظة على الوضع الراهن، فأنا أرى من المستحيل عسكرياً وإقتصادياً أن تعيش في (بغداد) حكومة فُصلت (الموصل) عنها وأعطيت الى حكومة أخرى، فدون الموصل لايمكن أن يؤمل **الشعب العراقي** حياة حقّة، لا بل أن عقيدتي وطول خبرتي في عقلية الشعب التركي وهي حالة روحية متأصلة، ولمعرفتي التاريخية بشهوة الفتوح والغزو المتأصلة فيهم. ولعدم تثبيت خطّ حدود آخر يضمن سلامة كيان بلادي، كلّ ذلك يجعلني أرى من المستحيل الوصول الى حالة استقرار داخلي حتى في الأوقات الإعتيادية، إلا بإنشاء قوة عسكرية دائمية، تكوينها ليس بمقدور عراق مقطع الأوصال، لا في الوقت الحاضر ولا في المستقبل. كما إني أستبعد أن يُحاول استثمار رأس مال أجنبي في العراق عندما يرى الرأسماليون الأجانب البلد معرضاً دوماً للأخطار والفوضى والغزو. ولذلك فأنا أعتبر الموصل للعراق بمنزلة الرّأس من بقية الجسد. وإعتقادي الجازم إن القضية. وإن كانت قضية تثبيت حدود بين العراق وتركيا أصلاً، فهي في الواقع وعلى كلّ حال قضية مستقبل العراق ككلّ. إن سعادة وشقاء أربعة ملايين من البشر هي وديعة في أيدي أعضاء لجنتكم الكريمة، فإن رأت لأيّ سبب كان إيصاء عصبة الأمم بأي تغيير أو تعديل لحدود العراق، فعليها في الوقت نفسه إيصاء العصبة باختيار وضع سياسيّ جديد لهذا البلد بكامله. وعليها ستقع مسؤولية مصير هذه المجموعة الكبيرة من البشر" آه

★★★

كان الجانب التركي في أثناء المداولات التمهيدية في مجلس العصبة، وقبل الإعلان عن تأليف اللجنة يصرّ على القيام باستفتاء عام لسكان الولاية . وهو طلبٌ منطقي عادل وقانوني طالما لجأ اليه المختصمون في أحوال مماثلة. إلاّ إنه كان في حقيقة أمره جزءً من مؤامرة مقصودة على مستقبل قوميات وطوائف متعددة.

للترك في هذا الأقليم بصورة خاصّة – إحترامٌ ومهابة ومنزلة. هم أهل "الدولة العليّة" مقرّ الخلافة، الذين حكموا البلاد أربعة قرون، دولة مازال لها مكانتها السامية في القلوب. وقد زاد فيها النجاح المذهل الذي حققه بطلها المغوار (مصطفى كمال پاشا) بانتصاره الساحق

على الغزاة الكفرة. المناشير الدعائية كانت تتسرب ويجري تكثيرها خفية في تلك الفترة. فيتبادلها قراء العربية والكردية والتركية ويطلقون عنها الإشاعات. وكُلها يتوعد بإنزال العقاب الصارم بالخونة السارقين. مواد دعائية صارخة متواصلة وضعت رجل الشارع في حالة من الوجل والأمل والفزع والترقب وانتهت بنوع من البلادة الفكريةً والسلبية السياسية وعمقت الشعور الفردي بأن الأهلين لن يكونوا طرفاً فعّالاً في هذا النزاع.

وقد أرغمت أنا نفسي على الوصول الى هذه النتيجة من خلال استطلاعي الشخصي. فقد أدركت كثيرين من الأحياء الذين عاشوا تلك الفترة واحتثثت ذكرياتهم وانطباعاتهم عن عمل اللجنة ولم أقتصر في استطلاعي على طائفة أو فريق، بل شملت دائرة واسعة ابتداءً من رجل الشارع البسيط وانتهاءً بالموظف المحلي، وبينهما عدد من الوطنيين الذين ساهموا في المجهود الحكومي فضلاً عن رجال من الأسر الأرستقراطيّة. وقد أسلمتني النتيجة التي توصلتُ اليها – الى خيبةٍ ما كنت أتوقعها لأنها تناقض تماماً كلّ ما قرأت في الأربعينات والخمسينات حولها. والظاهر أن أولئك الكتاب الذين صوروا حماسة الموصليين في ضمّ الولاية الى الوطن الجديد، كانوا متأثرين بالضجيج الحكومي والوطني في بغداد.

بعد مرور حوالي عشرين عاماً ولهجة الصدق تحسستُها فيما ظفرت به من إجابات وردود فعل. وجدتُ نفسي مرغماً على الإستنتاج بأن الموصليين عامّة كانوا يخفون أحاسيسهم الخاصّة في أعماق أنفسهم لتبدو بشكل من أشكال السلبية والبلادة السياسية أزاء حادث مصيريّ. مثلما توصل اليه ضابط الإستخبارات البريطاني الذي اتخذ لوصفهُ الجوّ آنذاك – كلمة passivness...

ومع هذا فمن القليل الذي ساهم ظاهراً في تلك المعركة ميّزتُ فرقاءَ ثلاثة: أولئك السراة والأعيان الذين انتفعوا بالعهد التركي ولقوا الرعاية من حكامه يلحق بهم عدد من علماء الدين الذين لم ينجح المحتلّ الجديد في شراء ولائهم(١٦).

(١٦) من بين الروايات التي كان يتداولها الموصليون في هذا الباب، ما روي عن (الحاج أحمد أفندي الجوادي) وهو من مقدمي رجال الدين، المدرس والخطيب لجامع السراجخانة، إنه كان خارجاً من دار حكومة الإنتداب حين التقى وجهاً لوجه بالعالم الديني (صالح أفندي البربر) أو ربما كان غيره، فراح هذا يعاتب (الجوادي) على موالاته وصلته بالإنگليز. فما كان من الجوادي وقد اشتهر بالفكاهة والذكاء وحضور البديهة. إنه ضرب بيده على جيب جبته الخفي وقال: "صالح أفندي! هاهنا روپيات!" (الروپية هي العملة الهندية التي حلت مَحّل العملة العثمانية) وقد عرفت الإثنين معرفة شخصية وأنا تلميذ ومحام. وقدرت في أولهما ملكاته العقلية وأكبرت في الثاني فضائله وتقواه.

لم يكن الأتراك بحاجة الى جهد كبير لتبعث فيهم حنينهم الى العثمانية. والفريق الثاني وهم الوطنيون أو العروبيون، الذين جاهروا منذ إعلان الإنتداب على العراق، الإدارةَ البريطانيةَ بالعداء وطالبوا بالإستقلال. ولم يكونوا على كلّ حال بدرجة من النضوج السياسيّ ليقرروا عن قناعة بأن الإنتداب مهما ثقلت وطأته فهو أفضل من الحكم التركي المباشر. إلاّ أنهم كانوا في سِرّهم على إدراك بان السيد الجديد خلال فترة إحتلالهم القصيرة كان أرحم بهم وأبرَّ بما لايقاس من حاكمهم القديم. فقد أنقذهم وأنقذ عوائلهم من غائلة المجاعة بإغراقه السوق بالمواد الغذائية فأشبع البطون وقضى على المجاعة بأسابيع قلائل، في حين لم يتحرك العثمانيون قيد أنملة طوال سنة المجاعة ليتصدقوا بكيلةٍ من الدقيق عليهم. مع هذا فهذا المحتل الجديد يريد أن يضمّ قضيته الى قضيتهم ويحاول إبقاء الولاية لوطنهم الجديد والمنطق الوحيد هو أن يدعموا جهوده ولو مؤقتاً لإتحاد الهدف.

ويشارك الشعور الخفي لهذا الفريق، الفريق الثالث وهو الأغلبية الساحقة فضلاً عن نداء البطون التي امتلأت بعد خواء. هناك أمور أخرى نعمت المدينة بها طوال السنين السِّت من الاحتلال الجديد. لم يكن هناك تجنيد ولا قرعة عسكرية ولا سوق الى جبهات قتال بعيدة ولا سخرة، والضرائب لم تعد ثقيلة ولا كيفيّة. والسيد الجديد سريع النسيان والعفو عن القائمين عليه خفيف العقاب لايبالي كثيراً بمنتقديه ولايحرّك سوطه إلاّ عندما يتعدى الإنتقاد والتظاهر في الشارع الحدّ المرسوم ليبدو تحريضاً على الثورة، أو لينتقل الى أعمال عنف تهدد الأرواح والأموال، إلاّ أنه شديدٌ على قطاع الطرق واللصوص والقتلة وأيضاً على أولئك الذين يتغوطون أو يرمون القاذورات في الشوارع والمحلاّت العامة!

لكن مجيء لجنة أجنبيّة للتحقيق في مسألة تتعلق بمصيرهم، يصحبها وفد تركي مؤلف من ضباط؟ إنها مسألة محيّرة. كان يشق على رجل الشارع الموصلي بعقليته الأميّة الساذجة الخالية من التعقيد أن يفهم مجيء مجموعة من "الحكام أو المحكمين لايدين أفرادها بالطاعة للبريطانيين ولا لأحدٍ، تعتبر نفسها فوق القومية والدين وتعمل بمعزل عنهما. هذه المجموعة تأتي من بلاد بعيدة لتسألهم هل هم راضون عن حكامهم الجدد، الذين ربّما ضايقوهم في تحصيل الضريبة أو أنزلوا عقاباً بهم عن جريمة أو لمجرد رغبةٍ تساورها في استبدال حكم بآخر؟".

ليس هناك ما يعين على هدم السلطة وإشاعة البلبلة الفكرية مثل الجهل والأمية والخوف من المستقبل. عندما تكون نسبة المتعلمين إثنين بالمائة في هذا الحشد من السكان المشتت عنصرياً

وقومياً وطائفياً واجتماعياً ذلك الشتيت الذي يضم في حناياه تراثا بشعا من الأحقاد والضغائن والإحتقار والتعصب الديني والإذلال والحسد[١٧] فكيف تراك تؤمل منه رأيا عاما حقيقياً مهما بلغت من الحياد والدقة في إجراءات إستطلاعه.

وعلى صعيد الأقليم كلّه كان هناك وضع آخر مختلف تمام إختلاف عن أهل المدينة. أولئك القبائليون في الجبال وفي السهول الجنوبيّة والغربية، الذين خرجوا لتوّهم من القرون الوسيطة ومازال بعضهم يعيش حالة البداوة بكل غلاظتها في مجموعات لاتتعفف عن استلاب جيرانها إن ضاق بها العيش. وبأفراد همهم الأكبر اقتناء بندقية قبل أن يفكروا باقتناء زوجة[١٨].

وبصرف النظر عن العشائر العربية، فقد كانت المفاجأة الكبرى تنتظر اللجنة من قبائل الغرب وحضريّيه الكرد كما سيرد بعد قليل. ولمعرفة الترك بهذا الواقع، فقد وزنت حكومتهم الى اللجنة وزناً دقيقاً، وليكون وقعها شديداً على أعضائها الذين ينتمون الى دول قومية صغيرة. جاء في ختام المذكرة:

"لأول مرة منذ تأسيس عصبة الأمم يعرض أمام مجلسها نزاع ذو أهمية عظيمة، نشأ بين دولةٍ غربية كبرى وبين دولة من دول الشرق الأوسط، نزاع يتعلق بحق تقرير المصير لشعب شرقيّ. إن مشاعر الثقة المتبادلة، ومظاهر حسن النيّة بين

(١٧) مما رواه لي الوالد عن جدي – ولم يؤثر عنه كذبة أو مبالغة في أي شأن – ما يصلح مثلاً للصورة المتقدمة. وجدّي هذا بشهادة من أخذ عنه الفنّ والصنعة من تلاميذه ومن آثار معمارية خلّفها ومازالت شاخصة في المدينة وغيره – كان فريد وحده من معماريي المدينة ونحاتيها يتهافت الأهلون على التعاقد معه. رغم هذا كان يغشاه خوف متأصل من طرقة الباب. فيبادر فوراً الى القبو (السرداب) ليحشر نفسه في (كوارة) من الكور التي تستخدم لخزن المؤونة الشتوية من قمح. وهي جرَة ضخمة شبيهة بسايلو – ويحكم غطاؤها حتى يؤكد له من في الدار إن القادم ليس تحصيلدار (محصل ضرائب) أو رجلاً من الجندرمة. أو متنفذاً أو موظفاً يسخره لعمل. وفي الموصل جرت العادة عند المسيحيين أن (يدشنوا) ثياباً جديدة عند حلول العيد. إلاّ أنهم اتقاء الحسد وما يتوقع بسببه من اعتداء كانوا عادة "يخيطون في أنحاء ظاهرة من الثوب رقعاً وخرقاً بالية ليبدو قديماً". واتفق أن انطلق الجدّ في زيارة قريب له بمناسبة العيد وهو مرتد الزبون الجديد المرقع وكان عليه أن يمر بسوق الميدان القريب من دار البلدية، وفي أثناء مروره لحظه دكاني كان يفرغ أجربة من السمن الحيواني وعسل العنب، فصاح بالجد يطلب الإقتراب منه وما أن حاذاه حتى بادر الدكاني فأمسك بطرفي زبونه وراح يمسح يديه وزنديه الملطخين وهو يمدح ساخراً نفاسة القماش الذي خيط منه الثوب، مفاخراً بأن الرقع المزروعة فيه لم تخدعه. ولم ينطق الجدّ طبعاً بحرف وامتثل راجعاً دون أن يقوم بالزيارة، وانثنى يعاتب الجدّة غاضباً لأنها لم تضع رقعاً كافية لإخفاء جدّة الثوب. بطبيعة الحال لم تخالج الجّد أية فكرة برفع الأمر الى القضاء التركي.

(١٨) تؤكد التقارير البريطانية إن حصيلة الغرامة التي فرضتها سلطة الإحتلال على قبائل الفرات الأوسط بعد إخماد ثورة ١٩٢٠، كانت ٢٦ الف بندقية أكثر من نصفها حديث وثلاثة ملايين إطلاقة، أي بمعدل ٥٠ إطلاقة للبندقية الواحدة.

الشرق والغرب، وإيمان الأقوام الشرقية بالعهد الجديد الذي تقف عصبة الأمم له حاميةً، إنما يعتمد الى درجة كبيرة على الحلّ الذي ستتوصل إليه لجنتكم بعد تدقيق شامل وافٍ لموضوع النزاع. إن حكومة الجمهورية (التركية) مقتنعة بأن لجنتكم ترغب رغبة صادقة في أن تسهم بخلق هذه الثقة المتبادلة بين العالمين الشرقي والغربي. وهذه النتيجة هي غاية المتمنّى. إنها ستحقق كذلك إنتصاراً للعدالة برفعها توصية الى مجلس العصبة تقضي بضرورة فسح المجال لأهالي ولاية الموصل لتقرير مصيرهم بأنفسهم وبكامل الحرية"

إذن، فما كان يطمح إليه الترك ويأملون من قرار تصدره اللجنة هو أن تختتم تحقيقاتها بالإيصاء بإجراء استفتاء عام لهذه المجموعة المتنافرة المباغظة المتعددة المصالح من قوميات وعناصر وطوائف تزخر بها الولاية. وكان على البريطانيين أن يحولوا دون ذلك بأي ثمن.

وفي بغداد كان ثمّ هلع حقيقي عند الحكومة وعند القوميين – الوطنيين دعاة الإستقلال. كان (عبدالمحسن السعدون) يرأس الحكومة. وهو عربي سليل آل السعدون أمراء المنتفق. إلاّ أنه قضى أكثر من عشر سنوات مرافقاً للسلطان عبدالحميد وقبلها أمضى ستّ سنوات يدرس في معاهد أستنبول المدنية والعسكرية. يجيد التركية دون العربية التي يكتب بها بصعوبة كبيرة، لم يمض على عودته الى العراق أكثر من سنتين[١٩]، وقد ترتب عليه وعلى أعضاء وزارته أن يفعلوا شيئاً للوطن الجديد في خضم هذه المعركة. إلاّ أنهم كانوا يفكرون بعقلية تركية عثمانية مالبثت أن تفتقت عن عمل أخرق، وبتلك التعليمات التي أصدروها الى إدارتهم في الموصل بالمناسبة.

في تلك الفترة كانت حكومة السعدون تواجه ضغطاً وإحراجاً من خصوم كلّ همهم أن يحلوا محلّها، وقد تزعم المعركة ذلك الداهية الألمعي (ياسين الهاشمي). إستندت كتلة المعارضة هذه الى الشارع وغذته هي الأخرى بدعاياتها وبدت صيحة الحرب: «لا انتداب ولا معاهدة»، تقرع آذان الحكومة والإدارة البريطانية. فتخيف الأولى وتزعج الثانية.

الدعوة الى رفض الإنتداب والمعاهدة والمطالبة بالإستقلال لايمكن أن يُطعن فيها. إلاّ أن استخدامها لقلب الحكومة فحسب من أناس يعرفون جيداً بأن هذا الهدف متعذر التحقيق وإن

(١٩) باختياره مرافقاً منح رتبة مقدّم (بيمباشي) وهو مجرد ملازمٍ. واستقال من الجيش عندما أنزله الإنقلاب العثماني (١٩٠٨) الى رتبته الأصلية وكان قد تزوج من تركيةٍ وقد اشترط عليه حموه ألاّ يغادر إستنبول قطّ. إلاّ أنه عاد الى العراق في العام ١٩٢٢ مع هذا.

البريطانيين سيفرضون الاثنين بالقوة وبأن لهم كل المقدرة على حكم البلاد بشكل مباشر في أي وقت شاؤا – هو مخادعة مزدوجة. ولعب كاذب بالعواطف الوطنيّة النبيلة.

في مؤتمر سان ريمو المنعقد في نيسان (أبريل) ١٩٢٠ تَمّ اتفاق بين فرنسا وبريطانيا على منطقتي نفوذهما في الهلال الخصيب على شكل نظام وصاية (إنتداب) يناط بهما من لدن عصبة الأمم التي تقرر فيه تشكيلها أيضاً. وكان ذلك بناء على بدعةٍ اقترحها (الجنرال سمتس) رئيس حكومة جنوب أفريقيا. وقد طبقت هاتان الدولتان نظام الوصاية عملاً وقبل أن يعهد به إليهما رسمياً منذ ٢٥ نيسان ١٩٢٠. وأعلنت عنه بريطانيا في العشرين من أيار في بغداد. إلاّ أن صكّ الإنتداب لم يوّقع رسميّاً إلاّ في أيار ١٩٢٢، أي بعد مرور سنتين كاملتين على إعلانه!

إلاّ أن دعاة الإستقلال الذين وطدوا فكرتهم وعملوا لها أثناء ثورة الفرات الأوسط وبمعزل عنها أحياناً. بقوا ينظرون الى الإنتداب نظرة عداء وظلوا يطالبون بالاستقلال بهذا القدر أو ذاك من الإندفاع، رغم قلتهم وضعف تأثيرهم وفشلهم في الحصول على الجماهيرية الكفيلة بجعل القضية مركز ثقل وتأمّل جدي من الجانب البريطاني[٢٠].

وخفت ضجة الإستقلاليين (القوميين الوطنيين) بعد فشل ثورة العشرين حتى كادت تضيع في زحام الإغراء بالمناصب والمال. إذ كان من أسهل الأمور على البريطانيين تدجين هؤلاء الأعلى أصواتاً بهذه الوسيلة أو تلك. إلاّ أن الهياج مالبث أن عاد يقلق راحة البريطانيين عند توقيع صكّ الإنتداب. وتوالت الاجتماعات والاحتجاجات بشكل ضايق (كوكس) كثيراً. وكان سببه أن الصحف في بغداد نشرت جزءً من مناقشة في مجلس العموم البريطاني حول الإنتداب. فقد وجّه أحد أعضاء المجلس لوزير المستعمرات (ونستن تشرتشل) هذا السؤال:

(٢٠) على سبيل المثال: في شباط أسس بعضهم في بغداد حزباً سريّاً أطلقوا عليه اسم (حزب حرس الإستقلال). من مؤسسيه جلال بابان وشاكر محمود ومحمود رامز وعارف حكمت. وفي عين الوقت أُلف حزب سرّي آخر باسم (العهد) وأنشأ له فروعاً في البصرة والموصل، ومن أعضائه الشيخ سعيد النقشبندي وأحمد عزت الأعظمي ونوري فتاح وعلاءالدين النائب وأمين زكي وغيرهم. إلاّ أن نزاعاً شديداً نشأ بينهما فور تشكيلهما. كان حزب العهد يرى وجوب التعاون مع بريطانيا وقبول مساعداتها الفنية والإقتصادية للوصول الى الإستقلال. في حين كان نظيره يرى بريطانيا دولة إستعمارية غاصبة، عليها أن تترك البلاد لأهلها. ولم يدم تعايش هذين الحزبين أي فترة من الزمن، فقد شرعا يتراشقان بالشتم والقذف وراح أحدهما يطعن أعضاء الآخر بأخلاقهم وشرفهم. ووصف العهديون خصومهم بأنهم عملاء للأتراك. ووصف الإستقلاليون العهديين بأنهم جواسيس لبريطانيا. وفشلت وساطة حاولتها حكومة فيصل في دمشق. وقضى أحدهما على الآخر وانحلاّ من دون أن تحتاج سلطات الإحتلال الى بذل أي جهد في ذلك.

"ما هو موقف حكومة فيصل والشعب العراقي من الإنتداب؟ وكيف استقبلا إعلانه وتطبيقه؟"

فردّ (تشرتشل) بقوله: "إن المندوب السامي لم يتلق ردّ فعل لا من فيصل ولا من حكومته حول رفض الشعب العراقي نظام الإنتداب"

نشرت جريدة (الإستقلال) هذا وعلّقت عليه، فقدحت شرارة كانت نارها قد خبت وتجددت التظاهرات والاجتماعات السياسية. والمسألة هي أن أغلبية المشاركين في هذا الاجتماع الجماهيري وعموم الأهالي لم يتذكروا بأن الإنتداب قد طُبّق فعلياً قبل سنتين وأن الحكومات العراقية ورئيس الدولة (فيصل) كانا يعملان في نطاق نظام الإنتداب وبحدوده المرسومة لهما طوال هذه المدّة.

وفي خلال أسبوع واحدٍ لا غير سكن صخب الشارع وعاد الهدوء، إذ اكتفى زعماء القوم ببرقية احتجاج الى عصبة الأمم[٢١]، وبالقناعة ببيان حكومي سكن الوعد باستبدال الإنتداب بمعاهدة. كل ما حصل أن بقي الإنتداب زائداً المعاهدة.

وفي مدينة الموصل حصل ما حصل في بغداد. لكن سراة البصرة وأصحاب النفوذ فيها راحوا يسعون الى إقامة نظام سياسي منفصل عن سائر العراق يتضمن إلحاق الولاية بإدارة الهند، أو بحكم ذاتي في الدولة العراقية.

في الموصل قدم بعض علماء الدين مع من استطاعوا جمعه من التواقيع عريضة بوساطة الحاكم السياسي، الى "جلالة ملك بريطانيا العظمى" يذكرون بالوعد بالإستقلال وجمع طلاب الإعدادية ومدرسوهم تواقيع على عرائض مماثلة، إلاّ أن هذا الفريق الذي بقي على ولائه للعهد القديم الى جانب بعض العلماء المتعصبين للعقيدة (الإسلام ضدّ الكفر والكفرة) انتهزوا فرصتهم في إعلان الإنتداب في استنفار الحميّة الدينية لشجب الانتداب والإصرار على الإستقلال.

(٢١) نصّ البرقية: "أثبت العراقيون رغبتهم في الإستقلال التام ورفضهم أي انتداب كان. وحركتهم الخطيرة في العام ١٩٢٠ أعظم شاهد على ذلك. وبمناسبة بيان مستر تشرتشل في مجلس العموم البريطاني بخصوص مسألة الإنتداب في العراق، أقام الشعب مظاهرة سلميّة فُوّضت فيها لأنوب أمام مجلسكم الموقر ولدى البرلمانات عن رأيه في رفض الإنتداب. وعليه نرفض كلّ إنتداب ونحتج على كل قرار يعارض الإستقلال التام للعراق". (وقد وقع البرقية من وقع عليه الإختيار في اجتماع مسجد الوزير وهم كل من محمد الصدر (رئيس وزراء لاحق)، محمد الخالصي، ياسين الهاشمي، أحمد الداود، حمدي الپاچچي (رئيس وزراء لاحق). وأرسل منها نسخ الى مجلس العموم البريطاني و١٠ داوننگ ستريت. والكونگرس الأمريكي والتايمس اللندنية وصحف لندنية أخرى).

ويطيب لي هنا أن أستشهد بنموذج طريف في محاولة استخدام الدين في الكفاح ضد الإنتداب، من السيد حبيب أفندي العبيدي الموصلي الشاعر الذي كان في أيام الحرب إماماً ومُفتياً للجيش الرابع العثماني، الذي قاده (جمال باشا) في سورية وهو ذاك الذي زوّد القائد والوالي التركي بالإجازة الشرعية أو الفتوى الضرورية شكلياً لتنفيذ أحكام الموت التي صدرت من المجلس العراقي بحق القوميين السوريين في ١٩١٦ يقول العبيدي في موشحه الشهير:

ماتركنا إخوانا الأتراكا وخذلناهمو وآزرناكا
شغفاً يا إبن لندن بهواكا بل لنيل إستقلالنا لولاكا
فلماذا تكون فينا وصياً؟[٢٢]

هؤلاء الذين قادوا حملة الإنتداب وخاصموا الإحتلال البريطاني باسم الوطنية والعروبة والدين وأقاموا الشارع وأقعدوه بشعارات الاستقلال وحق تقرير المصير، ليستقبل رصاص المحتل أحياناً وهراواته دائماً، لم يكونوا قادة حقيقيين متجردين بالمعنى الذي نفهمه للقيادة الروحية الجماهيرية. ولا حملة رسالة فكرية عربية الطابع أو وطنية المنبت فقد رأيناهم يتخلون عن الشارع متسللين واحدهم إثر الآخر عندما ينيلهم المحتلّ مبتغاهم ويسدّ جوعهم الى السلطة، فإذا خلا الشارع من قيادة كانت معالجته من أسهل الأمُور.

(٢٢) يذكر تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ط. النجف ١٩٣٨ ص١٠٠: "إن الشيعة فرحوا بهذا الموشح وأخذوا يتداولونه ويقرأونه في مجالسهم، إذ اعتبرت القصيدة اعترافاً من أهل السنة بوصاية علي ابن أبي طالب وشاع بين الناس يومذاك قول من قال: "إن عمراً (ابن الخطاب) وعلياً تصالحا ولم يبق بينهما أي اختلاف". وإليك مقاطع منها:

دون ملك العراق بين الطول لأبي عبدالله نجل البتول
قد أريقت دماء خير قتيل أفبعد (الحسين) سبط الرسول
نحن نرضى بالإنكليز وصياً
يا محبّي آل النبي الكرام أيكون العراق ملك اللئام
وهو ميراث آل خير الأنام أفبعد الأئمة الأعلام
نحن نرضى بالإنكليز وصياً
أنت أعمى يا عزب أم نتعامى نحن لسنا أراملاً أو يتامى
لنعاني وصاية أو فطاما لا عرفنا للكائنات نظاماً
إن رضينا بالإنكليز وصياً
لاتقل جعفرية حنفية لاتقل شافعية زيديّة
جمعتنا الشريعة الأحمدية وهي تأبى الوصاية الغربية
فلماذا تكون فينا وصيّاً؟

في ١٩٢٤ و١٩٢٥ لم تكن الظروف السياسية تسمح للسلطات البريطانية بإسكات القادة المعارضين عن طريق إقالة حكومة السعدون وتسليمهم الحكم، فدامت ثورة الشارع ولقيت مساندة قوية من الإعلام المحلّي شاركت فيه صحافة معينة كانت كثيراً ما تُرمى بالانحياز الى معسكر البريطانيين. واتسّعت رقعة الهياج لتشمل أجزاء واسعة من العراق وعدداً كبيراً من مدنه.

في وسط هذه الضجّة، أثيرت قضيّة النزاع على ولاية الموصل دولياً، فوجدت الحكومة السعدونية فيها فرصتها لمنافسة المعارضة على الشارع ووسيلةً للبرهان على وطنيتها بالأحرى لاقوميتها، بحرصها على "جزءٍ من تربة الوطن".

علماء الشيعة ورؤساء عشائر الفرات من الذين وجهوا في تموز ١٩١٩ رسالة لحسين بن علي، الذي اتخذ لنفسه لقب (ملك العرب) مشترطين عليه التمسك بهذه الولاية لقاء قبولهم أحد أولاده ملكاً على العراق، ربما لم يكونوا يدرون في حينه أن هذا الملك الجديد كان قد حدد مملكته قبل أكثر من سنتين بحيث تشمل لا ولاية الموصل وحدها، بل ولايتي بغداد والبصرة كذلك؟ على إن المذكرة نفسها والعهدة على الأستاذ الحسني - تكشف في الواقع عن مدى التأثير الذي كان يمارسه البريطانيون على العقول وسرعة استغلاله مشاعر الأهلين الوطنية في تلك الفترة. كانوا يريدون أن يهيئوا الأذهان العراقية للمعركة الدبلوماسية التي لاريب فيها.

هذه المذكرة فريدة في بابها فعلاً. فهي من جهة أخرى ترمي الى إفهام (حسين) بأن العراق المقبل لن يكون تابعاً له أو جزءً من مملكته التي اقترحها على (مكماهون)[٢٣]. وأنى لهؤلاء أن يعرفوا بتلك المراسلات السرية في حينه، ليقفوا قبل أن يبتلعوا السمكة التي ألقى بها

(٢٣) من أورد نصّ الرسالة (الحسني في - العراق في دوري الإحتلال والإنتداب - ص٧٧) والناقلون عنه، لم يفطنوا الى الغرض البريطاني المزدوج منها. وهي كما تبدو لنا من بنات أفكار البريطانيين ووحيهم. وسبحان من لا يخطأ: "إلى ملك العرب جلالة الحسين بن علي... السلام عليم ورحمة الله. أما بعد. فإن الحلفاء في الحرب العظمى أذاعوا الى سكان الفرات في هذه الأيام منشوراً عاماً فحواه أنهم لم يحاربوا إلاّ لتحرير الشعوب. وأن يكون لكل شعب من هذه الشعوب حق تقرير مصيره بنفسه وإدارة شؤونه من قبله، ولم يكن لهم نية الفتح والإستعمار وبناء على هذا طاف الحاكم الملكي العام في العراق وأصبح بكافة الزعماء والرؤساء والعلماء طالباً منهم أن يبدوا رأيهم في النقاط التالية:
١- في حدود المملكة العراقية وما إذا كانت الموصل جزءً من العراق أم لا؟
٢- في الحكومة التي يرغبون فيها والأمير الذي يملكونه في البلاد.
وبعد المداولات والمذاكرات أبلغوا الحاكم السياسي البريطاني العام في العراق بأن الموصل جزءٌ لا يتجزأ من العراق وطلبوا إليه تأسيس حكومة عربية دستورية على أن يكون أحد أنجال جلالتكم ملكاً على العراق، كما يبلغكم تفصيله المندوب من قبل عموم العراقيين (كذا) الشيخ محمد رضا الشبيبي".

إليهم وكيل الحاكم الملكي العام (ولسن)؟ مَنْ يأكل مَنْ؟

الآن وجدت حكومة السعدون فرصتها للنزول الى الشارع. في الوقت الذي وجد هؤلاء الرافضة أعداؤها - هؤلاء الذين كما قال العبيدي الشاعر "خاصموا إخوانهم في الدين وآزروا الكافر طمعاً بالإستقلال" مضطرين الى تبنّي موقف من النزاع يحتمّ عليهم موآزرة "الكافر".

إستيقظ الجميع فجأة ليروا أن ولاية الموصل هي جزءٌ لايتجزء من العراق الجديد وإن عليهم واجب الدفاع عن هذا الكيان. دون أن يفكروا لحظةً واحدة بأن هذا الأقليم لم يكن في أي وقت من الأوقات جغرافياً أم إثنوغرافياً، أم تاريخياً إلاّ جزءً من إمبراطوريات واسعة الأرجاء، لاينتمي بصلة خصوصية عرقية أو جغرافية أو أي صفة أخرى لأي جزء من بقية العراق أو تركيا، في حين كانت صلته بالجزء الشمالي من سورية - جغرافياً أو إقتصادياً على الأقل- أوثق بكثير.

والحقيقة المجردة هي إن الولاية كانت حصيلة صفقة بين عملاقين منتصرين في حرب لم ير لها العالم مثيلاً من قبل. ليس للعامل القومي فيها ولا الكيان السياسي الموّحد ولا الآمال الوطنية ولا الطموحات التحررية محلّ فيها قلّ أم كثر. ومع هذه وَجَد هؤلاء الذين ذكرناهم - أن واجبهم "القومي، أو الوطني" أو الديني عند الضرورة أن يناصروا الدولة الإستعمارية التي تريد استرقاق أهل البلاد واستغلال موارده الطبيعية لتزداد غنى. وفيما خلا الحكومة وأنصارها، أدرك حملة لواء المعارضة ودعاة الإستقلال الى حدّ ما أن عليهم التخفيف قليلاً من الحملة لإسقاط الحكومة غير الوطنية، وإن كان ضمّ الجهود في المطالبة بالولاية مع السلطة البريطانية لايتناقض مع مطلب الإستقلال ونبذ الإنتداب. إلاّ أنهم وقعوا في ميدان التنسيق الجزئي مع البريطانيين في ثلاثة أخطاء كبيرة. وكانوا أسوء تلامذة لأساتذة السياسة ومتقني فن المناورات الدبلوماسية. ولولا هذا التراث الذي تراكم لبناة الإمبراطورية واستخدامه بمنتهى الحذق والبراعة هنا، لما خرجت لجنة التحقيق بالنتيجة التي خرجت بها.

لم يتعلّم الساسة القوميون العراقيون شيئاً طوال تلمذتهم وتعاملهم مع البريطانيين.

في مرحلة التعليم الإبتدائي كنت أنقم كثيراً على معلم اللغة العربية الكفوء القدير لشعور مني بأنه لايعطيني حقي بفهم كبير في درجتي العالية التي أستحقها في درس الإنشاء بسبب قصوري في النحو الصرف. مالبثت هذه النقمة أن تحولت بعد زمن الى فرض وحافز لإكمال ما أحتاجه من هذا العلم. ثم مرت عقود كثيرة من السنين وجاءني هذا المعلم بالذات وقد تقاعد - يطلب مني معلومات عن حياتي الفكرية وآثاري القلمية المطبوعة ليضمنها كتاباً عن

الكتاب والمؤلفين العراقيين يقوم بتأليفه.

وبهذا الصدد لايسعني هنا أن أهمل إثبات فقرة عظيمة الدلالة والصراحة لصاحب كتاب (يقظة العرب) قال:

"إن إسهام البريطانيين في بناء كيان العراق هو من أعظم وأجلّ أحداث البناء لما بعد الحرب. ويمكن القول بدون أي مبالغة إن دولة العراق الحديثة تدين بوجودها على الأغلب لمجهودات الموظفين البريطانيين. فقد هيّأت الأقدار للعراق فرصاً قيمة وحظوظاً سعيدة بموظفين بريطانيين ذوي كفاءات عالية وضمائر حيّة... وتتعاظم خطورة ما أنجز في العراق عندما يعلم القاريء أن هذا البلد بسكانه القبليين الكثيرين وبطوائفه الدينية العديدة وقلّة حظه من خطوط المواصلات نسبة الى مساحته الكبيرة، تصعب إدارته جداً على أسس الروتين البيروقراطي المركزي. كان من حظّ العراق أيضاً أن تتفق مصالح بريطانيا الخاصة مع مصالحه، وأن تتساير جنباً الى جنب في أكثر الأحيان. فرغبة البريطانيين في وضع يدهم على حقول نفط ولاية الموصل، نجم عنها ضمّ الولاية برمّتها الى الدولة العربية الجديدة وصيرورتها إقليماً من أقاليمها، والفضل في هذا يعود الى الدبلوماسية البريطانية، هذا فضلاً عن أنه أدّى الى تعاون إنكلو- عراقي وثيق وفعّال بخصوص التصدي للمسألة الكردية"(٢٤)

لم يكن العروبيون وساسة بغداد ودعاة الإستقلال يدركون أهمية الأغلبية الكردية من سكان الولاية ولا مقدار تأثيرها على النتائج ولا بأنها صاحبة المصلحة الحقيقية في هذه القضية المصيرية. ولذلك لم يحاولوا قط وبأي درجة كانت توحيد جهودهم. ولم يخطر ببال أحد منهم ضرورة العمل في سبيل نيل الثقة، ومحاولة القضاء على الأثر الذي خلفه في النفوس مشاركة وحدات الجيش العراقي الرمزية في القضاء على مقاومة حركة (الشيخ محمود ونظامه المحليّ)، فضلاً عن بقاء حامية منه في عاصمته السليمانية. لم يكن يدور في أوسع دائرة من خيالهم بان الوقفة التي سجلتها هذه المدينة كان فيها القول الفصل للنزاع.

الخطأ الآخر هو استمرار تجاهل الدور الذي يمكن أن تقوم به الأقليات المسيحية واليهودية الحضرية بمركزيها الكبيرين في عالم الإقتصاد والتجارة. فقد أهملتها الأغلبية المجاهدة ولم تُقم لعامليها وزناً بتلك العقلية المتعالية التركية التي كانت ترى فيهما كمية مهملة وتحرم

(٢٤) جورج أنطونيوس George Antonios: «يقظة العرب The Arab Awakening» ط لندن. ص٣٦٣–٣٦٧.

عليهما ولوج باب النشاط السياسي.

الخطأ الثالث وفيه من الغفلة والصبيانية ما فيه هو أن كلاً من الحكومة التي دخلت الميدان مع الإستقلاليين والقوميين، لم يدركوا مثلما أدرك البريطانيون بأن اللجنة كانت قد وطّنت النفس على أن لاتسمح لأي سلطة تمارس أي نفوذ فعليّ في الولاية المتنازع عليها بأن تقيّد حريتها في العمل أو حريّة الوفد التركي المرافق. وقد كان لأعضاء اللجنة ملء الحقّ – وهم لايملكون خبرة حقيقية في الشؤون الشرق الأوسط(٢٥) أن يشكّوا كلّ الشك في اعتراض البريطانيين على عملية استفتاء. وكذلك أن يشككوا في الإجراءات الأمنية المتسمة بشيء من الخَرَق بدعوى على سلامتهم، ولم تكن مألوفة عندهم. فبدت وكأنها ترمي في الواقع الى شلّ حركتهم وتقييد حريتهم في العمل والحيلولة بينهم وبين من ينبغي الإتصال به واستطلاع رأيه.

ربما كان لقلق الجهاز الحكومي ما يبرره من اضطراب في جعل الأمن لاسيما حرصها على حماية أفراد الوفد التركي. إلاّ أن اللجنة اعتبرت تلكم الإجراءات قرائن تؤيد شكّها في أن البريطانيين والإداريين العراقيين يقصدون منعها ومنع الوفد التركي من الوصول الى مشاعر الأهلين الحقيقية. وقد تعزز هذا الشك بعمل قوميّ – وطنيّ قصدت منه الحكومة بالدرجة الأولى أن تبدو غير متخلفة عن المعارضة في "الذود عن حياض الوطن".

فقبيل موعد وصول اللجنة صدرت تعليمات في بغداد. وعممت على الموصل وغيرها من المدن بتأليف ما عرف باسم (لجان الدفاع الوطني) تكون مهمتها إثارة المشاعر العروبية بالاجتماعات العامة، وتنظيم المسيرات والتظاهرات وإلقاء الخطب والقصائد وكتابة المقالات الحماسية وإرسال برقيات الإحتجاج والتأييد، إظهاراً لعزم المواطنين الراسخ على "الذود عن حمى بلاده المقدسّة حتى النَفَس الأخير".

في الموصل بصورة خاصّة كانت المدارس ومعلّموها مركز الثقل. وقد عزز النشاط العروبي فيها بدعاةٍ موصليين متحمسين أرسلتهم لجان الدفاع البغدادية. ولم يكن أعضاء اللجنة

(٢٥) مسؤولية اللجنة وصلاحياتها حددها قرار تشكيلها المتخذ في الجلسة الثلاثين لمجلس العصبة بتأريخ ٣٠ أيلول. (بعد الديباجة): "قرر... تشكيل لجنة خاصّة تتألف من أعضاء ثلاثة مهمتها جمع الحقائق والمعلومات الضرورية لإنجاز المهمة التي أوكلت إليها... إن هذه اللجنة ستضع أمام المجلس كلّ المعلومات وكل المقترحات التي ستمهدّ لقرار. وأن تُولي التفهم الكامل للوثائق الميسورة وتقديم وجهات النظر التي يدلي بها الطرفان صاحبا العلاقة. سواء حول أسلوب العمل أو بخصوص معاملة المواد المتعلقة بالموضوع. وأن تنال كل التسهيلات وتحقق كل الإتصالات التي يرغب الطرفان في عرضها. ولها الحق في مباشرة تحقيقاتها عن موضوع النزاع وأن تنتفع في هذه الحالة بخدمات المستشارين الذين تعينهم الحكومتان صاحبتا الشأن وللجنة أن تختار طريقة عملها الخاص".

غافلين. إذ سرعان ما اكتشفوا عند مباشرتهم العمل أن تلك اللجان والمسيرات القومية تضمّ عدداً كبيراً من الإنتهازيين الكثيري الحركة. وهو على حدّ وصف إدموندز:

"متوفرٌ جداً في الشرق الأوسط يؤجج نارهم كُره للأوروبيين بصورة عامة ويلهبه التعصب الديني. وقد يخطر ببالك أحياناً أن تسأل هذه العناصر المتحمسة سراً عن الجانب الذي يفضلونه شخصياً. فتجد جوابهم أنهم لايدافعون بهذه الضجة المفتعلة عن حق العراق، بل هم في الحقيقة يريدون تركيا"

وقد شاهد إثنان من أعضاء اللجنة معركة بالخناجر بين شاب قوميّ متحمس أرسلته لجان الدفاع من بغداد يدعى (إبراهيم كمال) وبين آخر من وجهاء الموصل العرب – وقد تولى هذا الشاب فيما بعد وزارة المالية، فأحسن عمله فيها ولو لم يختره الموت مبكراً لوصل حتماً الى رئاسة الوزراء[٢٦]. وكان الكونت تيليكي أكثر دقة في تصوير الحالة بمذكرة كتبها:

"في السابع والعشرين من كانون... ... المدينة صحبة السيدين (رودولو وشارير) وفيما أنا أهم بمغادرة الدار عرض عليّ الجنرال (جواد پاشا) الإنضمام إلينا، وكان في قيافته العسكرية. فأسرعت في قبول عرضه لأني كنت متشوقاً الى مراقبة الأثر الذي ستخلّفه بزته العسكرية في نفوس الأهالي. ماكدنا نبلغ الشارع العام ولم تبدء الشرطة في تعقيب خطواتنا بعد – حتى أحاط بالپاشا حوالي ثلاثين شخصاً اعتقد بأنهم من العرب – وراحوا يلثمون يديه ويطلقون هتافات "عاشت تركيا" وتزايد عدد الجمهور الذي كان يتأثر خطانا حتى بلغ مائتي شخص على أقل تقدير وتعالت الهتافات. وفيما نحن نجتاز الثكنات تدخّل عدد قليل من رجال الشرطة وحاولوا تفريق المتظاهرين. وعند بلوغنا السوق انضم إلينا ثلاثة من رجال الشرطة بينهم بريطاني، وكان الجمهور الذي يحيط بنا قد تضاعف عددهُ بالجمّ الغفير الذي انضم إليه من السوق. وأصبح (الپاشا) الكعبة التي يدور

(٢٦) كُلف فعلاً بتشكيل وزارة تخلف حكومة جميل المدفعي بناءً على توصية وتأييد بريطاني في أيلول ١٩٤١. ففشل في تأليفها. وكان وقتذاك وزير مالية وفي وزارة العدلية وكالة. وقد وصفته التقارير البريطانية بـ"رجل دولة قدير وصبور".
ويذكر أنه ممن ورد الى الموصل للمشاركة في النشاط الشعبيّ ضد الإدعاء التركي إمام الصحافة الفكاهية النقدية (نوري ثابت) صاحب جريدة (حبزبوز) الشهيرة (١٨٩٧–١٩٣٨) التي أسسها في بغداد العام ١٩٣١. وتوفيت بوفاته. فقد كان شقيق زوج عبدالعزيز القصاب متصرف لواء الموصل في حينه، وربما ضمن ذلك له حصانة من الإبعاد الذي مارسه البريطانيون ضد الآخرين. وهو الذي لحّن بالمناسبة نشيد الشاعر إسماعيل فرج، الذي أوردنا مطلعه في أول هذا الفصل.

حولها الحجيج بالمزيد من الهتاف والمزيد من مظاهر العطف والتأييد والتعظيم. وبدا لي الجمع مؤلفاً من مختلف العناصر والطبقات. كان بعضهم بلا ريب من سراة المدينة ووجهاء القوم. وبدا لي آخرون من طبقة الشحاذين وكان منهما عدد كبيرٌ من الصغار والأحداث... واصلنا سيرنا متجهين الى دائرة البلديّة وفي أثرنا جمهور يتزايد عدداً باطراد تجاهد الشرطة في السيطرة عليه، وعندما صرنا أمام (النادي الوطني العراقي) الذي يقابل دار البلدية، واجهنا تظاهرة مضادّة يتقدمها طلاب متوشحون بشريط تمثل ألوانه العلم العراقي وهم يهتفون بحياة الملك فيصل. وعدنا الى مقرّنا والمتجهون يحيطون بنا والشرطة في أعقابنا"[٢٧]

وأهملت اللجنة كلّ البيانات التي كانت تصدر باسم (لجنة الدفاع الوطني). هذه المناشير الحماسيّة التي أحدثت كذلك ردّ فعل سيء معاكس للمراد بها، كتلك الجماعات التي كان ينظمها معلمو المدارس من طلابهم ويدفعون بها أرتالاً صغيرة لتحيط بالقصر الذي اتخذته اللجنة مقر عمل وإقامة، ليبادروا كل مندوب يخرج رأسه بمظاهرات من العواطف والشعارات القومية – الوطنية، وليلوّحوا بوجهه بالعلم العراقي.

كان أخوف ما يخافه البريطانيون بشهادة تقاريرهم المتوجسة المحمومة هو أن لاتصل اللجنة الى نتيجة حاسمة للنزاع، فلايكون أمامها إلاّ أن تقترح على مجلس العصبة اجراء استفتاء عام لمعرفة رغبة الأهالي وهو ما كان مطمح الترك كما مَرّ.

وبالفعل بقيت اللجنة تداعب فكرة الاستفتاء التجريبي – الذي يتمّ باختيار مناطق سكنية معينة من سائر الولاية وإجراء استفتاء بأخذ الأصوات. لكنهم وبعد أن درسوا الوضع خلال شهر من الزمن وبضعة أيام – وقابلوا عدداً من سراة المدينة وأعيانها، وأصبح لديهم فكرة واضحة عن التكوين السكاني قررت اللجنة العدول عن الفكرة، وأثبتت ذلك في تقريرها هكذا:

"ترى اللجنة أن تؤكد هنا ثانيةً بأن أساليب تحقيقاتها ستستتبعها حتماً فورة عاطفية بين الأهالي، الذين كان وعيهم السياسي في أدنى مرحلة بدائية. كما كانوا قد تعرضوا لحملات دعائية مركزة. ومن أجل التعجيل في عمل اللجنة، بعد أن عوّقه تأخير لا مبرر له بسبب الحوادث التي أشرنا إليها سابقاً، اتفق على أن

(٢٧) تقرير اللجنة، عصبة الأمم، ط جنيف ص١١. (النصّ الفرنسي)، و(شارير) هو موظف سويسري ملحق باللجنة.

تتمّ التحقيقات في الأجزاء البعيدة من الأقليم المتنازع عليه في آن واحد (أي مع تحقيقات في المدينة)، وذلك بأن تتشعب اللجنة الى خلايا فرعيّة. وكان هذا أمراً طبيعياً لا بديل له، بعد أن استجلينا أثناء الأعمال التمهيديّة في الموصل بأن أعضاء اللجنة الثلاثة هم على رأي واحدٍ في إتخاذ أسلوب إلقاء الأسئلة. وفضلاً عن هذا فكثيراً ما لاحظوا أن الشهود الذين أظهروا بعض تخوّف في أجوبتهم أمام اللجنة بكامل أعضائها، عادت الثقة إليهم في جوّ حديث شخصيّ أقل رهبةً. كما وجد أنه أسلوب قد يكون أنفع وأجدى في إحباط أي عمل أهوج تلجأ إليه قوات الأمن. في الوقت الذي يتيح غياب اللجنة الفرصة لعودة الهدوء الى المدينة"

في الثامن من شباط قرروا أن ينشعبوا الى ثلاث هيئات فرعية تنطلق الى أهداف لم يكشفوا عنها، ثم تحولت هذه الى أربع هيئات بعد اجتماع عقد بين المندوب السامي (سر هنري دوبس) الذي قدم بطائرة – وبين سائر أعضاء اللجنة. وكذلك أن يبقى الرئيس والمراقبان في الموصل لمواصلة تحقيقاتهم في مناطق السهول[٢٨].

الموقف في ألوية أربيل والسليمانية الكردية – كان يختلف تمام اختلاف عن الموقف في الموصل ولوائها. فهناك احتاطت الإدارة البريطانية من الأول فأناطت المسؤولية الإدارية – أحياناً بصورة شكلية – لرؤساء العشائر الكرد دون الموظفين العرب. وقد تبين أن هؤلاء أدركوا كما أدرك البريطانيون – خلافاً للعرب – انه من العبث والسخف محاولة دعم القضية باعتماد أسلوب مشاورة السكان في مصيرهم. إذ لم يمرّ وقت طويل على إرغام الإدارة البريطانية الكرد الثائرين على رفع العلم العراقي، وإقناعهم بالمساهمة في انتخابات المجلس التأسيسي بعد رفض بات منهم الإنضمام الى الدولة الجديدة وسوق القطعات العسكرية لسحق ثورتهم واحتلال عاصمتهم. ولهذه الأسباب كما يقول الخبير البريطاني الملحق باللجنة:

"قررنا أن يكون العامل الإقتصادي الحجّة الفضلى التي سنلجأ إليها. وهو منطق سليم لايمكن إغفاله أو دحضه ينظر إليه على ضوء ارتياح الأهالي من الإدارة

(٢٨) جرى العمل بهدا الشكل:
١– يتوجه (تليكي وكرامزر وناظم نفطچي) الى أربيل ويلتحق بهم الميجر لاين مستشاراً.
٢– يتوجه (پاولس) مع (صبيح نشأت والرائد كامل بگ) الى شمال كركوك.
٣– يتوجه (پورتاليه) الى كفري وأنحائها بمرافقة (فتاح بگ) حيث يلتحق به مستشار بريطاني في الموقع.
٤– تجتمع اللجنة بكامل هيئتها في كركوك ثم تتوجه منها إلى السليمانية نظراً لأهميتها بوصفها مركز الحركة القومية الكردية. ومنها تعود أدراجها الى الموصل، لمواصلة التحقيق في منطقة بهدينان الكردية.

الحالية التي يتولاها مواطنون بارزون يدعمهم نفوذ بريطانيا القوي. وكلّ هذا نقيضٌ للذكريات المتخلفة عن حقب من الحكم العثماني سيء الصيت"

فضلاً عن هذا وجدت الإدارة البريطانية كم ألحقت التظاهرات والمناشير والمذكرات العاطفية – كتلك التي أرسلها فيصل – من ضرر وكيف ستبقى تثير الشك في نفوس أعضاء اللجنة بأنها من بنات أفكار المستعمر «وبالاتفاق مع الحكومة المحلية التي استحدثها. هذا فضلاً عن أنها كانت دائماً عرضةً لتغلغل العناصر التركية المدسوسة. لذلك اتخذت الإدارة البريطانية بمعزل عن الحكومة قراراً حاسماً في كلّ أنحاء الولاية يهدف الى إحباط التعليمات الصادرة من بغداد بوجوب تشكيل لجان الدفاع الوطني. وضربت حصاراً على الدعاة القوميين العرب المرسلين من بغداد. فكان يلقى القبض عليهم حال قدومهم وتتم إعادتهم من حيث جاؤوا.

بعد أن عدلت اللجنة عن القيام بأيّ شكل من أشكال الإستفتاء لجأت الى أسلوب سماع الشهود، وفق قائمة يعدّها كلّ طرف بأسماء من يريد أن تسمعهم اللجنة تأييداً لدعواه. ويتم الإستجواب وفق أسئلة تمّ الإتفاق عليها: ماهي قومية الشاهد؟ دينه؟ مهنته؟ واسطة النقل التي يستخدمها؟ السوق التي يختلف إليها ليبيع ويشتري؟

وبعد أن يدلي الشاهد بأجوبته. يطلب عضو اللجنة من المراقبين والممثلين والخبراء الذين رافقوه – أن ينسحبوا ليتركوه مختلياً بالشاهد وعندها يلقي عليه السؤال المركزي وهو بيت القصيد: "هل يفضل أن يكون خاضعاً للحكم التركي أم للحكم العراقي؟"

على أن لايتضمن الجواب أكثر من إحدى الكلمتين: «تركيا» أو «العراق». وقد سُمي هذا السؤال المركزي بالسؤال الصغير la petite question على أسلوب التفكه والمزاح، ولم يكن بسيطاً وسخيفاً لمسألة جوهرية كما يبدو لأوّل وهلة. بل كان كافياً ليبني عليه المحقق رأياً عاماً حول ولاء العروبيين والقبليين العاطفي وهو عامل يصعب إغفاله.

إلاّ أن هذا "السؤال الصغير" لم يكن ليمنع أعضاء اللجنة من تمييز الشهود المتعلمين أو أولئك الذين يجدون فيهم نباهة واستعداداً عقلياً – للتبسط معهم في إلقاء أسئلة أخرى حول الدواعي والأسباب التي تجعلهم يفضلون هذا الحكم على ذلك.

الأثر الأليم العميق الذي خلفته حالة السكان الإقتصادية والاجتماعية يتجلى في ما نقله (إدموندز) عن أحد أعضاء اللجنة عند القيام باستجواب. قال:

"صارحني (پاوليس) في تلك الليلة بما شاع في نفسه من ألم وشفقة مستفظعاً القذارة والحقارة والإملاق التي وجدها في تلك القرى. كما أذهلته درجة التأخر

العقليّ عند الفلاحين، الذين لايفضلون في رأيه عن أحطّ سكان الكونغو وأكثرهم بدائية. لذلك لايسعه إلاّ الإستنتاج بأن اتبّاع هذا الأسلوب في استجواب الفلاحين عبثٌ في عبث ومضيعة للوقت. وإنه أدرك الآن صحة موقفنا والوجاهة في رفضنا اقتراح الاستفتاء العام. ومع هذا فهو يرى الإستمرار في التحقيق حول رغبة الأهالي، إن لم يكن لشيء فلإقناع الحكومة التركية بأن اللجنة فعلت كلّ ما يمكن فعله"

★★★

كانت النسب في مدينة الموصل متأرجحة ومتساوية. وفي جنوب اللواء نفسه، حيث الميول التركية عند مسلميه كانت واضحة، إنقلب الميزان فجأة عندما قام (ڤيرسن) باستطلاع رأي الأقليتين المسيحية واليهودية في المدينة نفسها[٢٩]. ويضيف التقرير:

"مبدئياً لايمكن قطّ أن تخلو المدينة من تركيّ واحدٍ على الأقل وهي المدينة التي بقيت هذه المدة الطويلة تحت الحكم التركي، حيث كانت عوائل الموظفين الترك وضباطهم تسكنها وتستقرّ لتمتزج بسكانها. وفي ضواحيها هناك عدد لايستهان به من قرى الترك والتركمان بل هناك بليدة تركية خالصة[٣٠] وربما جاز لنا التنويه دعماً لهذا القول برأي لرحالة شهير كـ(أوليڤيه) كوّنه عن الموصل عندما زارها في العام ١٨٠٩، وهو الزمن الذي لم يظهر فيه بعد أي أثر للمشكلة القومية، فهو يثبت أن سكان المدينة: (٧٠٠٠-٨٠٠٠) من المسيحيين الآشوريين وغيرهم.

(٢٩) فيما يلي التوزيع السكاني للولاية كما أورده تقرير العصبة بتقديرات الأطراف الثلاثة:

	أرقام الترك في مؤتمر لوزان	أرقام وردت في تقارير الضباط السياسيين ١٩٢١	آخر إحصاء عراقي ١٩٢٢-١٩٢٤
كُرد	٢٦٣٨٣٠	٤٢٤٧٢٠	٤٩٤٠٠٧
عرب	٤٣٢١٠	١٨٥٧٦٣	١٦٦٩٤١
تُرك	١٤٦٩٦٠	٦٥٨٩٥	٣٨٦٥٢
نصارى ويهود	٣١٠٠٠	٦٢٢٢٥	٦١٣٣٦
يزيدية	١٨٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢٦٢٥٧

هذه الأرقام في الواقع أقرب الى التقدير منها الى الأحصاء الحقيقي. إلاّ أن اللجنة وجدت الأرقام العراقية التي قدمت على أنها أحصاء، كانت أقرب من غيرها الحقيقة. وردّت حجّة الترك في زعمهم أن سكان مدينة الموصل هم مناصفة بين الكرد والترك، إذ قالت ما نصه: "إن مدينة الموصل ذات طابع عربي بدون شك وهو انطباع شخصي مؤكد الى آخر درجة".

(٣٠) المقصود هو بلدة تلعفر.

وألف نسمة لليهود، و٢٥٠٠ من العرب ومن الكرد بين ١٥٠٠٠ و١٦٠٠٠ ومن الترك (١٥٠٠٠ -١٦٠٠٠) ويكون المجموع التقريبي في رأيه ٦٤٠٠٠[٣١] ولانجد في أي وصفٍ آخر أورده رحالة متأخر إحصاءً كاملاً. ووجدنا في الموصل عدداً من الأشخاص ذوي أصل تركي يفهمون التركية. إلاّ أن تأكيد الحكومة التركية بأن كل فرد فيها يفهم هذه اللغة هو تأكيد بعيد عن الواقع... كان من المستحيل تقدير النسبة المئويّة لمختلف القوميّات في المدينة، حتى لو تمكنا من استبعاد كل التأثير السياسي، وتبديد جميع الشكوك. إن تقدير نسبةٍ لأصول السكان العرقيّة يزداد صعوبة في مدينة كالموصل يشيع فيها التزاوج بين القوميات. وحيث تسود الإنتهازية ويكثر الإختلاط بشكل يفوق أي عملية اختلاط في البلاد الأخرى... وقد فضّل اليهود وغالبيّة المسيحيين في كلّ أنحاء الولاية حكومة عراقية تحت الإنتداب البريطاني. وأظهرت التحقيقات منذ البداية أن لا وجود ثم لأيّ شعور وطني عراقي في الأقليم المنازع عليه، إلاّ عند فئة قليلة من العرب أوتيت حظّاً محدوداً من الثقافة. وهذا الشعور العربي بنفسه كانت تشوبه ميول شوفينية (وردت كذلك بالأصل) وروح تعصّب ضدّ الأجانب. ووجدنا عند الكرد وعياً قومياً متنامياً، شعور قومي كردي بأدق ما في هذه العبارة من معنى - لايميل الى العراق. إن الإفتقار الى شعور وطنيّ عراقي على أي مستوى متطور، يفسر ذلك الجواب الذي أعطاه العدد الكبير من الشهود بعدم تفضيلهم البقاء في ظلّ حكم عراقي إلاّ بشروط. وكما سبق بيانه، وجدنا أشدّ القوميين العرب تعّصباً يفضل تركيا على عراق تحت الحماية الأجنبية. ومن ناحية أخرى قال عدد كبيرٌ من زعماء المسيحيين وسراتهم أن شكهم في حكومة تركيّة هو أقلّ من شكّهم في حكومة عراقية لاتخضع لوصاية أوروپيّة. ووجدنا الميول عينها عند اليزيديّة. وطلب كرد السليمانية حكماً ذاتياً محلياً ذا صلاحيّات واسعة بمساعدة مستشارين بريطانيين. وبالإجمال فإن الآراء التي فضّلت العراق إنما كانت مدفوعة بمصلحة شخصية أو بمصلحة كتلة سكانيّة أكثر مما كانت بدافع قوميّ جامع"

★★★

(٣١) في موضع آخر من التقرير يذكر وقت كتابته إن مجموع سكان مدينة الموصل ٩٦٢٥٠ منهم ٤٧٠٠٠ عربي و١٩٢٥٠ مسيحي و٤٠٠٠ يهودي والبقية وهم حوالي عشرين ألفاً تمثل قوميات أخرى عديدة أظهرها الكرد.

في المؤتمر العثماني المنعقد بأستنبول (١٩ أيار ١٩٤٢) الذي لم يسفر عن أيّ اتفاق وآل الأمر الى تعيين لجنة الموصل. طرح المندوب البريطاني مسألة الآشوريين النازحين والمطرودين. وكانت الحكومة البريطانية في ٣ نيسان ١٩٢٤ قد أبلغت الحكومة العراقية باعتزامها في هذا المؤتمر طلب اقتطاع جزء من الأراضي التي كان يسكنها الآشوريون قبل الحرب وإلحاقه بالعراق. وشرحتْ في الوقت عينه الفوائد التي سيجنيها العراق من وجود شعب محارب على حدوده الشمالية تشده الى العرب أواصر من الصداقة والتعاون والشعور بالمنّة. وسألت:

"هل إن حكومة بغداد مستعدة إذا ما تطلّب الأمر – لتأمين مساحات من الأراضي المتروكة في المناطق الشمالية للآشوريين الذين لم يتم استقرارهم وبشروط حسنة؟ "هل إن الحكومة العراقية مستعدة لمنح الآشوريين وعاً من الإستقلال المحليّ الذي كانوا يتمتعون به في ظلّ الحكم التركي قبل الحرب؟"

في ٣٠ من نيسان ردت الحكومة العراقية على هذين السؤالين بالإيجاب وشرح (كوكس) المسألة مدعمةً بقبول الحكومة العراقية اقتراحه هذا – في اجتماعات المؤتمر بقوله:

"مادامت المفاوضات في لوزان قد انقطعت. فإن مشكلة واحدة تزايدت أهميتها في عين حكومة جلالته وأعني بها مستقبل الآشوريين باستثناء من كان إيرانيّ التابعيّة منهم. إن حكومة جلالته ترى وبأقوى دافع من الشعور بالمسؤولية إن قضية ضمان استقرارهم بشكل يحقق لهم أمانيهم القوميّة ومطالبهم المعقولة هي قضية واجبة، وحكومة جلالته لايمكنها التغاضي عن ندائهم الحار بطلب استقرارهم في موطنهم السابق تحت الحماية البريطانية. وبالغ ما بلغ هذا الحلّ الصائب من أثر على العالم المسيحيّ كافةً، فإن حكومة جلالته لايسعها ولأسباب مختلفة – التفكير في توسيع نطاق مسؤولياتها الى هذا الحدّ الخطير، في الوقت الذي لايمكن أن تبدي استعداداً لإستجابة كلّ مطالبهم لذلك قررت حكومة جلالته أن تحاول في هذه المفاوضات تأمين حدود تحقق من جهةٍ مستلزمات معترف بها لمعاهدة حدود جيدة، كما تفسح المجال من جهة أخرى لإستقرار الآشوريين في بقعة واحدة داخلة في حدود الأراضي التي ستتولى حكومة جلالته الإنتداب عليها بإشراف عصبة الأمم وإن لم يتسنّ استقرارهم في موطن أسلافهم فليكن ذلك في مناطق مجاورة على أية حال. إن هذه السياسة المنتواة لإستقرار الآشوريين تحظى بموافقة الحكومة العراقية الكامل وتعاونها. فهي من جهتها مستعدة لتقديم

المساعدة الضرورية لتحقيق هذه الغاية"

فردّ عليه (فتحي بگ) المندوب التركي بقوله: "بعد أن أفصح فخامتكم عن الرغبة في مواصلة المفاوضات من النقطة التي تركها اللورد كرزن (في لوزان)، أراكم الآن تتحولون عن هذا الموقف لتثيروا مسألة جديدة، هي مسألة مستقبل الآشوريين، وتريدون ضماناً لهذا المستقبل إلحاق أراضٍ معينة يرفرف عليها الآن علم الجمهورية التركية، بالأراضي التي وضعت تحت الحماية البريطانية. إن قلتُ إن مطلبكم هذا لايسلمني الى الدهشة فأنا أخالف الحقيقة. في لوزان أعرب رئيس الوفد البريطاني عن الرغبة التي تخالج حكومة جلالته في منح الحكم الذاتي للشعب الكردي. وفخامتك الآن تعرض مطالب الآشوريين. فلعلك تسمح لي بالإشارة على أية حال لما إنك لم تلحظ عندما بسطت هذه المطالب بأن الاشوريين هم أقليّة تكاد لاتذكر في ولاية الموصل؟ إن الاشوريين هم مسيحيون ولذلك لايفوتني فهم الدافع الذي يحمل الحكومة البريطانية على إفرادهم بهذا الشكل الخاص من المعاملة"

ثم ردد قوله السابق بأن المواطنين في تركيا "يتمتعون بحقوق متساوية بغض النظر عن القومية والدين" وختم رده بالقول:

"إن النساطرة (الآشوريين) سيظلون يجدون في الأراضي التركية ذلك السلام وتلك الطمأنينة اللذين تمتعوا بهما قروناً عديدة شريطة ألا يكرروا الأخطاء التي وقعوا فيها بتحريض الأجنبي في مبدء الحرب"

كانت هذه الأقوال المتبادلة من قبيل المناورات الكلاميّة التي يكثر ترديدها في ردهات المؤتمرات والجلسات، لاتعني كثيراً أو قليلاً في الواقع العملي. فالبريطانيون كانوا قد وافقوا مبدئياً وضمنياً على أن يكون القسم الأكبر من ولاية حكاري ضمن الحدود التركية. وما ذكر هنا فضلاً عن المذكرة ذات العلاقة المرفوعة الى عصبة الأمم، لم يكن يقصد البريطانيون بها أكثر من الدعاية لأنفسهم والظهور للآشوريين المشردين بمظهر ذلك الذي بلغت أمانته وصدق نواياه الحدّ الذي لم ينسهم وهم في محنتهم. أما الجانب التركي، فقد كان يكذب بصراحة نادرة المثال، إذ قام قبل بضعة أشهر (آب ١٩٢٣) بطرد البقية الباقية من آشوريي حكاري بقوة السلاح .

وتمادت بريطانيا في استغلال المحنة الآشورية بأمل مدّ الحدود العراقية فوق خطّ بروكسل في

١٤ آب ١٩٢٤ بمذكرة قدمتها الى عصبة الأمم قبل تأليف لجنة الموصل. جاء فيها:

"قررّ الشعب الآشوري الصغير في أوّل أيام الحرب تبني قضية الحلفاء. رغم موقع وطنه المنعزل في قلب بلاد يسيطر عليها الحاكم التركي. وانتهز هذا الشعب الفرصة لقطع صلته بحكم أولئك الذين ذاقوا منهم صنوف الاضطهاد المتواصل عبر تأريخهم الغابر. فنكبوا بأعظم ما ينكب به شعب جراء قرارهم هذا، إذ طردوا من وطنهم وهلك منهم الألوف أثناء هجرتهم الى العراق. ووفق الآشوريون هؤلاء في استقرار ما. فسكن بعضهم في الجزء الجنوبي من بلادهم الأصلية وساكن بعضهم كرد البلاد ومسيحييها المحليين جنوب وطنهم الأول مباشرةً.

إن الحكومة البريطانية تشعر بأقوى التزام ومسؤولية في ضمان استيطانهم تأكيداً وإنجازاً لمطالب شعبهم العادلة وتحقيقاً لأمانيهم ولطالما طالبوا بالإستقرار في سائر أوطانهم السابقة تحت الحماية البريطانية. وقد عجزت الحكومة البريطانية لأسباب مختلفة عن تحقيق كامل طموحهم. إلاّ انها بذلت جهودها لتأمين حدود قد تحقق بعض هذه الأماني. وهي الآن تطلب من مجلس العصبة تثبيت تلك الحدود. إن مجلس العصبة حين يحقق متطلبات معاهدة حدودٍ جيدة يجب عليه في عين الوقت أن يسمح بإسكان الآشوريين كتلةً واحدة منضمّة على نفسها ضمن الحدود التي انتدبت الحكومة البريطانية لإدارتها تحت إشراف عصبة الأمم. وإن لم يتسن ذلك في أرض أجدادهم فلا بأس في أن يتم استيطانهم في مناطق مجاورة. إن رسم الخطّ الى مسافة أبعد جنوباً. سيثير ذعراً كبيراً عند الآشوريين ويضعهم أمام أمرين لا ثالث لهما. إما الهجرة الجماعية أو القتال حتى النفس الأخير دفاعاً عن حقوقهم، دعك من الأضرار الإقتصادية والستراتيجية لهذا الخط الجديد المقترح. فإن وَقَع هذا فسيكون السلام والأمن على طول هذا الجزء من الحدود في خبر كان"

عرفت لجنة الموصل كلّ هذا عندما تصدّت في تقريرها للمسألة الآشورية، فنظرت من المبدء الى طلب تمديد الحدود نظرة شك. وربما أدركت مناورة بريطانيا من اتخاذها القضية الآشورية قميص عثمان أي (طلب أكثر مما تريده فعلاً لتحصل على ما تريده). كانت حرارتهم في الدفاع عن حق الآشوريين إنما لإرغام الترك على قبول خطّ بروكسل حدوداً، أي إبقاء ولاية الموصل ضمن الحدود العراقية. هذا الشك بدا في الفقرة التي أثبتها تقرير اللجنة عن الآشوريين:

"إن اقتراح الحكومة البريطانية جمع الآشوريين في كتلة واحدةٍ منضمّة على الحدود التركية العراقية، هو اقتراح يدعو الى التساؤل عَمّا إذا كان ذلك ينسجم مع أمانيهم حقاً، أم أن هناك اعتبارات أخرى أملتهُ بغض النظر عن رغبات هذا الشعب الحقيقية. إن تجمعاً مصطنعاً للآشوريين على الحدود يحمل في طيّاته نية استخدامهم ضدّ الكرد، وتدفع به روح العداء لتركيا، لايمكن أن ينتظر منه تحقيق تلك الغايات التي تأمل الحكومة البريطانية في الوصول إليها. ونعني بذلك إقامة عهد سلام وأمن دائمين في تلك الانحاء وإنشاء علاقات حسن جوار بين تركيا والعراق وتوفير حياة مطمئنة للآشوريين. ونظراً الى أن الحكومة البريطانية لم تثر قضية الوطن الآشوري داخل هذا النزاع الراهن إلاّ عند انعقاد مؤتمر أستنبول. وبما أنها لم تنوّه به في أثناء المفاوضات السابقة ولا جرى أي ذكر له في معاهدة لوزان. ولما كانت القضيّة الآشورية الحجة الرئيسية التي قدمتها الحكومة البريطانية دعماً لادعائها بحدودٍ تشمل جزءً من ولاية حكاري، فإن اللجنة تعتبر إدعاء الحكومة البريطانية بخصوص المسألة الآشورية إدعاءً خارجاً عن الصدد"

بهذا قضي على آخر أمل للآشوريين في العودة الى موطنهم.

★★★

في كركوك معقل الترك، كانت هناك أرجحيّة ضئيلة سُرّ بها البريطانيون كثيراً بحيث شعر إدموندز: "بأن أمورنا في كركوك وهي الحصن المنيع للنفوذ العثماني في الولاية قد سارت عموماً أفضل مما كنا نتوقعه بكثير. وقد أدرك مندوب اللجنة الآن ما ألمعنا إليه. وهو إنه إذا كان قسم من سكان المدينة أتراكا، فإن البدو العرب من عشائر العُبيد وغيرها التي استقرت في بالا وقره تبه يزيدون على عدد الترك".

لم تكترث اللجنة بالتحقيق في الجزء الجنوبي الغربي من الولاية، وهو جزءٌ تتجول فيه قبائل عربية وتضرب فيه خيامها. لم تحاول الوصول إليهم أو القيام باستطلاع آرائهم موقعياً، وإنما اكتفت بإلقاء أسئلة على رؤساء من شمر والجحيش والجبور والحديديين وكانت الحظوظ متفاوتة والنسب متأرجحة، وقد قوبل الأمر منهم بعدم اكتراث، وبدا وكأن الأمر لايهمهم في شيء. كانوا بصورة عامة ينقمون على الإدارة البريطانية للتدابير الحازمة التي اتخذتها ضدهم، فحدّت من نشاطهم السابق على الطرق. وكان أغلبهم يحنّ الى العهد التركي الذي يتيح له قطع الطرق وتشليح القوافل والسابلة مباشرة وعمليات النهب بعضهم لبعض، لاسيما

أولئك الذين زاولوا صناعتهم على طريق الموصل – بغداد.

وفي منطقة بادينان (الجزء الشمالي الشرقي) قررت اللجنة زيارة زاخو ودهوك على أن يطلبوا شهوداً من العماديه والزيبار[٣٢] وظهرت النتيجة في صالح البريطانيين كما جاء أيضاً في ألقوش والشيخان[٣٣].

إلاّ أن المعركة الفاصلة تمّ خوضها في المنطقة الكردية الوسطى والجنوبية من شرق الولاية. أعني لواء كركوك باستثناء المدينة ولواء السليمانية:

"لم يكن يساورنا أيّ ذرةٍ من شك في أننا نوشك الآن على خوض المعركة الفاصلة، بعد كلّ حربنا. فهاهنا إقليم ليس فيه أقلية عربيّة أو تركية مطلقاً. والكرد فيه كادوا يكونون في ثورة مستمرة ضدّ السلطتين البريطانية والعراقيّة طوال السنوات الخمس الماضية. وقائد الثورة النافذ الكلمة والمحترم بحسب الظاهر من الجميع، كان على صلة دائمة بحكّام تركيا، طالما استنجد بهم وطلب العون منهم مؤكداً إخلاصه لهم. فلا عجب أن راح المندوب التركي يتوقع هنا نصراً ساحقاً"

وكتب (ڤيرسين) رئيس اللجنة عن النتيجة التي توصل إليها هنا:

"باستثناء لواء السليمانية لاتوجد منطقة واحدة تتألف من عدة نواح إلاّ وكانت أغلبية نسبيّة فيها تصوّت لصالح أحد الطرفين، وهو ما لاحظناه. إلاّ اننا في لواء

(٣٢) يصف إدموندز يوم السبت في زاخو وهو اليوم الذي انتقلت فيه اللجنة الى البلدة: "خرجت العائلات للنزهة على ضفاف النهر المعشوشبة الأثيثة، مسيحيّوهم ومسلموهم يختلطون بالعدد الأكبر من اليهود. الفتيات في أزهى ثيابهن وحليهن والشباب في أبهى حلل الچوخه والرانك المسيحية والمسلمة ذات الخطوط الملونة، وهي الثياب التي اشتهرت زاخو بحياكتها".

(٣٣) يذكر إدموندز في هذا: "خلافاً لما زعمه الترك بأن قضاء الشيخان تركي خالص. فقد تأكد (تيليكي وپاولس) إنه يتألف من أغلبية ساحقة مسيحية وكُردية ويزيدية كرد، وبعض العرب. ووقع في نفسيهما وقعاً شديداً مشاهدة فصائل أنيقة اللباس من الكشافة المدرسية أخرجتها (القوش) لاستقبالهما كما أدهشتهم الروح العلميّة التي وجدوها عند رهبان الدير هناك حيث قضيا الليلة. وأخيراً غلبت عليهما العاطفة وجاشت لتلك الصراحة البريئة التي كان شهود البلدة يرجون فيها إبقاءهم ضمن العراق. ولم تكن النتائج حسنة في دهوك: "غصّ محلّ الاجتماع بشيوخ العشائر وأتباعهم من الفرسان المدججين بالسلاح. واندفعت منهم حشود كبيرة الى حيث تجلس اللجنة بلا نظام على ظهور الخيل وكأنهم في غارة. ثم دنا عدد كبير من الأغوات ليتراموا على (جواد پاشا) يستبقون الى لثم يده. وشرع الجميع يتلو آيات مشهورة من القرآن بإمامة الشيخ النقشبندي المعروف. وكنا واثقين إن الجواب على (السؤال الصغير) سيكون في صالح الترك. أما وفد العماديه فقد صوّت معظمه لصالح العراق.

السليمانية وحده – وجدنا أدق تعبير لوجهات النظر فكان فيه القول الفصل. الأشخاص الذين قابلناهم أعلنوا تفضيلهم للحكومة العراقية بتحفظاتٍ... إن لجنتنا إقتنعت بشكل لا مردّ له بأن الأهالي عبّروا عن رغباتهم تعبيراً حراً كاملاً. وقد وجدنا الشعور القومي الكردي الشعور الغلاّب المعقول وإن كان فتيّاً غض الإهاب. ومع أن القوم صرحوا برغبتهم النهائية الجازمة في الإستقلال التام الناجز، إلاّ أنهم أدركوا الفوائد من وصاية حريصة كيّسة واسعة الفكر. وما من شك في أن كفاءة الإداريين البريطانيين وأصالة القرارات التي يتخذونها في إدارة البلاد كان لها التأثير الكبير الشديد الوقع – في إتجاه الأهالي"

كانت توصية اللجنة تثبيت خطّ بروكسل حدوداً نهائية دولية بين العراق وتركيا. أي دخول ولاية الموصل في الحوزة العراقية، إلاّ أنها قيدت ذلك بشرطين:

أولهما: أن تبقى الولاية تحت وصاية عصبة الأمم فترة حددتها بخمسة وعشرين عاماً.

وثانيهما: وجوب النزول عند رغبات الكرد، بتعيين موظفين منهم لإدارة بلادهم وتولي أمور القضاء والتدريس في محاكمها ومعاهدها. وأن تكون اللغة الكردية اللغة الرسمية في كلّ هذه الفروع من الإدارة.

وإلى جانب هذا وضعت اللجنة "توصيات" ثلاث خاصة: أولاها؛ ما يتعلق بإجراءات ضامنة لاستتباب الأمن الداخلي. وشرحت المقصود بهذا هكذا:

"إنه ومنذ إبرام معاهدة لوزان، بات ذوو المزاج السريع الإثارة المستعد للهياج وهم في قلق وشك من وضعهم في ظل العهد المقبل. وكان من الطبيعيّ أن تترجم العواطف القومية عن مشاعرها بمظاهر عنفٍ الى درجة ما. طبيعة الأهالي هذه صلحت أثناء وجود اللجنة وقيامها بتحقيقاتها على إذكاء نار الثورة في نفوس الأهالي التي كانت مرتعاً خصباً لدعايات الطرفين. ونجم عن ذلك قيام شيع وتكتلات وأحزاب قومية وعنصرية وطائفية يخاصم بعضها بعضاً، ونمت وتعاظمت لتشمل رقعة البلاد كلها. وقد أدّى هذا بكثير من الأهالي الى الظنّ بأنهم سيكونون عرضةً للشبهات في أعين الدولة التي سيخضعون لها أياً كانت... لذلك يجب أن تعنى الدولة التي ستمارس السيادة على الأرض موضوع النزاع بتهدئة خواطر الأهالي وبأن يتخذ موظفوها موقف التسامح والإغضاء وأن تصدر عفواً شاملاً عما سبق من أعمال وتصرفات.

أما النقطة الثانية فتتعلق بحماية الأقليات غير المسلمة: بما أنّ الأقليم المتنازع عليه في كلتا الحالتين سيكون خاضعاً لسيادة دولة مسلمة، فإرضاءً لأماني الأقليات فيه، لاسيما المسيحيين وكذلك اليهود واليزيدية، من الضروري أن تتخذ تدابير لحمايتهم. ليس من نطاق صلاحياتنا وقابليّاتنا حصر كلّ الشروط التي يجب فرضها على الدولة ذات السيادة لضمان الحماية المنشودة. على أننا نشعر بواجبنا في الإشارة الى وجوب تمتع الآشوريين بامتيازاتهم الأولى التي كانوا يتمتعون بها عملياً إن لم يكن رسمياً قبل الحرب. وعلى الدولة ذات السيادة أياً كانت، أن تمنح هؤلاء الآشوريين قدراً معيّناً من الحكم الذاتي المحلي وأن تعترف بحقهم في تعيين موظفين، وتقنع من الضرائب والرسوم بما يُدفع منها عن طريق بطريركهم. ويجب أن يُضمن لكل المسيحيين الآخرين واليهود واليزيدية الحرية الدينية وحقهم في تأسيس مدارسهم الخاصّة. وفي حكم الواقع يجب أن يتمشى وضع الأقليّات وأوضاع البلاد الخصوصيّة. وعلى أية حال فنحن نعتقد بأن أي تدابير تتخذ لمصلحة الأقليات ستبقى بلا معنى أو تأثير إن لم يصاحبها إشراف موقعي فعّال. إشراف كهذا يمكن أن يناط بممثلين لعصبة الأمم"

وقد نصّت التوصية الثالثة على تأمين الدولة ذات السيادة الحرية المطلقة للتبادل التجاري مع البلاد المجاورة وتقديم كل التسهيلات في هذا الباب.

★★★

أنهت اللجنة أعمالها في ١٨ من أيار ١٩٢٥. وفي جنيف تفرغت الى كتابة تقريرها فأنجزته في ١٦ من تموز ووزعته على أعضاء المجلس والصحافة، إلاّ أن مناقشة التقرير لم تبدء إلاّ في أيلول. وقد امتدت حتى ١٦ كانون الأول وفيه أصدر المجلس قراره[٣٤] بالإجماع

(٣٤) لا أستبعد قطّ أن المجلس كان فضلاً عن قوة الحجج التي تضمنها التقرير – متأثراً بالأنباء المأساوية التي أذاعتها الصحافة الدولية عن الأساليب الدموية الوحشية التي استخدمتها حكومة تركيا الكمالية في قمع ثورتين كرديتين والإضطهاد الذي صبته الإجراءات التأديبية التي اتخذتها جراء ذلك ضد مسيحيي تلك المنطقة من الآشوريين والكلدان والسريان واليعاقبة فضلاً عن الكرد. إذ طُرد (١١٥٠) آشوريا وكوياني إلى زاخو. وهُجّر (٨٠٠٠) آشوري الى باشقلة ثم دفعوا الى زاخو أيضاً – في أعقاب ثورة الشيخ سعيد پيران النقشبندي وثورة عبيدالله ابن عبدالقادر النهري. اندلعت أولاهما في أوائل آذار أثناء قيام لجنة الموصل بتحقيقاتها. وأطفئت في أواسط نيسان واللجنة في أدق مرحلة منها. في حين نشبت ثورة الشيخ عبيدالله في أواخر آب وشملت الثورتان منطقة حكاري. كان الأتراك قد حققوا في =

(دون صوتي الفريقين المتنازعين).

بعد هذا لنا كلمة: ندر أن نجد في تأريخ الدبلوماسية العالمية والنزاعات الدولية قصة نزاع مصيري يتسّم بمثل هذا القدر من اللاأخلاقية السياسية كتلك التي تم بها حل مشكلة النزاع على ولاية الموصل. فبصرف النظر عن نتائجها المتوقعة ومنها حرمان أغلبيةٍ قومية حقها في تقرير المصير. ومنها القرار الواقعي الذي ختمت به فما يستوقفني هنا تلك المفارقة المضحكة التي لا أودّ أن أحرم القاريء منها.

دخلت بريطانيا حلبة النزاع على الولاية ذات الأغلبيّة الكردية المسيحية وأقليّتها العربية – التركمانية طرفاً رئيساً، لأنها احتلتها عسكرياً لمدة تسع سنوات فقط – رغم زعمها بأن جيشها هو جيش تحرير لا جيش فتح. دخلت النزاع لأنها تريدها ضمن دائرة نفوذها. وتركيا، وهي الطف الثاني الرئيس أرادتها لنفسها، لأنها اغتصبتها لمدة تزيد عن ثلاثة قرون. وحكام العراق الذين أرادوها، وكانوا طرفاً ثالثاً – (من الباطن)، إعتبروها بحق أو بدون حق بمنزلة الرأس من الجسد للعراق الجديد الذي لم يكن موجوداً على خرائط العالم.

أما صاحب الحق الشرعي الوحيد في الأرض، ما فوقها وما تحتها وهم أهالي الولاية، فقد بقوا خارج القاعة ينتظرون قرار الحكم في مصيرهم ومصير أراضيهم. فلو نحن قيّمنا الصفقة التي تمت بالأسعار السائدة في السوق التجارية على أساس عدد الرؤوس، لوجدناها أرخص

= مؤتمر لوزان بالمعاهدة التي نجمت عنه، نصراً دبلوماسياً عظيماً. فقد قُضي بها على معاهدة (سيڤر) وأبقت لهم مساحة تكاد تبلغ ثلث مساحة آسيا الصغرى، هي وطن الكرد والآشوريين وسائر المسيحيين. كما أمنّت لهم حيازة أقاليم أرمنية شمال شرق البلاد. وسمحت لهم بطمس كل أثر يوناني غرب البلاد.
صاحبت الثورتين الكرديتين محاكمات سريعة اقترنت بإعدام عدد كبير من الشيوخ والسراة وتهجير جماعي وتدمير مئات القرى فأعاد ذلك الى الأذهان ما فعلوه بالأرمن. كانت إجراءات تأديبية مدروسة ذات نطاق واسع ترمي إلى القضاء على المقاومة الروحية الكُردية. وبلغ التوتر النفسي بالحكام الترك حداً أنهم سارعوا باتهام البريطانيين بتحريض الكرد على القيام بالثورتين من أجل الحصول على ولاية الموصل. حتى أن (مصطفى كمال) نفسه قام خطيباً في المجلس الوطني الكبير ليوجه هذا الإتهام بصراحة: "... وما زاد في الأمر إساءة أن إنكلترا كانت وراء كلّ هذا (يقصد الثورة) كانت إنكلترا دائماً تستخدم الكرد لإيقاع الأذى بالترك. في الحرب العالمية أرسلت وكيليها (لورنس) و(نوئيل) لحضّ الكرد على الثورة وطعن تركيا من الخلف. وفي معاهدة (سيڤر) وعدت أن تجعل منهم دولة مستقلّة. وقد وجدنا وكلاءها هُنا هذه المرّة أيضاً. وهدفهم إثارة القبائل. إنكلترا أرادت الإحتفاظ بالموصل ونفطها. والكرد هم مفتاح الموصل ونفط العراق. وها هي ذي تكيل الضربة من الخلف لإرغام تركيا على التنازل عن (ولاية) الموصل". (أنظر أرمسترونگ H.C. Armstrong: الذئب الأغبر: دراسة حميمة لدكتاتور An Intimate Study of a Dictator ط لندن ١٩٣٢). مع كل الضجّة التي أحدثتها الصحافة التركية حول ضلوع إنكلترا في ثورتي الكرد، عجزت الحكومة التركية عن تقديم أي دليل مقنع يؤيد زعم (مصطفى كمال).

بكثير من تلك الصفقة السيئة الصيت التي تمت بين قضاة اليهود وبين يهوذا الاسخريوطي أحد التلامذة على بيع رأس المسيح.

والأنكى من ذلك كله إن ثمن الولاية دفع من وارداتها الخاصة للخاسر والرابح دفع سلفاً عداً ونقداً. لأن تركيا قبلت فيما بعد صرف نظرها عن كلّ إدعاء لها فيها، لقاء مبلغ قدره نصف مليون پاون سترليني[٣٥].

وبالإجمال فإنّ النزاع على الولاية الذي انتهى بإسقاط تركيا دعواها التي رفعتها الى محكمة العدل الدولية. وبتصديق المعاهدة كما ورد ذكره، قد أحدث هزّةً عاطفية في نفوس السكان على مختلف قوميّاتهم وطوائفهم.

ويذكر إدموندز مثلاً: "إن زيارة اللجنة للسليمانية أشاعت زخماً شديداً في الشعور القومي الكردي، ذلك الشعور الذي جرف في طريقه عدداً كبيراً من المستائين الذين كان أكثرنا تفاؤلاً يتوقع أن يقفوا الى جانب تركيا، فإذا بهذا الشعور القوميّ يدفعهم الى المعسكر المعادي للترك. إن الإستجوابات الطويلة كاد كلّها وعلى السواء يكون ذا اتجاه قوميّ غلاب. إلاّ أنها لم تتخذ بصورة عامة طابع الإنفصال. إن كرد السليمانية وجهوا ما يمكن نعتُه بالضربة القاضية في النزال الدائر حول المحافظة على كيان العراق. وكانوا على إدراك تام بما يفعلون. أترى ستفتح الحكومة العراقية عينيها بهذه المناسبة لتتبنى سياسة كريمة بعيدة النظر ازاء الكرد؟

(٣٥) هذا هو نص قرار عصبة الأمم: (بعد الديباجة).
أ- تكون الحدود بين العراق وتركيا على الصورة التالية (يعقب هذا وصف جغرافي مفصل للحدود، ويبدأ من الغرب حتى ينتهي بالحدود الإيرانية).
ب- يدعو المجلس الحكومة البريطانية الى أن تعرض على العراق معاهدة جديدة تضمن إمتداد الإنتداب لمدة خمس وعشرين سنة. طبق ما ورد في معاهدة التحالف بين الدولتين تلك التي صادق عليها مجلس العصبة في ٢٧ من أيلول ١٩٢٤، إلاّ إذا قبل العراق عضوا في العصبة وفقاً للمادة الأولى من ميثاقها وقبل انتهاء مدة الخمس والعشرين سنة. فإن أبلغ المجلس إذذاك بأن قراره اكتسب الدرجة القطعيّة وعندها سيبيّن التدابير الواجب إتخاذها لتأمين رسم خط الحدود وتثبيته موقعياً.
ج- تدعى الحكومة البريطانية بصفتها الدولة المنتدبة الى أن تعرض على المجلس التدابير التي ستتخذها لتضمن لكرد العراق تحقيق التعهدات المتعلقة بالحكم الذاتي (المحلي) الذي أوصت له لجنة التحقيق في باب توصياتها الأخيرة.
د- تدعى الحكومة البريطانية بوصفها الدولة المنتدبة لتعمل بقدر الإمكان وفقاً للتوصيات الأخيرة التي وضعتها لجنة التحقيق في تقريرها بخصوص التدابير التي تضمن إحلال السلام وحماية جميع القوميات بصورة عادلة، وكذلك بخصوص التدابير المتعلقة بالتجارة المشار إليهما في توصيات اللجنة.

إن تقرير العصبة أيدّ مطامح الكرد. فبعد أن أنقذوا العراق في لحظة من أخطر اللحظات التي مرّت به، باتخاذهم جانب التصديق على المعاهدة العراقيّة - البريطانية في تلك الليلة التاريخية، ليلة العاشر من حزيران ١٩٢٤، عادوا لينقذوه من تجزئة قتّالة بوقفتهم هذه في السليمانية. إن لقادة الرأي العام الكردي ملء الحق في أن يختالوا على الملأ ويفخروا بأنفسهم ويُدلّوا على دولة أبوا أن يكونوا فيها مواطنين أذلّة[٣٦]."

في هذا النزاع المصيري الكبير لم يقم تعاون سياسيّ بين الأغلبيّة والأقليات. القوميّون العرب وزعماؤهم في بغداد لم يحاولوا أي تفاهم مستقبلي مع القومية الكرديّة باسم وحدة المصير، ولا طلبوا تعاوناً مع الأقليات العنصرية والطائفية في تلك الولاية. فالحرس القديم العروبي الذي شارك في (الثورة العربية الكبرى) أيام الحرب، الذي تسلّم زمام الحكم والرّأي والتوجيه القومي في الدولة الجديدة، ظلّ كما كان أيام العهد العثماني يعتبر قلبيّاً وواقعياً تلك الأقليات كميّة مهملة لا حق لها في مساهمة مباشرة فعّالة في النشاط السياسيّ. وهم كالأغلبيّة العروبيّة - الإسلاميّة يأخذون على المسيحيين واليهود استئثارهم بأكثر وظائف الدولة والخدمة عند المحتلّ. وبنسبة تزيد زيادة مفرطة على نسبتهما الى الأغلبيّة. بل غذّت الشعور العام بأن المحتلّ يحابي هؤلاء وهم على كُلّ إخوانه في الدين. ثم ارتكبت تلك الخطيئة العظمى، والجريمة التي لايمكن اغتفارها. عندما عمد البريطانيون الى خلق قوّة عسكريّة من هؤلاء المسيحيين. جيش زوّد بأحدث سلاح، وتلقى أفضل تدريب بلغ عدد جنوده في تلك الأيام ضعف عدد جنود الجيش العراقي المستحدث الذي أمكن تجنيدهم فيه. وماذا عن استخدامه ضدّ المسلمين وفي أرض كانت مركزاً للعالم الإسلامي الروحي والعلماني طوال خمسة قرون؟

واليهود؟ كيف لايستمرّ في محاباتهم وهو الذي وعدهم بوطن في قلب البلاد الناطقة بالعربية والجزء الذي لايتجزأ من الوطن العربي الكبير عند القوميين؟

(٣٦) عرف إدموندز طوال خدمته في العراق بمواقفه الحدّية ضدّ الطموح القومي الكردي في العراق. إلاّ أنه لم يستطع أن يقلل من شأن الدور الكردي في ربح المعركة. وأنا أذكر مرة وفي أثناء تبادلي الحديث والرأي حوله مع الصديق الشيخ باباعلي ابن الشيخ محمود، استعدنا بالذاكرة تلك الممارسة واللذة التي كانت تشيع في كتابته حول مشاركته في قمع ثورات الشيخ محمود وأخصها وصفه "المتعة" بإلقاء القنابل بالطائرات على مدينة السليمانية وإصراره على مرافقة الحملة الجويّة شخصياً. وما من شك في أن شهادة خصم واحد أفضل من شهادة ألف صديق.

وترجمت هذه المحاباة أيضاً بنظرة المساواة التي كان موظفو إدارة السيّد الجديد ينظر بها الى الجميع. تلك هي خطيئة أيضاً فهي في نظر الأغلبية المسلمة العروبية أفضلية لم يكن يحلم هؤلاء بها في العهود السابقة ولو بجزءٍ منها. نظرة مساواة في الجزاء والعقاب والحقوق والواجبات والتفضيل على أساس الملكات العقلية والكفاءة لا على أساس الوساطة والجاه أو إعتبارات اجتماعية ودينية مما كان مألوفاً في السابق. كان هناك ومنذ زمن بعيد ظاهرة إقبال ومقدرة على تعلّم اللغات الأوروبية لدى أبناء هاتين الأقليتين مثلما كان أيضاً ظاهرة تقارب في طرق التفكير. وهو ما جعلهم مفيدين للمحتل لا للعراق وحده، بل لكل الحكومات المسيطرة في البلاد الناطقة بالعربية إثر الحرب العالميّة ولشركاتها وبيوتها المالية، التي لم تكن تدفعها مصالح سياسية في استخدام الموظفين. وقد أثر هذا على البناء الاجتماعي لتلك الأقليات بشكل ميّزها عن الصرح الاجتماعي العام وأثار في الوقت نفسه حقد شريحة من الأغلبية تزداد أهميتها بإطراد. والأثر المباشر لهذا هو اتساع الهوّة بين الأغلبية والأقليات. لكن هذا الوضع لم يدم كما ذكرتُ، إذ ما عتم المسلمون العروبيّون أن انطلقوا يباروون الآخرين في الإقبال على الدراسة والعلم والوقوع تحت تأثير المدنية الغربية وزالت الشكوك ظاهراً إلاّ أن آثارها بقيت في قرارة النفوس. غير أنهم لم يغدوا تلاميذ محبيّن لتلك المدنية كالأقليات القومية الطائفية الأخرى، بل كانوا بتأثير الزواج القومي – الديني يشعرون بتوجس وخوف منها قد يبلغ حَدّ التقزز. هناك من الدعاة القوميين من كره المدنية الغربية لأنها مدنية مسيحية الطابع. ولأنها تهدد بتفتيت عالمهم القديم الذي يريدون المحافظة عليه بكل وسيلة ممكنة. وهناك من لايكره المدنية الغربية كرهاً تاماً، بل هم يقرون بعناصر طيّبة في بعض القيم الغربية وبضرورة قبولها، لكنهم يرغبون في الوقت نفسه أن يحافظوا على القيم الثابتة في الإسلام وفي التقاليد والقيم العربية. وعندهم إن المشكلة هي "عصرية الإسلام" وهذا من شأنه أن يثير مشكلة خطيرة – مشكلة العلاقة بين المسيحية والإسلام، وكم يمكن أن يكون المسيحي عربياً.

وهناك فريق ثالث من القوميين الراغب في قبول ذلك الجزء من القيم الغربيّة العلمانية الليبرالية والعلمية مصحوبة بالتسامح الديني، أو حتى بإسقاط المعادلة الدينية إسقاطاً كاملاً. يرغبون في الإبتعاد عن الإسلام إلا بمعيار شكلي فحسب. ويهدفون الى بناء مدنية غربية علمانية في العالم الناطق بالعربية.

وعلى أية حال فالشعور العام عند الأقوام غير العربية والطوائف غير المسلمة خلال العقود الثلاثة الأول من هذا القرن في العراق (وربمّا في البلاد الأخرى الناطقة بالعربية وبدرجات

متفاوتة دون شك) بأن القوى الشعبية التي ساندت الحركات القومية أو الوطنية ذات الطابع القومي بقيت بالشكل الذي ألفته قبل الحرب العالمية، ولم تحد كثيراً أو تتقدم عن مراحلها الأولى أي هي أسلامية قدر ما هي عروبية. وهم يعتبرون الإسلام أهم جزء من التراث العربي وأقوى عامل في التقاليد العربية وحفظها عبر القرون. وإذ هم لايتعدون الحقيقة في هذا، إلاّ أن مقالاتهم أحدثت ردة الفعل الطبيعي في الأقليات الأخرى، وراح كلّ منها يبحث عن هويته وتراثه القومي وفي أغلبها عنصر ديني لايمكن فصله. كان الآشوريون يتحدثون عن إمبراطوريتهم التاريخية بعين الحماسة التي يتحدثون عن صمود كنيستهم البطولي أمام اضطهاد مزدوج. والكرد الذين يعتبرون – وبشهادة كثير من الأجانب والباحثين – أكثر الشعوب الإسلامية تسامحاً – راحوا يتحدثون عن أصولهم الميدية بعين الحماسة التي يتحدثون بها عن دينهم الزردشتي القديم.

وكان بين العروبيين المثقفين والمتعلمين من يهتّم اهتماماً جدياً بفصل الدين عن السياسة والمجاهرة بالمساواة بين كل العقائد الدينية في المجتمعات الناطقة بالعربية. هذا الإتجاه العلماني بدا وكأنه محصلة اللامبالاة المتنامية بأمور الدين ورسومه من جهة واحدة، وبدا من جهة أخرى نتيجة الشعور بأن الفرقة الداخلية التي كان للمذاهب الإسلامية يد فيها لاتنكر – قد أضعفت الأمة العربية، وأن بإمكان أعداء هذه الأمة أن يستخدموها لإبقاء تلك الأمة خاضعةً لهم. وبأكثر من هذا إيجابيّة – يمكن أن يُرد الى الشعور المتزايد بفخامة التراث العربي الثقافي والفخر به، فضلاً عن تسرّب أفكار الغرب حول الديمقراطية الليبرالية القادمة عبر القاهرة وبيروت من لندن وباريس.

في العشرينات من هذا القرن وجدنا تلك الطبقة القومية العربية المثقفة التي نهضت بأعباء إيقاظ الوعي العربي، وجلّ قادتها من مسيحيي سورية ولبنان، تضمحل تماماً دون أن تترك خَلَفاً ينشأ عنها وبديلاً عنها حركات قومية إثنيّة عربية ذات طابع محليّ. فكان هناك اللبنانيون الذين ينادون بالقومية اللبنانية والسوريون الذين ينادون بالقومية السورية. على غرار شعور مصر بالقومية المصرية، أو الفرعونية كما دعاها بعضهم.

فكما كان التطور السياسي المصري مختلفاً عن ذلك التطور الذي حصل في بقية البلاد الناطقة بالعربية – كذلك كانت حركة مصر القومية. في مصر لم ينم للقوميّة العربيّة جذرٌ مهما صغر فالحركة الشعبية فيها كانت تتجه نحو أمة مصرية منفصلة ودولة مصرية كسبت أهمية بحركة (عرابي) وتجسمت ووضحت خطوطها بفضل (مصطفى كامل)، وأخيراً عبرت

عن نفسها سياسياً في حركة الوفد بقيادة (سعد زغلول). وكالحركة القومية العربية بدت بوجهين الظاهر منهما بوجه حركة علمانية ربطت القبط بالمسلمين متأثرة على الأغلب بالليبرالية الفرنسية. ولم يكن هذا الإرتباط اعتباطاً، إذ ليس من ينكر على القبط فخرهم الحقيقي بأنهم سلالة نقيّة لسكان وادي النيل القدماء وأنهم جزء لايتجزأ من المجتمع المصري. مثلما لم يكن بإمكان أحد أن ينكر على الكرد عموماً وفي العراق خصوصاً أصولهم العرقية وبكونهم سلالة نقية لسكان الجبال القدماء. والقول نفسه يصدق على مسيحيي العراق عموماً وآشورييهم خصوصاً، فهؤلاء أيضاً تأثروا بالليبرالية الديمقراطية البريطانية بدورهم. وهنا وكما في سورية ولبنان لاينكر تأثير البعثات التبشيرية في محاولتها إخراج هذه الأقليات من عزلتها وانتشالها من مصيدة التأخر الفكري. ومن ثم إيقاظ المشاعر القومية عن طريق تلقين التاريخ الديني الخاص الذي لايمكن فصله عن تاريخها السياسي والتاريخ العام للمنطقة. وإذا كان الكرد قد أفادوا بعض الشيء من هذا بحكم التوزيع السكاني. فإنهم أفادوا بالدرجة الأولى من كتابهم وشعرائهم ومن طبقة جديدة ظهرت بعد إعلان الدستور العثماني تتألف من الموظفين والضباط الذين قدر لهم أن ينالوا تثقيفاً كافياً يدفعهم الى البحث عن هويتهم القومية. وبالمستوى عينه كان تأثير الحركة الكمالية الإنقلابية عميقاً على تركمان العراق لاسيما بعد نجاحها في خلق وطن قومي.

هذا الوعي القومي للأقليّات، كان بعض مردّه أيضاً الى التحدي القومي العربي وقد بدأ عند الجميع في هذه المرحلة غضاً فتيّاً، عندما حاول البريطانيون خلق عراق سياسيّ - اجتماعي موحد تجمعه المصالح الإقتصاديّة والمصير السياسي. وعلاقات نشأ بعضها عن مصاهرة، أو مساكنة أو جوار.

وقدرّ لهذه المحاولة أن تعاني درجات من الإخفاق يعود أغلبها إلى النهج الذي رسمته قومية الأغلبيّة لنفسها. وهو نهج بدأ من أوّله بعيداً عن المفاهيم الليبراليّة القومية للقرن التاسع عشر كما بينا في فصول سابقة. وقد ختمت المرحلة الأولى من المسيرة القومية الخاطئة في العراق كما رأينا بفاجعة آب ١٩٣٣ الوطنية. وهي المرحلة التي ستكون من مقومات الفصل التالي[٣٧].

(٣٧) بودّي أن أحبّذ للقاريء المتتبع مراجعة الكتاب الوحيد الذي صدر حول النزاع الدولي على الولاية لمؤلفه الدكتور فاضل حسين (مشكلة الموصل) وقد طبع أكثر من مرة. فأنا لم أحاول قط الرجوع إليه عند كتابتي هذا الفصل. ولا أشك في أن قارءه سيجد تباينا كبيراً، فكتاب الدكتور هو على كلّ (أطروحة) أعدّت أصلاً لنيل درجة عملية وإعداد مثل هذه البحوث الجامعية له أسلوب خاص يختلف عن التأليف.

ملحق

[نصوص معاهدة لوزان الخاصّة بتسويات الأقاليم العثمانية والشرق الأوسط ووضع الأقليات] بين دول الحلفاء وتركيا

تم التوقيع عليها في ٢٤ من تموز ١٩٢٣

الحلفاء: بريطانيا. فرنسا. إيطاليا. اليابان. اليونان. رومانيا. دولة صربيا - كرواتيا - سلوڤينيا. إتحدت رغبتها في وضع نهاية لحالة الحرب التي حصلت في الشرق منذ العام ١٩١٤ وباهتمام منها في إعادة إقامة علاقات صداقة وتجارة لضمان رفاهية لشعوبها. وبإعتبار ان هذه العلاقات يجب أن تُبنى على احترام استقلال وسيادة الدول. قررت عقد معاهدة لهذه الغاية ونصبت المندوبين التالين لهذا الغرض:

عن بريطانيا: سر هوارس جورج مونتيگو رمبولد. (المندوب السامي في القسطنطينة)

عن فرنسا: الجنرال موريس پيلليه سفير فرنسا (المندوب السامي في الشرق).

عن إيطاليا: المركيز كاميلوو مكاروني (المندوب السامي في القسطنطينة). السيد كويليو چيزاري المندوب فوق العادة والوزير المفوض في أثينا.

عن اليابان: السيد كنتارو أوتشيائي. السفير فوق العادة في إيطاليا.

عن اليونان: السيد الفتيريوس. ك. ڤينزيلوس رئيس وزراء سابق. السيد ديمتريوس كاكلامانوس الوزير المفوض في لندن.

عن رومانيا: السيد قسطنطين. ي. دياماندي الوزير المفوض والسيد قسطنطين كونتسزكو الوزير المفوض.

عن مملكة الصرب - الكروات - السلوڤينيين: الدكتور ميلونتين يوڤافوڤتش الموفد فوق العادة والوزير المفوض في سويسرا.

وعن حكومة المجلس الوطني الكبير التركي: عصمت پاشا وزير الشؤون الخارجية. نائب أدريانوپول. ودكتور رضا نور بك وزير الصحة والمساعدة الشعبية، نائب سينوپ. وإحسان بك. وزير سابق. نائب طرابزون. المطلقو الصلاحية الذين وافقوا على الآتي:

(الفصل) القسم الأوّل: (الحدود)

المادة الأولى: إبتداءً بوضع المعاهدة موضع تطبيق تسود حالة سلم وطيد بين (بريطانيا. فرنسا. إيطاليا. اليابان. اليونان. رومانيا. صربيا - كرواتيا - سلوڤينيا) من طرفٍ،

وبين تركيا من طرف آخر. وكذلك ستعاد من قبل الجانبين بين شعوبها العلاقات الرسمية وفي بلادهما سيتم تبادل الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين بدون الإخلال بأية إتفاقات قد تعقد في المستقبل، ويكون التعامل بحسب القواعد العامة للقانون الدولي.

المادة الثالثة: من البحر الأبيض المتوسط الى الحدود الإيرانية. ستكون الحدود التركية بالشكل التالي:

١- مع سورية: ستكون الحدود كما وصفت في المادة الثامنة من المعاهدة الفرنسية - التركية المعقودة في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١.

٢- مع العراق: الحدود بين تركيا والعراق سيتمّ تحديدها باتفاق ودّي يجري بين تركيا وبريطانيا العظمى خلال تسعة أشهر، وفي حالة عدم التوصل الى اتفاق خلال المدة المذكورة بين الحكومتين. فسيرفع النزاع الى المجلس عصبة الأمم وتتعهد الحكومتان البريطانية والتركية كل من جانبها - انتظاراً لقرار حول موضوع الحدود بألاّ تقوما بحركة عسكرية أو أية حركة أخرى من شأنها إجراء تعديل في الوضع الحالي للحدود بأي شكل من الأشكال، الى أن يتقرر مصيرها النهائي على أساس ذلك القرار.

(الفصل) القسم الثاني: القومية (الجنسية) (المواطنة)

المادة الثلاثون: الرعايا الأتراك الذين يسكنون في تلك البلاد التي سُلخت عن تركيا بحكم هذه المعاهدة، سيكونون فعلاً وبحكم الواقع رعايا الدولة التي الحقت بها تلك البلاد وبموجب قيودٍ تحكمها قوانين محليّة.

المادة الحادية والثلاثون: الأشخاص الذين تزيد أسنانهم عن الثامنة عشرة. الفاقدون جنسيتهم التركيّة والمكتسبون بحكم الواقع: جنسية أخرى كما جاء في المادة الثلاثين - يحق لهم خلال فترة سنتين تبتديء من تنفيذ هذه المعاهدة أن يطلبوا الجنسية التركية لأنفسهم.

المادة الثانية والثلاثون: الأشخاص الذين يسكنون إعتيادياً في الأراضي المنسلخة عن تركيا بموجب هذه المعاهدة، ويختلفون قومياً عن أغلبية سكان تلك الأراضي، يحق لهم خلال فترة سنتين تبتديء من تنفيذ هذه المعاهدة - أن يختاروا لأنفسهم جنسية من جنسيات إحدى الدول التي تتكون غالبية سكانها من نفس القومية التي يمارس فيها الشخص حقه في الإختيار، بشرط قبول تلك الدولة.

المادة الثالثة والثلاثون: على الأشخاص الذين مارسوا حق الخيار المنصوص عليه في المادتين

٣١ و٣٢ أن ينقلوا محل إقامتهم الى أراضي تلك الدولة التي وقع اختياره على جنسيتها خلال الإثني عشر شهراً التالية للخيار. وسيكون من حقّهم أن يحتفظوا بممتلكاتهم غير المنقولة في الدولة الأخرى التي كانت محلّ سكناهم قبل ممارستهم حق الخيار. كما سيكون من حقهم أن ينقلوا ممتلكاتهم المنقولة من أي نوع كان، ولاتستوفى منهم رسوم استيراد وتصدير أثناء انتقالهم بحوائجهم هذه.

المادة الرابعة والثلاثون: تمشياً مع أيّ إتفاق تدعو الضرورات الى عقده بين حكومات البلاد التي يسكن فيها الأشخاص المعنيون هنا، فللمواطنين الأتراك الذين تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة والذين هم من رعايا البلاد المنسلخة عن تركيا بموجب هذه المعاهدة - ممن كان يسكن عادة في الخارج عند تنفيذها - الحقّ في أن يختاروا جنسية البلاد التي هم رعايا لها في حالة انتمائهم قومياً الى أغلبية سكان تلك البلاد، مشروطاً بقبول الحكومة التي تمارس سلطة فعلية فيها. إن حق الخيار هذا يجب أن يُمارس خلال سنتين اثنتين إبتداءً من وضع هذه المعاهدة موضع تنفيذ.

المادة الخامسة والثلاثون: تتعهد الأطراف المتعاقدة بألاّ تضع أية عقبة في سبيل ممارسة الحق الذي قررته هذه المعاهدة أو أية معاهدة أخرى من معاهدات أخرى من معاهدات الصلح التي تعقد مع المانيا أو النمسا أو بلغاريا أو هنغاريا، أو أية معاهدة تعقدها هذه الدول غير تركيا، أو أية معاهدة تعقدها واحدة من تلك الدول مع روسيا أو فيما بينها. وكذلك عند اختيار أي جنسية أخرى متيسرة.

المادة السادسة والثلاثون: تيسيراً لتطبيق مواد هذه القسم من المعاهدة، ستكون جنسية المرأة المتزوجة تابعة لجنسية زوجها. وجنسيّة الأولاد دون الثامنة عشر تابعة لجنسيّة الأبوين.

القسم الثالث - حماية الأقليات

المادة السابعة والثلاثون: تتعهد تركيا بأن تعتبر الشروط الواردة في المواد ٣٨-٤٤ قانوناً أساسياً (دستوراً). وأن لايتداخل أو يتعارض معها أي قانون أو نظام أو إجراء رسمي وأن لايبطله أي قانون أو إجراء رسمي.

المادة الثامنة والثلاثون: تتعهد الحكومة التركية أن تؤمن الحماية التامة الكاملة، لحياة وحرية سكان تركيا كافةً دون تمييز في العرق أو القومية أو الجنس، أو اللغة أو الدين. لكل سكان تركيا الحق في الممارسة المطلقة لكل عقيدةٍ أو نحلة أو دين - في السرّ أو في العلن، ممارسةً لاتتعارض مع النظام العام والآداب. وتتمتع الأقليات غير المسلمة بحرية

تامة في الإنتقال والهجرة خاضعة للإجراءات المطبقة في كلّ البلاد، أو في جزء فيها وعلى جميع الرعايا الأتراك. كما ترسمها الحكومة التركية وفق مقتضيات الدفاع الوطني أو توخياً للمحافظة على النظام العام.

المادة التاسعة والثلاثون: يتمتع الرعايا الأتراك من الأقليات غير المسلمة بعين الحقوق السياسية والمدنية التي يتمتع بها المسلمون. سكان تركيا كافةً وبدون تمييز بسبب الدين هم سواسية أمام القانون. إن الإختلاف في الدين والعقيدة أو المذهب، لايقوم حائلاً دون تمتع أي مواطن تركيّ بالحقوق المدنيّة والسياسية كالتعيين في الوظائف الحكومية أو المعاملة أو التكريم، أو ممارسة المهن والصناعات. لايوضع أي قيد على حرية أيّ مواطن تركيّ في استعمال أي لغة يفضلها في علاقاته الخصوصية وفي عالم التجارة ومجال الدين والصحافة أو في نشر أي نوع من المطبوع، أو في أي اجتماع عمومي. وبصرف النظر عن واقع وجود اللغة الرسمية. يجب أن تعطى التسهيلات الكافية التي تعين أولئك المواطنين الترك الذين يستخدمون لغة غير تركية – على استعمال لغتهم الأم الخاصة بهم أمام المحاكم.

المادة الأربعون: يتمتع المواطنون الأتراك من الأقليات غير المسلمة، بعين المعاملة والأمن والحماية وفقاً لأحكام القانون وبالتطبيق العملي، كتلك التي يتمتع بها سائر المواطنين الأتراك الآخرين. وسيكونون لهم – على الخصوص – حق مساو في تأسيس وإدارة وإشراف على أيّ معهد خيري أو مؤسسة دينية أو اجتماعية وأي من المدارس وما إليها من المؤسسات الثقافية والتعليمية على نفقتها الخاصّة. مع حقها في استخدام لغاتها وممارستها شعائرها الدينية فيها بحريّة تامة.

المادة الحادية والأربعون: بخصوص الخدمات العامة، تضمن الحكومة التركية لتلك المدن والمناطق التي يسكن فيها نسبة كبيرة من الأقليات غير المسلمة، التسهيلات الكافية لتأمين جعل التعليم في المدارس الإبتدائية لأمثال هؤلاء المواطنين الأتراك بوساطة لغتهم الزاميّة في تلك المدارس. في المدن والمناطق التي تتواجد فيها نسبة كبيرة من المواطنين الأتراك للأقليات غير المسلمة، يجب أن يضمن لها حصة مساوية في المنح والإعانات المالية تخصص لها في الإعتمادات المالية العامة الحكومية والبلدية أو غيرها من الميزانيات للأغراض الدينية والتعليمية والخيرية. تدفع هذه المبالغ المنوّه بها الى الممثلين الرسميين المعتمدين لتلك المؤسسات والمعاهد ذات الشأن.

المادة الثانية والأربعون: تتعهد الحكومة التركية باتخاذ التدابير الضرورية للأقليات غير المسلمة بصدد قوانين الأسرة والأحوال الشخصية تستقيم مع عادات وتقاليد تلك الأقليات. سيتمّ تفصيل وتحديد هذه التدابير عن طريق لجان خاصة مؤلفة من عدد متساو لممثلين عن الحكومة التركية ومجلس عصبة الأمم بتعيين (حَكَم) يتم اختياره من بين رجال القانون الأوروبيين. تتعهد الحكومة التركية بضمان حماية كاملة للبيع والكنائس والمقابر وغيرها من المؤسسات الدينية الخاصة بالأقليات كما ورد ذكره آنفاً. وكذلك تضمن تأمين كلّ التسهيلات والصلاحيات لتلك المؤسسات والمعاهد الدينية والجمعيات الخيرية المتواجدة حالياً في تركيا. وعلى الحكومة التركية أن لاترفض تقديم أي تسهيلات ضرورية مما ضمن للمؤسسات الأخرى في حالة استحداث أي من المعاهد الدينية والخيرية المشابهة.

المادة الثالثة والأربعون: لايرغم الرعايا الأتراكُ من الأقليات غير المسلمة على إتيان أيّ عمل من شأنه انتهاك لشعائرهم الدينية، ومخالفاً لعقائدهم. ولن يعرضوا إلى تضييق بسبب امتناعهم عن الحضور في مجلس قضاء أو ممارسة أي عمل قضائي يوم راحتهم الأسبوعية. إن هذا الشرط على أية حال لايعفي المواطنين الأتراك المذكورين من الواجبات التي تفرض على الرعايا الأتراك الآخرين لغرض المحافظة على النظام العام.

المادة الرابعة والأربعون: بقدر ما يتعلق الأمر بالمواد التي سلفت في هذا القسم المتعلق بالأقليات غير المسلمة في تركيا توافق تركيا على أن تعتبر هذه الشروط بمثابة تعهدات ذات طابع دوليّ وستكون بضمانة عصبة الأمم. فلا يجرى أي تعديل عليها بدون موافقة الأغلبيّة من أعضاء مجلس العصبة وتوافق بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان على منح موافقتها على أي تعديل يجري في هذه المواد عندما تتم الموافقة على صيغتها المعدّلة – من قبل أغلبية أعضاء مجلس عصبة الأمم. وتوافق تركيا على أن يكون لأي عضو في مجلس عصبة الأمم الحقّ في إعلام المجلس بحصول أي خرق أو خطر حصول أي خرق لأي من هذه التعهدات. وعلى المجلس في هذه الحالة أن يتخذ إجراءً أو يصدر القرارات التي يراها مناسبة وفعّالة كما تمليه الطروف. وتوافق تركيا كذلك أن يكون أي خلاف في الرأي من الناحية القانونية أو الواقعية حول تطبيق هذه الشروط يحصل بين الحكومة التركية وبين أي دولة أخرى من الدول الموقعة العضوة في مجلس العصبة – يكون بمثابة نزاع ذي صفة دوليّة مشمول بحكم المادة (١٤) من ميثاق عصبة الأمم. وعلى هذا الأساس توافق الحكومة التركية على أن يحال الموضوع عند طلب أي طرف

آخر – الى محكمة العدل الدولية الدائمة. إن قرار محكمة العدل سيكون نهائياً. وله نفس القوة والأثر بحكم المادة (١٣) من الميثاق.

تعليق

يكاد يجمع المؤرخون وخبراء القانون الدولي والباحثون في السياسة على أن معاهدة لوزان تُعدّ نصراً كاملاً لدولة مغلوبة في حرب عالمية. بمقارنة هذه المعاهدة مع معاهدات الصلح التي عقدها الحلفاء المنتصرون مع الدول الأخرى بعد الحرب نجد تركيا هنا الدولة الوحيدة التي مكّنها الحلفاء من التفاوض على شروطها الخاصّة، فقد أمليت شروط الصلح على المانيا والنمسا وهنغاريا وبلغاريا وفق مشيئة الغالب، إلا أن معاهدة لوزان وضعت وفق مشيئة المغلوب. وكانت أساس الكيان التركي الحديث وتواجده بين الأسرة الدولية.

وقد ارتأيت أن أترجم هنا ما يتعلق بالقوميات والأقليات العنصرية الدينية ما جاء في الفصل الأول من المعاهدة، وسائر مواد الفصل الثاني، ربما لأول مرة لقراء العربية. وقصدي المقارنة بينها وبين ما ورد حول هذا الأمر في معاهدة (سيڤر) المعقودة قبلها بثلاث سنوات[١]. معاهدة لوزان أهملت التطرق إلى القضية الكردية إهمالاً تاماً مقصوداً وتركت مصير ستة ملايين كردي لحكام تركيا. نفت عنهم قوميتهم قبل أن ينفيها الحكم الكمالي الجديد بإطلاقه عليهم عبارة (الأتراك الجبليون) أو (أتراك الجبال). أما بخصوص الشعب الآشوري، باختلاف المذاهب والشعب الأرمني، فقد اختار واضعو المعاهدة لهم عنوان (الأقليات غير المسلمة) أرضاء لتركيا بدون شك.

ليس من أغراض هذه النبذة تحري الأسباب التي حدت بالحلفاء الى هذا التنكر الفاضح للقوميات في تركيا (مصطفى كمال) والإنحراف الكامل عن مباديء معاهدة (سيڤر) المستوحاة من مباديء ويلسن في حق تقرير المصير. كذلك ليس في وسعنا أن نعزو هذا النصر السياسي التركي إلى غباءٍ وقصر نظر في مندوبي الحلفاء الموقعين، مقابل ذكاء وعبقرية سياسية في المندوبين الأتراك.

في العام ١٩٢٢ تمت هزيمة اليونانيين على يد مصطفى كمال بفضل السلاح والعتاد المتدفق من روسيا السوڤياتية في معركة (سقارية) الفاصلة وكوفيء هذا القائد من قبل المجلس الوطني الكبير بإضفاء اللقب ذي الدلالة التأريخية على اسمه[٢] "الغازي". وأتم هذا

(١) راجع نصوصها في الكتاب الثاني.

(٢) "الغازي" أو الفاتح أو المنتصر (من مصدر كلمة غزو العربية) التي أثبتت لهذا القائد اسمه، تعيد الى الذاكرة فصولاً من التأريخ الأول لتواجد الأتراك في آسيا الصغرى (القرن الـ ١١) والأناضول. إذ كان يلقب بها المحاربون الفائزون في المعارك ضد القوات البيزنطية والأوروبية خلال زحف الإمبراطورية العثمانية شمالاً. وبالنظر الى المسلمين الذين يتكلمون التركية فضلاً عن المسلمين بشكل عام – فإن =

"الغازي" بالإشتراك مع الحكومة البلشفية القضاء على جمهورية أرمينيا، وبدا لبريطانيا وفرنسا وكأن حلفاً خطيراً سيعقد بين الإثنين يهدد نفوذهما في البلاد الناطقة بالعربية التي انسلخت عن الدولة العثمانية. إذن كانت "لوزان عملية سريعة يدفعها الخوف الأعظم من سوء العقبى وبدت سهلة بعد انسحاب ويلسن وحكومته من الميدان الأوروبي ونفض الكونگرس الأميريكي يده من عصبة الأمم وإصراره على عدم المشاركة في المعاهدات المعقودة بعد الحرب.

كانت معاهدة «لوزان» ضوءً أخضر للنظام التركي الجديد. نكبت الملايين الستة من الكرد بمصير فادح الثمن، وأطلقت يده في التعامل مع الأقلية الآشورية بروح انتقامية مشابهة لتعامله مع الأرمن بسبب موقفهما في الحرب العالمية. وبمساعدة نصوص بلغ من سخفها واستحالة الرقابة على تطبيقها أن وقف الحلفاء الموقعون ووراءهم عصبة الأمم عاجزين تماماً عن وقف عمليات الطرد والتهجير الجماعي للآشوريين وسائر المسيحيين مع مصادرة أملاكهم غير المنقولة والرفض البات لتعويضهم عنها (خلافاً للمادة ٣٣). كما وقف هؤلاء بعدها بسنة واحدة موقف المتفرج أمام عمليات القتل القضائي ودك القرى الكردية بالمئات وتهجير مائة وخمسين ألفاً من سكانها الى أقصى الغرب وهو ما أجازته للنظام (الفقرة الأخيرة من المادة ٣٨)[٣].

إذا كانت معاهدة لوزان هدية لتركيا لقاء عدم وقوعها في أحضان البلشفية، وعلى حساب مصير هذه الأقليات فقليلاً ما فعلت، لأن التعاون التركي – السوڤييتي بقي على الصعيدين السياسي والعسكري[٤].

= اللقب الممنوح إن دل فعلى إن مصطفى كمال، كان آخر أبطال الإسلام في النزاع المرير ضد العالم المسيحي الذي امتد قروناً طوالاً. ومن الجدير بالذكر هنا إن "الغازي مصطفى كمال" تخلى عن اللقب في العام ١٩٣٥ إثر صدور قانون يفرض على الأتراك استخدام إسم الأسرة. فاختار الزعيم التركي اسم أتاتورك اي (أب الأتراك) مسقطاً كلمتي الغازي ومصطفى فبات يعرف رسمياً بـ(كمال أتاتورك).

(٣) فضلاً عن عمليات التهجير التركية لبقايا الآشوريين السابقة وقد أتينا الى ذكر طائفة منها في هذا الفصل، يذكر لونگريك في (العراق بين ١٩٠٠ و١٩٥٠) أن عناصر كثيرة من الأقليات هربت الى العراق بوجه الجيش التركي الزاحف في إقليم طور عبدين وحده، ويشمل ذلك عددا لايمكن تقديره من قبائل الميران (قدرته المصادر الكردية بخمسة آلاف) وسبعة آلاف من الگويان وألف من الآشوريين وعشرة آلاف من الآتوشي (تلك؟).

(٤) استمر التعاون التركي السوڤيتي الى حَد تشويه صورة الثورات الكردية. ففي دائرة المعارف السوڤيتية (بولشايا سوڤييتسكا أنسكلوبيدي) طبعة أولى ١٩٣٧ تحت مادة (كُردي) جاء ما يلي: "والمقول إن ثورات ١٩٢٥ و١٩٣٧ كانت بتوجيه وتدبير من الدسائس الإمبريالية ضد المصالح التركية – السوڤيتية". لم أجد باحثاً كردياً واحداً من العراقيين الذين نالوا درجاتهم العلمية في معاهد الإتحاد السوڤيتي، وكتبوا في تاريخ القضية الكردية، لاسيما في تمجيد هذه الثورات، من ناقش هذا الرأي.

الفصل الثالث عشر

قومية الدولة العراقية والأقليات . مقارنة بين عهد الخليفة عمر ابن الخطاب ورسالة الشريف حسين الى مكماهون حول كيفية تعامله مع أقليات امبراطوريته . لجنة كنگ – كرين . في لبنان اندفام مسيحي غير متزن . مواقف أحبار الأقليات المسيحية في العراق تستنكر التصريح . موقف الأقلية التركمانية . مدرسة فيصل وخريجوها (الضباط القدماء) نظرتهم التركية الى انتفاضات الكرد السياسية تلتقي بنظرة الدولة في انهم خارجون على النظام ومنتقضون على الدولة والتأديب العسكري هو الوسيلة الوحيدة . الصحافة المحلية تشجم هذه المواقف . زرع بذور التفرقة والحيلولة دون بناء شعب عراقي موحد . البريطانيون يعدون الأشوريين بالاستقرار في العراق . تصاعد النفرة من وجودهم بنشاط الدعاة القوميين المتطرفين . شعار الوحدة العراقية يدفن بالشعارات العربية المطلقة . البديل عن نظام (ساندمان بروس) الفاشل في الجنوب وفي الشمال . التمييز القومي بدلاً من التمييز الديني يغدو شعار الساعة . محاولة تعريب الأكراد والمسيحيين بزعم أن الأكراد أصلهم عربي وهم يشغلون أرضاً عربية كالمسيحيين واليهود . البريطانيون في وجه الطموح الكردي . بريطانيا تتنصل أمام عصبة الأمم من مسؤولياتها في حماية الأقليات العراقية . العداء العربي للأشوريين المجندين في الليڤي يتسع ليشمل الأشوريين القادمين والمستقرين . مقابلة نفرة بنفرة . السيف القومي يشرع في وجه القوميات ١٩٢١–١٩٣٣

جاءت هذه العبارة في واحدة من الرسائل التي كتبها الشريف (ثم الملك) الحسين بن علي الى (السر هنري مكماهون) مؤرخة في ٦ من تشرين الثاني ١٩١٥:

"ليس ثم فرقٌ بين مسلم أو مسيحي عربي. فكلاهما ينحدر من جد واحدٍ. ونحن المسلمون سنقتفي خطى أمير المؤمنين [عمر ابن الخطاب وغيره من الخلفاء الذين عقبوه]. وقد أمروا بأن يعامل المسلمون المسيحيين كما يعاملون بعضهم بعضاً"[١]

(١) يشير بهذا الى العهدين اللذين قطعهما الخليفة الثاني للمسلمين في كل من دمشق (٦٣٥م) وأورشليم =

و(فيصل) الذي أقام دولته في دمشق، لم يتردد في اتخاذ خطوات مباشرة في هذا الإتجاه لكسب ثقة من أبقى عليه الحكم الأموي والعباسي من المسيحيين واليهود، وكذلك لخطب ود العالم الغربي حين تعهد للجنة (كنگ – كرين) ولم يغير من الوضع السياسي الذي تمتع به جبل لبنان في العهد العثماني حين قام بتحديد الحدود التي تمتد إليها مملكته "شريطة أن يمتنع مسيحيوه من استحداث علاقةٍ بالأجانب"[٢].

إلا أن هذه اللجنة التي بعث بها الرئيس الأمريكي لإستطلاع رأي الأهالي اتفق رأيُها مع رأي عموم المسيحيين هناك بتأكيدها على أن حماية الأقليات ستكون متعذرة في ظل إدارة عربية ضعيفة أساساً، قالت:

"إن القوميين المسلمين العرب (الحكام) وعدوا بأن تتنزه إدارتُهم عن أي تفرقة عنصرية. ونرى من الضروري أن نسلم بوجهة نظرهم هذه ولكن من خلال سلطة إنتداب، حتى يتوصلوا الى صيغة لتطبيق ما وُعدوا به عملياً"

وكاد كل مسيحيي سورية ولبنان يتفق على هذه النظرة القومية. أي وجود سلطة إنتداب على الحكم العربي في سورية، ومثلُها مثلُ العراق الذي عارض الحضور البريطاني وناهضه – بقيت أغلبيتها المسلمة بقيادة عناصرها القومية، تعارض في فرض الإنتداب الفرنسي وتطالب بالإستقلال التام "بلجاجةٍ وحماسةٍ" على حَد وصف لجنة كنگ – كرين، لذلك لم يكن مبعث

= القدس (٦٣٧م) لم يكن هذا التدبير في الواقع يتميز بكثيرمن الفطنة أو يقتضي بعد نظر خاص. فما فعله هذا الخليفة في حينه لم يكن أكثر من تقرير واقع لا بديل له. فقد كان سكان الهلال الخصيب خلا أقلية يهودية – مسيحيين قاطبة. والعرب الذين يرتادون البادية قلة غير مستقرة، إلا أن هذا الخليفة وإن سمح لهم بالإبقاء على البيع والكنائس وحرم المداخلة في شؤونهم الدينية، فقد فرض عليهم لقاء ذلك ضريبة الرأس (أي الجزية) التي وجب دفعها بحكم النص القرآني (سورة التوبة: ٢٩) الذي وصفهم "بأهل الكتاب". وهذان العهدان يشبهان العهدين الذين وقعهما (الرسول) نفسه مع يهود المدينة (يثرب) في العام (٦٢٣م) ومع مسيحيي نجران (جنوب الجزيرة الغربي) ومسيحيي الأيلة (العقبة) في العام (٦٣٠م). هؤلاء هم الذين أطلق عليهم فقهاء المسلمين تعبير "أهل الذمة" أو "الذميين" وقد أتينا الى تفصيل ذلك في أول الكتاب. كان يفترض في شريف مكة على أية حال أن يكون على معرفة، لأن عهدي الرسول وعهدي الخليفة نقضت بعد نصف قرن ولم يعد يعمل بها منذ خلافة عبدالملك ابن مروان (٦٨٥–٧٠٥)، بعد أن انتفت الحاجة الى الخبرات العسكرية والفنية المسيحية. إذ كان هؤلاء يؤلفون أغلبية في جيوش المسلمين الأولى المندفعة شرقاً، وهم بُناة ونواة أول أسطول عربي في البحر المتوسط وبحر إيجه. إن التضييق كما بينا سابقاً كان تدريجياً. وقد بلغ حده الأقصى في عهد العباسيين، مما أدى الى تحول الأغلبية المسيحية (الآرامية – السريانية – الآشورية – العربية) الى أقلية في عالم الشرق الأوسط الإسلامي.

(٢) هاري هوارد Hary N. Howard: «لجنة كنگ كـرين The King - Crane Commission» بيـروت ١٩٦٣ ص١٣ و١٨١.

دهشة أن يولد الكيان السياسي، الذي استحدثه الفرنسيون باسم (لبنان الكبير) نقمةً وكراهيةً في العالم الإسلامي الناطق بالعربية عموماً، وعند السنية سكان المدن الساحلية خصوصاً. ومن دون تحسب للمضاعفات والنتائج. أطلق البطريرك الماروني (بطرس الحويك) في غمرة من الفرح – تصريحاً بتلك المناسبة في ٨ من كانون الأول ١٩٢٠، يعبّر تعبيراً جامحاً لأكبر كتلة مسيحية في البلاد الناطقة العربية. موصداً به عليها، وربما على بقية المسيحيين في الأقطار الأخرى، باب الإلتزام بقضية العروبة والقومية العربية في الحاضر والمستقبل.

"والآن، ومن بعد بؤسنا وشقائنا وفقرنا، يقدم لنا الشعب الفرنسي النبيل برهاناً جديداً رائعاً على محبته لنا وعلى صدق مساعيه لخيرنا وفرط اهتمامه بأمورنا... لقد انتصرت سياسة فرنسا الحكيمة في هذه الأرض وحققت لنا آمالنا الأثيرة بمنح لبناننا الحبيب الإستقلال وتوسيع حدوده وإقامة كيان حي لأهله من جديد، وسنقف بمشيئة الرب بشرف واعتزاز في مصاف الشعوب المتمدنة. ولذلك نحن نتقدم بالشكر لفرنسا ولشعبها ذلك الذي بذل التضحيات الجسام من أجلنا..."[٣]

بهذا الإندفاع العاطفي البعيد عن الإتزان نسي الزعيم الروحي بأن المسيحية هي واقعياً مجرد أقلية دينية تعيش في عالم إسلامي مختلطة بشكل يصعب فصله تماماً مثلما نسي شريف مكة ذلك وبأن في عالم الإستشراق والأبحاث الإسلامية علماء افذاذاً بين البريطانيين درسوا مصائر المسيحية في الشرق الأوسط طوال السيادة العربية الإسلامية وبعدها، وخرجوا بنتائج لاتتفق والصيغة التي بسطها في رسالته للمعتمد البريطاني في القاهرة.

ألقى البطريرك جانب الحذر في غمرة من الفرح وفي ذهنه بلا شك مذابح دمشق ولبنان قبل نصف قرن ناسياً أن هذا الدولة المنتدبة التي تبسط حمايتها لن يقدر لها البقاء الدائم. في حين ظل الوضع الديموغرافي باقياً. وربما كان الأجدر به أن يصدر بياناً متزناً يدور حول الوطن المشترك الواحد وحول ضرورة التعاون مع المسلمين. على أن انتزاع ما يشبه النصر من فكي الاضطهاد والذلة وتأمين الحماية من كارثة مشابهة، وفي الوقت الذي بدت بِيَع الشرق وأديرته ومعاهده الطائفية معرضة للزوال، وعندما راحت غيوم الصهيونية تتجمع في أفق القومية العربية – التي اختارت لسوء حظها اتجاهاً إسلامياً واضحاً – ربما (نقول ربما) قد

(٣) عن روبرت برنتون بتس Robert Brenton Betts من (المسيحيون في الشرق العربي Christians in the Arabi East ط. لندن ١٩٧٩ ص٣٣.) إقتبس النص من مقال لمنصور عواد عنوانه (البطريرك بطرس الحويك) نشره في مجلة المشرق البيروتية (عدد كانون الأول ١٩٣٢).

يقوم هذا عُذراً للإندفاع البطريركي العاطفي.

إلا أن هذه الحماسة لم يشاركه فيها زعماء الطوائف المسيحية الأخرى في البلاد الناطقة بالعربية ولاسيما في العراق، حيث يستقر بطريرك الكلدان. وجاثاليق كنيسة الشرق بكرسيهما في الموصل[٤]، اللذان وبمساندة من زعماء الطوائف المسيحية الأخرى – لم يعتبرا التواجد البريطاني ضماناً لحسن سلوك الأغلبية، ولا عامل حماية. ولم يكن أحدٌ منهم، بعد أن قررت لندن الإستعاضة عن الإنتداب بمعاهدة وحلف، يتوقع بقاءهم طويلاً. ففي الوقت الذي كان الفرنسيون منشغلين بتجزئة سورية الى دويلات، راح البريطانيون يعملون بهمة ونشاط على خلق عراق عربي. بضم أقليم كامل محدد ديموغرافياً تقطنه قومية ذات أغلبية ساحقة في عقر دارها الى ذلك الكيان الجديد ولتغدو تلك القومية واحدةً من أقلياته العنصرية فضلاً عن قوميات وطوائف أخرى تزيد بكثير عما هو الحال في سورية.

إن انكبابهم على خلق هذا الكيان بعد فشلهم في تطبيق نظام (ساندمان – بروس) الذي سيأتي الحديث عنه. اقتضى منهم تشجيع الحركة القومية العربية، على حساب القوميات الأخرى الكردية والتركمانية والآشورية. باعتباره وسيلة صالحة من وسائل محاربة العصبية القبائلية تلك التي أججت نيران ثورة الفرات الأوسط، إلا أن تلك الحركة القومية التي رعتها ودللتها فولدت (العروبة) في العراق حاملة هذا المرض الخطير. سرعان ما نبذ دعاتها ومروجوها فكرة الوطن الواحد، وراحوا يتطلعون الى أبعد من حدوده ولم يجدوا – مخضرموهم وناشئتهم – ضرورة الى محاولة قومية (حكومية) أو شعبية لردم الهوة التأريخية، التي راحت تزداد سعة وعمقاً بانسحاب البريطانيين التدريجي من الإدارة المحلية والنأي عن المداخلة في الإجراءات الحكومية على الصعيد الشعبي. كان (الوايت هول) خلال العقد الثالث من القرن

(٤) المرجع ذاته. إعتماداً على (جون جوزيف John Joseph) في (النساطرة وجيرانهم المسلمون The Nesto-rians and their Muslem Neighbours ط. جامعة برنستن الأمريكية ١٩٦١ ص١٠١– ١٠٢). يزعم أن البطريرك الكلداني واجه (لجنة كنگ – كرين) في آب وقت وجودها في سورية وطالب بإنشاء دولة أوروبية. والثابت فعلاً هو خلاف ذلك ولا قيمة للزعم، فالبطريرك الكلداني وقتذاك هو (يوسف عمانوئيل الثاني) انتخب بطريركاً في العام ١٩٠٠ وتوفي في الموصل العام ١٩٤٧. قام بزيارة واحدة لأستنبول في ١٩٠١ وهي الزيارة التقليدية التي يقوم بها عادة كل رئيس ملة جديد للسلطان العثماني من أجل تقليده الخلعة أو الوسام وإصدار الفرمان التالي بتعيينه رئيساً للملة. وأنا أرجح أن المقصود هو المطران (ثم البطريرك على اليعاقبة) أفرام برصوم الموصلي، الذي شارك مشاركة جدية في النشاط السياسي الآشوري بعد الحرب وكان عضواً في الوفد الذي قصد الآشوريون شخوصه الى باريس في ١٩١٩، لطرح قضيتهم على مؤتمر الحلفاء المنعقد في ڤرساي ١٩١٩. (راجع أيضاً كتاب سركون داديشوع Dr. Sargon O. Dadesho الوثائقي: القضية القومية الاشورية The Assyrian National Question ط. كاليفورنيا موديستو ١٩٨٧).

العشرين يعيش في حالةٍ من حالات الرضى عن النفس ناشيء عن اقناعه نفسه بأنه أوفى بجميع التزاماته للأقليات القومية والدينية وأن لندن، بعد أن وأدت حلم الكرد في إقامة كيان سياسي، وتعاملت مع المشاعر القومية التركية للأقلية التركمانية معاملة المنتقم المتشفي بسبب ما أبداه زعماؤها وحضريوها من ميول قومية مشروعة أيام النزاع على ولاية الموصل، فضُيّق على سراة القوم فيهم حيناً من الزمن، حتى بدت وكأنها ترغبهم من خلال ذلك في النزوح عن العراق الى تركيا بالإفادة من نصوص (معاهدة لوزان)[٥].

كانت الأقلية التركمانية تعيش بين أقلية كردية في دولة أغلبية، حرمت بحكم الواقع وبحكم الديانة التي تجمعها بالأغلبية، من حق الجهر بقوميتها والإفادة من تلك الحماية الصورية التي ألمحنا إليها سابقاً. واُتهِمت بالعمالة لتركيا كلما تظاهرت بقوميتها.

الحكام القوميون في بغداد، خريجو مدرسة فيصل، أيام الحرب العظمى ظلوا يرون في انتفاضات الكرد العنيفة ومحاولاتهم المسلحة لإثبات هويتهم القومية – خروجاً على الدولة مفسرين عجزهم عن الإقرار بأن لهؤلاء عين ذلك الحق الذي طالبوا به هم أيام الحكم العثماني – في أن تلك الثورات والإنتفاضات لاتخرج عن كونها أعمال عصيان وقطع طرق[٦] ضد دولة مستقلة موحدة.

وفي أثناء قيام لجنة الموصل بتحقيقاتها فسّر القوميون في بغداد تفضيل تلك الأقليات الحكم التركي على الحكم العربي الذي لاتشرف عليه سلطة أجنبية ورفضها الضم الى الدولة الجديدة من غير وجود سلطة الإنتداب، بأنه نوع من العمالة لبريطانيا ناسين أو متجاهلين بأنهم مدينون بالحكم والسلطة الى تلك القوة الأجنبية التي يسّرت لهم الحكم بحماية جيشها.

وورث الجيل الجديد من القومية هذا الطراز من التفكير، فبدا لهم كما بدا لمورثيهم – كل مطالبة بحق سياسي من أقليةٍ وكأنه تآمر على الحكم الوطني وإنكار للجميل. واعتمد هذا الإتجاه الفكري دوماً أساساً للتعامل مع الأقليات القومية، فكان كمن يقيم سداً بينه وبين تحرك هادف الى إزالة الشعور بالعزلة السياسية والتمييز الاجتماعي والإحتقار أحياناً.

(٥) راجع نصوصها في ملحق الفصل السابق.

(٦) في ١٣ من حزيران ١٩٢٥ وافق ياسين الهاشمي ومجلس وزرائه في آخر جلسة لحكومته وقبل استقالتها بأربعة أيام فقط على إصدار قرار بعرض جائزة قدرها مائة ألف روپية لمن يأتي بالشيخ محمود أو يسهل أمر القبض عليه. وعلى عرض عشرين ألف روپية لمن يأتي بإثنين آخرين من زعماء الثوار (كريمي فتاح وصابر بگ). وكان ذلك "بناء على اقتراح المندوب السامي" كما جاء في البيان. وكان بإمكانه أن يؤخر ذلك لتنهض بالتبعية الوزارة الجديدة.

وبالإختصار التعامل معها وكأن أفرادها مواطنون من الدرجة الثانية.

كانت هناك محاولات أولية طابعها المجاملة والزيف في مناسبات معينة، لكنها تبقى رهينة بمناسبتها ولاتتعدى حدود القول[٧].

في كل الأحوال ترى هل كان البريطانيون برعايتهم الحركة القومية العربية على حساب القوميات الأخرى، والى حد سكوتهم وصبرهم على مظاهر العداء الصميم والمفتعل الذي كانت تبديه عناصرها ضد نفوذها – يدركون بأنها لن تبقى منحصرة ضمن النطاق المحلي. أي الإطار الوطني – وأن يوماً ما سيأتي على العراق، حيث يكون لصفتي "قومي" و"وطني" معنيان سياسيان مختلفان تماماً؟

لم يجر التشجيع القومي على حساب القوميات الأخرى فحسب، بل جرى على حساب (الديمقراطية) والإفتئات على السلطة، منحصرة ضمن النطاق السياسي البحت كما بدا ذلك في تقاريرهم حول إدارتهم في العراق:

> "منذ أن عقد المجلس التأسيسي العراقي، أخذت مقاومة الجمهور العراقي لأي نوع من السيطرة الأجنبية تزداد زيادةً سريعة، لتغدو من أعظم المطالب القومية (كذا) شأناً... مما حدا بحكومة جلالته (البريطانية) إلى أن يستقر رأيها بعد كثير من الأناة وتقليب وجوه الرأي الى أن ترجح تجديد علاقتها القانونية، لا ضمن إطار الإنتداب الذي تقررت شروطه سابقاً، بل على شكل معاهدة تعقد بينها وبين الحكومة العراقية. وهذا لايعني بأن المعاهدة المعقودة ستحل محل الإنتداب، بل هي في الواقع بمثابة تحديد شكل الإنتداب ووضعه بصيغة معاهدة"[٨]

وظهر الجيل الجديد من القوميين العرب من خلال تناحُر الساسة العراقيين المخضرمين

(٧) في ٢ من آب ١٩٢٤ صودق على القانون الأساسي، لكن المندوب السامي أوعز بتأخير نشره أي تطبيقه حتى يتولى مجلس الوزراء منح إمتياز النفط بدلاً من عرضه على المجلس النيابي بمقتضى المادة (١٩٣) من الدستور، وخشية اثارة ضجة شعبية حوله تؤدي الى إعادة النظر فيه. وبقي ثمانية أشهر وأسبوعين مدفوناً حتى ١٤ من آذار ١٩٢٥، حيث أصدر ياسين الهاشمي بياناً بنشره والعمل به جاء فيه هذه العبارة: "وليخفق العلم العراقي الذي يجمع في كوكبيه رمز الإتحاد بين القومين النجيبين العربي والكردي تحت ظل القانون الأساسي. ويستظل به عالم (عالماً) بحقوقه مقدر (مقدراً) لواجباته. ويذكر بهذه المناسبة أن العراق حين استعار العلم الشريفي بأبعاده وألوانه أضاف إليه نجمتين مسبعتين في المثلث الرأسي الأحمر قيل لنا في المدرسة ان كل رأس من النجمتين يرمز الى واحد من الألوية الأربعة عشر التي تكونت منها وحدات العراق الإدارية.

(٨) تقرير خاص من حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة ببريطانيا العظمى وشمال أيرلندا الى مجلس عصبة الأمم حول التقدم الذي أصابه العراق خلال الفترة ما بين ١٩٢١ و١٩٣١ (ص١٩٣٢–١٩٣٨). =

وتكالبهم على السلطة، من بين طلاب المدارس والمعاهد التعليمية والمهنية ومعلميهم.

فمنذ ١٩٢٦ بدا شارع بغداد طوع يمين هؤلاء ولم تعد قيادته بيد الدهماء أو رجال الدين[٩]. زاد اعتماد السياسة على هذا الصنف الجديد المندفع لتنظيم المظاهرات والاحتجاجات. لم يكن أحب للطلاب شيء أكثر من الإستجابة الى التظاهرة لسببٍ أو لغير سبب وجيه ليمتليء الشارع بهم ولينضم إليهم المستطرقون زرافات – لأن ذلك معناه الخلاص يوماً أو يومين من مقاعد الدراسة وروتين الدوام اليومي الممل. وهناك شيء آخر أيضاً. هناك الأنباء التي تنشرها الصحف عنهم والأعمدة الطوال التي تخصصها أقلام الكتاب القوميين أعداء الإنكليز والإستعمار الإنكليزي. وكل هذا من شأنه أن يثبت فيهم شعوراً بالأهمية وبالوزن السياسي.

الهتاف بالشعارات الوطنية، تصدي قوات الأمن المدججة بالسلاح بمواجهة جموعهم العزلاء، رشق الشرطة بالحجارة والطوب، إنه أفضل بكثير وأكثر روائيةً من الجلوس ساعات على المصاطب الخشبية وسماع هذر المدرسين. ولم يكن بعسير على الرؤوس القومية المحركة (المعارضة عادة) اختيار المناسبة. فهناك الحضور البريطاني الدائم الوجود والمعاهدة الدائمة التغيير، والإنتخابات المزورة، الإنتداب ككل وامتياز النفط والى هذه كلها أضيفت قضية فلسطين.

وهناك أيضاً التوتر العقائدي بين الشيعة والسنية وهو أخشى ما كان يخشاه البريطانيون.

لأنه لايثور إلا لينتهي باصطدام دموي. وفي كل هذا كان للصحافة والصحفيين مجالهم

Special Report by his Btitanic Majesty: Government in the United Kingdom of Great Brit- = ain and Northen Irland to the council for the League of Nations on the Prpgress of Iraq during the period 1921-1930: London 1932.

(٩) ندر أن حصل إنفجار تعليمي في بلاد تزيد نسبة الأمية فيها على ٩٥٪ كالذي حصل في العراق خلال العقد الثالث من هذا القرن، فاستقدم عشرات إثر عشرات من المدرسين والمدرسات السوريين واللبنانيين لإشباع نهم الإقبال الشديد على المدارس بمراحلها الثلاثة ومعاهدها، التي كانت تهتم بتخريج المعلمين من خريجي الثانويات وتقبل كل من يرغب دون تدقيق لحاقاً بملء شواغر المدارس، التي كانت تتضاعف عدداً بالأيام لا بالأشهر. وأقبل المسيحيون واليهود على الدراسة في حين ترددت الأغلبية المسلمة باديء ذي بدء وأحجمت. وكان الأولون قد أدركوا أن المعرفة في العراق آنذاك لاتُطلب لنفسها بل لتكون مفتاحاً لباب الوظيفة. ولم تمر سنوات قلائل من هذا العقد حتى لحقت الأغلبية بالأقلية ومالبثت أن خلّفتها وراءها وكثر الإنخراط في المدارس والمعاهد، التي تخرج الحقوقيين والمعلمين وضباط الشرطة والجيش. واقتحمت الإناث المسلمات الميدان على المسيحيات واليهوديات في سلك التعليم وما جاءت سنة ١٩٣١ حتى أصبح عدد المعلمات المسلمات يزيد على نظرائهن الأخريات.

الواسع في تقديم هذا النوع من مظاهر "الغضب الشعبي". فهذا الصنف من حملة الأقلام كان سياسياً قبل أن يكون صحفياً. يهتم بإثارة مشاعر الجماهير أو خدمة نشاط حزب أو كتلة سياسية أكثر مما يهتم بنقل الكلمة الصادقة وأريد هنا أن أعطي مثالين:

إتبعت الصحافة قضية الآشوريين الواردين العراق بمقتضى معاهدة لوزان بعد حادث الموصل الصغير – حية في الأذهان. فجريدة (الإستقلال) القومية. لم يخل عدد منهما من مقالة أو تعليق مهيج طوال شهر واحدٍ أعقب الحادث، وعلى أثر قدوم تلك الأسر التى شردتها الحرب من تركيا وسورية وروسيا والبلقان.

جاء في التقرير البريطاني حول الإدارة في العراق (أوائل آب ١٩٢٣):

"تصاعد عدد القادمين الآشوريين الى الموصل، وقام بعض القوميين بشحن الرأي العام الموصلي ضدهم. وأشاعوا في المدينة بأن نية بريطانيا تتجه الى جعل الموصل مستعمرةً آشورية. وتشاء الصدف السيئة أنه خلال بث هذه الشائعات – وصلت قافلة آشورية من اللاجئين (كذا) يقدر عددها بثمانمائة عن طريق إستنبول – حمص، قادمة من نواحي البحر الأسود الجنوبية تحت رعاية (لجنة إنقاذ الشرق الأدنى) فتمت الموافقة على قبولهم وحصل المندوب السامي على الضمانات الضرورية من وزارة الداخلية لإستقبالهم. وما أن وصلت طلائع القافلة المدينة حتى تحرك فريق من الأهلين معلنين احتجاجهم ووزعوا نشرات أوضحوا فيها أن الحكومة البريطانية تريد استعمار المدينة بواسطتهم، فزادت في النار وقيداً. وفي ١٥ من آب ١٩٢٣ حصلت تلك الحادثة التي أدت الى وقوع جرحى"

وعلى أثر ذلك انبرت صحيفة الإستقلال البغدادية ذات النزعة القومية تهاجم سياسة بريطانيا في حشر هؤلاء الدخلاء هجوماً عنيفاً كما ذكرنا. وهذه عينة مما كانت تكتبه:

"هل أن بريطانيا تريد إعطاء وعد بلفوري في الموصل؟ أم إنها ترغب في إقامة مستعمرات آشورية يُسيطر بها على الموصل؟ إننا نحتج وننادي، الحق الحق يا أولي الأمر"[١٠]

وانصرفت الجريدة في حملتها الى تثبيت الفكرة الخيالية حول طموح الآشوريين القادمين الى

(١٠) العدد ٢٣١ للسنة ١٩٢٣، بدأت جريدة الإستقلال حملتها على الآشوريين إعتباراً من ١١ أيلول، ودأبت على نشر المقالات الطوال المثيرة ضدهم ليعكسها العامة على المسيحيين كافةً، كما كانت تنشر كل رسالة أو احتجاج يردها دون تدقيق.

إنشاء دولة خاصة بهم في العراق. وشددت على وجوب طردهم:

"لئلا تصبح الموصل فلسطين ثانية. إن الشعب العراقي لايوافق أبداً على إعطاء أراضيه لعناصر غريبة، ويجب أن لايسمح بذلك إلا لأبناء العراق والأقطار العربية. ليس من مصلحة العراق قدوم الغرباء هؤلاء إليه وخاصة في فترة نموه ونشوئه، فإن في قدوم الغرباء هؤلاء اليه خطراً لا يوازيه خطر، وأبناء العراق يعارضون بشدة قدوم غير أبناء العرب الى بلادهم حتى يسلموه الى أبنائهم وأحفادهم ذوي الإصالة العربية والأمجاد العربية والتراث العربي"(١١).

وانتهز قادة الرأي العام في المدينة وهم وجهاؤها وسراتها تلك الحادثة، فصاروا يمطرون الحكومة والصحف ودائرة المندوب السامي والبلاط الملكي وكل من يخطر ببالهم - ببرقيات الإحتجاج والإنذار والتحذير، وتجاوبت الأوساط الوطنية والقومية في بغداد مع الموصل وأُثير الشارع، وكانت ثمَّ مذكرات احتجاج من نقابة المحامين ومدرسة الحقوق ورؤساء الأصناف والتجارة. وفي الموصل نفسها لم ير بعض رجال الدين المسيحيين مندوحة وتجنباً للسخط العام على طوائفهم - من مجاراة المحتجين المسلمين دفعاً للشبهات وإظهاراً للتضامن.

في العراق لايقبل حيادٌ فإما أن تكون مع الضجة وإلا اعتبرت ضدها. وهكذا قامت الدنيا وقعدت لقضية شجار آني بسيط يحدث من أمثاله الكثير يومياً في القرى والقصبات والمدن، فلا تدعو الى أكثر من إجراءات پوليسية وقضائية إن لم تنته بصلح.

(١١) جريدة العراق (١٠٢٦) كذلك العدد (١٠٢٧) رأت الإفادة من وجود هؤلاء في العراق بالأحرى "لأنه (أي العراق) بحاجة إلى زيادة نفوسه أسوة بمصر. وقدوم الآشوريين سيؤدي الى تلك الزيادة وبذلك يتسنى له النهوض والتقدم مع محافظته على صبغته العراقية الوطنية". واستتلت تقول إن الطريقة الوحيدة لمعالجة الأمر هو "العمل على توزيعهم وتفريقهم على مختلف الألوية العراقية وعدم السماح لهم مطلقاً بالإستيطان في المنطقة التي يفكرون في أن تكون وطناً قومياً لهم... إن الحكومة قادرة على معاقبة الذين لايرغبون في ذلك ويعملون على تحقيق ما يدور في أذهانهم وأفكارهم" آه.
في حين دعت جريدة الإستقلال "باسم الشعب!" الى طردهم. ويظهر أن الهياج الذي افتعله المشاغبون بدعم من الصحافة القومية في بغداد والموصل إثر شجار الموصل بلغ من الغضب والشدة، أن دعا (فيصل) الى الشخوص إليها على رأس وفد حكومي ذي مستوى عال. فراعه ما وجد. وكتب في ١٤ من تشرين الأول ١٩٢٣ رسالة لرئيس وزرائه تنم عن قلقه العظيم وقد أخذ ما رآه بلبه: "قلوب الموصليين مليئة بالغيظ والحقد ومسألة الآشوريين مهمة للغاية وهي نار تحت رماد. لذا فإني أخرتُ سفري الى أن نحلّ قضيتهم نهائياً وذلك بترحيل الليڤي من الموصل. وإني مصر على تبديل مركزهم لأني ناظر الى التهلكة بعيني. والبلية العظمى هي كون الجند المسلح تحت قيادة ضباط بريطانيين، فلو قُدِّر أن حصل شيء فهل المملكة تتحمل دماء البريطانيين وخاصة الضباط منهم. فلذا يجب أن تصر على المندوب السامي بملء قواك لسحبهم".

لكن العاصفة المثارة جرفت تلك الصحافة التي كانت تتهم بانحيازها إلى البريطانيين. ففي (العراق) وهي الصحيفة التي كان يصدرها (رزوق غنام) الأرمني الأصل، لم يكن هناك خلاف حول وجهة النظر التي تبناها الآخرون حول بضعة آلاف آشوري في إقامة كيان سياسي على جزءٍ من الأرض العراقية بدفع ومساعدة من الإنكليز. إلا أنها حذرت من اللجوء الى العنف في معالجة المشكلة بقولها:

"إن قدوم الآشوريين لايشكل ضرراً إذا عمدنا جدياً الى حَل المشكلة عن طريق بعيدٍ عن العنف واتبعنا الأساليب الصحيحة التي تتكفل القضاء على ما يدور في أذهانهم وأفكارهم حول إقامة وطن آشوري لهم"

وبدا في الجو العام، ما يشبه إجماعاً على أن اللاجئين الآشوريين يعملون بجد على تحقيق حلم (سيڤر) في إقامة كيان سياسي لهم. بل أصبحت الصحف اللاقومية المعروفة بانحيازها للأنكليز وقد انجرفت بالتيار وشاركت زميلاتها الأخريات هذا الإعتقاد.

كانت الصحافة القومية تحسم النشاط الضعيف غير المجدي الذي يقوم به بعض المثقفين الوطنيين الآشوريين المغتربين في المحافل الدولية لإحياء حلم معاهدة (سيڤر) بإقامة كيان ذاتي آشوري في موطنهم حكاري. في الوقت الذي كانت السلطات البريطانية في العراق تحول دون سفر أي ممثل عنهم من العراق لحضور المؤتمرات الدولية(١٢).

لم يكن أهل العراق بحاجة الى وقت ليدركوا وهم الخبيرون بالحكام - أن أصحاب السلطة الجدد لايختلفون عن أسلافهم في الجوهر. فهم لابِدع خريجو المدرسة عينها والوجه العربي الذي ظهروا به إنما هو مجرد قناع. أدرك الجمهور العراقي أن ما يصدره هؤلاء الحكام من بيانات مهدئة مطمئنة حول وجود الآشوريين وحول نواياهم هو شيء، وأن ما يضمرونه لهم وما يريدون أن يفهم رعاياهم عنهم هو شيء آخر. وفسروا، ولهم ملء الحق في ذلك، أن هذه البيانات إنما تصدر بضغط من الإنكليز في أفضل الأحوال وإن رأي حكومتهم الحقيقي ليس هذا.

وأثر الصحافة التي بدت تتمتع في ظل الحكم البريطاني ثم المحلي بحرية غير مسبوقة - كان فاصلاً حاسماً في تكوين الرأي العام.

(١٢) منها: الجمعية الوطنية الآشورية الأمريكية Assyrian National Association of America من أبرز مؤسسيها الكاتب القس الآشوري (يوئيل ورده) صاحب المؤلفات المعروفة في الأدب والتأريخ الآشوري كان في نهاية الحرب قد ترأس وفداً غير رسمي لحضور مؤتمر السلام في پاريس.

كانت الصحافة بدعة جديدة في بلد تسوده الأمية. في مجتمع كهذا تنزل الكلمة المطبوعة منزلة تقديس، وإيمان بصحة ما يتلى عليه منها وما تسمعه أذنه من الأفكار والأخبار لايأتيه ريب. فالفرد في مثل هذه البيئة يفتقر عادةً الى المقدرة على تحكيم المنطق والعقل والموازنة بين مختلف الأفكار والأنباء التي تنقلها إليه الصحف. وبدأ الرأي العام في تلك الفترة مرتعاً خصباً لخيال المحررين والكتاب ولم يكن بينهم من وهب قلمه للكلمة الصادقة. فقد كاد كل من عمل في الصحافة يكون سياسياً أو محسوباً على معسكر سياسي. ولذلك لم يكن غريباً أن لاتستبعد جريدة العراق مثلاً، أن تؤدي الحملة العامة على التواجد الآشوري الى أعمال عنفٍ. بعد أن استغل أبشع استغلال قيام البريطانيين بتشكيل جيش صغير منهم في بلدٍ مسلح، تعوّد أهله الثورة ومقاومة الحكومة(١٣).

ليس من المهم عند الصحافة والرأي العام أن يُشرح بأن تشكيل هذه الوحدات كان تدبيراً بريطانياً غايته الإقتصاد في النفقات وتخفيفاً عن كاهل دافع الضريبة الإنكليزي، وضناً بأرواح مواطنيها. بل وكيف يمكن التوفيق بين تصميم البريطانيين على ضم أكثر ما يمكن من الأراضي الى الدولة الجديدة. وكيف تم القضاء على أمل الكرد في قيام دولة قومية لهم بضم إقليمهم بكامله الى العراق – وبين فكرة اقتطاع جزءٍ منه لإقامة كيان سياسي آشوري فيه؟

بقيت سياسة بريطانيا بخصوص ما يُعمل بهؤلاء اللاجئين المشردين تتركز حول إسكانهم بين أبناء جلدتهم في أقصى الحدود الشمالية، ليدرأوا بهم تحرشات عسكرية تركية محتملة ولا أكثر. إلا أن عناصر الشغب في بغداد لم يكونوا يقدمون الحجج لدق فكرة الخطر الآشوري في الرؤوس مهما بلغ من تهافتها وسخفها، يقول شاكسبير "حتى الشيطان نفسه، فإنه يجد في الكتاب المقدس ما يدعم به رأيه".

وتلك القوات الآشورية التي استخدمها البريطانيون في إخماد ثورة الفرات الأوسط رغم قلتها وفي التصدي لثورات الشيخ محمود، كيف تراها تنفي للقوميين في بغداد وفي الموصل وغيرهما بأن اليد التي كانت تحركها وتدفع بها الى جبهات القتال هي عين اليد التي رفعتهم الى كراسي الحكم، وعين السلطة التي كانت تدعمهم أبداً. وغاب عنها كذلك أن قدوم هؤلاء العثمانيي الجنسية، الى بلدٍ كان قبل بضع سنوات جزءً من الإمبراطورية العثمانية، وكل ما تم

(١٣) ذكر تقرير الإدارة البريطانية إن السلطات البريطانية جمعت (١٢٠٠٠) بندقية معظمها حديث الطراز، وأكثر من (٣٠٠٠٠٠٠) إطلاقة من القبائل الثائرة في الفرات الأوسط بمثابة غرامة بعد قمع ثورة العشرين: أنظر Special Report by his Majesty Government in the United Kingdom of Britain, on the Administration of Iraq for the years 1920-1921

أن جعلت له حدود دولية فصلت إقليماً موحداً إثنياً وجغرافياً الى قسمين – إنما هو ممارسة لحق مشروع أثبتته معاهدة لوزان لهم ولم تخترعه – كما أثبتته للعرب الذين سكنوا تركيا وغيرها من البلاد غير العربية، التي كانت جزءً منها. وإنهم في إنتقالهم هذا الى العراق كانوا أحق بالسكن فيه من كثير من دعاة القومية والعروبيين في بغداد والموصل المتحدرين من أصول أوربية وجركسية وأرمنية، وتركستانية. بل أحق من كثير من أهالي النجف وكربلاء والكاظمية، لاسيما طائفة من علماء أعلام ومجتهدين عظام لم ينكروا قط أصولهم الإيرانية. لاسيما أولئك الذين قادوا فكرياً وعسكرياً القبائل العربية لصد الحملة البريطانية في حرب ١٩١٤–١٩١٨. والذين تزعموا وأذكوا نار ثورة الفرات الأوسط في العام ١٩٢٠ التي أرغمت البريطانيين على إقامة حكم وطني.

لم يذكر الرأي العام العراقي إبان تلك الضجة أن خط الحدود الجديد الذي رسمته معاهدة ١٩٢٦ بين تركيا والعراق وبريطانيا قسّم موطن الآشوريين الأصلي بين الدولتين فعلاً مثلما جزّء الوطن الكُردي بين الدولتين شمالاً ومثلما جزّءت المعاهدات العثمانية الفارسية هذا الوطن من الشرق وشطرت قبائل واحدة الى شطرين. وقد بقي الإنتقال بين الحدودين عملاً اعتيادياً لايثير أي اعتراض، بل نص على هذا الحق أحياناً في تلك المعاهدات(١٤).

★★★

يغلب على ظني أن قلق (فيصل) كان طبيعياً لاتعمل فيه. وأن القوميين في الموصل أتقنوا عمليتي الإعداد المسرحي والسيناريو بشكل لا مزيد عليه. وأنا لا أرى في رسالته التي بعث بها الى رئيس الحكومة نية في التهويل وتصوير الوضع بشكل مبالغ فيه، كما إني لا أشك في أنه كان يستعيد وهو يملي رسالته هياجاً مماثلاً ثانياً انتهى بفقدان عرشه عندما نظم قوميو

(١٤) وفدت مع الآشوريين في عين الوقت قبائل كردية تفوق عدد الآشوريين الوافدين جراء عمليات الطرد الجماعية وعلى أثر سحق ثورة الشيخ سعيد بيران. فاستقرّ معظمهما في جهات زاخو ووصلت أعداد كبيرة منهم مدينة الموصل وسكنوها، حتى أن حياً منها سمي باسم عشيرة من عشائرهم فلم يثر قدومهم احتجاجاً. كما عاد الى العراق عدد كبير من أولئك الذين تتركّوا بحكم الإقامة الطويلة أو الزواج أو الوظيفة ومنهم من نسي لغته الأم ناهيك عن كتابتها والتخاطب بها، وقد بلغ بعضهم المناصب الرفيعة في الدولة الجديدة. وأفضل مثال يضرب بعبدالمحسن السعدون، الذي كان يلجأ في حديثه الى التركية دون العربية حتى انه كتب بها وصيته الأخيرة. وأذكر كذلك كبير المفكرين القوميين في العراق (ساطع الحصري)، الذي هاجر الى العراق من تركيا وهو لايعرف العربية – وبقي والعهدة على صديقنا الشاعرالكبير الجواهري – يستعين بمترجم تركي حتى سن الأربعين أثناء مزاولته مناصبه الحكومية التربوية والفنية.

دمشق بتحريض من أعضاء حكومته تظاهرة كاسحة ضد الإحتلال الفرنسي – مترافقةً مع محاولته الوصول الى صفقة مع الفرنسيين تؤمن له البقاء. وكيف أدى ذلك الى طرده.

وما أظن كذلك – أن خفيت عنه مقاصد أولئك الذين كانوا وراء هذه الضجة، وأولئك الذين أمطروه بالاحتجاجات على وجود هؤلاء الدخلاء، وقد ميز فيهم وهو الخبير النابغة في نوايا القوم وأمزجتهم – عدداً ممن احتجوا على تنصيبه ملكاً عليهم ورفضوا أن تنضم ولايتهم الى دولته، بعد سنة واحدة فقط. هؤلاء هم أنفسهم الذين وصفهم في رسالته التالية بالمحرضين الذين أهاجوا رعاعاً لا ضابط لهم ولا رابط[١٥].

لم يكن بين هذا الهياج العظيم وبين ما حصل في (سيميل) إلا عشر سنين. ولم يطل الأمر (بفيصل). فبعد مرور ثماني سنوات على تجربته في الموصل ومن خلال تجارب أخرى مماثلة. بدت صورة هذا المجتمع الذي يقف على رأسه كاملة في مذكرةٍ سرية كتبها بنفسه ووزعها على فريق من الساسة المقربين إليه وقد افتتحتها بهذه العبارة:

"إن البلاد العراقية، هي من جملة البلاد التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية (الملية كلمة يستخدمها المخضرمون بديلاً عن تعبير القومية)"

ثم يكتب بعدها: "أقول وقلبي ملآن أسىً إنه في اعتقادي، لايوجد في العراق شعب عراقي. بل توجد كتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية. كتلات مشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لاتجمع بينهم جامعة. سماعون للسوء، ميالون للفوضى، مستعدون دائماً للإنتقاض على أية حكومة كانت"

صحيح أن هذه الكتلات البشرية كانت تفتقد الوحدة القومية. إلا أن الوعي القومي،

(١٥) رسالة فيصل الى رئيس الوزراء مؤرخة في ١٦ من تشرين الأول: "أنا أشكر لطف فخامة المعتمد على الموصليين بسحبه قسماً من الآثوريين. وأنتظر تمام اللطف وتحقيق وعده بإبقاء القيادة فقط في الموصل. كيف يمكن أن لا أهتم وأنا أرى السيارات المدرعة تطوف البلدة صباح مساء تنتظر حدوث اضطراب. وكيف لا أهتم والنفر الآثوري لا يتجول إلا بسلاحه، وكيف لا أخشى والأهالي يحذرون أن يمروا من قرب معسكر الليڤي؟ إن طلبي هو إخراجهم من بلدة الموصل ولو لمدة مؤقتة لايحتكون بالأهالي في الأزقة وجوار البلدة أن تسكن الأفكار. إذ كان فخامة المعتمد يخشى إستياء العساكر المنظمة المدربة على الطاعة. وكيف لايخشى الرعاع الذين لا ضابط لهم ولا رابط؟ لذا أكرر جميع ما ذكرته لك في كتابي وأنتظر من فخامتك باسم المصلحة العامة – التأثير على القائد العام إذا كان لزوم لذلك. ومنك الجلد. وأن تقدر عظم المسؤولية عند حدوث شيء" آه. (سحبت على أثر ذلك قوات الليڤي من مدينة الموصل واستقر بعضها في كركوك لتواجه عين الإستفزاز والعداء الذي انتهى بمقاتل كركوك المعروفة).

الشعور بالهوية العربية، التحرك إلى أهداف قومية عربية، كانت حقائق وواقعاً تدفع بالدولة ورجالها الحاكمين إلى أمام لكن باتجاه سلبي طابعه الكره والعنف وآيته التمسك بالدين الإسلامي، وفي نأيٍ أوليّ للشيعة عن التعاطف معه بالحذر المعهود والنفرة التاريخية من أي مشروع يغلب عليه الطابع السني، بدا وكأنه سني القوام ذا مظهر كاذب خادع يبدو أكبر حجماً مما هو في الحقيقة، بصحيفة أو صحيفتين كثيرتي الصخب. ومناسبات سياسية بين حين وآخر، تفجر الشارع بتظاهرة أو تتمخض باجتماع كبير واحتجاج جماهيري. ليبدو الزخم القومي أكبر مما هو في الواقع.

ومهما خلا أمرٌ من هذه الأمور من عنصر التهويل والمبالغة عند وضعه في صحيفةٍ، فإنه في أحيان كثيرة، لاسيما في شؤون تتعلق بالحياة العامة والأوضاع السياسية بدا سبباً في إصدار أحكام آنية مبتسرة أو غير دقيقة، وتتعدى واقعها والأهمية التي تستأهلها. فتدخل حوليات التاريخ بهذا الشكل ويحصل العكس أحياناً. فكثيراً ما تغيب وقائع بلغ من خطرها أن حولت مجرى التاريخ – وتضيع في زواياه.

تظاهرة يبدأ بها عشرات، لاتلبث أن تغدو آلافاً من مستطرقين يجهلون سببها وهدفها[١٦].

ومذكرة احتجاج تحمل عشرة آلاف توقيع لا تعني أكثر من قيام ثلاثة أو أربعة من المعنيين بالأمر بطرق الأبواب وإيقاف عابري السبيل وغشيان المقاهي والمحلات العامة لأجل الحصول على التواقيع. وبهذا الشكل بدت الإحتجاجات والتظاهرات على المعاهدات وعلى الإنتداب

(١٦) في العام ١٩٥٤ وعلى أثر نجاح إنقلاب عسكري في گواتيمالا ضد حكومة إشتراكية المنحى أوعزت موسكو لجميع الأحزاب الشيوعية في العالم بتنظيم تظاهرات احتجاج ضد الإنقلابيين وقام الحزب الشيوعي العراقي السري بواجبه، فكان ثم تظاهرة في بغداد ضمت آلافاً كثيرة وبدت وكأنها تنذر بانفجار عنيف، لم يتم احتواؤها إلا بعد إنزال وحدات كبيرة من الشرطة والجيش. والقي القبض على ما يزيد عن المائة من المشاركين في حين نجح القائمون والمنظمون في الإنسلال. وفي مديرية الأمن ببغداد جمع القائم بالتحقيق هؤلاء الموقوفين في قاعة كبيرة وكان من الأذكياء ذوي الخبرة الطويلة. ونشر أمامهم على الحائط خارطة كبيرة للعالم وابتدر حديثه بكلمة سوقية: «گو... أنظروا الى هذه الخارطة جيداً، وكل من يعرف أين تقع گواتيمالا منها فليقف جانباً، وإمرأتي طالق بالثلاثة إن لم أخلّ سبيل من يدلني على موقعها" ولم يخرج أحد.
وشبيه بهذا كنت في السنة عينها وكيلاً عن موقوف بتهمة توقيعه على إحدى مذكرات عديدة نظمها أنصار السلم وخطر ببالي إن أسأله وأنا أعرفه إنساناً بعيدا كل البعد عن السياسة والأحزاب وما إليها – ما الذي حمله على وضع توقيعه على أول مذكرة لأنصار السلم، قال: "قال لي حامل المذكرة: أتحب الحرب؟ قلتُ كلا. قال: فنحن ضد الحروب، أفلا توقع؟ تذكرت حرب رشيد عالي في ١٩٤١، وكنت جندياً مكلفاً في معسكر الرشيد وشهدت رفاقاً لي تتطاير أجسامهم أشلاء في الفضاء بشظايا قنابل الطائرات المنفلقة. فتناولت القلم ووضعت توقيعي". كان هذا بعد ثلاثين عاماً مرت على العهد الذي نتناوله بالبحث الآن.

وكأنها صادرة من شعب مدرك تمام إدراك مصالحه، قدر إدراكه آثار عمله على مصائره. وقد بدت الضجة حول قدوم الآشوريين في الكتب وكأنها تعبر فعلاً عما يخالج ضمير المجتمع. وأنها كما رآها فيصل تنبيء بثورة كاسحة أو تخلّ بروتين الحياة اليومي. مجتمع شبه بدائي سهل الإثارة شديد الحماسة والاستجابة للصخب والضجيج. سيما عندما يُدعى ويُناشد باسم الدين.

★★★

إستقر القانون الأساسي العراقي على دعائم الديمقراطية الليبرالية المعروفة في العالم الغربي آنذاك.

إلا أن واضعي مسودة ذلك القانون وأولئك الذين صوتوا على مواده لم ينسوا تذكير الأقليات الدينية من هذا "الشعب" المستحدث بالأفضلية الدينية للأغلبية. عندما نص في المادة الثالثة عشرة منه على أن يكون الإسلام دين الدولة الرسمي. وجرى هذا القانون مجرى الدستور المصري الذي وضع موضوع التطبيق قبله بسنةٍ واحدة، وورد هذا النص حرفياً في المادة (١٣٨) منه. وحذا حذوه الدستور الأردني الذي استُنَ في العام ١٩٢٨، فورد في المادة العاشرة منه بعين الصيغة(١٧).

أكان هذا محض صدفة؟ كل هذه الدول كانت ضمن المجال البريطاني الأمبراطوري الحيوي وتحت سيطرته. وموظفوه شاركوا في وضع مسودات تلك القوانين وكان لهم رأيهم الحاسم في صياغتها. وفي كل هذه الدول الثلاث أقليات غير مسلمة كبيرة. في حين خلت مثيلات هذه القوانين التي استنت في سورية ولبنان من مثل هذا النص.

وأذكر من قراءتي محاضر جلسات المجلس التأسيسي العراقي أن هذه المادة المؤلفة من شقين مرت دون مناقشة أو تعديل. ومن دون أن يفطن الأعضاء الى أن الشق الثاني يجعل من الشق الأول حشواً لا أثر له من الجهة القانونية التطبيقية. كل ما أفهمه من سبب لحشر هذا النص في دساتير ديمقراطية الصبغة هو أن النفوذ البريطاني في هذه البلاد الثلاثة كان يقصد إبعاد نفسه عن تهمة محاباة الأقليات المسيحية واليهودية في عالم الشرق الأوسط الأسلامي.

ولا يزال موطن العجب أن يصر واضعو الدساتير العراقية التالية خلال العهد الذي عُرف

(١٧) المادة ١٣ من القانون الأساسي: «الإسلام دين الدولة الرسمي. وحرية القيام بشعائره المألوفة في العراق على اختلاف مذاهبه، محترمة لاتُمس. وتضمن لجميع ساكني البلاد حرية الإعتقاد التامة وحرية القيام بشعائر العبادة وفقاً لعاداتهم ما لم تكن مخلة بالأمن وما لم تتناف مع الآداب العامة".

بالعهد الجمهوري على تضمين دساتيرهم هذا المفهوم التحذيري وبعين الصيغة، رغم ادعائهم جميعاً بأنهم علمانيون ذوو عقائد سياسية وأن الدين هو رابطة بين الفرد وخالقه لا بينه وبين النظام السياسي الراهن.

إذن فقد صار لهذا النص حرمة وقداسة، وعنواناً لإمتياز تأريخي مارسه الإسلام على الأقليات خلال ثلاثة عشر قرناً. وهو يعيد الى الأذهان العواقب والمآسي التي نجمت عن تفوق الأغلبية الدينية وامتيازها على الأقليات، ولا أكثر. هذا التأكيد الحديث على الأمتياز الذي خصت الأغلبية الدينية به نفسها امتيازاً وتفوقاً خلال عصور عديدة. كان يفضي دائماً الى عقدةٍ في نفوس الأقليات. وشعور بالنقص الاجتماعي، شعور ثبت في أعماق تفكيرها وتصرفاتها، رغم بصيص أنوار كانت تشع بين الفنية والفينة في مراحل طريق المساواة الطويل.

والشعب الذي هو مصدر السلطات في الدستور؟

بقيت الحيرة في اختيار الكلمة المناسبة لهذا الخليط القومي - العقائدي الذي عرف باسم العراق.

مالت الصحافة والأقلام الى إطلاق كلمة (الشعب) مع الإصرار على (الوطن العراقي). ولكن السلطة كانت تفضل كلمة "أمة" فمجلس النواب كان يعرف عادة بمجلس الأمة، وفي المنهاج الذي نشره (عبدالمحسن السعدون) لوزارته في العام ١٩٢٨ ورد تعبير "مؤازرة الأمة" ويقصد سكان العراق. وفي خطابات العرش كان (فيصل) يرحب دائماً "بممثلي الأمة"، وفي قانون التجنيد الإجباري للعام ١٩٢٦ تجد في الديباجة: "إن الأمة العراقية انتهزت كل فرصة للإعراب عن رغبتها...

وفي أحيان كثيرة تجد إشارة رسمية أو صحفية الى "إخواننا أو أشقائنا الدول العربية"، أو "الدول الشقيقة" وهي صلة مبهمة غير واضحة المعالم تستمد قوتها الروحية من ذلك النضال السياسي السري لرواد الحركة القومية في أواخر العهد العثماني ومن النهضة، الفكرية التي شعت أنوارها الباهرة من إنتاج خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت. ومن مطابع اليسوعيين العربية التي أحيت التراث الأدبي العربي بأفذاذٍ من الباحثين والأدباء، وعلى رأسهم الأب لويس شيخو اليسوعي والأب أنطون صالحاني. ولا أذكر أدباء وشعراء المهجر من أمثال ميخائيل نعيمة وجبران وإيليا أبو ماضي. وانحدر كذلك سيل دفاق من نتاج الأدباء والمفكرين المصريين الملتفين حول دار الهلال برئيسها ومؤسسها جرجي زيدان وأبنائه. والمطبعة

العصرية لصاحبها اللغوي والأديب ألياس أنطون ألياس. هؤلاء يعزى إليهم الفضل الأكبر في نشرات الثمرات الأولى من قرائح كتاب وشعراء وعلماء مصريين خلدت أسماؤهم في تأريخ الثقافة العربية كالعقاد والمازني، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل والرافعي وأضرابهم. ووجدت قصائد الزهاوي والرصافي والكاظمي مكاناً فيها الى جانب حافظ وشوقي. فضلاً عن مساهمة اللغوي الكبير الأديب أنستاس الكرملي الذي بلغ من عشقه اللغة العربية وآدابها أنه جهر بانتمائه الى القومية العربية وهو على فراش موته[١٨].

وزحفت العقائد السياسية رويداً الى تلك المؤلفات وانتشرت بوساطة تلك المؤلفات وغزت الطلبة أول ما غزت، وهي فئة قليلة نسبة الى السكان، لكنها كبيرة نسبة الى المتعلمين امتلأت زهواً وإعجاباً بنفسها لامتلاكها ما لاتملكه الأغلبية الساحقة. وانتبهت وتحسست صدق ما يتحدث به هؤلاء المعلمون السوريون واللبنانيون، الذين تعاقدت الحكومة معهم على التدريس سداً للشواغر وإشباعاً لرغبة الآباء في حصول أبنائهم على ما صار ضامناً للوظيفة في المستقبل.

إلا أن هذا التقدم الفكري الحثيث، لم يصاحبه أو يواكبه تقدم في أساليب الحكم. وبالإجمال فما يطلق عليه تعبير Pays Politique كان يتألف في العراق كما ذكرنا من مجموعة صغيرة جداً من الموظفين غالبيتهم ضباط عثمانيين سنيين سابقين على رأسهم (فيصل).

إن ضابط الإستخبارات البريطاني (الفريد د. مكدونالد)[١٩] يعرض لنا وصفاً شيقاً لأسلوب الحكم في العراق الذي لايعرف موازنة ولا حدوداً في ممارسة السلطة:

"هنا بناء للحكومة مهتز ومضعضع، يفتقر الى الديمومة. وما يمارسه الحكم على الفرد من سلطة، شخصي الطابع، فظيع الى حدّ لايطاق. الحكومة هنا ليست مثل ما هي عندنا، فهي آلة إنتاج وشحذ قوانين وحسب. تأخذ مالاً من جيب أحدهم أو

(١٨) قد يكون من الصدد ذكري هنا ما رواه لي الدكتور داود الچلبي أنه عثر على المنزل الذي يرقد فيه بعد عناء في حي رأس القرية فهاله الإهمال الذي يلقاه وأقام الدنيا وأقعدها على الحكومة حتى نُقل الى دار التمريض الخاصة في المستشفى الملكي ليبقى فيه على حساب الدولة حتى آخر أيامه ويقول (الچلبي) لأنه زاره قبل موته في ١٩٤٧ بيوم واحد وسمعه يجهر بالقول مردداً: إنه عاش عربياً ويموت وهو عربي. وقد أوصى بمكتبته التي لاتقدر بثمن الى مديرية الآثار العامة. فنقلت الى متحف الموصل الذي أفتتح في ١٩٥٣.

(١٩) الفريد ماكدونالد Alfred D. Mcdonald: منفى الفرات The Euphrates Exile لندن ١٩٣٦ ص٥٤-٥٦.

تضع مالاً فيه. تمنع شخصاً من إتيان هذا العمل وتسمع به للآخر وبإصرار لايعرف محاباة!

تدخل منزلاً هنا وهي على معرفة بأن لديك أربعة أبناء أحدهم موظف في دائرة بريد الموصل. تعرف أيضاً أن لديك ميولاً تركية وهذا يجعلك بطبيعة الحال غير موضع ثقة. تعرف بأنك صديق لـ(حميد مخلوف) قبل أن يجري إبعاده الى إيران. فأنت في هذه الحالة موضع شك فإنك قد ترسل معلومات الى إيران. وعلى هذا الأساس يجب إتخاذ موقف معين من دعواك بحقوق السقي ضد (محمد درويش). وستختلف النتيجة اختلافاً جوهرياً في الإدعاء بهذا الحق، أو بملكية تلك الأرض إن اتفق وكان (عبدالقادر) متصرفاً (محافظاً) في الوقت الذي تنظر المحكمة الدعوى، أو أنه نقل الى لواء آخر. وحَل شخص آخر محله...

في هذا التعامل الذي يغلب عليه كثيراً الطابع الشخصي والشامل كل ضروب النشاط بما في ذلك أجهزة الحكومة كافة، يغرز في الناس تلك الخصلة التي نفضل رفضها واحتواءها باعتبارها مجرد نفاق. لكنها في الحقيقة لا أكثر من تسويةٍ توفيقية لأي إنسان بسيط يطارده غول افتقاد الأمان... وجب عليه أن يسترضي، وأن ينطق بكلمات مناسبة تقطر عسلاً. فموقفه مزعزع لا ثبات فيه إذ لا شيء هنا له صفة الديمومة. إنه يعلم بالواقع أن هذا الموظف لديه عنه فكرة جيدة أو سيئة. وأن هذه الفكرة سيكون لها تأثيرها الحاسم على حياته الخاصة. فيشعر بالأرض تميد تحت قدميه وهو أمامه. وهذا هو عين ما يشعر به الموظف نفسه عند مواجهة رئيسه، فهو كذلك يشعر بالأرض تزلزل حيث هو واقف. يشعر بآخر قطرة من الثقة بالنفس تنزّ منه فمن المحتمل أن يعزل لأن أعداءه تحدثوا عنه بالسوء.

إنسان كهذا لا وقت له ولا رغبة في الإفصاح عن رأيه في الشؤون العامة، ولايريد قط أن يُشرك جهة خارجية بما يشعر به، فهذه مشكلته الخاصة"

وسكان المدن لايختلفون في هذا عن سكان الحضر بفارق واحد وهو أن القبائل ظل مرجعها شيخها أو رئيسها في العادة. إن قال لهم احملوا السلاح، حملوه دون أن يسألوا عن الجهة التي سيقاتلونها. وإن بَدء سكان المدن الكبيرة يفكرون برابطة أخرى الى جانب رابطة الدين (لا كبديل)، فإن هؤلاء الأخيرين ظلوا الى نهاية المطاف بعيدين عن التفكير بمصيرهم بحسب مفهوم قومي عربي. قد يقولون إننا عرب وأصلنا من قبيلة كذا، فقط ولا أكثر. ومن لحقته

شبهة في ذلك الأصل لم يكن عسيراً عليه اختراع صلة ما لأسرته.

وهذه العلاقة الغريبة بين الحاكم والمحكوم بخطرها الماحق على الحياة السياسية، جرّدت الدستور العراقي من كل حيوية ونشاط وجعلته مجرد آلة مخجلة في يد الساسة القوميين[٢٠].

في هذا الجو السياسي المريض الذي ساد مجتمعاً متخلفاً متعدد القوميات والمذاهب منقسماً على نفسه، تسلم جيل جديد في بغداد والموصل وبعض المدن الشمالية مهمة النهوض بالوعي القومي العربي الى مستوى آيديولوجية سياسية اجتماعية ذات أهداف تخفرها شعارات.

كانت تبعة ثقيلة من المبدء. حفلت بالثورات، واكتنفها إطار من الإبهام وافتقرت الى زعامة فكرية وقيادة روحية منزهة واعية. حاول الجيل الجديد المتعلم أن يغتصب قيادتها من رجال الحكم الذين بدا واضحاً إنهم لايستخدمون سمعتهم القومية التي حملوها معهم من الحجاز ودمشق في معالجة مشاكل الوطن وأهمها طرّاً محاولة خلق شعب موحد من هذا المجتمع المتعدد العنصريات والأديان والمذاهب. بل استخدموها تبريراً لإجراءاتهم، وأداة لدسائسهم ومؤامراتهم المتبادلة في حرب انتزاع السلطة واقتسامها.

لايمكن الإدعاء بأن حركة القوميين العروبيين الجدد هي ثمرة ثورة فكرية اجتماعية أو نتيجة صدام عنيف مسلح. ولذلك خلت مبدئياً من المحتوى الديمقراطي خلا القضاء على التسلط

(٢٠) منذ أول دورة للمجلس في ١٩٢٥ وحتى الأخيرة (السادسة عشرة) كانت الحكومة هي التي تقرر من سيكون نائباً وفي أي منطقة. ومسؤولية الأجهزة الإدارية المحلية كانت في هذا الباب تنحصر في ضمان نجاح من تفضله السلطة. وفي آخر إنتخابات برلمانية حصلت (أيار ١٩٥٨) في ١١٨ منطقة إنتخابية من أصل (١٤٨)، لم يرشح إلا شخص واحد للنيابة ضد منافس ما. بحيث أن شكلية الإنتخاب أي عملية الإقتراع لم يعد لها لزوم. وهو ما يدعى بالتزكية، أي أن أعضاء البرلمان عينوا تعييناً من قبل الحكومة. وحتى لو كان البرلمان غير ذي أهمية وإن الحكومة لاتشعر بأي واجب يحتم عليها تقديم حساب لممثلي الشعب، فإن الحكومات كانت دائماً هزيلة متصدعة لاتتمتع بصفة الديمومة. وتفسير ذلك أن هذه البلاد كانت تساس وتحكم بمجموعة صغيرة جداً يحترب أفرادها باستمرار فيما بينهم للوصول الى السلطة. وإن نجاح أو فشل واحدة من المؤامرات والدسائس على الحكم كانت تعني للأشياع والحواشي والدوائر المنتفعة والزبائن الفرق بين الرفاهية والإملاق. وبين إعلان ملكية فيصل ومصرع حفيده تقلبت على الحكم يد ٥٨ وزارة بواقع ثماني أشهر وثلاثة أيام لكل وزارة. تداول فيها ١٧٦ وزيراً كراسي الوزارة، معظمهم أناس طارئون، لا وزن سياسي لهم ولا ميزة تؤهلهم. وإنما استوزروا على سبيل المكافأة لخدمة فعلية، أول لأجل إكمال الطاقم العددي لتشكيلة اقتضتها حالة معينة، أو إتقاء لشر قد يناله منهم. هؤلاء الوزراء ما إن يتركوا مناصبهم حتى يلفهم ضباب الخمول ويسبل عليهم النسيان رداءه، ويعودون الى المحل الذي خرجوا منه، بلا ضجة على الأغلب. وبدون أمل في دعوة أخرى مماثلة...

الأجنبي والإستقلال التام. وهو الهدف الذي بان بوضوح في الصحف القومية وفي آثار الأقلام. وبقيت الحركة العروبية تفتقر الى زعامة. يعوزها التنظيم. وبدأت لتنتهي متشرذمة تنجذب بين الحين والحين الى زعامة طارئة. وقيادات موقتة تقذف بها حوادث معينة الى السطح.

ونقطة الضعف الكبيرة أنها تجاهلت بل وحاربت تطلعات القوميات الأخرى السياسية وواجهت مشاعرها بما يشبه العدوان. كانت الصحف القومية تنعت الآشوريين القادمين بالغرباء وتعزو إليهم نية تجزئة "الوطن العربي" بل وتمادت الى محاولة الفصل بينهم وبين سائر المسيحيين الآخرين، بالضرب على وتر الأصل العربي المزعوم لهؤلاء الأخيرين. كذلك كانت تجد التركمان مثلهم أغراباً طارئين جاء بهم المحتل التركي وأسكنهم ليكونوا عيوناً له ورقباء.

★★★

كانت الحركة الكردية القومية التي تزامن منشؤها مع الحركات القومية البلقانية وسبقت نظيرتها العربية بثلاثة عقود من الزمن تقريباً، قد تجاوزت مرحلة الزحف على الأربع عندما بدأت خطط البريطانيين تستقر على دمج الإقليم الكردي ببقية العراق. إستوت على قدميها وتهيأت لصراع مسلح، بنضوج فكري عند قلة من المتعلمين وبأغلبية من الضباط العثمانيين السابقين. إلتفوا حول زعيم قبلي - ديني ودفعوا به إلى طريق اللاعودة في التعامل مع المحتل.

في أواخر العام ١٩٢٢ أعلن الشيخ محمود البرزنجي نفسه حاكماً مطلقاً لكردستان فور عودته من المنفى. وفي العاشر من تشرين الأول من السنة نفسها أصدر في عاصمته السليمانية مرسوماً يقضي بتأليف مجلس وزراء. وفي الشهر التالي إتخذ الشيخ لنفسه عنوان ملك كردستان.

كل هذا تجاهلته صحف بغداد العروبية وغير العروبية. وبقيت تنعت ذلك الجزء من كردستان بلواء السليمانية، الذي هو واحدٌ من المناطق الإدارية (الألوية) العراقية الأربع عشرة. وفي الوقت الذي كانت الصحيفة الرسمية الكردية (روژي كردستان) لاتجد من صفة للضابط السياسي البريطاني (الرائد نوئيل) المعين أكثر من «فيصل» لبلاده، أو ضابط ارتباط بين الحاكم والمندوب السامي في بغداد.

ردت (روژي كردستان) في عددها الأول الصادر في ١٥ من تشرين الثاني على جريدة

(الإستقلال) الناطقة بلسان القوميين في بغداد بهذا:

"إنها (أي الإستقلال) تتحدث عن كردستان وكأنها جزءٌ من العراق لوجود علاقات تجارية واقتصادية بينها وبين بغداد. وهي أيضاً تنعت مجلس وزراء كردستان بمجلس الإدارة المحلية. أقوال كهذه تدعو الى الأسف الشديد. لايمكن أن يصدق المرء أن يبلغ مثقفٌ هذا المبلغ من الطيش في إصدار الأحكام المتسرعة. إننا لم نتوقع من جارنا الصديق العظيم أن يطأ بقدمه حقوقنا التي يمتد عمرها الى ألف عام وأن يقطع العلاقات الطيبة بين الحكومتين والشعبين أو أن يعتدي على حدودنا. إن علوم التأريخ والجغرافية شاهد عدل على أن الأمة الكردية كانت تعيش وحدةً قائمة بذاتها. وقد أثبتت هذه الأمة كيانها القومي بوقائع عملية. فأبناؤها لايقلون ثقافةً وتمدناً وتمكناً من الصناعة والتجارة عن أمثالهم إن لم يتفوقوا عليهم، وكذلك هم يساوونهم في حقوقهم كبشر سوي. ويملكون شروط الأرض والسكان وما الى ذلك. وإن مبدء حق تقرير المصير تجيش به نفس كل مواطن كردي وتملأ عقول كل شعب كردستان. إن نعَمَ الحقوق القومية والحدود الأقليمية التي أقرتها عصبة الأمم حقاً للقوميات، أقرتها لنا أيضاً. ومن أجل المحافظة على نصيبنا في هذا، نحن مستعدون لبذل كل ما وجب علينا بذله من تضحيات وإن لا نضن بأي من إمكاناتنا المادية والمعنوية في سبيل ذلك الحق. وإننا لنصرخ بكل اعتزاز بأننا شعب نقي خالص، لايعرف للخوف معنى وإننا أحرارٌ ولسنا عبيداً..."(٢١)

واستمرت مساجلات جانبية من هذا النوع بعد ضم ولاية الموصل رسمياً الى العراق، وكأن ثم اتفاقاً بين الحكومات وبين الصحافة العربية على تجاهل التطلعات القومية الكردية. وقد

(٢١) في مساجلة أخرى مع جريدة الإستقلال كتبت الصحيفة في كانون الأول: "عندما ينطق المثقف بكلمة كردستان فهو لايقصد به السليمانية وحدها. بل يقصد إقليماً جغرافياً واسع الرحاب. ويفكر في شعب كردي موحد القوام كثير العدد. والحدود الطبيعية لهذه البلاد هي حدود واضحة. وبما أن جميع أهالي ولاية الموصل كرد، فما الذي يدعو شعباً غريباً (يقصد الترك) لاستعادتها. ولماذا يريد الآخر (العرب) حيازتها؟". ومما هو قمين بالذكر هنا أن الشيخ محمود عندما أقام دولته الكردية في العام ١٩١٩ لم تكن هناك دولة عراقية. وإنه حين القي القبض عليه بعد احتلال السليمانية وسوقه مخفوراً الى بغداد، زاره وكيل الحاكم الملكي العام (ولسن)، وهو يذكر تلك الزيارة في كتابه: (الولايات) قوله: "ذكرني الشيخ محمود ببنود ولسن الأربعة عشر وتناول القرآن وأخرج منه تلك البنود مترجمة الى الكردية مع نص البيان المشترك، الذي كانت بريطانيا وفرنسا قد نشرت له (بضغط من الولايات المتحدة) في ١٩١٨ حول حقوق القوميات الصغيرة في الشرق الأدنى" (أوردنا نصه في محل آخر من الكتاب).

برهن القوميون الكرد بأنهم أبعد نظراً وأنفذ بصيرة بالمستقبل من نظائرهم العروبيين(٢٢) خلال تلك الحرب الدبلوماسية كما بيّنا سابقاً. ولم تنتهز الفرصة لإيجاد نوع من صلة أو تقارب يمهد السبيل الى نوع من الوحدة الفكرية والإنسجام الاجتماعي. وبقدر ما كان موقف القوميين العرب هؤلاء في بغداد والموصل سلبياً وأحياناً عدائياً أزاء الأغلبية الشيعية، كان كذلك موقفها من الأقليات القومية.

تتكلم الصحافة والحكومة عن "الوطن الواحد" وليس هناك عملٌ جدي لخلق عجينة موحدة من سكانه، ولا عجب إن وجدنا المجموعات العنصرية والمذهبية في موطن ذلك النزاع تشترط بقاء الإنتداب البريطاني على العراق في حالة ضم الولاية إليه. وقد أفاد البريطانيون من موقف المسيحيين واليهود فضلاً عن الموقف الكردي الواعي. رغم أن الإحتياطات لحماية الأقليات التي وضعها البريطانيون في إطار دولي – محلي مزدوج غير فعالة كلما استدعيت لحل مشكلة، أو انتدبت لدفع خطر.

وبدت السلطات البريطانية بعد تخليها عن تطبيق نظام (ساندمان – بروس) تعتمد بشكل متزايد وببعض اطمئنان على الطبقة الحاكمة بطابعها القومي... مطلقة الحرية لنشاط الجماعات القومية وصحافتها. وقد حصل هذا قبل ظهور آثار الإتجاه القومي في التعليم، عند وقوعه في أيدي التربويين السوريين واللبنانيين المستقدمين، وهؤلاء لم يكونوا على علم بواقع المجتمع الجديد. إن التشجيع القومي بدا رغم شوفينيته وعدم انفتاحه – وكأنه يستقيم مع السياسة البريطانية في العراق. لاسيما ببقاء الأقليات القومية والدينية تتطلع الى البريطانيين كملجأ أخير لها، وكان كذلك مفيداً لمواجهة المشاعر القومية الكردية التي كانت تهدد دائماً بانتفاضات مسلحة. أو انفجارات عدائية عنيفة.

في هذه المرحلة لم يكن هناك ضرورة أو مشروعية في رفع القوميين العرب شعار "وحدة التراب العراقي". لكن عندما صار هذا ضرورةً في أواخر العقد الثالث وأوائل العقد الرابع، بدا هذا الشعار عبارة مفرغة من معنى عند الأمة المثقفة الواعية وعند الأقليات، إذ كانت

(٢٢) أفضل مثال يمكن تقديمه في هذا الصدد هو موقف الشيخ محمود الحفيد عند قدوم لجنة التحقيق الدولية الى السليمانية لإستطلاع رأي الأهالي. وفي ذلك الحين كان الشيخ معتصماً بالجبال مشتبكاً مع القوات المختلطة بحرب أنصار. إلا أنه توقف فوراً عن عملياته وبقي بعيداً. يقول إدموندز: "كان الشيخ محمود أذكى وأبعد نظراً من إظهار نفسه أثناء زيارة اللجنة، وبقي بعيداً. وقررت اللجنة من جانبها إنه ليس من المناسب استقدام ثائر علني للشهادة. وانتظر الشيخ حتى عادوا فواصل عملياته العسكرية. وكان إذذاك يتلقى تشجيعاً ومعاونة من الأتراك". ترجمتنا: (كرد وترك وعرب)، ص٣٧٦.

دعوى القومية العربية (العروبة) قد دخلت طريق اللاعودة في التعصب الشوڤيني لا بإنكارها فحسب على الكرد مثلاً حق تقرير المصير، بل بعدم اهتمامها بمحاولة التوصل الى نوع من التعايش السياسي يؤمن لهؤلاء بعض ما طمحوا إليه. وبسبب الأصرار على هذا الموقف والإيغال فيه، سنرى بعد مرور أربعين عاماً أن بعض الفئات والأحزاب القومية العربية التي وثبت الى الحكم في العراق تراه أرضاً عربية وأن الكرد ينحدرون من أصل عربي أو غلب عليهم الدم العربي منذ العصر العباسي، وأن الآشوريين والمسيحيين كافة هم عرب أصلاً.

إن لجوء البريطانيين الى تشجيع حركة الوعي القومي العربي في العراق يمثل تحولاً جذرياً في سياستهم المحلية وبديلاً لا مناص منه لنظام (ساندمان – بروس) الذي طبقوه منذ أول اتصال لهم بالعشائر العربية في العراق الجنوبي[٢٣].

(٢٣) عرف النظام تأريخياً باسم مستحدثه (سر روبرت ساندمان Sir Robert Sandman) ومطوره (بروس R.I. Bruce) وكلاهما موظف كبير من موظفي الإمبراطورية البريطانية في الحدود الهندية الشمالية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٦٩–١٨٧٦ تقريباً)، والقصد منه العمل على تطويع وكسب ولاء القبائل البدائية المنتشرة شمال جبال الأندس (بلوجستان) ومن ثم إدخالها ضمن منطقة النفوذ البريطاني في الهند. وكان يقصد به من جهة حماية سكان السند القاطنين على الحدود من غارات القبائل الجبلية ذات المنعة والإستقلالية في الجبال الوعرة المرتقى، ومن جهة أخرى ترصين الدفاع عن الهند ضد الهجمات الخارجية. وبالتالي الى مد السيطرة البريطانية على بلوجستان. وكان يقضي بتمويل النظام القبلي، وشراء الحاكم المحلي الأعلى خان (كلات). كان هذا هدف (ساندمان) الأول وقد حاول مرؤوسه ثم بديله (بروس) فيما بعد تطبيق هذا النظام على قبائل (مهسود) في الحدود الشمالية الغربية أيام كان مندوباً سامياً في (دراجات). فلم يصب النجاح الذي أصابه سلفه في (كلات)، لأنه وبشكله "السندماني" كان يرتكز بالأصل على نفوذ شخصي لزعيم واحد، وكذلك لأنه بني على التمويل والمساعدات المالية التي تبدو وكأنها عنصر شراء نفوذ غير مؤكد أو ابتزاز ثقة. ولأن قبائل (المهسود) في الحدود الشمالية كانت تتمتع بحرية وديمقراطية لاتتمتع بها قبائل البلوش ولا البروهوي كذلك، ولأن الزعامة فيها لاينفرد بها واحد وشيوخها الذين يطلق عليهم لقب مالك فهم لايتمتعون بسلطة مطلقة، بل يشاركهم فيها الزعماء الدينيون الذين كانوا يمارسون سلطة مساوية لـ(مالكي) القبائل المذكورة. كان (بروس) يريد إقامة علاقة نفوذ متبادل وحماية متبادلة، أي المنافع التي يجنيها الزعماء من الحضور البريطاني والمنافع التي يجنيها البريطانيون من الولاء القبلي. فالنظام والحالة هذه بأصله وفصله، وحتى نهاية العمل به كان يفتقر الى قوة عسكرية. في حين ما يطلبه البريطانيون منه، الإستغناء عن التواجد العسكري للسيطرة على الأرض والسكان بأقل نفقة ممكنة مع الإقتصاد في الأرواح. نقول: من غرائب الصدف أن (بروس) الذي كتب قبل عشرين عاماً من أول احتكاك بريطاني مباشر بالكرد في العراق. نراه يقارنهم بقبائل الهنود مقتبساً فقرة طويلة من كتاب لورد كرزن: (بلاد فارس والمسألة الفارسية) وفيها يدافع هذا المؤرخ ورجل السياسة عن الكرد وما عزي إليهم من الوحشية وسرعة التحول والتمرد. وبعد اقتباسه هذا اختتم (بروس) الكلام بقوله: "لو وضعنا اسم الكرد بدلاً من (المهسود) و(الوزيري) فإن كلامنا ينطبق بعين الصحة على الآخرين (بروس: سياسة الى الإمام، ط لندن، ١٨٩٨). [راجع كتابنا يقظة الكرد، ط. أربيل ٢٠٠٢].

واعتمد (كوكس) وضباطه السياسيون فور نزول الحملة البريطانية ساحل البصرة حتى إكمالها احتلال العراق. وأصيب بضربةٍ مميتة في ثورة الفرات الأوسط (ثورة العشرين)، كما أصيب بنكسة مماثلة في كردستان.

كان نظام (ساندمان – بروس) أثناء زحف الجيوش البريطانية أساساً للعلاقة بين إدارتهم الجديدة وبين شيوخ القبائل وزعمائها بنجاح ظاهر تبين فيما بعد أن مبعثه وجود الفرق العسكرية بأسلحتها الفتاكة التي لا قبل للعشائر بمواجهتها يدعمها في الوقت نفسه أسطول جوي عظيم، وبالذهب البريطاني أيضاً.

بقي البريطانيون الى حين يعتقدون بجدية وقناعة، أن هؤلاء الشيوخ الذين محضوهم ولاءهم – في الظاهر – قد يكونون قوات بديلة لقوات عسكرية مرابطة، تقوم على حفظ الأمن وتضمن لهم إخلاد أفراد عشائرهم الى السكينة وإطاعة القانون.

لكن القبائل كانت عديدة بكل بطونها وأفخادها. والزعماء الروحانيون في النجف وكربلاء والحلة وغيرها يشاطرون الشيوخ نفوذهم في الغالب. بل كثيراً ما كان هؤلاء الشيوخ يحتمون بهم ويلجأون اليهم ليحسموا نزاعاً أو ليبدوا في صورة حسنة عند أفراد قبائلهم. وكثيراً ما كان ينشب نزاع في الأسرة الحاكمة لقبيلة كبيرة متعددة الفروع – على الرئاسة العليا للقبيلة، وقد احتدم هذا النزاع عند تطبيق النظام لصيرورته منافسةً على من يكون الأقرب الى السلطة الجديدة الذي يحظى بسخائها والسلطة التي تخوله إياها، لتجد شكاً منذراً بالإنفجار وسوء العقبى. ويزداد الوضع خطورةً عندما يجد الضابط السياسي نفسه في دور حكم في نزاع قبائلي على حقوق رعي أو ملكية أراضٍ أو حق سقي. وكان مقدراً لهذه السياسة التي دام عمرها خمس سنوات تقريباً أن تنتهي بقيام معسكر قبائلي من الزعماء المنبوذين معاد للسلطة، لقبيلة واحدة أو قبائل متنافسة. وإلى هذا كله تضاف طبيعة الشيوخ المتقلبة السريعة التحول. وانتقالهم الفجائي الى موقف عداء بعد ولاء لسببٍ قد يكون تافهاً بنظر الضابط السياسي.

ويورد المؤرخون العراقيون وكُتّاب السير – ما يؤيد هذا من الوثائق البريطانية والمكاتبات الرسمية بين الضباط السياسيين ومرجعهم في بغداد. والأمثلة كثيرة. ففي الجنوب كان الصدع الكبير الذي شق عشائر آل فتله العظيمة تسبب به إلتزام الضابط السياسي جانب آل فرعون، ضد عبدالواحد الحاج سكر. وكذلك انقسام عشائر العبيد في أسفل الفرات بانحياز زعيمها (خيون) الى السلطة.

وطبق البريطانيون هذا النظام في كردستان، فبدأوا بتعيين الشيخ محمود حاكماً على منطقة واسعة من كردستان مركزها السليمانية وخولوا صغار الشيوخ في مناطق أخرى سلطات إدارية مشابهة بعض الشيء. إلا أن الشيخ كما تبين لهم كان يعمل لحسابه وبالتنسيق مع ضباط سابقين وموظفين مدنيين بهدف سياسي بحثاً عن مستقبل قومي. وعندما فرغ صبرهم منه ونفضوا أيديهم من أمل التفاهم معه، حاولوا التعويض عنه أو إقامة جبهة من الشيوخ الكرد معارضة له بالنفوذ، كالسيد طه الشمديناني، وتوسلوا بنفوذ بكزاده الجاف وأصابهم الفشل، بل داعبتهم فكرة استخدام إسماعيل آغا (سمكو) الشكاك، رغم كسبهم زعماء آخرين أمثال شيوخ پشدر، ورجال الدين شبه القبليين كالطالبان من الذين كانوا يجدون يد الشيخ محمود ثقيلة، وسيطرة القوميين الكرد من مناصريه بغيضة وغير شرعية.

قضى البريطانيون على حكم الشيخ وجعلوا منه طريد عدالة. إلا أن فترة حكمه كانت كافية لتثبيت خط النضال القومي الكردي على أسس منهجية، إذ سرعان ما راح الكرد القوميون يتابعون بإهتمام كبير ما سيسفر عنه نشاط حزب (الإستقلال: خويبون)[٢٤].

في تلك الفترة لم يبلغ القوميون الحضريون العرب هذه الدرجة من التنظيم الحزبي. وظلت جماعات وأفراداً يلتفون حول صحيفة ما أو ينتسبون إلى بقايا الأحزاب والجمعيات السرية التي تخلفت منذ أواخر العهد العثماني في بغداد والموصل وإلى درجة ما في البصرة.

ولم ينج الآشوريون: المستقرون منهم والقادمون من تجربة تطبيق البريطانيين نظام (ساندمان - پروس) عليهم فبتقريبهم آل مار شمعون أثاروا النزاع القبائلي الذي كانت النكبة المشتركة

(٢٤) تذكر الحوليات الكردية إن مؤتمراً كردياً في العام ١٩٢٧ التأم في إحدى جبال كردستان ضم مندوبين عن مختلف القبائل والمنظمات السياسية فضلاً عن مندوبين يمثلون الثوار الكرد في العراق، وعن أولئك الذين لجأوا الى الجبال بعد ثورتي الكرد في تركيا. وفي خلاله اتخذت قرارات جريئة هامة. فقد تقرر حل جميع المنظمات القومية الكُردية وانطواؤها في إطار حزب واحد هو خويبون، كما اختارت لجنة مركزية للإشراف على نشاط الحزب، وتقرر استمرار النضال "حتى خروج آخر جندي تركي من كردستان". وتقرر أيضاً إقامة قيادة مركزية موحدة وتهيئة مخازن للذخيرة والأرزاق. والعمل على إنهاء الخلافات الأرمنية - الكردية - الآشورية واتخاذ بليدة (كدراڤا) في جبل (آگري داغ) عاصمة مؤقتة. وإجراء حوار مع الشعب الفارسي وحكومته للتفاهم. وإقامة صداقة مع سلطات الإنتداب في العراق وسورية. كان ذلك في ربيع العام ١٩٢٧. وفي شهر أيار من السنة نفسها أُعلن في بيروت عن تأسيس الحزب وانتُخب (الأمير جلادت بدرخان) له رئيساً. ويظهر أن ثورة آگري داغ التي قادها (إحسان نوري) كانت أولى ثمار نشاط خويبون السياسي الذي عقبه وفدها الى عصبة الأمم لشرح الأساليب الوحشية التي ارتكبها الأتراك. في السنة التالية عقدت خويبون مؤتمرها التالي في زوريخ بسويسرا وفيه أدانت الأعمال الوحشية التي ارتكبتها السلطات التركية إزاء الأقليات الأرمنية والآشورية والكُردية خلافاً للمواد ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٤ من معاهدة لوزان التي تعهدت بها حماية الأقليات.

قد دفنته إلى حين. فكان هناك (مالك خوشابا) زعيم تياري السفلى، الذي ظل يناصب العداء كل خطة لبيت مار شمعون يد فيها. وكان هناك أيضاً تحول عن هذه الزعامة الروحية - الدينية بالإعتماد حيناً من الزمن على المحارب آغا بطرس البازي، ذلك التعاون الذي أدى الى المغامرة العسكرية الخائبة المعروفة بحملة (مندان).

في تقرير كتبه (ميجر سون) الضابط السياسي المعين في السليمانية، نراه يقتبس فقرة ذات دلالة كبيرة - من تقرير كتبه له النقيب لونكريك[٢٥] معاون الضابط السياسي في كركوك قال:

"رغم القبول الذي حظي به نظام (ساندمان - پروس) من عدد كبير من الكُرد، إلا أنه سيشيع النقمة حتماً في نفوس أولئك الذين لايخدم النظام مصالحهم، مثل سكان المدن والقصبات الكبيرة الذين يرغبون في عودة حكم الأفندية (يقصد الموظفين السابقين العثمانيين). وأنا أخشى أن ينزع الكُرد في ظله الى الظلم والطغيان ويساوون الأتراك فيهما، بل هناك مخاطر في أن يرفض الفلاحون هذا النظام الجديد"

وختم تقريره بهذا النبوءة:

"وبدون مماراة، إن هذا النظام يضحي بالديمقراطية ويقدمها قرباناً للقومية في مختلف الظروف والأحوال. سيكون سهلاً علينا وإن كرهنا - أن نعير أذناً صماء لنداءات الإستغاثة الصغيرة المشروعة ضد من نصبناهم من القبليين"

ونجده في تقرير آخر يشير الى الأخطار الناجمة عن وضع رجال القبائل تحت رحمة شيوخهم. إلا أنه مع هذا يرى في النظام فائدة واحدة، وهي إنماء الشعور القومي عند الكرد "لأنه ينتشل القبلي من إسار نفوذ الموظفين المهتريء العظيم الأذى. ويحدّ الى درجة كبيرة من عدد المتجاوزين على مباديء العدالة والحرية"[٢٦].

في كردستان عمد البريطانيون الى إسناد وظائف إدارية الى عدد من شيوخ القبائل. (مدير ناحية، قائمقام، جابي ضرائب الخ...) وأمسك عن ذلك في الجنوب عند تطبيقه النظام. وكان من آثار ذلك أن تنامى في الكرد شعور مبهم بأنهم يتخطون العقبات الأولى في طريق

(٢٥) بلغ رتبة عميد قبل تقاعده. وألف كتابين هامين عن العراق: (أربعة قرون من تاريخ العراق) و(العراق ١٩٠٠-١٩٥٠). صدر أولهما في لندن العام ١٩٢٥.
(٢٦) تقرير الإدارة لقسم السليمانية (للسنة ١٩١٩) ص٣ و٤. وتقرير إدارة قسم كركوك ص٤١٧.

أمانيهم القومية وهاهم يحكمون أنفسهم فعلاً وهو أمرٌ لا عهد لهم به من قبل، فقد تعودوا أن يجدوا هذه الوظائف وقفاً على موظفين عثمانيين غرباء.

لم يرقَ استخدام نظام (ساندمان – بروس) في الجنوب إلى حَد استخدام الشيوخ في وظائف إدارية. وقد يكون سبب ذلك صدود الشيعة عموماً عن تقلد وظائف حكومية. أو الخوف من ازدياد حدة النزاع على الزعامة في القبيلة الواحدة. أو خشية تغلب العصبية القبلية في النزاعات المحلية.

كان نظام (ساندمان – بروس) ينسجم في ذلك الوقت مع سياسة بريطانيا المالية في العراق، التي ترمي الى إنقاص النفقات "الى حد الربع" وهذا لايتم إلا بسحب القوات العسكرية رغم تحذير الضباط السياسيين من مغبة ذلك، فقد تُرك معظمهم بحفنة من الجنود والموظفين الهنود. وبقوة من المجندين المحليين (الليڤي) ذابت أمام العشائر الثائرة وتركت الضباط السياسيين ليُقتلوا أو يهربوا أو يختفوا.

ربما لم يكن للفصل الخاص بثورة العشرين وجود في التاريخ لو وجدت في الفرات الأوسط قوات ردع بريطانية كافية[٢٧].

(٢٧) أغفل الكتاب المؤرخون للثورة أثر سياسة (ساندمان – بروس) البريطانية في قياسها عند تحليلهم بواعثها وأسبابها واستخدم معظم هؤلاء في تعاليلهم مصطلحات عصرية جداً (عملية جداً) بسخاء لوصف الثورة. وإنك لتجد في مؤلفاتهم تعابير من أمثال "تحرر، تبعية، عروبة، وطنية، إقطاع، برجوازية، إستعمار، جماهير، شغيلة، إمپريالية. كومبرادور" تجد من الصعوبة بمكان أن تضعها بشكل ينسجم مع الدعوة العامة للثورة الى الجهاد ضد الكفرة، وتطهير أرض الاسلام منهم. وأما شعار الإستقلال، والخلاص من الحكم البريطاني، فكان يلاحظ فحسب في جريدتين أو ثلاث تصدر في النجف ولايتجاوز عدد النسخ الموزعة من كل واحدة بضع مئات. كذلك كان هذا يسمع في مجلس المثقف الكبير ذوي النفوذ الأدبي في بغداد (يوسف السويدي) والحلقة التي كانت تلتف حوله.

من الكتب (العلمية جداً) التي ألفت عن ثورة العشرين، أطروحة (رسالة) للكاتب السوڤيتي (ل. كوتولوف) ألفها في ١٩٥٨ ونال بها درجة الدكتورية من المعاهد السوڤييتية بعنوان (ثورة العشرين التحررية) هكذا شاء لها عنواناً مترجمُها الى العربية. وقد حظيت بأكثر من طبعة في أكثر من بلد عربي، لا أراني أستطيع إغفال الكلام عنها من دون أن يعتبر ذلك مني خروجاً عن الصدد. يذكر الكاتب الإجتماعي العراقي اللامع الدكتور علي الوردي حينما تصدى لهذه الرسالة في (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٥ ص٢٧٤. ط بغداد ١٩٧٨) إنها: "لقيت ترحاباً وفرحاً من بعض الكتاب. وإن أحدهم الدكتور كمال مظهر وصفها في تعليق له عنها نشره في عدد ٣٠ حزيران ١٩٧٠ من جريدة التآخي. بأنها "نموذج حي لأسلوب البحث العلمي الحديث الذي نحن بأمس الحاجة إليه لتقييم تاريخنا على ضوئه (ويجيب على القول هنا أنا الذي كنت وقتذاك رئيساً لتحرير هذه الجريدة – بأني كنتُ في ذلك التاريخ خارج العراق. وقد سمح بنشر المقال من قام مقامي ومن دون علمي طبعاً). إن تعليق الدكتور الوردي (وقد نعاه الناعي وقت كتابة هذه السطور) بذلك التعقيب الساخر الرائع القوي الحجة لم يترك =

يقول أيرلاند:[٢٨] "كثير من الشيوخ ساهم في ثورة العشرين وحمل السلاح ضد البريطانيين بسبب عداءٍ لأولئك الشيوخ الذين وجدوا حظوة عند الضباط السياسيين يفوق عداءهم للبريطانيين أنفسهم. إنهم ماثاروا الاّ بقصد وضع حدٍ لتعسف الشيوخ الذين يحتمون بالنفوذ البريطاني"

وهناك كاتب عراقي ربما كان الوحيد الذي نوه بآثار نظام بروس – ساندمان المدمرة، إلا أنه كما يبدو لم يحط علماً بتفاصيل عن أصول النظام وأساليب تطبيقه المتأخرة قبل تطبيقه على العراق. قال ما نصه:

"عندما احتل الإنگليز العراق، ساروا على سياسة توحيد العشائر بدلاً من تشتيتها، وقد اتبعوا في ذلك الطريقة التي اتبعها (سر روبرت ساندمان) في

= لي سوى القليل من التعليق حول هذا النموذج الحي من البحث العلمي الذي جاد به علينا الأستاذ كوتولوف، لكنه قليل لابد منه. أقول: كثيرة وكثيرة تلك الجنايات الكبيرة على التاريخ العام التي حفلت بها آثار الأكاديميين أصحاب الدرجات العلمية من المعاهد السوڤياتية، عندما لاينفكون أبداً يحاولون تفسير كل حدث تاريخي على أسس الماركسية – اللينية وبالتفسير الذي وضعه لها (بليخانوف). وما أظن محاولة كاتالوف في حصر ثورة العشرين العراقية ضمن هذين الإطارين – كانت سهلة. فمن أمانة على قراءة النصوص العربية التي أعتمدها ومن هداه إليها وهو حي يخلق، ذكر لي إنها كانت محاولة خرقاء قدر ما كانت متعبة. وبالفعل فقد بدا لي عند قراءة ما كتبه كذلك الذي يحاول أن يسحب شريطاً قصيراً من المطاط فوق مسطرة طويلة (مسطرة الماركسية اللينية) لينفلت من يد فيضرب اليد الأخرى. إن لم ينقطع من الوسط. والمسألة هي أن لا سبيل الى طالب الدرجة العلمية للتقدم برسالته الى اللجنة الفاحصة من غير أن يحشر فيها نصوصا منقولة عن ماركس أو لينين أو ستالين (قبل أن يأفل نجمه) حتى وإن كانت رسالته في موضوع الكيمياء أو البايولوجيا. فهؤلاء المساكين يعلمون بالتجربة إن الفاحص يبدأ بالنظر الى ثبت المراجع وعلى مقدار ما ذكر صاحب الرسالة من آثار هؤلاء يتوقف قبول رسالته ونجاحه في طبعها. وقد تواتر على وصف حيرة هؤلاء وإرتباكهم في عملية العثور على النص المناسب. ويلجأون في مسعاهم هذا الى مراجعة وقراءات مستفيضة لا طائل تحتها لأعمال هؤلاء المفكرين الإشتراكيين تزيد في أحيان كثيرة على جهودهم في قراءات المراجع الخاصة بأصول بحثهم. وتبلغ الحراجة أوجها حين يحاولون التوفيق بين مواد تتعلق بمرجع البحث وبين ما عثروا عليه من نصوص إشتراكية، ولما كانت هذه النصوص الأخيرة غير قابلة للتحوير والتحريف، تراهم لهذا يلجأون عند الضرورة الى تحريف النصوص الأخرى أو تزويرها أو الإختلاق على المؤلفين عند الحاجة. وقد وجد الوردي كثيراً من النصوص التي نقلت عن مؤلفين عراقيين، محرفة مقطعة الأوصال واورد طائفة منها. وتتأتى حراجة المؤلفين السوڤييت وسقطاتهم من إرتباك الحكم على الأحداث التاريخية بوجهة نظر الدولة أو الحزب الرسمية إليها في وقت من الأوقات. ومن شاء التأكد من هذا فما عليه إلا أن يراجع الطبعات المختلفة لدائرة المعارف السوڤياتية إعتباراً من الطبعة الأولى ١٩٣٧ (Bolshia Sovetskaia Entssikopedia). ومقارنة ما دوّن عن مادة معينة في طبعة متقدمة بما دوّن في طبعة لاحقة.

(٢٨) فيليب ويلارد أيرلاند Philip W. Irland: (العراق Iraq لندن ١٩٣٧ ص١٢٢).

بلوجستان عام ١٨٧٥، ومؤدى هذه الطريقة اختيار شيخ واحدٍ في كل منطقة العراق. أو كل عشيرة كبيرة فيه. وتدعيم هذا الشيخ بالمال وبالنفوذ وبالسلاح عند الحاجة لكي يكون مسؤولاً من الأمن والنظام في منطقته. وبذلك تنشأ منفعة متبادلة بين الإنكليز وهذا الشيخ المختار. فهم من جانبهم يحصرون السلطة في يده ويفضلونه على منافسيه في المعاملة ويخففون عنه عبء الضرائب وهو من جانبه يقوم بتنفيذ ما يأمرونه به ويحمي مصالحهم"(٢٩)

عولج هذا الفشل عسكرياً وبصرامة غير معهودة من المستعمرين البريطانيين وتم التخلي عنه، سيما بعد أن وجدوا مصداقاً لتحليلات لونكويك أنه ينمي الشعور القومي في كردستان خلافاً لنوايا الحكم البريطاني ورغبته. هذا الفشل كان أحد الأسباب التي دعتهم الى إقامة حكومة محلية وجلب (فيصل) وطاقمه القومي لملء المناصب فيها. وبتوالي السنين القليلة السابقة على الإستقلال لم يكتف البريطانيون بالإغضاء عن التيار القومي، الذي انطلق في الصحافة والشارع والمدرسة وبشعارات معادية لحكمهم، بل راحوا يشجعونه من طرف خفي ليكون بديلاً عن نظام ساندمان. وقد أدركوا أن انتعاش المحيط المدني ونمو الحواجز العرقية وتكاثر الجيل المتعلم الناشيء وسلامة وجودهم لايتوقف بعد الآن على تطويع الريف العشائري بضمان ولاء زعمائه، وإنما على سكان المدن وطبقتها الوسطى ذات المصالح. ولم يطل بالبريطانيين الزمن ليدركوا بأن تشجيع وفسح السبيل للتيار القومي العربي في الدولة الجديدة يتيح لهم ضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد.

التيار القومي العربي سيكون بحالته التي أرادوها له عامل كبح للتطلعات القومية الكردية، وسلاحاً صالحاً لقراع "الأفكار الهدامة" التي هبت ريحها من الشمال الروسي، كما إنها ستنقل بحكوماتها - عبء مسؤوليتها عن الأقليات الدينية - العنصرية. وهي مسؤولية يصر البريطانيون على تسميتها بالمسؤولية الأدبية. لم يكن من مصلحة البريطانيين قط أن تنشأ في هذه البلاد حركة وعي قومي ديمقراطية - ليبرالية المنحى والإتجاه، تهضم معدتها طموح القوميات الأخرى، وتترفع عن التمييز الديني والمذهبي.

وبدأت الحركة القومية سنية المذهب، بواقع قوامها القيادي السني والصدود الشيعي التقليدي. فالطاقم الحاكم الذي جاء به فيصل كاد كله يكون سنياً.

(٢٩) زكي صالح: (مقدمة في دراسة العراق المعاصر بغداد ١٩٥٣ ص١٥). نقول إن آثار نظام ساندمان السيئة، ومخلفاته بدت بعد عهد الإنتداب مادة صالحة في المؤامرات والدسائس التي كان يلجأ إليها بعض رجال الحكم ضد بعضهم بغية الوثوب الى مقام السلطة. وبدت في ثورات الجنوب المفتعلة.

وببناء عراق موحد ديمقراطي كان أمام الحركة القومية الناشئة واجبات ثقيلة ومشاكل خطيرة ترك البريطانيون مسألة حلها لهم - أولها وأعظمها خطورة. إنجاح تجربة الدستور الديمقراطي. أي التقيد بمبادئه ونصوصه وأحكامه. وأخرى لاتقل عنها شأناً هي إيجاد حَلٍ عادل ديمقراطي ذي طابع سياسي دائم - تعويضاً عن حلم الدولة الكردية المستقلة الذي وأده البريطانيون. لقد كره زعماء الكرد القوميون منهم والقبليون أن يُحكموا من قبل هؤلاء الحديثو النعمة النكرات، الذين قذفت بهم ثورة بعيدة مثلما كانوا يشعرون من حكم بغداد العربي. وهي المدينة التي ماكانوا أبداً يعتبرونها مركز سلطة. وقد أضعف احتمال ولائهم تلك المدة القصيرة من الحكم الذاتي.

والنصف الشيعي من البلاد الذي يشعر بعد ثورة العشرين بمذلة الغلبة والهزيمة وبمرارة صرامة العقاب يجد نفسه فجأة محكوماً ببديل ينتمي الى مذهب كان في نزاع دموي معه طوال اثني عشر قرناً. وبدا (العصفور) الثالث أخف المشكلتين، لكنه ظهر بالنتيجة أعقدها عندما عولج أمره بمذبحةٍ هزت الضمير العالمي في حينه.

بدا موقف القوميين العرب وبأخف ما يمكن وصفه - موقفاً سلبياً من هذه المشاكل، وفي الوقت الذي كانوا يركزون على مطلبي الإستقلال وإنهاء الإنتداب وهو يتفق بالنتيجة مع الإتجاه السياسي البريطاني الجديد - لم يكن عجيباً إن نجد الهجمات الصحفية والخطب المنددة بالمستعمر وبأذنابه (؟) تتفق تماماً مع الدفاع الحار الذي رنّ صداه في أرجاء قاعة عصبة الأمم عن ضرورة إلغاء الإنتداب واستقبال العراق عضواً في هذه الهيئة الدولية مستقلاً كامل السيادة!! وممن؟ من الدولة التي طلبته لنفسها قبل بضع سنوات! فأمام معارضة الفرنسيين الشديدة وقف المندوب السامي البريطاني (سر فرانسيس همفريز) ليقول هذا:

"لا أحد يفكر في استبعاد الطائرة التي هي من طراز (موث Moth) من معرض الطيران الدولي لأنها ليست سريعة بمقارنتها مع غيرها من الطائرات، ولنقل مثلاً مع الطائرة من طراز (فوكر Fokker) ذات المحركات الثلاثة... والشيء بالشيء يذكر، ليس من الصحيح محاولة المحاججة بأن العراق لايصلح لإدارة شؤونه بنفسه مستقلاً لمجرد أن محرك (ماكنة) الحكومة قد لاتعمل بكفاءة وسلاسة كما تعمل في بعض الدول المتقدمة أو الأكثر تطوراً"(٣٠)

هاجمت الموقف الفرنسي وسائل الإعلام البريطانية وفي مقدمتها مقالات وتعليقات كثيرة

(٣٠) من وقائع الجلسة العشرين للجنة الإنتدابات الدائمة التابعة لعصبة الأمم.

(لورنس... العرب) وبشكل أرادت بريطانيا فيه أن تبدو تلك المعارضة في العصبة وكأنها نابعة عن خوفٍ على مكانة فرنسا في سورية ولبنان. وقبلها بسنتين (١١ آب ١٩٣٠) القى الشخص بالذات خطاباً أثناء زيارته مدينة السليمانية جاء فيه هذه العبارة:

"رأيت بعض المقامات غير المسؤولة ترى أن سياسة حكومة صاحب الجلالة البريطانية هي التي تشجع القومية الكردية. إن هذا الزعم غير صحيح، لا لأن ذلك يربك الحكومة العراقية فحسب، بل لأنه يربك جارتيها الصديقتين الحكومتين التركية والإيرانية. لا شيء أبعد من هذا الظن عن الحقيقة!"

أما كيف جرى التخلص من المسؤولية عن الأقليات، وكيف تم نقلها الى عاتق شراكة غير مقدسة بين الهيئة الدولية وبين حكام العراق، فأراها بحاجة الى بعض تفصيل. إستخدم البريطانيون ورقة الأقليات المذهبية والدينية ببراعة في أثناء النزاع على ولاية الموصل. وكانت إلى جانب الموقف الكردي حجر الزاوية في كسب الولاية للعراق. وبدت وهي القوة المحتلة وكأنها الحامي الوحيد لهم والمدافع عن حقوقهم والضامن لعيش كريم لهم في المجتمع الجديد. إلا أنها عجزت عن التوفيق بين هذا الإلتزام وبين سياسة التخلي عن حكم العراق لأبنائه. ولم تجد بديلاً آخر غير ربط الدولة الجديدة بتعهد دولي تم به تحويل هذا الإلتزام تماماً عن عاتقها وإيداعه إلى رقابة الأسرة الأوروبية المتمثلة في عصبة الأمم. وفي ١٩٣٢ وقع المندوب العراقي هذا التعهد عن حكومته. وبهذا أنهت الحكومة البريطانية واجبها الذي لم يحظ من مندوبها في عصبة الأمم بأكثر من وصفه "بالمسؤولية الأدبية".

حسم المندوب السامي وهو (همفريز) بالذات المسألة أمام مجلس العصبة بشكل بات وبتأكيد البائع اللبق في مناورة صفقة تجارية فريدة المثال، سبقتها ضمانة رائعة محكمة للمشتري سرعان ما ظهر أنها مُهتّكة النسج كالغربال قال:

"إن حكومة جلالته تدرك تمام إدراك مسؤوليتها في التوصية بوجوب دخول العراق عضواً في عصبة الأمم... فإن برهن العراق بأنه غير جدير بالثقة التي وضعت فيه فإن المسؤولية الأدبية تقع حتماً على عاتق حكومة صاحب الجلالة"[٣١]

لم يسأل أحدٌ ماذا كان يقصد السر فرانسيس همفريز بالمسؤولية الأدبية؟ من الناحية الفقهية ووفق مباديء القانون الدولي يبدو أن محاولة تخلص لندن من المسؤولية العملية أمراً

(٣١) المرجع السالف. أنظر نصوص خطابه في الكتاب الثاني.

لا غبار عليه. فأي تدخل عسكري أو سياسي في شؤون دولة مستقلة في أمور داخلية تخص تعاملها مع رعاياها هو ممنوع بموجب عهد العصبة.

وفي العام ١٩٣٢ استقل العراق وأُلغي الإنتداب البريطاني وصار عضواً في هيئة دولية. وتدخلت قواته المرابطة في العراق بموجب المعاهدة الثنائية في عملية إنقاذ للقطعات العسكرية العراقية التي طوقها ثوار الكرد في العام ١٩٤٥، كما تدخلت عسكرياً أيضاً للقضاء على ثورات الجنوب في (١٩٣٤-١٩٣٥). وفي هذه المرات كان تدخلها "الفعلي" بسبب من "مسؤوليتها الأدبية" - لا غبار عليه فقهياً وقانونياً، لأنه جرى بناءً على طلب من دولة مستقلة حليفة هي العراق.

ولم تتدخل طبعاً لوقف مذابح آب ١٩٣٣ لأن عملية تأديب الآشوريين هو إجراء داخلي بحت يتعلق برعايا عراقيين - وهو كذلك موقف لا غبار عليه فقهياً وتاريخياً.

★★★

يقول ستيڤن لونگريك[٣٢] وقد تقدم ذكره:

"أبى الآشوريون في أول الأمر الإنخراط في سلك الليڤي رغم محاولات السلطات البريطانية الكثيرة. إلا أنهم قبلوا أخيراً بعد أن وعدوا بتعويضهم عن الخسائر التي تكبدوها أثناء الحرب، ومنحهم أراضي زراعية لغرض توطينهم داخل العراق"

ومر على (الليڤي) زمن والآشوريون فيه قلةٌ نسبةً الى العرب والكرد المجندين، ثم تصاعدت النسبة بعد تشكيل الجيش العراقي - بالإستغناء عن العنصر العربي ورفض طلب الكرد في التطوع. إن إقبال الآشوريين على الخدمة العسكرية في القوات الإمبراطورية كان مبعثه الحاجة الى وجه للارتزاق. ونتيجة للضغط الأدبي الذي مارسته أسرة البطريرك مار شمعون عليهم. وقد أبى فريق منهم الإنضمام والتطوع، فضويقوا واعتُقل بعضهم.

ويظهر أن تجنيد الغضب الشعبي واستقطاب الكره العام لهؤلاء كان قد تم قبل حادثتي الموصل وكركوك بزمن استناداً إلى شهادة أ. ت. ويلسن الذي قال:

"لم يكن الجفاء والعداء الذي اضطغنه العراقيون لليڤي قاصراً على الآشوريين منهم. بل تعداه الى كل مواطن عراقي انخرط في هذا السلك في الشارع كنت تسمع كلمة كفار تطلق عليهم أثناء مرورهم، وفي السوق يرفض البائعون التعامل

(٣٢) س. لونگريك S. Longgrigg: العراق ما بين ١٩٠٠ و١٩٥٠» ص٩٣٨. ط لندن ١٩٥٠.

معهم. ولا يُرحب بهم في المقاهي والمطاعم فلا يقدم لهم ما يطلبون. وإن اضطر أصحابها الى ذلك، عبّروا عن سخطهم بتحطيم الأوعية والأقداح التي أكلوا منها أو شربوا أمام الملأ. وكذلك تعرضت نساؤهم الى المضايقة، والتحرش بهن ومحصل القول إن التحاق العراقي بهذه القوات كان يعد عاراً ومنقصة"[٣٣]

ولا حاجة للقول إن حادثي الموصل وكركوك[٣٤] كانا واحدة من نتائج هذه النظرة لا من الأسباب.

من السخف إسقاط العامل الباعث على شعور العداء والجفاء – أعني استخدام الليڤي في معالجة الإنتفاضات المسلحة ضد حكومة بغداد. إلا أن ذلك يجب أن يعتبر بنظر الحكومات العراقية إسهاماً في الدفاع عن الكيان السياسي الجديد وعوناً على خصومها الثائرين ضدها. ووجه الغرابة هنا هو أن تلك الحكومات كانت أبداً تشجع هذا الشعور العام من طرفٍ خفي وأحياناً بشكل سافر في إطلاق العنان للصحافة بكتابة المقالات المهيجة، ونشر الاحتجاجات.

قلتُ: معاذ الله أن أجرُء على وصف الآشوريين بالحملان الودعاء، أو أعزو إليهم واحدة من خصائل الملائكة الأطهار، فهم كجيرانهم الكرد والعرب القبليين. أغلقت معاقلهم الجبلية والحكم العثماني عليهم أبواب المدنية، وسدت بأوجههم باب الحضارة العالمية. وتخلّقوا بكل ما في طبائع القبليين من فضائل ورذائل على مرور الأيام والأجيال. لايسكتون عن إهانة، سريعو الهياج تسهل إثارتهم واستفزازهم، سيما إذا مس التعريض شرفهم. ولقد كان متوقعاً دائماً أن تتفجر هذه العواطف الجائحة ويسفر غليان الدم عن سفك دم. والذي هو من أبناء جيل العشرينات، يدرك تماماً أن مبعث الجفاء والعداء كان في مبدء أمره دينياً صرفاً. ولم يزحف إليه العامل القومي ليستولي على المنظر العام إلا بتأسيس الحكم الوطني، وعندما أصبح مفهوم الوعي به عنواناً للولاء للدولة فـ:

"ما من شك في أن السنوات الخمس الأولى من قيام الدولة العراقية، حققت الكثير من أحلام القوميين العرب الأوائل... هاهم الآن يملكون جميع المقومات لحكومة عراقية... لإقامة دولة عصرية. وكانت نقطة البداية الأولى في مفاهيم الوعي القومي الخاص تنحصر في مدى إظهار الولاء لهذه الدولة"[٣٥]

(٣٣) توماس أرنولد ولسن T.A.Wilson: «صدام الولاءات Mesopotamia: A Clash Loyalties 1917-1920» لندن ١٩٣١، ص٣٧.

(٣٤) يحسن بالقارىء مراجعة ما كتبناه عن هاتين الحادثتين في الكتاب الثالث من هذا السفر.

(٣٥) أنظر ستيڤن لونكريك: المرجع السالف. الباب الرابع. فصل٧.

لم يكن الآشوريون يشعرون بارتياح من وجودهم في العراق. ولم يظهروا رغبة في البقاء وبقيت نفوسهم أبداً تحن الى موطنهم حكاري. ولم يكن الجفاء الذي قوبلوا به قاصراً على المواطنين المسلمين والعرب. فقد شارك فيه الى درجة ما بعض الطوائف المسيحية – وعلى أقرب الإحتمال تظاهراً وخشية أن تفسر مظاهر عطفٍ وتضامن معينة في غير صالح العلاقة القلقة بين هذه الطوائف وبين الأغلبية، الى الحَد الذي شارك بعضهم رسمياً في إظهار سخطهم على الأعمال "الوحشية" التي ارتكبها هؤلاء الدخلاء في (كركوك)، سواء من تصريحات المسؤولين منهم[٣٦] أو بالمشاركة في توقيع المذكرات والإحتجاجات. إلا أن ذلك فيما يبدو لم يكن كافياً ليزيح عن صدورهم كابوس الخوف العظيم من قيام مذبحة عامة فيهم، خلال تصاعد الحملة القومية على الآشوريين في صيف العام ١٩٣٣. وهو ما أذكره جيداً. ولم يتعد فيه (ستافورد) الحقيقة إذ يثبته.

يقول المؤرخ العراقي الأستاذ (إيلي خضوري): "ما إن فاز العراق بكامل استقلاله وحريته غير المقيدة، حتى عمته الفوضى وساده العنف من أقصى جنوبه. وربما كان أفظع الأحداث وأشدها هولاً – ذلك الحدث الذي مُيز فيه طابعٌ معين للعلاقة بين حكام المملكة العراقية ورعاياهم، تلك التي افتتحوا بها سجل تاريخ الدولة الجديدة وهذا الحدث هو المذبحة الآشورية"[٣٧]

وكالكرد فوجيء هؤلاء بقرار بريطانيا رفع غطاء الحماية عنهم بتخليها عن الإنتداب، جراح الكرد لم تلتئم بعد من الطريقة التي محقت بها حركاتهم الإستقلالية القومية، الحقد المتنامي الذي كسبه الآشوريون من حكام العراق والحركة القومية جراء صيرورتهم أداة عسكرية بيد الدولة المنتدبة، أمسك هاتين القوميتين قلق عظيم من فكرة العيش في ظل حكومة بغداد

(٣٦) من أقوال فتح الله سرسم ممثل الموصل في المجلس التأسيسي (ج١ ص١٩٥): "إن المسلك الذي أقدم عليه الليڤي الآثوري، مذموم وموجب للتقبيح والأسف. وهم يتحملون مسؤولية مقتل عدد من المسيحيين المحليين. إني أشكر المواطنين المسلمين باسم المسيحيين في العراق على عواطفهم الشريفة التي امتازوا بها عن سواهم. وأضم صوتي الى المطالبين من الحكومة بمعاقبة الفاعلين دون رحمة واتخاذ التدابير المؤثرة لعدم تكرار هذه الحوادث في المستقبل". وكتبت جريدة العراق (رزوق غنام) العدد ١٢٢٤ (أيار ١٩٢٤): "إن حوادث الموصل وكركوك أثبتت وبشكل قاطع إنه لايمكن الإئتلاف مع الآثوريين الذين لهم طباعهم الخشنة وأحقادهم التي تغلي في صدورهم وبعدهم عن معرفة الجميل. كما إنه لايمكن الإتفاق معهم. فالجروح التي فتحوها في صدور العراقيين لايمكن أن تلتئم. وقد طلبت الى الحكومة إنزال العقاب الصارم بحقهم".

(٣٧) أيلي خضوري Elie Kedouri: شؤون السياسة في الشرق الأوسط Politics in the Middle East، أكسفورد، ط ١٩٩٢، ص٢٠١.

المستقلة. فتوالت وفود لهم الى السلطة البريطانية المحلية والحكومة في لندن الى جانب مذكرات رفعت بتوقيع بطريركهم. فرُد عليهم كالكرد بلهجة جازمة حاسمة أنهم لن يعطوا أي شكل من أشكال الإدارة المحلية التي رغبوا فيها. وردت الحكومة البريطانية جواباً على مذكرة رفعها الآشوريون الى عصبة الأمم بهذا:

"إنهم (أي الآشوريون) مقتنعون عندما يغدو العراق دولة مستقلة عضوة في عصبة الأمم – بأن لا حاجة تدعو الى أي تمييز لمصلحة الأقليات القومية والدينية أكثر من تلك الضمانات العامة التي أخذناها في الماضي من المرشحين الآخرين الذين قُبلوا أعضاءً في عصبة الأمم"(٣٨)

(٣٨) يقصد بها من قبل من دول آسيا وأوروبا وأفريقيا أعضاء في العصبة خلال السنوات العشر التي مضت ١٩٢٢–١٩٣٢.

الفصل الرابع عشر

فرض الانتداب الفرنسي على سورية . سورية الطبيعية . آراء (مسبل) . أخذ الفرنسيين بالتعددية القومية والمذهبية وتشجيع الحكم المحلي . إقامة دويلات ضمن اتحاد سوري فدرالي . انتفاضة في دمشق وقصفها بالمدفعية . سن الدستور . سلطة الانتداب ترفضه . الهجرة اليهودية . ضيعة الحق العربي بفعل زعمائه . مواقف الزعماء القدماء والقيادات الزائفة المرتجلة . اعلان ابن سعود نفسه سلطاناً في ١٩٢١ بعد استيلائه على الحجاز . الهوية المصرية . الجيل الوطني الجديد . ظهور الاشتراكية ونشاط الشيوعيين . المجهودات القومية في أرجاء الهلال الخصيب : سطحيتها ، لهجتها الحماسية . مجرد الخطب والقصائد . الضرب على وتيرة التذكير بالمجد الغابر والامبراطورية الزائلة . خلو الدعوة من المباديء الانسانية والديمقراطية . التركيز فحسب على الاستقلال وطرد الأجنبي . معركة بين محبّذي السفور وبين الحجاب تأخذ طابعاً سياسياً وعقائدياً . نادي التضامن القومي . اتجاه جديد في العمل على "وطن عراقي" بدلاً من شعار "العراق القومي" . حادثة النصّولي . احتجاج الشيعة . مجيء (ألفريد موند) الى العراق . قيام التظاهرات وطلب طرده لمملأته الصهيونية . مظاهرة العشرين ألفاً . القضية الفلسطينية في مقدمة قضايا الوطن العربي . انهاء الانتداب وإلغاء المعاهدات . مشروع وحدة الهلال الخصيب تحت التاج العراقي . فشل المشروع بعد تحبيذ القوميين له ثم معارضتهم . القوميون العرب وافتتانهم بالحركة الفاشية في إيطاليا . موسوليني معبود القوميين . دراسة التاريخ العربي ذات الجانب الواحد . (ابن سيار) والمبالغة العربية . الحصري : أراؤه ، تعريفه للقومية العربية ، وتقديره للهوية والانتمائية .

ربما كان هناك بعض الحقيقة في ادعاء الحكومة البريطانية وصحف لندن بأن معارضة فرنسا في إنهاء حالة الإنتداب على العراق في مجلس العصبة، إنما جاءت نتيجة تخوّف هذه الدولة على سلطتها في سورية ولبنان، والتأثير الذي سيحدثه انتقال العراق الى مرحلة الإستقلال – على نشاط الجبهة القوميّة السورية التي كانت تطالب هي الأخرى بإنهاء الإنتداب الفرنسي.

الخطّة السياسية التي اتبعتها فرنسا في حكم حصتها من سورية الطبيعيّة كانت تختلف بالأساس عن الأسلوب البريطاني في العراق[1]. فهنا إتبعت سياسة أملتها مصالحها في ذلك الزمن فحسب. وعمودها الفقري أهمية العراق الستراتيجية، وتأمينه لها خط مواصلات بين الجزر البريطانية وبين الهند وأفريقيا الشرقية، والشرق الأقصى من خلال قناة السويس، وكذلك الخط الجوّي والبرّي الذي رسم حديثاً بين البحر المتوسط والخليج الفارسي. قدر ما أملته عليها مصالحها الإقتصادية المتعددة الجوانب وأكبرها شأناً منابع النفط واستغلاله، الذي ألّفت دفائنه وحدة متكاملة متواصلة من شمال العراق القصّي الى جنوبه القصّي، كما أثبتته شروط الإمتياز.

في سورية ولبنان كان الأمر مختلفاً. الفرنسيون والحكم الشريفي الذي أقامه (فيصل) مع ضباطه العروبيين وعيونه ومساندة عدد من أفراد الأسر السورية العريقة النافذة الكلمة، نظام كان الإضطراب سداه والفوضى لحمته على قصر عمره. وقد وصفتهُ (گرترود بل) في تشرين الأول ١٩١٩ إثر زيارتها سورية:

"بأنه أسوء من الحكم التركي قبله بعام واحد. وبمحاكم أكثر استعداداً للارتشاء وباتساع رقعة الفساد المعتاد بين الموظفين صغارهم وكبارهم، هو من الوضوح بحيث لاتخطئه عين، في حين انشغل ضباط فيصل في إثارة القلاقل في ميسوپوتاميا وفي مدن الساحل السوري ضد الحاميات الفرنسية والمناطق التي كان أهاليها يشايعون الفرنسيين. وكالعراق أيضاً لم تكن الحدود مع تركيا واضحة

(١) إن اهتمام فرنسا بالسيطرة على سورية الطبيعية، لاسيما المنطقة الساحلية قد يعود الى الزمن الذي عقد فيه الملك (فرنسوا الأوّل ١٤٩٤–١٥٤٧) مع السلطان العثماني (سليمان القانوني ١٥٢٠–١٥٦٦) إتفاقية الإمتيازات Capitolations، التي أعطت فرنسا الحق من أن يمارس قناصلها سلطة حماية الكاثوليك في سورية، وحاولت فرنسا زمن حملة نابليون على مصر السيطرة على سورية، ففشلت عندما اندحرت جيوشها أمام عكا. وحاولت ثانية تدخلاً عسكرياً في ١٨٦١ إثر مذابح دمشق للمسيحيين، إلاّ أن ذلك فشل بالتدخل الأوروپي. يذكر العسكري المؤرخ إلويه Elouet (الحملة السورية ١٨٦٠–١٨٦١ Expedition de a`Syrie 1800-61) پاريس ١٨٦١ ص٤٠٢ ما خلاصته: شرعت وزارة الحرب الفرنسية في أيلول ١٨٦٠ بوضع خطة إنشاء (الدولة السورية اللبنانية المستقلة) تحت الحماية الفرنسية. وأكد رئيس أركان الجيش الفرنسي للمؤلف أنه لو استطالت إقامة القوات الفرنسية سنة أخرى لأمكن إنجاز الإستعداد لإنشاء دولة مارونية. أما السفير الفرنسي في إستانبول المدعو (لافاليت)، فقد رسم للجنرال (دوكر) صورة للأمبراطورية العربيّة التي سيتسنى للفرنسيين إقامتها من أقطار الجزيرة العربيّة والشرق الأدنى على رقعة تمتد من شرق قناة السويس حتى دجلة والفرات وتكون (بغداد) عاصمتها و(مكة) مركزها الديني. إلاّ أن الجيش الفرنسي الذي انسحب في تموز ١٨٦١ لم ينجح في أكثر من رسم نظام حكم ذاتي لجبل لبنان (متصرفية لبنان الممتازة) كما مرّ بيانه.

أو مرسومة، وكان من مصلحة الأتراك الكماليين أن يخلقوا المتاعب للفرنسيين إمّا بعمل مباشر أو بالتعاون مع ضباط فيصل وقبائل الدروز التي كانت كقبائل الجنوب الشيّعي العراقي شوكةً في خاصرة الحكم العثماني، ما لبثت الحرب والحكم الشريفي أن خلقت لها ظروفاً أصبح زعماؤها معها أشدّ كرهاً ونفاراً من أي وقت مضى – من وضع نير الحكومة المركزية في أعناقهم"

لم تكن (بل)، وكثير من أحكامها يخلو من التسرع والعاطفة أو المحاباة – تتعدّى في هذه الحالة الواقع قطّ بوصفها الدقيق للحالة في سورية.

جاء الإنتداب الفرنسي ليضم في إطار حكمه الجزء الأكبر من ولاية حلب العثمانية، وجزءً من ولاية دمشق، وولاية بيروت من أقصى شمالها، مع أن أغلبية سكان هذه الأرض هم على المذهب السنّي، إلاّ أنها ضمّت أقليات قومية وطائفية ومذهبية ودينية مقاربة للعراق عدداً. فإلى الجنوب انتشر الدروز الذين اعتنقوا ديانة سرِيّة لها وشائج وأصول شيعيّة ومعظمهم يسكن جبل الدروز وسهل حوران. وفي الشمال الغربي هناك العلويون أتباع مذهب سري امتزجت فيه العقائد الشيعية بالغنوصية[٢]. رماهم علماء السنيّة بالزيغ والشرك. وإلى أقصى الشمال كان الأرمن والترك والعرب يساكن بعضهم بعضاً في المدن والقرى أو يتوزعونها فيما بينهم، و(الجزيرة) في الشمال الشرقي كان يشغلها الكُرد والمسيحيون السريان والبدو العرب والآشوريون اللاجئون، الذين أفسح لهم الفرنسيون أثناء الحرب وبعدها والذين سمحوا لهم بالإستقرار بعد المذابح الآشورية في العراق.

وعلى النقيض من سياسة البريطانيين في العراق كما مرّ، أخذ الفرنسيون في الحساب واقع التعددية القومية والمذهبية عندما شرعوا في التنظيم الدستوري والإداري. فهم والحالة هذه إنما يطبقون حرفيّاً المادة الأولى من صك انتدابهم على سورية:

"على الدولة المنتدبة، بقدر ما تساعفها الظروف ان تعمل على تشجيع الحكم الذاتي المحليّ"

وقد خلا صك الإنتداب البريطاني فى العراق من مثيل لهذه المادة وكان خلوّه مقصوداً. فكل من الدولتين صاحبتي النفوذ الأكبر في عصبة الأمم صاغ إنتدابه بالشكل الذي يلائمه.

(٢) Gnosticism شكل من اشكال الديانات الثنوية. رأى أهله أن المادة التي أوجدها (خالق الكون) وعند (أفلاطون) هي شرّ والروح هي خير والخلاص يأتي من المعرفة الذاتية (السرية) Gnosis التي تعطى للسالكين. وقد شاع هذا الدين قبيل مجيء المسيحية وبقي يهددها طوال قرنين، ثم اندثر وبقيت آثار له. ويرى علماء العقائد أن فيه آثاراً من الديانات البابلية والمصرية والزرادشتية.

الفرنسيون كان يلائمهم تشجيع الحكم الذاتي المحلي، في حين كان البريطانيون قد قرّ قرارهم منذ ١٩٢٢ على حكومة للعراق ذات طابع مركزي، تكون فيها الأغلبية الناطقة بالعربية سيّدة النظام والميدان. رغم وجود كتلة من السكان الكُرد في أقليم شبه مغلق أو خالص لهم.

أود هنا أن أجلب الإنتباه الى وثيقة بريطانية احتوتها رسالة من المندوب السامي (پرسي كوكس) إلى وزير المستعمرات (ونستون چرچل) مؤرخة في ٢٥ من تشرين الثاني ١٩٢١، فيها ملخص له لما دار بينه وبين فيصل في اجتماع لهما حضره كلّ من (هيوبرت يونگ وكورونواليس) كتب يقول:

"قلت له (أي لفيصل)، من سياسة حكومة صاحب الجلالة تشجيع القوميّة العربيّة، لا الإمپريالية العربية... إن المنطقة التي تسلمت فيها حكومة صاحب الجلالة مسؤولية الحكم، كان الخطّ السياسي الذي اتبعته لإدارتها وتصريف شؤونها يتسم بالواقعية والعمليّة كما يتراءى لي... ورغم عدم وجود خطوط واضحة المعالم تقف عند سفوح الجبال التي تفصل الأهالي العرب عن غير العرب، فالمواطنون هناك كُرد خلا مجتمعات صغيرة العدد من التركمان. هذه البلاد التي سنطلق عليها اسم كردستان تسهيلاً، قد يكون من الأفضل أن تمنح حكماً ذاتياً بشكل ما ضمن إطار الدولة العراقية..."[٣]

كان مجرد اقتراح فحسب من دولةٍ محتلّة تملك كلّ المقدرة على وضع ما تقترحه موضع التطبيق العملي، إلاّ أنها وقفت عند هذا الحد لأسباب أخرى طرأت على مواقفها السياسية الدولية مما سآتي الى تفصيله بعد قليل[٤].

(٣) الوثائق الرسمية No. 616-25 Nov. F. O. 371-6347.

(٤) يعلق الكتاب الكُرد أهميّة كبيرة على التصريح الرسمي الذي صدر في ١٩٢٢/١٢/٢٥ وأراهم يخطئون كثيراً في اعتباره اعترافاً رسميّاً من الحكومتين صاحبتي الشأن بحق الكُرد في حكم ذاتي وعملهما على تحقيقه وهذا نصه: "تعترف حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة العراقية بحق الكُرد الذين يعيشون داخل العراق بحدوده الحالية – في إقامة حكومة كُردية ضمن هذه الحدود. وتأمل الحكومتان أن العناصر الكُردية على اختلافها ستتوصل بأسرع ما يمكن الى اتفاق فيما بينها حول الشكل الذي ترغب أن تقوم تلك الحكومة والحدود التي ترغب في أن تمتّد إليها. وأن يرسلوا موفدين ذوي صلاحيات الى بغداد للتداول في العلاقات الإقتصادية والسياسية مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة العراقية" آه. لم يكن هذا (الإعتراف) يعني شيئاً مطلقاً ولم تتخذ أية خطوة قوليّة أو عملية لتحقيقه، و لم يك في نظر مصدريه يسوى الورق الذي سُطّر عليه. وهو في الواقع واحدة من عدة محاولات قصد البريطانيون منها تحويل عدد من الشيوخ الدينيين وزعماء العشائر عن إسنادهم ثورة الشيخ محمود أو العمل على عزله. ففي كتاب (كرد وترك وعرب) (أنظر ترجمتنا الص ٢٨٠–٢٨١) لايخفي إدموندز مؤلفه =

إحتّل الفرنسيون سورية بعد اشتباك قصير مسلّح مع فيصل وأتباعه العرب السنيّين، أولئك الذين ظلوا يخشون مناصبتهم العداء لإنتدابهم. وكانت فرنسا كذلك تعتبر نفسها حامية للمارونيين في لبنان خاصةً، وللكاثوليك بصورة عامة في كلّ من سورية ولبنان. فكان مرامها حمايتهم من سيطرة قد يحاول المسلمون ممارستها عليهم بسبب من تفوقهم العددي والسيادة التقليدية التي اعتادوها تأريخياً على غير المسلمين، فوجدوها حقاً مكتسباً من طول الحكم الإسلامي في تلك الربوع.

ووضعت السلطة المنتدبة في حسابها أيضاً الإحتياط للفروق العظيمة والمنافسة الإقتصادية، التي استحكمت تأريخياً ومن أقدم الأزمنة بين المركزين السوريين الرئيسين: دمشق وحلب. فأولاهما كانت تنظر دائماً شرقاً نحو بادية الشام وجنوباً نحو جزيرة العرب، في حين كانت حلب وهي المركز التجاري العظيم الخطر تنظر أبداً إلى الشمال والشرق حيث الموصل وحكاري وكردستان وبلاد السريان والآشوريين، وكذلك الى الغرب حيث الإسكندرونة واللاذقية وساحل المتوسط، وتلك هي الطائفية والمذهبية التي بدت في أكثر الأحيان تتحدى محاولات الوحدة القومية ولا تقيم لها وزناً.

ولذلك أنشأ الفرنسيون في أيلول ١٩٢٠ (دولة حلب) ودولتي دمشق واللاذقية. وفي العام نفسه فصلوا دولة جديدة رابعة باسم (دولة جبل الدروز). وفي السنة عينها ألّفوا من هذه الدول الأربع إتحاداً فدرالياً. وفي ١٩٢٤ أحدثوا تعديلاً في هذا الإتحاد بأن ضموا دولتي حلب ودمشق بعضهما الى بعض الى لواء الأسكندرونة، (سنجق عثماني سابق) ذا الأقلية التركية الكبيرة، الى هذا الكيان ليجعلوا منها كلّها وحدة سياسية[٥] كما اتخذوا للاذّقية اسم (دولة العلويين).

بموجب صكّ الإنتداب الذي صادقت عليه عصبة الأمم في تموز ١٩٢٢ كان يقتضى سن دستور للبلاد التي وقعت من حصة فرنسا. خلال مدة أقصاها ثلاث سنوات من بدء الإنتداب.

= وهو مجرد ضابط سياسي صغير في كركوك، بأنه كان المقترح لإصدار مثل هذا البيان. واصفاً بإسهاب الغرض الحقيقي منه، منتقداً صياغته واستخدام كلمة «حكومة» فيه وكيف أنه حمله الى الشيخين الدينيين (عبدالكريم قادركَرَم وطالب الطالباني) وقام بترجمة البيان لهما وصفاً شيقاً لايخلو من فكاهة، وبصراحة القول أن البيان ما صدر إلاّ لتحييد ثورة الشيخ محمود وإزاحته.

(٥) سُلّم هذا السنجق الى الأتراك في ١٩٣٦، ونجم عن هذا هجرة عشرات الألوف من العرب والمسيحيين والأرمن الى سورية. على أن هذا الكاتب الذي مَرّ بمدينة أنطاكية بعد عشرين عاماً وتجول فيها وجد اللسان العربي سائداً مرافقها جميعاً. وبدا حنين أهلها الى لسانهم واضحاً من الحفاوة العجيبة التي لقيها عندهم.

ولم يكن ذلك ممكنا بسبب الإنفجارات العنيفة التي بدأت بانتفاضة ضد الحكم الفرنسي في آب ١٩٢٠ في منطقة حوران، وأخرى في ١٩٢٢ وثالثة في ١٩٢٣ التي انداحت الى جبل الدروز[٦]. إلاّ أنها لم تكن بالحجم الذي أسفرت عنه ثورة جبل الدروز، تلك الثورة التي امتدت واتسعت لتشمل أجزاء أخرى من سورية واقتضى الفرنسيين القضاء عليها حوالي عشرين شهراً وخسائر جمّة في الأرواح. وفيها تمّ قصفّ دمشق بالمدفعية.

وما لبثت أن عّمت جميع سورية. وتولى قيادتها زعماء قوميّون في دمشق وأعضاء أسر دمشقية عريقة، مُتحدرة من سلالة الموظفين العثمانيين الكبار، ومثقفين من القوميين العرب السنّيين، لاسيما أولئك الذين ساندوا حكومة فيصل أو شاركوا في ثورة الحجاز الشريفية أو كانوا في خدمته حتى نهاية حكمه في الحجاز.

ومع أنه لم تكن تجمع بين هؤلاء وبين (سلطان الأطرش) ورهطه جامعة فكرية أو هدف، فقد وجدوا في ثورته فرصتهم المنشودة لزعزعة الانتداب الفرنسي الذي لم ينسجموا معه أو يتوصلوا الى تفاهم، كما توصّل أمثالهم في العراق مع الحكم البريطاني، بل ظلوّا ينظرون الى

(٦) كثر تذمر قائد الثورة (سلطان باشا الأطرش) من التدابير الإدارية الشديدة التي اتخذتها السلطات الفرنسية والتي مالت الى الحدّ من سلطة واسعة شبيهة بالحكم المطلق الذي اعتاده مع أسلافه الآخرين في العهد العثماني، لاسيما في العام ١٩٢٥ عند تعيين الجنرال (ساراي Sarai) مندوباً سامياً. وأمسك الخوف بقلوب شيوخ الدروز من تضاؤل نفوذهم على أتباعهم بانتقالها الى يد موظفي الإنتداب، ومن ثم الى مجلس المندوبين السوري الذي أقامه الفرنسيون في جبل الدروز أسوةً بسائر الدويلات السورية الأخرى. وهو شبيه ببعض ما شعر به شيوخ الفرات الأوسط عندما قاموا بثورتهم في ١٩٢٠. من جهة أخرى ثقل على الجبليين هؤلاء الروتين البيروقراطي بإناطة جباية الضرائب بهذا المجلس. كما كان هناك تذمر كبير عندهم بسبب تجنيدهم لأعمال البناء والإنشاءات، وهم شعب محاربٌ أصلاً معتاد دينياً وتقليدياً على إطاعة زعمائه. وبدأت الثورة بحادثة. فقد أمر الجنرال (ساراي) بمثول خمسة من زعماء الدروز أمامه في دمشق ليتحدث معهم حول المطالب والشكاوى. إلاّ أنه القى القبض عليهم فور وصولهم وأبعدهم الى تدمر. ورفع الدروز السلاح في ١٨ من تموز ١٩٢٥. وفي الثاني من آب وقع في كمين أعدّه الثوار رتل من القوات الفرنسية أرسل على عجل لإنقاذ حاميّة السويداء (عاصمة الدروز) المطوقة، ففتك الثوار بأفراد الرتل عن آخرهم، واستولوا على تجهيزات وأسلحة الثمانمائة الذين ذبحوهم. وزاد النصر من ثقة الأطرش قدر ما أضرّ بهيبة الفرنسيين ومقامهم. كانت فرنسا في عين الوقت تواجه في شمال أفريقيا ثورة مماثلة بقيادة عبدالكريم الريفي. وبدا موقف الفرنسيين مضعضاً. واتسعت الثورة، وتسللت عصابات درزية الى غوطة دمشق وانضم إليها القرويون من القرى التي تحف بالمدينة ولا نية لهم غير السلب والنهب، وبلغ بعض هؤلاء أحياء دمشق الداخلية في شهري آب وأيلول. وكان ما كان من توجيه الفرنسيين مدافعهم الى تلك الأحياء وقصفها، وفيها قال شوقي قصيدته الشهيرة ومطلعها:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وفي (حماه) قاد ضباط عثمانيون سابقون فروا من الفرقة السورية الشبيهة بقوات الليڤي الآشوري التي شكلها الفرنسيون – ليقودوا الثوار فيها. وكان ثم اضطرابات في حلب أيضاً.

الخلف بلوعةٍ وحنين لحكم (فيصل) القصير الأمد والى حلم الإستقلال في دولة يتولون السلطة فيها، وقد ظهر لحظةً ليأتي الحكم الفرنسي الشديد فيزيحه[٧].

وناب أحدهم عن الجميع[٨] بالسعي الى (الأطرش) ليتفق معه على إعلان حكومة "سورية الوطنية" برئاسة (الأطرش) نفسه.

محاولة لم يكتب لها النجاح وباءت بالفشل. فبعد ستة أشهر من اشتباكات موضعية تمّ إخضاع جبل الدروز والقضاء على آخر جيوب الثورة.

وخلافاً للبريطانيين في عين المناسبة في العراق، لم يقدم الفرنسيون مسوّدة مهيأة للدستور المقترح، وترك المندوب السامي أمر صياغته للجمعية. ونصّ القانون المصاغ على أن يكون لسورية نظام حكم جمهوري. وأخذ بالمباديء والأسس الديمقراطية الغربيّة وكان على غرار دساتير المستعمرات القديمة وتلك البلاد التي وضعت تحت الوصاية – وحظيت بموافقة عصبة الأمم. أخذ هذا القانون بنظام المجلس الواحد بدلاً من نظام المجلسين لا كما هو الحال في دستور الدولة المنتدبة أو في القانون الأساسي العراقي. وكان فيه ستّ مواد صيغت وضُمّنت بمجهودات الكتلة الوطنية، خلافاً لرغبة الفرنسيين وإرادتهم: وحدة سورية ولبنان، وفلسطين والأردن (سورية الطبيعية). ممارسة سورية التمثيل الخارجي، تأليف جيش سوري، حق إعلان الأحكام العرفية، الى جانب مواد تتعلق بالإنتخابات العامة. فبادر المندوب السامي إثر ذلك بحلّ الجمعيّة. بعد أن رفض أعضاؤها حذف تلك المواد التي اعترض عليها وعلّق الدستور سنتين. وفي ١٩٣٠ نشر الدستور كما هو بعد إضافة مادة فيه جعلت تلك المواد الستّ لاغية. وقد جاء خالياً من النصّ على أن يكون الدين الإسلامي دين الدولة.

على أثر ذلك نمت الحركة القوميّة السورية العربيّة مستقطبةً حول مقاصد هذه المواد، وكانت

(٧) أسس القوميون العرب والوطنيون السوريون (حزب الشعب) إثر ما دعوه بالمؤتمر الوطني في حزيران وجاء في منهاجه: العمل لتوحيد سورية بضمّ كلّ الأقطار المشمولة بحدودها الطبيعية. وإقامة دولة لامركزية لضمّ دول سورية والعلويين وجبل الدروز والأقضية الأربعة التي فصلت عن سورية والحقت بجبل لبنان. لم يكن حزب الشعب الوحيد في الميدان. فقد وجد ما عرف بحزب (الإستقلال العربي) و(الحزب القومي العربيّ) و(عصبة العمل القوميّ) و(حزب الإتحاد السوريّ). كانت الأحزاب ذات الإتجاه القوميّ هدف ملاحقة السلطات الفرنسيّة. ففي وقت من الأوقات مثلاً لم يجد رئيس حزب الإستقلال العربي مندوحة من الهروب الى عمان. كما هرب عدد من أعضاء الأحزاب الأخرى البارزين الآخرين الى مصر.

(٨) هو عبدالرحمن الشهبندر ١٨٨٢–١٩٤٠ أحد الزعماء القوميين رئيس حزب الشعب ووزير خارجية فيصل في ١٩١٩. اغتيل بيد مجهولٍ في دمشق. خدم عند شريف مكة بعد إعلان نفسه ملكاً ثم اختلف معه فتركه. عرف بترجمة كتاب في السياسة الدولية عن الإنكليزية. ونفاه الفرنسيون حيناً من الزمن.

نواتها الجمعية الوطنية المنحلة. إلاّ أن تحديد الهويّة للكيانات السورية الجديدة. ولنطلق عليها (سورية الكبرى الفرنسية) كان أيضاً كالعراق مشكلةً، وبينهما شبه كبير.

أما فلسطين فلم تُعطَ حكومةً قوميةً، أو وطنيةً وبقيت تحكم مباشرةً من قبل سلطة الإنتداب. في حين كانت أغلبية السكان الساحقة عربيّة أو تنطق بالعربية، وليس فيها غير أقلية مسيحية ظاهرة وأقليّة يهودية ضئيلة وليس لأي منهما وزن سياسي[٩].

لكن بريطانيا كانت قد تعهدّت لليهود بإقامة وطن لهم – ولم تكن كلمة وطن المستخدمة في الوثائق البريطانية لتخفى عن البصير بالنية الحقيقية أو الغرض الأخير، إذ لايمكن أن يكون لقوميّة أو مجموع من الناس وطن بدون كيان سياسيّ. وهو ما لم يكن العرب والناطقون بالعربية بحاجةٍ الى جهد كبير لإستنتاجه فعارضوا فيه من المبدء.

إن التوتر الذي حصل جراء فتح باب هجرة اليهود لم يكن قاصراً على الأراضي الفلسطينية وحدها. بل مالبثت عدواه أن سرت الى سائر الأقطار الناطقة بالعربية المجاورة، سيّماً بعد الشروع بتنفيذ الخطة الصهيونية في تلك البلاد، شراء الأراضي وإنشاء المستعمرات وإقامة وكالة لتصدير اليهود من الأقطار الأوروبية الى فلسطين.

كان لهذا أثره البالغ في نموّ الشعور القومي وانسياحه على سائر الأقطار العربية، فلإيجاد تلك الصلة المنشودة بين الحركات القومية في البلاد العربية قامت وحدة القصد. وبدت الى جانب الجهاد ضد الإستعمار وإلغاء الإنتداب، مطلباً مركزياً مالبث أن احتل مركز الصدارة.

بتمادي الزمن واتساع نطاق الهجرة اليهودية تعمّق الإتجاه الشوڤيني (التعصّب) في الحركة القوميّة. وهذا وليد الخيبة وقلة الحيلة والحيرة أمام المعضلات العامّة. والسبب في ظهور الآيديولوجيات المتطرفة، والبحث الحثيث عن أصدقاء وحلفاء قادرين على مَدّ يد العون للعرب – ذلك البحث الذي بدأ من أوّله عشوائياً عاطفياً وانتهى بحركة القومية العربية الى الوقوع بين فكيّ الفاشية – النازية فريسةً سهلةً.

نشوء القضية الفلسطينية أدّى كذلك الى طلاق بائن بين الجيل القومي الجديد وبين حملة لواء القوميّة المخضرمين، الذين أصبحوا حكاماً في الدول الجديدة في ظلّ سلطتي الإنتداب في العراق وسورية. فقد تعرض هؤلاء الى الإنتقاد وهوجموا بشدة، ووجهت إليهم تهم التعاون مع البريطانيين والفرنسيين أو التهاون والتفريط في الوطن العربي. وأشير بصورة خاصة الى

(٩) كان عدد اليهود في فلسطين عند بدء الحرب العظمى الأولى نحواً من ٨٠ ألفاً هبط الى ٦٥ ألفاً أثناءها. وبلغوا خلال نصف قرن (١٩٦٧) مليونين ونصف مليون.

مواقف الزعماء العرب من الطموح اليهودي في مؤتمر (فرساي)، سيما ذلك الإتفاق الذي عقده (فيصل) هناك مع (وايزمان) زعيم الحركة الصهيونية[١٠].

لكن قضية مصير فلسطين مالبثت أن أصبحت أداةً في أيدي الإنتهازيين والديماگوگيين، ومنبتاً خصباً للزعامات القوميّة أو المشتملة بردائها حفل بالمساومين المتفسخين، وعجّت بقيادات زائفة لا هم لها ولا عمل غير صبّ جام الإتهام بعضها على بعض أو صبّته مجتمعاً على رؤوس رجال الحكم في البلاد الناطقة بالعربية.

وبتحصيل للحاصل، فقد كان الضرر الذي أحدثته هذه المجموعات والزعامات فادحاً لا بالقضية الفلسطينية وحدها، بل بمصائر الدول العربيّة، وبمصير الديمقراطية في العالم الناطق بالعربيّة. فقد خلقت أجواء وأوضاعاً ساعدت الضباط المغامرين المتحرقين الى السلطة على القيام بانقلابات عسكرية مدمّرة في العالم العربي وقيام دكتاتوريات عسكرية الطابع باسم القوميّة العربيّة في الأغلب، أو باسم محاربة النفوذ الأجنبي والإستعمار. كما كانت سبيلاً مؤيدة الى تغييرات سياسية عتيقة وتحولات في النظم الاجتماعية ليس فيها فائدة تذكر لسكان هذا الجزء من العالم.

والواقع هو أن القوميين العرب في (سورية الطبيعية)، والفلسطينيون منهم على الخصوص، لم يغفروا للبريطانيين والفرنسيين ما وصفوه بتجزئة سورية (الجغرافية) والهلال الخصيب فضلاً عن موقفهم في فلسطين. وكانت معارضة هذا التقسيم في رأس قائمة مظلماتهم. ومن هذا المنطلق وقفوا ضدّ مشروعي سورية الكبرى، والهلال الخصيب باعتبارهما أعجز عن توحيد سورية من منع إنشاء الدولة اليهودية. أو أن يكون أيّ منهما خطوةً كبيرة نحو قيام ما وصفوه باديء ذي بدءٍ: باتحاد فدرالي عربيّ لينتهي فيما بعد بالعمل على تحقيق وحدة عربيّة صغيرة. ثم كبيرة تبدأ من المحيط وتمتد حتى الخليج.

(١٠) في صك الإنتداب الأصلي على فلسطين كان هناك نصّ صريح على إنشاء وطن قومي لليهود وبضمنها النصّ الحرفي لوعد بلفور. واعترفت المادة (٤٥) من صك الإنتداب بإنشاء وكالة يهودية تتعاون مع الدولة المنتدبة لتأسيس الوطن. وفرضت المادة (٦) على الدولة المنتدبة واجب تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين وتسوية مشاكل حيازة الأراضي (بشرط عدم الإضرار بمصالح السكان الأصليين). ومما هو جدير بالذكر أن لندن أرسلت السر هربرت صموئيل اليهودي الى فلسطين ليكون أوّل مندوب سامٍ لها. وتمّ في عهده اعتبار اللغة العبرية لغة رسميةً الى جانب اللغتين العربيّة والإنگليزية، كما أسرعت إدارته في تمليك أراضي السلطان العثماني والأراضي الأميرية التي ورثها الحكم البريطاني إلى اليهود بثمن رمزي. وسمح لليهود الوافدين بإنشاء وحدات عسكرية الطابع تحت ستار الأندية والمنظمات الرياضية والكشفية وأجازت لهم التزود بالسلاح في مستعمراتهم بذريعة الدفاع عن أنفسهم.

طلائع القومية الجدد تألفت من جيل ما بعد الحرب وبعض بقايا أعضاء أحياء في النوادي والجمعيات العربيّة السرية المختلفة في أواخر سنوات الحرب، بعضهم ضباط سابقون وبعضهم موظفون مدنيّون، وحرفيون، وتجار، ووجهاء يعيشون من مدخولات وغلات أراضيهم الزراعية، وعلماء دينيون ظهروا فجأة على المرسح السياسي بعد انهيار الإمبراطورية واستقطبوا حول حكم فيصل القصير الأمد. معظمهم سكان مدن بنصيب من العلم والثقافة لايستهان به، وفضلاً عن شجاعتهم وتجاربهم السابقة، فقد أعانهم وضعهم الماليّ الجيّد على تخصيص وقت كاف وأموال وافرة للنهوض بأعباء تنظيم سياسيّ وتعبئة رأي عام وإثارة الجماهير والدهماء والوقوف بوجه الحكام مخاطرين بحرياتهم وممتلكاتهم. إلاّ أن الدافع الأصلي المستتر كان دائماً مصالحهم الخاصّة ومراكزهم الاجتماعية والمحافظة على نفوذهم. وهو الجزاء الذي يتوقعه كلّ من يبذل من ذات نفسه ومن ماله للوصول الى بغيته.

فهؤلاء القوميون من هذا الجزء من البلاد الناطقة بالعربيّة لايختلفون نوعاً عن قوميي العراق، وربما اختلفوا كماً أي عدداً أو ثقافة. إذ كان قوميو سورية الجغرافية أوفر نصيباً في العلم والمعرفة من إخوانهم في بلاد ما بين النهرين (العراق) وأكثر تجربة وأقرب تاريخياً الى العروبة. وعلينا في هذا الصدد ألاّ ننسى بأن الشام كان مركزاً لأوّل وآخر حكم عربي القوام خالص النشأة في ظل الحكم الأموي.

ولم يكن ما حصل في جزيرة العرب بما من شأنه أن يشجع هؤلاء القوميين في مطلبهم الأخير وغايتهم المنشودة. فما حدث أن قامت هناك بتشجيع وإسناد بريطاني واضحين – دولة أتوقراطية دينية – مشيخية. لا تمتّ فلسفتها الدينية الى العرقيّة أو القوميّة أو العروبة بصلةٍ، رغم أن مجموع سكانها هم أحقّ من سائر البلاد الناطقة بالعربيّة – بالإدعاء بالأصالة العربيّة. فبعد أن أعلن الشيخ عبدالعزيز آل سعود نفسه سلطاناً في ١٩٢١، ثم ملكاً إثر استيلائه على الحجاز وتقويضه مملكة (علي ابن الحسين). وبوجود البيت الهاشمي على رأس دولتين (العراق والأردن) مجاورتين، وباتخاذ القوميين السوريين الأوائل من حكم فيصل العربي هدفاً قومياً في دعوتهم الى الإستقلال، أدّى كلّ ذلك بحكام السعودية المتعاقبين حتى ما بعد متنصف القرن الحالي إلى محاربة أي دعوة قومية في بلادهم باعتبارها بدعة محرمة دينياً – ومكافحتها مكافحتهم شرب الخمر والدخان، وإلى صبّ الذهب صباً بسخاءٍ لا نظير له في جيوب الساسة والصحافيين ورجال القلم والفكر السوريين واللبنانيين والفلسطينيين وكلّ من أمكن شراؤه ضميرياً، لغرض إبقاء الهاشميين بعيدين عن سورية. وأيضاً للابقاء على الوضع الراهن status quo أي التجزئة التي تمخضت بها الحرب العالميّة الأولى.

وفي بقية أنحاء الجزيرة بدءً باليمن وانتهاء بالكويت لم يرتفع صوت واحد ينادي بشعار قوميّ أو دعوة قوميّة، بله لم يكن هناك شعور يمت الى القوميّة. فقد بقيت عقدة النقص مستولية على سكان يسودهم جهل مطبق، تلك العقيدة التي تعاون على تثبيتها في النفوس حكم الأجانب والحكم المشيخي بقوانينه القاسية وتطبيق حدود الشرع الإسلامي. كلّ ذلك كان يسدّ المنافذ على كلّ محاولة ترمي الى تغيير البنية الاجتماعية هناك.

لم يجد المصريون أيّ إشكال في تحديد هويتهم القوميّة. ولم تقف الهوية عندهم عقبةً عند تحديد الأهداف العامة – مثلما حصل في سورية الجغرافية وبلاد الرافدين. حدود مصر معلومة مرسومة بشكل واضح. وقد كان لها قبل الحرب بزمن بعيد ومنذ مفتتح القرن التاسع عشر دولة عصريّة بمواطنين شديدي الشعور بهويتهم المصرية رغم وجود طبقة حاكمة أجنبيّة دائمة على رأس تلك الدولة. والمشكلة الوحيدة هي القيود التي فرضها الإحتلال عليهم، وكان التوتر السياسي يكاد يستقطب حول الخلاف بين القوميّة المصرية التي مثلها حزب الوفد وبين البريطانيين وملك مصر، بخصوص السيادة المصرية، وتحديد سلطات الملك ولا أكثر من هذا.

إستناداً الى الموثق من المصادر العربيّة، وفد العرب الى مصر في القرن السابع الميلادي بأربعة آلاف مقاتل من الذكور تكاثروا بالإمدادات التي طلبها عمرو ابن العاص – الى حوالي عشرين ألفاً. كل ذلك مقابل سبعة ملايين مصري، وهو العدد الذي استقر عليه رأي معظم المؤرخين والأنثروبولوجيين لسكان مصر آنذاك. لم يكن قدوم العرب غزواً أو فتحاً عنوةً. فقد رآه المصريون عملية إنقاذٍ من الظلم البيزنطي ويده الثقيلة، ففتحت بأوجه المحررين أبواب المدن والقلاع تماماً كما حصل في إيران. وحتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، حين كملت آخر الهجرات العربيّة الى وادي النيل، قدّر عدد العرب النازحين من الجزيرة الى أرض مصر بعددٍ أدناه مائة ألف وأعلاه بمائتي ألف. عاش العرب المقاتلون والحكام من المبدء في معسكرات (فسطاط) تحولت الى مدن، بعضها في أطراف الصحراء وفي الواحات تلك التي تذكرهم بموطنهم الأصلي، ثم مالبثوا أن اختلطوا بالسكان. حتى هذا الخليط كان أقلية بين أكثرية ساحقة مازالوا رغم دمائهم المصرية يمتازون بعادات وتقاليد موروثة ألجأت بقية المصريين الى إطلاق كلمة (البدو) عليهم تمييزاً عن لفظة (الفلاح) التي تطلق على عموم المصريين من سكان الريّف.

لم يؤثر تأصل الدين إسلامي في نفوس المصريين على تمسكهم بهويتهم المصرية بخلاف البلدان الإسلامية الناطقة بالعربيّة. فمنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت محاولات جديّة

للتوفيق بين الأفكار الليبرالية التي أطلقتها الثورة الفرنسية وبين التعاليم الإسلامية المستمدة من القرآن والسنّة. بدأها الشيخ (رفاعة الطهطاوي) وتلامذته، أي مدرسته التي ضمّت عدداً كبيراً من الأدباء والاجتماعيين الذين لم يكونوا سياسيين على أية حال[11].

وبقي القوميون السوريون وصحافتهم يتحدثون بالذي دار في المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق العام ١٩١٩، كالدعوة الى الوحدة الإقتصادية مع العراق، والتخلص من النفوذ الأجنبي. وما بدا في صحافة القطرين من كلام يرفع بمناسبات معينة، حول هذا الحلم أو "الأمنيّة العزيزة" كما وصفوها.

ولنذكر أن الدعوات القوميّة هذه خلال العقد الثالث من قرننا كانت قاصرة على الهلال الخصيب، ومنحصرة في إطار المذهبية السنيّة.

★★★

لايمكن المرور بموقف القوميين المخضرمين[12] مروراً عابراً أزاء القضايا القوميّة وحركة الوعي القومي. فقد كشفت الأحداث عن إزدواجية كريهة فيهم، كان لها أثرها في انحراف الفكرة عن السبيل الليبرالي. في الظاهر بدوا أنصاراً لفكرة القوميّة الليبرالية التي أرست دعائمها أفكار ما بعد الحرب. وبالدساتير والأنظمة الديمقراطية التي أوحت بها الدول المنتدبة وصيغت وفق التقاليد الغربية في الحكم، وبضمان الحريات الدينية وحرية التعبير، ومباديء المساواة، واستقلال القضاء والنظام البرلماني، ألخ... وبقي داء السيطرة والإستبداد الموروث عن العهد العثماني والمنغرز في نفوس هؤلاء الورثة الداء المشخّص والوجه الحقيقي. لا أدري كم كان هؤلاء وخلفاؤهم من الجيل القومي الجديد يدركون بأن الأحداث العنيفة والهزات الاجتماعية النكباء التي حلّت بالبلاد الناطقة بالعربيّة، كانت حصيلة صراعٍ سايكولوجي خفيّ بين هذين الأقنومين المتناقضين.

(١١) كان الطهطاوي (١٨٠١–١٨٧٣م) واحداً من أركان النهضة الفكرية الحديثة في مصر. قال عنه صاحب دائرة معارف (المنجد): "إنه أتمّ ثقافته في فرنسا على كبار المستشرقين وعرّب كتباً علمية كثيرة وحرّر جريدة الوقائع المصرية، وتخرج عليه عدد من الأدباء كانوا الطليعة في نهضة مصر الفكرية" آه. ونقول إن الطهطاوي حاول وبنجاح كبير البرهنة بأن مباديء الثورة الفرنسية لاتتعارض وتعاليم الإسلام، بل تتفق معها. مستشهداً بمقتبسات من القرآن والسنّة. وكان أول من تحدث عن القوميّة المصرية والقومية بشكل عام وبالشكل الذي يتفق وآراء ماتزيني وتراث ثورات ١٨٤٨ في أوروبا.

(١٢) المخضرم: من الكلمات القليلة ذات الأصل الرباعي في اللغة العربيّة، ويقصد بها أولئك الذين أدركوا الجاهلية والإسلام (ولم يختتنوا).

لم يستطع، أو ربما لم يحاول القوميون المخضرمون تغليب العنصر الديمقراطي الليبرالي في الدعوة القوميّة على العنصر التحكمي المتعصب، الذي كان ينفجر بنيران وآخر كبركان خامدٍ ليقذف بحمم قتالة تصيب أصحابه كما تصيب الآخرين، الى أن إلتقى بالفاشية والنازية ليجد ضالته فيهما.

ولم ينقرض الجيل المخضرم من القوميين قبل أن يورث هذا الداء جيلاً جديدا مجرداً عن المناعة مستعداً تمام استعداد لقبول الفلسفات العرقية القديمة، التي أخرجتها النظم الفاشية – النازية من قمامة التاريخ المنتنة. وهكذا بقيت (العروبة) لسوء حظها بعيدة عن الإتجاه الليبرالي – الديمقراطي الى أن ضاعت آثارها وذابت في أتون الحركات الدينية العنيفة التي تجتاح عدداً من البلاد الناطقة بالعربيّة.

وكان من سوء حظها – وربما كنتيجة للتركة التي أشرنا إليها – أن تتبادلها أيادي زعامات سياسية أو عسكرية مغامرة أنانية، تفتقر الى صفة الديمومة وتقذف بها أحداث موقوتة لتموت بموتها. ولم يبرز بين صفوف دعاتها ومجاهديها في أي وقت من الأوقات مفكر أو قائدٍ آيديولوجي تنداح أفكاره على الدعوة القوميّة وتصبغها بصبغة موحدة شاملة وتكون مصدر وحي دائمي واحترام جماعي. فبقيت الى الأخير متشرذمة تتصارع أطرافها صراعاً يبلغ من العنف حد التآمر والتصفية الجسدية، وتتحول مراميها بالسرعة التي تتحول رمال الصحراء، لتبني كثيباً مرة أو لتفرغ وهدة تركة.

بقيت أدبيات القوميّين خلال هذه الفترة لاتعدو الكلام المنمّق والأحاديث الخطابيّة الحماسيّة المذكرة بالتراث والمجد الغابر، يشجعها احتقار مزمن متنام للمباديء الدستورية. مع الزعم في أحيان معينة باحترامها والتقيّد عن طوقها. كما كان ذلك يظهر في مناهج بعض الأحزاب القوميّة أو برامج الحكومات ذوات الإتجاه القومي.

وتحول تشجيع البريطانيين (والفرنسيين الى حدٍ ما) للعروبيّة واتجاهها الشوفيني الى خطة سياسية ثابتة كاملة الأبعاد في العقد الثالث والرابع، بعد أن أمست جزءً من سياسة الديمقراطية الغربيّة العامة إزاء الدكتاتوريات الفاشية – النازية في أوروبا، تلك السياسة التي عرفت في كتب التأريخ بسياسة المهادنة والإسترضاء Appeasment Policy والسكوت عن عدوانها. باعتبارها ضرورة حتمية لدرء الخطر الشيوعي والأمميّة التي تهددها – أي اتخاذها سّداً أمام الإتحاد السوفيتي بتلك السياسة الخرقاء التي أدت الى حرب لم يعرف لها العالم مثيلاً وطحنت ثلاثين مليوناً من البشر.

ومع أن حرب المباديء والعقائد الإشتراكية – الشيوعية – القوميّة في البلاد الناطقة بالعربيّة لم يَذرّ له قرنٌ في هذه الفترة التي نتحدث عنها، إلاّ أن الخطر الذي كانت تهبّ ريحه من الشمال على تلك البلاد هو حقيقي وقد بدأ بصمود ثورة أكتوبر الإشتراكية في روسيا وشعوب إمبراطوريتها وتغلبها على أعدائها في الداخل وتوجه أنظار الثائرين إليها في تلك البلاد[١٣] بعد إعلان قيام إتحاد الجمهوريات السوفيتية بزعامة الحزب الشيوعي الروسي والعمل على نشر الإشتراكية بقيادة الطبقة العاملة باعتباره واجباً أممياً تحت شعار إتحاد عمال العالم.

في ذلك الوقت كانت الأفكار الإشتراكية في مصر قد خرجت من حديث الصالونات والمقاهي ومقالات في الصحف الى عالم التنظيم الحزبي والنقابي. كانت الحركة العمالية قد أنبتت لها جذوراً قوية في مصر منذ إنتفاضة العام ١٩١٩. وتمّ إنضاجها وتحديد اتجاهها بفضل طبقة من الكتاب الإشتراكيين الإنسانيين المتنورين من قيود التقاليد الدينية أمثال ولي الدين يكن وسلامة موسى[١٤] ومحمود عزمي وإسماعيل مظهر ومحمد عبدالله عَنَان صاحب المؤلفات التاريخية الشيقة.

(١٣) في العام ١٩١٩ كتب الشيخ محمود الى زعيم الحزب الشيوعي (فلاديمير لينين) يطلب معاونته عسكرياً وسياسياً باعتبار النظام السوفياتي نصيراً للأمم المضطهدة.

(١٤) نشر سلامة موسى في العام ١٩٢٣ ترجمته لكتاب گرانت آلن Grant Allen: الموسوم (نشوء فكرة الله). لو كان هذا الكتاب معاصراً للإمام (الخميني) لما اكتفى هذا بإهدار دمه بل بإصدار فتوى بحرقه حياً وتذرية عظامه في الريح. وقتل كلّ من يقرأ كتابه. وقد بقي (ولي الدين يكن) طوال عمره يقدح في رجال الدين وعلمائه مستخدماً كل ما في قواميس اللغة من نعوت هجاء وسخرية. ولم تكن في زمنه محكمة كتلك التي حكمت في القاهرة في أحد أشهر سنة ١٩٩٥ على أستاذ جامعي وقف بعض موقفه – بكفره ووجوب طلاق زوجه منه. في ذلك الزمن وبينه وبيننا أكثر من ثلاثة أرباع القرن وجدنا وليّ الدين يكن ينشر بالنص: "لو جمعنا العمائم التي بالبلاد العثمانية وجعلناها بعضها فوق بعض، لبنينا حصناً يعجز عن هدمه أسطول فرنسا بأسره (التجاريب ص٣١). ويكتب أيضاً: "زعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء لايرغبهم في الشورى (البرلمان) شيء. فهم يحبّون أن يظلوا متحكمين على الرقاب وأن يبقوا عيالاً على الأمة. وأن يلثم الناس أيديهم ويملئوا أكياسهم" (المعلوم والمجهول ج١ ص٦٣ ط. ١٩٠٩). بل أنظره يتحدث عن المناضل الكادح (فِرار) الإسپاني الذي نفذ فيه حكم الموت بسبب دفاعه عن حقوق شعبه: "هُنّ ثلاث رصاصات بإسپانيا فجاوبت دويها بلاد الله في أوروپا وآسيا وأفريقيا وأمريكا. ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدنة بمشهد من حكومات متمدنة. فقتلت رجلاً متمدناً حراً، أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته. منصف أرداه إنصافه. أبى زعامة الفرد على الجميع وكره أن يرى أناساً يرفلون في ثيابهم المحجلة، يجررون أسيافهم وتخفق على رؤوسهم خِرقٌ فوق قضبان يسمونها أعلاماً وإن تكثر حكومات الأرض من جميع هؤلاء في أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم. آنف أن يرى إخوانه أبناء آدم يتنازعون أكنافاً عن أرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس مما يجزع على (فِرّار) لا سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة ولا سراة القوم ولا الوزراء ولا كبار الموظفين، وإنما يجزع عليه المنفيون =

المصادر الرسميّة المصرية والوثائق البريطانية، كانت في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٨) فصاعداً تشير الى شخص اسمه (يوسف روزنتال) بوصفه داعية للأممية الثالثة في مصر وتصفه بالفوضوي المشاغب الخطير سياسياً. نشط في مصر منذ العام ١٩١٠، لصالح الدولية الشيوعية وكانت له اليد الطولى في تأسيس الحزب الإشتراكي بمصر عامذاك[١٥].

= الى أقاصي سيبريا، حين يعضّ الحديد على سواعدهم، والمقيمون في ظلمات السجون في سائر أقطار الأرض، بل يبكي عليه كلّ من ذاق مرارة الظلم والإستبداد في أسر المستبدين. والأرمنيّ الذي قتل أقربوه في مذابح الأناضولي، والتركي الذي ألقيَ ذووه في لجج البوسفور، والعامل في أعماق الموانيء محروماً من نور الشمس ولطف الهواء. والفقير الذي يحسّ بالفاقة ولايتجاسر على شكايتها...". كان ولي الدين سليل أسرة أرستقراطية عريقة تمتّ بصلة القرابة كما يدل عليه لقبه الى الأسرة الخديوية ولم يكن إشتراكياً منتظما أو داعية لنظرية فلسفية. فهو شاعر وأديب ليبرالي النزعة مرهف الإحساس جياش العاطفة أوتي شجاعة وثبت جنان غير عاديين، فوجدت نزعته الأممية السبيل إليه خلال ذلك. إقتنيت كتبه وطالعتها مراراً وأنا بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، وتبادلتها مع رفاق لي. وكانت ترد العراق عبر المكتبة العصرية في بغداد لصاحبها الأديب الذواقة محمود حلمي. وعنها كانت ترد تقريباً كلّ ما تخرجه المطابع المصرية من نتاج أدبائها وشعرائها ومفكريها. ومنها اقتنينا كتب سلامة موسى. وأذكر بصورة خاصة أن أوّل من فتح أمامي أبواب التأريخ البشري كانت مؤلفات محمد عبدالله عنان.

(١٥) في تشرين الأوّل ١٩٢٤. في ذلك الحين لم يكن في قانون العقوبات المصري ما يجعل النشاط الشيوعي جريمةً. ولذلك عُدّل بالقانون رقم ٣٧ للسنة ١٩٢٣، بإضافة فقرتين الى المادة (١٥١) منه وإضافة المادتين ٤٢ و٣٢٧ إليه. ويعيد هذا الى الذاكرة مشابهة طريفة بخلو قانون العقوبات العراقي (البغدادي كما كان يسمّى) من مواد عقابية حول النشاط الشيوعي حتى العام ١٩٣٨ عندما استنت الحكومة القانون رقم (...؟) وجعلته ذيلاً معدّلاً للقانون. بلغت فيه عقوبة الموت عند القيام بالدعوة للشيوعية في أوساط القوات المسلحة.

وفي كتاب الأستاذ حنا بطاطو الممتع الغزير المعلومات (The Old Social Classes) الذي خصص منه فصلاً كاملاً عن يوسف سلمان (فهد) سكرتير الحزب الشيوعي العراقي. ذكر عرضاً مناسبة القاء القبض على (فهد) في العام ١٩٣٣، ونوه فحسب (ص٤٢٩) بدهشة محقق الشرطة من ثبت جنان المتهم "وعدم محاولته إنكار عقيدته واسترساله في الحديث حول الرأسمالية والجماهير الكادحة" ووقف عند هذا الحدّ. ولعله كان يجهل بقية القضية وفيها من الغرابة ما فيها: ففي متنصف ذلك العام مثُل فهد أمام حاكم الجزاء شيت خسرو الموصلي (وقد أدركته وأنا محام. وهو عضو في محكمة إستئناف الموصل بعد أربع عشرة سنة). ولم يحاول فهد إنكار كتابته وبخطّ يده البيانات الملصقة على الجدران في الناصرية معلناً في عين الوقت بأنه شيوعي المبدء. لا أعتقد إلاّ أن فهد كان يدرك مثل القاضي الذي يحاكمه بأنه ليس هناك قانون شديد الوطأة يتوسل به القضاء لزجه في السجن مدة طويلة. كان كل ما يملك القاضي وقتذاك قانون المطبوعات وقانون الاجتماعات والتجمعات العثمانيين، وأقصى ما في أولهما من عقوبة السجن ستة أشهر، أو ثلاثة أشهر لثانيهما. وربما كان في نفس فهد أن يجعل من نفسه أوّل ضحية حكومية وأول سجين شيوعي في العراق. كما إني لا أشك في أنه أراد أن يجعل من المحكمة منبراً يطلق من فوقه آراءه مستفيداً من النقص القانوني. وما أظن القاضي نفسه (ولم نكن نعدّه من القضاة اللامعين) يفهم شيئاً كثيراً عن المبدء الشيوعي يزيد عما تفهمه (الخالة مينه) والدة فهد، إذ كانت تجيب الجارات القادمات للأخذ بخاطرها بعد سجن ابنها المتسائلات عن السبب: "لأنه صار شيعي!". من الأكيد أن فهد لم يدع =

أبدل هذا الحزب إسمه عندما ظهر للعلن باسم الحزب الشيوعي المصري. وشهدت البلاد الناطقة بالعربيّة في ١٩٢٤ أول ملاحقةٍ للشيوعيين في ذلك العام، عندما سيق أعضاء لجنته المركزية متهمين أمام محكمة جنايات الأسكندرية وصدرت بحقهم أحكام خفيفة نسبياً، أعلاها لم يتجاوز ٣ سنوات. ولحقت سورية ولبنان بالركب فتأسس الحزب الشيوعي السوري اللبناني في العام ١٩٢٥، وكانت أداته جريدة (الشمس) البيروتية واعتمدت الحركة في مبدئها على الأرمن النازحين من تركيا.

في أوائل العشرينات لم تكن هنا أدبيات عقائدية إشتراكية الصبغة أو شيوعية المنحى بأقلام كتاب عراقيين، إلاّ أن ما كان يرد العراق من هذين القطرين يتكفل بخلق إتجاه فكريّ بين المتعلمين والأدباء الناشئة وطلاب المعاهد العلميّة والثانويات لم تخطئه عين الإستخبارات البريطانية. لأنه كان يتصل اتصالاً عضويّاً لم يكن مقصوداً بالريح التي تهبّ من الشمال القصي مقترنةً بعداء شديد للسلطة الحاكمة التي صارت تبدو لهؤلاء، فهي لا أكثر من صنيعة الأجنبي المحتل.

وشهد العام ١٩٢٦ أوّل تنسيق أمنيّ بين دوائر الإستخبارات للدول المنتدبة على أقطار البلاد الناطقة بالعربيّة في الشرق الأدنى. ففي ٢٧ نيسان ذلك العام اتخذت حكومة السعدون قراراً بالإنضمام الى الإتفاق الأمنيّ المعقود في ٢٣ من كانون الثاني ١٩٢٦ بالقاهرة بين

= للقاضي سبيلاً للعطف. بل كان يحاول إثارة حفيظته عامداً بأجوبة مستفزة: ضاق القاضي مرةً بخطبة طويلة لفهد فقاطعه بقوله:

– بماذا تتحدث؟ أنت مجنون؟

فأجاب فهد:

– بل أنت المجنون... أحكم زين...

وقد حكم بثلاثة أشهر على ما أتذكره. ويلاحظ أن كلا القانونين المعدّلين لم يكونا يعاقبان على مجرد اعتناق المبدأ الشيوعي بل على الدعوة والنشاط في بثه. (ربما حفظاً لماء وجه القانونين السياسيين المصري والعراقي اللذين نصا على حرية الإعتقاد) فعلى وجه المقارنة. نجد (يوسف روزنتال) المؤسس الحقيقي للتنظيم الشيوعي في مصر يستثنى من الإتهام ولا يقدم للمحاكمة لأنه كان قد فُصل عن الحزب ولم يشارك في نشاطه. وقد نشرت له جريدة الأهرام في ٢١ من آذار ١٩٢٤ تصريحاً له حول الإفادة التي أدلى بها أمام (المدعي) العام وقال ما نصه: "كنت أحد مؤسسي الحزب الإشتراكي وهو منذ تأسيسه حزب شيوعيّ. وقد تمّ تغيير اسمه وفقاً لطلب اللجنة المركزية الشيوعية الدولية (الكومنترن). إذ كان التغيير شرطاً لقبوله في هذه اللجنة الدولية. وأنا كنتُ حتى آخر نسمة من حياتي شيوعياً كاملاً ومخلصاً إخلاصاً تاماً لقضية البروليتاريا، وبالرغم مما أظهرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري من قلة الخبرة وما ارتكبته من أغلاط، فأنا أتضامن معها تضامناً تاماً وأطلب بنصيبي من المسؤولية"، إلا أن القضاء المصري، أبى عليه تحقيق طلبه لأنه لم يكن ناشطاً خلال تلك الفترة.

دوائر أمن مصر وفلسطين وسورية حول التعاون على تعقيب المشبوهين من الشيوعيين الوافدين من الإتحاد السوفياتي[١٦].

وأنا أميل الى الإعتقاد بالتأثير المصري السوريّ في نشر الإشتراكية والمباديء الماركسية في العراق وغلبته على التأثير المحليّ المحيطي. النواة الماركسية الأولى كانت في بغداد باتفاق المتتبعين للحركة الإشتراكية – وبدأت ضمن إطار إصلاحي قومي شعبيّ مطابق الى حَدّ كبير لإتجاهات القوميّين الجدد، وكلا الفريقين يعتمد في توسيع مداركه على ما يرد من مصر وسورية من مطبوعات وكتب تأريخية واجتماعية أو أفكار ذات طابع سياسيّ. فقائمة مشاهير الكتاب السوريين والمصريين التقدميين الذين استهوتهم المباديء الإشتراكية لم تكن قاصرة على أولئك الذين ذكرناهم ولا وقفاً عليهم. وعلينا أن نضيف إليهم أسماء لامعة أخرى في سماء الأدب والاجتماع كالدكتور طه حسين والمازني وحسين هيكل ويزبك. وأذكر منهم بصورة خاصة الكاتب والأديب الكبير عباس محمود العقاد. وقد عُرف منذ الأربعينات بنقده الشديد المتواصل للشيوعية وللإتحاد السوفياتي. إنك لتراه في مطلع العشرينات يدافع عن الإشتراكية والفكر الإشتراكي، بحميّة العقيدة عندما يتصدّى لنقد كتاب (سر تطور الأمم) لمؤلفه الكاتب الفرنسي الأتوقراطي النزعة (گوستاف لوبون) الذي نقله (أحمد فتحي زغلول) الى العربية ويصح اتخاذ ما كتبه نموذجاً للفكرة السائدة آنذاك عن الإشتراكية:

"الكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والإشتراكية يخيل لك أنّ الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول ولويس السادس عشر، وأنه يكتب بإيعاز من روتشيلد وروكفلر. فتراه ينصّ على مبدء المساواة لكنك لاتعلم منه كيف عدم المساواة. وتراه يتشاءم من الإشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب البوم لايعلمون لذلك التشاؤم سبباً. الحقيقة هي أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائض ومثالب لاينفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الإشتراكيون، ومن

(١٦) من مضمون الإتفاق أن تلك الدوائر التي كانت يشرف عليها موظفون بريطانيون وفرنسيون كانت تقصد أن لايكون العراق وهو الأقرب الى الجمهوريات السوفياتية، معبراً يتسرب منه الشيوعيون المشبوهون الى سورية ومصر، ثم يتسللون منه الى تلك الجمهوريات وأن تقوم الأجهزة الوارد ذكرها بتبادل المعلومات عن دخول وخروج الأشخاص المشبوهين بكونهم شيوعيين من سورية وإليها عبر العراق "مبينةً اسم الشخص والطريق الذي تعقبه". وورد في الإتفاق تحذيرٌ من عدم "الإشارة مطلقاً الى الشيوعية في البرقيات المكشوفة المتبادلة بين دائرتي سورية والعراق، وإنما تستخدم كلمات وتعابير خاصّة متفق عليها وأن يكون الإتصال بالبرق اللاسلكي" وقد تمت مصادقة الحكومة العراقية على الإتفاق في ٢٧ من نيسان ١٩٢٧ (أنظر الحسني: النصّ الكامل في: تأريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص٥٦، الطبعة الثالثة.

العلماء الذين يحسبون أنفسهم من الإشتراكية ولايحسبون الإشتراكيون منهم. ومع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الإشتراكية ويرون رأيهم في بعض الحلول التي يقترحونها. إن الإشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير ولا هي وعدٌ خيالي يبشر الناس بالقبول بالأقدار والتشاكل في المنزلة والأرزاق. كلاّ فليست المساواة بين الناس من همها لكنها إنما تدعو الى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يُعطى كل عامل ما يستحقه بعمله وأن ينتفع المجموع بأكبر ما يمكن الانتفاع به من قوة الأفراد فإذا كانت الدنيا قد حُمّ أجلها وقارب يومها لأن جائعاً يريد أن يشبع ومنهوكاً يتمنىّ أن يستريح ومظلوماً يودّ أن ينتصف فلشدّما هزلت الدنيا. إن النظام الإقتصادي الحالي قد صيّر العامل قوةً آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه وحذقه وهذا النظام الإقتصادي المودي بالمواهب المعطل للعقول هو النظام الذي تثور عليه الإشتراكية فماقامت الإشتراكية إلاّ لترقي مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب العمل وتجعله إنساناً ذا رغبةٍ في عمله وغيرةٍ عليه. ومنذ أن أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة أصبح كلّ صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله فكان التعب والحرمان من نصيب فريقٍ والراحة والربح من نصيب الآخر"[١٧]

في حين كانت الحلقات الإشتراكية الضئيلة العدد التي تكونت في كلّ من بغداد والبصرة والناصرية والديوانية في العشرينيات، تخشى أن تنسب الى هذه المباديء وتتحامى كلمة "الإشتراكية" والطبقة العاملة و"البروليتارية" وما شابهها من تعابير شائعة في الأدبيات الماركسية.

لم يكن عالم الصحافة العراقي بطبيعة الحال يجهل الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام في إستنبول في أيلول ١٩٢٠ ضد الإشتراكية والبولشفية. وقد نُشرت في أكثر من صحيفة وشاع أمرها بين الناس، بل قُرئت في بعض المساجد والجوامع بتشجيع من السلطات البريطانية وتحريض منها وقد جاء في آخرها هذه الفقرة:

"إن الدين الإسلامي يحوي من الأحكام الأساسية ما يناقض جميع المسالك الإشتراكية، وخصوصاً البلشفية التي هي عبارة عن شكل خطير لها، لأن من

(١٧) الفصول: الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٢٢ الص ١٥٥–١٥٧.

شأنها الإخلال بالملكيّة الشخصية وحقوق التصرف بها"

وكان في الفتوى شيء كثير عن إنكار الإشتراكية والشيوعية أي وجود للخالق وعدائهما للأديان السماوية.

وهؤلاء النفر القليل الذين كانوا يجتمعون في حلقة شبه عائلية أوائل العام ١٩٢٤ متخذين حجرة لقاء لهم في جامع الحيدر خانة الشهير بالإنطلاقات الجماهيرية ضدّ السلطة، معتبرين أنفسهم أول حلقة يساريّة، كانوا على إدراك تام بأن الرأي العام الديني والسياسي في العراق كان قد شحن مسبقاً بتيار الصدود عن الأفكار الإشتراكية والشيوعية قبل أن تجد أفكارها منبتاً في تربة العراق، وقبل أن يجرُء أحد أن يجاهر بانتسابه الى الشيوعية أو اعتناق الإشتراكية؟

كان الحصول على امتياز إصدار صحيفة سهلاً في تلك الأيام، ما عليك إلاّ أن تتصفح واحداً من الكتب العشرة أو نحوها التي كتبها مؤلفون عراقيون عن تاريخ الصحافة والصحف، لتطالعك أسماء مئات من الصحف والجرائد والمجلات معظمها لايكتب له الدوام بعد صدور عددين أو ثلاثة. فإمّا يعدل أصحابها عن الإستمرار في إصدارها لفشلها في اجتذاب القارئين، أو لقلة رواجها، أو لأسباب مالية أو لخلاف بين محرريها أو لتعرضها لعقوبة الغلق لسبب أو لآخر.

وفي الشهر الأخير من العام ١٩٢٤ راح باعة الصحف الجوالون وبعض الدكاكين في بغداد يعرضون نسخاً من جريدة صغيرة الحجم بعنوان (الصحيفة) تحفل بمقالات غير مألوفة، تختلف عما عهده القراء في الجرائد الأخرى، كانت تتحدث عن المادية التاريخية (التفسير المادي للتاريخ) وتتضمن مقالات مترجمة عن صحيفة (لومانيتيه) لسان الحزب الشيوعي الفرنسي، وعن المساواة بين الرجل والمرأة وعن حرية الأنثى وضرورة فتح باب العمل والنشاط السياسيّ لها.

آراء وأفكار جريئة غير معهودة في حياة العراقيين العقليّة. محررو (الصحيفة) لم يتناولوا ما اعتادت الصحافة القوميّة كتابته عن الوضع السياسي بصورة عامة، ولم يهتموا بما اهتم به القوميون – الوطنيّون مثل الإنتداب والمجلس التأسيسي والمعاهدة أو قضية الموصل، ومستقبل الكُرد... الخ... بل كانوا فحسب يترجمون وينقلون أفكاراً اجتماعية صرفة، تفوح منها رائحة عقيدة جديدة إكتسحت الفكر الأوروبي، مغفلين ذكرها بالإسم عمداً، إنما كانت مضمّخة برائحة النظريات الإشتراكية. وإن هم تحاشوا ذكر المؤلفين والمفكرين بالأسماء، فقد

كانوا يترجمون الرسائل والمقالات التي خلفها الزعيم الإشتراكي جان جوريس[١٨] ومقتطفات من ماركس، ومقالات وبيانات نظرية لعصبة السپارتاكوس الألمانية[١٩]، الى جانب أدبيات جمعيّة الفابيين[٢٠] أو زعماء النقابيين في حزب العمال البريطاني. وتحدثت (الصحيفة) عن فساد التقاليد التي تشدّ المجتمع العراقي الى الماضي البالي، وهاجمت الخرافات وضرورة التخلص من سلطانها مؤكدة في عين الوقت احترامها المشاعر الدينية، وحرية الإعتقاد، الى جانب حرية التعبير. ودأبت خلال عمرها القصير على الحديث حول المرأة ووجوب مساواتها بالرجل في فرص العمل وحياة المجتمع، بصورة عامّة دون التطرق الى خصوصيّات المشكلة (لم تبحث الصحيفة مثلاً حول وجوب منح المرأة حق الإنتخاب بصراحة).

في الواقع كان كتّاب (الصحيفة) في مجال حريّة المرأة لايسيرون مسافة أبعد كثيراً من بعض الأدباء والشعراء المتحررين الذين اجترأوا على ولوج هذا الباب، لكن دون أن يبلغوا شأو (قاسم أمين) فيه. ويمكن القول إن حركة الإنتصار للمرأة تركزت حول وجوب نيلها حظاً من التعليم والمشاركة في فعاليات اجتماعية محدودة وقضية السفور والحجاب[٢١]. وقد عبّر

(١٨) جان جوريس Jean Jaures: تزعم الحركة العمّالية في فرنسا وأسس جريدة لومانيتيه (الإنسانية) في ١٩٠٤، التي بقيت لسان الحركة العمالية في فرنسا، ثم صارت جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي. أغتيل قبيل نشوب الحرب العظمى.

(١٩) سپارتاكوس بوند Spartakus Bund: إسم لحركة إشتراكية ثورية نشطت في المانيا خلال الحرب وبعدها، وأخذت اسمها عن (سپارتاكوس) العبد الروماني الذي قاد في العام (٧٠م) ثورة العبيد على سلطة روما. ومن أشهر قادتها روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت. وهي نواة الحزب الشيوعي الألماني. حاولت العصبة الوثوب الى الحكم في ثورة العام ١٩١٩ الفاشلة. وقتل قائداها هذان بعد القبض عليهما.

(٢٠) جمعية إشتراكية تأسست في ١٨٨٤ أخذت اسمها من القائد الروماني (فابيوس كونتراكتور) الذي اشتهر بتكتيكه الحربي المتأني أثناء قتاله مع هنيبال (١٩ ق.م). عاونت في تأليف حزب العمال البريطاني. من أبرز كتابها سيدني ديب وزوجه بياترس. وجورج برنارد شو.

(٢١) ايضاحاً لأبعاد حركة تحرير المرأة العراقية، والمقام المركزي الذي احتلته عند دعاة الإصلاح والتجديد الاجتماعي. سأنقل هنا روايتين للقصصي والشاعر والأديب جعفر الخليلي النجفي: (هكذا عرفتهم ج٥، الص٢٣٠–٢٣٧) قال: "كان مجتمعنا الحضري وأقصد به سكان المدن، قاسياً في معاملة المرأة ظالما لها حتى في حرمانها التعليم... أمّا القرويون فلم يسمحوا للمرأة إلاّ برفع الحجاب دون غيره وبالتالي فهي أتعس حالاً من المرأة الحضرية، ولا أحسب المرأة قروية إلاّ في النادر أن تسلم من ضرب الرجل لها بالعصا وأحياناً بالمگوار الذي طالما كسر لها بعض ضلوعها، بل كان سبباً لإحداث عاهة فيها أو قتلها إذا كان ذلك مما يدخل ضمن حدود العرض والخطف. وكان الميرزا حسين النائيني (وهو مرجع تقليد شيّعي خطير) ممن ألف كتاباً يدعو فيه إلى وجوب تعليم المرأة واحترام حقوقها كإنسان. لكنّه عندما وصل الى المرجعية الكبرى وأصبح المرجع الأكبر للشيعة، اضطر الى جمع الكتاب وشرائه، حتى بلغ ثمن النسخة منه ليرتين ذهباً. وكانت عندي نسخةٌ أردت حين أصدرت جريدة (الفجر الصادق) ترجمتها ونشرها، فقامت قيامة هذا المرجع ولم يترك وسيلة من الوسائل إلاّ واتخذها، حتى حال بيني وبين نشر هذه =

عنه زعيم الحركة جميل صدقي الزهاوي، الذي حدّد الإخفاق الذي مني به الشرق بإهماله تعليم المرأة:

من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق

وبقصائد كثيرة أخرى تجدها في دواوينه. وقبلها بعشرين عاماً، هُزت عاطفة الشاعر المصري حافظ إبراهيم بنزول المرأة اليابانية ميادين القتال في الحرب الروسية – اليابانية ممرضةً وعاملةً وهي من بلد كان يضرب به المثل في التأخر في البلاد العثمانية، فتُدلّ عليها وعلى شعوب الشرق الأخرى بالحرية التي منحها الإسلام لهنّ. فقال فيهن قصيدته الشهيرة التي نشرت في أكثر من جريدة عراقية بعد نظمها بزمنٍ وقامت معلمات سوريات ولبنانيات بتلقينها حفظاً لتلميذاتهنّ العراقيات ومطلعها:

أنا يابانيةٌ لاأنثني عن مرادي أو أذوق العطبا
أخدم الجرحى واراعي حقهم وأواسي في الوغى من نكبا
هكذا (الميكادُ) قد علّمنا أن نرى الأوطان أمّاً وأبا

وتصدى المستنكرون المعارضون، هازئين بأولئك الذين يعدون الحجاب عقبة من العقبات التي تقف في سبيل التمدن والتقدم، فردّوا شعراً ونثراً:

قالوا: التمدنُ بالسفور فقلت ما ضرّ التمدنُ غادةً بحجاب
يكسو الفتاة مهابة وجلالةً ويصونها من وصمة المرتاب

الى غير ذلك من التعاليل المريضة، ومن دون تفكير بأن الحجاب يشجع على التخفي وارتكاب المرأة الرخيصة العفة ما لاتجرأ عليه لو كانت سافرة. وكلّ ذلك كان أشبه بفقاعات

= الرسالة. ويروي كذلك كيف كانت الحاجة تدرك الى عنصر أنثوي بمناسبة إفتتاح مهرجان سوق عكاظ في ٢٤ من شباط ١٩٢٢، لتمثيل دور (الخنساء) الشاعرة العربيّة: "فتركب الجمل وتدخل السوق وتنشر كما كانت تفعل الخنساء. لكن أين هي تلك المرأة... بحثوا كثيراً لكنهم لم يعثروا عليها، فقد كان المجتمع العراقي يومذاك من ضيق التفكير والتمسك بحيث كان يعتبر المرأة عورة لايجب كشفها للناس، ويكفي القاريء بأن المرأة الحضرية لم تكتف بعباءة واحدة، إنما كانت تلفّ نفسها بعبائتين حين الخروج من البيت. ولم يكن الحجاب قاصراً على المسلمين وحدهم بل تشارك فيه المسيحيات واليهوديات حينذاك... وارتضت لجنة إقامة السوق أن تمثل الصبية (صبيحة الشيخ داود) دور الخنساء. فجاء الشيخ أحمد الداود وفد من المشايخ يطلبون منه العدول عن رأيه ومنع ابنته (المولودة في ١٩١٥) من ركوب الجمل واختراق صفوف الرجال...". أقول: أدركت صبيحة الشيخ داود في أواخر العام ١٩٣٩ وهي في الصف المنتهي من كلية الحقوق وأنا في أول أيامي فيها ومعي خمس طالبات من مجموع ١٤٤ مقبولاً. وقد دخلتها بعد قضاء سنة واحدة في سلك التعليم وهو باستثناء مدرسة التمريض والطب المهنة الوحيدة المتاحة للأنثى. وكانت سافرةً بقدر ما يتعلق الأمر بالوجه. فقد ضلّت تشتمل بالعباءة السوداء أثناء الدوام. أما كلية الطب فقد بقيت قاصرة على اليهوديات والمسيحيات العراقيات حتى الأربعينات.

رغوة صابون فوق سطح ماءٍ ساكن. فلا جميل صدقي الزهاوي ولا حافظ إبراهيم اجترأوا على إخراج محاريمهم سافرات، أو بعثوا ببناتهم الى مدارس مختلطة. أو حاولوا دفعهن الى التظاهر في سبيل حقوقهن الإنتخابية.

مجرد مناقشات، قد تبلغ أحياناً حَدّ المهاترة – يتداولها قراء ومتأدبون يكتبونها بعضهم لبعض، وتقف الأغلبية الأميّة من الجدال كما يقف الأكمه.

وكُتبت المضابط والاحتجاجات بتحريض من علماء الدين – وألقيت خُطب نارية تندّد بـ(الصحيفة) وبمحرريها الملاحدة[٢٢]. ولم تكن دائرة التحقيقات الجنائية (CID)[٢٣] التي يرأسها بريطاني بغافلة عن المصادر التي تستمد منها الجريدة موادّها الفكرية فأسرعت بإغلاقها.

لم تكن في العراق المقوّمات الكافية، شيء يمكن أن يطلق عليه مصطلح الطبقة العاملة أو "البروليتارية" بالتعريف الماركسي. فقوام المجتمع العراقي آنذاك كان الفلاحون وشيوخهم (أجراء وملاكون) في الريف وأهل الحضر. وفي المدينة كان هناك الصَنعة وأرباب الحرف والتجار وعلماء الدين والملاكون. ولذلك كان أيّ خطاب أو حديث توجهه (الصحيفة) الماركسية الواضحة المعالم – لطبقةٍ لا وجود لها هو من قبيل المزاح، أو النكتة الباردة.

إلاّ أن دائرة التحقيقات كانت على علمٍ بأن واحداً من العصبة الصغيرة التي تجتمع في غرفة جامع الحيدر خانة، كان على اتصال وثيق بمشبوهٍ أو مشبوهيْن على الأقل من أولئك الذين وصفهم (الإتفاق الرباعي) بالمتسللين.

في العام ١٩٢٦ نجح هؤلاء الى جانب بعض الأصدقاء الجدد في تأسيس نادٍ باسم (نادي التضامن) الذي ما عتم أن اجتذب إليه عدداً كبيراً من الطلاب والمعلمين وطلائع من حملة القلم والموظفين الصغار. وكان من أهدافه وأغراض تأسيسه كما جاء في منهاجه، وحدة الشبيبة، ونشر المعرفة، وتطوير الصناعات الوطنية والعمل "للمباديء التي تؤدي الى الإرتقاء

(٢٢) من بين الستّة الكبار في الحلقة الماركسية، الذين ذكر بطاطو (المرجع السالف) أسمائهم، عرف الكاتب عن قرب وبُعد ثلاثةً: أولهم (الرحال) أيام كان مديراً للإذاعة العراقية (١٩٤٣) وقبله (عوني بكر صدقي) وهو موظف في كلية الحقوق طوال دراستي فيها، و(مصطفى علي) وهي علاقة قلم وأدب، أيام كان رئيساً للمحكمة الكبرى في البصرة ثم مفتشاً عدلياً في الخمسينات. وبعدها وزير للعدل إثر ١٤ تموز. وفي اعتقادي أن بطاطو تساخى قليلاً وسمح لنفسه بحريّة أكثر عندما وصفهم بالماركسيين ربما كان قريباً من الواقع لو أفرد (الرحال) بهذا الوصف. إذ لم يكن بين هؤلاء من يعرف لغة أوروبية غيره. ولم يكن في ذلك الحين أدبيات ماركسية باللغة العربيّة في العراق.

(٢٣) الأحرف الأولى من Criminal Investigation Department.

بحياة المجتمع!" عبارة أُجيد وضع قناع العموميّة فوقها، إلاّ أن دائرة التحقيقات الجنائية كانت ترى في المنهاج غير ما يظهر منه للعامة، فهو يهتم بالدرجة الأولى بتشجيع الأفكار الإشتراكية ونشرها. ولذلك وضعته ووضعت أعضاءه المؤسسين تحت الرقابة.

إلاّ أن المنضمين الى هذا النادي كانوا خليطاً من الشباب الوطني المتحمس التائق للمعرفة وتبادل الآراء الوطنية، وكثيرٌ منهم من الجيل القوميّ الناشيء، الذين خاصموا القوميّين المخضرمين وبدأوا يبتعدون عنهم وقد رموهم بتهم التعاون مع سلطات الإحتلال والتعاون في المطالبة بحقوق البلاد في الإستقلال والتكالب على السلطة واحتكارها.

كان من الصعب أن يوضع حدّ فاصل – سواء في داخل هذا النادي أو في خارجه – بين القوميين والنواة الإشتراكية الجديدة. فالكل يعمل ضمن الإطار الذي أملاه واقع قيام دولة جديدة (وطن)، فهم وطنيّون إلاّ رئيس النادي (يوسف زينل) المدرس في الثانوية المركزية قد كان قوميّاً معروفاً.

★★★

إن الثورة على كتاب النُصولي (خريج الجامعة الأمريكية في بيروت) تفصح عن خطورة البحث في تأريخ العرب والإسلام بروح متحررة خالية من التحيز وصعوبة تقبّل النفس المتعصبة لأي رأي يخالف رأيها. و(النصولي) كان سنياً وهؤلاء الذين ظاهروه وناصروه من أبناء بلاده وقد عرفوا بنشاطهم القومي – كلهّم من السنيّة، أفيستخلص من هذا أن علماء الدين الشيعة والعناصر الشيعية الأخرى التي هبّت بوجه الرجل ليست عربيّة؟ أو إنها تقف بوجه تيار قوميّ عربي؟

هذا ليس بوارد إطلاقاً، فالشيعة بصورة عامة وفي العراق تفخر كثيراً بنسبتها العربية وتعتزّ بها حينما ترجع قبائل الجنوب أصولها الى الجزيرة العربيّة بما يشبه الإجماع، ولايدع كتّابهم فرصة لتأكيد ذلك إلاّ وانتهزوها ولهم ملء الحق في ذلك. إذن ليس هناك غير تفسير واحد؛ إن قضية النصولي تكشف دون غموضٍ أو لبس عن قوة المشاعر المذهبية وضعف العصبيّة القوميّة (العروبة) أمامها.

بهذه التظاهر الفريدة، ولأول مرة في تأريخ الدولة العراقية – بدأ رجال الحكم يشعرون بأنهم ما عادوا وحدهم يمثلون الإتجاه القومي العربي وإنهم لايعملون بمعزل عن الرأي العام الذي بدأ يثبت وجوده بنمو الطبقة المتعلمة وبالموظفين الحكوميين، وبالزيادة المطردة في الأقلام العاملة في تحرير الصحف، ونشاط الناشئة الجديدة من الطلاب والتلاميذ ومعلميهم الذين اغترفوا من

معين الثروات الفكرية المصريّة وقرائح أدباء مصر وعلمائها. وراح هؤلاء القوميّون الجدد (بمظاهرة الصحافة) يشدّدون الخناق كلّ من جانبه على القوميين المخضرمين الحاكمين ويتربصون بهم ويتسقطون هفواتهم في ضروب نشاطهم السياسي، سيما ضمن الأحزاب الفوقية التي كانوا يشكلونها بين آن وآخر لغرض موقوت، ثم لتذهب مع الريح بعد استيفاء الغرض منها. لم تكن هاتان الطائفتان بحاجة الى إطارٍ سياسيّ. بل كان اصحابها ينتهزون الفرص ليعيبوا تخاذلهم في القضايا الوطنية أمام البريطانيين. وراح الجيل القومي الجديد من غير برنامج أو تنظيم يحاول تعبئة جمهور له في أمور ظاهرها المصلحة العامة، ليجدوا أنفسهم في أحيان كثيرة وهم يساندون الجيل المخضرم فيما لاتصح مساندتهم له، وقد خدعوا بالشعارات. وكثيراً ما تعاونوا معهم من حيث لايدرون على تحرير مخططات سيئة العقبى لتبدو قوميتهم ضحيةً وجانيةً في الوقت عينه.

★★★

كان لنادي التضامن الفضل في تحويل قيادة الشارع من يد علماء الدين ورجال الحكم المتنازعين على السلطة – الى يد الطبقة المثقفة الجديدة، في قضيتين بدت أولاهما محاولة غير مسبوقة لإمتصاص الآثار التاريخية التي أدّت الى العداء الطائفي بين الشيعة وأهل السنّة، وأشّرت الثانية إلى دخول القضية الفلسطينية في منهاج أهداف القوميين في العراق لتحتل منها مقاماً مركزياً.

أولها الحدث الذي عرف في تأريخ العراق باسم "قضية النصّولي". كان (أنيس النصولي) من جملة المدرسين السوريين الذين تعاقدت معهم وزارة المعارف لتدريس مادة التأريخ في ثانوية بغداد المركزية. في ذلك الحين كانت هناك مناهج دراسية تعدّها الوزارة كلّ سنة، توزعها على المدرسين للإستهداء بها في جمع موادهم وإلقاء دروسهم طبقها. وكان كثيراً ما يلجأ المدرسون الى استكتاب التلاميذ. أو يعمدون الى وضع كتاب بمادتهم ومن تأليفهم ليطبع ويوزع على التلاميذ إقتصاداً في الوقت. وطبقاً لهذا أعدّ (النُصولي) كتاباً بعنوان (الدولة الأموية في الشام). بدا في بعض فقراته مصوراً حوادث ووقائع تأريخية معينة بشكل غير مقبول بتاتاً من الشيعة. من ذلك ما عزاه الى الإمام علي والحسين الإمام الثالث الشهيد وما عدّه الشيّعة إهانة مقصودة وطعناً بآل البيت.

ذكر النُصولي في مقدمة كتابه، وكأنه يدري وهو القوميّ السنيّ – العاصفة التي سيطلقها به، بل وكأنه لايكتب فصولاً مدرسية بل كتاباً للعامة:

"ألفتُ كتابي وكلّ آمالي إن أمهّد السبيل لانتشار الروح العلمية في المدارس العراقية. وكنت في تأليفي هذا الكتاب، أجمع الحقائق التي يقبلها العقل والمنطق والقياس على قدر الإمكان، وأغفل ما يُخجل من المبالغات والروايات التي لا تعتمد على أساس ثابت من صحة الإسناد. وما كتبت كتابي هذا لأبث روح التفرقة بين السنّة (يقصد السنيّة) والشيعة أو لأهدم بنيان القومية العراقية، وأزعزع أركان الوحدة العربيّة وأشتت شمل الجامعة الإسلامية"

وجاء في مقدمة (الأهداء) هذه العبارة:

"من أحقّ بتأريخ أميّة من أبناء أميّة؟ من أحقّ بتاريخ معاوية والوليد من أبناء معاوية والوليد؟ فاقبلوا يا أبناء سورية الباسلة المتحدة المستقلة هذه الثمرة الصغيرة.

التوقيع: أنيس"

وقع الكتاب بيد العلماء الشيعة فغضبوا وقدّموا احتجاجاً شديداً لوزارة المعارف. فطلبت الوزارة من المؤلف حذف الفقرات التي أشار إليها الاجتماع فأبى، وعندها أصدرت له الوزارة أمراً بجمع الكتاب ورفعه من يد التلاميذ. ثمّ تصاعدت الاجتماعات الى حَدّ المطالبة بمعاقبة النصولي وعَمّ الهياج النجف وكربلاء وكثر اللغط والحديث في المجالس عن الكتاب. وأُدين المؤلف في خطب الجمعة. وعندها ألغت الوزارة عقد النصولي وفصلته في كانون الثاني. فتقدم عدد من المدرسين السوريين في عين المدرسة وفي دار المعلمين الإبتدائية باحتجاج خطيّ الى الوزارة حول ما نعتوه بـ"نكبة حرية الفكر" التي نجمت عن "تعصب الوزارة الأعمى". فردت الوزارة بإصدار قرار العزل من الوظيفة بحق الموقعين جميعاً[٢٤]. وعلى أثر ذلك خرج تلاميذ الثانوية ودار المعلمين بعدد تجاوز الثمانمائة – في تظاهرة تقصد وزارة المعارف، شارك فيها الشيعة والسنيّة من التلاميذ وهم ينادون باحترام حريّة الفكر ووجوب إعادة المدرسين المعزولين.

لم يشارك الجمهور في هذه المظاهرة الطلابية الصرفة، إلاّ أن المتظاهرين خاطبوا الجمهور

(٢٤) فصل من المعلمين السوريين عبدالله المشنوق ودرويش المقدادي وجلال زريق وهم من القوميين المعروفين الذين وضعوا بصماتهم على الحركة القومية في العراق. ومن المدرسين العراقيين يوسف زينل ويوسف عزالدين إبراهيم. ومن التلاميذ المطرودين حسين جميل وعبدالقادر إسماعيل. وقد الغي قرار الفصل والطرد بعد قليل. ومما يذكر أن وزير المعارف آنذاك كان السيد عبدالمهدي المنتفكي وهو شيعي.

ببيان وزعوه، موضحين فيه إن تظاهرهم لايقصد منه جرح المشاعر الدينية لمختلف الطوائف، بل للدفاع عن حرية الفكر. وقد استقبلتهم الشرطة الخيالة بالهراوات ووجهت سيارات الأطفاء خراطيم مياهها إليهم فقوبلت منهم بقذف الآجر والطابوق. لكن لم يصمدوا طويلاً وتفرقوا وألقي القبض على عدد منهم وأودعوا السجن. وأغلقت الثانوية لمدة عشرة أيام وطُرد عدد من التلاميذ طرداً نهائياً. إلاّ أن برقيات الإحتجاج ظلتّ تتوارد على الحكومة والوزارة من سائر مدن الفرات الأوسط والكاظمية وسامراء بترتيب منظّم.

وأشارت التقارير السرية أن نادي التضامن كان وراء التظاهرة والبيان وأن عدداً من أعضائه كان يرافق التظاهرة ويتصدرها.

ولقي النادي حتفه بعد شهر وبضعة أيام بمناسبة ثانية وبسببها، فقد كان وراء تلك التظاهرة العامّة التي استقبلت نبأ زيارة السرّ الفريد موند Alfred Mond وانتصاراً للقضية الفلسطينية.

كان (موند) واحداً من الساسة البريطانيين المتحمسين للصهيونية والمدافعين عن حق اليهود في إقامة كيان سياسي لهم في فلسطين. كان قد زار فلسطين واختطّ أن يزور العراق وقصده استطلاع رأي السياسيين العراقيين في منهاج أعدّه شخصياً لتنظيم الهجرة اليهودية ووضع أسس لعلاقة مستقبلية بين سكان فلسطين العرب والمستعمرين، وعن مدى إستعداد الحكومة العراقية للتجاوب ومدى احترام (فيصل) وحكومته ذلك الإتفاق الذي تمّ بينه وبين (وايزمان) في باريس – وقد أتينا الى ذكره – والموقف الذي سيتخذه العراق من عمليّة الإستيطان اليهودي في الجزء الذي أفرز عن فلسطين الكبرى. أخفت الحكومة غرض الزيارة الحقيقي ونشرت لها سبباً رسمياً، مؤداه أن القصد من زيارة الزائر هو "دراسة الأوضاع الزراعية في العراق" وهذا ما نشرته الصحف عنها.

وبين السبب الأصلي والغطاء المقنّع تمكن (يوسف زينل) رئيس نادي التضامن ونائبه (حسين الرحال) من تمرير علّة خيالية للزيارة أقنعا بها الأعضاء المجتمعين، وهي أن القادم إنما جاء "لتأسيس مستعمرة صهيونية في العراق"، ولذلك تمّ الإجماع على القيام بتنظيم مظاهرة احتجاج.

لم يكن لـ(الفرد موند) صفّة رسمية. فلا هو عضو في الحكومة البريطانية ولا هو مندوب عنها ولا مدعوّ بصفةٍ رسمية وقدومه الى العراق إنما كان ضمن برنامجٍ اقتضاه القيام بجولة في البلاد الناطقة بالعربية لاستطلاع ردود الفعل حول ما يجري من نشاط صهيوني في

فلسطين. وهو كما ذكرنا أحد المتحمسين المؤيدين للصهيونية بلا جدال.

منذ أن بدأت سلطات الإنتداب إجراءاتها تنفيذاً لوعد بلفور وقضية فلسطين لاتني تحتلّ مقاماً مركزياً عند القوميين في البلاد الناطقة بالعربيّة. رغم الفردية التي عالجوا بها تعقيداتها، ورغم فشل مختلف المجموعات والحركات القوميّة داخل فلسطين وخارجها في محاولة جمع شملها في قطارٍ واحدٍ[٢٥] رغم الفشل المتوالي الذي نكبَ به نشاط الحركات والأحزاب الفلسطينية داخل فلسطين نفسها، فقد قابل ذلك نجاحاً مذهلاً حققته القضية في البلاد الناطقة بالعربيّة، في تكوين رأي عامٍ وتعبئة جماهيرية. فنادي التضامن الذي أخرج هذه التظاهرة الخطيرة وكان يرفع لافتات اقتصرت على شعارات فلسطينية فحسب "تحيا الأمة العربيّة. فلسطين عربية. يحيا الإتحاد. بيت المقدس عربيّة. فلتسقط الصهيونية. فليسقط وعد بلفور".

هذه التظاهرة التي قدروا عدد المشاركين فيها بعشرين ألفاً[٢٦]. كانت مظاهرة قومية

(٢٥) في ٣١ أيار ١٩٢٠ شكلت الجمعية العربية الفلسطينية، وعرف من أقطابها آنذاك محمد أمين الحسيني وعارف العارف ورفيق التميمي ومحمد عزت دروزة، وأصدرت احتجاجاً على قرارات مؤتمر (سان ريمو)، واستنكرت تعيين هربرت صموئيل (اليهودي) مندوباً سامياً. وراحت تنشر بيانات في البلاد العربيّة ملفتة الى خطر التغلغل الصهيوني. وفي العام ١٩٢١ إنبثق عن (المؤتمر العربي الفلسطيني) ما عرف بـ(اللجنة التنفيذية العربيّة) للإشراف على تنظيم ونشاط الحركة الفلسطينية الوطنية. وفي العام نفسه نصبت سلطة الإنتداب الحاج أمين الحسيني الضابط العثماني السابق مفتياً أكبر لفلسطين، وأناطت به رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى الذي أجازت تأسيسه. ونشأت الى جانب هذا، أحزاب صغيرة ضعيفة كالحزب الوطني الذي بدأ نشاطه في ١٩٢٣ وحزب المزارعين في ١٩٢٣ أيضاً، وحزب الأهالي في ١٩٢٥ والحزب الحرّ الفلسطيني في ١٩٢٧. وفي ١٩٣٦ نبطت من (اللجنة التنفيذية) ما دعي باللجنة العربيّة العليا، وهي نتيجة إتحاد خمسة أحزاب كانت متواجدة آنذاك: الحزب العربي الفلسطيني، حزب الدفاع الوطني، حزب الإصلاح، الكتلة الوطنية، اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب الوطني. ولا نجد في تأريخ هذه التجمعات والأحزاب والحركات القوميّة ما يشير الى أنها حققت أي تقدم في الأهداف التي نذرت نفسها لها. فقد مزّقها التشرذم والخلافات الفردية والمسابقة على الزعامة، وتراشقت قياداتها التهم بلا رحمة ولا هوادة. وترامى زعماؤها بكل نقيصة تجد لها وصفاً في معجم اللغة. والمتابعون لاشك يذكرون ذلك النزاع المخجل الذي إحتد في العقد الثالث والرابع من القرن بين (المفتي الحسيني) وبين (راغب النشاشيبي) زعيم كتلة في اللجنة، الى حَدّ نبش مساويء الماضي وسقطاته. وقد سُئل أحد الساسة الفلسطينيين في حينه عن رأيه في ما يشنع أحدهما به على الآخر فأجاب: "كلاهما صادق!".

(٢٦) هذا ما جاء في (الحسني: تأريخ الوزارات العراقية،ج٢، ص١٥٠). و(بطاطو The old Social ص٤٠٠) مثلاً دون ذكر المصدر الذي نقلا منه. وفي التقرير السنوي الذي ترفعه الحكومة البريطانية (Report of his M.G.) عن سير الإدارة في العراق الى عصبة الأمم (ص٢١ لسنة ١٩٢٨) جاء ما يلي: "إن المظاهرة كانت مدبرة، وعلى إثر اجتماع عُقد في نادي التضامن الأدبي خلال شهر كانون الثاني من العام ١٩٢٨". ولـم يرد في التقرير ذكر لعدد المشاركين في التظاهـرة. أسرعت دائرة التحقيقات في اليوم التالـي =

خالصة. ليس فيها مطالب أو شعارات عراقية وطنيّة. لكنها كانت من وجهٍ آخر لاسيما لحسين الرحال وجماعته اليساريين المستجدين الذين ساهموا في إخراجها ومسيرتها، تجربة أولى لنضال الشارع. وهو عماد التاكتيك الذي صار أسلوب نشاط أحزاب اليسار المتبع عالمياً.

لم تجد الشرطة التى تصدّت للمسيرة كما يبدو حاجة الى استخدام سلاحها، ولم يذكر أحد أن سمع أثناء تفريق المظاهرة دوي عيار ناريّ في الجوّ. فقد اقتصر الأمر كالسابق على استخدام خراطيم الماء والهراوات والعصيّ. وتمّ تفريق المتظاهرين بسرعة بعد إصابة الصامدين منهم وجلهم طلاب برضوض وكدمات وجراح. واحتجز عدد من المتظاهرين.

أصيبت السلطة بذعر شديد، فهذه مظاهرة حقيقية شارك فيها الألوف ولم تخرج من

= بمداهمة مقر نادي التضامن في الحيدرخانة والقت القبض على من وجدت من أعضائه وأصدرت وزارة الداخلية قراراً بإلغاء إجازة النادي، وبدأ ذعر الحكومة واضحاً من واقع ارتكابها خطأ فقهياً لاتقره المباديء القانونية المتبعة بإصدارها المرسومين ١٣ و١٤ ذوي الأثر الرجعي مشيرة بالنصّ في مقدمة أولهما الى "وجود خطر عام من اجتماعات الطلاب". وبه فرضت عقوبة الجلد على من لم يبلغ الثامنة عشرة من الطلاب الذين يشاركون في التظاهر. وخولت المادة الأولى من ثانيهما وزير الداخلية صلاحية وضع المحرضين تحت مراقبة الشرطة لمدة لاتزيد عن السنتين. وإن يحال المقبوض عليهم الى المحاكم وفق الباب الثالث عشر من قانون العقوبات. ونصّت المادة الثالثة على أن تطبق أحكام المرسومين بحق الذين لهم علاقة بحادثة ٨ شباط ١٩٢٨ حصراً. وقد تمّ إلغاء هذين المرسومين بعد الضجة الصحفية والإنتقاد الشديد الذي وجهه الساسة المعارضون في أيار من السنة عينها. وأطلق سراح من حكمت عليهم محكمة الجزاء ولم تطبق عقوبة الجلد على أحد. كما أُلغي قرار وضع (يوسف زينل) تحت مراقبة الشرطة وأعيد الى وظيفته في بغداد (كان مدرساً في الثانوية المركزية). وأُلغي قرار الطرد المؤبد الذي صدر بحق الطلاب والتلاميذ. كما ألغي بعد أيام فقط الأمر الذي أصدره وزير الداخلية "بمنع التجمهر في الطرق والشوارع والميادين العامة أو تسيير المواكب فيها أو الاجتماعات العامة دون إجازة رسمية". ويذكر الحسني (المرجع السالف، ج٢، ص١٥٠) إن قرارات الطرد المؤبد شملت أحد عشر طالباً من دار المعلمين وخمسة تلاميذ من الثانوية وطالبين من مدرسة الحقوق (ذكر بالأسم: حسين جميل وعبدالقادر إسماعيل البستاني. أولهما وزير في العهدين الملكي والجمهوري واحد أقطاب الحزب الوطني الديمقراطي، وثانيهما من أوائل الشيوعيين وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بعد ١٩٥٨).

إلاّ أن مصدراً آخر يحصر الأسماء بستةٍ وعشرين غير اللذين ذكرناهما (حكايات سياسية: خيري العمري) وهو العدد الصحيح. عرفت من بينٍ هؤلاء المطرودين الأستاذ عزيز شريف ربطتني وإياه صداقة حميمة منذ قيامنا بتأسيس حزب الشعب في العام ١٩٤٦ حتى وفاته. وقد إستوزر في ١٩٧٠ إثر بيان آذار وأصبح رئيساً لحركة السلم والتضامن العراقية. كما عرفت أيضاً مزاحم ماهر الكنعاني أيام كان مديراً لشرطة الموصل. وكلاهما كان من طلاب دار المعلمين الإبتدائية، فتحولا بعد قرار الطرد الى مدرسة الحقوق وكليّة الشرطة على التوالي. كذلك عرفت الفنان الشهير (عزيز علي) في أواخر سنيّ حياته. وقد ذكر لي رابعٌ (وديع فتح الله) وهو المسيحي الوحيد بين كلّ من شارك في التظاهرة وناله عقاب بسببها، إنه ما انضم إلى المتظاهرين لسببٍ غير مجرد التضامن مع أصحابه وقد أدركته وهو معلم في إحدى المدارس الإبتدائية في الموصل.

مسجدٍ، ولم يحرض عليها معارضون منافسون في الحكم. دُرست ونظمت بعناية قبل أيام وأعدت شعاراتها ولافتاتها مسبقاً، يدل على ذلك رد الفعل العنيف مما اتخذته على إثرها من إجراءات تفتقر الى الموازنة والمنطق تجرّأ عليها أكثر الأقلام أناةً وأبعدها عن المبالغة والخروج عن حدود اللياقة. كذاك الذي كتبه (سليم حسّون) في جريدته المحايدة بالمناسبة:

"إن حالة البلاد أصبحت محزنة جداً، لأنّ أكثر رجال العراق في الحكم هم من الفصيلة الباقية من العهد التركي الحميدي، فلايجوز أن نلومهم كثيراً ونسند إليهم عدم الإخلاص. فقد تبدلت الأحوال السياسية في العالم ووجد رجالنا أنفسهم في أوضاع جديدة ومشاكل عويصة يصعب عليهم حلّها أو فهمها"[٢٧]

الأهميّة التي أولياناها لتظاهرة ٨ شباط تتأتى من أثرين عظيمين خلفتها على صعيدي السياسة المحليّة والإتجاهات الفكرية في البلاد، لاسيما الإتجاه القومي. فقد شهد المجتمع العراقي الجديد أوّل خرقٍ رسمي فاضحٍ للقانون الأساسي العراقي باللجوء الى إصدار المراسيم. وكان الأسلوب الذي انتهجته الحكومات العراقية بلا استثناء لمعالجة حالة الشعور بالعجز عن إيجاد حلول سياسيّة بعيدة عن العنف تتسم بالعقلانية والمنطق وأشكال داخلية وانفجارات عامة أو عندما يداهمها خطر على كيانها من معارضة حلفت على إزاحتها والحلول محلها. أقصر الطرق هو القوة التي يمثلها الجيش والشرطة. والقوّة تؤدي الى مصادرة الحريات والحقوق الدستورية والعبث بالمباديء الديمقراطية التي قام عليها الدستور. هذه الحقوق والمباديء التي تضمنها الدستور – كانت تُخنق بحبل الدستور! ماعتّم أن بدا الدستور ألعوبة بيد الحكام. وصار مادة عامة للتندر والسخرية[٢٨]. وأمام القضية الفلسطينية التي دخلت برنامج العروبة

(٢٧) العالم العربي ١٢ أيلول ١٩٢٨.

(٢٨) تنص الفقرة (٣) من المادة (٢٦) في القانون الأساسي العراقي: "إذا ظهرت ضرورة أثناء عطلة المجلس (مجلس الأمة) لاتخاذ تدابير مستعجلة لحفظ النظام والأمن العام أو لدفع خطرٍ عام أو... فللملك الحق بإصدار مراسيم بموافقة هيئة الوزراء، يكون لها قوة قانونية تقضي باتخاذ التدابير اللازمة بمقتضى الأحوال، على أن لاتكون مخالفة لأحكام القانون الأساسي ويجب عرضها جميعاً على مجلس الأمة في أول اجتماع... فإن لم يصدق مجلس الأمة هذه المراسيم، فعلى الحكومة أن تعلن انتهاء حكمها وتعتبر ملغاة من تأريخ الإعلان... وتشمل لفظة (القانون) المراسيم الصادرة بمقتضى أحكام هذه المادة ما لم يكن في متنه قرينة تخالف ذلك" آه. وعلى ضوء هذه المادة شرعت مراسيم (قوانين) سيئة الصيت كان لها دور فعّال في محاربة الحريات وخنقها كما كانت وسيلة التجمع الباطشة التي قضت على الأقل في أن تعد ممارسة الدستور تربة خصبة لنمو تيار ديمقراطي ليبرالي الإتجاه أو حركة إشتراكية على غرار إشتراكية الديمقراطيات التي نشأت عقب الحرب في ألمانيا وفرنسا ودول أوروبا الوسطى. فنشأت ضعيفة ضيقة الحدود ولم تفلح في وضع الأساس لها. وخير مثال لذلك جماعة الأهالي والحزب الذي خرج منها الحزب الوطني الديمقراطي.

القومي لتحتل فيه مركز الصدارة بوقتٍ وجيز، بدت طبقة القوميين المخضرمين شبه معزولة عن الحركة القوميّة الحديثة، التي يقودها المتعلمون وبعض الطلبة رغم إدعاء المخضرمين في كلّ فرصةٍ بأنهم يساندون القضية الفلسطينية ويعملون لها.

عوملت القضية الفلسطينية من المبدء في العراق باعتبارها جزءً من القضايا المصيريّة التي لايمكن إغفال أمرها أو هي بالأحرى قضية العرب الكبرى، التي تتقدم كلّ القضايا الوطنية المحليّة وتتضاءل أمامها المشاكل التي تأخذ بخناق الدولة الجديدة، وفي مقدمتها مشكلة الأقليات والقضية الكُردية. في حين أنها كانت عند الفلسطينين أنفسهم ومن المبدء حتى المنتهى قضية وطنية داخلية صرفة تتلخص مطالبها وتنحصر في إنهاء الإنتداب على فلسطين واستقلالها ووقف الهجمة الصهيونية ووضع حَدّ للهجرة اليهودية وإنشائها المستعمرات هناك. حتى مسألة وحدة سورية الطبيعية، فإنها لم تحتلّ في نضال الفلسطينين موقعاً ذا شأن وبقيت قضية ثانوية لايشار إليها إلاّ عرضاً.

إحتكر القوميون الجدد "الوطنية" الى حين تحت شعار التخلص من النفوذ البريطاني والإستقلال أو خيل لهم ذلك، في حين كانت الفئات والأحزاب على ضعفها وتشرذمها ثم الأحزاب الوطنية الحقيقية – تعمل لهذا الهدف وترفع هذا الشعار – احتكروا وادعّوا بأنهم أصدق من يعمل لها لأنهم ما كانوا يريدون أن يتم ذلك بحركة فوقية وبجهود أناس وزعماء ذوي ماض مشوب ومثقل بالتعاون مع البريطانيين كما ادعوا وزعموا. وسنرى فيما بعد أن محاولة الإحتكار هذه ألجأتهم فيما بعد إلى زجّ الجيش العراقي في محاولات إنقلابية وإجراميّة.

ودأب القوميون وصحافتهم على مهاجمة السياسة البريطانية إزاء العرب والبلاد الناطقة بالعربية ووصفوها بالخداع والمصلحة الذاتية، دون أن يفكروا أو يتدبروا أو ربما دون أن يدروا بأن هاتين الصفتين تتناقضان بالأساس. فالمصلحة الذاتية من شأنها تبديل الخطّ السياسي بين آن وآخر، والمصلحة الذاتية في أحيان كثيرة تفرض التعامل بصدق وخلوص نية بعيداً عن الخداع. وكلاهما ينافي المخادعة.

أشعل البريطانيون نار الثورة العربية التي لقبت بـ(الكبرى) في الحجاز لأن مصلحتهم الذاتية اقتضت ذلك وهي متفقة كذلك مع المصلحة العربيّة. وساعدوا على نصب (فيصل) وحكومته العربيّة في سورية، لأن مصلحتهم الذاتية كانت تقضي إقصاء حليفتهم فرنسا عن الشرق الأدنى. فهل كانوا يخدعون العرب والسوريين وفيصل بما فعلوا؟

واستخدموا كلّ ما وسعهم من فنون الدبلوماسية والضغوط السياسية على عصبة الأمم، وبذلوا كلّ جهدٍ ممكن لتبقى ولاية الموصل جزءً من الدولة العراقية لمصلحتهم الذاتية طبعاً. أفكانوا بذلك يخدعون بغداد والحكم الوطني؟

ثم ألم يقضوا هم أنفسهم على أمل الكُرد في كيان سياسيّ؟ ألم يضحوا بحقوق القوميّة التركمانية والقومية الآشورية؟

ألم يتخلوا عن حماية الأقليات وقد تعهدوا بها أمام المحافل الدولية صراحةً وضمناً، وضحوا بها وهم في سبيل تشجيع وبعث حركة الوعي القومي العربي، لمصلحتهم الذاتية ونزولاً عند حكم المتغيرات السياسية التي حملتهم على تبديل خطّهم السياسي. أفكانوا في كلّ ذلك يخدعون حكومات بغداد ويفسدون على القوميين العرب؟

في الثلاثينات والأربعينات كان الميدان السياسي في العراق يخلو من قريع للعروبة يعتّد به، وبدأت عبارة الوحدة العربيّة تزحف الى الصحافة العراقية وتتردد على الأفواه ويلهج بها فريق من طلاب المدارس المتحمسين، وبخاصة بعد فشل مشروع (الهلال الخصيب) الذي تبناه فيصل وبقايا القوميين في كلّ من سورية ولبنان. وكيف حصل ذلك؟

★★★

كان فيصل في أوائل العام ١٩٣١ قد وطّن النفس على تحقيق حلم مشروع وحدة القطر السوري بالقطر العراقي بضم لبنان المسيحي وفلسطين، ومقتنعاً كما يقول (جوزف هولم) بالفوائد التي تنجم على تعبئة الأغلبيّة السنيّة على الأقل لإنهاء الطبيعة القلقة التي كانت تطبع حكومات الأقلية المتعاقبة في بغداد. كما كان يدرك أن الأغلبية العربيّة الأوسع رقعة ستؤدي الى تحجيم القضية الكُردية الى الحدّ الذي تسهل معالجته. هذا فضلاً عن الفوائد التي تجنى من الخبرة الإقتصادية والتجارية السورية ودرجة الثقافة العالية عند أبنائها ومواردها الطبيعية، التي لم تستغل ومقدار الخير الذي سيجنى من الأنابيب عبر أراضيها بعد انبثاق النفط في العراق.

في الواقع كانت هذه محاولة ثانية من الملك فيصل. ففي أوائل العام ١٩٢٦ حاول جسّ نبض (الوايت هول) في المشروع منتهزاً فرصة ثورة الدروز وما حصل في عموم سورية. فكتب لوزير المستعمرات (اللورد إيمري) فكان الجواب بالرفض القاطع[٢٩].

(٢٩) في ٢٧ من كانون الثاني ١٩٢٦ وجه الملك فيصل رسالة الى وزير المستعمرات لورد إيمري جاء فيها هذا: "هناك اعتبار آخر وهو اعتبار قومي، حيث يغدو من الطبيعي وجود أواصر حميمة تربطني بمصير =

كان الأمر في ١٩٣١ مختلفاً. وإلى فترة قصيرة بدت بريطانيا وكأنها لاتمانع في مجهودات (فيصل) بضم سورية الى العراق في وحدةٍ، ربما لأن ذلك قد يؤدي بالنتيجة الى زيادة لنفوذها في البلاد الناطقة بالعربيّة على حساب الفرنسيين.

بطبيعة الحال إصطدم المشروع بفرنسا الحريصة على يدها في لبنان وسورية. مثلما اصطدم بمعارضة الحكام العرب أنفسهم. وبينهم شقيق فيصل أمير الأردن (عبدالله) وشقيقه الآخر (علي) ملك الحجاز السابق الذي ظلّ يطمع بحكم سورية. كذلك عارضه ملك مصر (فؤاد) وسلفه الخديوي السابق (عباس حلمي).

وسكت (عبدالعزيز آل سعود) برهة مجاملةً واحتراماً لإتفاق الحدود الذي جرى بين بلاده والعراق فأدّى الى تطبيع العلاقات. وكذلك عندما خيل إليه أو أُوحي له بأن (فيصلاً) لن يكون المرشح لرئاسة الإتحاد، وقد يكون لإبنه (فيصل) أملٌ في رئاسته، ثمّ مالبث أن عارضه بعد أن تغلب عليه خوف من ازدياد النفوذ الهاشمي بل شرع بمحاربته. وسكتت بريطانيا حيناً ثم جاء الرد حاسماً.

إلاّ أن (فيصلاً) لم يبرء من حلمه. كان ينوي أن يعقد مؤتمراً عربياً لهذا الغرض. وفي شهر آب ١٩٣١ غادر العراق الى سويسرا في رحلة قالت عنها صحف بغداد بأنها من أجل العمل على دخول العراق في عصبة الأمم. إلاّ أنه عرج على باريس ليجتمع برفاق السلاح القدماء أمثال الأمير شكيب أرسلان الدروزي اللبناني. والشخصية السورية الهامّة (إحسان الجابري) ورجل الدولة والفكر السوري (فارس الخوري) وغيرهم. ويذكر (ساطع الحصري) إنه "كان هناك يخاطب رسمياً ملك العراق وسورية وملك كل العرب". ولاندري ماذا يقصد بكلمة

= تلك البلاد (سورية)، التي كانت فيما مضى موطن حضارة عظيمة لقومي أضف إلى ذلك أن الوضع الجغرافي لسورية يجعل من الضروري أن نتضامن من أجل النهوض بأمتنا بنجاح معتمدين على مساعدة بريطانيا وحدها...
... انقضت خمس سنوات على الوهم الذي عاشه الفرنسيون وقد أدركوا الآن أن في سورية شعباً مدركاً لأمانيه، وفيما مضى كنت أتكلم وأعمل من أجل السوريين، أما الآن فهم يعرضون المطالب نفسها لكن من خلال زعماء آخرين...". وجاء الرد البريطاني في حينه (٤ آذار ١٩٢٦) قاطعاً: "... إن أية محاولة من حكومة صاحبة الجلالة أو من جلالتكم للتدخل في الشؤون السوريّة ستؤدي حتماً الى نتائج سيئة. وبقدر تعلق الأمر بنا فليس لنا بديل أو خيار سوى أن نترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي... لذا فيما يخصّ سورية فالوضع فيها يحتاج إلى الإبتعاد الكلي عن شؤونها... إننا نستطيع أن نقدم أفضل خدمة للعراق بامتناعنا عن التدخلات كافةً في أمور سورية وإن أية محاولة منكم للتدخل سوف لاتخدمون بها أصدقاءكم السوريين، بل على العكس ستكون النتائج مخيبة" (فؤاد قزانجي: العراق في الوثائق البريطانية، ط، بغداد ١٩٨٩، الص ١٤١-١٤٩)".

رسمياً، وربما عنى بها أولئك الذين كان الملك يجتمع بهم. وقال إنه عاد وهو مرتاح جداً من نتائج رحلته[٣٠] وفي سورية نظم صديقه (رستم حيدر) السوري الأصل والوزير العراقي فيما بعد، حملة دعائية واسعة بين مسلمي سورية، وظهر أثر ذلك جلياً عند قيام الإنتخابات العامة التي جرت بأمر المندوب السامي في شهر كانون الأول من السنة عينها. فقد ظهرت صور (فيصل) مرفوعةً في دمشق من خلال استعراض قوة في المهرجانات التي أقامها أنصاره. لكن القوميين العروبيين السوريين الذين تمثلهم الكتلة الوطنية بينهم محمد كرد علي والأتاسي والعظم أَبَوْا أن يتنازلوا عن مثُلهم في مباديء الحكم الجمهوري، للملكانية فرفضت المشروع من الأساس.

والفلسطينيون كانوا منشغلين بمشاكلهم الجديدة في الإستيطان اليهودي، فلم يهتموا بمشروع وحدة. وفي لبنان ساند رجال الحكم السنيّون وعلى رأسهم رياض الصلح المشروع. إلاّ أن الشيّعة والمسيحيين والدروز لم يتحمسوا له، بل وقفوا موقف معارضة منه، إذ كانوا على ثقة بأن الأغلبيّة السنيّة فيه ستبتلعهم.

وفي العراق نفسه – رغم تحمس العناصر الشريفية العربية الحاكمة – فقد وقف الأهلون بصورة عامة ضدّ المشروع لأسباب اقتصادية، وانقسم القوميون العروبيون على أنفسهم فكانوا بين محبذ ومعارض. ثم انساق الجميع الى المعارضة[٣١].

ففي حميّ هذا الجدال والتحرك السياسيّ الخفي بدأت الناشئة العربيّة القوميّة العراقية تتخذ من تحمس عصبة فيصل الحاكمة للفكرة ومشايعة المشتغلين القدماء بالقضية العربيّة حطباً لإشعال النار تحت هؤلاء الأخيرين. دون تفكير بالإفادة على الأقل من الناحية النظرية (ربما الخيالية) من المشروع باعتباره وفق مفاهيمهم الجديدة في العمل للوحدة العربيّة الكبرى –

(٣٠) الملك فيصل الأوّل: ص٣٣٣.

(٣١) كان الحديث يدور في المجالس والمقاهي والمنتديات وأبهاء المعاهد العلمية بأن العراق سيكون الطرف الخاسر في الصفقة في حين سيتمتع الشاميّون بالفوائد السياسية والإقتصادية، في حين أن العراق أغنى من سورية، وأن السوريين سيزحفون الى بغداد سعياً لماً ويحرزون أفضل المراكز ثم يعودون بعد وقت مليّ وقد امتلأت جيوبهم ليعيشوا في بلاد أجمل وأغنى بمعالم الحضارة. في حين هاجمت الناشئة القومية المشروع باعتباره "مشروعاً استعمارياً" غايته بسط بريطانيا نفوذها على البلاد العربيّة المجاورة عن طريق تحكمها في العراق والأردن بمصلحة شركات النفط المستغلة لنفط العراق. بفتح طريق أقصر لتسويق النفط عبر البحر الأبيض المتوسط. كما هاجموا المناصرين للمشروع ونعتوهم بأولئك الأنانيين الذين لاتهمهم إلاّ مصلحتهم الذاتية وتعزيز مراكزهم محلياً والإحتفاظ بمناصبهم ومناصب رؤسائهم عن طريق تثبيت الحدود بهذا الشكل. ولم يعيروا اهتماماً بحجة المناصرين القائلة أن المشروع هو خطوة هامة في سبيل الوحدة العربيّة.

خطوةً أولى نحوها.

إن هذا يدلّ على مدى تخبط القوميين الجدد هؤلاء وضياعهم بين فوضى الأهداف وتيه الشعارات. فقد رأيناهم بعد أقلّ من سنةٍ واحدة يستجيبون لنداء القوميين المخضرمين عندما أطلق هؤلاء صيحة الحرب:

"الوطن في خطر... الآشوريون الدخلاء يهددون كيانه!"

ويعقدون معهم حلفاً جديداً. لاشك في أن هذا الحلم سيبقى بعيداً عن التحقيق دون مساندة فعالة من بريطانيا يتوّجها إتفاق مع فرنسا.

والواقع هو أن بريطانيا كانت بالأصل تحرص على الوضع الحالي في الشرق العربي وعدم إغضاب فرنسا. مالبثت أن سحبت تأييدها الضعيف عندما تأكدت من صلابة موقف الفرنسيين. في عين الوقت ظلّ (السر فرانسيس همفريز) السفير البريطاني في بغداد يعكس وجهة نظر العراقيين العامّة مذكراً حكومته برفض أي إقتراحٍ لوحدةٍ كهذه[٣٢].

★★★

في الثلاثينات استقبل دعاة العروبة والقوميون العرب مصدر وحي جديد من أحد أنبياء القوميّة، الذين أخرجتهم الفوضى السياسية والأزمنة الإقتصادية الأوروبيتين، في شخص مغامر إيطالي يدعى (بنيتو موسوليني).

تمكن هذا الصحفي الإشتراكي سابقاً وزعيم الحزب الذي عرف فيما بعد بالحزب الفاشي[٣٣]

(٣٢) مهما يكن من أمر فقد تمّ القضاء على الفكرة في لندن. ففي العشرين من تشرين الأول (...؟) رفضت اللجنة الفرعية الشرق أوسطية المنبثقة عن لجنة الدفاع عن الإمبراطورية الموافقة ولخصت قرار الرفض بالشكل الآتي:
١– النتيجة المرغوبة أكثر من أي شيء هو سنّ دستور لسورية بنظام جمهوري يقوم على رأسه سوريّ.
٢– ليس من المرغوب فيه إطلاقاً أن يوضع شخصٌ واحدٌ على رأس عرش سورية والعراق وهو على أية حال غير عملي.
٣– أي محاولة يقوم بها فيصل تؤدي الى نقل عرشه من بغداد الى دمشق هي ضدّ المصالح البريطانية.
٤– لو عرض تاج سورية على الملك السابق (علي بن الحسين) فلا سبب يدعو لمعارضة ترشيحه.
في ١٩٤٣ حاول نوري السعيد وأمير الأردن عبدالله إحياء المشروع عن طريق إقامة اتحاد فدرالي (سوري – عراقي – أردني) مفتوح للأقطار العربيّة الأخرى". أنظر في تفاصيل أخرى: أرنست مينه: «العراق» المرجع السالف، ط. لندن ١٩٣٣ ص٤٣٤. والوثائق البريطانية: نوري السعيد (الكتاب الأزرق) إستقلال العرب الوحدة.

(٣٣) الاسم الرسمي للحزب Italiana di Comber Thimsento ولفظة Fasci مأخوذة من الكلمة اللاتينية Fasces وهي عبارة عن حزمة من العصيّ مشدودة الى بعضها تتوسطها بلطة ظاهرة الشفرة. كان =

وأتباعه بالفاشيست، بديماگوگية عالية وبكفاءة خطابيّة فيه تساندهما عصابات احترفت اشتباكات الشوارع عرف أعضاؤها بذوي القمصان السود، وجلّهم من المتعطلين والفوضويين، والجنود القدماء وذوي السوابق، وبسلسلة من معارك الشوارع والبارات مع الشيوعيين والإشتراكيين والنقابيين – تمكنوا من السيطرة على شوارع أهم المدن الإيطالية. ومن (ميلان) حيث ولد حزب الفاشيست في العام ١٩١٩ استدعى الملك ڤكتور عمانوئيل الثالث موسوليني لتأليف حكومة جديدة برسالة خطية. إثر الزحف الفاشي الشهير من (ناپلي) على روما. وبعد معارك شنّها ذوو القمصان السّود في طول البلاد وعرضها على خصومهم بغية كسر الإضراب العام ومطاردة الشيوعيين.

ما مرّت سنتان حتى أعلن موسوليني[٣٤] نفسه "دكتاتوراً"[٣٥] وعرف بلقب الدوتشي – Il duce أي الزعيم والقائد لحزب قومي صرف، وبدت صورته بمختلف الأحجام والأوضاع في كلّ مكان تقريباً "حتى في دورات المياه أو حيث يقضي الناس حاجاتهم" كما علّق أحد الصحفيين تحتها أو فوقها عبارة: الدوتشي على صواب دائماً Il Duce semple ragione.

وكثيراً ما تُرى يحملها الغوغاء[٣٦] بخفارة ذوي القمصان السود يطوفون بها. باشر موسوليني فوراً في ملاحقة الإشتراكيين والشيوعيين والنقابات وأخضع الصحف لرقابة الحكومة وأغلق تلك التي تحدته أو أرسل إليها عصاباته من ذوي القمصان السود فاقتحموا

= عدد من الحرس الرومان Lictors المخصصين لمرافقة القنصل أو الإمبراطور أو القيصر الروماني يحملونها على أكتافهم رمزاً للسلطة التي يمثلها الحاكم. وقد إتخذها موسوليني رمزاً لحزبه.

(٣٤) ظلّ موسوليني Mossolini 1882-1945 يحكم إيطاليا حكماً مطلقاً حتى قبض عليه الأنصار والشيوعيون قبل نهاية الحرب العظمى وهو يحاول التسلل بثياب جندي ألماني مع عشيقته، فأعدموهما وعلقوا جثتيهما معكوستين.

(٣٥) Dictator كلمة لاتينية هي سلطة يمنحها مجلس الشيوخ الروماني للقنصل أو القائد العسكري وقت الأزمات. أو عندما يحيق بروما الخطر في الداخل أو جراء هجوم خارجي. يمنح هذا اللقب بمرسومٍ يخول فيه الدكتاتور سلطةً مطلقة لمدة ستة أشهر قابلة للتجديد. وتسحب منه بعد زوال المقتضى.

(٣٦) سترد هذه الصفة بعد الآن في مناسبات كثيرة ولا بُدّ لي أن أشرح معناها بالضبط وما أقصده منها عند ذكرها تمييزاً عن تعابير الجمهور والجماهير والعامة وما إليها، عن (إبن الأزرق) في كتابه (طبائع الملك، مصر ١٩٣١) يطلق الغوغاء على هؤلاء الذين لا عبرة بهم. قال الأصمعي: والغوغاء الجراد إذ أماج بعضهم في بعض وبه سمي الغوغاء من الناس. وقال آخر: هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يُعرفوا. ومن علامتهم ما تضمنته حكاية الخطابي عن أبي عاصم النبيل (١٢٢– ٢١٢هـ) يمنع حفاظ الحديث في عصره. وذلك أن رجلاً أتاه فقال: "إن امرأتي قالت لي يا غوغاء. فقلتُ لها: "إن كنتُ غوغاء فأنت طالق ثلاثاً فما عساي أصنع؟. فقال له أبو عاصم: "هل أنت رجل إذا خرج الأمير يوم الجمعة، جلست على ظهر الطريق حتى تمرّ فتراه؟ فقال: لا! فقال أبو قاسم: لست غوغاءً، إنما الغوغاء من يفعل هذا".

مطابعها وإداراتها وحطموا كل ما فيها. وزُج الخصوم والصحفيون في السجون أو أرسلوا الى المنافي والمعتقلات. ووقعت حوداث إغتيالات حكوميّة لساسةٍ مبرزين معارضين.

فرضت مفاهيم الحزب الفاشي بالقوة: فالحزب والدولة فوق الفرد، والنظام الديمقراطي نظام فاسد. إيطاليا التي خرجت من الحرب منتصرة قولاً، كانت مهزومة عملاً، والهدف هو إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة والطاعة واجبة للدكتاتور. سلطته مطلقة بقوة ذراع الحزب العسكريّة (الميلشيات). والقضاء التام على الحزب الشيوعي الإيطالي وعلى اليسار الماركسي واجب قوميّ. وبهذا الهدف الأخير كان الدوتشي على موعد مع السياسة البريطانية – الفرنسية الأمريكية، التي كانت تعمل بجدّ على إقامة جدار واقٍ لأوروپا أمام الإتحاد السوڤياتي. كانوا أبداً على استعداد ليغفروا له كلّ شيء ويتغاضوا.

بدأ الدكتاتور الإيطالي بتنفيذ خطة إصلاح إنشائية حكومية واسعة النطاق، فأمم المصانع وبضمنها مصانع المهمات العسكرية. ووسّع حجم الجيش والأسطول، ليقوم بعد بضعة عشر عاماً باستعمار الحبشة.

كانت دول أوروپا الوسطى تعيش أزمة إقتصادية خانقة، وبأنظمتها الديمقراطية الضعيفة الى تنخر فيها التكتلات والخلافات، لم تعدم رجالاً مثل هذا الدكتاتور، وثبوا الى الحكم بانقلابات عسكرية أو شبه عسكرية وقد فتنتهم الإنجازات التي حققها النظام الجديد في إيطاليا مصحوبةً بدعاية مدروسة تضخم الحقيقة وتغرق في الخيال. فكان هناك حكم دلفوس شوشنك في النمسا، والأميرال هورتي في هنگاريا والجنرال پلوسودسكي في پولندا، والجنرال متكساس في اليونان، وسالازر في البرتغال وفرانكو في إسبانيا و... پيرون في الأرجنتين وأخيراً هتلر في ألمانيا.

كانت الديمقراطيات الغربية والولايات المتحدة في المبدء تنظر الى كلّ هذا بعين الإرتياح، فقد بدا الجدار المقام ضد الطغيان الشيوعي من الشرق شامخاً كسدّ الصين العظيم أو هكذا ظنّت.

وفي العراق عندما نشطت المفوضية الإيطالية بين الطلبة والمعلمين لم تجد طريقها عسيراً، لاسيما بين الصحف التي دأبت على نشر التقدم الهائل الذي تحرزه إيطاليا رغم أنباء تسرب إليها بين آونة وأخرى حول أعمال القمع والحملات العسكرية التي ترسلها روما لتعقيب الثوار الليبيين. مع هذا فقد خلّف التقدّم الذي أحرزته إيطاليا أثراً مدهشاً عند القوميين الجدد والمخضرمين، الذين رآه بعضهم شبيهاً بما حققه مصطفى كمال في تركيا.

كان مفهوم القوميّة بعد الحرب العالمية، يتلخص بفكرة بسيطة ساذجة: وهي إن مجموعة من البشر يمكن أن يؤلفوا شعباً أو أمّة وإن هذا الشعب أو (الأمة) يجب أن يكون مستقلاً. لكن هذه الفكرة تعجز بذاتها أن تؤمن سبيلاً واضحة لتنظيم الحياة الاجتماعية. والآن ها هو ذا حكم قوميّ في إيطاليا يفتح سبيلاً واضحة لتنظيم الحياة الاجتماعية، بل يحقق من خلاله نجاحاً عظيماً.

★★★

عند قيام النظام الفاشي كان المسؤول عن التعليم في العراق الأستاذ ساطع الحصري وقد بقي فيها أربع سنوات (١٩٢٣-١٩٢٧) يحمل أعباء منصب مدير المعارف العام. وقد أعقبه في منصبه الدكتور سامي شوكت، فكان بحق الخلف الروحي للحصري بل أكثر حميّة وحماسة وتطرفاً في الدعوة الى العروبة والقوميّة على أسس عسكرية طابعها القوة.

وهنا لا أرى لي مندوحةً من مشاركة القاريء في ذكرياتي لأوّل ولوجي عالم التأريخ وذكريات الحداثة والصبّا تظلّ عالقة في الذهن جديدة حية، لايطمس عليها بالمتراكم من الذكريات تقدُم العمر وطغيانُ الأحداث. ولي بمن بقي من أبناء جيلي شاهدٌ.

في السنة الأخيرة من الدراسة الإبتدائية تعرفتُ من كتاب التأريخ المقرر: على كيفية قيام الإتحاد الألماني تفصيلاً وقُدم لي (بسمارك وفون رون وفون مولتكه) أبطالاً وساسة عظماء، وقرأت من تفاصيل الحروب الثلاث التي أدّت إلى هذا الإتحاد ما لم أحتج الى مراجعته فيما بعد. وعرفت (الزولقراين) قبل أن أعلم عن قدوم المغولي (هولاكو) العراق وسقوط بغداد. كذلك حفظت تفاصيل عن كيفية الوحدة الإيطالية وتعرفت على جمعية (الكاربوناري: الفحّامين) و(مملكة بيدمونت) و(كافور) و(غاريبالدي) وطرق أذني لأول مرة اسم (ماتزيني) (والإستيلاء على روما) وعن حروب (الوردتين) في إنكلترا، وعن معاهدة (كاميوفورميو) قبل أن أعرف شيئاً عن كيفية تكوين العراق والنزاع حول ولاية الموصل. واستيلاء العثمانين على بلادي. بل وعلى كيفية دخولنا في عصبة الأمم.

وبعدها بثلاث سنين وُضع بيدنا الكتاب المنهجي المقرر (تأريخ الأمة العربية) لمؤلفه (محمد عزة دروزه) الفلسطيني، وأذكره مجلداً ضخماً يقع في حدود أربعمائة صحيفة من قطع فوق المتوسط. وافتتحه مؤلفه بفصل يتيه فيه خيال الصبّي بما حفل من تفاصيل عن أنساب عرب الجاهلية وقبائلهم وأيامهم الغرر وحروبهم. وحشر فيه مؤلفه كلّ ما يخطر بالبال من أساطير

وحكايات تفتقر الى الدليل التأريخي من دون تمحيص أو تدقيق، يمتزج فيها الواقع بالخيال، فيضيع الأول في ضباب المبالغة. جاهد مؤلفه جهاداً مستميتاً ليبدو العرب طوال تأريخهم الزاهر شعباً وحكاماً، رحماء عدولاً، منصفين. وصورهم في أسوء حالهم عندما دالت دولتهم وزال مجدهم واستعبدهم الفاتحون، ضحايا سوء حظّ ومعاكسة القدر ليس غير، دون أن يعزو جانباً مما حلّ بهم الى أنفسهم ومن عمل يدهم.

كان كتاب دعاية خلا من نقد أو فكرة شخصية قبل أن يكون كتاب دراسة. صدرت مقدمته بالآية القرآنية «كنتم خير أمة أُخرجت للناس...»[٣٧]. وكما خلت كتب التأريخ العتيقة من عنصر النقد والتوجيه والغربلة، فقد جرى كتاب (دروزه) وهو من القوميين البارزين، مجراها ووجدته بعد سنين عديدة من معاناةٍ في كتب التواريخ العتيقة، مقروناً في ذهني بمقولة المفكر العربي المعتزلي العظيم (إبراهيم بن سيار النظام)[٣٨]:

"إذا استوحش الإنسان مثُل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرّق ذهنه وانتفضت أخلاطه، فيرى ما لايُرى ويسمع ما لايُسمع، ويتوهم على الشيء الصغير إنه عظيم جليل. ثم إن العرب جعلوا ما تصّور لهم من ذلك أحاديث تناقلوها وأشعاراً تناشدوها وتوارثوها فزاد إيمانهم بها ونشأ عليها أبناؤهم، فصار أحدهم إذا توسط الفيافي واشتملت عليه الليالي المظلمة، فعند أول وحشة أو عزمة أو صياح بوقةٍ أو مجاوبة صدى، يرى كلّ باطلٍ، ويتوهم كلّ زور، وربما كان في أصل الطبيعة أو الجنس نفاخاً كذاباً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك عن حسّ هذه الصفة. فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان، وكلمتُ السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتُها، ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول راقصتها، ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول تزوجتها"

وبهذا يكون ابن سيار أعلى تفكيراً وعمقاً وصراحةً من الأستاذ دروزه رغم أحد عشر قرناً تفصل فيما بينهما.

نجح القوميون الى حَدّ كبير في انتزاع سياسة التعليم والتربية من يد المستشارين البريطانيين واستقلّوا بها تماماً في أواخر الثلاثينات. بعد معارك جادّة اختار الأخيرون معها

(٣٧) من سورة آل عمران (١١٠) يتفق المفسرون لآي القرآن على أن المقصود بالخطاب هو الأمة الإسلامية إطلاقاً. لا العرب قصراً.

(٣٨) توفي في ٨٤٥م. من المتكلمين (الفلاسفة) المعتزلة. ولد في البصرة واشتهر أمره في بغداد. خلّف أثراً عظيماً في تأريخ الفكر الإسلامي. وهو أستاذ الجاحظ الأديب الكبير وإليه تنسب النظمية من فرق المعتزلة.

الإبتعاد عن هذا الميدان وتركه للعراقيين. وكما يذكر الأستاذ محمد مهدي الجواهري:

"كان المفكر القومي ساطع الحصري في ١٩٢٧ أحد رموز القوميّة العربيّة مديراً للمعارف، حديث العهد باللسان العربي لايفهم اللغة ولايجيد التخاطب بها وكان يلازمه المترجم (أحمد أمين) وهو يدّعي بأن أصله من اليمن"(٣٩)

ويؤيد الجواهري الكبير في هذا كلّ من كان على صلة شخصية أو وظيفية بالأستاذ الحصري وأنا لا أرى أن يكون هذا الواقع مأخذاً ولا مصدر عجب، أو موضع شك في صدق الحصري ودعوته المخلصة لآرائه في القومية والعروبة وعمله الدؤوب لها بعد عودته من تركيا حتى وفاته. وقد وجدتُ ممن يجهل اللغة الأم، أو من يقلّ بها معرفةً وعليها وقوفاً من هو أكثر تحمساً لقوميته ممن يتقنها ويلم بأسرارها. فيتقدم على غيره في الدعوة مدفوعاً بتلك الظاهرة السايكولوجية التي يسميها علماء النفس بـ"عقدة النقص". ولكن في تعريف القومية يرى الحصري:

"لا الدين ولا الدولة ولا الحياة الإقتصادية، تدخل في مقومات الأمة الأساسية. وإذا أردنا أن يظهر عمل كل من اللغة والتأريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكون روح الأمة وحياتها والتاريخ يكون ذاكرة الأمة وشعورها"(٤٠)

وكذاك يكتب: "اللغة هي بمنزلة القلب والروح من الأمّة، لذلك فإن الشعوب التي تتكلم لغة واحدة تكون ذات قلب واحد وروح مشتركة وتكون لذلك أمة واحدة فيجب أن تكون دولة واحدة"(٤١)

كان الحصري يريد أن يبني آيديولوجية قوميّة محددة الضوابط والمعالم ملتحمة العرى من خلال النظام الدراسي. وكان هدفه زرع فكرة القوميّة العربيّة (الأممية العربيّة) بالأحرى، وتمثيل وإذابة مختلف الجنسيات والعناصر فيما دعاه بالوطن الكبير – الى كلّ متجانس بصرف النظر ومن غير إعتبار لمشاعر الأقليات القوميّة الأخرى، كالكُرد والتركمان والآشوريين – ولا

(٣٩) ذكرياتي: ج.١ ص١٤٧ ط. دمشق. دار الرافدين ١٩٨٨.

(٤٠) (ما هي القومية: أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، طبع بيروت، دار العلم للملايين ١٩٥٩ ص٢٥٢) يؤيد جهل الحصري باللغة وليم كليڤلاند صاحب الكتاب (ساطع الحصري). «من الفكرة العثمانية الى العروبة» ترجمة ڤكتور سحاب.

(٤١) المرجع السالف: ص٥٧. ظل الحصري يشدّ على هذه الفكرة. فقد كتب في العروبة أولاً: "اللغة سبكت عقول العرب في قالب واحد وركزت طبائعهم وجعلت منهم أخلاقياً وروحياً أمة واحدة". (دار العلم للملايين، ص١١٢ ط. ١٩٦١).

لمشاعر طائفية معينة كالشيّعة واليزيدية والمسيحيين:

"لنشر الإيمان في وحدة الأمّة العربيّة وبذر الشعور بأمجادها الغابرة لمحاربة أعداء العروبة، للتلقين والإيقاظ والإنضباط"

ومن كتاب ذكرياته عن العراق و(ذكرياتي العراقية) تجده يشدد على وجوب التعريف بماضي الأمّة والوطن العربيين. ووجوب دراسة الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ممثلاً العراق بكلّ من پروسيا (زعيمة الإتحاد الألماني) وبيدمونت (زعيمة الوحدة الإيطالية). مؤكداً على التدريب العسكري بوصفه وسيلة من وسائل غرس الشعور القومي الرئيسة. كما اعتبر الخدمة العسكرية بأهمية التعليم الإجباري.

الحصري وأولئك الذين زكّوه رغم ماضٍ عثماني لا تشوبه شائبة ثمّ سلموه أعلى منصب تربوي في الدولة الجديدة، كانوا يرون الجيش عاملاً اجتماعياً عظيم الأثر ضمن إطار العروبة، وليس أداةً للدفاع عن حدود الوطن إزاء خطر خارجي.

أيّ شيء أفضل لتكامل الوعي القومي من الجيش الألماني الذي تحققت به وحدة ألمانيا. أو كالجيش الإيطالي الجديد الذي يقوم الدوتشي ببنائه اليوم؟ مؤلف من جميع صنوف المجتمع وطبقاته. تُصاغ منه عجينة متكاملة متحدة، باستلال الفرد العراقي الغارق حتى الأذنين في لجة التحامل والنعرات الطائفية والتقاليد البالية والوسط المتشدد الضيق، لإعادة صياغته في جّو حياة الثكنات وساحات التدريب وميادين القتال. والمدارس العسكرية ونوادي الضباط والمخيمات. والدورات كلها ستكون أوعية وقدور تطبخ فيها العروبة، الريفيون والبدو، والحضر، والسنيّون، والشيّعة والمسيحيون من عرب وكرد وتركمان... وآشوريين. فالأقلية يجب أن تذوب وتمتص حين تخلط بالأكثرية. هذا هو الذي توصل إليه الحصري في أثناء دفاعه عن فكرة التجنيد الإجباري أو ما سمي بـ(خدمة العلم).

والدكتور سامي شوكت، الذي خلف الحصري في الإشراف على التربية والتعليم، وكان أكثر تطرفاً واندفاعاً في الدعوة الى العروبة، وجد مما وجد أن:

"التجربة (لايوضح أي تجربة معينة طبعاً) أثبتت أن الجيش والنظام العسكري هو خير مدرسة لتكوين الشخصية، فهي تخلق رجلاً من الفرد، من خلال شجاعته ووطنيته ومشاعره"(٤٢).

(٤٢) هذه أهدافنا، ط. بغداد ١٩٣٩ ص٧.

كان الحصري وشوكت أوّل من أخرج لفظة "الشعوبية" من القبر الذي دفنت فيه. هما وأشياعهما وجلّهم مدرسون سوريون ولبنانيون وفلسطينيون انتدبوا للتدريس في ثانويات العراق وتمّ انتقاؤهم بعناية. وكان أوّل من رُمي بالشعوبية الخصوم الشيعة في عالم الصحافة والوظيفة والفكر، والتاريخ العربيّ الذي ميزّ الفرس بهذه التهمة خاصّة. سَهل على القوميين تأليف المعادلة بالشكل التالي:

لما كان الشعوبيون إيرانيين – وبما أن الإيرانيين شيعة – إذن فالشيّعة هم شعوبيون(٤٣)

تلك كانت البداية. إذ ما عتمت التهمة بالشعوبية (باعتبارها عند القوميين منقصةً وعاراً) أن انداحت الى غير القوميين عامة. أولئك الذين يعتبرونهم خطراً على الفكر القومي، سيّما اليسار الديمقراطي، واليسار الماركسي الإشتراكي بعد أن تصدر ميادين العمل السياسي العراقي.

إن أمثال هذه العقائد السياسية في المرحلة التي نوهنا عنها، لم تكن قد دخلت المعترك السياسي بشكل جديّ. ولم تكن ذات خطورة على النشاط القوميّ يومذاك. وأولئك النفر القليل الذي كان يؤمن بالديمقراطية وبوطن عراقي مثلما يؤمن المصريون بوطن مصري ما كانوا ليخرجوا عن ضمّ أصواتهم الى الكتل القوميّة أو المشاركة في الفعاليات السياسيّة ذات الطابع العام، وقد كادت تكون واحدة.

إلاّ أن قوميي العراق الذين فُتنوا بالنظام الفاشيّ وبما حققّه من نجاح على الصعيد المحليّ. ما لبثوا أن سلكوا فيه وفي صنوه النظام النازي كسائر قوميي البلاد الناطقة بالعربية – طريق اللاعودة. طريق كان سيجر الوبال على الشعوب العربيّة. ويصيب الفكرة القومية والعروبة بطعنات متداركة قاتلة حتى لاتقوم لها بعدها قائمة. وبكل ما جناه زعماؤها على شعوبهم وعلى الشعوب الأخرى. وهو ما سنبسطه بتفصيل.

(٤٣) ان التقدم الذي حصل في الدراسات عن متغيرات الكفاح القومي أدى الى تعديل في نظريته. فقد أظهر التعمق والتأمل الحر في دراسة تاريخ العرب ودراسة تاريخ التشيّع ومنه الاسماعيلية أن هاتين الحركتين الدينيتين – السياسيتين لم تكونا فارسيتي الأصل. وأصل التشيّع ومبدؤه في العراق. والخلافة الفاطمية في مصر حققت نجاحاً عظيماً وبنت امبراطورية في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا. حتى الفرقة الاسماعيلية من التشيّع التي أنشأها الفارسي (حسن ابن الصباح) في إيران ونشرها بالإيرانيين فقد لقيت انتشاراً واسعاً بين عرب سورية بل حتى القبائل التركمانية المهاجرة الى الشرق الأدنى من أواسط آسيا. لذلك فالقومية لايمكن أن ننظر اليها في حالات عديدة – بمثابة قاعدة تبنى عليها إرهاصات وتحولات تاريخية عظيمة الأثر.

GEORGIS FAT-hulla

AN OUTLOOK
ON
THE FLOW AND EBB
OF THE ARAB NATIONALISM
UP TO 1970
(HISTORY AND ANALIZATION)

WITH
LIGHTS ON THE ASSYRIAN QUESTION
(THE AUGUST 1933 MASSACRES)

TOM. I.: DIFFICULT LABOUR

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني